

الرِّيَاضُ الْمَدِينِيَّةُ
عَلَى

شَرْحُ الْعَقِيدَةِ الطَّائِفِيَّةِ

تَأليف

الإمام الفاضل علي بن علي بن محمد بن أبي العزلة الدمشقي

تفليق

فضيلة الشيخ الدكتور

عبد الله بن عبد الرحمن بن عبد الله الطبري

ضريح أعمارته وتآزر عليه وله النشر

الدكتور طارق بن محمد بن عبد الله الطبري

الجزء الثاني

دار الصبيح
للنشر والتوزيع



حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٣١ هـ - ٢٠١٠ م

دار الصحوة للنشر والتوزيع

هاتف ٤٢٦٢٩٤٥ - ٤٢٥١٤٥٩ فاكس ٤٢٤٥٧٤٤

المركز الرئيسي ، الرياض - شارع السعودي العام

ص. ب. ٤٩٦٧ الرمزاثيريدي ١١٤١٢

الملحكة العربية السعودية

فرع القصيم ، عنيزة ، امام جامع الشيخ (بن عثمان) بركة الله

هاتف ٣٦٢٤٤٢٨ تليفاكس ٣٦٢١٧٢٨

الرِّيَاضُ النَّدِيَّةُ
عَلَى

شَرْحُ الْعَقِيدَةِ الطَّائِفَةِ

تَأَلَّفَ

الإمام القاضِي عَلِيُّ بْنُ عَلِيٍّ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ أَبِي الْعِزِّ الدَّمَشَقِيِّ

تَعْلِيقٌ

فضيلة الشيخ الدكتور

عبد الله بن عبد الرحمن بن عبد الله الطبريزي

خرج أمارته وعلم عليه ربه وللشرف

الدكتور طارق بن محمد بن عبد الله الخوري

الجزء الثاني

دار الصبيح
للنشر والتوزيع

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قال الطحاوي:

وَإِنَّ الْقُرْآنَ كَلَامُ اللَّهِ، مِنْهُ بَدَأَ بِلَا كَيْفِيَّةٍ قَوْلًا، وَأَنْزَلَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَحْيًا،
وَصَدَّقَهُ الْمُؤْمِنُونَ عَلَى ذَلِكَ حَقًّا، وَأَيَّقَنُوا أَنَّهُ كَلَامُ اللَّهِ تَعَالَى بِالْحَقِيقَةِ، لَيْسَ
بِمَخْلُوقٍ كَكَلَامِ الْبَرِيَّةِ. فَمَنْ سَمِعَهُ فَرَعَمَ أَنَّهُ كَلَامُ الْبَشَرِ فَقَدْ كَفَرَ، وَقَدْ ذَمَّهُ
اللَّهُ وَعَابَهُ وَأَوْعَدَهُ بِسَقَرٍ، حَيْثُ قَالَ تَعَالَى: ﴿سَأَصْلِيهِ سَقَرٌ﴾ [المدثر: ٢٦]، فَلَمَّا
أَوْعَدَ اللَّهُ بِسَقَرٍ لِمَنْ قَالَ: ﴿إِنَّ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ﴾ [المدثر: ٢٥]، عَلِمْنَا وَأَيَّقْنَا أَنَّهُ
قَوْلُ خَالِقِ الْبَشَرِ، وَلَا يُشَبَّهُ قَوْلَ الْبَشَرِ.

قال الشارح:

هَذِهِ قَاعِدَةٌ شَرِيفَةٌ، وَأَصْلٌ كَبِيرٌ مِنْ أَصُولِ الدِّينِ، ضَلَّ فِيهِ طَوَائِفُ كَثِيرَةٌ
مِنَ النَّاسِ. وَهَذَا الَّذِي حَكَاهُ الطَّحَاوِيُّ. رَحِمَهُ اللَّهُ. هُوَ الْحَقُّ الَّذِي دَلَّتْ عَلَيْهِ
الْأَدِلَّةُ مِنَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ لِمَنْ تَدَبَّرَهُمَا، وَشَهِدَتْ بِهِ الْفِطْرَةُ السَّلِيمَةُ الَّتِي لَمْ تُغَيَّرْ
بِالشُّبُهَاتِ وَالشُّكُوكِ وَالْإِرَاءِ الْبَاطِلَةِ.

وَقَدْ افْتَرَقَ النَّاسُ فِي مَسْأَلَةِ الْكَلَامِ عَلَى تِسْعَةِ أَقْوَالٍ:

أَحَدُهَا: أَنَّ كَلَامَ اللَّهِ هُوَ مَا يَنْبَغُ عَلَى النُّفُوسِ مِنْ مَعَانِي، إِمَّا مِنَ الْعَقْلِ
الْفَعَالِ عِنْدَ بَعْضِهِمْ، أَوْ مِنْ خَيْرِهِ، وَهَذَا قَوْلُ الصَّابِئِيَّةِ وَالْمُتَفَلِّسِيَّةِ.

وَدَانِيهَا: أَنَّهُ مَخْلُوقٌ خَلَقَهُ اللَّهُ مِنْفَصِلًا عَنْهُ، وَهَذَا قَوْلُ الْمُعْتَرِئِيَّةِ.

وَدَانِيهَا: أَنَّهُ مَعْنَى وَاحِدٌ فَائِئٌ بِذَاتِ اللَّهِ، هُوَ الْأَمْرُ وَالنَّهْيُ وَالْخَبْرُ

وَالِاسْتِخْبَارُ، وَإِنْ حُبَّرَ عَنْهُ بِالْعَرَبِيَّةِ كَانَ قُرْآنًا، وَإِنْ حُبَّرَ عَنْهُ بِالْعَبْرِيَّةِ كَانَ تَوْرَةً،
وَهَذَا قَوْلُ ابْنِ كِلَابٍ وَمَنْ وَافَقَهُ، كَالْأَشْعَرِيِّ وَغَيْرِهِ.

وَرَابِعُهَا: أَنَّهُ حُرُوفٌ وَأَصْوَاتٌ أَزَلِيَّةٌ مُجْتَمِعَةٌ فِي الْأَزْلِ، وَهَذَا قَوْلُ طَائِفَةٍ
مِنْ أَهْلِ الْكَلَامِ وَمِنْ أَهْلِ الْحَدِيثِ.

وَحَامِسُهَا: أَنَّهُ حُرُوفٌ وَأَصْوَاتٌ، لَكِنَّ تَكَلَّمَ اللَّهُ بِهَا بَعْدَ أَنْ لَمْ يَكُنْ
مُتَكَلِّمًا، وَهَذَا قَوْلُ الْكُرَّامِيِّ وَغَيْرِهِمْ.

وَسَادِسُهَا: أَنَّ كَلَامَهُ يَرْجِعُ إِلَى مَا يُجَدِّدُهُ مِنْ عِلْمِهِ وَإِرَادَتِهِ الْقَائِمِ بِدَاتِهِ،
وَهَذَا يَقُولُهُ صَاحِبُ «الْمُعْتَبَرِ»^(١)، وَيَوْمِلُ إِلَيْهِ الرَّازِيُّ فِي «الْمَطَالِبِ الْعَالِيَةِ».

وَسَابِعُهَا: أَنَّ كَلَامَهُ يَنْصَمِّنُ مَعْنَى قَائِمًا بِدَاتِهِ هُوَ مَا خَلَقَهُ فِي غَيْرِهِ، وَهَذَا
قَوْلُ أَبِي مَنْصُورِ الْمَائِرِيَّيِّ.

وَتَامِنُهَا: أَنَّهُ مُشْتَرِكٌ بَيْنَ الْمَعْنَى الْقَدِيمِ الْقَائِمِ بِالذَّاتِ وَبَيْنَ مَا يَخْلُقُهُ فِي غَيْرِهِ
مِنَ الْأَصْوَاتِ، وَهَذَا قَوْلُ أَبِي الْمَعَالِي وَمَنْ تَبِعَهُ.

وَتَاسِعُهَا: أَنَّهُ تَعَالَى لَمْ يَزَلْ مُتَكَلِّمًا إِذَا شَاءَ وَمَتَى شَاءَ وَكَيْفَ شَاءَ، وَهُوَ
يَتَكَلَّمُ بِهِ بِصَوْتٍ يُسْمَعُ، وَأَنَّ نَوْعَ الْكَلَامِ قَدِيمٌ وَإِنْ لَمْ يَكُنِ الصَّوْتُ الْمُسَمَّنُ
قَدِيمًا، وَهَذَا الْمَأْمُورُ عَنْ أُمَّةِ الْحَدِيثِ وَالسُّنَّةِ.

وَقَوْلُ الشَّيْخِ - رَحِمَهُ اللَّهُ -: (وَإِنَّ الْقُرْآنَ كَلَامُ اللَّهِ)، إِنَّ بِنُكْسَرِ الْهَمْزَةِ،

(١) هو: «المعتبر في الحكمة»، وصاحبه هو: أبو البركات بن ملكا الطيب الفيلسوف. انظر:

هدية العارفين أسماء المؤلفين (٦/٥٠٦).

عَطْفٌ عَلَى قَوْلِهِ: (إِنَّ اللَّهَ وَاحِدٌ لَا شَرِيكَ لَهُ)، ثُمَّ قَالَ: (وَإِنْ جَعَلْنَا عَبْدَهُ الْمُصْطَفَى). وَكَسَّرَ هَمْزَةً إِنَّ فِي الْمَوَاضِعِ الثَّلَاثَةِ، لِأَنَّهَا مَعْمُولُ الْقَوْلِ، أَخْبَنِي قَوْلَهُ فِي أَوَّلِ كَلَامِهِ: (نَقُولُ فِي تَوْجِيدِ اللَّهِ).

قال الشيخ:

بدأ الشارح.. رحمه الله.. الكلام عن القرآن وأنه كلام الله، وسبب ذلك أن صفة كلام الله من أقدم المسائل التي أنكرتها المبتدعة، وكان أول من اشتهر بإنكار أن الله يتكلم، هو الجعد بن درهم شيخ الجهم بن صفوان، وقد قتله خالد القسري في يوم عيد الأضحى، حيث قال: «ضحوا، تقبل الله ضحاياكم، فإني مضحٌ بالجعد بن درهم، فإنه زعم أن الله لم يكلم موسى تكليماً ولم يتخذ إبراهيم خليلاً»^(١)، وأنكر الجهم وكذا شيخه الجعد أن يكون الله متكليماً، وأن يكون القرآن كلام الله، وادّعى أن الكلام لا يحصل إلا من المخلوقين، وأن الكلام يحتاج إلى هوات ونفَس ولسان وشفتين وأسنان وثثة... ونحو ذلك، فادّعى أن ذلك لا يتصور إلا من المخلوق، وأن الخالق لا يمكن أن يتكلم، فلما أنكر أن الله تعالى متكلمٌ جيء بالقرآن، وقيل: هذا القرآن ماذا تقول فيه؟ أليس هو كلام الله؟ كما قال تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلِمَ اللَّهِ﴾ [الفتح: ١٥]،

(١) تقدم ترجمته (١/٤٨).

وكما سماه قولاً، بقوله: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا﴾ [النساء: ١٢٢]، وكما ينسب القول إليه بقوله: ﴿قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمَ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾ [المائدة: ١١٩]، ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يٰعِيسَى﴾ [المائدة: ١١٦]، ونحو ذلك من النصوص التي فيها إثبات أن الله قال، وأن الله يقول الحق وهو يهدي السبيل، وأنه كلم موسى تكليماً، وأن هذا القرآن كلام الله في قوله: ﴿حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلِمَ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٦]، وأن كلمات الله قديمة النوع. حادثة الأحاد، وأنها لا نهاية لها، كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدادًا لَكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ نُنْفِذَ كَلِمَاتِ رَبِّي﴾ [الكهف: ١٠٩]، وكما في قوله: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَاتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام: ١١٥]، وغير ذلك من النصوص الكثيرة؛ فلما جيء بهذه النصوص تحيّر ماذا يقول، فلم يجد بداً من أن يقول: إن القرآن مخلوق، وإن الله خلقه كما خلق الإنسان والأجرام والكواكب والحيوانات والنباتات، وأنكر أن يكون كلام الله تعالى، وسيأتي مناقشة قوله وما استدلل به، وبيان ضعف تلك الأدلة.

ولما تكلم الجعد ثم الجهم، ثم تلميذهما بشر المرّيسي، ثم غيرهم من المتدعة، كانوا في أول الأمر ضعفاء مقهورين، لا يلتفت إلى قولهم، ولا أحد ينخدع بهم، ولكن حدث في خلافة المأمون أنه قرّب بعضهم فزينوا له مذهبهم، وبيّنوا لهم أنهم أولى بالصواب، وأن القرآن مخلوق، ودعّوه إلى أن يمتحن الناس بذلك، فأطاعهم الخليفة المأمون ووافقهم، وحصلت بذلك فتنة عظيمة وامتحن فيها أئمة الإسلام، ومنهم الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله، وهو

الذي صمد أمام الفتنة وصبر، وأوذى في ذات الله، ومات المأمون قبل أن يُرتى بالإمام أحمد وتولى بعده أخوه المعتصم، وهو الذي تولى ضرب الإمام أحمد، فأمر بضربه بين يديه، وأطال حبسه ولم يزل على ذلك إلى أن توفي المعتصم، وتولى بعده ولده الواثق، فخفت الفتنة في زمنه، ولكن لم يزل على عقيدة أبيه فيما يظهر، ثم بعده تولى ولده المتوكل، وهو الذي نصر السنة وقرب أهلها وأبعد المبتدعة.

والحاصل: أن مسألة القرآن والقول فيه قديمة، حدثت في أول القرن الثاني، ثم استفحلت في أول القرن الثالث، وتمكنت وكثر الخوض في مسألة القرآن وما هو، وكذلك في مسألة كلام الله تعالى وكيف يتكلم، وتشعبت المذاهب - كما ذكر الشارح - إلى تسعة أقوال، كلها فيما يتعلق بالقرآن. والصواب منها هو القول التاسع الأخير الذي هو قول أهل السنة، وهو: إثبات أن الله تعالى تكلم ويتكلم إذا شاء، وأن كلامه قديم النوع، حادث الأحاد، وأن كلامه يُسمع؛ يسمعه من يشاء من خلقه، كما أسمع موسى لَمَّا ناداه، قال تعالى: ﴿وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى﴾ [الشعراء: ١٠]، والنداء لا بد أن يكون مسموعاً، وكما ناجاه في قوله: ﴿وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا﴾ [مريم: ٥٢]، ولا بد أنه سمع مناجاة ربه، وهكذا أيضاً كلم نبينا ﷺ لَمَّا أُسرى به وأوحى إليه منه إليه، وهكذا.

فإذاً يعتقد المسلمون بأن كلام الله قديم النوع، حادث الأحاد، وأن هذا القرآن هو كلام الله حقاً؛ حروفه ومعانيه، ليس كلامه الحروف دون المعاني

ولا المعاني دون الحروف، بل كلها كلام الله تعالى كما شاء. ويعتقدون أيضًا بأنه لم ينزل متكلمًا، وما ذلك إلا أن الكلام صفة كمال، وتركها أو فقدها صفة نقص، ويلزم من فقدها أو نفيها نفي التشريع؛ إذ لو كان الله تعالى غير متكلم، فمن أين يُعرف أنه أمر أو نهي، ومن أين يُعرف أنه يجب هذا ويبغض هذا، ومن أين يُعرف أنه أنزل هذا أو لم ينزله؟ فلا بد أنه متكلم. وكل عاقل يثبت صفة الكلام لله تعالى؛ لأنه موصوف بصفات الكمال، ومنزه عن صفات النقص والعيوب.

وأما قول غلاة الصابئة والفلاسفة ونحوهم: إنه ما يفيض من العقل الفياض، والعقل الفياض عندهم كأنه الخالق، وما يقع في النفوس أو تتحرك به العقول يسمونه فيضًا من العقل الفياض، فعندهم - على هذا - كل شيء في الوجود فهو من قول الله ومن كلامه، ولذا طبق ذلك أهل الاتحاد، حيث يقول قائلهم^(١):

وَكُلُّ كَلَامٍ فِي الْوُجُودِ كَلَامُهُ سِوَاءَ عَائِنَا نَشْرُهُ وَنَفْسَانُهُ

وهذا من محل المحال وأبطل الباطل؛ لأنه يلزم منه أن يكون كلام الكفار كلام الله، وكلام الإلحاد والكفر والزندقة والنفاق ونحو ذلك - عند هؤلاء - أنه كلام الله.

(١) هو ابن عربي صاحب الفصوص، ذكر ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية في منهاج السنة النبوية

(٢/٣٧٢)، وفي الرد على البكري (ص ٢١٣)، وسيدكره ابن أبي العز في شرحه قريبًا.

وأما قول المعتزلة: إنه مخلوق، وإن الله خلقه كما خلق البشر وكما خلق حركات البشر، فهذا قول باطل ستأتي مناقشته.

وأما قول ابن كلاب - وكذلك الأشعريون ونحوهم - أنه معني واحد قائم بنفسه، إن عبّر عنه بالعربية كان قرآنا، وإن عبّر عنه بالعبرية كان تورا... إلخ، فهذا أيضا قول باطل، وذلك لأنه يلزم منه أن تكون معنى التوراة هي معنى القرآن، ومعنى القرآن هو معنى الإنجيل، ليس بينهما فرق، وهذا معلوم بطلانه؛ فإن في التوراة أحكاما ومواعظ لم ترد في القرآن بلفظها، وكذلك في التوراة أشياء ليست في الإنجيل، وفي الإنجيل أشياء ليست في التوراة، فهذا دليل على بطلان هذا القول الذي يدعون أنه معني واحد قائم بذات الله تعالى.

وأما الأقوال الأخرى: الذين يدعون أنه حروف وأصوات أزلية - أي: قديمة - فمقتضى ذلك أن الله لا يتكلم الآن، وأنه تكلم في وقت، ثم انقطع من الكلام - تعالى الله عن ذلك - وأشبه ذلك من الأقوال.

فالحاصل: أننا نعتقد أن القرآن الذي أنزله الله تعالى على نبيه ﷺ وحيًا من الله، وتلاه المسلمون وقرؤوه وتعبدوا بتلاوته، وصدّقوا بأنه قول الله، ليس قول البشر، نعتقد أن هذا هو كلام الله حقا، وليس كلام غيره، ويأتينا - إن شاء الله - مناقشة أقوال المخالفين.

قال الشارح:

وَقَوْلُهُ: (كَلَامُ اللَّهِ مِنْهُ بَدَا بِلَا كَيْفِيَّةٍ قَوْلًا)، رَدُّ عَلَى الْمُعْتَزَلَةِ وَغَيْرِهِمْ، فَإِنَّ الْمُعْتَزَلَةَ تَزْعُمُ أَنَّ الْقُرْآنَ لَمْ يَبْدَأْ مِنْهُ، كَمَا تَقَدَّمَ حِكَايَةُ قَوْلِهِمْ، قَالُوا: وَإِضَافَتُهُ إِلَيْهِ إِضَافَةٌ تَشْرِيْفٍ، كَبَيْتِ اللَّهِ، وَنَاقَةِ اللَّهِ، يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنِ مَوَاضِعِهِ! وَقَوْلُهُمْ بَاطِلٌ.

فَإِنَّ الْمُضَافَ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى مَعَانٍ وَأَعْيَانٍ، فَإِضَافَةُ الْأَعْيَانِ إِلَى اللَّهِ لِلتَّشْرِيفِ، وَهِيَ مَخْلُوقَةٌ لَهُ، كَبَيْتِ اللَّهِ، وَنَاقَةِ اللَّهِ، بِخِلَافِ إِضَافَةِ الْمَعَانِي، كَعِلْمِ اللَّهِ، وَقُدْرَتِهِ، وَعِزَّتِهِ، وَجَلَالِهِ، وَكِبَرِيَّاتِهِ، وَكَلَامِهِ، وَحَيَاتِهِ، وَعُلُوِّهِ، وَقَهْرِهِ، فَإِنَّ هَذَا كُلَّهُ مِنْ صِفَاتِهِ، لَا يُمَكِّنُ أَنْ يَكُونَ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ مَخْلُوقًا.

وَالْوُصْفُ بِالتَّكْلُمِ مِنْ أَوْصَافِ الْكَمَالِ، وَضِدُّهُ مِنْ أَوْصَافِ النِّقْصِ. قَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَخَذَ قَوْمَ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَأْسُخَاوًا الَّذِي يَرَوْنَ أَنَّهُ لَا

يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٨]، فَكَانَ

عِبَادُ الْعِجْلِ. مَعَ كُفْرِهِمْ. أَعْرَفَ بِاللَّهِ مِنَ الْمُعْتَزَلَةِ، فَإِنَّهُمْ لَمْ يَقُولُوا لِمُوسَى:

وَرَبُّكَ لَا يَتَكَلَّمُ أَيضًا. وَقَالَ تَعَالَى عَنِ الْعِجْلِ أَيضًا: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّ إِلَهُهُمْ

قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ صَرًا وَلَا نَقْمًا﴾ [طه: ٨٩]، فَعَلِمَ أَنَّ نَفْسِي رُجُوعِ الْقَوْلِ وَنَفْسِي

التَّكَلُّمِ نَقْصٌ يُسْتَدَلُّ بِهِ عَلَى عَدَمِ الْوَهْيَةِ الْعِجْلِ.

وَعَايَةُ شُبُهَتِهِمْ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ: يَلْزَمُ مِنْهُ التَّشْبِيهُ وَالتَّجْسِيمُ، فَيُقَالُ لَهُمْ: إِذَا

قُلْنَا أَنَّهُ تَعَالَى يَتَكَلَّمُ كَمَا يَلِيقُ بِجَلَالِهِ انْتَفَتِ شُبُهَتُهُمْ. أَلَا تَرَى أَنَّهُ تَعَالَى قَالَ:

﴿ الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَنَشْهَدُ أَرْجُلَهُمْ ﴾ [يس: ٦٥]، فَسَخَّرْنَا نُؤْمِنُ أَمَّا تَتَكَلَّمُ، وَلَا نَعْلَمُ كَيْفَ تَتَكَلَّمُ. وَكَذَا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا جُؤدِجُهُمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ [فصلت: ٢١]، وَكَسَدَ لِكَ تَسْبِيحُ الْحَصَى ^(١) وَالطَّعَامِ ^(٢)، وَسَلَامُ الْحَبِيرِ ^(٣)، كُلُّ ذَلِكَ بِإِلَاقِمٍ يُخْرَجُ مِنْهُ الصَّوْتُ الصَّاعِدُ مِنَ الرَّئِيَّةِ، الْمُعْتَمِدُ عَلَىٰ مَقَاطِعِ الْحُرُوفِ.

وإلى هذا أشار الشَّيْخُ - رَحِمَهُ اللَّهُ - بِقَوْلِهِ: (مِنْهُ بَدَأَ بِإِلَاقِمٍ قَوْلًا)، أَي: ظَهَرَ مِنْهُ، وَلَا نَدْرِي كَيْفِيَّةَ تَكَلُّمِهِ بِهِ. وَأَكَّدَ هَذَا الْمَعْنَى بِقَوْلِهِ: (قَوْلًا)، أَي: بِالْمَصْدَرِ الْمُعْرَفِ لِلْحَقِيقَةِ، كَمَا أَكَّدَ اللَّهُ تَعَالَى التَّكْلِيمَ بِالْمَصْدَرِ الْمُنْبَتِ النَّسَائِي لِلْمَجَازِ فِي قَوْلِهِ: ﴿ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴾ [النساء: ١٦٤]، فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ!؟

وَلَقَدْ قَالَ بَعْضُهُمْ لِأَبِي عَمْرٍو بِنِ الْعَلَاءِ - أَحَدِ الْقُرَاءِ السَّبْعَةِ -: أُرِيدُ أَنْ

(١) كما في حديث أبي ذر رضي الله عنه، قال: «... فَتَنَاقَلَ النَّبِيُّ سَبْعَ حَصِيَّاتٍ أَوْ تِسْعَ حَصِيَّاتٍ فَسَبَّحَنَ فِي يَدَيْهِ حَتَّى سَمِعَتْ هَنَنْ حَيْنِنَا كَحَيْنِنِ النَّحْلِ، ثُمَّ وَضَعَهُنَّ فَخَرَسُنَّ». أخرجه البزار (٤٣١/٩)، والطبراني في الأوسط (٢٤٥/٤)، والبيهقي في دلائل النبوة (٦/٦٤).

(٢) كما في حديث ابن مسعود رضي الله عنه، قال: «وَلَقَدْ كُنَّا نَسْمَعُ تَسْبِيحَ الطَّعَامِ وَهُوَ يُؤَكِّلُ». أخرجه البخاري (٣٥٧٩).

(٣) كما في حديث جابر بن سمرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنِّي لَأَعْرِفُ حَبِيرًا بِمَكَّةَ كَانَ يُسَلِّمُ عَلَيَّ قَبْلَ أَنْ أُبْعَثَ، إِنِّي لَأَعْرِفُهُ الْآنَ». أخرجه مسلم (٢٢٧٧).

تَقْرَأُ: وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى، بِنَضْبِ اسْمِ اللَّهِ؛ لِيَكُونَ مُوسَى هُوَ الْمُتَكَلِّمُ لَا اللَّهُ! فَقَالَ أَبُو عَمْرٍو: هَسْبُ أُنِّي قَرَأْتُ هَذِهِ الْآيَةَ كَذَا، فَكَيْفَ تَصْنَعُ بِقَوْلِهِ نَعَالَى: ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ﴾ [الأعراف: ١٤٣]! فَبُهِتَ الْمُعْتَزِلِيُّ!

قال الشيخ:

عرفنا أن صفة الكلام صفة شرفٍ وكمال، وفيها صفة نقص، واستدل الشارح بقوله تعالى في حكاية قصة العجل الذي عبده أصحاب موسى. قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَرَوْنَ أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ﴾ [الأعراف: ٤٨]، وقال في موضع آخر: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُ لَا يُرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ [طه: ٨٩]، وَبَحْثُهُمْ موسى وكذلك هارون - عليها السلام - وقالوا: كيف تعبدون من لا يتكلم؟ كيف تعبدون من لا يكلمكم؟ فلم يقولوا كما قالت المعتزلة، لو كان الله تعالى لا يتكلم لقال قوم موسى لموسى: وربُّك أيضًا لا يتكلم. ولكنهم أعقل من المعتزلة.

فَعُرِفَ بِذَلِكَ أَنَّ صِفَةَ الْكَلَامِ صِفَةُ كِمَالٍ وَشَرَفٍ، وَأَنَّهَا ثَابِتَةٌ لِلَّهِ تَعَالَى عَنِ طَرِيقِ التَّوَاتُرِ؛ لِكثْرَةِ الْأَدْلَةِ الَّتِي تَبَيَّنْهَا، وَالَّتِي اتَّضَحَتْ دَلَالَتُهَا مِنْ تَمَلُّكِ النُّصُوصِ. وَفِي هَذَا أَنَّ الْمُعْتَزِلَةَ الَّذِينَ ادَّعَوْا أَنَّ الْكَلَامَ مَخْلُوقٌ، وَأَنَّهُ كَسَائِرِ الْمَخْلُوقَاتِ، خَلَقَهُ كَمَا خَلَقَ الْإِنْسَانَ وَنَحْوَهُ، أَنَّهُمْ لَمْ يَعْتَبِرُوا بِالْأَدْلَةِ الَّتِي بَيْنَ أَيْدِيهِمْ، وَلَمْ يَنْظُرُوا فِي هَذِهِ النُّصُوصِ الَّتِي دَلَّالَتُهَا وَاضِحَةٌ.

وفي القصة التي أوردها الشارح عن ذلك المعتزلي الذي جاء إلى أبي عمرو ابن العلاء أحد القراء السبعة من أهل العراق، وقال له: اقرأ هذه الآية: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾ [النساء: ١٦٤]، بنصب لفظ الجلالة (الله)؛ ليكون موسى هو المكلم ولا يكون الله متكلماً، ولكن أبا عمرو - رحمه الله - بين له أن ذلك لا يفيدك، لو قرأنا أنا وأنت هذه الآية «وكلم الله» لجاؤنا آية لا يمكن أن نحرفها، وهي قول الله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ﴾ [الأعراف: ١٤٣]، فإنها صريحة في أن الربَّ تعالى هو المكلم، وهذا بهت ذلك المعتزلي، ولم يرد شيئاً.

وقد اشتهر أن جمعاً من المعتزلة، أولوا التكليم هنا بأنه التجريح، فقالوا: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾، أي: جرّحه؛ لأن الكلم: الجرح، كما في قوله ﷺ: «مَا مِنْ مَكْلُومٍ يُكَلَّمُ»^(١)، أي: ما من مجروح يوم القيامة إلا وجاء يوم القيامة وكلمه يدمي. فادّعوا أن قوله: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى﴾، يعني: جرّحه بأظافر الحكمة، ولكن هذا القول باطل؛ فإن النصوص دالة على أنه هو الكلام المسموع؛ ولذا أثبت الله أنه ناداه في قوله: ﴿وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى﴾ [الشعراء: ١٠]، ﴿إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدِّسِ طُوًى﴾ [النازعات: ١٦]، وناجاه:

(١) أخرجه البخاري (٥٥٣٣) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وأخرجه مسلم (١٨٧٦) بلفظ: «مَا مِنْ كَلِمٍ يُكَلَّمُ...».

﴿وَنَدَيْنَهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا﴾ [مريم: ٥٢]، والمناجاة والنداء لا يكونان إلا بكلام مسموع، فكيف يؤولون ذلك ويحرفونه تحريفًا لفظيًا أو معنويًا؟

وكذلك ثبت أن الله تعالى خاطب موسى منه إليه، وذكر خطابه في آيات؛ كقوله: ﴿أَذْهَبَ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى﴾ [طه: ٢٤]، وقوله: ﴿أَذْهَبَ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى﴾ (٤٣) ﴿فَقَوْلًا لَهُ قَوْلًا لِنَا أَلَعَلَّهِ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾ [طه: ٤٣، ٤٤]، وقوله: ﴿قَالَ لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى﴾ [طه: ٤٦]، فالله تعالى خاطبه وأسمعه ذلك الخطاب، فلا بد أن يكون الخطاب بكلام مسموع، ولا يستطيع المعتزلة أن يحرفوا ذلك.

فالحاصل: أن تأويلاتهم وحرصهم على صرف الدلالات لا يفيدهم؛ لكثرة الأدلة.

قال الشارح:

وَحَمَّ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ مِنْ دَلِيلٍ عَلَى تَكْلِيمِ اللَّهِ تَعَالَى لِأَهْلِ الْجَنَّةِ
وَعَزِيرِهِمْ. قَالَ تَعَالَى: ﴿سَلَّمْتُ قَوْلًا مِنْ رَبِّي رَجِيمًا﴾ [يس: ٥٨]، فَعَنْ جَابِرٍ رضي الله عنه،
قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «بَيْنَا أَهْلُ الْجَنَّةِ فِي نَعِيمٍ إِذْ سَطَعَ لَهُمْ نُورٌ، فَرَفَعُوا
أَبْصَارَهُمْ، فَإِذَا الرَّبُّ جَلَّ جَلَالُهُ قَدْ أَشْرَفَ عَلَيْهِمْ مِنْ فَوْقِهِمْ، فَقَالَ: السَّلَامُ
عَلَيْكُمْ يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ، وَهُوَ قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿سَلَّمْتُ قَوْلًا مِنْ رَبِّي رَجِيمًا﴾، فَلَا
يَلْتَفِتُونَ إِلَى شَيْءٍ مِمَّا هُمْ فِيهِ مِنَ النَّعِيمِ، مَا دَامُوا يَنْظُرُونَ إِلَيْهِ، حَتَّى يَخْتَجِبَ
عَنْهُمْ، وَتَبَقِيَ بَرَكَتُهُ وَنُورُهُ». رَوَاهُ ابْنُ مَاجَةَ ^(١) وَغَيْرُهُ ^(٢).

فِي هَذَا الْحَدِيثِ إِثْبَاتُ صِفَةِ الْكَلَامِ، وَإِثْبَاتُ الرُّؤْيَةِ، وَإِثْبَاتُ الْعُلُوقِ،
وَكَيفَ يَصِحُّ مَعَ هَذَا أَنْ يَكُونَ كَلَامَ الرَّبِّ كُلُّهُ مَعْنَى وَاحِدًا، وَقَدْ قَالَ تَعَالَى:
﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا
يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ﴾ [آل عمران: ٧٧]، فَأَهَانَهُمْ بِتَرْكِ تَكْلِيمِهِمْ، وَالْمُرَادُ
أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ تَكْلِيمَ تَكْرِيمٍ، وَهُوَ الصَّحِيحُ، إِذْ قَدْ أَخْبَرَ فِي الْآيَةِ الْآخِرَى أَنَّهُ
يَقُولُ لَهُمْ فِي النَّارِ: ﴿اخْشَوْا فِيهَا وَلَا تَكَلِّمُونِ﴾ [المؤمنون: ١٠٨]، فَلَوْ كَانَ
لَا يُكَلِّمُ عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ، لَكَانُوا فِي ذَلِكَ هُمْ وَأَعْدَاؤُهُ سَوَاءً، وَلَمْ يَكُنْ فِي تَخْصِيصِ

(١) برقم (١٨٤).

(٢) أخرجه البزار كما في كشف الأستار (٦٧/٣) برقم (٢٢٥٣)، واللالكائي في أصول اعتقاد

أهل السنة (٤٨٢/٣)، والأجري في الشريعة (١٠٢٨/٢).

أَعْدَائِهِ بِأَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ فَائِدَةٌ أَصْلًا.

وَقَالَ الْبُخَارِيُّ فِي صَحِيحِهِ^(١): «بَابُ كَلَامِ الرَّبِّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى مَعَ أَهْلِ الْجَنَّةِ، وَسَاقَ فِيهِ عِدَّةُ أَحَادِيثَ. فَأَفْضَلُ نَعِيمِ أَهْلِ الْجَنَّةِ رُؤْيَا وَجْهِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وَتَكْلِيمُهُ لَهُمْ. فَإِنْكَارُ ذَلِكَ إِنْكَارٌ لِرُوحِ الْجَنَّةِ، وَأَعْلَى نَعِيمِهَا وَأَفْضَلِهِ الَّذِي مَا طَابَتْ لِأَهْلِهَا إِلَّا بِهِ.

قال الشيخ:

وهذا أيضًا نوع من الأدلة، ما حكاه الله تعالى من كلامه لأهل الجنة في عدة آيات، فالله تعالى يذكر أنه يخاطب أهل الجنة، فيقول: ﴿أَدْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ءَامِينَ﴾ [الحجر: ٤٦]، ويقول تعالى مخاطبًا عباده في يوم القيامة: ﴿مَا يَبْدُلُ الْقَوْلَ لَدَىٰ وَمَا أَنَا بِظَلْمٍ لِّلصِّدِّيقِ﴾ [ق: ٢٩]، هذا كلام الله في يوم القيامة، كذلك يحكي الله تعالى أنه إذا دخل أهل الجنة الجنة سمعوا كلام الله، وذلك معنى قوله: ﴿سَلِّمُوا لِلَّذِينَ اتَّخَذْتُمْ مَوَدَّةَ الْحَيَاةِ﴾ [النساء: ٩١]، والقول لا بد أن يكون مسموعًا، فلا بد أن أهل الجنة يسمعون، ولا شك أن سماعهم لكلامه يُعدُّ نعمةً ونعيمًا ولذةً يلتذون بها، فيلتذون بسماع كلام ربهم، كما يلتذون برؤية ربهم، ويتنعمون بكل ذلك، ولكن أهل النار محرومون من الجميع؛ فحُرموا من رؤية ربهم، كما حكى الله

(١) في كتاب التوحيد (٩/١٥١).

عنهم في قوله: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُورُونَ﴾ [المطففين: ١٥]، فصار حجابهم عذاباً لهم، وحرموا من سماع كلام الله، الذي هو كلام نعيم وكلام رحمة لهم، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُعْكَمُهُمُ اللَّهُ﴾ [آل عمران: ٧٧]، يعني: لا يكلمهم كلام رحمة وكلام نعمة.

ففرّق الله بين أهل الجنة وأهل النار بأن هؤلاء يكلمهم وهؤلاء لا يكلمهم، فدل على أن كلام الله تعالى حق وثابت، وأن تركه لكلام هؤلاء عذاب أليم في حقهم.

ولا شك أن الكلام اسم لكل ما يسمعه المكلم المنادى، وأهل الجنة ينادون فيرفعون أنظارهم، فيسمعون كلام الله منه إليهم، وكذلك موسى - عليه السلام - لما ناداه ربه سمع كلام الله تعالى.

وروي - أيضاً - أن الصحابة قالوا: يا رسول الله، أقرب ربنا فتناجيه أم بعيد فتناديه؟ فنزل قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: ١٨٦]^(١)، يعني: أسمعهم وأجيبهم إذا دعوني.

ونزل أيضاً في موسى - عليه السلام - في خصائصه أن الله خصّه بإسماعه

(١) أخرجه الطبري (١٥٨/٢)، وابن أبي حاتم في تفسيره (٣١٤/١). قال الحافظ ابن حجر

في العجائب في بيان الأسباب (٤٣٤/١): «في سنده ضعف».

كلامه، في قوله تعالى: ﴿ قَالَ يَمْوَسِيَّ إِلَىٰ أَصْطَفَيْتُكَ عَلَىٰ النَّاسِ بِرِسَالَتِي وَبِكَلِمِي ﴾ [الأعراف: ١٤٤]، فأخبر بأن كلامه الحق الذي أسمعته موسى أنه من خصائص موسى - عليه السلام - دون غيره من أهل زمانه. وكل ذلك شواهد وأدلة ظاهرة بأن الله تعالى متكلم، وأنه يتكلم إذا شاء، وأن ذلك من صفات الكمال.

قال الشارح:

وَأَمَّا اسْتِدْلَاهُمْ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الرعد: ١٦]، وَالْقُرْآنُ شَيْءٌ، فَيَكُونُ دَاخِلًا فِي عُمُومِ (كُلِّ)، فَيَكُونُ مَخْلُوقًا!! فَمِنْ أَعْجَبِ الْعَجَبِ. وَذَلِكَ: أَنَّ أَفْعَالَ الْعِبَادِ كُلَّهَا عِنْدَهُمْ غَيْرُ مَخْلُوقَةٍ لِلَّهِ تَعَالَى، وَإِنَّمَا يَخْلُقُهَا الْعِبَادُ بِجَمِيعِهَا، لَا يَخْلُقُهَا اللَّهُ، فَأَخْرَجُوهَا مِنْ عُمُومِ (كُلِّ)، وَأَدْخَلُوا كَلَامَ اللَّهِ فِي عُمُومِهَا، مَعَ أَنَّهُ صِفَةٌ مِنْ صِفَاتِهِ، بِهِ تَكُونُ الْأَشْيَاءُ الْمَخْلُوقَةُ، إِذْ بِأَمْرِهِ تَكُونُ الْمَخْلُوقَاتُ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِي ۗ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤]، فَفَرَّقَ بَيْنَ الْخَلْقِ وَالْأَمْرِ، فَلَوْ كَانَ الْأَمْرُ مَخْلُوقًا لَزِمَ أَنْ يَكُونَ مَخْلُوقًا بِأَمْرٍ آخَرَ، وَالْآخَرُ بِآخَرَ، إِلَى مَا لَا نِهَايَةَ لَهُ، فَيَلزِمُ السَّلْسُلُ، وَهُوَ بَاطِلٌ. وَطَرْدُ بَاطِلِهِمْ: أَنْ تَكُونَ جَمِيعُ صِفَاتِهِ تَعَالَى مَخْلُوقَةً، كَالْعِلْمِ وَالْقُدْرَةِ وَغَيْرِهِمَا، وَذَلِكَ صَرِيحُ الْكُفْرِ، فَإِنَّ عِلْمَهُ شَيْءٌ، وَقُدْرَتُهُ شَيْءٌ، وَحَيَاتُهُ شَيْءٌ، فَيَدْخُلُ ذَلِكَ فِي عُمُومِ كُلِّ، فَيَكُونُ مَخْلُوقًا بَعْدَ أَنْ لَمْ يَكُنْ، تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُومًا كَبِيرًا.

وَكَيفَ يَصِحُّ أَنْ يَكُونَ مُتَكَلِّمًا بِكَلَامٍ يَقُومُ بِغَيْرِهِ؟ وَلَوْ صَحَّ ذَلِكَ لَلزِمَ أَنْ يَكُونَ مَا أَحَدَثَهُ مِنَ الْكَلَامِ فِي الْجَمَادَاتِ كَلَامَهُ! وَكَذَلِكَ أَيْضًا مَا خَلَقَهُ فِي الْحَيَوَانَاتِ، لَا يُفَرِّقُ حَيْثُ بَيْنَ نَطْقٍ وَأَنْطَقَ، وَإِنَّمَا قَالَتِ الْجُلُودُ: ﴿أَنْطَقْنَا اللَّهُ﴾ [فصلت: ٢١]، وَلَمْ تَقُلْ: نَطَقَ اللَّهُ، بَلْ يَلزِمُ أَنْ يَكُونَ مُتَكَلِّمًا بِكُلِّ كَلَامٍ خَلَقَهُ فِي غَيْرِهِ، زُورًا كَانَ أَوْ كَذِبًا أَوْ كُفْرًا أَوْ هَدْيَانَا!! تَعَالَى اللَّهُ عَنْ ذَلِكَ. وَقَدْ طَرَدَ

ذَلِكَ الْإِتِّحَادِيَّةُ، فَقَالَ ابْنُ عَرَبٍ:

وَكُلُّ كَلَامٍ فِي الْوُجُودِ كَلَامُهُ سَوَاءٌ عَلَيْنَا نَشْرُهُ وَنِظَامُهُ
وَلَوْ صَحَّ أَنْ يُوصَفَ أَحَدٌ بِصِفَةٍ قَامَتْ بِغَيْرِهِ، لَصَحَّ أَنْ يُقَالَ لِلْبَصِيرِ:
أَعْمَى، وَلِلْأَعْمَى: بَصِيرٌ؛ لِأَنَّ الْبَصِيرَ قَدْ قَامَ وَصَفُ الْعَمَى بِغَيْرِهِ، وَالْأَعْمَى قَدْ
قَامَ وَصَفُ الْبَصِيرِ بِغَيْرِهِ! وَلَصَحَّ أَنْ يُوصَفَ اللَّهُ تَعَالَى بِالصِّفَاتِ الَّتِي خَلَقَهَا فِي
غَيْرِهِ، مِنَ الْأَلْوَانِ، وَالرَّوَائِحِ، وَالطُّعُومِ، وَالطُّوْلِ، وَالْقِصْرِ، وَنَحْوِ ذَلِكَ.

قال الشيخ:

نعرف من هذا أن هذه الصفات التي استدلوا بها واردة عليهم، استدلوا
بقوله تعالى: ﴿اللَّهُ خَلِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الرعد: ١٦]، فقالوا: القرآن شيء، فيكون
مخلوقاً داخلياً في عموم (كل)، فرد عليهم الشارح بأن هذا من أعجب العجب،
وأنكم تقولون: إن أفعال العباد ليست بمخلوقة لله، وتخرجون أفعالكم
وأفعال العباد عن أن تكون مخلوقة لله، فلماذا لم تدخلوها في عموم (كل)، كما
في قوله تعالى: ﴿اللَّهُ خَلِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾، ومع ذلك تدخلون في ذلك صفة من
صفاته، وهو القرآن الذي هو كلام الله، فتدخلون صفته في كونها مخلوقة،
ولا تدخلون أفعالكم ولا حركاتكم في كونها مخلوقة لله، وهذا من العجب.
ثم استدل أيضاً بأنه يلزم من قولهم أن يوصف الله تعالى بالصفات التي
قامت بالمخلوقات؛ وذلك لأنهم يقولون: هذا القرآن خلقه في أفواه العباد، أو

خلقه ثم تكلم العباد به، فهو ليس كلامه، ولكنه خلقه ومع ذلك يضاف إليه، وهذا كلام باطل؛ لأنه يلزم منه - كما ذكر الشارح - أن يكون من تكلم بكلام يوصف به غير المتكلم، فالله تعالى - على زعمهم - ما تكلم، ولكن يقال كلامه وإن لم يكن هو المتكلم به؛ لأن الكلام قام بمخلوقاته، فيكون مضافاً إليه وإن لم يكن به، فيلزم على هذا - كما مر بنا - أن يوصف الأعمى بأنه بصير؛ لأن البصر قد قام بغيره، والبصير يوصف بأنه أعمى؛ لأن العمى قد قام بغيره، وأن يوصف الله بصفات المخلوقات كلها، والمخلوقات توصف بصفات النقص، كالعجز، والجهل، والجنون، والكفر، والفسق، والزنا، والغضب، والإلحاد.. وما أشبه ذلك.

فعلى قولهم هذا، يُقال: إن الله عاجز وجاهل... تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، وعلى منطوقهم ذلك يجوز إضافة هذه الأفعال كلها إلى الله تعالى، وأن تكون الكلمات كلها التي تجري في الخلق من كلام الله، حتى وإن كانت إلحاداً وكفراً وزندقة وسباً وهجاءً وكلاماً قدراً يتعلق بالأوساخ والقاذورات، ونحو ذلك، والجلود تقشعُرُ من هذه الأقوال وحكايتها؛ لبطلانها.

والقول الصحيح: أن القرآن كلام الله تعالى، وأن ما قالوه وما اعتمدوه لا دلالة لهم عليه، فاعتقد أيها المسلم بأن هذا القرآن كلام الله، تكلم به حقاً، منه بدأ وإليه يعود كما شاء، وإن لم نعرف كيفية تكلمه، وكيفية إنزاله وما يتعلق بذلك، بل نعرف ونتحقق بأن الله متكلمٌ بكلام يُسمعُ، وأن من كلامه القرآن وسائر الكتب التي أنزلها على عباده، فإذا اعتقدنا ذلك، فقلنا بهذه الكتب التي

أنزلها وضمّنها شريعته، وضمّنها أمره ونهيه ونحو ذلك، والله تعالى فرّق بين الخلق والأمر في قوله: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤]، فدل ذلك على أن الأمر ليس خلقاً، فالأمر: هو الكلام، والخلق: إيجاد المخلوقات، التي يخلقها الله - جل وعلا - بأمره، يقول تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢]، فالمخلوق يخلق بالكلام؛ لقوله: ﴿كُنْ﴾، الذي هو أمر، ف﴿كُنْ﴾ ليست مخلوقة؛ لكونها من كلام الله، وإنما المخلوق ما يحدثه بها، يعني: ما يخلقه من المخلوقات بقوله: ﴿كُنْ فَيَكُونُ﴾، هذا الصحيح، وكل تشعباتهم وتأويلاتهم بعيدة عن العقل وعن الفطرة التي فطر الله تعالى عليها العباد.

قال الشارح:

وَيَمِثِلُ ذَلِكَ أَلْزَمَ الْإِمَامُ عَبْدَ الْعَزِيزِ الْمَكِّيَّ بَشْرًا الْمَرِيسِيَّ بَيْنَ يَدَيْ الْمَأْمُونِ،
بَعْدَ أَنْ تَكَلَّمَ مَعَهُ مُلْتَزِمًا أَنْ لَا يَخْرُجَ عَنِ نَصِّ التَّنْزِيلِ، وَالزَّمَهُ الْحُجَّةَ، فَقَالَ
بَشْرٌ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، لِيَدْعَ مُطَالِبَتِي بِنَصِّ التَّنْزِيلِ، وَيُنَاطِرِنِي بِغَيْرِهِ، فَإِنْ لَمْ يَدْعُ
قَوْلَهُ وَيَرْجِعْ عَنْهُ، وَيَقْرَأَ بِخَلْقِ الْقُرْآنِ السَّاعَةَ، وَإِلَّا فَدَمِي حَلَالٌ. قَالَ
عَبْدُ الْعَزِيزِ: تَسْأَلُنِي أَمْ أَسْأَلُكَ؟ فَقَالَ بَشْرٌ: أَسْأَلُ أَنْتَ، وَطَمِعَ فِيَّ، فَقُلْتُ لَهُ:
يَلْزَمُكَ وَاحِدَةٌ مِنْ ثَلَاثٍ لَا بُدَّ مِنْهَا: إِمَّا أَنْ تَقُولَ: إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ الْقُرْآنَ. وَهُوَ
عِنَابِي أَنَا كَلَامُهُ. فِي نَفْسِهِ، أَوْ خَلَقَهُ قَائِمًا بِذَاتِهِ وَنَفْسِهِ، أَوْ خَلَقَهُ فِي غَيْرِهِ؟ قَالَ:
أَقُولُ: خَلَقَهُ كَمَا خَلَقَ الْأَشْيَاءَ كُلَّهَا. وَحَادَ عَنِ الْجَوَابِ.

فَقَالَ الْمَأْمُونُ: اشْرَحْ أَنْتَ هَذِهِ الْمَسْأَلَةَ، وَدَعِ بَشْرًا فَقَدْ انْقَطَعَ.

فَقَالَ عَبْدُ الْعَزِيزِ: إِنْ قَالَ: خَلَقَ كَلَامُهُ فِي نَفْسِهِ، فَهَذَا مُحَالٌ؛ لِأَنَّ اللَّهَ
لَا يَكُونُ مُحَالًا لِلْحَوَادِثِ الْمَخْلُوقَةِ، وَلَا يَكُونُ فِيهِ شَيْءٌ مَخْلُوقٌ، وَإِنْ قَالَ: خَلَقَهُ
فِي غَيْرِهِ، فَيَلْزَمُ فِي النَّظَرِ وَالْقِيَاسِ أَنْ كُلَّ كَلَامٍ خَلَقَهُ اللَّهُ فِي غَيْرِهِ فَهُوَ كَلَامُهُ،
فَهُوَ مُحَالٌ أَيْضًا؛ لِأَنَّهُ يُلْزَمُ قَائِلُهُ أَنْ يَجْعَلَ كُلَّ كَلَامٍ خَلَقَهُ اللَّهُ فِي غَيْرِهِ هُوَ كَلَامُ
اللَّهِ! وَإِنْ قَالَ: خَلَقَهُ قَائِمًا بِنَفْسِهِ وَذَاتِهِ، فَهَذَا مُحَالٌ؛ لَا يَكُونُ الْكَلَامُ إِلَّا مِنْ
مُتَكَلِّمٍ، كَمَا لَا تَكُونُ الْإِرَادَةُ إِلَّا مِنْ مُرِيدٍ، وَلَا الْعِلْمُ إِلَّا مِنْ عَالِمٍ، وَلَا يُعْقَلُ
كَلَامٌ قَائِمٌ بِنَفْسِهِ مُتَكَلِّمٌ. فَلَمَّا اسْتَحَالَ مِنْ هَذِهِ الْجِهَاتِ أَنْ يَكُونَ مَخْلُوقًا، عُلِمَ
أَنَّهُ صِفَةٌ لِلَّهِ.

هَذَا مُخْتَصَرٌ مِنْ كَلَامِ الْإِمَامِ عَبْدِ الْعَزِيزِ فِي «الْحَيْدَةِ»^(١).

قال الشيخ:

رسالة «الحيدة» لكتابها عبدالعزیز الكناني، وهي مطبوعة، ذكر فيها أنه لما اشتهر عن بشرٍ المريسي أنه يقول: إن القرآن كلامُ الله، حاول أن يجادله، فذكر أنه لما صلي مرة الجمعة قديم ولده أمام الناس، فسأله بصوت رفيع وقال: يا بني! ما تقول في القرآن، فقال بصوت رفيع: القرآن كلام الله، فلما سُمع قبض عليه؛ لأن ذلك كان زمن فتنةٍ قد افتتن بها خلق كثير، وقد انتشر القول بأن القرآن مخلوق، وهددوا وتوعدوا من يقول بأنه كلام الله.

عند ذلك أحضر بين يدي المأمون، وهو أحد خلفاء بني العباس، وكان ممن دخله كلام المعتزلة وزينوا له، حتى اعتقد ما يقولونه: إن القرآن مخلوق، فلما حضر بين يديه أمره بأن يحضر من يناظره، فأحضر بشرًا المريسي، وهو رأس المعتزلة أو رأس الجهمية في ذلك الزمان، فتناظرا بين يدي المأمون، وكلما أتى بحجة قوية حاد عنها ذلك المعتزليُّ الجهميُّ، فسَمَّى رسالته بـ«الحيدة».

في هذه المقالة ألزمه بإحدى ثلاث: قال له: إذا قلت: إن القرآن مخلوق، فلا بدّ من واحدة من ثلاث: إما أن تقول: إن الله خلق القرآن في ذاته، وإما أن تقول: إنه خلقه في غيره، وإما أن تقول: إنه خلقه مستقلاً بنفسه. فحاد ولم

يجب المرسي، ولم يستطع أن يتخلص، فشرحها الكناني - رحمه الله - وقال: إذا قلت إن الله خلقه في ذاته فهذا محال؛ لأنه يكون محلاً للحوادث، والله تعالى منزّه عن أن يكون محلاً للحوادث، أي أنه: لم يحدث له صفة كانت مفقودة، بل هو قديم بصفاته، كما تقدم في قول المؤلف: (لَيْسَ بَعْدَ خَلْقِ الْخَلْقِ اسْتِفَادَ اسْمِ «الْخَالِقِ»، وَلَا بِإِحْدَائِهِ الْبَرِيَّةَ اسْتِفَادَ اسْمِ «الْبَارِي»)، فبطل أن يكون خلقه في ذاته. وإذا قلت: إنه خلقه مستقلاً يعني: مخلوق مستقل اسمه القرآن، فيلزم بذلك أن نشاهد ذلك المخلوق؛ فالمخلوقات لا بدّ أنها تُشاهد، وأيضاً لا بدّ أنه يأتي عليه التغير.

وقد سمعت أيضاً حكاية أن أحد الذين امتحنوا في القرآن، لما أحضروه قالوا له: ماذا عندك، قال: رأيت رؤيا، رأيت أني قمت في الليل لأصلي، فلما كبرت وقرأت الفاتحة، وقرأت ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ [الكافرون: ١]، وفي الركعة الثانية قرأت الفاتحة، وأردت أن أقرأ سورة الإخلاص، فلم أستطع ولم أقدر، فرفعت رأسي فإذا القرآن مسجى، قلت: ما هذا؟ قالوا: القرآن ميت، فنزلته أنا ومن معي فغسلناه وكفناه وصلينا عليه. فقالوا له - تعجباً -: القرآن يموت؟! قال: نعم، أنتم تقولون: إن القرآن مخلوق، وكل مخلوق يموت. فخصمهم بذلك وبين لهم أن هذه وإن كانت رؤيا، فإنها رُدّ عليكم؛ إذا قلت إن القرآن مخلوق منفصل مستقل يُرى، فلا بدّ أنه يأتي عليه التغير؛ يمرض ويشفي، ويكبر ويصغر، ويزيد وينقص، وينطق بنفسه. فإذا كان هو مخلوقاً

مستقلاً، فمن الذي لمسه، ومن الذي شاهده؟ والقرآن إنما هو هذا الكلام الذي نقرأه، فهو عرض من الأعراض، إذا نطقنا به فإننا لا نشاهد الكلمات التي نتكلم بها تخرج ويراهنا من يراها، فهو عرض تكلم الله تعالى به، وليس بمخلوق.

وإذا قلت: إنه كلام خلقه الله في غيره، لزمكم أن كل ما يتكلم به الناس فهو كلام الله خلقه في غيره، يعني: خلقه باللسنة الناس وبقلوبهم، فما ينطقون به فهو من كلام الله.

وقد طرد ذلك كثير من الملاحدة الذين يقال لهم: أهل الاتحاد، حتى استدل بعضهم بقول قائلهم، وهو ابن عربي:

وَكُلُّ كَلَامٍ فِي الْوُجُودِ كَلَامُهُ سِوَاءَ عَلَيْنَا نَثْرُهُ وَنِظَامُهُ

فجعلوا كل ما ينطق به الناس كلام الله، ولو كان كفرةً، أو شعراً، أو هجاءً، أو مسخريةً، أو ما أشبه ذلك، تعالى الله عن قولهم.

فلما بطلت هذه الثلاثة ما بقي إلا أنه كلام الله ليس بمخلوق.

قال الشارح:

وَعُمُومٌ (كُلُّ) فِي كُلِّ مَوْضِعٍ بِحَسَبِهِ، وَيُعْرَفُ ذَلِكَ بِالْقَرَائِنِ. أَلَا تَرَى
إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿تُدْمِرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَكِنَتُهُمْ﴾
[الأحقاف: ٢٥]، وَمَسَاكِنُهُمْ شَيْءٌ، وَلَمْ تَدْخُلْ فِي عُمُومِ كُلِّ شَيْءٍ دَمْرُهُ الرِّيحُ؛
وَذَلِكَ لِأَنَّ الْمُرَادَ: تُدْمِرُ كُلَّ شَيْءٍ يَقْبَلُ التَّدْمِيرَ بِالرِّيحِ عَادَةً وَمَا يَسْتَحِقُّ التَّدْمِيرَ.
وَكَذَا قَوْلُهُ تَعَالَى حِكَايَةً عَنِ بَلْقَيْسَ: ﴿وَأَوْقَيْتَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [النمل: ٢٣]،
الْمُرَادُ: مِنْ كُلِّ شَيْءٍ يَحْتَاجُ إِلَيْهِ الْمَلُوكُ، وَهَذَا الْقَيْدُ يُفْهَمُ مِنْ قَرَائِنِ الْكَلَامِ؛ إِذْ
مُرَادُ الْهُدْهِدِ أَنَّهَا مَلِكَةٌ كَامِلَةٌ فِي أَمْرِ الْمَلِكِ، غَيْرُ مُحْتَاجَةٍ إِلَى مَا يَكْمُلُ بِهِ أَمْرُ
مُلْكِيهَا، وَهَذَا نِظَائِرٌ كَثِيرَةٌ.

وَالْمُرَادُ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الرعد: ١٦]، أَي: كُلِّ شَيْءٍ
مَخْلُوقٍ، وَكُلِّ مَوْجُودٍ سِوَى اللَّهِ فَهُوَ مَخْلُوقٌ، فَدَخَلَ فِي هَذَا الْعُمُومِ أَفْعَالُ
الْعِبَادِ حَتَّى، وَلَمْ يَدْخُلْ فِي الْعُمُومِ الْخَالِقُ تَعَالَى، وَصِفَاتُهُ لَيْسَتْ غَيْرُهُ؛ لِأَنَّهُ
سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هُوَ الْمَوْصُوفُ بِصِفَاتِ الْكَمَالِ، وَصِفَاتُهُ مُلَازِمَةٌ لِذَاتِهِ الْمُقَدَّسَةِ،
لَا يَتَصَوَّرُ انْفِصَالُ صِفَاتِهِ عَنْهُ، كَمَا تَقَدَّمَ الْإِشَارَةُ إِلَى هَذَا الْمَعْنَى عِنْدَ قَوْلِهِ: (مَا
زَالَ قَدِيمًا بِصِفَاتِهِ قَبْلَ خَلْقِهِ). بَلْ نَفْسُ مَا اسْتَدَلُّوا بِهِ يَدُلُّ عَلَيْهِمْ، فَإِذَا كَانَ
قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾، مَخْلُوقًا، لَا يَصِحُّ أَنْ يَكُونَ دَلِيلًا.

وَأَمَّا اسْتِدْلَالُهُمْ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّا بَعَلْنَا قُوَّةً فَأَعْرَبْنَا﴾ [الزخرف: ٣]، فَمَا
أَفْسَاهُ مِنْ اسْتِدْلَالٍ! فَإِنَّ (جَعَلَ) إِذَا كَانَ بِمَعْنَى (خَلَقَ) يَتَعَدَّى إِلَى مَفْعُولٍ

وَاحِدٍ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَجَعَلْنَا نُورًا وَالنُّورَ﴾ [الأنعام: ١]، وَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ (٣٠) وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٠، ٣١]. وَإِذَا تَعَدَّى إِلَى مَفْعُولَيْنِ لَمْ يَكُنْ بِمَعْنَى خَلَقَ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَقْفُوا الْأَيْمَنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا﴾ [النحل: ٩١]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٤]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ﴾ [الحجر: ٩١]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ﴾ [الإسراء: ٢٩]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ [الإسراء: ٣٩]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنْتًا﴾ [الزخرف: ١٩]، وَنَظَائِرُهُ كَثِيرَةٌ، فَكَذَا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّا جَعَلْتُمْ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾ [الزخرف: ٣].

قال الشيخ:

هذا جمًّا استدلوا به وتقدم نقضه.

الدليل الأول: أنهم استدلوا بعموم ﴿كُلِّ شَيْءٍ﴾، في قوله: ﴿اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الرعد: ١٦]، فقال بشر الميرسي لعبد العزيز الكناني: إن قلت: إن كلام الله شيء خصمناك؛ لأنه داخل في هذه الآية، وإن قلت: إنه ليس بشيء ضللت وكفرت، وذلك لأن المحسوسات داخلية في ﴿كُلِّ شَيْءٍ﴾. ولكن بشرًا كما قال

هذا اعتقد أنه قد غلب الكناني، وأنه ظهر عليه بالحجة، فقال له الكناني: ما أمرتك بأن تجيب على الآية، دعني أتولى الجواب، فقال: إن القرآن شيء لا كالأشياء، التي أريد في هذه الآية. هذا جواب.

والجواب الثاني: هو أن كلمة (كل) قد ترد عامة، ولكن بحسب ما يُراد منها، لا أنها يدخل فيها كل الأشياء. وقد استدلل الشارح بدليلين:

أحدهما: قوله تعالى: ﴿تُدْمِرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰ إِلَّا أَسْمَانُ مَسَكِنُهُمْ﴾ [الأحقاف: ٢٥]، يحكي الله تعالى عن الريح التي أرسلها على عاد أنها تدمر كل شيء، ومع ذلك مساكنهم أصبحت موجودة ما دمّرتها، فدلّ على أن كلمة (كل شيء)، يراد بها كل شيء يقبل التدمير.

والدليل الثاني: قوله تعالى - في قصة بلقيس ملكة اليمن -: ﴿وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [النمل: ٢٣]، ومعلوم أن هناك أشياء لم تؤت منها؛ كالذي أُوتي سليمان، فإنه أُوتي ذلك الصرح، والريح التي غدّوها شهرٌ ورواحها شهر، وسُحّرت له الشياطين كل بناءٍ وغواص، ومع ذلك ما أُوتيت مثل ذلك وهي في زمنه، وما تجاوز ملكها جهتها التي هي بها، فإذا أُوتيت من كل شيء عام، ولكنه مخصوص بما يؤتاه مثلها. فعرف أن قوله تعالى: ﴿اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾، يراد به كل شيء من المخلوقات، ولا يدخل في ذلك ذاته الكريمة، وكذلك لا يدخل فيه صفاته؛ كعلمه وسمعه وبصره، فإنها من جملة ذاته، وكذلك

كلامه، فإنه صفة من صفاته، فلا يدخل في عموم الكل، هذا توجيه الدليل الأول.

أما الدليل الثاني الذي استدلوا به والشبهة التي تشبثوا بها فهي: قول الله تعالى: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا ﴾ [الزخرف: ٣]، فقالوا: جعلنا بمعنى خلقنا، واستدلوا بقوله تعالى: ﴿ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ﴾ [الأنعام: ١]، يعني: خلق الظلمات والنور.

والجواب عن هذه الآية ﴿ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا ﴾، ما أورده الشارح الشارح، وهو جواب واضح؛ إذ يقول: كلمة (جعل) تأتي متعدية إلى مفعول واحد، وتأتي متعدية إلى مفعولين، فإذا كانت متعدية إلى مفعول واحد فهي بمعنى خلق، كما في هذه الآيات التي استدل بها، فإن قوله: ﴿ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ۖ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا ۗ وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا ﴾ [النبأ: ٩-١١]، هذه بمعنى خلق، وكذلك قوله: ﴿ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ﴾، وأما إذا تعدت إلى مفعولين، فهي بمعنى صير، وليست بمعنى خلق، فمنه هذه الآية: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا ﴾، يعني: صيرناه قرآناً عربياً، ليست بمعنى خلق، ومنه الآيات التي استدل بها الشارح، وهي كثيرة، فإن قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرِيَةً ۗ لِأَيْمَانِكُمْ ﴾ [البقرة: ٢٢٤]، هل معناها لا تخلقوا الله؟! وكذلك قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبْدُ الرَّحْمَنِ إِنثًا ﴾ [الزخرف: ١٩]، هل معناه:

خلقوا الملائكة؟! المعني: صيروا الملائكة، وكذلك قوله: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ﴾ [الإسراء: ٢٩]، ليس معناه: لا تخلق يدك مغلولَةً، بل معناها: لا تصير... وهكذا بقية الآيات.

فهاتان شبهتان لا مستند للمعتزلة بالتعلقُ بهما.

قال الشارح:

وَمَا أَفْسَدَ اسْتِدْلَالَهُمْ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿تُورِي مِنْ شَيْطَانِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ﴾ [القصص: ٣٠]، عَلَى أَنَّ الْكَلَامَ خَلَقَهُ اللَّهُ تَعَالَى فِي الشَّجَرَةِ، فَسَمِعَهُ مُوسَى مِنْهَا! وَعَمُوا عَمَّا قَبْلَ هَذِهِ الْكَلِمَةِ وَمَا بَعْدَهَا، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ: ﴿فَلَمَّا أَتَاهَا نُورِي مِنْ شَيْطَانِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ﴾، وَالنِّدَاءُ هُوَ الْكَلَامُ مِنْ بُعْدٍ، فَسَمِعَ مُوسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ - النَّدَاءَ مِنْ حَافَةِ الْوَادِي، ثُمَّ قَالَ: ﴿فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ﴾، أَي: أَنَّ النَّدَاءَ كَانَ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنْ عِنْدِ الشَّجَرَةِ، كَمَا تَقُولُ: سَمِعْتُ كَلَامَ زَيْدٍ مِنَ الْبَيْتِ، يَكُونُ (مِنَ الْبَيْتِ) لِابْتِدَاءِ الْغَايَةِ، لَا أَنَّ الْبَيْتَ هُوَ الْمُتَكَلِّمُ! وَلَوْ كَانَ الْكَلَامُ مَخْلُوقًا فِي الشَّجَرَةِ لَمَكَانَتِ الشَّجَرَةُ هِيَ الْقَائِلَةُ: ﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾، وَهَلْ قَالَ: ﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾، غَيْرُ رَبِّ الْعَالَمِينَ؟ وَلَوْ كَانَ هَذَا الْكَلَامُ بَدَأَ مِنْ غَيْرِ اللَّهِ لَكَانَ قَوْلُ فِرْعَوْنَ: ﴿إِنَّا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى﴾ [النازعات: ٢٤]، صِدْقًا؛ إِذْ كُلُّ مِنَ الْكَلَامِينَ عِنْدَهُمْ مَخْلُوقٌ قَدْ قَالَهُ غَيْرُ اللَّهِ! وَقَدْ فَرَّقُوا بَيْنَ الْكَلَامِينَ عَلَى أَصُولِهِمُ الْفَاسِدَةِ: أَنَّ ذَلِكَ كَلَامٌ خَلَقَهُ اللَّهُ فِي الشَّجَرَةِ، وَهَذَا كَلَامٌ خَلَقَهُ فِرْعَوْنُ!! فَحَرَّفُوا وَبَدَّلُوا وَاعْتَقَدُوا خَالِقًا غَيْرَ اللَّهِ. وَسَيَأْتِي الْكَلَامَ عَلَى مَسْأَلَةِ أَفْعَالِ الْعِبَادِ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى.

قال الشيخ:

وهذا دليل مما استدلوا به، وهي شبهة داحضة، فقد استدلوا بقوله تعالى:

﴿ نُودِيَ مِنْ شَطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ ﴾ [القصص: ٣٠]،

قالوا: إن موسى سمع الصوت من الشجرة!! فالشجرة هي التي تكلمت!! أو خلق الله الكلام في الشجرة!! فلذلك قالوا: إن كلام الله مخلوق. وهذا قول بعيد.

ويقول المؤلف: إنهم عموا عما قبل الآية وما بعدها؛ فإن قوله:

﴿ نُودِيَ ﴾؛ النداء يكون بصوت مسموع، وهذا مما يُستدل به على أن الله

تعالى متكلم؛ لأنه أثبت لنفسه النداء في عدة آيات، قال تعالى: ﴿ وَإِذْ نَادَى

رَبُّكَ مُوسَى ﴾ [الشعراء: ١٠]، وقال: ﴿ إِذْ نَادَتْهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ﴾ [النازعات: ٦٦]،

وقال: ﴿ وَنَادَيْتَهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا ﴾ [مريم: ٥٢]، وقال:

﴿ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ ﴾ [الأعراف: ٢٢]، وقال: ﴿ وَيَوْمَ

يُنَادِيهِمْ أَيُّنَ شُرَكَآئِي ﴾ [فصلت: ٤٧]... ونحو ذلك، فالنداء من الله يكون

بكلام مسموع.

فإذا قوله تعالى: ﴿ نُودِيَ ﴾، يعني: ناداه ربه بكلام سمعه، وأما قوله:

﴿ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ ﴾، يعني: أنه نودي وهو في البقعة المباركة التي ذكرها

الله بقوله تعالى: ﴿ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ﴾ [طه: ١٢]، هذه البقعة ذكر الله

أنها مباركة، ثم قال: ﴿مِنَ الشَّجَرَةِ﴾، يعني: سمع الصوت من جهة الشجرة، لا أن الشجرة هي التي نطقت، وإنما سمع الصوت من جهتها، ورأى تلك النار وقال: ﴿إِنِّي ءَأَنْسْتُ نَارًا﴾، يعني: رأى نارًا وضوءًا يشتعل عند تلك الشجرة، فظن أنه نارٌ، فذهب ليأتي من النار بشعلة أو جمرة لأهله لعلهم يصطلون، وكان ذلك من شدة البرد، فقال: ﴿لَعَلَّ ءَأَلَيْكُمْ مِنهَا يَبَسٌ أَوْ أَحِدٌ عَلَيَّ النَّارِ هُدًى﴾ [طه: ١٠]، فلما جاء إلى الشجرة سمع هذا النداء، وفي ذلك النداء قوله: ﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾ (١٤) **إِنَّ السَّاعَةَ ءَأَنِيَّةٌ أَكَادُ أَحْفِيهَا لِيُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسَعَى** (١٥) **فَلَا يَصُدُّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى** (١٦) **وَمَا تَلَاكَ بِسَمِينِكَ يَمْوَسَى** (١٧) **قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَنَازِبُ أُخْرَى** ﴿طه: ١٤-١٨﴾.

كل هذا تكلم الله به وسمعه موسى عليه السلام، ولأجل ذلك يُسمى موسى - عليه السلام -: كلِّيم الله، بمعنى: أن الله كلَّمه وأسمعه كلامه، وليست الشجرة هي التي نطقت بذلك، وإنما سمع الصوت من جهة الشجرة، يعني جاء من تلك الجهة، فهو كما يقول القائل: كلَّمني زيد من الدار، يعني: أن الصوت خرج من الدار، لا أن الدار هي التي نطقت.

فإذا هذا دليلٌ بعيد أن يُتعلَّق به، وهو من جملة أدلتهم الباطلة.

قال الشارح:

فَإِنْ قِيلَ: فَقَدْ قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ [الحاقة: ٤٠]،
 [التكوير: ١٩]، وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الرَّسُولَ أَحَدَهُ، إِمَّا جَبْرِيلُ أَوْ مُحَمَّدٌ.
 قِيلَ: ذَكَرَ الرَّسُولَ مُعَرَّفًا أَنَّهُ مُبَلِّغٌ عَنِ مُرْسِلِهِ؛ لِأَنَّهُ لَمْ يَقُلْ: إِنَّهُ قَوْلُ مَلِكٍ
 أَوْ نَبِيِّ، فَعَلِمَ أَنَّهُ بَلَّغَهُ عَمَّنْ أَرْسَلَهُ بِهِ، لَا أَنَّهُ أَنْشَأَهُ مِنْ جِهَةٍ نَفْسِهِ.
 وَأَيْضًا: فَالرَّسُولُ فِي إِحْدَى الْآيَتَيْنِ جَبْرِيلُ، وَفِي الْأُخْرَى مُحَمَّدٌ، فإِضَافَتُهُ
 إِلَى كُلِّ مِنْهُمَا تُبَيِّنُ أَنَّ الإِضَافَةَ لِلتَّبْلِيغِ؛ إِذْ لَوْ أَحَدَهُمَا أَحَدُهُمَا امْتَنَعَ أَنْ يُجَدِّدَهُ
 الْآخَرَ.

وَأَيْضًا: فَقَوْلُهُ رَسُولٌ أَمِينٌ^(١)، دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهُ لَا يَزِيدُ فِي الْكَلَامِ الَّذِي أُرْسِلَ
 بِتَّبْلِيغِهِ وَلَا يَنْقُصُ مِنْهُ، بَلْ هُوَ أَمِينٌ عَلَى مَا أُرْسِلَ بِهِ، يُبَلِّغُهُ عَنِ مُرْسِلِهِ.
 وَأَيْضًا: فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ كَفَّرَ مَنْ جَعَلَهُ قَوْلَ الْبَشَرِ، وَمُحَمَّدٌ ﷺ بَشَرٌ، فَمَنْ
 جَعَلَهُ قَوْلَ مُحَمَّدٍ بِمَعْنَى أَنَّهُ أَنْشَأَهُ فَقَدْ كَفَّرَ، وَلَا فَرْقَ بَيْنَ أَنْ يَقُولَ: إِنَّهُ قَوْلٌ

(١) قال الشيخ أحمد شاکر في تعليقه على هذا الشرح (ص ١١٤): «الآية التي ذكرها الشارح

﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾، جاءت مرتين: في سورة الحاقة: (٤٠)، وليس فيها بعدها الوصف

بلفظ (أمين)، والأخرى في سورة التكوير: (١٩)، ثم بعدها: ﴿ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ﴾

(٥) مطاع ثم أمين، فتعبير الشارح بقوله: (وأيضا فقوله: رسول أمين)، فيه شيء من

التساهل، لم يرد به حكاية التلاوة، وإنما أراد المعنى فقط. ولو قال: وأيضا فوصف الرسول

بأنه أمين.. كان أدق وأجود.

بَشِيرٍ، أَوْ جِنِّيٍّ، أَوْ مَلَكٍ، وَالْكَلامُ كَلامُ مَنْ قالَهُ مُبتدئًا، لا مَنْ قالَهُ مُبَلِّغًا، وَمَنْ سَمِعَ قائِلًا يَقُولُ:

قَفَا نَبِكَ مِنْ ذِكْرِي حَبِيبٍ وَمُنْزِلٍ...

قال: هَذَا شِعْرُ امْرِئِ القَيْسِ.

وَمَنْ سَمِعَهُ يَقُولُ: «إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ ما نَوَى»^(١)، قال:

هَذَا كَلامُ الرِّسُولِ، وَإِنْ سَمِعَهُ يَقُولُ: ﴿الحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ العَالَمِينَ﴾^(٢) الرَّحْمَنِ

الرَّحِيمِ^(٣) مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ^(٤) إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ^(٥) ﴿[الفاتحة: ٢-٥]،

قال: هَذَا كَلامُ اللَّهِ، إِنْ كانَ عِنْدَهُ خَبْرُ ذَلِكَ، وإِلا قالَ: لا أَدْرِي كَلامُ مَنْ هَذَا؟ وَلَوْ أَنْكَرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ذَلِكَ لكَذَّبَهُ. وَهَذَا مَنْ سَمِعَ مِنْ غَيْرِهِ نَظْمًا أَوْ نَثْرًا، يَقُولُ لَهُ: هَذَا كَلامُ مَنْ؟ هَذَا كَلامُكَ أَوْ كَلامُ غَيْرِكَ؟

قال الشيخ:

قد يعترض معترض بهذه الآيات التي في سورة الحاقة، وهي قوله: ﴿إِنَّهُ

لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ^(٦) وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شاعِرٍ قَلِيلًا ما تُؤْمِنُونَ^(٧) وَلَا يَقُولُ كاهِنٍ قَلِيلًا ما تَدْكُرُونَ ﴿

[الحاقة: ٤٠-٤٢]، وبالأية الأخرى: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ^(٨) ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي

الْعَرْشِ مَكِينٍ^(٩) مُطاعٍ ثُمَّ آمِنٍ ﴿[التكوير: ١٩-٢١]، فالرسول ها هنا هو جبريل

(١) أخرجه البخاري (١)، ومسلم (١٩٠٧) من حديث عمر بن الخطاب ؓ.

الذي بلغه عن الله، فمعنى قوله: ﴿لَقَوْلِ رَسُولٍ﴾، يعني: تبليغ رسول، وناخذ من كلمة (رسول) أنه لم يُنشئه ولم يُقله من نفسه، وإنما بلغه؛ لأنه مرسل، والرسول: هو الذي يحمل رسالةً من غيره، وكل من حمل كلامًا أو كتابًا فإنه يسمى رسولًا؛ تقول: أرسلتُ خادمي بكذا وكذا، أو يأتیکم رسولي، أي: متدبّي، فالرسول هو الذي يحمل رسالة.

فهذا القرآن قول رسول، يعني: قولٌ جاء به رسولٌ أرسل به، ذلك الرسول الذي ذكر في هذه الآيات هو جبريل عليه السلام، يُبين ذلك قوله تعالى في سورة الشعراء: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾ [الشعراء: ١٩٣ - ١٩٤]، فهكذا قوله: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُطَاعٌ ثَمَّ أَمِينٍ﴾ [التكوير: ١٩ - ٢١]، فوصف بأنه أمين في الموضوعين، ويؤخذ من ذلك أنه مأمون على ما أرسل به، لا يدخل فيه زيادة ولا نقص ولا أي نوع من التغيير، بل يبلغه كما هو دون أي تحريف أو تغيير. فإذا لا متعلق بهذه الآية، بل الآية واضحة في أنه بلغه عن رسول، وهو الله سبحانه وتعالى.

ثم يقول الشارح: (وَالكَلَامُ كَلَامٌ مِّنْ قَالِهِ مُبْتَدِئًا، لَا مَن قَالَهُ مُبَلِّغًا)، وكلام الله الذي بلغه هو الرسول، سواء كان جبريل أو محمدًا، فإنها منه التبليغ، وقد ذكر الله ذلك في عدة آيات، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَّغُ﴾ [الشورى: ٤٨]، وقوله: ﴿وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَّغُ﴾ [النور: ٥٤]، وقوله: ﴿يَلْبِغُ﴾

مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ ﴿ [المائدة: ٦٧]، وقوله: ﴿ الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ ﴾ [الأحزاب: ٣٩].

فالتبليغ معناه: إيصال ما بُعث به إلى المرسل إليه كما هو دون نقص أو تغيير. فإذا هو ببلغه، نشهد بأنه بلغ ما أرسل به إلى هذه الأمة، وأن الأمة قد حفظته، ونقول كما قال الشارح: (وَالكَلَامُ كَلَامٌ مَنْ قَالَهُ مُبْتَدِئًا، لَا مَنْ قَالَهُ مُبَلِّغًا)، فالكلام كلام الله - جل وعلا - وتبليغ جبريل عليه السلام، يعني: نزل به جبريل، وقد قرأه وعلمه للأمة محمد ﷺ، فهو كلام الله، ولا يضاف إلى من بلغه.

واستدل الشارح - رحمه الله - على أن الكلام يُضاف إلى من ابتدأه بقولنا إذا سمعنا من ينشد: قِفَا نَبِّكَ مِنْ ذِكْرِي حَبِيبٍ وَمُنْزِلٍ -: هذا كلام امرئ القيس، ولا نقول هذا كلامك أيها المتكلم، وإذا سمعناك تقول - مثلاً -: «إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مِمَّا نَوَى»، هل نقول: هذا كلامك أيها المتكلم؟ نقول: هذا كلام الرسول ﷺ، نعرف أنه أول من قال هذا.

وإذا سمعنا من يقرأ: ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ (٥) الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿ [الفاتحة: ١، ٢]، ونحن نعرف أنه كلام الله، فنقول: هذا كلام الله، وليس كلامك أيها المتكلم، إنما أنت مبلغ، لا أنك مبتدئ.

فإذا القرآن كلام الله - جل وعلا - وتبليغ رسوله ﷺ.

قال الشارح:

وَبِالْجُمْلَةِ، فَأَهْلُ السُّنَّةِ كُلُّهُمْ، مِنْ أَهْلِ الْمَذَاهِبِ الْأَرْبَعَةِ وَغَيْرِهِمْ مِنْ
السَّلَفِ وَالْخَلَفِ، مُتَّفِقُونَ عَلَى أَنَّ كَلَامَ اللَّهِ غَيْرُ مَخْلُوقٍ، وَلَكِنْ بَعْدَ ذَلِكَ تَنَازَعُ
الْمُتَأَخِّرُونَ فِي أَنَّ كَلَامَ اللَّهِ هَلْ هُوَ مَعْنَى وَاحِدٍ قَائِمٌ بِالذَّاتِ، أَوْ أَنَّهُ حُرُوفٌ
وَأَصْوَاتٌ تَكَلَّمَ اللَّهُ بِهَا بَعْدَ أَنْ لَمْ يَكُنْ مُتَكَلِّمًا، أَوْ أَنَّهُ لَمْ يَزَلْ مُتَكَلِّمًا إِذَا شَاءَ وَمَتَى
شَاءَ وَكَيْفَ شَاءَ، وَأَنَّ نَوْعَ الْكَلَامِ قَدِيمٌ.

وَقَدْ يُطْلَقُ بَعْضُ الْمُعْتَزِلَةِ عَلَى الْقُرْآنِ أَنَّهُ غَيْرُ مَخْلُوقٍ، وَمُرَادُهُمْ أَنَّهُ غَيْرُ
مُخْتَلَقٍ مُفْتَرَى مَكْذُوبٌ، بَلْ هُوَ حَقٌّ وَصِدْقٌ، وَلَا رَيْبَ أَنَّ هَذَا الْمَعْنَى مُتَّفِقٌ
بِاتِّفَاقِ الْمُسْلِمِينَ.

وَالنِّزَاعُ بَيْنَ أَهْلِ الْقِبْلَةِ إِنَّمَا هُوَ فِي كَوْنِهِ مَخْلُوقًا خَلَقَهُ اللَّهُ، أَوْ هُوَ كَلَامُهُ
الَّذِي تَكَلَّمَ بِهِ وَقَامَ بِذَاتِهِ؟ وَأَهْلُ السُّنَّةِ إِنَّمَا سَأَلُوا عَنْ هَذَا، وَإِلَّا فَكَوْنُهُ مَكْذُوبًا
مُفْتَرَى عَمَّا لَا يُبَازَعُ مُسْلِمٌ فِي بُطْلَانِهِ. وَلَا شَكَّ أَنَّ مَشَايخَ الْمُعْتَزِلَةِ - وَغَيْرَهُمْ مِنْ
أَهْلِ الْبِدْعِ - مُعْتَرِفُونَ بِأَنَّ اعْتِقَادَهُمْ فِي التَّوْحِيدِ وَالصِّفَاتِ وَالْقَدْرِ لَمْ يَتَلَقَّوْهُ
لَا عَنْ كِتَابٍ وَلَا سُنَّةٍ، وَلَا عَنْ أئِمَّةِ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ، وَإِنَّمَا
يَزْعُمُونَ أَنَّ عَقْلَهُمْ دَلَّاهُمْ عَلَيْهِ، وَإِنَّمَا يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ تَلَقَّوْا مِنَ الْأئِمَّةِ الشَّرَائِعَ.

وَلَوْ تَرَكَ النَّاسُ عَلَى فِطْرِهِمُ السَّلِيمَةَ وَعَقُولِهِمُ الْمُسْتَقِيمَةَ، لَمْ يَكُنْ بَيْنَهُمْ
نِزَاعٌ، وَلَكِنْ أَلْقَى الشَّيْطَانُ إِلَى بَعْضِ النَّاسِ أُغْلُوطَةً مِنْ أَغَالِيطِهِ، فَفَرَّقَ بَيْنَ
بَيْنَهُمْ، ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ ائْتَمَفُوا فِي الْكُتُبِ لِي شِقَاقَ بَيْنِهِمْ﴾ [البقرة: ١٧٦].

قال الشيخ:

تقدم - عند سياق اختلاف الأمة في القرآن هل هو كلام الله - أن هناك فرقة قالوا: كلام الله معنى واحد قائم بذاته، وهذا قول الأشعرية والماتريدية، ولهذا قالوا: إنه معنى واحد يُعبر عنه مثلاً بالعبرية فيصير تورا، وبالسريانية فيصير إنجيلًا، وبالعربية فيصير قرآنًا، وهو معنى واحد. هذا قول باطل. ويقولون أيضًا: إن كلام الله تعالى هو المعنى لا اللفظ، ولهم أدلة ربما يأتي نقاش حولها.

وهناك قول ثانٍ للمبتدعة - أيضًا -: أن كلام الله حروف وأصوات تكلم بها بعد أن لم يكن متكلمًا، وهذا أيضًا خطأ، فإن الله تعالى لم يزل موصوفًا بأنه متكلم، ويتكلم إذا شاء. وقول أهل السنة: إن كلام الله قديم النوع حادث الأحاد، وأنه لم يزل متكلمًا، ويتكلم إذا شاء، وأن القرآن من كلامه، وأن الكلام لله صفة مدح وليس هو مخلوقًا، كما أن صفاته ليست مخلوقة، علمه وقدرته وإرادته وحلمه ورحمته، وكذلك صفاته الذاتية: سمعه، وبصره، كل ذلك منسوب إليه ومضاف إليه، وليس شيء من ذلك مخلوقًا.

وقد تقول المعتزلة: إن القرآن غير مخلوق، ولكنهم لا يقولون: القرآن كلام الله، بل يقفون عند القول الأول وهو: القرآن غير مخلوق، ولكن هذه العبارة يعبرون بها عن معنى صحيح يوافق عليه كل أحد، وهو أنهم يعنون أنه غير مفترى ولا مختلق ولا مكذوب. وأن محمدًا ﷺ لم يكن اختلقه ولا افتراه،

وهم يتسترون وراء هذا القول، وإلا فإنهم يعتقدون أن الله تعالى خلقه كما خلق سائر المخلوقات.

فإذا عرفنا مثل هذه الأقوال بقي أن يعتقد كل مسلم بأن القرآن الذي أنزله الله تعالى هو كلامه، وأنه صفة كمال، وأنه معجز بذاته، وأنه ليس بمخلوق، ولا شيء من صفات الله مخلوقة، ويعتقد أن أهل السنة يجمعون - الصحابة والسلف - على أن القرآن كلام الله تكلم به، وأنه من جملة كلامه، وأنزله وحياً، وجعله معجزة لهذا النبي خالدة باقية ما شاء الله أن تبقى، ما دام يُعمل به، منزَّل غير مخلوق، منه بدأ وإليه يعود، بدأ منه قولاً، وإليه يعود، أي: يُرفع في آخر الزمان، عندما يقلُّ العمل به.

هذا قول أهل السنة، ولا عبرة بالأقوال الشاذة المبتدعة التي خالفت هذا

القول.

قال الشارح:

وَالَّذِي يَدُلُّ عَلَيْهِ كَلَامُ الطَّحَاوِيِّ . رَحِمَهُ اللَّهُ . : أَنَّهُ تَعَالَى لَمْ يَزَلْ مُتَكَلِّمًا إِذَا شَاءَ كَيْفَ شَاءَ ، وَأَنَّ نَوْعَ كَلَامِهِ قَدِيمٌ . وَكَذَلِكَ ظَاهِرُ كَلَامِ الإِمَامِ أَبِي حَنِيفَةَ . رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ . فِي «الْفِقْهِ الأَكْبَرِ» ، فَإِنَّهُ قَالَ : «وَالْقُرْآنُ فِي المَصَاحِفِ مَكْتُوبٌ ، وَفِي القُلُوبِ مَحْفُوظٌ ، وَعَلَى الأَلْسِنِ مَقْرُوءٌ ، وَعَلَى النَّبِيِّ ﷺ مُنْزَلٌ ، وَلَفْظُنَا بِالقُرْآنِ مَخْلُوقٌ ، وَكِتَابَتُنَا لَهُ مَخْلُوقَةٌ ، وَقِرَاءَتُنَا لَهُ مَخْلُوقَةٌ ، وَالقُرْآنُ غَيْرُ مَخْلُوقٍ ، وَمَا ذَكَرَ اللَّهُ فِي القُرْآنِ حِكَايَةً عَن مُوسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ - وَغَيْرِهِ مِنَ الأنبياءِ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ، وَعَن فِرْعَوْنَ وَإِبْلِيسَ ، فَإِنَّ ذَلِكَ كُلُّهُ كَلَامُ اللَّهِ إِخْبَارًا عَنْهُمْ ، وَكَلَامُ مُوسَى وَغَيْرِهِ مِنَ المَخْلُوقِينَ مَخْلُوقٌ ، وَالقُرْآنُ كَلَامُ اللَّهِ لَا كَلَامُهُمْ ، وَسَمِعَ مُوسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ - كَلَامَ اللَّهِ تَعَالَى ، فَلَمَّا كَلَّمَ مُوسَى كَلِمَةً بِكَلَامِهِ الَّذِي هُوَ مِنْ صِفَاتِهِ لَمْ يَزَلْ ، وَصِفَاتُهُ كُلُّهَا خِلَافُ صِفَاتِ المَخْلُوقِينَ ، يَعْلَمُ لَا كَعِلْمِنَا ، وَيَقْدِرُ لَا كَقُدْرَتِنَا ، وَيَرَى لَا كَرُؤِينَا ، وَيَتَكَلَّمُ لَا كَكَلَامِنَا . انْتَهَى (١) .

فَقَوْلُهُ : (وَلَمَّا كَلَّمَ مُوسَى كَلِمَةً بِكَلَامِهِ الَّذِي هُوَ مِنْ صِفَاتِهِ) ، يُعْلَمُ مِنْهُ أَنَّهُ حِينَ جَاءَ كَلِمَةً ، لَا أَنَّهُ لَمْ يَزَلْ وَلَا يَزَالُ أَرْزُلًا وَأَبَدًا يَقُولُ : يَا مُوسَى ، كَمَا يُفْهَمُ ذَلِكَ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَكَلَّمَ جَاءَهُ مُوسَى لِيَمِيزُنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ ﴾ [الأعراف: ١٤٣] ، فَفُهِمَ مِنْهُ السَّرْدُ عَلَى مَنْ يَقُولُ مِنْ أَصْحَابِهِ : إِنَّهُ مَعْنَى وَاحِدٌ قَائِمٌ بِالنَّفْسِ ،

(١) انظر: الفقه الأكبر، بشرح د. محمد الخميس (ص ٢٠ - ٢٤) .

لَا يُتَّصَرُّ أَنْ يُسْمَعَ، وَإِنَّمَا يَخْلُقُ اللَّهُ الصَّوْتَ فِي الْهَوَاءِ، كَمَا قَالَ أَبُو مَنْصُورٍ
الْمَاتِرِيدِيُّ وَغَيْرُهُ.

وَقَوْلُهُ: (الَّذِي هُوَ مِنْ صِفَاتِهِ)، لَمْ يَزَلْ رَدُّ عَلَى مَنْ يَقُولُ: إِنَّهُ حَدَّثَ لَهُ
وَصَفَّ الْكَلَامَ بَعْدَ أَنْ لَمْ يَكُنْ مُتَكَلِّمًا.

قال الشيخ:

نقل الشارح هنا كلام أبي حنيفة؛ لأنه حنفي المذهب، والماتين، الذي هو
الطحاوي، حنفي أيضًا، والعقيدة مشهورة عند الحنفية، ولكن أكثر المتأخرين
من الحنفية مالوا في باب الاعتقاد، وفيما يتعلق بالأسماء والصفات، وفيما يتعلق
بالإيمان، وفيما يتعلق بالقرآن، انحرفوا بسبب من قرؤوا عليه من الأشاعرة
ونحوهم، ولكن الشارح - رحمه الله - كان على عقيدة سلفية، تلقاها عن مشايخه
الذين أخلصوا له في التعليم، وحسن اعتقاده، فاحتج على أهل ذلك المذهب
بأقوال من يجترمونهم، فهذا الطحاوي - رحمه الله - حنفي وكلامه واضح في أن
الربَّ سبحانه وتعالى لم يزل متكلمًا إذا شاء.

وهذا أبو حنيفة - رحمه الله - إمام المذهب قوله صريح في إثبات صفة
الكلام لله سبحانه وتعالى، وفي الاستدلال على ذلك بأن الله كلم موسى، وأن
موسى - عليه السلام - سمع كلام الله منه إليه، قال تعالى: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى
تَكْلِيمًا﴾ [النساء: ١٦٤]، وقال: ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ﴾

[الأعراف: ١٤٣]، وقال: ﴿إِنِّي أَصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَتِي وَبِكَلِمِي﴾
 [الأعراف: ١٤٤]، وكذلك ناداه وناجاه: ﴿وَنَدَيْتُهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْتُهُ
 نَجِيًّا﴾ [مريم: ٥٢]، والنداء لا يكون إلا بكلام، والمناجاة - التي هي كلامٌ خفيٌّ
 بين اثنين - لا تكون إلا بكلام. وكل ذلك استدل به أبو حنيفة - رحمه الله - على
 أن الله تعالى هو الذي تكلم بهذا القرآن، وأنه لم يزل متكلمًا، ويكلم من يشاء.

واستدل أيضًا بأن ما في القرآن من حكاية كلام الأمم أو كلام الرسل أو
 غيرهم، هو عين كلام الله، فنحن نقول: قال الله تعالى عن فرعون: ﴿وَقَالَ
 فِرْعَوْنُ يَنْهَكُنْ أَبْنَى صِرْحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ﴾ (٣٦) ﴿أَسْبَابَ السَّمَوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى
 إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لِأَظُنُّهُ كَذِبًا﴾ [غافر: ٣٦، ٣٧]، هذا كلام الله حكاة عن
 فرعون. كذلك نقول: قال الله تعالى عن إبليس: ﴿قَالَ فِيعْرَيْكَ لِأَعْوِيْتَهُمْ
 أَجْمَعِينَ﴾ (٨٢) ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلِصِينَ﴾ [ص: ٨٢، ٨٣]، ﴿قَالَ فِيمَا أُغْوِيْتَنِي لِأَفْعَدَنَّ
 لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الأعراف: ١٦]، هذا كلام الله، حكاة عن إبليس.

فكلام الله قديم النوع، أي: أنه سبحانه يتكلم قبل أن يقع كلام إبليس،
 وكلام فرعون، وكلام قوم نوح لنوح في قولهم: ﴿يَنْشُوحُ قَدْ جَدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ
 جِدْلَنَا فَإِنَّا نِمَا تَعْدُنَا إِن كُنْتَمِنَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [هود: ٢٢]، وكذلك كلام بقية
 الأمم. لكن لا يفهم من ذلك أن الله تعالى لم يزل ولا يزال أولًا وأبدًا يقول: يا
 موسى، أو يا نوح، إنما تكلم بهذا الكلام الذي يحكي فيه كلام إبليس، وكلام

فرعون، وكلام قوم نوح، وغيرهم من الأمم، بعدما تكلموا به؛ لأن كلامهم مخلوق، بل الإنسان في جميع حركاته مخلوق، والله هو الذي خلقه وخلق حركاته، وهو الذي يحرك شفثيه ويحرك لسانه، وهو الذي أنطقه بذلك، كما تنطق في الآخرة الجلود والأيدي والأرجل، فالإنسان بجميع ما يُنسب إليه مخلوق.

أما الرب تعالى بجميع صفاته، فإنه ليس بمخلوق، بل صفاته كلها مضافة إليه من ذاته، ولا يجوز القول بأن شيئاً من صفاته مخلوق، ولا أنه حادث بعد أن لم يكن.

وتقدم أن صفاته قديمة، لكن يُقال في الكلام: إنه قديم النوع، حادث الأحاد، بمعنى: أنه لم يزل متكلماً، ويتكلم إذا شاء.

قال الشارح:

وَبِالْجُمْلَةِ: فَكُلُّ مَا تَحْتَجُّ بِهِ الْمُعْتَزِلَةُ مِمَّا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ كَلَامٌ مُتَعَلِّقٌ بِمَشِيئَتِهِ وَقُدْرَتِهِ، وَأَنَّهُ يَتَكَلَّمُ إِذَا شَاءَ، وَأَنَّهُ يَتَكَلَّمُ شَيْئًا بَعْدَ شَيْءٍ، فَهُوَ حَقٌّ يَجِبُ قَبُولُهُ. وَمَا يَقُولُ بِهِ مَنْ يَقُولُ: إِنَّ كَلَامَ اللَّهِ قَائِمٌ بِذَاتِهِ، وَأَنَّهُ صِفَةٌ لَهُ. وَالصِّفَةُ لَا تَقُومُ إِلَّا بِالْمَوْصُوفِ: فَهُوَ حَقٌّ يَجِبُ قَبُولُهُ وَالْقَوْلُ بِهِ. فَيَجِبُ الْأَخْذُ بِمَا فِي قَوْلِ كُلِّ مِنَ الطَّائِفَتَيْنِ مِنَ الصَّوَابِ، وَالْعُدُولِ عَمَّا يَرُدُّهُ الشَّرْعُ وَالْعَقْلُ مِنْ قَوْلِ كُلِّ مِنْهُمَا.

فَإِذَا قَالُوا لَنَا: فَهَذَا يَلْزِمُ أَنْ تَكُونَ الْحَوَادِثُ قَامَتْ بِهِ. قُلْنَا: هَذَا الْقَوْلُ مُجْمَلٌ، وَمَنْ أَنْكَرَ قَبْلَكُمْ قِيَامَ الْحَوَادِثِ بِهَذَا الْمَعْنَى بِهِ تَعَالَى مِنَ الْأَيْمَةِ؟ وَنُصُوصُ الْقُرْآنِ وَالسُّنَّةِ تَتَضَمَّنُ ذَلِكَ، وَنُصُوصُ الْأَيْمَةِ أَيْضًا، مَعَ صَرِيحِ الْعَقْلِ.

قال الشيخ:

مفهوم كلام الشارح أننا نقبل ما في أقوالهم من الحق، ونردُّ الباطل، فإذا قالوا: إن كلام الله تعالى صفة قائمة بذاته، قلنا: إن هذا صحيح، ولكن قولهم إنه معنى واحد، لا نوافقهم عليه؛ وذلك لأن فيه ذكر الجنة وفيه ذكر النار، وكونه معنى واحداً لا يكون بين آية الوعد والوعيد فرق، وكذلك فيه ذكر العذاب وفيه ذكر الرحمة، وإذا كان معنى واحداً لم يكن بين هذه الآية وهذه الآية فرق، فإذا لا يوافقون على أنه معنى واحد، ولكن يوافقون على أنه قائم

بذاته، كما أن سائر الصفات قائمة بالموصوف، لا يعقل صفة إلا وهي قائمة بالموصوف، البياض مثلاً لا بدّ أن يكون قائماً بشيء أبيض، فلا يوجد منفصلاً، ولا يُتزعج البياض من هذا النور ويُقبض عليه، ويقال هذا البياض، كذلك الحُمْرة أو السواد؛ لا بدّ أن تقوم بجرم يوصف بأنه أحمر أو أسود، فكذلك الصفات، فالسمع لا بدّ أن يقوم بمن يسمع، والكلام لا بدّ أن يقوم بمن يتكلم.

فإذا الصفات نوافق بأنها قائمة بذاته جل وعلا، ولكن قولهم مثلاً: إنا إذا قلنا: إنه يتكلم، وإنه يعلم ويقدر، يكون ذلك سبباً لكون الحوادث تقوم به. هذه أكبر شبهة يتشبهون بها، فيرمون أهل السنة بأنهم يقولون بأن الحوادث تقوم بذات الله، على معتقدهم أن الله تعالى بذاته وبأفعاله قديم، وأنه لا يحدث منه شيء بعد أن لم يحدث وهذا خطأ، بل الله تعالى يحدث ما يشاء، فيسمع ما يحدث بعد أن لم يكن حادثاً، يسمع الأصوات التي حدثت بعد أن لم تحدث، ويرى الأشخاص الذين تجدد خلقهم بعد أن لم يكن متجدداً، والرؤية هذه جنسها قديم، وهي حادثه، فيقال: صفة البصر لله تعالى قديمة، ولكن هذا الإبصار حادث، ولا يلزم قيام الحوادث بذات الله.

قال الشارح:

وَلَا شَكَّ أَنَّ الرُّسُلَ الَّذِينَ خَاطَبُوا النَّاسَ وَأَخْبَرُوهُمْ أَنَّ اللَّهَ قَالَ وَنَادَى وَنَاجَى وَيَقُولُ، لَمْ يُفْهِمُوهُمْ أَنَّ هَذِهِ مَخْلُوقَاتٌ مُنْفَصِلَةٌ عَنْهُ، بَلِ الَّذِي أَفْهَمُوهُمْ إِيَّاهُ: أَنَّ اللَّهَ نَفْسُهُ هُوَ الَّذِي تَكَلَّمَ، وَالْكَلَامُ قَائِمٌ بِهِ لَا بَغِيرَهُ، وَأَنَّهُ هُوَ الَّذِي تَكَلَّمَ بِهِ وَقَالَ، كَمَا قَالَتْ عَائِشَةُ . رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا . فِي حَدِيثِ الْإِفْكِ: «وَلَشَأْنِي فِي نَفْسِي كَانَ أَحَقَّرَ مِنْ أَنْ يَتَكَلَّمَ اللَّهُ فِيَّ بِوَحْيٍ يُتْلَى»^(١). وَلَوْ كَانَ الْمُرَادُ مِنْ ذَلِكَ كُلِّهِ خِلَافَ مَفْهُومِهِ لَوَجِبَ بَيَانُهُ، إِذْ تَأْخِيرُ الْبَيَانِ عَنِ وَقْتِ الْحَاجَةِ لَا يَجُوزُ.

وَلَا يُعْرَفُ فِي لُغَةٍ وَلَا عَقْلٍ قَائِلٌ مُتَكَلِّمٌ لَا يَقُومُ بِهِ الْقَوْلُ وَالْكَلَامُ، وَإِنْ زَعَمُوا أَنَّهُمْ قَرَأُوا مِنْ ذَلِكَ حَدْرًا مِنَ التَّشْبِيهِ، فَلَا يُشْبِتُوا صِفَةً غَيْرَهُ، فَإِنَّهُمْ إِذَا قَالُوا: يَعْلَمُ لَا كَعِلْمِنَا، قُلْنَا: وَيَتَكَلَّمُ لَا كَتَكَلِّمِنَا، وَكَذَلِكَ سَائِرُ الصِّفَاتِ.

وَهَلْ يُعْقَلُ قَادِرٌ لَا يَقُومُ بِهِ الْقُدْرَةُ، أَوْ حَيٌّ لَا يَقُومُ بِهِ الْحَيَاةُ؟ وَقَدْ قَالَ ﷺ: «أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللَّهِ التَّامَّاتِ الَّتِي لَا يُجَاوِزُهُنَّ بَرٌّ وَلَا فَاجِرٌ»^(٢)، فَهَلْ يَقُولُ عَاقِلٌ: أَنَّهُ ﷺ عَادَ بِمَخْلُوقٍ؟ بَلْ هَذَا كَقَوْلِهِ: «أَعُوذُ بِرِضَاكَ مِنْ سَخَطِكَ، وَأَعُوذُ بِمَعَافَاتِكَ مِنْ عُقُوبَتِكَ»^(٣)، وَكَقَوْلِهِ: «أَعُوذُ بِعِزَّةِ اللَّهِ وَقُدْرَتِهِ مِنْ شَرِّ مَا

(١) أخرجه البخاري (٤٧٥٠)، ومسلم (٢٧٧٠).

(٢) أخرجه النسائي في الكبرى (١٠٧٢٦)، والطبراني في الأوسط (١٨/١)، وابن عبد البر في

التمهيد (١١٢/٢٤) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه، وأخرجه أحمد (٤١٩/٣)، وابن أبي

شيبه (٥١/٥) من حديث عبد الرحمن بن خنيس رضي الله عنه.

(٣) تقدم تحريجه (٤٤٠/١).

أَجِدُّ وَأَحَادِرُ»^(١)، وَكَقَوْلِهِ: «وَأَعُوذُ بِعِظَمَتِكَ أَنْ نُغْتَالَ مِنْ تَحْتِنَا»^(٢). كُلُّ هَذِهِ مِنْ صِفَاتِ اللَّهِ تَعَالَى.

وَهَذِهِ الْمَعَانِي مَبْسُوطَةٌ فِي مَوَاضِعِهَا، وَإِنَّمَا أُشِيرُ إِلَيْهَا هُنَا إِشَارَةً.

قال الشيخ:

يتكلم الشارح عن قولهم: إنكم تقولون: إن الحوادث تقوم بذات الله، وأن هذا تنقُصُ لله؛ لأنكم جعلتم صفاته حادثه، أو الحادث يقوم به، وذلك لأنَّ أَحْصُ الصفات عند المعتزلة هي صفة القِدَم، فيمتنعون عن إثبات شيء متجدد، فيقولون: إذا أثبتنا أن الله متكلم الآن صار الكلام متجدداً، وصار قائماً بالذات، وإذا أثبتنا أنه يعلم، صار هذا العلم جديداً بعد أن لم يكن موجوداً وهكذا قولهم.

فيرد عليهم بأنه لا تُعقَلُ صفةٌ قائمة بذاتها، بل لا بد أن تكون الصفة قائمة بالموصوف، فلا تقوم صفة بغير موصوف أبداً.

وفي هذه الأزمنة يوجد شيء قد يتعلقون به، فمثلاً الأشرطة التي تحفظ الكلام وتسجله معلوم أنها لا تنطق بنفسها، وإنما تحفظ كلاماً قد تكلم به إنسان، فتعيده بالهجته، فيقال: هذا صوت فلان، وهذا كلام فلان تكلم به

(١) تقدم تخريجه (١/٤٤٠)

(٢) تقدم تخريجه (١/٤٤٠).

وحُفِظَ، قام هذا الكلام بهذا الشريط مثلاً بعد أن قام بالتكلم، فالكلام صدر من متكلم، ولم يكن صادراً من غير متكلم، كذلك - مثلاً - الأشرطة الضوئية أو الأفلام التي تسجل الأشخاص والحركات، إذا رُوي فيها شخص قيل: هذا فلان وهذه حركته، ولا يقال: إن هذه الحركة قامت بنفسها، ولا أنه ليس هناك حركة بغير متحرك. فلا تكون حركة إلا من متحرك، ولا يكون سمع إلا من سميع، ولا يكون قول إلا من قائل.

وبهذا يُعرَف أن كلام الله تعالى ليس بمخلوق، ومن الأدلة على ذلك: أن الرسول ﷺ استعاذ بكلام الله في قوله: «أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللَّهِ التَّامَّاتِ الَّتِي لَا يَجَاوِزُهَا بَرٌّ وَلَا فَاجِرٌ»، وكذلك قوله: «أَعُوذُ بِعِزَّةِ اللَّهِ وَقُدْرَتِهِ مِنْ شَرِّ مَا أَجِدُ وَأُحَاذِرُ»، وكذلك قوله: «أَعُوذُ بِرِضَاكَ»، وقوله: «أَعُوذُ بِمُعَافَاتِكَ»، وقوله: «أَعُوذُ بِعِظَمَتِكَ»، كل ذلك استعاذة بصفة من صفات الله، لا يلزم منه أنه استعاذ بمخلوق، فُعرِف بذلك أن هذه الصفات قائمة بالموصوف، لا يمكن أن تنفصل بنفسها، فلا يمكن أن يوجد كلام إلا من متكلم قام بذلك الكلام، ولا نقص في ذلك ولا حادث.

ولا يُقال - كما تقول المعتزلة - إنه بذلك تقوم به الحوادث، بل يقال: هو الذي يفعل الأشياء وتحدث بعد أن لم تكن حادثه، وهو سبحانه عالم بذلك كله قبل أن يُوجد، وعالم بما سيحدث، وعالم بما تكلم به وما سوف يتكلم به، فلا يقال: حدث له علمٌ تجدد، أو حدث له كلامٌ، بمعنى: أنه لم يكن يعلمه، بل هو عالم بكل شيء سبحانه وتعالى. فُعرِف بذلك أن هذا لا متمسك لهم فيه.

قال الشارح:

وَكَثِيرٌ مِنْ مُتَأَخَّرِي الْحَنَفِيَّةِ عَلَى أَنَّهُ مَعْنَى وَاحِدٍ، وَالتَّعَدُّدُ وَالتَّكثُّرُ وَالتَّجَزُّؤُ
وَالتَّبَعُضُ حَاصِلٌ فِي الدَّلَالَاتِ، لَا فِي الْمَدْلُولِ. وَهَذِهِ الْعِبَارَاتُ مَخْلُوقَةٌ،
وَسُمِّيَتْ كَلَامَ اللَّهِ لِدَلَالَتِهَا عَلَيْهِ وَتَأْدِيَةِهَا، فَإِنَّ عُبْرَ بِالْعَرَبِيَّةِ فَهُوَ قُرْآنٌ، وَإِنْ
عُبْرَ بِالْعَبْرِيَّةِ فَهُوَ تَوْرَةٌ، فَاخْتَلَفَتِ الْعِبَارَاتُ لَا الْكَلَامَ. قَالُوا: وَتُسَمَّى هَذِهِ
الْعِبَارَاتُ كَلَامَ اللَّهِ مَجَازًا!

وَهَذَا الْكَلَامُ فَايِسِدُّ، فَإِنَّ لَازِمَهُ أَنْ مَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزَّيْفَ﴾
[الإسراء: ٣٢]، هُوَ مَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ [البقرة: ٤٣]، وَمَعْنَى آيَةِ
الْكَرْسِيِّ هُوَ مَعْنَى آيَةِ الدِّينِ! وَمَعْنَى سُورَةِ الْإِخْلَاصِ هُوَ مَعْنَى ﴿تَبَّتْ يَدَا
أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ [المسد: ١]، وَكُلَّمَا تَأَمَّلَ الْإِنْسَانُ هَذَا الْقَوْلَ تَبَيَّنَ لَهُ فَسَادُهُ،
وَعَلِمَ أَنَّهُ مُخَالِفٌ لِكَلَامِ السَّلَفِ.

قال الشيخ:

سبق بيان أن المؤلف حنفي المذهب، ولقد يسر الله له مشايخ اعتقدوا
عقيدة سلفية، فتلقى تلك العقيدة عنهم، وتأثر بشيخه عماد الدين ابن
كثير - رحمه الله - صاحب التفسير، وابن كثير تأثر بابن تيمية؛ حيث قرأ عليه
فصلحت عقيدته وأصلح غيره، ولهذا نجد صاحب هذا الشرح ينقل كثيرا عن
ابن تيمية وعن تلميذه ابن القيم، وإن لم يصرح بالنقل عنهم؛ وذلك لأنه لو

نقل عنها صراحة لُبْد كلامه؛ لكون كثير من الخفية لا يقبلونها؛ أولاً: لأنها من الحنابلة، وثانياً: لأنها في نظر أكثر المتأخرين قد أخطأ خطأً كبيراً بإظهار هذه العقيدة التي ليس عليها أحد في زمانها.

فالشارح - رحمه الله - يحكي عن متأخري الخفية، قولهم: إن كلام الله معنى واحد قائم بذاته ليس متعددًا، فإن عُبر عنه بالعربية فهو القرآن، أو بالعبرية فهو التوراة، أو بالسريانية فهو الإنجيل، وردَّ عليهم بأن قولهم هذا فاسد؛ لأن فيه إبطال لما تضمنه القرآن، فعلى قولهم تكون آية الكرسي مثل آية الدِّين، ويكون معنى ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ مثل معنى سورة الإخلاص، فهل يقول عاقل: إن المعنى الذي في هذه كالمعنى الذي في هذه؟ كل عاقل يقرأ يعرف أن هذه لها مدلول وهذه لها مدلول، وهكذا آية الرحمة غير آية العذاب، وآية ذكر الجنة غير آية ذكر النار، فالذي يتأمل هذه المقالة يعلم بُعدها عن الصواب.

ومع ذلك فقد قالها جموع كثيرون، انخدعوا بذلك، وساروا عليه، واعتقدوا أنه هو القول الصواب، وتلقوه عن مشايخهم، وشبهتهم التي اعتمدوا بها: هو خوفهم من أن يقولوا: إن الله متكلم، واعتقادهم أن الكلام لا يضر إلا من ذات، وأنه حادث، وأن الله منزّه عن أن تقوم به الحوادث، وقد تبين بطلان هذه المقالة.

قال الشارح:

وَالْحَقُّ: أَنَّ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَالزَّبُورَ وَالْقُرْآنَ مِنْ كَلَامِ اللَّهِ حَقِيقَةً، وَكَلَامِ اللَّهِ تَعَالَى لَا يَتَنَاهَى، فَإِنَّهُ لَمْ يَزَلْ يَتَكَلَّمُ بِمَا شَاءَ إِذَا شَاءَ كَيْفَ شَاءَ، وَلَا يَزَالُ كَذَلِكَ. قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لَكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ نُنْفِدَ كَلِمَاتِ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾ [الكهف: ١٠٩]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَمٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [القمان: ٢٧].

وَلَوْ كَانَ مَا فِي الْمُصْحَفِ عِبَارَةً عَنْ كَلَامِ اللَّهِ، وَلَيْسَ هُوَ كَلَامِ اللَّهِ، لَمَا حَرَّمَ عَلَى الْجُنُبِ وَالْمُحَدِّثِ مَسَّهُ، وَلَوْ كَانَ مَا يَقْرَأُهُ الْقَارِئُ لَيْسَ كَلَامِ اللَّهِ لَمَا حَرَّمَ عَلَى الْجُنُبِ وَالْمُحَدِّثِ قِرَاءَتَهُ، بَلْ كَلَامِ اللَّهِ مُحْفُوظٌ فِي الصُّدُورِ، مَقْرُوءٌ بِالْأَلْسِنِ، مَكْتُوبٌ فِي الْمَصَاحِفِ، كَمَا قَالَ أَبُو حَنِيفَةَ فِي «الْفِقْهِ الْأَكْبَرِ»^(١).

وَهُوَ فِي هَذِهِ الْمَوَاضِعِ كُلِّهَا حَقِيقَةٌ، وَإِذَا قِيلَ: فِيهِ خَطُّ فَلَانٍ وَكِتَابَتُهُ، فُهِمَ مِنْهُ مَعْنَى صَحِيحٍ حَقِيقِيٍّ، وَإِذَا قِيلَ: فِيهِ مِدَادٌ قَدْ كُتِبَ بِهِ، فُهِمَ مِنْهُ مَعْنَى صَحِيحٍ حَقِيقِيٍّ، وَإِذَا قِيلَ: الْمِدَادُ فِي الْمُصْحَفِ، كَانَتِ الظَّرْفِيَّةُ فِيهِ غَيْرَ الظَّرْفِيَّةِ الْمَفْهُومَةِ مِنْ قَوْلِ الْقَائِلِ: فِيهِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ، وَفِيهِ مُحَمَّدٌ وَعِيسَى، وَنَحْوَ ذَلِكَ. وَهَذَانِ الْمَعْنَيَانِ مُعَايِرَانِ لِمَعْنَى قَوْلِ الْقَائِلِ: فِيهِ خَطُّ فَلَانٍ الْكَاتِبِ، وَهَذِهِ

الْمَعَانِي الثَّلَاثَةُ مُغَايِرَةٌ لِمَعْنَى قَوْلِ الْقَائِلِ: فِيهِ كَلَامُ اللَّهِ. وَمَنْ لَمْ يَتَنَبَّهُ لِلْفُرُوقِ بَيْنَ هَذِهِ الْمَعَانِي ضَلَّ وَلَمْ يَهْتَدِ لِلصَّوَابِ.

قال الشيخ:

نبّه الشارح أن كتب الله تعالى متضمنة كلامه، وكل كتاب منها محتوي على معان غير المعاني التي في الكتب الأخرى، فالتوراة فيها أحكام، والإنجيل فيه أحكام أخرى؛ ولهذا قال عيسى - عليه السلام -: ﴿وَلِأَحَدٍ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾ [آل عمران: ٥٠]، فجاء بالتخفيف عن بني إسرائيل بأشياء قد حُرِّمَتْ في التوراة. وكذلك الزبور فيه مواعظ وأذكار وتنبهات وتذكير، وكذلك القرآن فيه أحكام، وفيه أوامر ونواهي، وفيه قصص وأمثال ونحو ذلك. فإذا كيف يقول عاقل: إن المعنى الذي في التوراة هو المعنى الذي في الإنجيل، وهو المعنى الذي في الزبور، وهو المعنى الذي في القرآن، وأن هذا عين هذا، إلا أنه اختلفت العبارة، فهذا عربي وهذا عبري وهذا سيرياني؟! نقول: هذا من أبعد البعيد، ومن أحمل المحال.

ثم إن القرآن - كما هو معروف - لا يمسّه إلا المطهرون، وعلى قول هؤلاء الأشاعرة ونحوهم أنه عبارة، بمعنى: أنه تعبير غير كلام الله، فإن الذي عبر به إما جبريل وإما محمد أو غيرهما، جعلوا كلام الله المعنى، وهم عبّروا عنه بمنزلة المترجم الذي ينقل الكلام من لغة إلى لغة، ومعلوم أنك إذا سمعت إنساناً

ينقل الكلام من العربية إلى الأوردية، تقول: هذا تعبير فلان المترجم. وعلى قولهم هذا يكون القرآن تعبير محمد أو تعبير جبريل، لا أنه نفس كلام الله، فإذا كان تعبيراً لغير الله، إنما هو تعبير للرسول، لم يكن له حرمة، وعلى هذا يجوز أن يقرأه الجنب والحائض، ويجوز أن يمسه المصحف مَنْ هو محدثٌ ولو حدثاً أكبر؛ لأنه ليس فيه كلام الله، وإنما عبارة أو حكاية أو ترجمة لكلام الله، إنما الكلام هو المعنى، وأما الحروف والألفاظ فليست هي كلام الله، فلا يكون له حرمة، وهذا خطأ.

المسلمون مجتمعون على أن هذا المصحف فيه كلام الله، بمعنى أنه مكتوب فيه، وإذا قالوا مثلاً: في هذا المصحف مدادٌ أسود وأحمر، يعنى: حبرٌ كتب به، فالمراد أن المداد مخلوق؛ لأنه كتب به، ولكن المكتوب هو كلام الله.

ولهذا يقول ابن القيم في «نونية»^(١):

إِنَّ الَّذِي هُوَ فِي الْمَصَاحِفِ مُثَبَّتٌ بِأَنَامِلِ الْأَشْيَاحِ وَالشُّبَّانِ
هُوَ قَوْلُ رَبِّي أَيُّهُ وَحُرُوفُهُ وَمَدَادُنَا وَالرَّقُّ مَخْلُوقَانِ

مدادنا: يعني حبرنا، والرَّقُّ: يعني الصحيفة، وأما الكلام فإنه ليس بمخلوق.

يقول: أنت تقول - مثلاً -: في هذا القرآن السموات والأرض والأمم. يعنى: أنها مكتوبة فيه، ولكن إذا قلت - مثلاً -: فيه مداد وحبر وأوراق، كان

(١) انظر: النونية بشرح ابن عيسى (١/٣٢٤).

لك مقصد، وإذا قلت: في هذا المصحف: السموات والأرض والجنة والنار، صدقت في أنها موجودة، يعني: مكتوب فيه، وإذا قلت: فيه كلام الله، صدقت؛ لأنه مكتوب فيه كلام الله.

فالحاصل أن اعتقاد المسلمين أن القرآن كلام الله ينفي ما يقول هؤلاء المبتدعة من أن القرآن الذي أنزل على محمد ﷺ عبارة أو حكاية عن كلام الله لا أنه عين كلام الله، وقد كتب شيخنا الشيخ محمد بن إبراهيم - رحمه الله - رسالة في الردّ على بعض الأشاعرة الذين قدموا للتدريس في هذه البلاد، وأرادوا إظهار معتقدتهم من أن القرآن حكاية أو عبارة عن كلام الله، وقد بين - رحمه الله - في تلك الرسالة مذهب أهل السنة، والرد على من يقول: إن القرآن حكاية أو عبارة عن كلام الله، لا أنه نفس كلام الله أو عينه، وقال: إنما هو كلام الله حروفه ومعانيه، ليس كلامه الحروف دون المعاني، ولا المعاني دون الحروف، والرسالة مطبوعة مفردة وضمن رسائله.

قال الشارح:

وَكَذَلِكَ الْفَرْقُ بَيْنَ الْقِرَاءَةِ الَّتِي هِيَ فِعْلُ الْقَارِئِ، وَالْمَقْرُوءِ الَّذِي هُوَ قَوْلُ
الْبَارِي، مَنْ لَمْ يَهْتَدِ لَهُ فَهُوَ ضَالٌّ أَيْضًا، وَلَوْ أَنَّ إِنْسَانًا وَجَدَ فِي وَرَقَةٍ مَكْتُوبًا:
أَلَا كُلُّ شَيْءٍ مَا خَلَا اللَّهُ بَاطِلٌ^(١).

مِنْ خَطِّ كَاتِبٍ مَعْرُوفٍ. لَقَالَ: هَذَا مِنْ كَلَامِ لَبِيدٍ حَقِيقَةٌ، وَهَذَا خَطُّ فُلَانٍ
حَقِيقَةٌ، وَهَذَا كُلُّ شَيْءٍ حَقِيقَةٌ، وَهَذَا خَبْرٌ حَقِيقَةٌ، وَلَا تَشْتَبِهْ هَذِهِ الْحَقِيقَةُ
بِالْأُخْرَى.

وَالْقُرْآنُ فِي الْأَصْلِ: مَصْدَرٌ، فَتَارَةٌ يُذَكَّرُ وَيُرَادُ بِهِ الْقِرَاءَةُ، قَالَ تَعَالَى:

﴿ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴾ [الإسراء: ٧٨]، وَقَالَ ﷺ:

« زَيَّنُوا الْقُرْآنَ بِأَصْوَاتِكُمْ »^(٢). وَتَارَةٌ يُذَكَّرُ وَيُرَادُ بِهِ الْمَقْرُوءُ، قَالَ تَعَالَى: ﴿ فَإِذَا

قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴾ [النحل: ٩٨]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ وَإِذَا

قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ [الأعراف: ٢٠٤]، وَقَالَ

ﷺ: « إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ أَنْزَلَ عَلَيَّ سَبْعَةَ أَحْرَفٍ »^(٣)، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ

(١) أخرج البخاري (٣٨٤١)، ومسلم (٢٢٥٦) من حديث أبي هريرة ؓ، قال: قال رسول الله

ﷺ: «أَصْدَقُ كَلِمَةٍ قَالَهَا الشَّاعِرُ: كَلِمَةُ لَبِيدٍ: أَلَا كُلُّ شَيْءٍ مَا خَلَا اللَّهَ بَاطِلٌ».

(٢) أخرجه أبو داود (١٤٦٨)، والنسائي (١٠١٥)، وابن ماجه (١٣٤٢)، وأحمد (٢٨٣/٤)

من حديث البراء بن عازب ؓ.

(٣) أخرجه البخاري (٢٤١٩)، ومسلم (٨١٨) من حديث عمر بن الخطاب ؓ.

وَالْأَحَادِيثِ الدَّالَّةِ عَلَى كُلِّ مِنَ الْمَعْنَيْنِ الْمَذْكُورَيْنِ.

فَالْحَقَائِقُ لَهَا وَجُودٌ عَيْنِيٌّ وَذَهْنِيٌّ وَلَفْظِيٌّ وَرَسْمِيٌّ، وَلَكِنَّ الْأَعْيَانَ تُعَلَّمُ، ثُمَّ تُذَكَّرُ، ثُمَّ تُكْتَبُ، فَكِتَابَتُهَا فِي الْمُصْحَفِ هِيَ الْمَرْتَبَةُ الرَّابِعَةُ، وَأَمَّا الْكَلَامُ فَإِنَّهُ لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْمُصْحَفِ وَاسِطَةٌ، بَلْ هُوَ الَّذِي يُكْتَبُ بِهَا وَاسِطَةٌ وَلَا لِسَانَ.

قال الشيخ:

معلوم أن هناك فرقاً بين القراءة والمقروء، فيكون عندنا قارئٌ وقراءة ومقروء، فالقارئ هو الإنسان الذي حرك شفثيه ولسانه، والقراءة هي الصوت الذي سمعناه، والمقروء هو الكلام الذي نطق به، فحركات لسانه وشفثيه مخلوقة، ولكن المقروء الذي قرأه ليس بمخلوق، ولهذا يقول العلماء - إذا عرّفوا ذلك -: الصوت صوت القارئ، والقول قول الباري. فالصوت الذي تسمعه تضيفه إلى القارئ، فتقول: هذه قراءة بصوت فلان، ولكن الكلام المقروء الذي قرأه، تقول: هذا كلام الله، سمعت كلام الله بصوت القارئ فلان صاحب الصوت الحسن، والذي قرأته فيها تخشعٌ وتذلُّلٌ.

وتأتي القراءة بمعنى المقروء، وتأتي كلمة القرآن بمعنى القراءة، واستدل الشارح على ذلك بقوله تعالى: ﴿ وَقُرْءَانَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ الْفَجْرِ كَانَتْ مَشْهُودًا ﴾ [الإسراء: ٧٨]، والمراد هنا: القراءة التي تُقرأ في صلاة الفجر، فهي

مشهودة؛ تشهدها ملائكة الليل وملائكة النهار، فعبر عن القراءة بالقرآن، وكذلك قول النبي ﷺ: «رَبُّنَا الْقُرْآنَ بِأَصْوَاتِكُمْ»، المراد: قراءته، فهنا عبر عن القرآن بالقراءة.

وأحياناً تستعمل كلمة القرآن ويراد بها المقروء، يعني: الكلام الذي يقرأ، وهو كلام الله، كما في الآيات الأخرى، كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ﴾ [طه: ١١٤]، وقوله: ﴿لَا تَحْرِكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ﴾ (١٦) [النجم: ١٦، ١٧]، يعني: قراءته.

فإذا عرفنا أنه حيثما قرئ وحيثما كتب فهو كلام الله، نقول: إن كلام الله تعالى هو المعنى المكتوب في المصاحف، المسموع بالأذان، المقروء بالألسن، ونقول أيضاً: إن كل هذه التصرفات لا تخرجه عن كونه كلام الله، ونقول إن المخلوق من ذلك ما للآدميين؛ فالأوراق مخلوقة، والمداد مخلوق، والأيدي التي تكتب والحروف التي يطبع بها مخلوقة، ولكن نفس الكلام غير مخلوق، بل هو كلام الله تعالى، وكل ما يضاف إلى الله فليس بمخلوق.

فالخاصة: أنه كيفما كتب، وكيفما قرئ لم يخرج عن كونه كلام الله تكلم به حقيقة، يُمثل ذلك بأن كل من سمع كلاماً نسبته إلى من تكلم به أولاً، فإذا سمع شعراً من شعر لبيد - مثلاً - يقول: هذا كلام لبيد، وهو أحد الشعراء المشهورين، وقد مدح النبي ﷺ شعره، فقال: «لَأَصْدُقُ كَلِمَةً قَالَهَا شَاعِرٌ، كَلِمَةً

لبيد: **أَلَا كُلُّ شَيْءٍ مَا خَلَا اللَّهَ بَاطِلٌ** ^(١).

فإذا رأيت ورقة مكتوباً فيها شطر هذا البيت قلت: هذا كلام لبيد حقيقة، وهذا خطأ فلان حقيقة، وهذه كلمة: «كُلُّ شَيْءٍ»، موجودة في هذه الورقة حقيقة، وفي الحقائق ما بينها بُرُق، حقيقة وحقيقة وحقيقة. فإذا سمعت في الإذاعة صوت قارئ يقرأ القرآن، قلت: هذا كلام الله حقيقة، وهذه الإذاعة إذاعة القرآن حقيقة، وهذه سورة القصص حقيقة، وهذا كلام الله حقيقة، ولا تنافي بين هذه الحقائق: كلام الله، وقراءة فلان، وإذاعة القرآن، وما أشبه ذلك... تقول على الجميع: إنه حقيقة ولا تخالف بين الحقائق. فكيف يدعون أنه لا يمكن أن يعبرَ بالقرآن عن شيئين، ما دمنا نعرف أنه يُعبرُ به عن القراءة بقوله ﷺ: «زَيَّنُوا الْقُرْآنَ بِأَصْوَاتِكُمْ»، يعني: القراءة، ويعبرُ به عن المقروء بقوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩]، وكسلا التعبيرين لا ينافي الآخر، فكذلك بقية الحقائق.

قال الشارح:

وَالْفَرْقُ بَيْنَ كَوْنِهِ فِي زُبْرِ الْأَوَّلِينَ، وَبَيْنَ كَوْنِهِ فِي رَقٍّ مَنَشُورٍ، أَوْ لَسُوجٍ مَحْفُوظٍ، أَوْ فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ: وَاضِحٌ.

فَقَوْلُهُ عَنِ الْقُرْآنِ: ﴿وَإِنَّهُ لَفِي زُبْرِ الْأَوَّلِينَ﴾ [الشعراء: ١٩٦]، أَيْ ذَكَرَهُ وَوَصَفَهُ وَالْإِخْبَارَ عَنْهُ، كَمَا أَنَّ مُحَمَّدًا مَكْتُوبٌ عِنْدَهُمْ؛ إِذِ الْقُرْآنُ أَنْزَلَهُ اللَّهُ عَلَى مُحَمَّدٍ، لَمْ يُنْزَلْهُ عَلَى غَيْرِهِ أَصْلًا، وَلِهَذَا قَالَ فِي الزُّبْرِ، وَلَمْ يَقُلْ فِي الصُّحُفِ، وَلَا فِي الرَّقِّ؛ لِأَنَّ الزُّبْرَ جَمْعُ زُبُورٍ، وَالزُّبَيْرُ هُوَ: الْكِتَابَةُ وَالْجَمْعُ، فَقَوْلُهُ: ﴿وَإِنَّهُ لَفِي زُبْرِ الْأَوَّلِينَ﴾، أَيْ: مَزْبُورِ الْأَوَّلِينَ، فَفِي نَفْسِ اللَّفْظِ وَاشْتِقَاقِهِ مَا يُبَيِّنُ الْمَعْنَى الْمُرَادَ، وَيُبَيِّنُ كَمَا لَبَّيْنَا الْقُرْآنَ وَحُلُوصِهِ مِنَ اللَّبْسِ.

وَهَذَا مِثْلُ قَوْلِهِ: ﴿الَّذِي يَحْدُوثُهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ﴾ [الأعراف: ١٥٧]، أَيْ:

ذِكْرُهُ، بِخِلَافِ قَوْلِهِ: ﴿فِي رَقٍّ مَنَشُورٍ﴾ [الطور: ٣]، أَوْ ﴿لَسُوجٍ مَحْفُوظٍ﴾ [البروج: ٢٧]، أَوْ ﴿فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ﴾ [الواقعة: ٧٨]؛ لِأَنَّ الْعَامِلَ فِي الظَّرْفِ إِذَا أَنْ يَكُونُ مِنَ الْأَفْعَالِ الْعَامَّةِ، مِثْلَ الْكُونِ وَالِاسْتِقْرَارِ وَالْحُضُورِ وَنَحْوِ ذَلِكَ، أَوْ يُقَدَّرُ: مَكْتُوبٌ فِي كِتَابٍ، أَوْ فِي رَقٍّ. وَالْكِتَابُ: تَارَةً يُذَكَّرُ وَيُرَادُ بِهِ مَحَلُّ الْكِتَابَةِ، وَتِلَاوَةً يُذَكَّرُ وَيُرَادُ بِهِ الْكَلَامُ الْمَكْتُوبُ، وَيَجِبُ التَّفْرِيْقُ بَيْنَ كِتَابَةِ الْكَلَامِ فِي الْكِتَابِ، وَكِتَابَةِ الْأَعْيَانِ الْمَوْجُودَةِ فِي الْخَارِجِ فِيهِ، فَإِنَّ تِلْكَ إِنَّمَا يُكْتَبُ ذِكْرُهَا. وَكُلَّمَا تَلَا بِهَا الْإِنْسَانُ هَذَا الْمَعْنَى وَضَحَّ لَهُ الْفَرْقُ.

قال الشيخ:

جاء وصف القرآن في كتب الأمم السابقة، قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ﴾ [الشعراء: ١٩٦]، وليس معنى هذه الآية أنه أنزل على الأولين، فما أنزل إلا على نبينا محمد ﷺ، لكن معناها أنه مذكور في زُبر الأولين، والزبر هي الصحف، واحدها: زُبُور، أي: ذكر هذا القرآن ومدحه موجود في تلك الصحف التي أنزلت على الأنبياء السابقين، هذا معنى كونه في زبر الأولين. مثل أن تقول: محمد ﷺ في التوراة والإنجيل، أي: مذكور اسمه أو وصفه أو نبوته في التوراة وفي الإنجيل، كما قال تعالى: ﴿الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ﴾ [الأعراف: ١٥٧]، يعني: ذكره وصفته واسمه ونبوته وآياته ومعجزاته. والذين قرؤوا التوراة يعرفون وصفه، كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ﴾ [البقرة: ١٤٦].

أما قول الله تعالى: ﴿فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ﴾ [البروج: ٢٢]، ﴿فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ﴾ [الواقعة: ٧٨]، فهذا معناه: أن القرآن مكتوب في اللوح المحفوظ، ففي الحديث: «أَوَّلُ مَا خَلَقَ اللَّهُ تَعَالَى الْقَلَمَ، قَالَ لَهُ: اكْتُبْ، فَجَرَى فِي تِلْكَ السَّاعَةِ بِمَا هُوَ كَائِنٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ»^(١)، فجرى بما هو كائن، وكتب الكلام الذي تكلم به في

(١) تقدم تخرجه (١/ ٤٨١)، وسيأتي الكلام عليه في تعليق سماحة الشيخ على قول الطحاوي:

«وَنُؤْمِنُ بِاللَّوْحِ وَالْقَلَمِ، وَبِجَمِيعِ مَا فِيهِ قَدَّرْتُمُ».

اللوح المحفوظ - الذي يسمّى أمّ الكتب، ويسمى الإمام؛ ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ [يس: ١٢]، ويسمى الكتاب المكنون، فالقرآن - سورته، وآياته، وحروفه، وكلماته - في الكتاب المكنون الذي هو اللوح المحفوظ، الذي لا يمسه إلا المطهرون، والذي هو تنزيلٌ من ربِّ العالمين.

فلا فرق بين هذا وهذا، وليس كما يدّعون أنه لم يكن موجوداً ثم خلق.. قالوا: خلقه الله كما خلق الإنسان، وكما خلق سائر المخلوقات، ولو كان كذلك لما سمّاه تنزيلاً، والله قد أفصح بأنه مُنزل، وبأنه تنزيلٌ، ولم يذكر أنه مخلوق، ولا أنه خلقه، ولو كان مخلوقاً لذكره في موضعٍ واحدٍ حتى يُحمّل عليه بقية الأماكن التي فيها ذكر التنزيل.

قال الشارح:

وَحَقِيقَةُ كَلَامِ اللَّهِ تَعَالَى الْخَارِجِيَّةُ: هِيَ مَا يُسْمَعُ مِنْهُ أَوْ مِنَ الْمُبَلِّغِ عَنْهُ، فَإِذَا سَمِعَهُ السَّمِيعُ عِلْمَهُ وَحَفِظَهُ، فَكَلَامُ اللَّهِ مَسْمُوعٌ لَهُ مَعْلُومٌ مَحْفُوظٌ، فَإِذَا قَالَهُ السَّمِيعُ فَهُوَ مَقْرُوءٌ لَهُ مَثَلًا، فَإِنْ كَتَبَهُ فَهُوَ مَكْتُوبٌ لَهُ مَرْسُومٌ. وَهُوَ حَقِيقَةٌ فِي هَذِهِ الرُّجُوهِ كُلِّهَا لَا يَصِحُّ نَفْيُهُ، وَالْمَجَازُ يَصِحُّ نَفْيُهُ، فَلَا يَجُوزُ أَنْ يُقَالَ: لَيْسَ فِي الْمُصْحَفِ كَلَامُ اللَّهِ، وَلَا مَا قَرَأَ الْقَارِئُ كَلَامَ اللَّهِ، وَقَدْ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلِمَ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٦]، وَهُوَ لَا يَسْمَعُ كَلَامَ اللَّهِ مِنَ اللَّهِ، وَإِنَّمَا يَسْمَعُهُ مِنْ مُبَلِّغِهِ عَنِ اللَّهِ. وَالْآيَةُ تَدُلُّ عَلَى فِسَادِ قَوْلِ مَنْ قَالَ: إِنَّ الْمَسْمُوعَ عِبَارَةٌ عَنِ كَلَامِ اللَّهِ وَلَيْسَ هُوَ كَلَامُ اللَّهِ، فَإِنَّهُ تَعَالَى قَالَ: ﴿حَتَّى يَسْمَعَ كَلِمَ اللَّهِ﴾، وَلَمْ يَقُلْ حَتَّى يَسْمَعَ مَا هُوَ عِبَارَةٌ عَنِ كَلَامِ اللَّهِ. وَالْأَصْلُ الْحَقِيقَةُ، وَمَنْ قَالَ: إِنَّ الْمَكْتُوبَ فِي الْمَصْحَفِ عِبَارَةٌ عَنِ كَلَامِ اللَّهِ، أَوْ حِكَايَةُ كَلَامِ اللَّهِ، وَلَيْسَ فِيهَا كَلَامُ اللَّهِ، فَقَدْ خَالَفَ الْكِتَابَ وَالسُّنَّةَ وَسَلَفَ الْأُمَّةِ، وَكَفَى بِذَلِكَ ضَلَالًا.

قال الشيخ:

بيِّن الشارح أنَّ كَلَامَ اللَّهِ تَعَالَى هُوَ الْحُرُوفُ وَالْمَعَانِي، وَأَنَّ اللَّهَ تَكَلَّمَ بِهِ حَقِيقَةً، وَلَكِنْ بَلَّغَهُ رَسُولُهُ فَكَلَّمَ بِهِ الرَّسُولَ الْمَلَكِيَّ، وَنَزَلَ بِهِ الْمَلَكُ عَلَى الرَّسُولِ الْبَشَرِيِّ، كَمَا أَخْبَرَ النَّبِيُّ ﷺ فِي كَيْفِيَةِ نَزُولِ الْوَحْيِ، فِي قَوْلِهِ: «وَيَتَمَثَّلُ

لِي الْمَلِكِ أَحْيَانًا رَجُلًا فَيُكَلِّمُنِي، فَأُعْجِبِي مَا يَقُولُ»^(١)، يعني: أن من الوحي ما يكون نزوله عليه أن يتمثل له الملك في صورة رجل، ومعلوم أن كلام الله تعالى مسموع بالأذان، ولهذا قال تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلِمَ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٦]، وقال تعالى: ﴿سَيَقُولُ الْمُشْكِفُونَ إِذَا أَنْطَلَقْتُمْ إِلَى مَعَانِرِ لِنَأْخُذُوا ذُرُوعًا وَنَنْعَيْكُمْ يُرِيدُونَ أَنْ يَسْجُدُوا كَلِمَ اللَّهِ﴾ [الفتح: ١٥]، فصرح بأنه كلام الله. وفي آيات أخرى فيها التصريح بذلك؛ قال تعالى: ﴿وَمَنْهُمْ أُمِّيُونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِينَ وَإِنْهُمْ إِلَّا يَطْنُونَ﴾ [البقرة: ٧٨]، ﴿الْكِتَابَ﴾، يعني: الكتابة، ﴿إِلَّا أَمَانِينَ﴾، يعني: تلاوة دون فهم، وعبر بذلك عن القراءة، ثم قال: ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُمُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لَيْسَتْ رُءُوبُهُمْ ثُمَّ نَمِنُوا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْتُمُونَ﴾ [البقرة: ٧٩].

والحاصل: أن سماع كلام الله ممكن، ولكن ليس المراد أنه يسمع كلام الله من الله، بل المراد أن يُسمع ممن يقرؤه وينجزه بأنه كلام الله، إنها الذي سَمِعَ كلام الله من الله وجاء الدليل على ذلك: موسى عليه السلام، كما قال تعالى: ﴿يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلِمَاتِي﴾ [الأعراف: ١٤٤]، وقال: ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ﴾ [الأعراف: ١٤٣]، فأخبر الله أن موسى

(١) أخرجه البخاري (٢، ٣٢١٥)، ومسلم (٢٣٣٣) من حديث عائشة رضي الله عنها.

سمع كلام الله منه إليه، وكذلك نبينا ﷺ لما أُسري به، كلمه الله منه إليه، فكل ذلك يفيد أن كلام الله تعالى مسموع.

أما الصوت الذي نسمعه من قارئ القرآن فمعلوم أنا لا نقول: إن هذا الصوت هو صوت الله تعالى، وإنما نقول: المتكلم به هو كلامُ الله، والذي أسمعنا إياه هو هذا القارئ، فسمعنا كلام الله من هذا القارئ، فهذا الفرق بين السماع وبين المقروء والقارئ.

قال الشارح:

وَكَلَامُ الطَّحَاوِيِّ - رَحْمَةُ اللَّهِ - يُرَدُّ قَوْلَ مَنْ قَالَ: إِنَّهُ مَعْنَى وَاحِدٍ لَا يَتَّصِرُ
سَمَاعُهُ مِنْهُ، وَأَنَّ الْمَسْمُوعَ الْمُنَزَّلَ الْمَقْرُوءَ وَالْمَكْتُوبَ لَيْسَ كَلَامَ اللَّهِ، وَإِنَّمَا هُوَ
عِبَارَةٌ عَنْهُ. فَإِنَّ الطَّحَاوِيَّ - رَحْمَةُ اللَّهِ - يَقُولُ: (كَلَامُ اللَّهِ مِنْهُ بَدَأَ)، وَكَذَلِكَ قَالَ
غَيْرُهُ مِنَ السَّلَفِ، وَيَقُولُونَ: مِنْهُ بَدَأَ، وَإِلَيْهِ يَعُودُ. وَإِنَّمَا قَالُوا: مِنْهُ بَدَأَ؛ لِأَنَّ
الْجَهْمِيَّةَ مِنَ الْمُعْتَزِلَةِ وَغَيْرِهِمْ كَانُوا يَقُولُونَ: إِنَّهُ خَلَقَ الْكَلَامَ فِي مَحَلٍّ، فَبَدَأَ
الْكَلَامَ مِنْ ذَلِكَ الْمَحَلِّ. فَقَالَ السَّلَفُ: مِنْهُ بَدَأَ، أَي: هُوَ الْمُتَكَلِّمُ بِهِ، فَمِنْهُ بَدَأَ، لَا
مِنْ بَعْضِ الْخُلُوقَاتِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾
[الزمر: ١]، ﴿وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي﴾ [السجدة: ١٣]، ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُّوسِ
مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ﴾ [النحل: ١٠٢].

وَمَعْنَى قَوْلِهِمْ: وَإِلَيْهِ يَعُودُ: يُرْفَعُ مِنَ الصُّدُورِ وَالْمَصَاحِفِ، فَلَا يَبْقَى فِي
الصُّدُورِ مِنْهُ آيَةٌ وَلَا فِي الْمَصَاحِفِ. كَمَا جَاءَ ذَلِكَ فِي هِدْيَةِ أَنْبَاءِ.

قال الشيخ:

قوله: (مِنْهُ بَدَأَ، وَإِلَيْهِ يَعُودُ)، صريح في رد قول المعتزلة الذين ادَّعوا أنه
خلقه، وأن الذي تكلم به البشر. فلا يكون كلام الله، إنما يكون كلام ذلك
الذي ابتداء كلامه إذا كان مخلوقاً، معناه: أن الله - تعالى الله - خلقه في غيره، وإذا
خلقته في غيره كان ذلك الغير هو الذي ابتداء به، وهو أول مَنْ تكلَّم به،

والسلف أطبقوا على قولهم في وصف القرآن: (كَلَامُ اللَّهِ مِنْهُ بَدَأَ وَإِلَيْهِ يَعُودُ)،
يعني: ابتداء الكلام من الله تعالى، وهو الذي تكلم به.

ويقول العلماء - أيضًا - بل والبلغاء: إن الكلام إنما يُضافُ إلى من قاله
مبتدئًا، لا إلى من قاله مبلِّغًا مؤديًا، فالذي ابتداءً رسالةً وكتبها من إنشائه، ثم
أعطها قارئًا يقرؤها، يقال: هذه من كتابة زيد، أو من إنشائه، سمعناها من
عمرو حينما قرأها عمرو، فالقارئ إنما بَلَّغ، والمبتدئ بالكلام هو الذي أنشأ،
فهكذا نقول: سمعنا كلام الله من قراءة فلان.

ورد في الأحاديث أن القرآن في آخر الزمان يرفع من الدنيا^(١)، وذلك
عندما يقلُّ العملُ به، فيُرفع من الصدور، ويُمسح من المصاحف، فتصبحُ
المصاحفُ بيضاء ليس فيها شيء، وذلك علامة على انقضاء الدنيا وقرب
زوالها، وهذا معنى قولهم: (مِنْهُ بَدَأَ، وَإِلَيْهِ يَعُودُ)، يُرَدُّ إِلَيْهِ سبحانه ويُرفع من
هذه الحياة.

(١) كما في حديث حُدَيْفَةَ بْنِ الْيَمَانِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يُنْدَرَسُ الْإِسْلَامُ كَمَا يَنْدَرَسُ
وَسَيْبُ النَّوْبِ، حَتَّى لَا يُدْرَى مَا صِيَامٌ وَلَا صَلَاةٌ وَلَا نُسُكٌ وَلَا صَدَقَةٌ، وَكَيْسَرَى عَلَى كِتَابِ
اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي لَيْلَةٍ، فَلَا يَبْقَى فِي الْأَرْضِ مِنْهُ آيَةٌ، وَتَبْقَى طَوَائِفُ مِنَ النَّاسِ؛ الشَّيْخُ الْكَبِيرُ
وَالْعَجُوزُ يَقُولُونَ: أَدْرَكْنَا آبَاءَنَا عَلَى هَذِهِ الْكَلِمَةِ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، فَذَمُّوا نَبِيَّنا. أَخْرَجَهُ ابْنُ
مَاجَهَ (٤٠٤٩)، وَابْنُ حِبَّانَ (٢٦٦/١٥)، وَالْحَاكِمُ (٤٧٣/٤)، وَابْنُ أَبِي عَاصِمٍ فِي شُعْبِ الْإِيمَانِ
(٣٥٦/٢). وَصَحَّحَ إِسْنَادَهُ الْبُوصَيْرِيُّ فِي مِصْبَاحِ الرَّجَاجَةِ (١٩٤/٤)، وَقَوَّى إِسْنَادَهُ ابْنُ
حَجْرٍ فِي الْفَتْحِ (١٦/١٣).

ولا شك أن رفعه مصيبة كبيرة ولكن الذين يُرفع من بين أيديهم لا يشعرون بالمصيبة، بل لا يهمهم، بل ربما يُهينونه ويمتهنونهم، كما في بعض الدول عندهم بعض الملاحدة والزنادقة والشيوعيين والمنافقين يدوسون كلام الله بأحذيتهم - تعالى الله، وعليهم ما يستحقونه من عقاب الله - فإذا انتشر هذا الكفر في الأرض، وأطبق على البلاد كلها، ولم يبقَ أحد يعرف حرمة كلام الله تعالى، عند ذلك يرفع هذا القرآن، ولا يبقى منه حرف.

وهذه منذرات وأمارات على قرب انقضاء الحياة الدنيا، لكن نحن في هذه الحياة ما دُمننا نرى من يعظمه ويحترمه ويقروّه ويتلوّه، فإننا نؤمل خيراً إن شاء الله.

قال الشارح:

وَقَوْلُهُ: (بِلَا كَيْفِيَّةٍ)، أَي: لَا تُعْرَفُ كَيْفِيَّةُ تَكَلُّمِهِ بِهِ قَوْلًا لَيْسَ بِالْمَجَازِ،
 (وَأَنْزَلَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَحِيًّا)، أَي: أَنْزَلَهُ إِلَيْهِ عَلَى لِسَانِ الْمَلِكِ، فَسَمِعَهُ الْمَلِكُ
 جَبْرِيلُ مِنَ اللَّهِ، وَسَمِعَهُ الرَّسُولُ ﷺ مِنَ الْمَلِكِ، وَقَرَأَهُ عَلَى النَّاسِ. قَالَ تَعَالَى:
 ﴿وَقَرَأَهُ أَنَا فَرَقَنَاهُ لِقَرَأَةِ عَلَى النَّاسِ عَلَى مَكَّةٍ وَنَزَلْنَاهُ نَزِيلًا﴾ [الإسراء: ١٠٦]، وَقَالَ
 تَعَالَى: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ﴾ (١٣٣) ﴿عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾ (١٣٦) ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ
 مُبِينٍ﴾ [الشعراء: ١٩٣-١٩٥]، وَفِي ذَلِكَ إِثْبَاتُ صِفَةِ الْعُلُوِّ لِلَّهِ تَعَالَى.

قال الشيخ:

يقول بعض العلماء: إنه تتبع ذكر القرآن في المصحف، فوجد ذكره في أكثر
 من خمسين موضعاً، وغالباً يذكر بلفظ الإنزال والتنزيل، ولم يذكر بلفظ الخلق،
 ذكر بلفظ «الجعل» في قوله: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾ [الزخرف: ٣]، ولكن
 فُسِّرَ الْجَعْلُ بِأَنَّهُ التَّصْيِيرُ، يَعْنِي: صَيَّرَنَاهُ عَرَبِيًّا؛ لِأَنَّهُ أَنْزَلَ عَلَى قَوْمٍ مِنَ الْعَرَبِ
 لِيَفْهَمُوهُ وَلِيُعَلِّمُوهُ لِمَنْ بَعْدَهُمْ أَوْ غَيْرِهِمْ، وَذَكَرَ الْقُرْآنُ بِلَفْظِ الْإِنْزَالِ؛ كَمَا فِي
 قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿نَزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ﴾ [يس: ٥]، وَقَوْلُهُ: ﴿نَزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ
 الرَّحِيمِ﴾ [فصلت: ٢]، وَقَوْلُهُ: ﴿وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَشْكُرُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِّنَ
 رَبِّكَ بِالْحَقِّ﴾ [الأنعام: ١١٤]، وَقَوْلُهُ: ﴿نَزِيلٌ مِّنَ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢]،
 وَكُلُّ ذَلِكَ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهُ مَنْزَلٌ مِنَ اللَّهِ.

واستدلُّوا بذلك أيضًا على صفة العلو؛ لأن النزول لا يكون إلا من فوق،
فالقرآن منزل من الله تعالى، والله تعالى فوق سمواته كما يشاء، والقرآن نزل
منه، والذي نزل به هو الملك، والذي نُزِّلَ عليه هو الرسول ﷺ، وكذلك
الرسول قبله أنزلت عليهم هذه الكتب التي فيها الشرائع التي شرَّعت لهم.
فالتنزيل يدلُّ على أنه نزل بعد أن تكلم الله به، وكتبه في اللوح المحفوظ
وأمر به الملك، فأنزله على رسوله، فأصبح متلوًّا مقروءًا، ولم يخرج بذلك كله
عن كونه كلام الله سبحانه وتعالى.

قال الشارح:

وَقَدْ أُورِدَ عَلَى ذَلِكَ أَنَّ إِنْزَالَ الْقُرْآنِ نَظِيرُ إِنْزَالِ الْمَطَرِ، وَإِنْزَالِ الْحَدِيدِ،
وَإِنْزَالِ ثَمَانِيَةِ أَرْوَاحٍ مِنَ الْأَنْعَامِ.

وَالْجَوَابُ: أَنَّ إِنْزَالَ الْقُرْآنِ فِيهِ مَذْكَورٌ أَنَّهُ إِنْزَالٌ مِنَ اللَّهِ، قَالَ تَعَالَى:

﴿حَمَّ ① تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ [غافر: ١، ٢]، وَقَالَ تَعَالَى:

﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ [الجنابة: ٢]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ

الرَّحِيمِ﴾ [فصلت: ٢]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢]،

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ مُبْرَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ②﴾ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ

حَكِيمٍ ③ أَمْرًا مِنْ عِنْدِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾ [الدخان: ٣، ٥]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَأَنْزَلْنَا

بِكِتَابٍ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَى مِنْهُمَا أَنْبِئَهُ إِذْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [القصص: ٤٩]،

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ يُرِيدُونَ مِنَ اللَّهِ تَجَارَةً يَخِفُّونَ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ﴾

[الأنعام: ١١٤]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ﴾

[النحل: ١٠٢].

وَإِنْزَالِ الْمَطَرِ مُقْتَبِدٌ بِأَنَّهُ مُنْزَلٌ مِنَ السَّمَاءِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ

مَاءً﴾ [الأنعام: ٩٩]، وَالسَّمَاءُ: الْعُلُوُّ، وَقَدْ جَاءَ فِي مَكَانٍ آخَرَ أَنَّهُ مُنْزَلٌ مِنَ الْمَزْنِ،

وَالْمَزْنُ: السَّحَابُ، وَفِي مَكَانٍ آخَرَ أَنَّهُ مُنْزَلٌ مِنَ الْمُنْصِرَاتِ.

وَإِنْزَالِ الْحَدِيدِ وَالْأَنْعَامِ مُطْلَقٌ، فَكَذَلِكَ يَسْتَبِينُ هَذَا الْإِنْزَالُ بِهَذَا الْإِنْزَالِ،

وَهَذَا الْإِنْزَالُ بِهَذَا الْإِنْزَالِ؟! فَالْحَدِيدُ إِنَّمَا يَكُونُ مِنَ الْمَعَادِنِ الَّتِي فِي الْجِبَالِ، وَهِيَ عَالِيَةٌ عَلَى الْأَرْضِ، وَقَدْ قِيلَ: إِنَّهُ كُنَّا كَانَ مَعْدِنُهُ أَعْلَى كَمَا كَانَ حَدِيدُهُ أَجْوَدَ. وَالْأَنْعَامُ مُخْلَقٌ بِالتَّوَالِدِ الْمُسْتَلْزِمِ إِنْزَالَ الذُّكُورِ الْمَاءَ مِنْ أَصْلَابِهَا إِلَى أَرْحَامِ الْإِنَاثِ، وَهَذَا يُقَالُ: أَنْزَلَ، وَلَمْ يُنْزَلَ. ثُمَّ الْأَجِنَّةُ تَنْزِلُ مِنْ بَطُونِ الْأُمّهَاتِ إِلَى وَجْهِ الْأَرْضِ، وَمَنْ الْمَعْلُومِ أَنَّ الْأَنْعَامَ تَعْلُو فُحُوهَا إِنَائِهَا عِنْدَ الْوَطْءِ، وَيَنْزِلُ مَاءُ الْفَحْلِ مِنْ عُلُوِّ إِلَى رَحِمِ الْأُنْثَى، وَتُلْقِي وَلَدَهَا عِنْدَ الْوِلَادَةِ مِنْ عُلُوِّ إِلَى سَفْلٍ. وَعَلَى هَذَا فَيُحْتَمَلُ قَوْلُهُ: ﴿وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ﴾ [الزمر: ٦]، وَجَهَيْنِ:

أَحَدُهُمَا، أَنْ تَكُونَ (مِنْ) لِيَبَيِّنَ الْجِنْسِ.

الثَّانِي: أَنْ تَكُونَ (مِنْ) لِابْتِدَاءِ الْعَايَةِ.

وَهَذَانِ الْوَجْهَانِ يُحْتَمَلَانِ فِي قَوْلِهِ: ﴿جَعَلَ لَكُمْ مِنَ أَنْفُسِكُمْ أَنْزُلًا وَمِنْ

الْأَنْعَامِ أَنْزُلًا﴾ [الشورى: ١١].

قال الشيخ:

أورد الشارح اعتراضات البعض في فهمهم آيات التنزيل التي وصف الله بها القرآن، والله تعالى كلما ذكر القرآن ذكره بلفظ الإنزال، ولم يذكره بلفظ الخلق، لم يقل خلقنا القرآن، وإنما يقول: أنزلنا القرآن، ثم يزيد على ذلك أنه منزل من الله، أو من عند الله، ولا شك أن هذا يدل على الاختصاص، وكلمة الإنزال تعرف العرب معناها، أنه لا يكون الإنزال إلا من الأعلى، أنزله: أي

جاء به بعد أن كان ربيعاً، فتقول: أنزلت الدلو في البئر، أو نزلته إذا دلتته من أعلى إلى أسفل، وتقول: نزل فلان من السطح ومن الجبل ومن ظهر المركوب الذي هو راكبه، نزل منه بعد أن كان مرتفعاً.

فلما كان الإنزال من العلو، فالقرآن كذلك نازل من العلو، نازل من السماء، نازل من الله تعالى، منزل من ربك، هذا حقيقة ما ذكر الله عن القرآن، وليس مثل إنزال المطر، فإنزال المطر مقيد بأنه من السماء، أو بأنه من المزن، أو بأنه من المعصرات... ونحوهما، وإن كان الله هو الذي أنشأه وخلقه فيها.

وإنزال الحديد معناه: خلقه وإيجاده، ولكن أوجده في العلو، ثم نزل إلى السفلى، فالمعادن والمناجم عادة تكون في جوف الأرض، فهي مخلوقة في الجبال، ثم تذوب وتنزل إلى جوف الأرض، أو نحو ذلك، وكذلك قد يُعثر عليها وهي في رؤوس الجبال، فينزلونها من الجبال، ولا شك أن ذلك كله إنزال حقيقي، فهو إنزال، ولكن لم يقل: إنه من عند الله، فحصل بذلك الفرق الكبير بين إنزالها وبين إنزال القرآن.

قال الشارح:

وَقَوْلُهُ: (وَصَدَقَهُ الْمُؤْمِنُونَ عَلَى ذَلِكَ حَقًّا)، الْإِشَارَةُ إِلَى مَا ذَكَرَهُ مِنَ التَّكَلُّمِ
بِهِ عَلَى الْوَجْهِ الْمَذْكُورِ وَإِنزَالِهِ، أَي: هَذَا قَوْلُ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ،
وَهُمُ السَّلَفُ الصَّالِحُ، وَأَنَّ هَذَا حَقٌّ وَصِدْقٌ.

وَقَوْلُهُ: (وَأَيَقِنُوا أَنَّهُ كَلَامُ اللَّهِ تَعَالَى بِالْحَقِيقَةِ لَيْسَ بِمَخْلُوقٍ كَكَلَامِ
الْبَرِيَّةِ)، رَدُّهُ عَلَى الْمُعْتَرِزَةِ وَعَبَّرَ عَنْ هَذَا الْقَوْلِ ظَاهِرًا. وَفِي قَوْلِهِ: (بِالْحَقِيقَةِ)، رَدُّ
عَلَى مَنْ قَالَ: إِنَّهُ مَعْنَى وَاحِدًا قَامَ بِذَاتِ اللَّهِ لَمْ يُسْمَعْ مِنْهُ، وَإِنَّمَا هُوَ الْكَلَامُ
النَّفْسَانِيُّ؛ لِأَنَّهُ لَا يُقَالُ لِمَنْ قَامَ بِهِ الْكَلَامُ النَّفْسَانِيُّ وَلَمْ يَتَكَلَّمْ بِهِ: إِنَّ هَذَا كَلَامٌ
حَقِيقَةٌ، وَإِلَّا لِلزَّمِ أَنْ يَكُونَ الْأَخْرَسُ مُتَكَلِّمًا، وَلِزَمَ أَنْ لَا يَكُونَ الَّذِي فِي
الْمُصْحَفِ عِنْدَ الْإِطْلَاقِ هُوَ الْقُرْآنُ وَلَا كَلَامُ اللَّهِ، وَلَكِنْ عِبَارَةٌ عَنْهُ لَيْسَتْ هِيَ
كَلَامُ اللَّهِ، كَمَا لَوْ أَشَارَ أَخْرَسٌ إِلَى شَخْصٍ بِإِشَارَةٍ فَهَمَّ بِهَا مَقْصُودُهُ، فَكَتَبَ
ذَلِكَ الشَّخْصُ عِبَارَتَهُ عَنِ الْمَعْنَى الَّذِي أَوْحَاهُ إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَخْرَسُ، فَالْمَكْتُوبُ هُوَ
عِبَارَةٌ ذَلِكَ الشَّخْصِ عَنِ الْمَعْنَى. وَهَذَا الْمَثَلُ مُطَابِقٌ غَايَةَ الْمُطَابَقَةِ لِمَا
يَقُولُونَهُ، وَإِنْ كَانَ اللَّهُ تَعَالَى لَا يُسَمِّيهِ أَحَدٌ أَخْرَسًا، لَكِنْ عِنْدَهُمْ أَنَّ الْمَلِكَ فَهَمَّ
مِنْهُ مَعْنَى قَائِمًا بِنَفْسِهِ، لَمْ يَسْمَعْ مِنْهُ حَرْفًا وَلَا صَوْتًا، بَلْ فَهَمَّ مَعْنَى مُجَرَّدًا، ثُمَّ عَبَّرَ
عَنْهُ، فَهُوَ الَّذِي أَحَدَثَ نَظْمَ الْقُرْآنِ وَتَأَلَّفَهُ الْعَرَبِيُّ، أَوْ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ فِي بَعْضِ
الْأَجْسَامِ كَالهَوَاءِ الَّذِي هُوَ دُونَ الْمَلِكِ هَذِهِ الْعِبَارَةُ.

وَيُقَالُ لِمَنْ قَالَ إِنَّهُ مَعْنَى وَاحِدًا: هَلْ سَمِعَ مُوسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ - بِجَمِيعِ
الْمَعْنَى أَوْ بَعْضِهَا؟ فَإِنْ قَالَ: سَمِعْتُهُ كُلَّهُ، فَقَدْ زَعَمَ أَنَّهُ سَمِعَ بِجَمِيعِ كَلَامِ اللَّهِ،

وَفَسَادُ هَذَا ظَاهِرٌ، وَإِنْ قَالَ: بَعْضُهُ، فَقَدْ قَالَ: يَتَّبَعُ، وَكَذَلِكَ كُلُّ مَنْ كَلَّمَهُ
اللَّهُ أَوْ أَنْزَلَ إِلَيْهِ شَيْئًا مِنْ كَلَامِهِ.

وَلَمَّا قَالَ تَعَالَى لِلْمَلَائِكَةِ: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠]،
وَلَمَّا قَالَ لَهُمْ: ﴿اسْجُدُوا لِلْآدَمِ﴾ [البقرة: ٣٤]، وَأَمَّا ذَلِكَ، هَلْ هَذَا بِجَمِيعِ
كَلَامِهِ أَوْ بَعْضُهُ؟ فَإِنْ قَالَ: إِنَّهُ جَمِيعُهُ، فَهَذَا مُكَابَرَةٌ، وَإِنْ قَالَ: بَعْضُهُ، فَقَدْ
اعْتَرَفَ بِتَعَدُّدِهِ.

قال الشيخ:

قول الطحاوي - رحمه الله -: (وَأَيُّقُنُوا أَنَّهُ كَلَامُ اللَّهِ تَعَالَى بِالْحَقِيقَةِ لَيْسَ
بِمَخْلُوقٍ كَكَلَامِ النَّبِيِّ)، أكده بقوله: (بِالْحَقِيقَةِ)؛ ليبين أن عقيدة أهل السنة أن
القرآن كلام الله حقيقة حروفه ومعانيه، ليس أحدهما فقط، وذلك ردٌّ على
طائفتين:

الطائفة الأولى: الذين قالوا: إنه مخلوق، وهم المعتزلة الذين ورثوا
الجهمية، فإنهم قالوا: إنه خلقه كما خلق السموات والأرض والإنسان
والحركات... ونحوها.

الطائفة الثانية: الذين زعموا أن كلام الله هو المعنى وليس اللفظ، وعلى
زعمهم لا يكون الله متكلِّمًا، وهذا الذي نقرؤه ليس هو كلام الله، إنما هو عبارة
أو حكاية أو ترجمة لكلام الله، والذي عبّر به هو الملك، كأنه أُلهمه إلهامًا، فعبّر

عما أُلهم، وأنزل إلى الرسل ذلك المعنى، وهو الذي صاغ هذه العبارة. فهل نقول: إنه كلام الملك؛ لأن الذي صاغه جبريل، أو هو كلام الرسل لا أنه كلام الله؟ ولا شك أن هذا فيه إبطال النصوص، كقوله تعالى: ﴿وَقَدْ كَانَ قَرِينًا مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلِمَ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٧٥]، وقوله: ﴿فَأَجْرُهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلِمَ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٦]، وقوله: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلِمَ اللَّهِ﴾ [الفتح: ١٥]، وقوله: ﴿لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ﴾ [الأنعام: ١١٥]، وقوله: ﴿مَا تَقَدَّتْ كَلِمَتُ اللَّهِ﴾ [لقمان: ٢٧]، وأشباه ذلك كثير.

ولو كان كذلك لكان الله تعالى موصوفاً بأنه لا يتكلم - تعالى الله عن قولهم - ويلزم على ذلك أن يكون ناقصاً؛ لأن عدم القدرة على الكلام نقص في حق كل عاقل؛ لأن كل عاقل يرى أن الكلام ميزة، وأن نفيه نقيضة، وهؤلاء قد وصفوا الرب تعالى بالنقيضة.

ثم جادلهم الشارح بما بها مر معنا، فقال: أنتم تقولون: إن موسى سمع كلام الله، ولكنه لم يسمع إلا المعنى، فهل هو سمع جميع ما ينسب إلى الله من الكلام أو سمع بعضه؟ فإذا قلتم: سمع بعضه، فلا بد أن يكون الذي سمعه سماعاً حقيقياً لا أنه معنوي.

ونقول بعد ذلك: إن الله تعالى كلّم بعض خلقه، فقال تعالى: ﴿وَلَا تَدْرِي رَبُّكَ مُوسَى﴾ [الشعراء: ١٠]، وقال: ﴿وَنَادَيْنَاهُمَا رَهْمًا﴾ [الأعراف: ٢٢]، وقال:

﴿وَقُلْنَا أَهْبَطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ [البقرة: ٣٦]، أخبر تعالى أنه كلم هؤلاء، وهذا صريح في أنه كلمهم كلاماً مسموعاً، وليس ذلك هو كلام الله كله؛ لأن كلام الله تعالى لا يحصى، ودليله قول الله تعالى: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ نَفِدَ كَلِمَاتُ رَبِّي﴾ [الكهف: ١٠٩]، وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَمٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ﴾ [القلم: ٢٧].

إذا كلام الله لا نهاية له، فلو قدر أن أشجار الأرض كلها من أول ما خلقت في الدنيا إلى نهايتها كلها أقلام، والبحار مع سعتها ومعها سبعة أمثالها من البحار انقلبت حبراً يكتب به، فكتب بذلك الخبر وبذلك الأقلام، لتكسرت الأقلام ولنفدت البحار قبل أن يفنى كلام الله، هذا مفاد هذه الآيات، فكيف يُقال: إن كلام الله له نهاية، وإنه هو المعنى فقط؟ هذا لا شك أنه تنقُصُ للربِّ سبحانه وتعالى. وهكذا وَصَفُهُ أَيضًا أنه لا يتكلم، وأن هذا إنما هو عبارة أو حكاية عنه.

قال الشارح:

وَلِلنَّاسِ فِي مُسَمَّى الْكَلَامِ وَالْقَوْلِ عِنْدَ الْإِطْلَاقِ: أَرْبَعَةٌ أَقْوَالٍ:
أَحَدُهَا: أَنَّهُ يَتَنَاوَلُ اللَّفْظَ وَالْمَعْنَى جَمِيعًا، كَمَا يَتَنَاوَلُ لَفْظُ الْإِنْسَانِ الرُّوحَ
وَالْبَدَنَ مَعًا، وَهَذَا قَوْلُ السَّلَفِ.

الثَّانِي: اسْمٌ لِلْفِظِ فَقَطْ، وَالْمَعْنَى لَيْسَ جُزْءٌ مُسَمَّاهُ، بَلْ هُوَ مَأْبُولٌ مُسَمَّاهُ،
وَهَذَا قَوْلُ جَمَاعَةٍ مِنَ الْمُعْتَزِلَةِ وَغَيْرِهِمْ.

الثَّلَاثُ: أَنَّهُ اسْمٌ لِلْمَعْنَى فَقَطْ، وَإِطْلَاقُهُ عَلَى اللَّفْظِ حَجَازٌ؛ لِأَنَّهُ دَالٌّ عَلَيْهِ،
وَهَذَا قَوْلُ ابْنِ كِلَابٍ وَمَنِ اتَّبَعَهُ.

الرَّابِعُ: أَنَّهُ مُشْتَرَكٌ بَيْنَ اللَّفْظِ وَالْمَعْنَى، وَهَذَا قَوْلُ بَعْضِ الْمُتَأَخِّرِينَ مِنْ
الْكِلَابِيَّةِ.

وَهُمْ قَوْلُ خَامِسٍ - يُرَوَى عَنْ أَبِي الْحَسَنِ -: أَنَّهُ حَجَازٌ فِي كَلَامِ اللَّهِ، حَقِيقَةٌ فِي
كَلَامِ الْإِنْسَانِ؛ لِأَنَّ حُرُوفَ الْإِنْسَانِ تَتَّصِفُ بِهَيْئِهِمْ، فَلَا يَكُونُ الْكَلَامُ قَائِمًا بِغَيْرِ
الْمُتَكَلِّمِ، بِخِلَافِ كَلَامِ اللَّهِ، فَإِنَّهُ لَا يَقُومُ عِنْدَهُ بِاللَّهِ، فَيَمْتَنِعُ أَنْ يَكُونَ كَلَامَهُ.
وَهَذَا مَبْسُوطٌ فِي مَوْضِعِهِ.

وَأَمَّا مَنْ قَالَ: إِنَّهُ مَعْنَى وَاحِدٌ، وَاسْتَدَلَّ عَلَيْهِ بِقَوْلِ الْأَخْطَلِ:

إِنَّ الْكَلَامَ لَنَفِي الْفَوَادِ وَإِنَّمَا جُعِلَ اللِّسَانُ عَلَى الْفَوَادِ دَلِيلًا

فَاسْتَدَلَّ لِأَنَّ فَايِدَهُ، وَلَوْ اسْتَدَلَّ مُسْتَدَلُّ بِعَدِيدٍ فِي الصَّحِيحِ حِينَ لَقَالُوا: هَذَا
خَبْرٌ وَاحِدٌ وَيَكُونُ نَمَّا اتَّفَقَ الْعُلَمَاءُ عَلَى تَصْدِيقِهِ وَتَلْقِيهِ بِالْقَبُولِ وَالْمَسْمَلِ بِهِ؛
فَكَيْفَ وَهَذَا الْبَيْتُ قَدْ قِيلَ: إِنَّهُ مَوْضِعٌ مَنَسُوبٌ إِلَى الْأَخْطَلِ، وَلَيْسَ هُوَ فِي

ديوانه؟! وقيل: إيتا قال: (إِنَّ الْبَيَانَ لَقِيَ الْفُؤَادَ)، وَهَذَا أَقْرَبُ إِلَى الصَّحَّةِ، وَعَلَى تَقْدِيرِ صِحَّتِهِ عَنْهُ فَلَا يُجُوزُ الْإِسْتِدْلَالُ بِهِ، فَإِنَّ النَّصَارَى قَدْ ضَلُّوا فِي مَعْنَى الْكَلَامِ، وَزَعَمُوا أَنَّ عَيْسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ - نَفَسَ كَلِمَةَ اللَّهِ، وَاتَّخَذَ اللَّاهُوتُ بِالنَّاسُوتِ! أَيُّ شَيْءٍ مِنَ الْإِلَهِ بِشَيْءٍ مِنَ النَّاسِ! أَفَيُسْتَدَلُّ بِقَوْلِ نَصْرَانِيٍّ قَدْ ضَلَّ فِي مَعْنَى الْكَلَامِ عَلَى مَعْنَى الْكَلَامِ، وَيُتْرَكُ مَا يُعْلَمُ مِنْ مَعْنَى الْكَلَامِ فِي لُغَةِ الْعَرَبِ!؟

وَأَيْضًا: فَمَعْنَاهُ غَيْرُ صَحِيحٍ؛ إِذْ لَازِمُهُ أَنَّ الْأَخْرَسَ يُسَمَّى مُتَكَلِّمًا لِقِيَامِ الْكَلَامِ بِقَلْبِهِ وَإِنْ لَمْ يَنْطِقْ بِهِ وَلَمْ يُسْمَعْ مِنْهُ، وَالْكَلَامُ عَلَى ذَلِكَ مَبْسُوطٌ فِي مَوْضِعِهِ، وَإِتْمَا أَشِيرُ إِلَيْهِ إِشَارَةً.

قال الشيخ:

الْفَرْقُ لَهُمْ فِي مَسْمَى الْكَلَامِ عِدَّةُ تَعْرِيفَاتٍ؛ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ: إِنَّ الْكَلَامَ اسْمٌ لِلْفِظِّ وَلِلْمَعْنَى جَمِيعًا، اللَّفْظُ: الَّذِي هُوَ الْحُرُوفُ، وَالْمَعْنَى: الَّذِي اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ تِلْكَ الْحُرُوفُ وَتِلْكَ الْكَلِمَاتُ.

وَالنَّحْوِيُّونَ عَرَفُوا الْكَلَامَ: أَنَّهُ مَا أَفَادَ وَصَيَغَ بِالْأَلْفَاظِ الْعَرَبِيَّةِ، وَتَرَكَّبَ مِنْ كَلِمَتَيْنِ فَاكْثَرَ، فَأَمَّا إِذَا كَانَ مِنْ كَلِمَةٍ وَاحِدَةٍ فَلَا يُسَمَّى كَلَامًا، وَهَكَذَا إِذَا لَمْ يُفِيدِ فَلَا يُسَمَّى كَلَامًا، وَهَكَذَا إِذَا كَانَ مُتَرَكَّبًا وَلَكِنْ لَيْسَ بِالْأَلْفَاظِ الْعَرَبِيَّةِ، فَلَا يُسَمَّى كَلَامًا.

هناك من يقول: إن الكلام هو الحروف والكلمات التي يُنطقُ بها، وأما

المعاني التي اشتمل عليها، فلا تدخل في مسمى الكلام، وهذا قول المعتزلة، وهناك قول ثالث بعكسه، وهو أن الكلام هو المعنى، وأما الحروف، فإنها هي دالةٌ عليه، وهناك قول رابع: أنه مشتركٌ بينهما.

وبكل حال، فهذه الأقوال كلها خطأً إلا القول الأول، وهو أن الكلام اسم للفظ وللمعنى جميعاً، فلا يسمى كلاماً إلا إذا كان له معنى مفيداً، وكان بالحروف التي يسمعها المتكلم، ولو كان الكلام مصوغاً بغير العربية سميناه كلاماً بلغة أهله، يعني: أن الأعاجم لهم عدة لغات، وتسمى لغاتهم كلاماً، فنقول: تكلم بلغته، أو: لا نفهم كلامه، فسّر لنا كلامك، فنسميه كلاماً إذا فسّره بلغةٍ نفهمها.

وعلى هذا فالكلام العربي: اسمُ المصوغ بالحروف وبالكلمات التي استعملتها العرب، إذا كانت ذات معانٍ مفهومة عند الذين وضعوا اللغة وعند الذين تكلموا عليها.

فإذا القران كلمات وحروف وجمل وآيات وسور، وكل جملة لها معنى مستقل، وقد تكون الآية فيها عدة جمل، فأية الكرسي اشتملت على عشر جمل، الجملة الأولى: قوله: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾، فيها إثبات الإلهية، بالجملة الثانية: قوله: ﴿الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾، مشتملة على اسمين من أسماء الله مؤكدين لوصفه، الجملة الثالثة: قوله: ﴿لَا تَأْتِيهِ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، نفي هذين النقصين؛ السنّة: هي النعاس، والنوم: معروف... إلى آخر الآية. فتمسمى

الجملة كلامًا، فيقال: هذه جملة من كلام الله، ويقال كذلك في بقية القرآن: إنه مشتمل على كلمات وجمل ذات معانٍ، كل جملة دالة على معنى يفهمه من تعلمه وعرفه، ويترجم إلى لغة أخرى لمن لا يفهمه. هذا القول هو الصحيح: أن الكلام اسمٌ للفظ والمعنى، وأن كلام الله اسمٌ للحروف والكلمات مع المعاني التي دلت عليها تلك الكلمات.

وذهبت الأشاعرة إلى أن الكلام هو المعنى، وأنه معنى قائم بنفس الله تعالى، وأنه فهمه الملك مما أشير إليه إشارة، وجعلوا ما يقوم بالنفس هو الكلام، واستدلوا بهذا البيت الذي نسبوه إلى الأخطل، وهو قوله:

إِنَّ الْكَلَامَ لَفِي الْفَوَادِ وَإِنَّمَا جُعِلَ اللِّسَانُ عَلَى الْفَوَادِ دَلِيلًا

وقد جعلوا هذا البيت عمدتهم وحجتهم، فتراهم دائماً يستدلون به في كتبهم، وهو استدلال فاسد - كما بين الشارح - ونحن نحتج عليهم بالأحاديث التي في الصحيحين فيردونها ويقولون: هذا خبرٌ واحدٌ، وخبر الواحد لا يفيد إلا الظن، فيردونه مع أنه ورد في الصحيحين، وهو متفق عليه، ويردون أحاديث النزول، مع أنها رواها نحو عشرة من الصحابة، ويقولون: إنها أخبار آحاد لا قبلها ولو كانت في الصحيحين، ويردون أحاديث الاستواء والكتابة، كقوله ﷺ: «لَسِمَا قَضَى اللَّهُ الْخَلْقَ كَتَبَ فِي كِتَابِهِ، فَهُوَ عِنْدَهُ فَوْقَ الْعَرْشِ: إِنَّ رَحْمَتِي غَلَبَتْ غَضَبِي»^(١)، ويردون أيضًا أحاديث الرحمة، وأحاديث المحبة،

(١) أخرجه البخاري (٣١٩٤)، ومسلم (٢٧٥١) من حديث أبي هريرة ؓ.

ونحو ذلك، ويقولون: إنها أخبار آحاد تفيد الظن.

فيقال لهم: عجباً لكم، تردون أحاديث الصحيحين، وتحتجون بهذا البيت! هذا البيت هل هو متواتر، أو خبر واحد؟ لم يخرج عن كونه خبر واحد، بل ربما لا أصل له، فما نُقل هذا البيت لا بإسناد صحيح ولا بإسناد ضعيف، وإنما تناقلونه وتنسبونه إلى الأخطل، وقد قال ابن القيم في نونته^(١):

وَدَلِيلُهُمْ فِي ذَلِكَ بَيْتٌ قَالَهُ فِيمَا يُقَالُ الْأَخْطَلُ النَّصْرَانِي
ويقول شيخ الإسلام في قصيدته اللامية^(٢):

فُبِحَّ لِمَنْ نَبَذَ الْكِتَابَ وَرَاءَهُ وَإِذَا اسْتَدَلَّ يَقُولُ قَالَ الْأَخْطَلُ

إنما دليلهم هذا البيت الذي نُسب إلى الأخطل، ثم بحث عنه المحققون في ديوان الأخطل فلم يجدوه، فدل على أنه مصنوع مكذوب، قاله من نسبه إلى الأخطل، وذكره بعضهم بلفظ: (إِنَّ الْبَيَانَ لَفِي الْفُؤَادِ)، بمعنى: إن القلب هو الذي يملك أن صاحبه يقدر على البيان، وهذا هو الأليق على تقدير ثبوت هذا البيت.

ولو قدرنا أنه من كلام الأخطل، فهل يكون كلام الأخطل حجة؟ الأخطل نصراني ولو كان عربياً، فهو من نصارى العرب، أصراً على نصرانيته،

(١) انظر: النونية بشرح ابن عيسى (١/٢٧٠).

(٢) انظر: مجموع الفتاوى (٦/٢٩٦، ٢٩٧)، وقد شرحها سماحة الشيخ عبد الله بن جبرين

دُعي إلى الإسلام فامتنع أن يقبل الإسلام، وبقي على نصرانيته، وفد على عمر بن عبدالعزيز، وطلب أن يدخل عليه ليجيزه جائزةً، فقال: «أليس هو الذي يقول:

وَلَسْتُ بِصَائِمٍ رَمَضَانَ طَوْعًا وَلَسْتُ بِزَاجِرٍ عَيْسًا بُكُورًا
وَلَسْتُ بِزَائِرٍ بَيْتًا بَعِيدًا وَلَسْتُ بِقَائِمٍ كَالْعَيْرِ أَدْعُو
وَلَسْتُ بِأَكِيلٍ لَحْمِ الْأَصَاحِي وَلَسْتُ بِطَحَّاءٍ مَكَّةَ لِلنَّجَاحِ
وَلَسْتُ بِمَكَّةَ أَبْتَنِي فِيهِ صَاحِي قُبَيْلَ الصُّبْحِ حَيَّ عَلَى الْفَلَاحِ
وَلَكِنِّي سَأَشْرَبُهَا شُسْمُولًا وَأَسْجُدُ عِنْدَ مُنْبَلَجِ الصَّبَاحِ

والله لا يدخل عليّ وهو كافرٌ أبدًا»^(١).

هذه عقيدته ! يتمدح بأنه سيشرب الخمر، ويسجد للشمس إذا طلعت أو غربت، ويتمدح بأنه لا يحج البيت، ويتمدح بأنه لا يأكل لحم الأوصاحي، ويشبه المؤذن - الذي يؤذن: حيّ على الفلاح - بأنه كالعير، فهل يقبل مثل هذا، وهل يكون كلامه حجة؟

ثم يحتج أيضًا عليهم الشارح بأن النصارى ضلّوا في مسمى الكلام الذي نحن بصدد تعريفه، فعندهم أن عيسى - عليه السلام - نفس كلمة الله، يقولون: إنه نفس الكلمة. والصحيح: أنه خلق بها، لا أنه هو الكلمة، يقولون: عيسى هو الكلمة، وهو قوله: كن، في قوله تعالى: ﴿إِن مِّثْلَ عَيْسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ

(١) ذكر الأثر والأبيات ابن الجوزي في المنتظم (٧/٣٦).

ءَادَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿[آل عمران: ٥٩]﴾، فهو خلقه وقال له: كن، كما خلق آدم وقال له: كن، وسُمِّي كلمة الله في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَحَامِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ﴾ [النساء: ١٧١]، الكلمة التي ألقاها هي قوله: ﴿كُنْ﴾، وهي كلام الله خلق بها كما خلق سائر المخلوقات، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢]، فالنصارى ضلُّوا في هذا الباب، واعتقدوا أن عيسى نفس الكلمة.

وإذا كان هو شاعرًا نصرانيًا، فإنه تكلم على عقيدة النصارى، فكيف تقلد النصارى فيما اعتقدوا؟ هذا كله على تقدير أن البيت ثابت.

ثم لسنا بحاجة إلى الاستدلال بأقوال النصارى، فكتاب الله وسنة نبيه وكلام العرب واضح في أن المتكلم يُسَمَّى متكلِّمًا، والذي لا يتكلم يسمى أخرس، ومن معلوم أنه قد يقوم بقلب الأخرس كلام، وقد يشير إليه، وإذا أشار إليه فهم منه، فمعناه أن الأخرس الذي لا ينطق يُسمى متكلِّمًا على قول هؤلاء الأشاعرة.

فعرِّف بذلك أنه لا دلالة لهم بذلك، وأن القول الثابت والصحيح، أن الكلام هو اللفظ والمعنى جميعًا، ليس هو المعنى الذي استشهدوا له بهذا البيت.

قال السارح:

وَهُنَا مَعْنَى عَجِيبٌ، وَهُوَ: أَنَّ هَذَا الْقَوْلَ لَهُ شَبَهٌ قَوِيٌّ بِقَوْلِ النَّصَارَى الْقَائِلِينَ بِاللَّاهُوتِ وَالنَّاسُوتِ! فَإِنَّهُمْ يَقُولُونَ: كَلَامُ اللَّهِ هُوَ الْمَعْنَى الْقَائِمُ بِذَاتِ اللَّهِ الَّذِي لَا يُمَكِّنُ سَمَاعُهُ، وَأَمَّا النَّظْمُ الْمَسْمُوعُ فَمَخْلُوقٌ، فَإِفْهَامُ الْمَعْنَى الْقَدِيمِ بِالنَّظْمِ الْمَخْلُوقِ يُشْبِهُ امْتِزَاجَ اللَّاهُوتِ بِالنَّاسُوتِ الَّذِي قَالَتْهُ النَّصَارَى فِي عَيْسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَانظُرْ إِلَى هَذَا الشَّبَهِ مَا أَعْجَبَهُ!

وَيُرَدُّ قَوْلُ مَنْ قَالَ: بِأَنَّ الْكَلَامَ هُوَ الْمَعْنَى الْقَائِمُ بِالنَّفْسِ: قَوْلُهُ ﷺ: «إِنَّ صَلَاتَنَا هَذِهِ لَا يَصْلُحُ فِيهَا شَيْءٌ مِنْ كَلَامِ النَّاسِ»^(١)، وَقَالَ: «إِنَّ اللَّهَ يُحَدِّثُ مَنْ أَمَرَهُ مَا يَشَاءُ، وَإِنَّ مَا أَحَدَثَ أَنْ لَا تَكَلَّمُوا فِي الصَّلَاةِ»^(٢). وَاتَّفَقَ الْعُلَمَاءُ عَلَى أَنَّ الْمُصَلِّيَ إِذَا تَكَلَّمَ فِي الصَّلَاةِ عَامِدًا لِغَيْرِ مَصْلَحَتِهَا بَطَلَتْ صَلَاتُهُ، وَاتَّفَقُوا كُلُّهُمْ عَلَى أَنَّ مَا يَقُومُ بِالْقَلْبِ مِنْ تَصَدِيقٍ بِأُمُورٍ دُنْيَوِيَّةٍ وَطَلَبٍ، لَا يُبْطِلُ الصَّلَاةَ، وَإِنَّمَا يُبْطِلُهَا التَّكَلُّمُ بِذَلِكَ، فَعَلِمَ اتَّفَاقُ الْمُسْلِمِينَ عَلَى أَنَّ هَذَا لَيْسَ بِكَلَامٍ.

قال الشيخ:

اللاهوت عندهم: الإله، والناسوت: الناس. والنصارى يدعون أن

(١) أخرجه مسلم (٥٣٧) من حديث معاوية بن الحكم السلمي ؓ.

(٢) أخرجه أبو داود (٩٢٤)، والنسائي (١٢٢١)، وأحمد (٤٣٥/١)، وابن حبان (١٥/٦) من

حديث ابن مسعود ؓ. وأخرجه البخاري معلقاً بصيغة الجزم، قبل حديث رقم (٧٥٢٢).

اللاهوت اتصل بالناسوت، فتكوّن منها هذا الإنسان، وتبعهم على هذا الاعتقاد أيضًا ملاحدة يُقال لهم: أهل الاتحاد وأهل الوحدة؛ عندهم أن اللاهوت متصلٌ بالناسوت و متحد معه. وفي ذلك يقول حلاجهم:

سُبْحَانَ مَنْ أَظْهَرَ نَاسُوتَهُ سِرًّا سَنَا لَاهُوتِهِ الشَّاقِبِ
حَتَّى بَدَأَ مُسْتَتِرًا ظَاهِرًا فِي صُورَةِ الْأَكِيلِ وَالشَّارِبِ

ولا شك أن هذا الكلام كفر، والله تعالى هو الخالق وما سواه مخلوق، فكلام النصارى في قولهم: إن عيسى هو عين الكلمة، وأن الكلمة جزء من ذات الربّ سبحانه وتعالى، شبيه بقول الاتحادية الذين يزعمون - كزعم النصارى - أن اللاهوت اتحد مع الناسوت وأصبح شيئًا واحدًا. وأن من جملة ذلك عيسى أنه خلق من أتى، ولكن بعد اتصال اللاهوت بالناسوت، وجلود المؤمنين تقشعُرُ من أن يتصور هذا التصوّر، ولكن قلوب أولئك صُدَّتْ عن معرفة الحق فزَيَّن لهم الباطل والعياذ بالله.

ثم استطرد الشارح - رحمه الله - في الرد على من يقول: (إِنَّ الْكَلَامَ هُوَ الْمَعْنَى الْقَائِمُ بِالنَّفْسِ)، ومعلوم أن الكلام هو ما يُسمع، فلا يُقال للساكت: إنه تكلم، إذا جلست إلى إنسان وهو يحدث نفسه هل تقول: إنه تكلم بكذا وكذا؟ ما دام أنه صامت ما نطق بكلمة، فإنك لا تقول: إنه تكلم، بل تقول: جلستُ معه وقمتُ وهو ساكت، ولو أنه منذ جلست يحدث نفسه.

واستدل الشارح على فساد قولهم، بحديثين:

الحديث الأول: حديث معاوية بن الحكم رضي الله عنه، قال: بَيْنَا أَنَا أُصَلِّي مَعَ

رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذْ عَطَسَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ، فَقُلْتُ: يَرْحَمُكَ اللَّهُ، فَرَمَانِي الْقَوْمُ بِأَبْصَارِهِمْ، فَقُلْتُ: وَانْكَلْ أُمِّيَاهُ مَا شَأْنُكُمْ تَنْظُرُونَ إِلَيَّ؟ فَجَعَلُوا يَضْرِبُونَ بِأَيْدِيهِمْ عَلَى أَفْخَازِهِمْ، فَلَمَّا رَأَيْتُهُمْ يُصَمُّونَنِي، لَكِنِّي سَكَتُ، فَلَمَّا صَلَّى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَيَأْبِي هُوَ وَأُمِّي مَا رَأَيْتُ مُعَلِّمًا قَبْلَهُ وَلَا بَعْدَهُ أَحْسَنَ تَعْلِيمًا مِنْهُ، فَوَاللَّهِ مَا كَهَرَنِي وَلَا ضَرَبَنِي وَلَا سَمَّنِي، قَالَ: «إِنَّ هَذِهِ الصَّلَاةَ لَا يَصْلُحُ فِيهَا شَيْءٌ مِنْ كَلَامِ النَّاسِ إِنَّمَا هُوَ التَّسْبِيحُ وَالتَّكْبِيرُ وَقِرَاءَةُ الْقُرْآنِ»^(١).

فجعل الكلام هذا كلامًا يبطل الصلاة، ولكنه عذره لجهله، لكونه جاهلاً لم يشعر بما يقول أنه مبطل.

والحديث الثاني: «إِنَّ اللَّهَ يُجَدِّدُ مِنْ أَمْرِهِ مَا يَشَاءُ، وَإِنَّ مَا أَحَدَثَ أَنْ لَا تَكَلَّمُوا فِي الصَّلَاةِ»، يعني: مما تجدد الوحي أن لا تتكلموا في الصلاة، وكانوا أول ما فرضت يكلم أحدهم أخاه بحاجته، فلما نزل قوله تعالى: ﴿وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾ [البقرة: ٢٣٨]، أمروا بالسكوت، ونهوا عن الكلام.

فالكلام الذي يبطل الصلاة هو اللفظ الذي يسمع، الكلمات التي ينطق بها الإنسان وتخرج من فمه من بين شفثيه يسمعها من حوله، لا شك أنها تبطل الصلاة، فلو أن إنساناً قال لآخر عمداً: أنصت، أو قم، أو تعال، أو نحو ذلك، متعمداً، وهو عالم أنه في صلاة، بطلت صلاته، وإنما رخص في الكلام الذي

(١) تقدم تخريجه قريباً.

من مصلحة الصلاة أو نحوها، أو من مكملات أركان الصلاة، كالتمسيح عندما ينوب الإمام شيء أو ما أشبه ذلك.

فالكلام الذي يُسمع، وهو من غير أركان الصلاة، يبطل الصلاة. وهل تبطل الصلاة بحديث النفس؟! لا تبطل، فالإنسان لا يسلم غالبًا من حديث النفس، فأينما لا يحدث نفسه؟ كما روي عن مصعب بن سعد أنه قال لأبيه: «يا أبت! رأيت قول الله تعالى: ﴿الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ [الماعون: ٥]، أهو ما يحدث به أحدنا نفسه في صلاته؟ قال: لا، ولكن السهو أن يؤخروها عن وقتها»^(١)؛ لأنه قال: ﴿عَنْ صَلَاتِهِمْ﴾، ولم يقل في صلاتهم، فالسهو في الصلاة وإن كان ينقص منها ولكنه لا يبطلها، لأجل ذلك يقع السهو كثيرًا من المصلي، ولأجل ذلك شرع سجود السهو، علم الله أنه يحصل السهو، فيزيد في الصلاة بسبب اشتغال قلبه وبسبب حديث قلبه، وينقص منها ويقدم أو يؤخر؛ وذلك لأن قلبه قد يشتغل بشيء من حديثه أو من أسوره الدنيوية، فيغفل عما هو مقبل عليه فيسهو.

فحديث النفس لا يسمى كلامًا، لو كان يسمى كلامًا لبطلت به الصلاة؛ لأنه - عليه الصلاة والسلام - قال: «إِنَّ هَذِهِ الصَّلَاةَ لَا يَصْلُحُ فِيهَا شَيْءٌ سِوَ كَلَامِ النَّاسِ»، فعلم أن حديث النفس لا يسمى كلامًا، ولأجل ذلك يرد على

(١) أخرجه الطبري (٣٠/٣١١)، والبيهقي في الكبرى (٢/٢١٤).

هؤلاء الذين يقولون: (إِنَّ الْكَلَامَ هُوَ الْمَعْنَى الْقَائِمُ بِالنَّفْسِ)، بل نقول: ليس كذلك، إنما الكلام هو ما يُسمع وما ينطق به المتكلم. هذا هو حقيقة الكلام، وأما ما هو غير ذلك، فإنه يسمى وسوسة، أو حديث نفس، أو سهواً، أو ما أشبه ذلك.

قال الشارح:

وَأَيْضًا: فَفِي (الصَّحِيحَيْنِ) عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ تَجَاوَزَ لِأُمَّتِي عَمَّا حَدَّثَتْ بِهِ أَنْفُسَهَا، مَا لَمْ تَتَكَلَّمْ بِهِ أَوْ تَعْمَلْ بِهِ». فَقَدْ أَخْبَرَ أَنَّ اللَّهَ عَفَا عَنْ حَدِيثِ النَّفْسِ إِلَّا أَنْ تَتَكَلَّمْ، فَفَرَّقَ بَيْنَ حَدِيثِ النَّفْسِ وَبَيْنَ الْكَلَامِ، وَأَخْبَرَ أَنَّهُ لَا يُؤَاخِذُ بِهِ حَتَّى يَتَكَلَّمَ بِهِ، وَالْمُرَادُ: حَتَّى يَنْطِقَ بِهِ اللِّسَانُ، بِاتِّفَاقِ الْعُلَمَاءِ. فَسَلِمَ أَنَّ هَذَا هُوَ الْكَلَامُ فِي اللُّغَةِ؛ لِأَنَّ الشَّارِعَ إِنَّمَا خَاطَبَنَا بِلُغَةِ الْعَرَبِ.

قال الشيخ:

لا زال الشارح - رحمه الله - يأتي بالأدلة التي ترد على الذين يقولون: إن كلام الله نفسي، وأنه شيء في النفس لا أنه تكلم به بكلام مسموع، وذلك لأنهم ينكرون أن الله تعالى يتكلم بحرف وصوت، ويقولون: إن كلام الله هو المعنى، وأن هذه الحروف التي في القرآن ليست نفسها كلام الله، إنما كلام الله هو ما دل عليه المعنى، فيتكلم في الرد على هؤلاء، وهذا قول مشتهر عند الأشاعرة الذين ينكرون أن يكون الله يتكلم بحرف وصوت، فهذا الحديث دليل على أن ما حدثت بها نفسها - أي: الأمة - لا يُسمى كلامًا، فعلى هذا إذا كان الله تعالى لم يتكلم بهذا، وإنما هو شيء في نفسه فإنه لا يُسمى كلامًا، ولا يُقال: إنه كلام الله.

أخيراً ﷺ أن الله عفا عن حديث النفس، إلا أن تتكلم، أو تعمل، ففرق بين حديث النفس وبين الكلام، فدل على أن حديث النفس لا يُسمى كلامًا، فلو

كان القرآن إنما هو حديث النفس لم يتلفظ ولم يتكلم به الله تعالى، لكان لا يُسمى كلامًا، أخبر ﷺ أن الله لا يؤاخذ به - أي: بحديث النفس - حتى يتكلم به، أي: حتى ينطق به اللسان، هكذا اتفقا العلماء أن حديث النفس لا يؤاخذ به لما في هذا الحديث، ولقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]، فَعُلِمَ أن هذا هو الكلام الذي يُعرف عند العرب، والشارع خاطبنا باللغة العربية الفصحى، فدَلَّ على أن حديث النفس لا يُسمى كلامًا، وإنما يُسمى حديث نفس، أو ما أشبه ذلك.

وهذا الحديث أخرجه البخاري^(١) ومسلم^(٢) وغيرهما عن أبي هريرة ؓ، وهو مروى في أكثر السنن^(٣) وفي غيرها، وقد خُصصت به الآية، وهي قوله تعالى: ﴿وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٨٤]، أخبر ﷺ بأن الله تعالى لا يؤاخذ بما في النفس.

(١) برقم (٢٥٢٨، ٥٢٦٩).

(٢) برقم (١٢٧).

(٣) أبو داود (٢٢٠٩)، والترمذي (١١٨٣)، والنسائي (٣٤٣٣)، وابن ماجه (٢٠٤٠).

قال الشارح:

وَأَيْضًا فِي السُّنَنِ: أَنَّ مُعَاذًا رضي الله عنه قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَإِنَّا لَمُوْأَخِدُونَ بِمَا نَتَكَلَّمُ بِهِ؟ فَقَالَ: «وَهَلْ يَكُتَبُ النَّاسُ فِي النَّارِ عَلَى مَنْ أَخْرَجَهُمْ إِلَّا حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ؟!». فَيَبِّغُ أَنَّ الْكَلَامَ إِنَّمَا هُوَ بِاللِّسَانِ، فَلَفْظُ الْقَوْلِ وَالْكَلَامِ وَمَا تَصَرَّفَ مِنْهُمَا - مِنْ فِعْلٍ مَاضٍ وَمُضَارِعٍ وَأَمْرٍ وَأِسْمٍ فَاعِلٍ - : إِنَّمَا يُعْرَفُ فِي الْقُرْآنِ وَالسُّنَّةِ وَسَائِرِ كَلَامِ الْعَرَبِ إِذَا كَانَ لَفْظًا وَمَعْنَى.

وَلَمْ يَكُنْ فِي مُسَمَّى الْكَلَامِ نِزَاعٌ بَيْنَ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ لِمُسْمٍ بِإِسْخَانٍ، وَإِنَّمَا حَصَلَ النِّزَاعُ بَيْنَ الْمُتَأَخِّرِينَ مِنْ عُلَمَاءِ أَهْلِ الْبِدْعِ، ثُمَّ انْتَشَرَ.

قال الشيخ:

هذا الحديث أخرجه الترمذي^(١)، وأحمد^(٢)، والنسائي في «السنن الكبرى»^(٣)، وابن ماجه^(٤)، من طريقين: عن معمر عن عاصم بن أبي النجود عن أبي وائل عن معاذ، لكن ذكروا أنه لم يثبت بسماع أبي وائل عن معاذ.

(١) برقم (٢٦١٦).

(٢) (٢٣١/٥).

(٣) برقم (١١٣٣٠).

(٤) برقم (٣٩٧٣).

وأخرجه أحمد^(١)، والطيالسي^(٢)، وابن أبي شيبة^(٣) من رواية عروة بن النزال عن معاذ ولم يسمع منه أيضًا، وأخرجه أحمد^(٤) من رواية شهر بن حوشب عن عبدالرحمن بن غنم عن معاذ، وأخرجه ابن أبي شيبة في المصنف^(٥) من طريق عبيدة بن حميد عن الأعمش عن الحكم عن ميمون بن أبي شبيب عن معاذ، وهو موجود في الأحاديث الأربعين النووية، وقد حكم النووي بصحته، وقد شرحه وأطال في شرحه ابن رجب في «جامع العلوم والحكم»^(٦).

والشاهد فيه: أنه ﷺ أخبر بأن الكلام إنما هو باللسان لما قال: (بِمَا نَتَكَلَّمُ بِهِ)، فأخبر بأنه في حصائد ألسنتهم، فدل على أن ما يقوم في القلب، وما يقوم في النفس لا يُسمى كلامًا، فهؤلاء الأشاعرة الذين يقولون: إن كلام الله هو المعنى، وأن جبريل - عليه السلام - هو الذي عبّر بهذا القرآن، أو محمد ﷺ هو الذي عبّر بهذه الحروف وبهذه الألفاظ. لاشك أنهم أنكروا أن يكون الله تعالى متكلمًا.

(١) (٢٣٧/٥).

(٢) برقم (٥٦٠).

(٣) (٣٢٠/٥).

(٤) (٢٣٦/٥).

(٥) (٣٢٠/٥).

(٦) (ص ٢٦٨).

قوله: (فَلَفْظُ الْقَوْلِ وَالْكَلَامِ وَمَا تَصَرَّفَ مِنْهُمَا، مِنْ فِعْلِ مَاضٍ وَمُضَارِعٍ وَأَمْرٍ وَاسْمٍ فَاعِلٍ)، نحو (قال) و(يقول) و(قل)، و(القول)، (تكلم)، (يتكلم)، (تكلم) (كلامًا).

قوله: (إِنَّمَا يُعْرَفُ فِي الْقُرْآنِ وَالسُّنَّةِ وَسَائِرِ كَلَامِ الْعَرَبِ إِذَا كَانَ لَفْظًا وَمَعْنَى)، يعني: إذا كان الكلام باللفظ، أي بالحروف، وكذلك إذا كان له معنى، فالحروف المركبة التي ليس لها معنى لا تسمى كلامًا، كما بين ذلك النحويون ونحوهم؛ كقول ابن مالك في الألفية: «كلامنا لفظ مفيد كاستقم»^(١)؛ وكذلك قال الصنهاجي: «الكلام هو اللفظ المركب المفيد بالوضع»^(٢).

يقول: (وَلَمْ يَكُنْ فِي مُسَمَّى الْكَلَامِ نِزَاعٌ بَيْنَ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ)، أي: كلهم لا خلاف بينهم في مسمى الكلام أنه اللفظ والمعنى، كلهم يعرفون ذلك، وكذلك العرب تعرفه.

قوله: (وَإِنَّمَا حَصَلَ النِّزَاعُ بَيْنَ الْمُتَأَخِّرِينَ مِنْ مُهَلِّمِ أَهْلِ الْبَيْدَعِ، ثُمَّ انْتَشَرَ)، وذلك لأن المعتزلة أنكروا أن يكون القرآن كلام الله، وجعلوه مخلوقًا؛ لأنهم حُيِّلَ إِلَيْهِمْ أَنَّ الْكَلَامَ إِنَّمَا يُخْرَجُ مِنَ الْفَمِ وَمِنَ اللِّسَانِ وَاللَّهْوَاتِ وَالشَّفْتَيْنِ وَالْحَنْجَرَةِ وَنَحْوِ ذَلِكَ، فَصَعِبَ عَلَيْهِمْ أَنْ يَقْرَأُوا بِأَنَّ اللَّهَ يَتَكَلَّمُ بِهَذَا الْكَلَامِ عَلَى

(١) انظر: ألفية ابن مالك بشرح ابن عقيل (١/١٣).

(٢) انظر: أنواع الكلام في «الأجرومية» بشرح حسن الكفراوي (ص ٧).

هذه الصفة؛ فلذلك قالوا: القرآن مخلوق. وقاربهم الأشاعرة الذين وافقوهم على أن الله لا يتكلم بالحرف والصوت لما يستلزمه - كما يزعمون - من ثبوت هذه الجوارح ونحوها، ولما اشتهر عند أئمتهم أن القرآن كلام الله، لم يقدرُوا على أن يخالفوا ما نُقل عن السلف - رحمهم الله - كما نُقل عن الشافعي وأحمد وسفيان الثوري ووكيع والليث بن سعد وشعبة ونحوهم من العلماء، فاصطلحوا على أن الكلام هو المعنى، وأن القرآن إنما هو كلام الله بالمعنى ليس باللفظ، وكان من أكثر ما يستدلون به بيت ويذكرون أنه لشاعر نصراني وهو الأخطل، فيستدلون به دائماً وهو قوله:

إِنَّ الْكَلَامَ لَفِي الْقُرْآنِ وَإِنَّمَا جُعِلَ اللِّسَانُ عَلَى الْقُرْآنِ دَلِيلًا

وقد تقدم الجواب عن هذا البيت وعن بقية استدلالاتهم.

قال الشارح:

وَلَا رَيْبَ أَنَّ مُسَمَّى الْكَلَامِ وَالْقَوْلِ وَنَحْوِهِمَا - لَيْسَ هُوَ مِمَّا يُجْتَاجُ فِيهِ إِلَى قَوْلِ شَاعِرٍ، فَإِنَّ هَذَا مِمَّا تَكَلَّمَ بِهِ الْأَوْلُونَ وَالْآخِرُونَ مِنْ أَهْلِ اللُّغَةِ، وَعَرَفُوا مَعْنَاهُ، كَمَا عَرَفُوا مُسَمَّى الرَّأْسِ وَالْيَدِ وَالرَّجْلِ وَنَحْوِ ذَلِكَ.

وَلَا شَكَّ أَنَّ مَنْ قَالَ: إِنَّ كَلَامَ اللَّهِ مَعْنَى وَاحِدٌ قَائِمٌ بِنَفْسِهِ تَعَالَى، وَإِنَّ الْمَتْلُوَّ الْمَحْفُوظَ الْمَكْتُوبَ الْمَسْمُوعَ مِنَ الْقَارِئِ حِكَايَةٌ كَلَامِ اللَّهِ وَهُوَ مَخْلُوقٌ، فَقَدْ قَالَ بِخَلْقِ الْقُرْآنِ فِي الْمَعْنَى وَهُوَ لَا يَشْعُرُ، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ: ﴿قُلْ

لَيْنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ﴾ [الإسراء: ٨٨]، أَفْتَرَاهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يُشِيرُ إِلَى مَا فِي نَفْسِهِ، أَوْ إِلَى الْمَتْلُوِّ الْمَسْمُوعِ؟ وَلَا شَكَّ أَنَّ الْإِشَارَةَ إِنَّمَا هِيَ إِلَى هَذَا الْمَتْلُوِّ الْمَسْمُوعِ، إِذْ مَا فِي ذَاتِ اللَّهِ عَزَّزَ مُشَارٍ إِلَيْهِ، وَلَا مُنْزَلٍ وَلَا مَتْلُوٍّ وَلَا مَسْمُوعٍ.

وَقَوْلُهُ: ﴿لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ﴾، أَفْتَرَاهُ سُبْحَانَهُ يَقُولُ: لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِ مَا فِي نَفْسِي مِمَّا لَمْ يَسْمَعُوهُ وَلَمْ يَعْرِفُوهُ، وَمَا فِي نَفْسِ الْبَارِي - صَزَّ وَجَلَّ - لَا حِيلَةَ إِلَى الْوُصُولِ إِلَيْهِ، وَلَا إِلَى الْوُقُوفِ عَلَيْهِ.

قال الشيخ:

لفظ (الكلام)، ولفظ (القول)، ولفظة (نطق) ونحوها، معروف في لغة العرب، لا يحتاج في إثباته إلى الاستشهاد بقول شاعر؛ فهذا الشاعر الذي هو

الأخطل، فإن هذا مما تكلم به الأولون والآخرون من أهل اللغة، نقلوا الكلام والقول والنطق وما أشبه ذلك، وكذلك كانوا يعرفونه لفظاً ومعنى، كما يعرفون مسمى الرأس واليد والرجل ونحو ذلك، أنها أسماء لأشياء حقيقة، ويفرقون بينها في اللغة فلا أحد يشبهه عليه مسمى الرأس، ولا مسمى اليد والرجل.

والذين يقولون: (إِنَّ كَلَامَ اللَّهِ مَعْنَى وَاحِدٌ قَائِمٌ بِنَفْسِهِ إِنْ عُبرَ عَنْهُ بِالْمَعْرَبِيَّةِ فَهُوَ قرآن، وَإِنْ عُبرَ عَنْهُ بِالْعَبْرِيَّةِ فَهُوَ توراة، وَإِنْ عُبرَ عَنْهُ بِالسَّرْيَانِيَّةِ فَهُوَ إنجيل)، أو كما يقولون، وإنه ليس عين كلام الله تعالى، ويقولون: (وَإِنَّ الْمَتْلُوءَ الْمَحْفُوظَ الْمَكْتُوبَ الْمَسْمُوعَ مِنَ الْقَارِي حِكَايَةُ كَلَامِ اللَّهِ وَهُوَ مَخْلُوقٌ)، مَنْ قَالَ بِذَلِكَ فَقَدْ قَالَ بِخَلْقِ الْقُرْآنِ فِي الْمَعْنَى وَهُوَ لَا يَشْعُرُ، إِذَا قَالَ: إِنَّ هَذَا الَّذِي نَقَرُوهُ وَنَسْمَعُهُ مِنَ الْقَارِي، وَنَكْتَبُهُ فِي الْمَصَاحِفِ، وَنَحْفَظُهُ فِي صُدُورِنَا، إِنَّهُ لَيْسَ عَيْنَ كَلَامِ اللَّهِ، وَإِنَّمَا هُوَ حِكَايَةُ لِكَلَامِ اللَّهِ، وَأَنَّهُ مَخْلُوقٌ؛ لِأَنَّهُ تَرْجُمَةٌ لِكَلَامِ اللَّهِ الَّذِي فِي نَفْسِهِ، فَالَّذِينَ قَالُوا: هَذِهِ الْمَقَالَةُ يَلْزِمُهُمْ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الَّذِينَ يَقُولُونَ: إِنَّ الْقُرْآنَ مَخْلُوقٌ فِي الْمَعْنَى، وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ؛ لِأَنَّ هَذَا شَيْءٌ لَازِمٌ لَهُمْ، اللَّهُ تَعَالَى أَخْبَرَ بِأَنَّ هَذَا الْقُرْآنَ الَّذِي يُتْلَى هُوَ الْمَعْجَزُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ: ﴿قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ﴾ [الإسراء: ٨٨]، أَخْبَرَ تَعَالَى بِأَنَّهُمْ لَوْ اجْتَمَعُوا عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ الَّذِي يَتْلُونَهُ، وَالَّذِي يَسْمَعُونَهُ، فَإِنَّهُمْ يَعْجِزُونَ عَنْ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِهِ، الْإِشَارَةُ فِي قَوْلِهِ:

﴿هَذَا الْقُرْآنُ﴾، ليس إلى ما في نفس الله تعالى، فإن الذي في نفس الله لا يمكن الوصول إليه، وإنما المراد بهذا القرآن أي هذا المسموع المتلو الذي تسمعون، والذي تقرأونه وتكتبونه، فالإشارة إنما هي إلى هذا القرآن الذي يُتلى ويُسمع ويكتب في المصاحف، هو الذي لا يقدر على أن يأتوا بمثله، ولو كان بعضهم لبعض ظهيرًا، أما الذي في ذات الله فإنه غير مشار إليه، وليس منزلًا، ولا متلوًا ولا مسموعًا؛ لأنه أمر يقوم بذات الرب تعالى، فدل على أن المراد هذا القرآن الذي نزل على قلب النبي ﷺ بلسان عربي مبين، وأنه عين كلام الله؛ كما قال بعض المتأخرين في عقيدته^(١):

بَلْ إِنَّهُ عَيْنُ الْكَلَامِ أَتَى بِهِ جِبْرِيلُ يَنْسَخُ حُكْمَ كُلِّ كِتَابٍ

قوله: (قوله: ﴿لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ﴾، أَفْتَرَاهُ سُبْحَانَهُ يَقُولُ: لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِ مَا فِي نَفْسِي مِمَّا لَمْ يَسْمَعُوهُ وَلَمْ يَعْرِفُوهُ، وَمَا فِي نَفْسِ الْبَارِي - عَزَّ وَجَلَّ - لَا حِيلَةَ إِلَى الْوُصُولِ إِلَيْهِ، وَلَا إِلَى الْوُقُوفِ عَلَيْهِ)، فعلى هذا إنما قال: لا يأتون بمثل هذا القرآن الذي يسمعونه ويتلونه ويقرأونه، والذي أنزل على قلب النبي ﷺ.

(١) هذا البيت ينسب لعمران بن رضوان المتوفى سنة ١٢٨٠ هـ نزيل لنجة بأرض فارس، طبعت قصيدته ضمن كتاب الهدية السنوية والتحفة الروهاية النجدية للشيخ سليمان بن سحمان.

قال الشارح:

فَإِنْ قَالُوا: إِنَّمَا أَشَارَ إِلَى حِكَايَةِ مَا فِي نَفْسِهِ وَعِبَارَتِهِ، وَهُوَ الْمَتْلُو الْمَكْتُوبُ الْمَسْمُوعُ، فَأَمَّا أَنْ يُشِيرَ إِلَى ذَاتِهِ فَلَا - فَهَذَا صَرِيحُ الْقَوْلِ بِأَنَّ الْقُرْآنَ مَخْلُوقٌ، بَلْ هُمْ فِي ذَلِكَ أَكْفَرُ مِنَ الْمُعْتَزِلَةِ، فَإِنَّ حِكَايَةَ الشَّيْءِ بِمِثْلِهِ وَشَبْهِهِ، وَهَذَا تَصْرِيحٌ بِأَنَّ صِفَاتِ اللَّهِ مُحْكِيَّةٌ، وَلَوْ كَانَتْ هَذِهِ التَّلَاوَةُ حِكَايَةً لَكَانَ النَّاسُ قَدْ أَتَوْا بِمِثْلِ كَلَامِ اللَّهِ، فَأَيْنَ عَجْزُهُمْ؟! وَيَكُونُ التَّالِي - فِي رَعْمِهِمْ - قَدْ حَكَى بِصَوْتٍ وَحَرْفٍ مَا لَيْسَ بِصَوْتٍ وَحَرْفٍ. وَلَيْسَ الْقُرْآنُ إِلَّا سُورًا مُسَوَّرَةً، وَأَيَاتٍ مُسَطَّرَةً، فِي صُحُفٍ مُطَهَّرَةٍ.

قَالَ تَعَالَى: ﴿فَأَتَوْا بِمِثْرِ سَبْرٍ وَمِثْلِهِ مَفَرَّةً﴾ [هود: ١٣]، ﴿بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٩]، ﴿فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ﴾ (١٣) ﴿مَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ﴾ [عبس: ١٣، ١٤]، وَيُكْتَبُ لِمَنْ قَرَأَهُ بِكُلِّ حَرْفٍ عَشْرُ حَسَنَاتٍ. قَالَ ﷺ: «أَمَّا إِنِّي لَا أَقُولُ (الْم) حَرْفٌ، وَلَكِنْ أَلْفٌ حَرْفٌ، وَلَا مٌ حَرْفٌ، وَمِيمٌ حَرْفٌ»^(١). وَهُوَ الْمَحْفُوظُ فِي صُدُورِ الْحَافِظِينَ الْمَسْمُوعُ مِنَ أَلْسِنِ التَّالِينَ.

قَالَ الشَّيْخُ حَافِظُ الدِّينِ النَّسْفِيُّ - رَحِمَهُ اللَّهُ - فِي «الْمَنَارِ»: «إِنَّ الْقُرْآنَ اسْمٌ لِلنَّظْمِ وَالْمَعْنَى». وَكَذَلِكَ قَالَ غَيْرُهُ مِنْ أَهْلِ الْأُصُولِ، وَمَا يُنْسَبُ إِلَى أَبِي

(١) أخرجه الترمذي (٢٩١٠) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه

حَنِيفَةً - رَحْمَةُ اللَّهِ -: أَنَّ مَنْ قَرَأَ فِي الصَّلَاةِ بِالْفَارِسِيَّةِ أَجْرَاهُ». فَقَدْ رَجَعَ عَنْهُ، وَقَالَ: «لَا يُجُوزُ الْقِرَاءَةُ مَعَ الْقُدْرَةِ بِغَيْرِ الْعَرَبِيَّةِ». وَقَالُوا: لَوْ قَرَأَ بِغَيْرِ الْعَرَبِيَّةِ فَإِنَّمَا أَنْ يَكُونَ مَجْنُونًا فَيُدَاوَى، أَوْ زَنْدِيْقًا فَيُقْتَلُ؛ لِأَنَّ اللَّهَ تَكَلَّمَ بِهِ بِهَذِهِ اللُّغَةِ، وَالْإِعْجَازُ حَصَلَ بِنَظْمِهِ وَمَعْنَاهُ.

قال الشيخ:

قوله: (فَإِنْ قَالُوا: إِنَّمَا أَشَارَ إِلَى حِكَايَةِ مَا فِي نَفْسِهِ وَعِبَارَتِهِ، وَهُوَ الْمَتَلُوُّ الْمَكْتُوبُ الْمَسْمُوعُ، فَأَمَّا أَنْ يُشِيرَ إِلَى ذَاتِهِ فَلَا)، يرد عليهم - رحمه الله - فيقول: هذا صريح القول بأن القرآن مخلوق، إذا قلت: إن قوله: ﴿هَذَا الْقُرْآنُ﴾ [الإسراء: ٨٨]، إشارة إلى حكاية ما في نفسه وعبارته، يعني: أن هذا القرآن حكاية وعبرة عن ما في نفس الباري - سبحانه وتعالى - وقد أصبح مكتوباً مسموعاً، وليس الإشارة إلى ذاته، هكذا يقولون، فيقول الشارح: هذا صريح القول بأن القرآن مخلوق؛ وذلك لأن هذا المتلو والمسموع ولو كان كما تقولون حكاية ما في نفس الله وعبارته، فإنه ليس هو عين كلام الله، إنما هو عبارة وحكاية.

فعل هذا يكون مخلوقاً، فالذين يقولون بذلك هم مثل المعتزلة، أو قد يكونون أكفر من المعتزلة، فإن المعتزلة قالوا: إن القرآن كله مخلوق، ولم يقولوا: إنه حكاية ولا عبارة، فيقال: إن حكاية الشيء مثله وشبهه، حكاية ما في نفسه

وعبارته لاشك أنها مثله وشبهه، فهذا تصريح بأن صفات الله تعالى محكية و مترجمة.

يقول: (ولو كانت هذه التلاوة حكاية لكان الناس قد أتوا بمثل كلام الله)، أي: بمثل القرآن؛ لأنهم ترجموا ما في نفس الله تعالى، وأتوا بهذا القرآن فيكون هذا القرآن ليس هو عين كلام الله، إنما هو عين كلام هؤلاء الذين ترجموه: إما الملائكة، وإما محمد ﷺ، ونحو ذلك، فعلى هذا قدر الناس وقدر المخلوقون؛ كجبريل عليه السلام، ومحمد ﷺ على أن أتوا بمثل هذا القرآن، فكيف يكونون عاجزين، والله تعالى يقول: ﴿لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَتْ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٨]، فعلى قولهم: إن الإشارة إلى حكاية ما في نفسه، فالذين يتلون القرآن ويقرؤونه - في زعمهم - قد حكوا صوتاً وحرفاً عن الله تعالى ما ليس بحرف وصوت، قد حكوا هذه الأصوات وهذه الحروف وهي ليست حروفاً وليست أصواتاً، ومعلوم أننا نسمعها من القارئ، نسمع أصواتاً ونسمع حروفاً كل حرف وكل كلمة وكل جملة منفصلة ودالة على معنى، القرآن هو سور مسورة كل سورة لها أول ولها آخر، وآيات مسطرة كل آية لها مبدأ ومنتهى، قد تكون آيات قصيرة من كلمة واحدة؛ كقوله تعالى: ﴿مُدَّهَا مَنَانٍ﴾ [الرحمن: ٦٤]، وقوله - عز وجل -: ﴿وَالْفَجْرِ﴾ [الفجر: ١]، وقوله - جل وعلا -: ﴿وَالْعَصْرِ﴾ [العصر: ١]، وقد تكون طويلة؛ كآية الكرسي، وآية السدين، والقرآن ذكر الله أنه ﴿فِي صُفْحٍ مُّكْرَمَةٍ﴾ (١٣) ﴿مَرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ﴾ [عبس: ١٣]،

[١٤]، فإذا كان كذلك دل على أنه ليس هو كلام البشر، وليس هو تعليمهم، وإنما هو عين كلام الله الذي تكلم به كما يشاء.

فعلى هذا نعتقد: أن القرآن كيفما تُلى، وكيفما قُرئ، فإنه عين كلام الله، وأنه سور؛ كما في قوله تعالى: ﴿فَأَتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ﴾ [البقرة: ٢٣]، وقوله: ﴿فَأَتُوا بِعَشْرِ سُوْرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرِيْنَ﴾ [هود: ١٣]، ونعتقد أنه آيات؛ كما في قوله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ [العنكبوت: ٤٩]، أي: أنهم يحفظونه في صدورهم ويكتبونه في مصاحفهم، وكذلك قوله - عز وجل -:

﴿كَلَّا إِنَّهَا لَنَذِكْرٌ ۞ (١١) فَرَشَّاهُ ذِكْرُهُ ۞ (١٢) فِي صُحُفٍ مُّكْرَمَةٍ ۞ (١٣) مَرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ﴾ [عبس: ١١-١٤]، بما أن الله تعالى نزهه وأخبر بأنه في صحف الملائكة، أو اللوح المحفوظ مكرمة، وكذلك في هذه المصاحف يجب أن تكون مكرمة مرفوعة مطهرة، تُطهر عن أن يمسه المحدث، وتُرفع عن أن تكون في مستوى الأرض ونحوه، أخبر النبي ﷺ بأنه يُكتب لمن قرأه بكل حرف عشر حسنات في قوله: «مَنْ قَرَأَ حَرْفًا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ فَلَهُ بِهِ حَسَنَةٌ، وَالحَسَنَةُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا، لَا أُقُولُ (الْم) حَرْفٌ، وَلَكِنْ أَلِفٌ حَرْفٌ، وَلَا مٌ حَرْفٌ، وَمِيمٌ حَرْفٌ»^(١).

قيل: إنه أراد بالحرف الكلمة؛ لأن كلمة (ألف) تتكون من (همزة ولام وفاء)، وكذلك (لام) تتكون من (لام وألف وميم)، وكذلك (ميم) من

(ميمين وبينهما ياء).

وعلى كل حال إنه دليل على فضل قراءة القرآن، وأن القرآن هو المحفوظ في صدور الحافظين، الذي يسر الله تعالى حفظه بقوله: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ﴾ [القمر: ١٧]، وقوله: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ﴾ [مريم: ٩٧]، محفوظ في صدور الحافظين، ومسموع من ألسن التالين، نسمعه إذا تلاه التالي، قال تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا﴾ [الأعراف: ٢٠٤].

ثم قال عن الشيخ حافظ الدين النسفي عبدالله بن أحمد بن محمود النسفي الحنفي: كان إمامًا بارعًا في الحديث ومعانيه، له كتاب «منار الأنوار» في أصول الفقه، والنسفي هذا مشهور أنه من الحنفية، وغالب أهل زمانه على المذهب الأشعري في الصفات، ولكنه ها هنا نطق بالحق، فقال: (إِنَّ الْقُرْآنَ اسْمٌ لِلنَّظْمِ وَالْمَعْنَى)، صحيح أن هذا القرآن يعم حروفه ومعانيه.

قوله: (وَكَذَٰلِكَ قَالَ غَيْرُهُ مِنْ أَهْلِ الْأُصُولِ)، أي: من أهل أصول الفقه، كلهم يقولون: إن القرآن لفظًا ومعنى هو كلام الله.

قوله: (وَمَا يُنْسَبُ إِلَى أَبِي حَنِيفَةَ - رَحِمَهُ اللَّهُ - : أَنْ مَنْ قَرَأَ فِي الصَّلَاةِ بِالْفَارِسِيَّةِ أَجْزَأَهُ)، لعل هذا قاله أبو حنيفة عندما كان بجوار الفارسيين؛ لأن أصله فارسي، وقد يشق عليهم القراءة بالعربية، ولكن ذكر أنه رجع :، يقول المرغيناني في (الهداية) وكذلك العيني في شرحها: «يُروى رجوع أبي حنيفة في أصل المسألة، إلى قول أبي محمد بعدم حجية القراءة بغير العربية، كذلك أيضًا

رواه الرازي وغيره وعليه الاعتماد، وتنزله منزلة الإجماع، القرآن اسم للنظم والمعنى، جميعاً بالإجماع».

فلا يمكن أن أبا حنيفة - رحمه الله - يجوز أن تُقرأ الفاتحة في الصلاة بلغة غير العربية، بل يلزم القراءة بالعربية، الفاتحة وغيرها، ولا يجوز القراءة بغيرها، أما غير القراءة كالخطب والمواعظ والرسائل، فلا مانع من أنه يكتبها ويقرأها بالفارسية وغيرها، حتى يتبين لهم الكلام الذي يريدون فهمه، فذكر أن أبا حنيفة قال: (لَا يُجُوزُ الْقِرَاءَةُ مَعَ الْقُدْرَةِ بِغَيْرِ الْعَرَبِيَّةِ).

والأئمة يقولون: (لَوْ قُرَأَ بِغَيْرِ الْعَرَبِيَّةِ فَإِنَّمَا أَنْ يَكُونَ مَجْنُونًا فَيُذَاوَى، أَوْ زُنْدِيقًا فَيُقْتَلُ)، الذي يستحل القراءة بغير العربية يُتهم بأنه مجنون، فيُعالج حتى يُشفى، أو يُتهم بأنه زنديق ومنافق، والمنافقون والزنادقة يُقتلون؛ لأنهم أنكروا ما جاءت به الرسل، وادعوا كذب الرسل، وصاروا يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم.

قوله: (لَأَنَّ اللَّهَ تَكَلَّمَ بِهِ بِهَذِهِ اللُّغَةِ، وَالْإِعْجَازُ حَصَلَ بِنَظْمِهِ وَمَعْنَاهُ)، نزل القرآن بالعربية؛ لأنها أفصح اللغات، وأكثرها مواد ومعاني؛ فلاجل ذلك نزل هذا القرآن وتكلم الله تعالى بهذه العربية، وقد روي عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: «تعلموا العربية، فإنها تثبت العقل، وتزيد في المروءة»^(١)، وقد ذكر الله

(١) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٢/٢٠٤)، والخطيب في الجامع لأخلاق الراوي وآداب

السامع (٢/٢٥)، وأخرج ابن أبي شيبة (٦/١١٦) نحوه عن أبي بن كعب رضي الله عنه.

تعالى أن هذا القرآن عربي في قوله تعالى: ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾ [الشعراء: ١٩٥]،
 أي: بلسان العرب الواضح، وكذلك لما أن الكفار قالوا: ﴿إِنَّمَا يَعْلَمُهُ
 بَشَرٌ﴾، أجاب الله بقوله: ﴿لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا
 لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾ [النحل: ١٠٣]، أي: ذلك الذي يميلون إليه ويقولون:
 إن محمداً تعلم منه أعجمي، وهذا القرآن نزل باللغة العربية، والإعجاز حصل
 بنظمه ومعناه، فكونهم عجزوا عن أن يأتوا بمثله لقوله تعالى: ﴿فَلْيَأْتُوا
 بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ﴾ [الطور: ٣٤]، عجزوا عن ذلك، وقوله تعالى:
 ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوْرٍ مِّثْلِهِ مَفْرُودَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَعْظَمْتُمْ مِنْ
 دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [هود: ١٣]، عجزوا عن ذلك ولو كانت من السور
 القصار، وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ
 مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِّن دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِنْ لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ
 تَفْعَلُوا فَأْتُوا النَّارَ﴾ [البقرة: ٢٣، ٢٤]، أي: أنكم تعجزون عن أن تأتوا بمثله
 ولو دعوتهم أعاونكم وشركاءكم؛ لأنه أفصح الكلام، ولأنه من الله تعالى، فهو
 معجز بلفظه ومعناه، وقد تكلم العلماء على إعجاز القرآن وبينوا أنه معجز
 لا يقدر أحد على مثله؛ لذلك قال تعالى: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ
 اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢].

قال الطحاوي - رحمه الله :-

وَمَنْ سَمِعَهُ، وَقَالَ: إِنَّهُ كَلَامُ الْبَشَرِ، فَقَدْ كَفَرَ.

قال الشارح:

لَا شَكَّ فِي تَكْفِيرِ مَنْ أَنْكَرَ أَنَّ الْقُرْآنَ كَلَامُ اللَّهِ، بَلْ قَالَ إِنَّهُ كَلَامُ مُحَمَّدٍ أَوْ غَيْرِهِ مِنَ الْخَلْقِ، مَلَكًا كَانَ أَوْ بَشَرًا. وَأَمَّا إِذَا أَقْرَأَهُ كَلَامُ اللَّهِ، ثُمَّ أَوَّلَ وَحَرَّفَ فَقَدْ وَافَقَ قَوْلَ مَنْ قَالَ: ﴿إِنَّ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ﴾ [المدثر: ٢٥]، فِي بَعْضِ مَا بِهِ كَفَرَ، وَأَوْلِيكَ الدِّينِ اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ، وَسَيَأْتِي الْكَلَامُ عَلَيْهِ عِنْدَ قَوْلِ الشَّيْخِ: (وَلَا تُكْفِّرُ أَحَدًا مِنْ أَهْلِ الْقِبْلَةِ بِذَنْبٍ مَا لَمْ يَسْتَحِلَّهُ)، إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى.

قال الشيخ:

كلام الماتن: (وَمَنْ سَمِعَهُ)، يعني: سمع القرآن، (وَقَالَ: إِنَّهُ كَلَامُ الْبَشَرِ، فَقَدْ كَفَرَ). صريح في أنه كفر إذا أنكر أن القرآن كلام الله؛ لقول الله تعالى: ﴿وَقَدْ كَانَ قَرِيْبٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلِمَ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٧٥]، معلوم أنهم إنما سمعوا القرآن الذي أنزل على محمد ﷺ، فإذا قال: إنه كلام محمد، أو ترجمته، أو ترجمة غيره من الخلق ملكًا كان، أو بشرًا، أو أن محمدًا افتراء؛ كما قال ذلك المشركون في قوله: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَيْنَاهُ قُلْ إِنْ افْتَرَيْنَاهُ فَعَلَىٰ اجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا يُجْرِمُونَ﴾ [هود: ٣٥]، وغير ذلك من الآيات، فالذي يقول: إنه من

كلام محمد، أو من كلام ملك أو بشر، فإنه يكفر.
ثم يخبر أنه إذا أقر أنه كلام الله، ولكنه أول وحرّف وغيره عن ما يدل
عليه، أو قال: إنه ترجمة، أو إنه ليس عين كلام الله. فمثل هذا قد وافق قول مَنْ
قال: ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ﴾ [المدثر: ٢٥]، وذلك قول الوليد الذي ذكره الله
تعالى، فإن الوليد بن المغيرة قال: ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْتَرُ﴾ (٢٤) **﴿إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ
الْبَشَرِ﴾** [المدثر: ٢٤، ٢٥]، فتوعده الله بقوله: ﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ﴾ [المدثر: ٢٦]، وافق
هذا القائل في بعض ما قاله، وفي بعض ما كفر به، هؤلاء الذين يقولون: إنه من
قول البشر أولئك الذين ﴿أَسْتَرَلَهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا﴾ [آل
عمران: ١٥٥]، ووعده الشيخ الشارح أنه سوف يتوسع في الكلام عن ذلك عند
قول الماتن: (وَلَا تُكْفِّرُ أَحَدًا مِنْ أَهْلِ الْقِبْلَةِ بِذَنْبٍ مَا لَمْ يَسْتَحِلَّهُ).

قال الطحاوي - رحمه الله -:

وَلَا يُشْبَهُ قَوْلَ الْبَشَرِ.

قال الشارح:

يَعْنِي: أَنَّهُ أَشْرَفُ وَأَفْصَحُ وَأَصْدَقُ. قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٨٧]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذِهِ الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَتْ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٨] الْآيَةَ، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُورٍ مِثْلِهِ﴾ [هود: ١٣]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ فَأْتُوا بِسُورٍ مِثْلِهِ﴾ [يونس: ٣٨]، فَلَمَّا عَجَزُوا - وَهُمْ فَصَحَاءُ الْعَرَبِ، مَعَ شِدَّةِ الْعَدَاوَةِ - عَنِ الْإِتْيَانِ بِسُورَةٍ مِثْلِهِ، تَبَيَّنَ صِدْقُ الرَّسُولِ ﷺ أَنَّهُ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ. وَإِعْجَازُهُ مِنْ جِهَةِ نَظْمِهِ وَمَعْنَاهُ، لَا مِنْ جِهَةِ أَحَدِهِمَا فَقَطْ، هَذَا مَعَ أَنَّهُ قُرْآنٌ عَرَبِيٌّ غَيْرُ ذِي عِوَجٍ بِلِسَانِ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ - أَيٍّ: بِاللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ - فَنَفْسِي الْمَشَابَهَةِ مِنْ حَيْثُ التَّكَلُّمُ، وَمِنْ حَيْثُ النَّظْمُ وَالْمَعْنَى، لَا مِنْ حَيْثُ الْكَلِمَاتُ وَالْحُرُوفُ، وَإِلَى هَذَا وَقَعَتِ الْإِشَارَةُ بِالْحُرُوفِ الْمُقَطَّعَةِ فِي أَوَائِلِ السُّورِ - أَيٍّ: أَنَّهُ فِي أُسْلُوبِ كَلَامِهِمْ وَيُلَخِّطُونَ النَّبِيَّ يَتَخَاطَبُونَ بِهَا - أَلَا تَرَى أَنَّهُ يَأْتِي بَعْدَ الْحُرُوفِ الْمُقَطَّعَةِ بِذِكْرِ الْقُرْآنِ؟ كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿الْعَرَبُ ① ذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١، ٢]، ﴿الْعَرَبُ ② اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ③ نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾ [آل عمران: ١، ٣].

﴿الْمَصِّ ١﴾ كِتَابٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ ﴿[الأعراف: ١، ٢]، ﴿الرَّ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ
الْحَكِيمِ﴾ [يونس: ١]، وَكَذَلِكَ الْبَاقِي يُنَبِّهُهُمْ أَنَّ هَذَا الرَّسُولَ الْكَرِيمَ لَمْ يَأْتِكُمْ
بِمَا لَا تَعْرِفُونَهُ، بَلْ خَاطَبَكُم بِلِسَانِكُمْ.

قال الشيخ:

صحيح أنه لا يشبه قول البشر؛ وذلك لأنه أعجزهم عن معارضته مع
شدة عداوتهم له، فهو أشرف وأفصح وأصدق من كلام كل البشر مع أنه
بلسانهم؛ ولذلك قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٨٧]، يعني:
أنه من كلام الله تعالى، وقال: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا﴾ [النساء: ١٢٢]، أي:
أنه قول من الله تعالى، والله تعالى لا أحد أصدق منه؛ وكذلك قوله -عز وجل-:
﴿قُلْ لِيَنْ أَجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ
وَلَوْ كَانَتْ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٨]، أي: لو اجتمع الخلق من الجن
والإنس على معارضة القرآن لعجزوا عنه؛ وكذلك قال تعالى: ﴿قُلْ فَاتَّوَأُ
بِعَسْرِ سُوْرٍ مِّثْلِهِ﴾ [هود: ١٣]، فتحداهم بذلك فعجزوا، ثم تحداهم أيضًا
فقال -عز وجل-: ﴿قُلْ فَاتَّوَأُ بِسُوْرَةٍ مِّثْلِهِ﴾ [يونس: ٣٨]، فلما عجزوا عن
معارضته، وعلى أن يأتوا بمثله عندما طلب الله ذلك منهم في قوله: ﴿فَلْيَأْتُوا
بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ﴾ [الطور: ٣٤]، فعجزوا كلهم مع أنهم فصحاء

العرب، ومع شدة العداوة التي عادوه بها؛ لأنه سفه أحلامهم وسبب آهتتهم، فعجزوا عن الإتيان بسورة مثله، فضلاً عن الإتيان بمثله كله.

فبذلك تبين صدق النبي ﷺ فيما جاء به، وأن هذا القرآن من عند الله، وأنه كلام الله حقاً ليس كلام أحد من البشر، فيتبين (إِعْجَازُهُ مِنْ جِهَةِ نَظْمِهِ وَمَعْنَاهُ)، أي: أنه أعجزهم لم يقدرُوا على معارضته من جهة النظم فإتوا بسورة من مثله نظماً، وكذلك من جهة معناه ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ۸۲].

قوله: (لا مِنْ جِهَةِ أَحَدِهِمَا فَقَطْ)، أي: من جهة النظم، ولا من جهة المعنى، بل من جهة النظم والمعنى.

يقول: (هَذَا مَعَ أَنَّهُ قُرْآنٌ عَرَبِيٌّ غَيْرٌ ذِي عِوَجٍ بِلِسَانِ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ - أَي: بِاللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ)، التي يتكلمون بها وهم فصحاء، يدل على فصاحتهم ما روي من أشعارهم وخطبهم البليغة، ومع ذلك جاء هذا القرآن باللغة العربية الفصحى، فلم يقدرُوا على معارضته.

قوله: (فَنَفْيُ الْمِشَابَهَةِ مِنْ حَيْثُ التَّكَلُّمُ، وَمِنْ حَيْثُ النَّظْمُ وَالْمَعْنَى)، أي: أنهم لا يأتون بما يشبهه من حيث التكلم به؛ لأنه كلام الله، ومن حيث نظمه ومعناه، (لا مِنْ حَيْثُ الْكَلِمَاتُ وَالْحُرُوفُ)، أما الكلمات والحروف فإن كلامهم يشتمل على هذه الحروف العربية التي يتكلمون بها.

يقول: (وَإِلَى هَذَا وَقَعَتِ الْإِشَارَةُ بِالْحُرُوفِ الْمُقَطَّعَةِ فِي أَوَائِلِ السُّورِ)، وهي

تسع وعشرون سورة أفتتحت بالحروف المقطعة، وهي: (الم) وأخواتها،
و(المص)، (المز)، (طسم)، (حم) (عسق)، وكذلك (طه)، (كهيعص)، (ص)،
(ق)، (أي: **أَنَّهُ فِي أُسْلُوبِ كَلَامِهِمْ وَبَلُغَتِهِمُ الَّتِي يَتَخَاطَبُونَ بِهَا**).

ثم قال: (أَلَا تَرَى أَنَّهُ يَأْتِي بَعْدَ الْحُرُوفِ الْمُقَطَّعَةِ بِذِكْرِ الْقُرْآنِ ؟)، في سورة

(البقرة): ﴿ **الْمَ ١** ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾ [البقرة: ١، ٢]، بعد الحروف

الثلاثة أشار إلى الكتاب، أي: هذا الكتاب الذي لا ريب فيه، وفي أول سورة

(آل عمران): ﴿ **الْمَ ١** اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ أَعْيُ الْقِيَوْمِ ٢ ﴾ نَزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ

بِالْحَقِّ ﴿ [آل عمران: ١-٣]، ذكر إنزال الكتاب بالحق بعد الحروف، وبعد كلمة

التوحيد؛ كذلك في أول سورة (الأعراف): ﴿ **الْمَص ١** كِتَابٌ أَنْزَلَ إِلَيْكَ ﴾

[الأعراف: ١، ٢]، وكذلك في سورة (يونس): ﴿ **الرَّ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ**

الْحَكِيمِ ﴾ [يونس: ١]، وفي سورة (الرعد): ﴿ **الْمَر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ**

[الرعد: ١]، وغيرهن من البواقي كلهن بعدما تُذكر الحروف يُذكر بعد ذلك

إشارة إلى القرآن، قد يُستثنى من ذلك أول سورة (مريم): ﴿ **ك هِيعَص ١**

ذَكَرْ رَحْمَتِ رَبِّكَ ﴾ [مريم: ١، ٢]، فإن هذا فيه نوع إشارة إلى أن رحمة ربك التي

نزلت على زكريا - عليه السلام - من كلام الله، وكذلك أول سورة

(العنكبوت)، وأول سورة (الروم)، ولكن فيها نوع الإشارة إلى شيء من كلام

الله، ينبههم إلى أن هذا الرسول الكريم لم يأتيكم بما لا تعرفونه، لم يأتيكم بشيء

غريب، بل خاطبكم بلسانكم الذي تتكلمون به؛ ولهذا لما قالوا: ﴿إِنَّمَا يَعْلَمُهُ﴾
 بِشَرِّكُمْ، قال الله تعالى: ﴿لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَكَ إِلَيْهِ﴾، أي: يميلون
 إليه، ﴿أَعْجَبِيُّ وَهَذَا لِسَانُ عَرَبِيٍّ مِثِّي﴾ [النحل: ١٠٣]، أي: هذا
 القرآن جاء بلسانكم العربي الواضح المبين.

قال الشارح:

وَلَكِنَّ أَهْلَ الْمَقَالَاتِ الْفَاسِدَةَ يَتَذَرَعُونَ بِمِثْلِ هَذَا إِلَى نَفْسِي تَكَلَّمَ اللهُ بِهِ،
 وَسَمِعَ جِبْرِيلُ مِنْهُ، كَمَا يَتَذَرَعُونَ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١]، إِلَى نَفْسِي الصِّفَاتِ. وَفِي الْآيَةِ مَا يَرُدُّ عَلَيْهِمْ قَوْلُهُمْ، وَهُوَ قَوْلُهُ
 تَعَالَى: ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]، كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَأَنزَلْنَا
 سُورَةَ مِثْلِهِ﴾ [يونس: ٣٨]، مَا يَرُدُّ عَلَى مَنْ يَنْفِي الْحَرْفَ، فَإِنَّهُ قَالَ: ﴿فَأَنزَلْنَا
 سُورَةً﴾، وَلَمْ يَقُلْ فَأَنزَلْنَا بِحَرْفٍ، أَوْ بِكَلِمَةٍ. وَأَقْصَرُ سُورَةٍ فِي الْقُرْآنِ ثَلَاثُ
 آيَاتٍ؛ وَلِهَذَا قَالَ أَبُو يُوسُفَ وَ مُحَمَّدٌ رَحِمَهُمَا اللهُ: إِنَّ أَدْنَى مَا يُجْزَى فِي الصَّلَاةِ
 ثَلَاثُ آيَاتٍ قِصَارًا أَوْ آيَةٌ طَوِيلَةٌ؛ لِأَنَّهُ لَا يَقَعُ الْإِعْجَازُ بِدُونِ ذَلِكَ. وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

قال الشيخ:

يريد بأهل المقالات الفاسدة: المعتزلة، وغلاة الأشاعرة، والماتريدية،
 والكلابية ونحوهم، الذين يتذرعون بمثل هذا، ويقول: هو كتاب أنزل إليك،
 أو هو كتاب، يتذرعون به إلى نفسي تكلم الله به، أنه ما تكلم به، مع صريح
 الآيات أنه كلام الله، مثل قول الله تعالى: ﴿فَأَجْرُهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلِمَةَ اللهِ﴾ [التوبة: ٦]،
 وقوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلِمَةَ اللهِ﴾ [الفتح: ١٥]،
 وكذلك ينفون سماع جبريل منه، وجبريل بلغه وإنما نُسب القول إليه في قوله:
 ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ [الحاقة: ٤٠]، يعني: تبليغ رسول كريم، الذي هو

جبريل - عليه السلام - لا أنه هو الذي أنشأه، فهكذا يتذرعون بهذه الآيات لنفي أن الله تعالى تكلم به، أو أن جبريل - عليه السلام - سمعه منه بهذه الحروف.

وهكذا يتذرع المعتزلة والمعطلة بقوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١]، إلى نفي جميع الصفات، فيقولون: إذا أثبتنا صفةً فإن الصفة موجودة في المخلوق فيكون ذلك تشبيهاً، والله ليس كمثله شيء.

نقول: إن في هذه الآية ما يرد قولكم، وهو قوله تعالى: ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]، فأول الآية رد على المثلة ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾، وآخر الآية: ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾، رد على المعطلة الذين نفوا صفات الله تعالى.

كما في قول الله تعالى: ﴿فَأَتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ﴾ [يونس: ٣٨]، فدل على أنه سور، وأن بعضها يشبه بعضاً، ففي قوله: ﴿فَأَتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ﴾، ما يرد قول من ينفي الحرف، فيقولون: إن كلام الله ليس بصوت ولا بحرف، وأنه معنى قائم بنفسه. هكذا يقولون، والله تعالى يقول: ﴿فَأَتُوا بِسُورَةٍ﴾، ولم يقل فأتوا بحرف أو بكلمة.

قوله: (وَأَقْصُرْ سُورَةٍ فِي الْقُرْآنِ ثَلَاثُ آيَاتٍ)، أقصر سورة في القرآن هي سورة (الكوش) ثلاث آيات، وكذلك سورة (العصر)، وكذلك سورة (النصر)، كلها ثلاث آيات.

نقل الشارح عن أبي يوسف ومحمد صاحب أبي حنيفة - رحمهما الله - أنهما يقولان: (إِنَّ أَدْنَى مَا يُجْزَى فِي الصَّلَاةِ ثَلَاثُ آيَاتٍ قِصَارٍ أَوْ آيَةٌ طَوِيلَةٌ؛ لِأَنَّهُ لَا يَقَعُ الْإِعْجَازُ بِدُونِ ذَلِكَ. وَاللَّهُ أَعْلَمُ). أبو يوسف قد تقدم ذكره في مقدمة الكتاب، وكذلك محمد بن الحسن الشيباني، وكلاهما رويا عن الإمام أبي حنيفة.

يقول المرغيناني في «الهداية» - وهو حنفي -: «أدنى ما يجزى من القراءة في الصلاة آية عند أبي حنيفة، وقالوا:» - يعني: أبا يوسف ومحمد - «ثلاث آيات قصار أو آية طويلة؛ لأنه لا يسمى قارئاً بدونها، فأشبهه قراءة ما دون الآية». ونقل العيني في (البنية) التي هي شرح (الهداية): «أن قولهما هو رواية عن أبي حنيفة».

على كل حال: هذا كله دليل على أن القرآن كلام الله، وأنه ليس يشبه قول البشر.

قال الطحاوي - رحمه الله :-

وَمَنْ وَصَفَ اللَّهَ بِمَعْنَى مِنْ مَعَانِي الْبَشَرِ، فَقَدْ كَفَرَ، فَمَنْ أَبْصَرَ هَذَا اعْتَبَرَ،
وَعَنْ مِثْلِ قَوْلِ الْكُفَّارِ انْزَجَرَ، وَعَلِمَ أَنَّ اللَّهَ بِصِفَاتِهِ لَيْسَ كَالْبَشَرِ.

قال الشارح:

لَمَّا ذَكَرَ - فَيَا تَقَدَّمَ - أَنَّ الْقُرْآنَ كَلَامُ اللَّهِ حَقِيقَةً، مِنْهُ بَدَأَ، نَبَهُ بَعْدَ ذَلِكَ عَلَى
أَنَّهُ تَعَالَى بِصِفَاتِهِ لَيْسَ كَالْبَشَرِ، نَفِيًّا لِلتَّشْبِيهِ عَقِيبَ الْإِثْبَاتِ، يَعْنِي: أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى
وَإِنْ وُصِفَ بِأَنَّهُ مُتَكَلِّمٌ، لَكِنْ لَا يُوصَفُ بِمَعْنَى مِنْ مَعَانِي الْبَشَرِ الَّتِي يَكُونُ
الْإِنْسَانُ بِهَا مُتَكَلِّمًا، فَإِنَّ اللَّهَ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ. وَمَا أَحْسَنَ
الْمَثَلَ الْمَضْرُوبَ لِلْمُثَبِّتِ لِلصِّفَاتِ مِنْ غَيْرِ تَشْبِيهِ وَلَا تَعْطِيلٍ، بِاللَّبَنِ الْخَالِصِ
السَّائِغِ لِلشَّارِبِينَ، يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ فَرْثِ التَّعْطِيلِ وَدَمِ التَّشْبِيهِ، وَالْمُعْطَلُ يَعْبُدُ
عَدَمًا، وَالْمُشَبَّهُ يَعْبُدُ صَمْتًا. وَسَيَأْتِي فِي كَلَامِ الشَّيْخِ: (وَمَنْ لَمْ يَتَوَقَّ النَّفْيَ
وَالتَّشْبِيَةَ، زَلَّ وَلَمْ يُصِبِ التَّنْزِيَةَ)، وَكَذَا قَوْلُهُ: (وَهُوَ بَيْنَ التَّشْبِيهِ وَالتَّعْطِيلِ)،
أَي: دِينَ الْإِسْلَامِ، وَلَا شَكَّ أَنَّ التَّعْطِيلَ شَرٌّ مِنَ التَّشْبِيهِ؛ لِأَنَّهُ سَأْدُكْرُهُ إِنْ شَاءَ
اللَّهُ تَعَالَى، وَلَيْسَ مَا وَصَفَ اللَّهُ بِهِ نَفْسَهُ وَلَا مَا وَصَفَهُ بِهِ رَسُولُهُ تَشْبِيهًا، بَلْ
صِفَاتُ الْخَالِقِ كَمَا يَلِيقُ بِهِ، وَصِفَاتُ الْمَخْلُوقِ كَمَا يَلِيقُ بِهِ.

وقوله: (فَمَنْ أَبْصَرَ هَذَا اعْتَبَرَ)، أَي: مَنْ نَظَرَ بِعَيْنِ بَصِيرَتِهِ فِيهَا قَالَهُ مِنْ
إِثْبَاتِ الوَصْفِ وَنَفْيِ التَّشْبِيهِ وَوَعِيدِ المُشَبَّهِ، اعْتَبَرَ وَانْزَجَرَ عَنْ مِثْلِ قَوْلِ الْكُفَّارِ.

قال الشيخ:

ذكر في هذا الكلام أن من الناس من غلا وجعل كلام الله ككلام البشر، ومنهم من جفا ونفى أن يكون لله كلام أصلاً، وادعى أن القرآن مخلوق، ومنهم من أثبت لله تعالى كلاماً، ونفى أن يكون مثل كلام المخلوقين، وهذا هو القول الوسط، وهو قول أهل السنة. ويقال كذلك في سائر الصفات، وهو أن كل صفة نسبتها لله تعالى فإننا نعتقد أنها على ما يليق به، ونزّه الله - عزّ وجلّ - عن أن يكون شبيهاً بالمخلوقين في أي صفةٍ، كما ننزهه عن أن تُسلب عنه صفات الكمال، فسلبُ الصفات يُسمى تعطيلًا، وإثباتها واعتقاد أنها مثل صفات المخلوقين يُسمى تشبيهاً، وكلاهما طرفا نقيض، وكلاهما باطل لا يجوز القول به، والقول الوسط - الذي هو قول أهل السنة - اعتقاد أن صفات الله وكلامه وأفعاله ثابتة وحقٌّ ويقين، وليست مماثلةً لصفات المخلوقين، هكذا يجب أن نقول، ولأجل ذلك مثله الشارح باللبن الصافي الذي يخرج من بين فرثٍ ودم، فجعل اللبن هو قول أهل السنة، والفرثُ والدم قول المعطلّة والمشبهة.

وذكر أن بعض السلف كانوا يقولون: «الممثل يعبد صنماً، والمعطل يعبد عدماً، والموحد يعبد إلهًا واحدًا فردًا صمدًا». ويقول آخر: من شبه الله بخلقه فقد كفر، ومن نفى عنه ما أثبتته لنفسه فقد كفر، وليس في إثبات صفات الله تعالى تشبيه أصلاً، بل فيها إثبات صفاتٍ تليق بجلاله، ينزه فيها عن أن يكون مشابهاً لشيء من المخلوقات، وهكذا ينبغي أن نعتقد في صفات ربنا سبحانه وتعالى.

وبلا شك، أن كلا الطرفين يعتقدده خَلْقٌ، يعني: طرف التشبيه يعتقدده أناس، وطرف التعطيل عليه أمم آخرون، ولكن المعطلة أكثر، لما يروّجونه من عقليّاتهم التي يموّهون بها في نفي الصفات، فلاجل ذلك يقول الشارح: إن المعطلة أشد كفرًا من المشبهة، وما ذاك إلا لكثرة ما ابتلي بهم الخلق؛ فلذلك يرجح كثير من الأئمة أن المعطل قد تنقّص الله غاية التنقّص، حتى سلب ربّه سبحانه صفات الكمال وألحقه بالناقصات أو بالجّمادات أو بالمعدومات أو بالمستحيلات الممتنعات، يعني: من لازم أقوالهم مثل هذا، فلذلك يقول ابن القيم في نونيّته^(۱):

لَسْنَا نُشَبِّهُ رَبَّنَا بِصِفَاتِنَا إِنَّ الْمُشَبَّهَ عَابِدُ الْأَوْثَانِ
كَلَّا وَلَا نُخْلِيهِ مِنْ أَوْصَافِهِ إِنَّ الْمُعْطَّلَ عَابِدُ الْبُهْتَانِ

يعني: ما كأنه يعبد شيئًا، ولا يؤمن بشيء - تعالى الله عن قولهم - ويبأتي لذلك أيضًا زيادة بيان في الردّ على الطائفتين.

(۱) انظر: النونية بشرح ابن عيسى (۲/ ۲۱۲).

قال الطحاوي:

وَالرُّؤْيَى حَقٌّ لِأَهْلِ الْجَنَّةِ، بَغَيْرِ إِحَاطَةٍ وَلَا كَيْفِيَّةٍ، كَمَا نَطَقَ بِهِ كِتَابُ رَبِّنَا:
﴿وَجُودٌ وَيَوْمَئِذٍ تَأْخُذُ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ﴾ [القيامة: ٢٢، ٢٣]، وَتَفْسِيرُهُ عَلَىٰ مَا أَرَادَ اللَّهُ
تَعَالَىٰ وَعَلِمَهُ.

وَكُلُّ مَا جَاءَ فِي ذَلِكَ مِنَ الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَهُوَ كَمَا
قَالَ، وَمَعْنَاهُ عَلَىٰ مَا أَرَادَ، لَا نَدْخُلُ فِي ذَلِكَ مُتَسَاوِلِينَ بِأَرَائِنَا وَلَا مُتَهَمِينَ
بِأَهْوَائِنَا، فَإِنَّهُ مَا سَلِمَ فِي دِينِهِ إِلَّا مَنْ سَلِمَ لِلَّهِ - عَزَّ وَجَلَّ - وَلِرَسُولِهِ ﷺ، وَرَدَّ
عِلْمَ مَا اشْتَبَهَ عَلَيْهِ إِلَىٰ عَالِمِهِ.

قال الشارح:

الْمُخَالَفُ فِي الرُّؤْيَى: الْجَهْمِيَّةُ وَالْمُعْتَزِلَةُ وَمَنْ تَبِعَهُمْ مِنَ الْخَوَارِجِ وَالْإِمَامِيَّةِ،
وَقَوْلُهُمْ بَاطِلٌ مَرْدُودٌ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، وَقَدْ قَالَ بِبُشُوتِ الرُّؤْيَى الصَّحَابَةُ
والتَّابِعُونَ، وَأَثَمَةُ الْإِسْلَامِ الْمَعْرُوفُونَ بِالْإِمَامَةِ فِي الدِّينِ، وَأَهْلُ الْحَدِيثِ، وَسَائِرُ
طَوَائِفِ أَهْلِ الْكَلَامِ الْمُنْسُوبُونَ إِلَى السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ.

وَهَذِهِ الْمَسْأَلَةُ مِنْ أَشْرَفِ مَسَائِلِ أَصُولِ الدِّينِ وَأَجَلِّهَا، وَهِيَ الْغَايَةُ الَّتِي
شَمَّرَ إِلَيْهَا الْمُشَمَّرُونَ، وَتَنَافَسَ الْمُتَنَافِسُونَ، وَحَرِمَهَا الَّذِينَ هُمْ عَنْ رَبِّهِمْ
مُحْجُوبُونَ، وَعَمَّنْ بَابِهِ مَطْرُودُونَ.

قال الشيخ:

من هنا بدأ الماتن ثم الشارح بالكلام على مسألة رؤية المؤمنين لربهم سبحانه وتعالى، والرؤية في الآخرة ثابتة لأهل السنة في الجنة وفي الموقف أحياناً، وهذه الرؤية من تمام نعيم أهل الجنة، ومن تمام كرامتهم، ومن تمام إتحافهم والإنعام عليهم، أن يروا ربهم، وأن يتجلى لهم ربهم كما يشاء، وأن يكشف الحجاب بينهم وبينه، وأن ينظروا إليه كما يشاء، وإذا نظروا إليه لم يلتفتوا إلى غيره حتى يحتجب عنهم، فيزدادون بهجةً وسروراً، وتُسْفِرُ وجوههم وتزدادُ نضرة، ويزدادون حبرةً وفرحاً.

وأخبر العلماء والعباد والعارفون بأنه لولا يقينهم بأنهم سيرون ربهم تعالى لقتلوا أنفسهم، ولو خافوا أنهم في الآخرة لا يتنعمون برؤيته كما قرأ لهم قراراً، ولما سُروا بذلك الموعد، لكن اطمأنوا إلى خبر ربهم، والخبر عن نبيهم عليه أفضل الصلاة والسلام، وصدقوا بأنهم في يوم القيامة وفي الجنة يتنعمون غاية التنعم برضا الله سبحانه وتعالى، ثم بعد ذلك برؤيته، ولا شك أن ذلك وارد في الأدلة الكثيرة، وفي النصوص الصحيحة التي لا تحتاج إلى تدعيم ولا إلى تقوية، والتي بلغت في كثرتها التواتر، وسيورد الشارح كثيراً منها، ولكن أنكرها - مع كثرتها - من حرموا هذا النعيم، ومن صدّوا بقلوبهم عن هذا الأمر العظيم، أولئك هم الجهمية والمعتزلة، وأتباعهم من الخوارج والإمامية.

والجهمية أتباع الجهم بن صفوان، وهو أول من أنكر الصفات، كما أنكروا أن يكون الرب - سبحانه وتعالى - يُرى، وقال: لا يمكن أن يُرى إلا إذا كان في

مقابلة أو كان في جهة، فادّعى أن رؤيته مستحيلة غير ممكنة.

وتبعت الجهميَّة المعتزلة، والمعتزلة فرقة كثيرة، لا يزالون موجودين، ولهم مؤلفات ينكرون فيها الصفات، ومن جملة الصفات الرؤية، ينكرون أكبر نعيم وأكبر لذة لأهل الجنة، ولأهل الدنيا إذا تذكروها، هدام ما تذكروه إلى طلبها وإلى المغالاة في العبادة التي تؤهلهم لها، ولا شك أن هذه العبادة هي أجلُّ العبادات، وهذا النعيم هو أجلُّ نعيم يحصل لأهل الجنة.

وتبعهم على ذلك المتأخرون من الخوارج، فإنهم على هذا المعتقد، وهو إنكار الرؤية، والقول بأن القرآن مخلوق، والقول بأن العبد ليس له أية قدرة، بل هو مَسْلُوبُ القدرة، أما المتقدمون من الخوارج فلم يُنقل عنهم كل ذلك.

هذه من عقائد المعتزلة التي وافقهم عليها بعض الخوارج، وقد اطلعتُ على كتاب لبعض المتأخرين سماه «الحقُّ الدامغ»، أنكر فيه الصفات، وركّز على مسألة الرؤية، وتكلّف في صرف الأدلة التي تدل عليها، وركز فيه أيضًا على مسألة القرآن وأنه مخلوق، وكذلك مسألة القدر، فأنكر قدرة الله على أفعال العباد، فينبغي أن نأخذ حذرنا من مثل هذه الكتب وهؤلاء المؤلفين، وهذا المؤلف موجود في دولة عُمان، وقد ضلَّ بسببه خلق كثير، ولكن بحمد الله أن الحق واضح، وبيّشّرنا كثيرٌ من الذين ذهبوا إلى تلك الدولة أن كثيرًا من الشباب الذين تفتحت معارفهم قد أنكروا معتقد أسلافهم وآبائهم لمثل هذا، وأنهم رجعوا إلى عقيدة أهل السنة، ولو لم يتمكنوا من الإفصاح بها، ولكن الإباضية هناك - والذين هم فرقة من الخوارج - لهم الدولة ولهم الصّولة ولهم

القوة، فَهُمْ من بقية الخوارج يعتقدون هذه العقيدة.
وبكل حال، فإن مسألة الرؤية هي من أجل المسائل ومن أفضلها،
اعتقدها أهل السنة، وآمنوا بها، ولا عبرة بمن أنكروها من هؤلاء، فقد أخبر الله
تعالى بأن من خلقه من يُحِبُّ عنه، في قوله تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ
لَمَّحْجُوبُونَ﴾ [المطففين: ١٥]، وهؤلاء منهم بلا شك، إذا كانوا ينكرون أن يكون
الله تعالى يُرى في الآخرة فمعناه أنهم لا يريدون رؤية الله، وأنهم سيُحجبون
عن الله تعالى، ولا يُحجب عنه إلا الكافرون، فقد حرموا أنفسهم هذه البلذة
وأنكروها، فيكونون معاقبون بمثل ما اعتقدوه والعياذ بالله.

قال الشارح:

وَقَدْ ذَكَرَ الشَّيْخُ - رَحِمَهُ اللَّهُ - مِنَ الْأَدِلَّةِ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾﴾

إِلَى رَبِّهَا نَاطِرَةٌ ﴿[القيامة: ٢٢، ٢٣]﴾، وَهِيَ مِنْ أَظْهَرِ الْأَدِلَّةِ، وَأَمَّا مَنْ أَبِي إِلَّا تَحْرِيفُهَا بِمَا يُسَمِّيهِ تَأْوِيلًا، فَتَأْوِيلُ نُصُوصِ الْمَعَادِ وَالْجَنَّةِ وَالنَّارِ وَالْحِسَابِ، أَسْهَلُ مِنْ تَأْوِيلِهَا عَلَى أَرْبَابِ التَّأْوِيلِ، وَلَا يَشَاءُ مُبْطِلٌ أَنْ يَتَأَوَّلَ النُّصُوصَ وَيُحَرِّفَهَا عَنْ مَوَاضِعِهَا إِلَّا وَجَدَ إِلَى ذَلِكَ مِنَ السَّبِيلِ مَا وَجَدَهُ مُتَأَوَّلٌ هَذِهِ النُّصُوصِ.

وَهَذَا الَّذِي أَفْسَدَ الدُّنْيَا وَالدِّينَ، وَهَكَذَا فَعَلَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى فِي نُّصُوصِ التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ، وَحَدَّرْنَا اللَّهُ أَنْ نَفْعَلَ مِثْلَهُمْ، وَأَبَى الْمُبْطِلُونَ إِلَّا سُؤكَ سَبِيلِهِمْ، وَكَمْ جَنَى التَّأْوِيلُ الْفَاسِدُ عَلَى الدِّينِ وَأَهْلِهِ مِنْ جِنَايَةٍ، فَهَلْ قَتَلَ عُثْمَانُ ﷺ إِلَّا بِالتَّأْوِيلِ الْفَاسِدِ! وَكَذَا مَا جَرَى فِي يَوْمِ الْجَمَلِ، وَصَفَيْنَ، وَمَقْتَلِ الْحُسَيْنِ ﷺ، وَالْحَرَّةَ؟ وَهَلْ حَرَجَتِ الْخَوَارِجُ، وَاعْتَزَلَتِ الْمُعْتَزِلَةُ، وَرَفَضَتِ الرَّوَافِضُ، وَافْتَرَقَتِ الْأُمَّةُ عَلَى ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً، إِلَّا بِالتَّأْوِيلِ الْفَاسِدِ!؟

وَإِضَافَةُ النَّظَرِ إِلَى الْوَجْهِ، الَّذِي هُوَ مَجْلُهُ، فِي هَذِهِ الْآيَةِ، وَتَعْدِيَّتُهُ بِأَدَاةِ (إِلَى) الصَّرِيحَةِ فِي نَظَرِ الْعَيْنِ، وَإِخْلَاءِ الْكَلَامِ مِنْ قَرِينَةٍ تَدُلُّ عَلَى خِلَافِهِ حَقِيقَتَهُ وَمَوْضُوعِهِ، صَرِيحٌ فِي أَنَّ اللَّهَ أَرَادَ بِذَلِكَ نَظَرَ الْعَيْنِ الَّتِي فِي الْوَجْهِ إِلَى الرَّبِّ جَلَّ جَلَالُهُ.

قال الشيخ:

أصرح ما استدلل به أهل السنة هو هذه الآية التي في سورة القيامة، قال تعالى: ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاصِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢، ٢٣]، الكلمة الأولى رسمت بالضاد، والمراد أنها وجوه مشرقة ناصرة، من النضارة التي هي البهاء والإشراق والسرور والابتهاج، يعني: أنها منيرة، وقد ذكر الله تعالى أن وجوه أهل الخير هكذا فقال تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ [آل عمران: ١٠٦]، تبيضُّ وجوه أهل السنة والجماعة، وتسودُّ وجوه أهل الفرقة والابتداع، وقال تعالى: ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٢٨﴾ ضَاكِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ﴾ [عبس: ٣٨، ٣٩]، هذه وجوه أهل السعادة أيضًا.

فهكذا ذكر الله في هذه الآية أن هذه الوجوه ناصرة، يعني: بهيئة مشرقة مستنيرة مضيئة، تغشاها الفرح والسرور، لماذا؟ لأنها شاعرة بالسعادة، ولأنها أيقنت بحسن العاقبة، ولأنها عرفت الفوز والظفر بالمطلوب، وعرفت أنها ستلقى الجزاء الذي وعدت به، وهو الجزاء الأوفى الذي هو جزاء الحسنات بأضعافها.

والقول الثاني: أنها لما نظرت إلى الله سبحانه أهرقت من آثار ذلك النظر،

﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاصِرَةٌ﴾، أي: مشرقة مضيئة بسبب رؤيتها لله سبحانه وتعالى.

وقوله: ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾، أي: تلك الوجوه الناصرة ناظرة إلى ربها. جل

وعلا. نظر عيان، ولم يقل: إلى نعمة ربها ناظرة، ولم يقل: إلى ثواب ربها ناظرة،

ولم يقل: إلى النعيم راضية، ولا إلى الجنة ناظرة، بل قال: ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾، أي: تنظر إلى ربها.

وفرق بين من يقرؤها ويؤمُّها كما جاءت، وبين من يتكلف في تأويلها، فالمعتزلة والذين أنكروا الصفات تأولوها تأويلات بعيدة، فيؤول بعضهم قوله تعالى: ﴿إِلَىٰ﴾ بالنعمة، يعني: آلاء ربِّها أو نِعَم ربِّها ناظرة. ونحن نقول: ﴿إِلَىٰ﴾ معروف أنه حرف جر، ولكن جعلوه اسماً مضافاً، فقالوا: ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا﴾، أي: نعمة ربِّها، أو واحد الآلاء، ولا شك أن هذا تكلف بعيد.

وهكذا قال بعضهم: ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾، أي: إلى ثواب ربها، أو إلى نعمة ربها، أو إلى جزاء ربها، فجعلوا في الكلام مضمراً، ما الذي دلکم على أن في الكلام مضمراً أو محذوفاً؟ ولماذا تتركون الظاهر وتأتون بمضمّر من قبل أنفسكم؟ لا شك أنه لا دلالة عليه عندهم.

وبعضهم قال: ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾، أي: إلى ربِّها منتظرة ما يعطيها أو ما يهبها، مع أن هناك فرقاً بين ناظرة وبين منتظرة.

هذه من أمثال التأويلات، وما هو إلا تكلف ويسمونه تأويلاً، وهو في الحقيقة تحريف وتغيير وتصحيف لكلام الله، وصرف له عن ظاهره.

نقول: إذا تسلّطتم على هذا النص بالتأويل، أمكن غيركم وأمكنكم أن تتأولوا آيات المعاد، أنتم الآن يا معتزلة تسلّطتم فتأولتم آيات الصفات وحرفتموها وصرفتموها عن ظاهرها، وبفعلكم هذا فتحتم الباب لغيركم،

فجاء الفلاسفة وأنكروا المعاد الجسماني، وقالوا: ليس هناك ردُّ للأرواح في الأجساد، وليس هناك إحياء للأموات، فقيل لهم: كيف تردون على هذه النصوص؟ فقالوا: نتأولها، ليس تأويلكم لآيات الصفات أصعب من تأويلنا لآيات المعاد.

ثم جاءت فرقة أخرى من غلاة الفلاسفة وغلاة الصوفية، فتأولوا نصوص الأحكام - الحلال والحرام والأوامر والنواهي - وصرفوها أيضًا، وأبطلوها كلَّ الإبطال، حتى قال بعضهم: المراد بالحجِّ حج القلوب إلى علام الغيوب، أو قالوا مثلًا: المراد بالصلاة اتصال القلب بالربِّ، وليس معناها أن تجتمعوا في المساجد وتركعوا وتسجدوا، هذا ليس المراد منكم، إذا صفت قلوبكم، واتصلت بالملا الأعلى، فهذه هي الصلاة التي أمرتم بها! هكذا يقول الفلاسفة، ويقول الصوفية ونحوهم.

نقول: إذا بطلت بهذا التأويل الأحكام التي نقلت بالفعل وبالقول الصريح؟! بسبيكم يا أشعرية ويا معتزلة، كمّا فتحتم باب التأويل لآيات الصفات، فدخل من هذا الباب الفلاسفة والصوفية وأهل الوحدة ونحوهم، وصاروا يتأولون، وحصل بالتأويل مفسد، فإن الفتن التي وقعت من عهد الصحابة إنما هي بسبب التأويلات الباطلة، يعني: قتل عثمان رضي الله عنه، وقتل الحسين رضي الله عنه، وكذلك الفتن التي حصلت، مثل وقعة صفين، ووقعة الجمل، ووقعة الحرّة، حصلت بسبب التأويلات البعيدة عن الصواب.

فلا تتأولوا النصوص، بل أجرؤها على ما يفهم منها، وفوَّضوا الكيفية،

إذا قصرت أنظاركم ومعرفتكم عن شيء فلتتوقف عن الكيفية، كيفية تلك الرؤية، أو كيفية الصفة التي هي صفة ذات، قولوا: الله أعلم بها، كما قال الإمام مالك - رحمه الله -: «الاستواء معلومٌ، والكيف مجهولٌ». فهكذا نقول: الكلام معلومٌ، والكيف مجهول، والرؤية معلومةٌ وكيفيتها مجهولة لنا، الله أعلم بكيفيتها.

وإذا كان كذلك سلّمنا من أن نقع في هذا التحريف الذي سمّاه أهله تأويلًا ترويحًا له؛ حتى يُقبل عند السُّدجِ وقصار الأفهام.

قال الشارح:

فَإِنَّ النَّظَرَ لَهُ عِدَّةٌ اسْتِعْمَالَاتٍ، بِحَسَبِ صَلَاتِهِ وَتَعَدِّيهِ بِنَفْسِهِ: فَإِنَّ عُدِّيَ
بِنَفْسِهِ فَمَعْنَاهُ: التَّوَقُّفُ وَالِانْتِظَارُ، كَقَوْلِهِ: ﴿ أَنْظِرُونَا نَفْسِنَا مِنْ نُورِكُمْ ﴾
[الحديد: ١٣]، وَإِنَّ عُدِّيَ بِـ (فِي)، فَمَعْنَاهُ: التَّفَكُّرُ وَالِاعْتِبَارُ، كَقَوْلِهِ: ﴿ أَوْلَمَّا
يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ [الأعراف: ١٨٥]، وَإِنَّ عُدِّيَ بِـ (إِلَى)،
فَمَعْنَاهُ: الْمُعَايَنَةُ بِالْأَبْصَارِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ أَنْظِرُونَا إِلَىٰ فَسْرِهِ إِذَا أَنْمَرَ ﴾
[الأنعام: ٩٩]، فَكَيْفَ إِذَا أُضِيفَ إِلَى الْوَجْهِ الَّذِي هُوَ مَحَلُّ الْبَصَرِ؟
وَرَوَى ابْنُ مَرْدَوَيْهِ بِسَنَدِهِ إِلَى ابْنِ عُمَرَ، قَالَ: «قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي قَوْلِهِ
تَعَالَى: ﴿ وَجْهٌ يَوْمَئِذٍ نَاطِرٌ ﴾ [القيامة: ٢٢]، قَالَ: مِنَ الْبُهَاءِ وَالْحُسْنِ، ﴿ إِلَىٰ رَبِّهَا
نَاطِرَةٌ ﴾ [القيامة: ٢٣]، قَالَ: فِي وَجْهِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ»^(١). عَنِ الْحَسَنِ قَالَ: نَظَرْتُ
إِلَى رَبِّهَا فَنَضَّرْتُ بِنُورِهِ»^(٢). وَقَالَ أَبُو صَالِحٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا -:
﴿ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاطِرَةٌ ﴾، قَالَ: تَنْظُرُ إِلَى وَجْهِ رَبِّهَا عَزَّ وَجَلَّ»^(٣). وَقَالَ عِكْرِمَةُ: ﴿ وَجْهٌ

(١) أخرجه بهذا اللفظ الديلمي في الفردوس (٤/٤٠٩)، وأخرج نحوه: أحمد (١٣/٢، ٦٤)،
والترمذي (٢٥٥٣)، والطبري (٢٩/١٩٣)، وأبو يعلى (١٠/٧٦)، والحاكم (٢/٥٠٩)،
والدارقطني في الرؤية (ص ١٤٤).

(٢) أخرجه الطبري (٢٩/١٩٢)، واللالكائي في أصول اعتقاد أهل السنة (٣/٤٦٤)،
والآجري في الشريعة (٢/٩٩١)، والدارقطني في الرؤية (ص ١٦٢).

(٣) أخرجه اللالكائي في أصول اعتقاد أهل السنة (٣/٤٦٤)، والآجري في الشريعة

يَوْمَهُ نَافِزَةٌ ﴿١﴾، قَالَ: مِنَ النَّعِيمِ، ﴿إِلَى رَبِّهَا نَافِزَةٌ﴾، قَالَ: تَنْظُرُ إِلَى رَبِّهَا نَظْرًا^(١)، ثُمَّ حَكَى عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ مِثْلَهُ. وَهَذَا قَوْلٌ كُلُّ مُفَسِّرٍ مِنْ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْحَدِيثِ.

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿هُم مَّا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ [ق: ٣٥]، قَالَ الطَّبْرِيُّ^(٢): قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ وَأَنَسُ بْنُ مَالِكٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا -: هُوَ النَّظْرُ إِلَى وَجْهِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ.

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْمُسْتَقِيمِينَ زِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦]، فَالْحُسْنَى: الْجَنَّةُ، وَالزِّيَادَةُ: هِيَ النَّظْرُ إِلَى وَجْهِ الْكَرِيمِ، فَسَرَّهَا بِذَلِكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَالصَّحَابَةُ مِنْ بَعْدِهِ، كَمَا رَوَى مُسْلِمٌ فِي «صَحِيحِهِ»^(٣) عَنْ صُهَيْبٍ، قَالَ: «قَرَأَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْمُسْتَقِيمِينَ زِيَادَةٌ﴾، قَالَ: إِذَا دَخَلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ، وَأَهْلُ النَّارِ النَّارَ، نَادَى مُنَادٍ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ، إِنَّ لَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ مَوْعِدًا يُرِيدُ أَنْ يُنْحِزَ كُمُوهُ، فَيَقُولُونَ: مَا هُوَ؟ أَلَمْ يُثَقِّلْ مَوَازِينَنَا، وَيُبَيِّضُ وُجُوهَنَا، وَيُدْخِلَنَا الْجَنَّةَ، وَيُجِرَّنَا مِنَ النَّارِ؟ فَيُكْشِفُ الْحِجَابَ، فَيَنْظُرُونَ

(٢/ ٩٩٠)، والبيهقي في الاعتقاد (ص ١٢٦).

(١) أخرجه الطبري (١٩٢/ ٢٩)، والدارمي في الرد على الجهمية (ص ١٢١)، واللالكائي في أصول اعتقاد أهل السنة (٤٦٥/ ٣)، والآجري في الشريعة (٩٩٢/ ٢).

(٢) في تفسيره (١٧٣/ ٢٦ - ١٧٥).

(٣) برقم (١٨١) بغير هذا اللفظ.

إِلَيْهِ، فَمَا أَعْطَاهُمْ شَيْئًا أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِنَ النَّظَرِ إِلَيْهِ، وَهِيَ الزِّيَادَةُ^(١). وَرَوَاهُ غَيْرُهُ^(٢) بِأَسَانِيدٍ مُتَعَدِّدَةٍ وَالْفَاطِظِ أُخْرَى، مَعْنَاهَا أَنَّ الزِّيَادَةَ: النَّظَرُ إِلَى وَجْهِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ. وَكَذَلِكَ فَسَّرَهَا الصَّحَابَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، رَوَى ابْنُ جَرِيرٍ^(٣) ذَلِكَ عَنْ جَمَاعَةٍ مِنْهُمْ: أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ رضي الله عنه، وَحَدِيثُهُ، وَأَبُو مُوسَى الْأَشْعَرِيُّ، وَابْنُ عَبَّاسٍ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

قال الشيخ:

هذه ثلاث آيات من كتاب الله تعالى دالة على الرؤية أو مفسرة بها، فالآية الأولى هي قوله تعالى في سورة القيامة: ﴿وَجْهٌ يُؤَمِّدُ نَاصِرَةٌ ۖ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاطِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢، ٢٣]، وفي تفاسير الصحابة والتابعين أنهم قالوا: ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاطِرَةٌ﴾، أي: إلى وجه ربها، أو تنظر إلى ربها، صرح بذلك عددٌ من الصمماة، وقد ذكرت أن المعتزلة حرّفوا كلمة النظر، فجعلوه الانتظار، أو حرّفوا كلمة (إلى) فجعلوها النعمة، أو اعتقدوا ضميرًا، فجعلوا على حذف مُضاف، أي إلى نعمة ربها، أو إلى ثواب ربها.

وكلمة النظر تارة تُعدّى بنفسها، وتارة تُعدّى بحرف «في»، وتارة تُعدّى

(١) أخرجه الترمذي (٣١٠٥)، والنسائي في الكبرى (١١١٧٠)، وابن ماجه (١٨٧)، وأحمد

(٣٣٣/٤).

(٢) في تفسيره (١١/١٠٤-٢٠٧).

بحرف «إلى»، فمثال تعديتها بنفسها: قول الله تعالى: ﴿أَنْظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ﴾ [الحديد: ١٣]، قوله: ﴿أَنْظُرُونَا﴾ هنا ليس معناه النظر بالعين، وإنما معناه انظروا، أي: أمهلوا حتى نقتبس من نوركم، ليس معناه المعاينة؛ لأنه عُدِّي بنفسه، ومثال تعديته بـ «في»: قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ١٨٥]، النظر هنا بمعنى الاعتبار، ينظر في الملكوت يعني: نظر اعتبار وتأمل؛ ليستدلوا بها على قدرة خالقها، وإذا عُدِّيَت بـ «في» فلا تحتمل إلا النظر بالاعتبار.

وأما هنا، فإن النظر عُدِّي بـ «إلى»، فهو مثل قوله تعالى: ﴿أَنْظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ﴾ [الأنعام: ٩٩]، ﴿أَنْظُرُوا﴾ هنا يعني: بأعينكم، وهي لا تحتمل غير المعاينة.

وكذلك قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ [الغاشية: ١٧]، يعني: الإبل موجودة أمامهم فينظرون إليها معاينة، فكذلك قوله: ﴿إِلَى رَبِّهَا نَاطِرَةٌ﴾، لا تحتمل إلا أن النظر هو المعاينة، فتبين بذلك في صراحة الآية دلالتها على النظر إلى الله سبحانه وتعالى.

الآية الثانية: قوله تعالى في سورة «ق»: ﴿لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ [ق: ٣٥]، الله تعالى أخبر بأن لهم فيها ما يشاءون، كل شيء يشاءونه وتتمناه نفوسهم أو يخطر على بالهم يحضر إليهم، ثم يقول بعد ذلك: ﴿وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾،

هذا المزيد زائد عن النعيم الذي بين أيديهم، فلا بد أن يكون هذا الزائد له خصوصية، لذلك فُسر المزيد بأنه النظر إلى وجه ربهم، يعني: نعمة زائدة على ما يستحقونه، وهي: النظر إلى ربهم، يعني: أثابهم الله وأعطاهم ذلك، هكذا فُسر من قبل السلف بأن المزيد هو النظر إلى ربهم.

الآية الثالثة: قوله تعالى في سورة «يونس»: ﴿وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٢٥﴾ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ﴾ [يونس: ٢٥، ٢٦]، دار السلام: هي الجنة، يدعو إليها ويدعو إلى العمل الذي يدخلها، ثم إذا دخلوها فماذا يستحقون؟ ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ﴾، وهي الجنة التي فيها جميع أنواع الحسن، ﴿وَزِيَادَةٌ﴾، لاشك أن هذه الزيادة شيء زائد على الحسنى التي هي الجنة؛ لذلك فُسر رسول الله ﷺ بأنها نظرهم إلى وجه ربهم، كما في الحديث الذي رواه مسلم عن صهيب رضي الله عنه، ورواه أيضًا غيره، وكذلك فُسر أبو بكر وغيره من الصحابة، واستدلوا بأنه قال بعدها: ﴿وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ﴾، يعني: أنهم بنظرهم إلى الله لا يرهقهم مللٌ، ولا يلحق وجوههم كدر، ولا يلحقها ذلة ولا مهانة ولا غير ذلك.

لأن عادة الإنسان إذا نظر إلى الشمس في شدة وهجها، فإن وجهه قد يعبس، أو قد يتغير، وعينه قد تكبل من قوة شعاعها وقوة نورها، وكذلك بعض الأنوار المشعة شديدة الإضاءة كالبرق ونحوه؛ لقوله تعالى: ﴿يَكَادُ سَنَا

بَرْقِيهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَنِ ﴿ [النور: ٤٣]، والله تعالى قد أخبر بأنه نورٌ ﴿ اللَّهُ نُورٌ
السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ [النور: ٣٥]، وأخبر النبي ﷺ بأن حجابهِ النور^(١). فهذا
يعني أن النظر إليه مع كثرة تلك الأنوار المشعة، لا يرهق وجوه المؤمنين منه
ذلةً، بل تزداد وجوههم إشراقاً، وتزداد بهجة ونضارة وسروراً، وما ذلك إلا
أنهم يعدون ذلك غاية النعيم، ولذلك قال بعض العابدين^(٢):

فَلَوْ أَنِّي اسْتَطَعْتُ غَضُّضْتُ طَرْفِي فَلَمْ أَنْظُرْ بِهِ حَتَّى أَرَكَ

يعني: من شدة الشوق إلى الله تعالى، يقول: لو استطعت لما نظرت إلى أي
مخلوق حتى أنظر إليك يا ربي، شوقاً إليك وارتياحاً إلى رؤية ربي، هكذا حالة
العارفين المشتاقين إلى ربهم. أما الذين أنكروا هذه الرؤية فإنهم محرومون من
هذا النعيم كله، محرومون من هذه الزيادة، أو قد اعتقدوا حرمان أنفسهم
والعياذ بالله.

ومسألة الرؤية مسألة كبيرة شريفة، قد اهتم بها أهل السنة، وقدّموا
الكلام فيها، من وقت الإمام الشافعي وهم يجادلون فيها لمن أنكرها،
ولا يزالون إلى ذلك، وقد كتبت فيها ابن القيم - رحمه الله - في كتابه المسّمى:
«حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح»، الذي يتعلّق بصفة الجنة، وقد سرد في باب
من أبوابه آيات الرؤية، ثم سرد فيه الأحاديث الواردة في ذلك، والتي يمكن

(١) تقدم تخرجه (١/٣٦٣)، وسورده الشارح مع أحاديث أخر فيها بعد.

(٢) ذكره ابن الجوزي في المدّش (ص ٥٠٢) ونسبه إلى المنبجي.

الاستدلال بها، وإذا كان في بعضها ضعف فإن بعضها يتقوي ببعض، والأكثر قويٌّ من حيث السند، وأعرض عن الأحاديث الموضوعية، فمن قرأه عرف بذلك كثرة ما ورد فيها من الأدلة، وهكذا أيضًا أتبعه بالنقولات ثم ردّ على من أنكر ذلك من المعتزلة، ويبيّن ما أجابوا به، وناقشهم بما استدلوا به.

وتبعه على ذلك الشيخ حافظ بن أحمد الحكمي في كتابه الذي سماه «معارج القبول في شرح سلّم الأصول»، وكتاب «سلّم الأصول»، وهي منظومة نظمها من أول أمره، ثم شرحها في هذا الكتاب الذي يقع في مجلدين، وأفاض في الشرح وتوسع، ولمّا أتى على الأدلة التي تدل على صفة الرؤية توسع أيضًا فيها، فنحى إلى هذين الشرحين لمن أراد أن يتوسع: كتاب ابن القيم وكتاب الشيخ حافظ الحكمي، وغيرهما أيضًا من الكتب التي اعتنت بمسائل التوحيد والعقيدة، ومن جملتها مسألة الرؤية، ومناقشة ما فيها من الخلافات، وبيان الحق لأهله.

قال الشارح:

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُورُونَ﴾ [المطففين: ١٥]، أَحْسَنَ الشَّافِعِيُّ - رَحِمَهُ اللَّهُ - وَغَيْرُهُ مِنَ الْأَئِمَّةِ بِهَذِهِ الْآيَةِ عَلَى الرُّؤْيَةِ لِأَهْلِ الْجَنَّةِ، ذَكَرَ ذَلِكَ الطَّبْرِيُّ^(١) وَغَيْرُهُ عَنِ الْمُزَنِّيِّ عَنِ الشَّافِعِيِّ. وَقَالَ الْحَاكِمُ: حَدَّثَنَا الْأَصَمُّ حَدَّثَنَا الرَّبِيعُ بْنُ سُلَيْمَانَ قَالَ: حَضَرْتُ مُحَمَّدَ بْنَ إِدْرِيسَ الشَّافِعِيَّ، وَقَدْ جَاءَتْهُ رُقْعَةٌ مِنَ الصَّعِيدِ فِيهَا: مَا تَقُولُ فِي قَوْلِ اللَّهِ - عَزَّ وَجَلَّ -: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُورُونَ﴾؟ فَقَالَ الشَّافِعِيُّ: «لَسَا أَنْ حُجِبَ هُوَ لَاءٍ فِي السُّعْطِ، كَانَ فِي هَذَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ أَوْلِيَاءَهُ يَرَوْنَهُ فِي الرَّضَا»^(٢).

وَأَمَّا اسْتِدْلَالُ الْمُعْتَرِ لَةِ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَالَ لَنْ تَرِنُنِي﴾ [الأعراف: ١٤٣]، وَبِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾ [الأنعام: ١٠٣]، فَالْآيَتَانِ دَلِيلٌ عَلَيْهِمْ. الْآيَةُ الْأُولَى: فَالْأَسْتِدْلَالُ مِنْهَا عَلَى ثُبُوتِ رُؤْيَيْهِ مِنْ وُجُوهٍ أَحَدَهَا: أَنَّهُ لَا يُظَنُّ بِكَلِيمِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ الْكَرِيمِ وَأَعْلَمِ النَّاسِ بِرَبِّهِ فِي وَقْتِهِ أَنْ يَسْأَلَ مَا لَا يَجُوزُ عَلَيْهِ، بَلْ هُوَ عِنْدَهُمْ مِنْ أَعْظَمِ الْمَحَالِ. الثَّانِي: أَنَّ اللَّهَ لَمْ يُنْكَرْ عَلَيْهِ سُؤَالَهُ، وَلَسَا سَأَلَ نُوحٌ رَبَّهُ نَجَاةَ ابْنِهِ أَنْكَرَ

(١) في تفسيره (١٠٠/٣٠).

(٢) أخرجه البيهقي من طريق أبي عبد الله الحاكم في «أحكام القرآن للشافعي» (٤٠/١)،

وأخرجه اللالكائي في أصول اعتقاد أهل السنة (٣/٥٠٥)، وابن عساكر في تاريخ دمشق

(٣١٤/٥١).

سُؤَالَهُ، وَقَالَ: ﴿إِنِّي أَعْظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [توود: ۴۶].

الثَّالِثُ: أَنَّهُ تَعَالَى قَالَ: ﴿لَنْ تَرِنِي﴾، وَلَمْ يَقُلْ: إِنِّي لَا أَرَى، أَوْ لَا تَجُوزُ رُؤْيِي، أَوْ لَسْتُ بِمَرِيٍّ. وَالْفَرْقُ بَيْنَ الْجَوَابِينَ ظَاهِرٌ، أَلَا تَرَى أَنَّ مَنْ كَانَ فِي كَمِّهِ حَجَرٌ فَظَنَّهُ رَجُلٌ طَعَامًا فَقَالَ: أَطْعَمْنِيهِ، فَالْجَوَابُ الصَّحِيحُ: أَنَّهُ لَا يُؤْكَلُ، أَمَا إِذَا كَانَ طَعَامًا، صَحَّ أَنْ يُقَالَ: إِنَّكَ لَنْ تَأْكُلَهُ. وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ سُبْحَانَهُ مَرِيٍّ، وَلَكِنَّ مُوسَى لَا تَحْتَمِلُ قُوَاهُ رُؤْيَتَهُ فِي هَذِهِ الدَّارِ؛ لِضَعْفِ قُوَى الْبَشَرِ فِيهَا عَنْ رُؤْيَتِهِ تَعَالَى. يُوضِّحُهُ:

الْوَجْهُ الرَّابِعُ: وَهُوَ قَوْلُهُ: ﴿وَلَكِنْ أَنْظِرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنْ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرِنِي﴾ [الأعراف: ۱۴۳]، فَأَعْلَمَهُ أَنَّ الْجَبَلَ مَعَ قُوْنِهِ وَصَلَابَتِهِ لَا يَثْبُتُ لِلتَّجَلِّيِّ فِي هَذِهِ الدَّارِ، فَكَيْفَ بِالْبَشَرِ الَّذِي خُلِقَ مِنْ ضَعْفٍ؟
الْحَامِسُ: أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَجْعَلَ الْجَبَلَ مُسْتَقِرًّا، وَذَلِكَ مُمَكِّنٌ، وَقَدْ عُلِّقَ بِهِ الرُّؤْيِيَّةُ، وَلَوْ كَانَتْ مُحَالًا لَكَانَ نَظِيرَ أَنْ يَقُولَ: إِنْ اسْتَقَرَّ الْجَبَلَ فَسَوْفَ أَكُلُ وَأَشْرَبُ وَأَنَامُ. وَالْكُلُّ عِنْدَهُمْ سَوَاءٌ.

السَّادِسُ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا﴾ [الأعراف: ۱۴۳]، فَإِذَا جَازَ أَنْ يَتَّجَلَّى لِلْجَبَلِ الَّذِي هُوَ جَمَادٌ لَا ثَوَابَ لَهُ وَلَا عِقَابَ، فَكَيْفَ يَمْتَنِعُ أَنْ يَتَّجَلَّى لِرُسُلِهِ وَأَوْلِيَائِهِ فِي دَارِ كَرَامَتِهِ؟ وَلَكِنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَعْلَمَ مُوسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ - أَنَّ الْجَبَلَ إِذَا لَمْ يَثْبُتْ لِرُؤْيَتِهِ فِي هَذِهِ الدَّارِ، فَالْبَشَرُ أَضْعَفُ.

السَّابِعُ: أَنَّ اللَّهَ كَلَّمَ مُوسَى وَنَادَاهُ وَنَاجَاهُ، وَمَنْ جَارَ عَلَيْهِ التَّكَلُّمُ
وَالْتَكَلِيمُ وَأَنْ يُسْمَعَ مُحَاطَبُهُ كَلَامَهُ بِغَيْرِ وَاسِطَةٍ، فَرُؤْيَتُهُ أَوْلَى بِالْجَوَازِ، وَهَذَا
لَا يَتِمُّ إِنْكَارُ رُؤْيَيْهِ إِلَّا بِإِنْكَارِ كَلَامِهِ، وَقَدْ جَمَعُوا بَيْنَهُمَا. وَأَمَّا دَعْوَاهُمْ تَأْيِيدُ النَّفْيِ
بِ (لَنْ)، وَأَنَّ ذَلِكَ يَدُلُّ عَلَى نَفْيِ الرُّؤْيِيَةِ فِي الْآخِرَةِ، فَفَاسِدٌ، فَإِنَّهَا لَوْ قُبِدَتْ
بِالتَّأْيِيدِ لَا يَدُلُّ عَلَى دَوَامِ النَّفْيِ فِي الْآخِرَةِ، فَكَيْفَ إِذَا أُطْلِقَتْ؟ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَنْ
يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا﴾ [البقرة: ٩٥]، مَعَ قَوْلِهِ: ﴿وَنَادَوْا يَا مَلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رُبُّكَ﴾
[الزخرف: ٧٧]، وَلَا يَتِمُّ لَوْ كَانَتْ لِلتَّأْيِيدِ الْمُطْلَقِ لَمَّا جَارَ تَحْدِيدُ الْفِعْلِ بَعْدَهَا، وَقَدْ
جَاءَ ذَلِكَ، قَالَ تَعَالَى: ﴿فَلَنْ أُنْبِجَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِىَ آيَحُ﴾ [يوسف: ٨٠]، فَتَبَّتْ
أَنَّ (لَنْ) لَا تَقْتَضِي النَّفْيَ الْمُؤَبَّدَ.

قَالَ الشَّيْخُ جَمَالُ الدِّينِ بْنِ مَالِكٍ - رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى - (١):

وَمَنْ رَأَى النَّفْيَ بِلَنْ مُؤَبَّدًا فَقَوْلُهُ اِرْدُدْ وَسِوَاهُ فَاعْضُدَا

قال الشيخ:

أما الآية الأولى التي استدلل بها الشافعي على إثبات الرؤية، فهي قوله
تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُورُونَ﴾ [المطففين: ١٥]، وهي أوضح دليل على
أن أهل الجنة ليسوا محجوبين عن ربهم؛ وذلك لأن هذا وعيد لأعداء الله،

(١) انظر: شرح الكافية الشافية (٣/١٥١٥).

وعيد للكفار، وعيد للفجار الذين قال الله في حقهم: ﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفَجَارِ لَفِي سِجِّينٍ﴾ [المطففين: ٧]، فهؤلاء من وعيدهم أنهم عن ربهم يومئذ - أي: يوم القيامة وما بعده - محجوبون، وقد ذكر بعدهم الأبرار في قوله: ﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عَلْتَيْنَ﴾ [المطففين: ١٨]، ولو كانوا لا يرون ربهم لكانوا أيضًا عن ربهم محجوبين، فلم يكن هناك فرق بين الأبرار والفجار، وهؤلاء يعتبرون قد عذبوا بحجبهم عن ربهم، والحيلولة بينهم وبين نعمة الرؤية ونعيمها، ولا شك أن رؤية المؤمنين وعدم حجبهم نعمة ومنة وكرامة يزدادون بها نعيمًا وبهجة، فلو كانوا لا يرون ربهم لم يكن هناك فرق بين الأبرار والفجار، وكانوا جميعًا عن ربهم محجوبون، فهذه آية استدل بها الشافعي ومن بعده من الأئمة على إثبات رؤية المؤمنين وحجب الكافرين.

وأما الآية الثانية فقد استدل بها المعتزلة على إنكار الرؤية، وهي في قصة موسى - عليه السلام - لَمَّا سَأَلَ اللهُ تَعَالَى الرَّؤْيَةَ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ، قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرَ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ نَرِنِّي وَلَكِنْ نَنْظُرُ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَفْرَأَ مَكَانَهُ، فَسَوْفَ تَرِنِّي فَلَمَّا كَلَّمْنَا بِهِ، لِجَبَلٍ جَعَلْنَاهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ بُنْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٣]، فاستدلوا بقوله: ﴿لَنْ تَرِنِّي﴾، على أنك لا تراني أبدًا لا في الدنيا، ولا في الآخرة، وهذا تأويل خاطئ؛ لأن الآية إنما نفتت الرؤية في الدنيا، وذلك لأن الإنسان في الدنيا خَلَقْتُهُ ضَعِيفَةً، لا يستطيع أن يمثل أمام عظمة الرب سبحانه

وتعالى، فإن خلقتنا في هذه الدنيا على هذه الهيئة، خلقةً ضئيلةً ضعيفةً، لا تثبت أمام تحبلى ربنا، ولا أمام أنواره وجلائه وكبريائه، وقد أخبر النبي ﷺ بشيء من ذلك في قوله: «إِنَّ اللَّهَ - عَزَّ وَجَلَّ - لَا يَنَامُ، وَلَا يَبْغِي لَهُ أَنْ يَنَامَ، يَخْفِضُ الْقِسْطَ وَيَرْفَعُهُ...»، إلى قوله: «حِجَابُ النُّورِ، لَوْ كَشَفَهُ لَأَحْرَقَتْ سُبُحَاتُ وَجْهِهِ مَا أَنْتَهَى إِلَيْهِ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ»^(١)، يعني: أن هذا الحجاب في الدنيا، حجاب النور أو النار، لو كشفه لأحرق ذلك الضياء وذلك النور ما انتهى إليه من الخلق، فإذا كان كذلك، فجميع الخلق في هذه الدنيا مخلوقون من هذا اللحم والدم على هذه الخلقة الضعيفة، لا يستطيعون أن يمثلوا أمام هذه الرؤية وهذه العظمة، فهذا هو السبب في أن الله منع موسى - عليه السلام - من الرؤية في الدنيا.

ولكن هل يدل على أنه ممنوع من الرؤية في الآخرة؟ لا يدل على ذلك في الآخرة؛ إذ يعطي الله أوليائه من قوة الخلقة ومن عظمها ما يثبتون به أمام رؤية ربهم، فقد ورد أن كل من يدخل الجنة يوم القيامة «على خلقٍ رجُلٍ واحدٍ، على صورة أبيهم آدم ستون ذراعاً في السماء»^(٢)، فإذا كانت هذه الزيادة في خلقهم فلا بد أنه سيزاد في قوة حواسهم وفي قوة أعضائهم حتى يتمكنوا من الثبوت أمام رؤيتهم لربهم، ولا يغشى وجوههم قتر ولا ذلّة، ولا ينالهم شيء من

(١) تقدم تحريجه (١/٣٦٣).

(٢) أخرجه البخاري (٣٣٢٦)، ومسلم (٢٨٤١) من حديث أبي هريرة ؓ.

الضعف ولا يمّا يناهم في الدنيا.

هذا هو السبب في أن الله منع موسى من الرؤية في الدنيا، وكذلك كلُّ أحد في الدنيا لا يستطيع أن يرى ربه، لقوله ﷺ في الحديث: «تَعَلَّمُوا أَنَّهُ لَنْ يَرَى أَحَدًا مِنْكُمْ رَبَّهُ - عَزَّ وَجَلَّ - حَتَّى يَمُوتَ»^(١)، فأثبت أنه لا أحد يستطيع أن يمثل أمام عظمة ربه، وأنه لن يرى ربه حتى يموت، وذلك في حديث الدجال، لما أخبر بأن الدجال يأتي ويقول: أنا الرب، أنا الله. أخبر بأنه كاذب، وأنه لا يمكن في الدنيا لأحد أن يرى ربه، إنما الرؤية في الآخرة.

ثم استدلل الشارح بأن هذه الآية دليل على إثبات الرؤية لا على نفيها، فقال: (فَالْأَسْتِدْلَالُ مِنْهَا عَلَى ثُبُوتِ رُؤْيِيهِ مِنْ وُجُوهٍ: أَحَدُهَا: أَنَّهُ لَا يُظَنُّ بِكَلِيمِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ الْكَرِيمِ وَأَعْلَمِ النَّاسِ بِرَبِّهِ فِي وَقْتِهِ أَنْ يَسْأَلَ مَا لَا يَجُوزُ عَلَيْهِ)، نقول: معلومٌ أن موسى نبيُّ الله وكليمه الذي كلمه تكليماً، ومعلوم أنه اصطفاه؛ قال تعالى: ﴿وَأَصْطَفَيْنَاكَ لِنَفْسِي﴾ [طه: ٤١]، اصطفاه واختاره، وأخبر بأنه كلمه تكليماً، فهو من خيار أنبياء الله ورسله وأوليائه، وقد أرسله إلى فرعون، وأرسله إلى بني إسرائيل، وأنزل عليه التوراة، وقربه نجياً، فهو أعرف بربه، وهو أعلم بما يستحيل على ربه، فكيف تكونون يا معترلة أعلم من موسى عليه السلام؟! هل يُقال: إن فلاناً المعتزلي أو الجهمي أعلم من موسى عليه السلام؟! حاشا وكلاً؛ موسى الذي هو أحد أولي العزم من رسل الله،

(١) رواه مسلم (١٦٩) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

الذي ذكره الله أكثر من ذكره من بين أنبيائه في كلامه، لا يكون ذلك المعترزي أو الجهمي أعلم منه بما يستحيل على الله، وبما يجوز على الله، هذا مما تخيله العقول، وبما لا يجوز في شرع الله.

ثم إن الله تعالى ما أنكر عليه لما قال: ﴿أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ﴾ [الأعراف: ١٤٣]، ولم يوبّخه على ذلك، وقد أنكر على نوح - عليه السلام - لَمَّا سَأَلَ نَجَاةَ وَلَدِهِ، لَمَّا قَالَ: ﴿رَبِّ إِنِّي أَخِيفُ مِنْ أَهْلِي﴾ [هود: ٤٥]، أنكر عليه وقال: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْتَلِمْ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعْطِكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [هود: ٤٦]، أنكر على نوح هذا السؤال، ولكن موسى - عليه السلام - لَمَّا سَأَلَ وَقَالَ: ﴿رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ﴾، ما أنكر عليه، بل قال: ﴿لَنْ تَرِنِي وَلَكِنْ أَنْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَفْرَمَكَ نَهُ فَيُتْرَكُ لَكَ، فَيَنْسَقِبْ إِلَى جُحِّكَ فَأَنْصُرَكَ بِخِيَابِكَ﴾، فهل هذا دليل على أن هذا السؤال ليس بمستحيل، وقد قال: ﴿لَنْ تَرِنِي﴾، ولم يقل: إني لا أرى، إنه لا تجوز رؤيتي، إني لست بمرئي، بل قال: ﴿لَنْ تَرِنِي﴾، أي: لن تراني في الدنيا، ولا تستطيع ذلك. والفرق بين العبارتين واضح.

ومثل لذلك المؤلف - رحمه الله - بما إذا كان مع إنسان حَجْرًا، وظننته رَغِيْفًا، فقلت: أطمعني من هذا، فقال: لن تطعمه، هل تفهم أنه ليس بطعام، بل تقول: إنه قد حرمني، إذا قال: لن تأكله، لن تطعمه، تقول: قد حسدني من هذا الطعام. أما إذا قال: ليس بمطعموم، وليس بمأكول، ولا يصحُّ أكله، وليس بما يؤكل، فهمت بذلك أنه اعتذر، وأنه ليس من المأكولات.

فقوله: ﴿لَنْ تَرِنِي﴾، يبيّن أن الرؤية جائزة، ولكنك لا تقدر عليها في

الدنيا.

ثم قوله: ﴿وَلَكِنْ أَنْظِرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنْ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ، فَسَوْفَ تَرِنِي﴾،
 علّق رؤية موسى - عليه السلام - على استقرار الجبل، أليس استقرار الجبل
 ممكنًا؟ الله تعالى قادر على أن يثبّت الجبل حتى يستقر إذا تجلّى له الرب، والله
 تعالى قد علّق رؤية موسى على استقرار الجبل، والمعلّق على الممكن ممكن، فهذا
 دليل على إمكان الرؤية، وأنها واقعة، وأنه يمكن رؤية الله، وأن رؤية الله ليست
 بمستحيلة، ما دامت علّقت على ممكن، فالتعليق على الممكن ممكن.

أما قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا﴾، تجلّى الله كما شاء
 للجبل، ولمّا تجلّى للجبل - والجبل هو الطور من أكبر الجبال - انساخ الجبل،
 وذلك مع كونه جماد، ومع كونه ليس به حركة، انساخ واندك وانخسفت به
 الأرض ولم يثبت، فعند ذلك صعق موسى عليه السلام، وإذا جاز أن يتجلّى
 الله للجبل، ألا يجوز أن يتجلّى لعباده في الدار الآخرة؟ وأن يكرمهم بهذا
 التجلّي، وينعمهم، ويزيد في كرامتهم، بلى، الله - سبحانه وتعالى - قادر على
 ذلك، فكما تجلّى للجبل لا يستحيل أن يتجلّى لعباده كما يشاء في دار كرامته.

فعرّفنا بذلك أن الآية دليل على إمكان الرؤية، بل دليل على وقوعها، وأن
 الاستدلال بها على النفي استدلال عكسي، بل هي على الرؤية أدلّ منها على
 ضدّ الرؤية.

أما قوله: ﴿لَنْ تَرِنِي﴾، فيقولون: إن كلمة ﴿لَنْ﴾، تدل على النفي المؤبد في الدنيا والآخرة، والجواب: أن كلمة (لن) لا تدل على النفي المؤبد المؤبد. كما ذكر الشارح. حتى ولو أكّدت بأبد؛ كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَسْتَمْتُونَهُ أَبَدًا﴾ [الجمعة: ٧]، نفى أنهم يتمنون الموت، وقد ذكر أنهم يتمنون في النار، ويقولون: ﴿يَمْلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾ [الزخرف: ٧٧]، فهم يتمنون الموت في الآخرة، والله يقول: ﴿وَلَا يَسْتَمْتُونَهُ أَبَدًا﴾، إذا المراد في الدنيا، فدل على أن النفي في الدنيا لا يعم النفي في الآخرة.

وهكذا البيت الذي أورده الشارح لابن مالك صاحب الألفية:

وَمَنْ رَأَى النَّفْيَ بِلَنْ مُؤَبَّدًا فَقَوْلُهُ ارْدُدْ وَسِوَاهُ فَاعْضُدَا

ومعناه: أن من يرى من النجاة أن النفي مؤبد بـ (لن)، فاردد قوله، واعضد غيره من الأقوال، يعني: انصُر القول الذي يرى أنها لا تقتضي النفي المؤبد.

أما احتجاجهم بأن الرؤية مستحيلة فمردود؛ لأنها لو كانت مستحيلة لما علّقها على ممكن، فإن التعليق على شيء ممكن يدل على الإمكان، والله تعالى منزّه عن الحاجة في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ﴾ [الأنعام: ١٤]، وقرأها بعضهم: ﴿وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ﴾^(١)، وقال تعالى: ﴿مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ

(١) انظر: تفسير الطبري (٧/١٥٩).

أَنْ يُطْعِمُونَ ﴿ [الذاريات: ٥٧]، فبيّن أنه سبحانه منزّه عن الحاجة إلى الطعام والشراب ونحو ذلك، وذكر من نقص عيسى وأمه الحاجة في قوله تعالى: ﴿مَا أَلْمَسِیحُ ابْنُ مَرْیَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّیقَةٌ كُنَّا نَأْكُلَانِ الطَّعَامَ﴾ [المائدة: ٧٥]، يعني: أنهما يحتاجان ويأكلان الطعام، فدلّ على أن الله تعالى منزّه عن الحاجة إلى ذلك.

فنقول: نحن والمعتزلة وغيرهم متفقون على أن الله ليس بحاجة إلى الأكل والشرب ونحو ذلك، وذلك من المستحيلات، فلا يمكن أن يعلّق على شيء ممكن.

قال الشارح:

وَأَمَّا الْآيَةُ الثَّانِيَّةُ: فَلَا سِتْدَالَأَلْ بِهَا عَلَى الرَّؤْيِيَّةِ مِنْ وَجْهِ حَسَنِ لَطِيفٍ، وَهُوَ: أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى إِنَّمَا ذَكَرَهَا فِي سِيَاقِ التَّمَدُّحِ، وَمَعْلُومٌ أَنَّ الْمَدْحَ إِنَّمَا يَكُونُ بِالصِّفَاتِ الثُّبُوتِيَّةِ، وَأَمَّا الْعَدَمُ الْمَحْضُ فَلَيْسَ بِكَمَالٍ فَلَا يُمَدَّحُ بِهِ، وَإِنَّمَا يُمَدَّحُ الرَّبُّ تَعَالَى بِالنَّفْيِ إِذَا تَضَمَّنَ أَمْرًا أَوْ جُودِيًّا، كَمَدْحِهِ بِنَفْيِ السَّنَةِ وَالنَّوْمِ الْمُتَضَمِّنِ كَمَالِ الْقِيُومِيَّةِ، وَنَفْيِ الْمَوْتِ الْمُتَضَمِّنِ كَمَالِ الْحَيَاةِ، وَنَفْيِ اللُّغُوبِ وَالْإِعْيَاءِ الْمُتَضَمِّنِ كَمَالِ الْقُدْرَةِ، وَنَفْيِ الشَّرِيكِ وَالصَّاحِبَةِ وَالْوَلَدِ وَالظَّهِيرِ الْمُتَضَمِّنِ كَمَالِ رُبُوبِيَّتِهِ وَإِلَهِيَّتِهِ وَقَهْرِهِ، وَنَفْيِ الْأَكْلِ وَالشُّرْبِ الْمُتَضَمِّنِ كَمَالِ صَمَدِيَّتِهِ وَغِنَاهُ، وَنَفْيِ الشَّفَاعَةِ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ الْمُتَضَمِّنِ كَمَالِ تَوْحِيدِهِ وَغِنَاهُ عَنِ خَلْقِهِ، وَنَفْيِ الظُّلْمِ الْمُتَضَمِّنِ كَمَالِ عَدْلِهِ وَعِلْمِهِ وَغِنَاهُ، وَنَفْيِ النِّسْيَانِ وَعَزُوبِ شَيْءٍ عَنِ عِلْمِهِ الْمُتَضَمِّنِ كَمَالِ عِلْمِهِ وَإِحَاطَتِهِ، وَنَفْيِ الْمَثَلِ الْمُتَضَمِّنِ لِكَمَالِ ذَاتِهِ وَصِفَاتِهِ.

وَلِهَذَا لَمْ يَتَمَدَّحْ بِعَدَمِ مَحْضٍ لَمْ يَتَضَمَّنْ أَمْرًا ثُبُوتِيًّا، فَإِنَّ الْمَعْدُومَ يُشَارِكُ الْمَوْصُوفَ فِي ذَلِكَ الْعَدَمِ، وَلَا يُوصَفُ الْكَامِلُ بِأَمْرٍ يَشْتَرِكُ هُوَ وَالْمَعْدُومُ فِيهِ، فَإِنَّ الْمَعْنَى: أَنَّهُ يُرَى وَلَا يُدْرَكُ وَلَا يُحَاطَ بِهِ، فَقَوْلُهُ: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾ [الأنعام: ١٠٣]، يَدُلُّ عَلَى كَمَالِ عَظَمَتِهِ، وَأَنَّهُ أَكْبَرُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ، وَأَنَّهُ لِكَمَالِ عَظَمَتِهِ لَا يُدْرَكُ بِحَيْثُ يُحَاطَ بِهِ، فَإِنَّ الْإِدْرَاكَ هُوَ الْإِحَاطَةُ بِالشَّيْءِ، وَهُوَ قَدْرُ زَائِدٌ عَلَى الرَّؤْيِيَّةِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا تَرَاهُ الْجَمْعَانِ قَالِ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمَذْرُكُونَ

﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّا ﴿[الشعراء: ٦١، ٦٢]، فَلَمْ يَنْفِ مُوسَى الرَّؤْيِيَّةَ، وَإِنَّمَا نَفَى الْإِدْرَاكَ،

فَالرُّؤْيَا وَالْإِدْرَاكُ كُلُّ مِنْهُمَا يُوجَدُ مَعَ الْآخِرِ وَبِدُونِهِ، فَالرَّبُّ تَعَالَى يُرَى وَلَا يُدْرَكُ، كَمَا يُعْلَمُ وَلَا يُحَاطُ بِهِ عِلْمًا، وَهَذَا هُوَ الَّذِي فَهِمَهُ الصَّحَابَةُ وَالْأُمَّةُ مِنَ الْآيَةِ، كَمَا ذَكَرْتُ أَقْوَاهُمْ فِي تَفْسِيرِ الْآيَةِ. بَلْ هَذِهِ الشَّمْسُ الْمَخْلُوقَةُ لَا يَتِمَّ كُنُ رَائِبَهَا مِنْ إِدْرَاكِهَا عَلَى مَا هِيَ عَلَيْهِ.

قال الشيخ:

أكبر ما يستدلُّ به المعتزلة، هذه الآية من سورة الأنعام، وهي قوله تعالى:
﴿ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَأَعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ
وَكَيلٌ﴾ (١٠٢) لَا تُدْرِكُهُ الْبَصَرُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْبَصَرَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾
[الأنعام: ١٠٢، ١٠٣]، فإن هذه الآية عدوها أوضح الأدلة في أن الله لا يرى؛
قالوا: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْبَصَرُ﴾، يعني: لا تراه الأبصار، أما أهل السنة فقد
استدلوا بها على إثبات الرؤية لا على نفيها؛ وذلك لأن الإدراك هو الإحاطة،
أي: لا تحيط به الأبصار إذا رأته، فالفرق بينهما واضح؛ ليست الرؤية هي
الإدراك، الإدراك شيء زائد على الرؤية.

وقد ورد عن عكرمة - رحمه الله - أن ابن عباس - رضي الله عنهما - فسَّر قول
الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ﴾ [النجم: ١٣]، فقال: إن النبي ﷺ رأى ربه
عز وجل، فقال له رجل: أليس قد قال: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْبَصَرُ وَهُوَ يُدْرِكُ
الْبَصَرَ﴾ [الأنعام: ١٠٣]، فقال له عكرمة: ألسنت ترى السماء؟ قال: بلى، قال:

فكلّها ترى؟^(١)، يعني: أنك ترى الشمس ولكنك لا تراها كلّها إنما ترى منها ما قابلك، وكذلك إذا رأيت جبلاً بعيداً فإنك ترى منه ما قابلك، ولم تره كلّه، فرؤيته كلّه أعلاه وأسفله والخفي منه والمقابل وغير المقابل، هذا يقال له: الإدراك، فإدراك البصر معناه: رؤية المرئي كلّه، وعدم خفاء شيء منه، والله تعالى لعظمته وجلاله وكبريائه إذا رأته الأبصار فلا تحيط به، ولا ترى إلا ما تجلّى منه، يتجلّى لهم وينظر إليهم وينظرون إليه، ولكن لا يحيطون بذاته، إنما يدركون منه ما تجلّى، ففرق واضح بين الرؤية وبين الإدراك.

وقد أخبر الله تعالى عن قوم موسى - عليه السلام - أنهم لا يدركون، فقال تعالى: ﴿فَلَمَّا تَرَأَى الْجَمْعَانَ﴾، يعني قوم فرعون وقوم موسى عليه السلام، أخبر بأنهم يتراءون، هؤلاء يرون هؤلاء، وهؤلاء يرون هؤلاء، ﴿قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرِكُونَ﴾، أي: محاط بنا، أي سوف يحيطون بنا ويلحقون ويحذقون بنا، هذا معنى الإدراك، فنفي ذلك موسى، وقال: ﴿كَلَّا﴾، أي: لا تخافوا، لا يدركونكم، ﴿إِن مَّعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ [الشعراء: ٦١، ٦٢]، وقد وعده الله بأنهم لا يدركون في قوله تعالى: ﴿لَا تَخَفْ دَرَكًا وَلَا تَخْشَى﴾ [طه: ٧٧]، فلما وعده بأنهم لا يدركون، وثق بوعد ربه، وأنهم لا يدركهم شيء.

والحاصل: أن هذه الآية دليل واضح على أن الله تعالى يُرى؛ حيث ذكرها

في مجال التمدُّح، وقد علمنا أن الله لا يتمدِّح إلا بما هو ثبوت، لا يتمدِّح بالنفي المحض، وكونه لا يُرى هذا ليس فيه مدح، النفي المحض عدم، والعدم ليس بشيء، والمعدوم لا يمدح به، وإنما الله مدح نفسه بالنفي الذي تضمَّن ثبوتًا. وبكل حال يعتقد المسلم أن هذه الآية دليل على إثبات الرؤية لا على نفيها، ففيها أن الأبصار إذا نظرت إلى ربِّها فلا تدركه، يعني: لا تحيط به، كما قال تعالى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾ [طه: ١١٠].

قال الشارح:

وَأَمَّا الْأَحَادِيثُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ وَأَصْحَابِهِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ - الدَّالَّةُ عَلَى
الرُّؤْيَةِ، فَمُتَوَاتِرَةٌ، رَوَاهَا أَصْحَابُ الصَّحَابِ وَالْمَسَانِيدِ وَالسُّنَنِ.
فَمِنْهَا: حَدِيثُ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه: «أَنَّ نَاسًا قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، هَلْ نَرَى رَبَّنَا
يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «هَلْ تُضَارُونَ فِي رُؤْيَةِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ؟»،
قَالُوا: لَا يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: «هَلْ تُضَارُونَ فِي الشَّمْسِ لَيْسَ دُونَهَا سَحَابٌ؟»،
قَالُوا: لَا، قَالَ: «فَإِنَّكُمْ تَرَوْنَهُ كَذَلِكَ»، الْحَدِيثُ، أَخْرَجَاهُ فِي «الصَّحِيحَيْنِ»^(١)
بَطُولِهِ.

وَحَدِيثُ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ أَيْضًا فِي «الصَّحِيحَيْنِ»^(٢) نَظِيرُهُ.
وَحَدِيثُ جَرِيرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الْبَجَلِيِّ، قَالَ: كُنَّا جُلُوسًا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ، فَنَظَرَ
إِلَى الْقَمَرِ لَيْلَةَ أَرْبَعِ عَشْرَةَ، فَقَالَ: «إِنَّكُمْ سَتَرُونَ رَبَّكُمْ عَيْنَانَا، كَمَا تَرُونَ هَذَا،
لَا تُضَامُونَ فِي رُؤْيَيْهِ»، الْحَدِيثُ أَخْرَجَاهُ فِي «الصَّحِيحَيْنِ»^(٣). وَحَدِيثُ صُهَيْبِ
رضي الله عنه الْمُتَقَدِّمِ، رَوَاهُ مُسْلِمٌ^(٤) وَغَيْرُهُ.

وَحَدِيثُ أَبِي مُوسَى عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: «جَسْتَانِ مِنْ فِضَّةٍ، آيَسْتُهُمَا وَمَا

(١) أخرجه البخاري (٧٤٣٧)، ومسلم (١٨٢).

(٢) أخرجه البخاري (٧٤٣٩)، ومسلم (١٨٣).

(٣) أخرجه البخاري (٧٤٣٤)، ومسلم (٦٣٣).

(٤) برقم (١٨١).

فِيهِمَا، وَجَتَّانٍ مِنْ ذَهَبٍ، أُنَيْتُهُمَا وَمَا فِيهِمَا، وَمَا بَيْنَ الْقَوْمِ وَبَيْنَ أَنْ يَرَوْا رَبَّهُمْ تَبَارَكَ وَتَعَالَى إِلَّا رِذَاءَ الْكِبْرِيَاءِ عَلَى وَجْهِهِ فِي جَنَّةِ عَدْنٍ»، أَخْرَجَاهُ فِي «الصَّحِيحَيْنِ»^(١).

وَمِنْ حَدِيثِ عَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ رضي الله عنه: «وَلْيَلْقَيْنَ اللَّهَ أَحَدُكُمْ يَوْمَ يَلْقَاهُ، وَلَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ حِجَابٌ، وَلَا تُرْجَمَانٌ يُتْرَجِمُ لَهُ، فَلْيَقُولَنَّ: أَلَمْ أبعثَ إِلَيْكَ رَسُولًا فَيَلْغَنَكَ؟ فَيَقُولُ: بَلَى يَا رَبِّ، فَيَقُولُ: أَلَمْ أُعْطِكَ مَالًا وَأَفْضَلَ عَلَيْكَ؟ فَيَقُولُ: بَلَى يَا رَبِّ»، الْحَدِيثُ، أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ فِي «صَحِيحِهِ»^(٢).

وَقَدْ رَوَى أَحَادِيثَ الرَّؤْيَةِ نَحْوُ ثَلَاثِينَ صَحَابِيًّا، وَمَنْ أَحَاطَ بِهَا مَعْرِفَةً يَقْطَعُ بِأَنَّ الرَّسُولَ قَالَهَا، وَلَوْلَا أَنِّي التَزَمْتُ الْأَخْتِصَارَ لَسُقْتُ مَا فِي الْبَابِ مِنَ الْأَحَادِيثِ.

قال الشيخ:

هذا النوع الثاني من الأدلة السمعية: الدلالة من السنة، أي: من الأحاديث النبوية. ومعلوم أن السنة تفسر القرآن، وتبينه، وتدلل عليه، وتعبّر عنه، ومعلوم أن الرسول صلى الله عليه وسلم لا يقول إلا حقًا؛ لأنه أعلم بربه الذي أرسله، فلا يصفه إلا بما هو حق، وبما هو وحي ومطابق للواقع الحق، فإذا جاءتنا

(١) أخرجه البخاري (٤٨٧٨)، ومسلم (١٨٠).

(٢) برقم (١٤١٣).

الأحاديث عن النبي ﷺ مشتملة على وصفٍ أو شيء من صفات الله تقبلناها، وكيف لا نتقبلها وهي من معدن الرسالة؟ كيف لا نتقبلها وهي من الرسول ﷺ الذي دلّ على ربه، والذي هدى الأمة إلى الله، وبين لهم حقوقه عليهم، فكذلك بين لهم أنواع التوحيد، ومن جملة ما بينه لهم: توحيد الأسماء والصفات، ولا شك أن من أجلها: كون الله تعالى يُرى، ويتجلى لعباده.

وأحاديث إثبات الرؤية كثيرة، رواها نحو ثلاثين صحابياً، وهي في الجملة أغلبها صحيح، ومنها ما هو حسن، ومنها ما فيه ضعف ينجر بغيره ويتقوى ببقية الأحاديث.

وقد ذكرت في أول هذه المسألة أن الإمام ابن القيم قد فصل القول فيها في كتاب «حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح»، وهو كتاب في صفات الجنة ونعيمها، فإنه جعل من جملة أبوابه باب الرؤية، وأن المؤمنين يرون ربهم، ونقلها كذلك الشيخ حافظ الحكمي في كتابه «معارج القبول في شرح سلم الأصول»، سردها أيضاً كما سردها ابن القيم، وإن كان اختصر منها بعض الأسانيد، وبعض الألفاظ، وذكر ابن القيم أيضاً جملة كثيرة منها في كتابه «الصواعق المرسلات»، وذكرت أيضاً متفرقة في كتب الحديث، وفي كتب التفسير، واضحة دلالتها، ولكثرتها يُحكّم بأنها متواترة وإن لم تتواتر أفرادها، فهي متواترة أعدادها.

والتواتر: هو ما نقله العدد الكثير - الذين تحيل العادة تواطؤهم على الكذب - عن مثلهم إلى متهاهم، ويكون مستند انتهائهم الحس، أي ما يدرك

بالخواس الخمس أو بأحدها.

وقد سرد الشارح - رحمه الله - بعضًا من هذه الأحاديث، أوضحها حديث جرير رضي الله عنه قال: كُنَّا جُلُوسًا مَعَ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم، فَنَظَرَ إِلَى الْقَمَرِ لَيْلَةَ أَرْبَعِ عَشْرَةَ، فَقَالَ: «إِنَّكُمْ سَتَرُونَ رَبَّكُمْ عِيَانًا، كَمَا تَرُونَ هَذَا، لَا تُضَامُونَ فِي رُؤْيَيْهِ»، وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه الذي قبله، قال صلى الله عليه وسلم: «هَلْ تُضَارُونَ فِي رُؤْيَةِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ؟»، يعني: ليلة أربع عشرة، وهو من أوضح ما يُرى.

وقوله: «لَا تُضَامُونَ فِي رُؤْيَيْهِ»، أي: لا يلحقكم ضيمٌ ولا ضرر، أو «لَا تُضَامُونَ» بفتح التاء، والأصل: (تَضَامُونَ)^(١)، أي: لا ينضم بعضكم إلى بعض، بل ترونه بأماكنكم ولو كنتم على وجه الأرض وفي أقطار البلاد، ترونه كما يشاء، وتتمه الحديث: قوله صلى الله عليه وسلم: «فَإِنْ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ لَا تُغْلَبُوا عَلَى صَلَاةٍ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا فَافْعَلُوا»، والمراد بهاتين الصلاتين: الفجر والعصر، وخصّهما بالمحافظة عليهما؛ لأن الرؤية لخواس المؤمنين تكون بكرة وعشيًا، وقد ورد أن خواص المؤمنين في الجنة يرون ربهم في أول النهار وفي آخره، وأما عوامهم فيرونه في كل أسبوع في مثل يوم الجمعة^(٢)، ويسمى يوم

(١) انظر: فتح الباري (١٣/٤٢٧).

(٢) كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إِنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ إِذَا دَخَلُوهَا نَزَلُوا فِيهَا بِفَضْلِ أَعْمَالِهِمْ ثُمَّ يُؤَدَّنُ فِي مِقْدَارِ يَوْمِ الْجُمُعَةِ مِنْ أَيَّامِ الدُّنْيَا فَيَزُورُونَ رَبَّهُمْ...». أخرجه الترمذي

(٢٥٤٩)، وابن ماجه (٤٣٣٦)، وابن حبان (١٦/٤٦٥).

الجمعة: يوم المزيد؛ حيث يزورون ربهم ويتجلى لهم، ويكون الذين يتقدمون إلى صلاة الجمعة هم أقرب وهم أولى بأن يُقدّموا، فيدل ذلك على فضل التقدّم لصلاة الجمعة، وأن ذلك أكثر ثوابًا وأقدم رؤية وأكثر نعيمًا.

ومن الأدلة التي أوردها الشارح: حديث أبي هريرة وأبي سعيد - رضي الله عنهما - حديث طويل في «الصحيحين» فيه قوله ﷺ: «هَلْ تُضَارُونَ فِي الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ؟»، قالوا: لَا يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: «هَلْ تُضَارُونَ فِي الشَّمْسِ لَيْسَ دُونَهَا سَحَابٌ؟»، قالوا: لَا يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: «فَأَنكُمْ تَرَوْنَهُ كَذَلِكَ»، ترون ربكم ولا تضارون في رؤيته، يعني: لا تتوهمون، ولا يكون هناك ريبٌ ولا شك، بل ترونه عيانًا، رؤية واضحة، كما لا تتوهمون في رؤية الشمس ولا في رؤية القمر ليلة البدر.

والحديث في سياقه طولٌ، لاسيما حديث أبي سعيد ﷺ، وقد ساقه مسلم بطوله في كتاب الإيمان في أول الجزء الثالث، وبيّن الرؤية في الموقف والرؤية في القيامة، وكذلك حديث أبي هريرة ﷺ.

ومن الأحاديث أيضًا حديث أبي موسى ﷺ، وفيه قوله ﷺ: «جَنَّاتٍ مِنْ فَضَّةٍ، أُنْبُتْهُنَّ وَمَا فِيهِنَّ، وَجَنَّاتٍ مِنْ ذَهَبٍ، أُنْبُتْهُنَّ وَمَا فِيهِنَّ، وَمَا بَيْنَ الْقَوْمِ وَبَيْنَ أَنْ يَرَوْا رَبَّهُمْ تَبَارَكَ وَتَعَالَى إِلَّا رِذَاءَ الْكِبْرِيَاءِ عَلَى وَجْهِهِ فِي جَنَّةِ عَدْنٍ»، قد ذكر الله الجنتين الأوليين في قوله تعالى: ﴿وَلَمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ﴾ [الرحمن: ٤٦]، وذكر الجنتين الأخيرين بقوله: ﴿وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّاتٍ﴾ [الرحمن: ٦٢]، زاد في

هذا الحديث أنه ليس بينهم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداء الكبرياء، وذلك دليل على أنه تعالى يكشف ذلك الرداء وذلك الحجاب، ويتجلى لعباده متى شاء، فليس بينهم وبين النظر إليه إلا ذلك الرداء، وهذا دليل على أنه إذا شاء تجلى كما يشاء.

وتقدم - أيضًا - حديث صهيب رضي الله عنه الذي في صحيح مسلم، في قوله ﷺ في تفسير الزيادة ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦]، أنها النظر إلى ربهم، وأنهم ما أعطوا شيئاً ألدّ عندهم من النظر إلى ربهم، عندما يقول: «سألوني»، فيقولون: نسألك رضاك، ثم يسألونه أن يتجلى، فيكشف الحجاب، فما أعطوا شيئاً أفضل عندهم من النظر إلى ربهم، وهي الزيادة المذكورة في قوله: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾.

وهذه الأحاديث وأمثالها صحيحة، نطق بها النبي ﷺ وتلقاها أهل السنة بالقبول، فليس لأولئك المعتزلة أن يردوها، ولكن اعتمدوا في ردّهم على أنها أخبار آحادية، وكذبوا، ليست أخباراً آحاداً، فقد تلقاها جمع غفير عن مثلهم، ورواها جمع غفير من الصحابة، ثم مثلهم من التابعين أو أضعافهم، وهكذا إلى أن دونت... فكيف تكون أخبار آحاد؟ ثم لو قدر أنها أخبار آحاد فإنها تفيد العلم، ويستدل بها على العقائد؛ وذلك لأنهم يعملون بهذه في الشرائع، فكذلك يلزمهم أن يعملوا بهذه في العقائد.

قال الشارح:

وَمَنْ أَرَادَ الْوُقُوفَ عَلَيْهَا فَلْيُؤَاطِبْ سَمَاعَ الْأَحَادِيثِ النَّبَوِيَّةِ، فَإِنَّ فِيهَا مَعَ
إثباتِ الرُّؤْيِيَةِ أَنَّهُ يَكَلِّمُ مَنْ شَاءَ إِذَا شَاءَ، وَأَنَّهُ يَأْتِي لِفَضْلِ الْقَضَاءِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ،
وَأَنَّهُ فَوْقَ الْعَالَمِ، وَأَنَّهُ يُنَادِيهِمْ بِصَوْتٍ يَسْمَعُهُ مَنْ بَعْدَ كَمَا يَسْمَعُهُ مَنْ قَرَبَ، وَأَنَّهُ
يَتَجَلَّى لِعِبَادِهِ، وَأَنَّهُ يَضْحَكُ، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الصِّفَاتِ الَّتِي سَمِعَهَا عَلَيَّ
الْجَهْمِيَّةَ بِمَنْزِلَةِ الصَّوَاعِقِ.

وَكَيْفَ تُعَلِّمُ أَصُولُ دِينِ الْإِسْلَامِ مِنْ غَيْرِ كِتَابِ اللَّهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ؟
وَكَيْفَ يُفَسِّرُ كِتَابَ اللَّهِ بِغَيْرِ مَا فَسَّرَهُ بِهِ رَسُولُهُ ﷺ وَأَصْحَابُ رَسُولِهِ، الَّذِينَ
نَزَلَ الْقُرْآنُ بِلُغَتِهِمْ؟ وَقَدْ قَالَ ﷺ: «مَنْ قَالَ فِي الْقُرْآنِ بَرَأْيَهُ فَلْيَتَّبِعُوا مَقْعَدَهُ مِنَ
النَّارِ»^(١)، وَفِي رِوَايَةٍ: «مَنْ قَالَ فِي الْقُرْآنِ بِغَيْرِ عِلْمٍ فَلْيَتَّبِعُوا مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ»^(٢).
وَسُئِلَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ ﷺ عَنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَفَلَكُمُ آبَاءٌ﴾ [عبس: ٣١]،
مَا الْأَبُّ؟ فَقَالَ: أَيُّ سَمَاءٍ تُظِلُّنِي، وَأَيُّ أَرْضٍ تُقِلُّنِي، إِذَا قُلْتُ فِي كِتَابِ اللَّهِ مَا
لَا أَعْلَمُ؟^(٣)

(١) أخرجه الترمذي (٢٩٥١)، والنسائي في الكبرى (٨٠٣١) من حديث ابن عباس رضي الله عنها.

(٢) أخرجه الترمذي (٢٩٥١)، والنسائي في الكبرى (٨٠٣٠)، وأحمد (٢٣٣/١) من حديث ابن عباس رضي الله عنها.

(٣) أخرجه أبو عبيد في فضائل القرآن (ص ٣٧٥) وابن أبي شيبة (١٣٦/٦)، والبيهقي في المدخل إلى السنن (ص ٤٣٠)، وأورده ابن كثير (٤/٤٧٤) في تفسير سورة عبس، وقال:

قال الشيخ:

الأحاديث التي وردت في الرؤية موجودة في كتب أهل السنة، وفي مؤلفاتهم التي ألفوها في بيان سنة النبي ﷺ، من أراها فليواظب على سماع تلك الأحاديث وتلك الكتب؛ في صحيح البخاري في آخره كتاب التوحيد، وفي صحيح مسلم في أوله كتاب الإيمان، وفي سنن أبي داود في آخره كتاب السنة، وهكذا في بقية الكتب.

لا شك أن الذي يقرأ كتب أهل السنة يجد فيها وصف الله تعالى بأنه يتجلى لعباده، وبأنه يكشف الحجاب، وبأنهم ينظرون إلى وجهه، وفيها أن حجاب النور، لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه، وفيها سؤال النبي ﷺ في قوله: «وَأَسْأَلُكَ لَذَّةَ النَّظَرِ إِلَى وَجْهِكَ، وَالشَّوْقَ إِلَى لِقَائِكَ، فِي غَيْرِ ضَرَاءٍ مُضِرَّةٍ، وَلَا فِتْنَةٍ مُضِلَّةٍ»^(١)، وأشبه ذلك.

يقول الشارح: إن هذه الأحاديث التي فيها أن الله تعالى يخاطب العباد، وأنه يتجلى لهم، وأن له وجهًا كما يشاء، وأنه يضحك إلى عباده، وأنه

«وهذا منقطع بين إبراهيم التيمي والصديق ؓ».

(١) أخرجه النسائي (١٣٠٥)، وابن حبان (٣٠٤/٥)، والبزار (٢٣٠/٤)، والحاكم

(٥٢٤/١) من حديث عمار بن ياسر رضي الله عنهما. وأخرج نحوه أحمد (١٩١/٥)،

والطبراني في الكبير (٤٨٠٣)، والحاكم (٥١٦/١) من حديث زيد بن ثابت ؓ.

يكلّمهم... إلى آخر ذلك، (سَمَّا عَهَا عَلَى الْجَهْمِيَّةِ بِمَنْزِلَةِ الصَّوَاعِقِ)، فإذا كانوا يتمنون أن يحكّوا آيات الاستواء من القرآن، فكذلك أحاديث الصفات يتمنون أنها لم ترد، ولأجل ذلك يُنْفَرُونَ من قراءة الكتب التي فيها هذه الأحاديث، وينهون عن جمعها في مكان واحد؛ حتى لا تكون حُجَّةً عليهم، وحتى لا يتأثر بها تلامذتهم إذا رأوها مجمعة، وصعب عليهم تأويلها والتكلف في ردّها.

ومع ذلك كله فإنهم لم يتوقفوا عن الخوض بما لا علم لهم به، بل بالغوا في رد الأحاديث وفي رد الآيات، وتكلفوا في الكلام حولها بكلام لا يليق أن يقوله مسلم فضلاً عن عاقل.

وقولهم هذا يعد من القول على الله بلا علم، الذي هو أعظم من الشرك، ويُعدّ من التخرص في القرآن، والتخرص في القرآن ضلال، كما جاء في الحديث الذي أورده الشارح، فتأويلهم للآيات قول على الله بغير علم، وتكلفهم في ردها قول في القرآن بالرأي، فهم يقولون في القرآن برأيهم، فيقولون - مثلاً -: إن قوله: ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٣]، معناه: منتظرة للثواب، أو معناه منتظرة إلى نعم ربها؛ حيث قالوا: ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا﴾ يعني: نعمة ربها! وهذا قول على الله بلا علم، وقول في القرآن بالرأي، فيكونون داخلين في هذا الحديث: «مَنْ قَالَ فِي الْقُرْآنِ بِرَأْيِهِ فَلْيَبْشُرْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ».

والصحابة - رضي الله عنهم - مع كونهم أعلم بالقرآن، وهم الذين شاهدوا نزوله، إذا لم يعلم أحدهم تفسير آية توقف دون أن يفصح، ولو كان

عندهم علم، فهذا أبو بكر رضي الله عنه - ومن أفضل من الصديق رضي الله عنه الذي هو الخليفة الأول للرسول صلوات الله عليه - لَمَّا سُئِلَ عَنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَفَكَهْمَةٌ وَأَبْنَا﴾ [عبس: ٣١]، مَا الْأَبُّ؟ قَالَ: «أَيُّ سَمَاءٍ تُظَلُّنِي، وَأَيُّ أَرْضٍ تُقَلُّنِي، إِذَا قُلْتُ فِي كِتَابِ اللَّهِ مَا لَا أَعْلَمُ؟».

وهؤلاء الذين يتخبطون في القرآن ويتكلفون في رد الآيات، يقول أحدهم: إن كلام موسى - عليه السلام - ليس سؤالاً، في قوله: ﴿رَبِّ أَرِنِي﴾ أَنْظِرْ لِيكَ رضي الله عنه [الأعراف: ١٤٣]، وأنه - عليه السلام - لا يريد أن يرى ربه، وإنما يريد أن يوبخ قومه الذين قالوا: ﴿أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً﴾ [النساء: ١٥٣]، أو قالوا: ﴿لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً﴾ [البقرة: ٥٥]، قالوا: يريد بذلك توبيخ قومه! من قال هذا قبلكم يا معتزلة أو يا أتباع المعتزلة؟! هذا هو التخرص في كلام الله بغير علم.

قال الشارح:

وَلَيْسَ تَشْبِيهُ رُؤْيَةِ اللَّهِ تَعَالَى بِرُؤْيَةِ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ تَشْبِيهَا لِلَّهِ، بَلْ هُوَ تَشْبِيهُ الرُّؤْيَةِ بِالرُّؤْيَةِ، لَا تَشْبِيهُ الْمَرْئِيِّ بِالْمَرْئِيِّ، وَلَكِنْ فِيهِ دَلِيلٌ عَلَى عُلُوِّ اللَّهِ عَلَى خَلْقِهِ، وَإِلَّا فَهَلْ تُعْقَلُ رُؤْيَةٌ بِلَا مُقَابَلَةٍ؟ وَمَنْ قَالَ: يُرَى لِي فِي جِهَةٍ، فَلْيُرَاجِعْ عَقْلَهُ!! فَإِنَّمَا أَنْ يَكُونَ مُكَابِرًا لِعَقْلِهِ، أَوْ فَيَعْقِلُهُ شَيْءٌ، وَإِلَّا فَإِذَا قَالَ: يُرَى لِي لَا أَمَامَ الرَّائِي، وَلَا خَلْفَهُ، وَلَا عَنْ يَمِينِهِ، وَلَا عَنْ يَسَارِهِ، وَلَا فَوْقَهُ، وَلَا تَحْتَهُ. رَدَّ عَلَيْهِ كُلُّ مَنْ سَمِعَهُ بِفَطْرَتِهِ السَّالِمَةِ.

وَلِهَذَا أَلْزَمَ الْمُعْتَرِلَةَ مَنْ نَفَى الْعُلُوَّ بِالذَّاتِ بِنَفْيِ الرُّؤْيَةِ، وَقَالُوا: كَيْفَ تُعْقَلُ رُؤْيَةٌ بِغَيْرِ جِهَةٍ.

وَإِنَّمَا لَمْ تَرَهُ فِي الدُّنْيَا لِعَجْزِ أَبْصَارِنَا، لَا لِامْتِنَاعِ الرُّؤْيَةِ، فَهَذِهِ الشَّمْسُ إِذَا حَدَقَ الرَّائِي الْبَصَرَ فِي شُعَاعِهَا ضَعْفَ عَنْ رُؤْيَتِهَا، لَا لِامْتِنَاعِ فِي ذَاتِ الْمَرْئِيِّ، بَلْ لِعَجْزِ الرَّائِي، فَإِذَا كَانَ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ أَكْمَلَ اللَّهُ قُوَى الْأَدَمِيِّينَ حَتَّى أَطَافُوا رُؤْيَتَهُ؛ وَهَذَا لَمَّا تَجَلَّى اللَّهُ لِلْجَبَلِ، حَرَّمَ مُوسَى صَعِقًا، ﴿فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ بُنْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٣]، بِأَنَّهُ لَا يَرَاكَ حَيًّا إِلَّا مَاتَ، وَلَا يَابِسُ إِلَّا تَدَهَدَهَ، وَهَذَا كَانَ الْبَشَرُ يَعْجِزُونَ عَنْ رُؤْيَةِ الْمَلِكِ فِي صُورَتِهِ، إِلَّا مَنْ أَيْدَهُ اللَّهُ كَمَا أَيْدَ نَبِينَا، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ مَلَكًا لَوَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكًا لَقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ﴾ [الأنعام: ٨]، قَالَ غَيْرٌ وَاحِدٍ مِنَ السَّلَفِ: لَا يُطِيقُونَ أَنْ يَرَوْا الْمَلِكَ فِي صُورَتِهِ، فَلَوْ أَنْزَلْنَا عَلَيْهِمْ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ فِي

صُورَةَ بَشَرٍ، وَحَيْثُ يَشْتَبِهُ عَلَيْهِمْ: هَلْ هُوَ بَشَرٌ أَوْ مَلَكٌ؟ وَمِنْ تَمَامِ نِعْمَةِ اللَّهِ عَلَيْنَا أَنْ بَعَثَ فِيْنَا رَسُولًا مِنَّا.

وَمَا أَلَزَمَهُمُ الْمُعْتَزِلَةُ هَذَا الْإِلْزَامَ إِلَّا لَمَّا وَافَقُوهُمْ عَلَى أَنَّهُ لَا دَاخِلَ الْعَالَمِ وَلَا خَارِجَهُ، لَكِنَّ قَوْلَ مَنْ أَثَبَتْ مَوْجُودًا يُرَى لَا فِي جِهَةٍ، أَقْرَبُ إِلَى الْعَقْلِ مِنْ قَوْلِ مَنْ أَثَبَتْ مَوْجُودًا قَاتِمًا بِنَفْسِهِ لَا يُرَى وَلَا فِي جِهَةٍ.

قال الشيخ:

لا شك أن أقوال أولئك المعتزلة وغيرهم ممن نفى الرؤية، أو أثبت رؤية غير حقيقية، أنها أقوال مضطربة، يردها كل عاقل.

وقد عرفنا أن المعتزلة ينكرون الرؤية، وأما طائفة الأشاعرة فإنهم يشبتون الرؤية، ولكن لا يشبتون العلو، ولا يشبتون الجهة، ينفون أن يكون الله تعالى فوق العالم، وينفون أن يكون الله تعالى فوق عرشه، وفوق سمواته، بائناً من خلقه، فيقولون: إنه يُرى لا في جهة. هذا قول الأشعرية، وحقيقة قولهم أن الرؤية عندهم هي مكاشفات قلبية، وأنوار تسطع للقلب، لا أنهم ينظرون بأعينهم وبأبصارهم إلى ربهم، يقولون: إن هذا يستلزم الرؤية التي هي المقابلة. فردّ عليهم الشارح ومن قبله بأن هذا قول باطل، وأن من قال: إن الله يُرى لا في جهة، فليراجع عقله؛ لأن المرئي لا بد أن يكون في جهة، وإن لم تكن تلك الجهة تحصره، فالله تعالى يتجلى لعباده من فوقهم، فينظرون إليه، ولكن لا يدل أنه محصورٌ في جانب أو في جهة أو حيز. - تعالى الله - بل يرونه كما يشاء.

هذا هو القول الصحيح، فقول هؤلاء المعتزلة ومثلهم الأشعرية الذين قالوا بهذه المقالة يبعده العقل، وهو قول على الله تعالى بلا علم.

والواجب على المسلم إذا جاءته أدلة أن يقبلها ويعرف أحقيتها وصحتها، ويؤمن بأنها كلام الله وكلام رسوله ﷺ، وأن الله أخبر بنفسه، وأن رسله أعلم بما يجوز على ربهم، وقد أخبروا بذلك، فليس لأحد أن يردّ بعض خبرهم ويقبل بعضه، فيكون من الذين قال الله فيهم: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾ [البقرة: ٨٥]، بل إذا قبل ما يتعلق بالأعمال، يقبل أيضًا ما يتعلق بالعقائد من الأمور الأخروية والأمور الغيبية؛ حتى يكون بذلك سليم الفطرة، صحيح المعتقد، مؤمنًا بما جاء عن الله على مراد الله، كما نقل عن الأمام الشافعي - رحمه الله - أنه قال: «آمَنْتُ بِاللَّهِ، وَبِمَا جَاءَ عَنِ اللَّهِ، عَلَى مُرَادِ اللَّهِ، وَآمَنْتُ بِرَسُولِ اللَّهِ، وَبِمَا جَاءَ عَنِ رَسُولِ اللَّهِ، عَلَى مُرَادِ رَسُولِ اللَّهِ»^(١).

(١) ذكره ابن قدامة المقدسي في لمعة الاعتقاد (ص ١٠)، وشيخ الإسلام ابن تيمية في الرسالة

المدنية، انظر: مجموع الفتاوى (٦/٣٥٤).

قال الشارح:

وَيُقَالُ لِمَنْ قَالَ بِنَفْسِي الرَّؤْيِيَّةُ لَانْتِفَاءِ لَازِمِهَا وَهُوَ الْجِهَةُ: أَتْرِيدُ بِالْجِهَةِ أَمْرًا
وُجُودِيًّا أَوْ أَمْرًا عَدَمِيًّا؟ فَإِنْ أَرَادَ بِهَا أَمْرًا وُجُودِيًّا كَانَ التَّقْدِيرُ: كُلُّ مَا لَيْسَ فِي
شَيْءٍ مَوْجُودٌ لَا يُرَى، وَهَذِهِ الْمَقْدَمَةُ مَمْنُوعَةٌ، وَلَا دَلِيلٌ عَلَى إِثْبَاتِهَا، بَلْ هِيَ بَاطِلَةٌ،
فَإِنَّ سَطْحَ الْعَالَمِ يُمَكِّنُ أَنْ يُرَى، وَلَيْسَ الْعَالَمُ فِي عَالَمٍ آخَرَ. وَإِنْ أَرَدْتَ بِالْجِهَةِ
أَمْرًا عَدَمِيًّا، كَانَتْ الْمَقْدَمَةُ الثَّانِيَّةُ مَمْنُوعَةٌ، فَلَا نَسْلَمُ أَنَّهُ لَيْسَ فِي جِهَةٍ بِهَذَا
الِاخْتِيَارِ.

قال الشيخ:

الذين نفوا رؤية الله تعالى المعتزلة، وبالغوا في نفيها نفيًا صريحًا، وقالوا: إنه
يلزم من إثبات الرؤية وجود الجهة، أن الله تعالى في جهة؛ لأنه لا يمكن أن يُرى
إلا في جهة من إحدى الجهات الست.

وكذلك الأشاعرة الذين يقولون: إن الرؤية رؤية قلبية، مكاشفات تتجلى
للقلب لا أنها رؤية بصرية؛ لأنه يلزم من الرؤية التي هي تقليب الحدقة نحو
المرئي إثبات الجهة، وهذا غير مراد.

قوله: (أَتْرِيدُ بِالْجِهَةِ أَمْرًا وُجُودِيًّا)، يعني: أمرًا موجودًا، وهو: الفوق أو

التحت، أو اليمين أو اليسار، أو الأمام أو الخلف.

قوله: (فَإِنْ أَرَادَ بِهَا أَمْرًا وُجُودِيًّا كَانَ التَّقْدِيرُ)، أي: تقدير الكلام.

قوله: (كُلُّ مَا لَيْسَ فِي شَيْءٍ مَوْجُودٌ لَا يُرَى)، سطح العالم وأعله يمكن

أن يُرى (وَلَيْسَ الْعَالَمُ فِي عَالَمٍ آخَرَ)، وإلا لزم التسلسل، فلا بد أن تبطل هذه المقدمة: أن الجهة أمر وجوبي.

قوله: (وَإِنْ أَرَدْتَ بِالْجِهَةِ أَمْرًا عَدَمِيًّا، كَانَتِ الْمُقَدِّمَةُ الثَّانِيَّةُ مَمْنُوعَةً، فَلَا نُسَلِّمُ أَنَّهُ لَيْسَ فِي جِهَةٍ بِهَذَا الْاِعْتِبَارِ)، بل نعتقد أن الله تعالى في جهة العلو؛ كما دلت على ذلك النصوص الصريحة الواضحة، وكما بالغ الشارح - رحمه الله - عند قول الماتن: (مُحِيطٌ بِكُلِّ شَيْءٍ وَفَوْقَهُ)، أي: وفوق كل شيء.

فقولهم: لانتفاء الجهة. نقول: لا نسلم انتفاء الجهة، بل نشبث الجهة بغير تكييف، أو بغير تمثيل.

قال الشارح:

وَكَيْفَ يَتَكَلَّمُ فِي أَصُولِ الدِّينِ مَنْ لَا يَتَلَقَّاهُ مِنَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، وَإِنَّمَا يَتَلَقَّاهُ مِنْ قَوْلِ فُلَانٍ؟! وَإِذَا زَعَمَ أَنَّهُ يَأْخُذُهُ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ لَا يَتَلَقَّى تَفْسِيرَ كِتَابِ اللَّهِ مِنْ أَحَادِيثِ الرَّسُولِ، وَلَا يَنْظُرُ فِيهَا، وَلَا فِيهَا قَالَهُ الصَّحَابَةُ وَالتَّابِعُونَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ، الْمَقُولِ إِلَيْنَا عَنِ الثَّقَاتِ النَّقْلَةِ، الَّذِينَ تَخَيَّرَهُمُ النُّقَادُ، فَإِنَّهُمْ لَمْ يَنْقُلُوا نَظْمَ الْقُرْآنِ وَحَدَهُ، بَلْ نَقَلُوا نَظْمَهُ وَمَعْنَاهُ، وَلَا كَانُوا يَتَعَلَّمُونَ الْقُرْآنَ كَمَا يَتَعَلَّمُ الصَّبِيَانُ، بَلْ يَتَعَلَّمُونَهُ بِمَعَانِيهِ. وَمَنْ لَا يَسْأَلُكَ سَبِيلَهُمْ فَإِنَّمَا يَتَكَلَّمُ بِرَأْيِهِ، وَمَنْ يَتَكَلَّمُ بِرَأْيِهِ وَمَا يَظُنُّهُ دِينَ اللَّهِ وَلَمْ يَتَلَقَّ ذَلِكَ مِنَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ فَهُوَ مَا تُؤْمَرُ وَإِنْ أَصَابَ، وَمَنْ أَخَذَ مِنَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ فَهُوَ مَا جُورَ وَإِنْ أَخْطَأَ، لَكِنْ إِنْ أَصَابَ يُضَاعَفُ أَجْرُهُ.

قال الشيخ:

يقول - رحمه الله -: لا يجوز لأحد أن يتكلم في أصول الدين، وفي العقيدة، وفي إثبات كلام الله، وفي إثبات رؤية الله، وما أشبه ذلك، لا يتكلم في هذه الأصول إلا من تلقى ذلك من الكتاب والسنة، أي: أخذ أدلة ذلك من كتاب الله تعالى، ومن سنة النبي ﷺ، فإن هذا هو الذي يُقبل قوله، أما الذي يتلقى ما يتكلم به من قول فلان وفلان فإنه يتخبط في كلامه في الأصول ولا يُقبل قوله، فإذا زعم أنه يأخذ من كلام الله، فإنه لا يتلقى تفسير كتاب الله من أحاديث الرسول ﷺ، ولا ينظر فيها، وإذا استدلوا بشيء من الآيات وقالوا: إن دليلنا

الآية الفلانية، نقول: خذوا تفسيرها وتفسير آيات الله تعالى من أحاديث النبي ﷺ، فكيف تأخذون قول فلان وفلان، فإن فلانًا وفلانًا ليسا بمعصومين؟ كيف تعرضون عن كتاب الله تعالى، أو تعرضون عن تفسير الصحابة رضوان الله عليهم، ولا تنظرون في كتاب الله، ولا في أحاديث الرسول، ولا فيما قاله صحابة النبي ﷺ، والتابعون لهم بإحسان، الذي نُقل إلينا عن الثقات نقلًا متواترًا.

قوله: (الَّذِينَ تَخَيَّرَهُمُ النَّقَادُ)، نقاد الحديث ونقاد السنة، الأئمة المقتدى بهم؛ كالأئمة الأربعة، وأهل الصحيحين، وأهل السنن ونحوهم، وكذلك علماء التابعين.

نقول: الواجب أن نرجع إلى أقوالهم وإلى تفاسيرهم؛ لأنهم تلقوا تفسير ذلك عن نبيهم ﷺ.

قوله: (فَإِنَّهُمْ لَمْ يَنْقُلُوا نَظْمَ الْقُرْآنِ وَحَدَّهُ، بَلْ نَقَلُوا نَظْمَهُ وَمَعْنَاهُ)، أي: لفظه وآياته وكذلك تفسيره ومعانيه، فسروا ذلك كله؛ ولهذا قل أن تقرأ آية إلا وتجد فيها تفسيرًا عن علماء الصحابة - رضوان الله عليهم - والتابعين ومن سار على نهجهم؛ كتفسير ابن جرير، وتفسير ابن أبي حاتم، وتفسير عبدالرزاق، والتفسير الذي ذكره سعيد بن منصور في آخر سننه، وغير ذلك؛ لأن التابعين ونحوهم نقلوا نظم القرآن، ونقلوا معناه.

قوله: (وَلَا كَانُوا يَتَعَلَّمُونَ الْقُرْآنَ كَمَا يَتَعَلَّمُ الصَّبِيَانُ)، أي: يتعلمون الألفاظ فقط.

قوله: (بَلْ يَتَعَلَّمُونَهُ بِمَعَانِيهِ)؛ كما ذكر عن أبي عبد الرحمن عبد الله بن حبيب السلمي أنه قال: «حدثنا الذين كانوا يقرؤوننا القرآن» وعدّ جماعة من الصحابة «أنهم كانوا إذا تعلموا عشر آيات من النبي ﷺ لم يتجاوزوها حتى يتعلموا ما فيها، قالوا: فتعلمنا القرآن والعلم والعمل جميعاً»^(١).

يقول: (وَمَنْ لَا يَسْلُكُ سَبِيلَهُمْ فَإِنَّمَا يَتَكَلَّمُ بِرَأْيِهِ، وَمَنْ يَتَكَلَّمُ بِرَأْيِهِ وَمَا يَظُنُّهُ دِينَ اللَّهِ وَلَمْ يَتَلَقَّ ذَلِكَ مِنَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ فَهُوَ مَأْثُومٌ وَإِنْ أَصَابَ)، الذي لا يسلك سبيل الصحابة والتابعين مأثوم؛ لأنه يتكلم برأيه في كلام الله، وقد روي أنه ﷺ قال: «من قال في القرآن بغير علمٍ فليتبوأ مقعده من النار»^(٢)، الذي يتكلم برأيه، ويتكلم بما يظنه دين الله، ويعتقد أنه مصيب وأنه يرجو الصواب في جانبه، وهو مع ذلك لم يتلق ذلك من الأدلة، أي: من الآيات ومن الأحاديث. نقول: إنك مأثوم ولو أصبت في بعض الأحوال؛ ولهذا كان السلف يحذرون أن أحداً يتكلم في القرآن برأيه، أو بما لا يعلم.

أما مَنْ أخذ من الكتاب والسنة، واعتمد عليها كأدلة، فإنه مأجور بفضل الله، وإن أخطأ، ولكن إن أصاب يُضاعف أجره؛ كما في الحديث عن عمرو بن

(١) أخرجه ابن سعد في الطبقات (٦/١٧٢)، وأبو جعفر الطحاوي في شرح مشكل الآثار (٨٤/٤).

(٢) أخرجه الترمذي (٢٩٥٠)، والنسائي في الكبرى (٨٠٣٠)، وأحمد (١/٢٣٣) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

العاص رضي الله عنه وغيره أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إِذَا حَكَمَ الْحَاكِمُ فَاجْتَهَدَ ثُمَّ أَصَابَ فَلَهُ أَجْرَانِ، وَإِذَا حَكَمَ فَاجْتَهَدَ ثُمَّ أَخْطَأَ فَلَهُ أَجْرٌ»^(١)، أي: أنه إذا أخطأ فله أجر، وخطأه مغفور؛ لأنه مجتهد، وهكذا إذا أصاب فله أجران: أجر على الاجتهاد، وأجر على الإصابة؛ وذلك لأنه من أهل الإصابة، ومن أهل الاجتهاد، أما هؤلاء الذين يتخبطون في القرآن، ويتخبطون في أمر الاعتقاد، وليس عندهم ما يعتمدون عليه من الآيات والأحاديث فإنهم آثمون لما جاء في الحديث أن الذي يتكلم برأيه متوعد بهذا الوعيد الشديد.

تجد كلامهم في تفاسيرهم يعتمدون فيه على الرأي، ويحرف أحدهم الآيات ويؤولها على معتقده الذي ينتحله ولو كان ذلك بعيداً؛ لأنه ينكر الصفات، وينكر الرؤية لله تعالى، وينكر أن يكون القرآن كلام الله، كما أن ذلك عقيدة المعتزلة.

(١) أخرجه البخاري (٧٣٥٢)، ومسلم (١٧١٦).

قال الشارح - رحمه الله :-

وقوله: (وَالرُّؤْيَةُ حَقٌّ لِأَهْلِ الْجَنَّةِ)، تَخْصِيصُ أَهْلِ الْجَنَّةِ بِالذِّكْرِ، يُفْهَمُ مِنْهُ نَفْيُ الرُّؤْيَةِ عَنْ غَيْرِهِمْ، وَلَا شَكَّ فِي رُؤْيَةِ أَهْلِ الْجَنَّةِ لِرَبِّهِمْ فِي الْجَنَّةِ؛ وَكَذَلِكَ يَرَوْنَهُ فِي الْمَحْشَرِ قَبْلَ دُخُولِهِمُ الْجَنَّةَ، كَمَا ثَبَتَ ذَلِكَ فِي «الصَّحِيحَيْنِ» عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَيَدُلُّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَمَيِّزُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ﴾ [الأحزاب: ٤٤].

وَاخْتَلَفَ فِي رُؤْيَةِ أَهْلِ الْمَحْشَرِ عَلَى ثَلَاثَةِ أَقْوَالٍ:

أَحَدُهَا: أَنَّهُ لَا يَرَاهُ إِلَّا الْمُؤْمِنُونَ.

الثَّانِي: يَرَاهُ أَهْلُ الْمَوْقِفِ، مُؤْمِنُهُمْ وَكَافِرُهُمْ، ثُمَّ يَحْتَجِبُ عَنِ الْكُفَّارِ

وَلَا يَرَوْنَهُ بَعْدَ ذَلِكَ.

الثَّلَاثُ: يَرَاهُ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ الْمُنَافِقُونَ دُونَ بَقِيَّةِ الْكُفَّارِ. وَكَذَلِكَ الْخِلَافُ فِي

تَكْلِيمِهِ لِأَهْلِ الْمَوْقِفِ.

قال الشيخ:

عقيدة أهل السنة أن أهل الجنة يرون ربهم - سبحانه وتعالى - وأنهم يتنعمون برؤيته، والأدلة على ذلك كثيرة من الآيات والأحاديث، وقد توسع فيها ابن القيم - رحمه الله - في كتابه «حادي الأرواح»، وكذلك غيره من الذين تكلموا في هذه العقيدة من أهل السنة والجماعة؛ وكذلك أيضًا الدارمي - رحمه الله - في كتابه «الرد على الجهمية» وهو مطبوع.

قول الشارح: (تَخْصِيصُ أَهْلِ الْجَنَّةِ بِالذِّكْرِ، يُفْهَمُ مِنْهُ نَفْيُ الرَّؤْيَةِ عَنْ غَيْرِهِمْ)، أن غيرهم لا يرونه، ودليل ذلك قوله تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ﴾ [المطففين: ١٥]، وإذا كانوا محجوبين وهم الكفار دل على أن غيرهم لا يُحْبِون وهم أهل الجنة، فأهل الجنة يرون الله تعالى لا شك في رؤيتهم لربهم إذا دخلوا الجنة؛ وكذلك أيضًا يرونه في المحشر قبل دخولهم الجنة؛ كما ثبت ذلك في «الصحيحين» حيث قال ﷺ: «يَجْمَعُ اللَّهُ النَّاسَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فيقول: من كان يَعْبُدُ شَيْئًا فَلْيَتَّبِعْهُ، فَيَتَّبِعُ من كان يَعْبُدُ الشَّمْسَ الشَّمْسَ، وَيَتَّبِعُ من كان يَعْبُدُ الْقَمَرَ الْقَمَرَ، وَيَتَّبِعُ من كان يَعْبُدُ الطَّوَاغِيَتِ الطَّوَاغِيَتِ، وَتَبَقِيَ هَذِهِ الْأُمَّةُ فِيهَا شَافِعُوهَا أَوْ مُنَافِقُوهَا، فَيَأْتِيهِمُ اللَّهُ فيقول: أَنَا رَبُّكُمْ، فَيَقُولُونَ: هَذَا مَكَانُنَا حَتَّى يَأْتِينَا رَبُّنَا، فَإِذَا جَاءَنَا رَبُّنَا عَرَفْنَا، فَيَأْتِيهِمُ اللَّهُ فِي صُورَتِهِ الَّتِي يَعْرِفُونَ، فيقول: أَنَا رَبُّكُمْ، فَيَقُولُونَ: أَنْتَ رَبُّنَا فَيَتَّبِعُونَهُ»^(١).

وفي رواية: «فيقول: هل يبينكم وبينه آية فتعرفونه بها؟ فيقولون: نعم، فيكشف عن ساق، فلا يبقى من كان يسجد لله من تلقاء نفسه إلا أذن الله له بالسجود، ولا يبقى من كان يسجد اتقاءً ورياءً إلا جعل الله ظهره طبقةً واحدةً، كُلُّمَّا أَرَادَ أَنْ يَسْجُدَ حَرَّ عَلَى قَفَاهُ»^(٢). والحديث قد ذكره ابن كثير^(٣) عند

(١) أخرجه البخاري (٧٤٣٧) واللفظ له، ومسلم (١٨٢) من حديث أبي هريرة ؓ.

(٢) أخرجه البخاري (٧٤٣٩)، ومسلم (١٨٣) واللفظ له من حديث أبي سعيد الخدري ؓ.

(٣) انظر: تفسير ابن كثير (٣/٣٢٢).

تفسير قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ [القلم: ٤٢].

يقول: مما يدل على أنهم يرونه يوم القيامة قبل دخول الجنة قوله تعالى: ﴿يَجِئْتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ﴾ [الأحزاب: ٤٤]، قد فُسر اللقاء بأنه الرؤية، كما جعل ذلك ابن القيم من أدلة إثبات الرؤية.

يقول الشارح: (وَاخْتَلَفَ فِي رُؤْيَا أَهْلِ الْمَحْشَرِ)، أي: هل يراه الناس كلهم؟ على ثلاثة أقوال:

القول الأول: (أَنَّهُ لَا يَرَاهُ إِلَّا الْمُؤْمِنُونَ)؛ لأن غيرهم عن ربهم يومئذ محجوبون، والحجاب هو: الحيلولة، يعني بينهم وبين الله حجاب لا يرونه، أما المؤمنون فإنهم يرونه.

القول الثاني: (أَنَّهُ يَرَاهُ أَهْلُ الْمَوْقِفِ، مُؤْمِنُهُمْ وَكَافِرُهُمْ، ثُمَّ يَخْتَجِبُ عَنِ الْكُفَّارِ وَلَا يَرَوْنَهُ بَعْدَ ذَلِكَ)، ولعل السبب في ذلك أن تقوم عليهم الحجة، يعني: أن يعلموا أن هذا ربهم، الذي هو على كل شيء قدير، والذي أمرهم بعبادته فعصوه.

القول الثالث: أنه (يَرَاهُ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ الْمُنَافِقُونَ)؛ لأنهم مختلطون بالمؤمنين ومعهم، يصلون معهم، ويغزون معهم، وإن كانوا مع الكفار في الباطن، فيراه المنافقون دون بقية الكفار.

يقول: هذا خلاف في رؤية الكفار له على ثلاثة هذه الأقوال.

قوله: (وَكَذَلِكَ الْخِلَافُ فِي تَكْلِيمِهِ لِأَهْلِ الْمَوْقِفِ)، أي: على ثلاثة أقوال:

قيل: لا يكلم إلا المؤمنين.

وقيل: يكلم الجميع، ويسمعون كلامه.

وقيل: يكلم المؤمنين والمنافقين.

والأقوال مبسوطه أدلتها في كتب العلماء رحمهم الله.

قال الشارح:

وَأَتَّفَقَتِ الْأُمَّةُ عَلَى أَنَّهُ لَا يَرَاهُ أَحَدٌ فِي الدُّنْيَا بِعَيْنَيْهِ، وَلَمْ يَتَنَازَعُوا فِي ذَلِكَ إِلَّا فِي نَبِيِّنَا ﷺ خَاصَّةً: مِنْهُمْ مَنْ نَفَى رُؤْيَيْتَهُ بِالْعَيْنِ، وَمِنْهُمْ مَنْ أَثْبَتَهَا لَهُ ﷺ.

وَحَكَى الْقَاضِي عِيَاضٌ فِي كِتَابِهِ «السُّفَاةُ» اخْتِلَافَ الصَّحَابَةِ ﷺ وَمَنْ بَعْدَهُمْ فِي رُؤْيَيْتِهِ ﷺ، وَإِنْكَارَ عَائِشَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - أَنْ يَكُونَ ﷺ رَأَى رَبَّهُ بِعَيْنِ رَأْسِهِ، وَأَنَّهَا قَالَتْ لِمَسْرُوقٍ حِينَ سَأَلَهَا: هَلْ رَأَى مُحَمَّدٌ رَبَّهُ؟ فَقَالَتْ: لَقَدْ قَفَّ شِعْرِي بِمَا قُلْتَ، ثُمَّ قَالَتْ: مَنْ حَدَّثَكَ أَنَّ مُحَمَّدًا رَأَى رَبَّهُ فَقَدْ كَذَبَ.

ثُمَّ قَالَ: وَقَالَ جَمَاعَةٌ بِقَوْلِ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، وَهُوَ الْمَشْهُورُ عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ وَأَبِي هُرَيْرَةَ وَاخْتَلَفَ عَنْهُ، وَقَالَ بِإِنْكَارِ هَذَا وَامْتِنَاعِ رُؤْيَيْتِهِ فِي الدُّنْيَا جَمَاعَةٌ مِنَ الْمُحَدِّثِينَ وَالْفُقَهَاءِ وَالْمُتَكَلِّمِينَ.

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - أَنَّهُ قَالَ: أَنَّهُ ﷺ رَأَى رَبَّهُ بِعَيْنَيْهِ، وَرَوَى عَطَاءٌ عَنْهُ: أَنَّهُ رَأَاهُ بِقَلْبِهِ. ثُمَّ ذَكَرَ أَقْوَالَ وَفَوَائِدَ.

ثُمَّ قَالَ: وَأَمَّا وَجُوبُهُ لِنَبِيِّنَا ﷺ وَالْقَوْلُ بِأَنَّهُ رَأَاهُ بِعَيْنَيْهِ فَلَيْسَ فِيهِ قَاطِعٌ وَلَا نَصٌّ، وَالْمَعْوَلُ فِيهِ عَلَى آيَةِ النَّجْمِ، وَالتَّنَازُعُ فِيهَا مَأْثُورٌ، وَالِاخْتِطَالُ لَهَا مُمَكِّنٌ.

قال الشيخ:

هذا كلام القاضي عياض، فيقول الشارح - رحمه الله -: (وَأَتَّفَقَتِ الْأُمَّةُ عَلَى

أَنَّهُ لَا يَرَاهُ أَحَدٌ فِي الدُّنْيَا بِعَيْنَيْهِ)؛ لأن الله تعالى منع موسى - عليه السلام - لَسَمًا

قال: ﴿ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ ۗ قَالَ لَنْ تَرِنِي ۗ ﴾ [الأعراف: ١٤٣]، أي: لا يمكن أن تراني في الدنيا؛ وذلك لضعف بنية الآدمي، فلا يحتمل أن يثبت لرؤية الله؛ ولهذا لم يثبت الجبل الشامخ كما قال الله تعالى: ﴿ فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا ۗ ﴾، جبل شامخ أصم، تجلى له الرب تعالى بنوره، فاندك الجبل من عظمة رؤية الله، وعظمة نوره، فكيف يثبت لذلك الإنسان في الدنيا الذي خلقته ضعيفة، وأما في الآخرة فإن الله يقويهم ويعطيهم من القوة ما يتمكنون به من أن يثبتوا لرؤية الله تعالى.

قوله: (وَلَمْ يَتَنَازَعُوا فِي ذَلِكَ إِلَّا فِي نَبِيِّنَا ﷺ خَاصَّةً)، تنازعوا: اختلفوا.

قوله: (مِنْهُمْ مَنْ نَفَى رُؤْيَاهُ بِالْعَيْنِ)، كما منع الله تعالى موسى - عليه السلام - الذي كلمه تكليماً أن يراه، (وَمِنْهُمْ مَنْ أَثْبَتَهَا لَهُ ﷺ).

ثم ذكر كلام القاضي عياض في كتابه «الشفاء»، وهذا القاضي هو: أبو الفضل عياض بن موسى اليحصبي الأندلسي المالكي رحمه الله، كان من أجلاء علماء المغرب، إمام في الحديث، له التأليف النفيسة البديعة، وهذا النص مذكور في كتابه «الشفاء»^(١).

ذكر اختلاف الصحابة ﷺ ومن بعدهم في رؤية النبي ﷺ، وذكر إنكار عائشة - رضي الله عنها - أن يكون النبي ﷺ رأى ربه بعيني رأسه، وأنها قالت

(١) (١/١٩٥-٢٠٢).

لمسروق لما سأها: (هل رأى مُحَمَّدَ رَبِّهِ؟)، فقالت: (لقد فف شعري بما قلت). ثم قالت: (من حدثك أن مُحَمَّدًا رأى رَبَّهُ فقد كذب)، هذا الحديث أخرجه البخاري^(١)، ومسلم^(٢)، وأحمد^(٣)، والترمذي^(٤)، والنسائي^(٥)، وغيرهم، ولفظه عند مسلم: (كنتُ مُتَكِنًا عِنْدَ عَائِشَةَ، فقالت: يا أبا عَائِشَةَ ثلاثٌ مَنْ تَكَلَّمَ بِوَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ فَقَدْ أَعْظَمَ عَلَى اللَّهِ الْفِرْيَةَ. قلتُ: ما هن؟ قالت: مَنْ زَعَمَ أَنَّ مُحَمَّدًا ﷺ رَأَى رَبَّهُ فَقَدْ أَعْظَمَ عَلَى اللَّهِ الْفِرْيَةَ. قال: وَكُنْتُ مُتَكِنًا فَبَجَلَسْتُ فَقُلْتُ: يَا أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ أَنْظِرِيَنِي وَلَا تَعْجَلِيَنِي أَلَمْ يَقُلِ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ بِالْأَفُقِ الْمُبِينِ﴾ [التكوير: ٢٣]، ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ تَرْتِلَةً أُخْرَى﴾ [النجم: ١٣]، فقالت: أنا أوَّلُ هَذِهِ الْأُمَّةِ سَأَلَ عَن ذَلِكِ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: إِنَّهُ هُوَ جَبْرِيْلُ لَمْ أَرَهُ عَلَى صُورَتِهِ الَّتِي خُلِقَ بِهَا عَيْرَ هَاتَيْنِ الْمَرَّتَيْنِ، رَأَيْتُهُ مُنْهَبِطًا مِنَ السَّمَاءِ، سَادًّا عِظْمَ خَلْقِهِ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ. فقالت: أَوَلَمْ تَسْمَعْ أَنَّ اللَّهَ يَقُولُ: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الأنعام: ١٠٣]، أَوَلَمْ تَسْمَعْ أَنَّ اللَّهَ يَقُولُ: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ

(١) برقم (٤٨٥٥).

(٢) برقم (١٧٧).

(٣) (٦/٤٩، ٥٠).

(٤) برقم (٣٠٦٨).

(٥) في الكبرى (١١٠٨٢).

رَسُولَ رَسُولًا فَيُوحَىٰ بِأَذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُمْ عَلَىٰ حَكِيمٍ ﴿٥١﴾ [الشورى: ٥١]، قَالَتْ:
 وَمَنْ زَعَمَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَتَمَ شَيْئًا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ فَقَدْ أَعْظَمَ عَلَى اللَّهِ
 الْفِرْيَةَ، وَاللَّهُ يَقُولُ: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا
 بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ﴾ [المائدة: ٦٧]، قَالَتْ: وَمَنْ زَعَمَ أَنَّهُ يُخْبِرُ بِمَا يَكُونُ فِي عَدِيٍّ فَقَدْ
 أَعْظَمَ عَلَى اللَّهِ الْفِرْيَةَ، وَاللَّهُ يَقُولُ: ﴿قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ
 إِلَّا اللَّهُ﴾ [النمل: ٦٥].

وقد شرح هذا الحديث النووي - رحمه الله تعالى - في «شرح مسلم»^(١)،
 وكأنه يميل إلى القول بأن الله تعالى يمكن رؤيته في الدنيا لبعض الخواص
 كمحمد ﷺ، وقد أجاب عن آية ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾، كما أجاب عنها
 أئمة السلف بأن الإدراك غير الرؤية، أي: ما تراه الأبصار لا تدرك كونه،
 ولا تعرف ماهيته.

ومع ذلك فإن هذا قول ليس بصحيح، والرؤية إذا منع منها موسى
 فمحمد ﷺ كذلك لا يقدر أن يثبت على رؤية الله التي لم يثبت عليها الجبل.
 يقول القاضي عياض: (وَقَالَ جَمَاعَةٌ بِقَوْلِ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، وَهُوَ
 الْمَشْهُورُ عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ وَأَبِي هُرَيْرَةَ)، يعني: أنه لا يمكن رؤيته، وأن الله تعالى
 لم يره أحد، لا رسول الله ولا غيره، هذا قول عائشة - رضي الله عنها - كما في

صحيح مسلم، وهذا أيضًا قول ابن مسعود وأبي هريرة رضي الله عنهما، وإن كان عن أبي هريرة رضي الله عنه خلاف، وقال آخرون: إن ذلك ممكن، أنه رضي الله عنه قد رأى ربه في الدنيا، قال ذلك جماعة من المحدثين والفقهاء والمتكلمين.

ومن أشهر مَنْ يقول بذلك ابن عباس رضي الله عنهما، فقد نُقل عنه أنه قال: «إِنَّ اللَّهَ - عَزَّ وَجَلَّ - اصْطَفَى إِبْرَاهِيمَ بِالْخُلَّةِ، وَاصْطَفَى مُوسَى بِالْكَلامِ، وَاصْطَفَى مُحَمَّدًا بِالرُّؤْيَةِ»^(١) صلوات الله عليهم، وأخرج البخاري^(٢)، وأحمد^(٣)، والترمذي^(٤)، والنسائي^(٥)، وغيرهم من طريق سفيان عن عمرو بن دينار عن عكرمة عن ابن عباس - رضي الله عنهما - في قول الله - عز وجل -: ﴿ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ ﴾ [الإسراء: ٦٠]، قال: «هِيَ رُؤْيَا عَيْنِ أَرِيهَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لَيْلَةَ أُسْرِي بِهِ».

لكن هذا القول موقوف على ابن عباس رضي الله عنهما، وليس صريحًا في الرؤيا، فإنه لم يذكر متعلق الرؤية.

ثم ذكر أن من جملة من وافقه بعض المفسرين.

(١) أخرجه الطبري (٢٧/٤٨)، وابن أبي عاصم في السنة (١/١٨٩)، وعبدالله بن الإمام أحمد في

السنة (١/٢٩٨)، والطبراني في الكبير (١١٩١٤).

(٢) برقم (٤٧٦٦).

(٣) (١/٢٢١).

(٤) برقم (٣١٣٤).

(٥) في الكبرى (١٢٢٢٨).

قوله: (وَرَوَى عَطَاءٌ عَنْهُ: أَنَّهُ رَأَاهُ بِقَلْبِهِ)، أي: قال عطاء عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: رآه رؤيا قلب، أي: رآه بقلبه. والأثر عن عطاء أخرجه مسلم في «صحيحه»^(١) من طريق ابن أبي شيبة عن حفص عن عبد الملك عن عطاء عن ابن عباس رضي الله عنهما، وكذلك رواه غيره.

يقول - هذا كلام القاضي عياض -: (وَأَمَّا وَجُوبُهُ لِنَبِيِّنَا ﷺ وَالْقَوْلُ بِأَنَّهُ رَأَاهُ بِعَيْنَيْهِ فَلَيْسَ فِيهِ قَاطِعٌ وَلَا نَصٌّ)، أي: ليس فيه دليل صريح ولا نص قاطع، (وَالْمَعْوَلُ فِيهِ عَلَى آيَةِ النَّجْمِ)، وهي قول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ۗ عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَىٰ﴾ [النجم: ١٣، ١٤]، يعني: لما أسري به ﷺ، فقيل: الضمير في (رآه): يعود إلى الله تعالى، وقيل: يعود إلى جبريل - عليه السلام - وهذا هو المشهور.

قوله: (وَالْتَنَازُعُ فِيهَا مَأْثُورٌ، وَالْاِحْتِمَالُ لَهَا مُمَكِّنٌ)، أي: هل رأى جبريل، أو رأى ربه؟ هكذا.

(١) برقم (١٧٦).

قال الشارح:

وَهَذَا الْقَوْلُ الَّذِي قَالَهُ الْقَاضِي عِيَاضٌ - رَحِمَهُ اللَّهُ - هُوَ الْحَقُّ، فَإِنَّ الرُّؤْيَةَ فِي الدُّنْيَا مُمَكِّنَةٌ، إِذْ لَوْ لَمْ تَكُنْ مُمَكِّنَةً، لَمَا سَأَلَهَا مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، لَكِنْ لَمْ يَرِدْ نَصٌّ بِأَنَّهُ ﷺ رَأَى رَبَّهُ بِعَيْنِ رَأْسِهِ، بَلْ وَرَدَ مَا يَدُلُّ عَلَى نَفْيِ الرُّؤْيَةِ، وَهُوَ مَا رَوَاهُ مُسْلِمٌ فِي (صَحِيحِهِ) عَنْ أَبِي ذَرٍّ ﷺ قَالَ: سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ هَلْ رَأَيْتَ رَبَّكَ؟ فَقَالَ: «نُورٌ أَنَّى أَرَاهُ». وَفِي رِوَايَةٍ: «رَأَيْتُ نُورًا».

وَقَدْ رَوَى مُسْلِمٌ أَيْضًا عَنْ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: قَامَ فِينَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِخَمْسِ كَلِمَاتٍ، فَقَالَ: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَنَامُ وَلَا يَنبَغِي لَهُ أَنْ يَنَامَ، يَخْفِضُ الْقِسْطَ وَيَرْفَعُهُ، يُرْفَعُ إِلَيْهِ عَمَلُ اللَّيْلِ قَبْلَ عَمَلِ النَّهَارِ، وَعَمَلُ النَّهَارِ قَبْلَ عَمَلِ اللَّيْلِ، حِجَابُهُ النُّورُ. وَفِي رِوَايَةٍ: النَّارُ - لَوْ كَشَفَهُ لَأَخْرَقَتْ سُبُحَاتٍ وَجْهَهُ مَا انْتَهَى إِلَيْهِ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ». فَيَكُونُ - وَاللَّهُ أَعْلَمُ - مَعْنَى قَوْلِهِ لِأَبِي ذَرٍّ «رَأَيْتُ نُورًا»: أَنَّهُ رَأَى الْحِجَابَ، وَمَعْنَى قَوْلِهِ: «نُورٌ أَنَّى أَرَاهُ»: النُّورُ الَّذِي هُوَ الْحِجَابُ يَمْنَعُ مِنْ رُؤْيَتِهِ، فَأَنَّى أَرَاهُ؟ أَي: فَكَيْفَ أَرَاهُ وَالنُّورُ حِجَابٌ بَيْنِي وَبَيْنَهُ يَمْنَعُنِي مِنْ رُؤْيَتِهِ؟ فَهَذَا صَرِيحٌ فِي نَفْيِ الرُّؤْيَةِ. وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَحَكَى عُثْمَانُ بْنُ سَعِيدٍ الدَّارِمِيُّ اتِّفَاقَ الصَّحَابَةِ عَلَى ذَلِكَ.

قال الشيخ:

كلام القاضي عياض هو الحق، حيث تكلم على وجوده لدينا ﷺ، وأنه ليس فيه نص قاطع، وأن الماحول فيه على آية النجم، وأن فيها نزاع،

وأن الاحتمالية ممكنة.

الرؤية في الدنيا وإن كانت ممكنة فإنها قد لا تكون مقدورة للبشر، والدليل على إمكانه سؤال موسى - عليه السلام - الرؤية، فلو لم تكن ممكنة لما سأله موسى عليه السلام، وهو أعرف بالله أن يسأله ما ليس بممكن، هكذا.

قوله: (لَكِنَّ لَمْ يَرِدْ نَصٌّ بِأَنَّهُ ﷺ رَأَى رَبَّهُ بِعَيْنِ رَأْسِهِ)، يعني: دليل واضح أنه رأى ربه بعيني رأسه، بل وردت أدلة تدل على نفي رؤيته لربه، ذكر حديث أبي ذر رضي الله عنه قال: (سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ هَلْ رَأَيْتَ رَبَّكَ؟ فَقَالَ: نُورٌ أَنَّى أَرَاهُ. وَفِي رِوَايَةٍ: رَأَيْتُ نُورًا). وهذا الحديث أخرجه مسلم^(١)، وأخرجه الإمام أحمد^(٢) بلفظ: «قَدْ رَأَيْتُ نُورًا أَنَّى أَرَاهُ»، وله شاهد من حديث ابن عمر - رضي الله عنهما - بلفظ: «يوم القيامة أول يوم نظرت فيه عين إلى الله عز وجل»^(٣). وله شاهد مرسل أخرجه الدارمي في (الرد على الجهمية)^(٤).

فقوله: «نُورٌ أَنَّى أَرَاهُ»، أي: كيف أراه ودونه هذه الأنوار، وفي رواية: «رَأَيْتُ نُورًا»، أي: إنني رأيت نورًا بيني وبينه.

ثم ذكر حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أنه قال: (قَامَ فِينَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ

(١) برقم (١٧٨).

(٢) (١٤٧/٥).

(٣) أخرجه الخطيب البغدادي في تاريخه (٣٥١/١٠).

(٤) (ص ٧٢).

بِحَمْسِ كَلِمَاتٍ، فَقَالَ: إِنَّ اللَّهَ لَا يَنَامُ وَلَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَنَامَ، يَخْفِضُ الْقِسْطَ وَيَرْفَعُهُ، يُرْفَعُ إِلَيْهِ عَمَلُ اللَّيْلِ قَبْلَ عَمَلِ النَّهَارِ، وَعَمَلُ النَّهَارِ قَبْلَ عَمَلِ اللَّيْلِ، حِجَابُهُ النُّورُ - وَفِي رِوَايَةٍ: النَّارُ - لَوْ كَشَفَهُ لَأَحْرَقَتْ سُبُحَاتُ وَجْهِهِ مَا أَنْتَهَى إِلَيْهِ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ). الله تعالى قد أخبر بأنه لا ينام ﴿لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، ولا ينبغي له أن ينام؛ لأن النوم أخو الموت، فالله تعالى منزله عن ذلك.

وذكر أنه (يَخْفِضُ الْقِسْطَ وَيَرْفَعُهُ)، قيل: إن القسط هو الميزان، وقيل: العدل.

وذكر أنه (يُرْفَعُ إِلَيْهِ عَمَلُ اللَّيْلِ قَبْلَ عَمَلِ النَّهَارِ، وَعَمَلُ النَّهَارِ قَبْلَ عَمَلِ اللَّيْلِ)، أي: يُرْفَعُ إِلَيْهِ عَمَلُ النَّهَارِ قَبْلَ أَنْ يَدْخُلَ اللَّيْلُ، وكذلك عمل الليل يُرْفَعُ إِلَيْهِ قَبْلَ دُخُولِ النَّهَارِ، فعمل الليل يُرْفَعُ إِلَيْهِ قَبْلَ ذَهَابِ اللَّيْلِ كُلِّهِ، وَقَبْلَ أَنْ يَبْدَأَ النَّهَارَ؛ وَكَذَلِكَ عَمَلُ النَّهَارِ يُرْفَعُ إِلَيْهِ قَبْلَ أَنْ يَدْخُلَ اللَّيْلُ.

وذكر أن (حِجَابُهُ النُّورُ)، أي: قد احتجب عن المخلوقات بهذا النور، وفي رواية: (النَّارُ)، (لَوْ كَشَفَهُ)، أي: لو كشف هذا الحجاب (لَأَحْرَقَتْ سُبُحَاتُ وَجْهِهِ مَا أَنْتَهَى إِلَيْهِ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ)، جعل بينه وبين الخلق هذا النور الذي هو حجاب قوي، لو كشف ذلك الحجاب لاحترق ما انتهى إليه بصره من خلقه، يعني: من نور وجهه سبحانه وتعالى، (سُبُحَاتُ وَجْهِهِ)، في هذا الحديث دليل

على إثبات الوجه، حيث أخبر النبي ﷺ بأن له سبحات يعني أنوار، وأنه لو كشفه لاحتقرت جميع المخلوقات التي ينتهي إليها بصر الله. هذا الحديث أخرجه مسلم^(١)، وأحمد^(٢)، وابن ماجه^(٣)، وغيرهم.

قوله: (وَمَعْنَى قَوْلِهِ: «نُورٌ أَنَّى أَرَاهُ»: النُّورُ الَّذِي هُوَ الْحِجَابُ يَمْنَعُ مَنْ رُؤْيَيْتِهِ)، أي: رأيت ذلك النور الذي هو الحجاب أي أوله، وقوله: «نُورٌ أَنَّى أَرَاهُ» أي: دونه هذا النور الذي هو الحجاب يمنعني ويمنع غيري من رؤيته، فكيف أراه والنور حجاب بيني وبينه يمنعني ويمنع غيري من رؤيته؟

قال: (فَهَذَا صَرِيحٌ فِي نَفْيِ الرُّؤْيِيَّةِ)، وعدم إثباتها لأي أحد من البشر أو من الملائكة ونحوهم.

ثم ذكر أن عثمان بن سعيد الدارمي حكى اتفاق الصحابة على ذلك، وهذا في كتابه «الرد على الجهمية»، وهو مطبوع.

(١) برقم (١٧٩).

(٢) (٤٠٥/٤).

(٣) برقم (١٩٥).

قال الشارح:

ونحن إلى تقرير رؤيته لجبريل أخوج منا إلى تقرير رؤيته لربه تعالى، وإن كانت رؤية الرب تعالى أعظم وأعلى، فإن النبوة لا يتوقف ثبوتها عليها البتة.

قال الشيخ:

يقول الشارح: إن الآيات تدل على رؤية جبريل عليه السلام، فنحن بحاجة إلى تقرير هذه الرؤية؛ لأنه ﷺ أخبر بأنه ما رأى جبريل - عليه السلام - في صورته التي خلق عليها إلا مرة واحدة، ودل على ذلك آية سورة (التكوير): ﴿وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ﴾ [التكوير: ٢٣]، أي: رأى جبريل عليه السلام، وكذلك آية سورة (النجم): ﴿وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى﴾ [النجم: ٧]، فتقرير رؤيته لجبريل - عليه السلام - أولى بأن يحقق ويقرر، وهو أخوج إلى تقرير رؤيته إلى ربه تعالى؛ لأن الأدلة جاءت بنفي رؤيته لربه تعالى.

نحن نعتقد: أن رؤية الرب تعالى أعظم وأعلى، فإن النبوة لا يتوقف ثبوتها عليها البتة، الأنبياء حتى موسى - عليه السلام - لم يثبت أنهم رأوا ربهم، وموسى - عليه السلام - الذي كلمه الله تكليماً منع من إثبات الرؤية.

قال الشارح:

قوله: (بِغَيْرِ إِحَاطَةٍ وَلَا كَيْفِيَّةٍ). هَذَا لِكَمَالِ عَظَمَتِهِ وَبِهَائِهِ . سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى .
لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَلَا تُحِيطُ بِهِ، كَمَا يُعْلَمُ وَلَا يُحَاطُ بِهِ عِلْمًا، قَالَ تَعَالَى: ﴿لَا
تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾ [الأنعام: ١٠٣]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ، عِلْمًا﴾
[طه: ١١٠].

قال الشيخ:

قوله: (بِغَيْرِ إِحَاطَةٍ وَلَا كَيْفِيَّةٍ)، يعني: إذا رآه المؤمنون فإنهم لا يحيطون
به؛ وكذلك أيضًا لا يدركون ماهيته، ولا كيفيته، وذلك لكمال عظمة
الله - سبحانه - وبهائه وجلاله وكبريائه، هذا معنى قوله تعالى: ﴿لَا تُدْرِكُهُ
الْأَبْصَارُ﴾، أي: لا تحيط به كما يحاط بالمرئي في الدنيا، كما ورد عن عكرمة أنه
قال لرجل يحتج على نفي الرؤية بقوله تعالى: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾، فقال
له: ألسنت ترى السماء؟ قال: بلى، قال: فكأنها ترى؟^(١)، وكما أنه سبحانه يُعلم
ولا يُحاط به علمًا، نحن نعلم صفاته، ولكن لا نحيط به علمًا.

قال الشارح:

قوله: (وَتَفْسِيرُهُ عَلَى مَا أَرَادَ اللَّهُ وَعَلِمَهُ) إِلَى أَنْ قَالَ: (لَا نَدْخُلُ فِي ذَلِكَ مُتَأَوِّلِينَ بِأَرَائِنَا وَلَا مُتَوَهِّمِينَ بِأَهْوَائِنَا). أَي: كَمَا فَعَلَتِ الْمُعْتَزِلَةُ بِنُصُوصِ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ فِي الرُّؤْيِيَّةِ، وَذَلِكَ تَحْرِيفٌ لِكَلَامِ اللَّهِ وَكَلَامِ رَسُولِهِ عَنِ مَوَاضِعِهِ، فَالتَّأْوِيلُ الصَّحِيحُ هُوَ: الَّذِي يُوَافِقُ مَا جَاءَتْ بِهِ السُّنَّةُ، وَالْفَاسِدُ الْمُخَالَفُ لَهُ، فَكُلُّ تَأْوِيلٍ لَمْ يَدُلَّ عَلَيْهِ دَلِيلٌ مِنَ السِّيَاقِ، وَلَيْسَ مَعَهُ قَرِينَةٌ تَقْتَضِيهِ، فَإِنَّ هَذَا لَا يَقْصِدُهُ الْمُبَيِّنُ الْهَادِي بِكَلَامِهِ، إِذْ لَوْ قَصَدَهُ لَحَفَّ بِالكَلَامِ قَرَائِنَ تَدُلُّ عَلَى الْمَعْنَى الْمُخَالَفِ لظَاهِرِهِ، حَتَّى لَا يُوقِعَ السَّامِعِينَ فِي اللَّبْسِ وَالخَطَأِ، فَإِنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ كَلَامَهُ بَيَانًا وَهَدًى، فَإِذَا أَرَادَ بِهِ خِلَافَ ظَاهِرِهِ، وَلَمْ يَحْفَ بِهِ قَرَائِنَ تَدُلُّ عَلَى الْمَعْنَى الَّتِي يَبَادُرُ غَيْرُهُ إِلَى فَهْمِ كُلِّ أَحَدٍ، لَمْ يَكُنْ بَيَانًا وَلَا هَدًى. فَالتَّأْوِيلُ: إِخْبَارٌ بِمُرَادِ الْمُتَكَلِّمِ لَا إِنْشَاءً.

قال الشيخ:

عبارة الطحاوي: (وَتَفْسِيرُهُ عَلَى مَا أَرَادَ اللَّهُ وَعَلِمَهُ)، المراد بذلك النصوص التي ذكر الله تعالى فيها بعضًا من الصفات، وأخبر فيها عن بعض الأمور الغيبية من صفات الله - سبحانه وتعالى - فنحن نعرف معناه الذي دل عليه اللفظ، وأما كيفيته وماهيته وما هو عليه فهذا مما لم نطلع عليه ولا نعلمه، ونقول: الله أعلم بمراده. كما يقولون ذلك في الحروف المقطعة في أوائل السور، أنه على ما أَرَادَهُ اللَّهُ وَعَلِمَهُ، أن الله تعالى أَرَادَ بِإِنْزَالِ الآيَاتِ الْبَيَانِ وَالْهَدَى

للناس، وقد علم أنهم يفهمون ذلك، ويعرفونه؛ لأنه بلغتهم، فنقول: الأشياء التي تشكل علينا كفيثها وماهيتها هي التي نكل الكيفية إلى الله تعالى، (لَا نَدْخُلُ فِي ذَلِكَ مُتَأَوِّلِينَ بِأَرَائِنَا وَلَا مُتَوَهِّمِينَ بِأَهْوَائِنَا)، أي: لا نتأولها كما فعلت المعتزلة ومثلهم أيضاً في هذه الأزمنة الأباضية الذين عبثوا بنصوص القرآن، وبنصوص السنة الواردة في إثبات الرؤية، فقد تسلطوا عليها، وحاولوا أنها تُصرف عن دلالتها، فحرفوها تحريفًا بعيدًا، فيدخلون في قول الله تعالى: ﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ﴾ [المائدة: ٤١]، أي: يصرفونه عن ما هو دال عليه، ويسمون ذلك تأويلاً، وهكذا يفعلون بالأحاديث النبوية يصرفونها عن ما دلت عليه، ويسمون ذلك تأويلاً.

التأويل الصحيح: هو الذي يوافق ما جاءت به السنة، وهو الذي يوافق مفهوم الأحاديث الظاهرة التي يتبادر فهمها، وهو معنى قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [النساء: ٥٩]، وأما التأويل الفاسد فإنه المخالف لما جاء به كتاب الله تعالى وسنة نبيه ﷺ، فإننا نقول: هذا تأويل فاسد، بل نقول: إنه تحريف لكلام الله وكلام رسوله عن مواضعه، فلا نسميه تأويلاً بل هو في الحقيقة تحريف.

قوله: (فَكُلُّ تَأْوِيلٍ)، بمعنى (لَمْ يَسُدَّ عَلَيْهِ دَلِيلٌ مِنَ السِّيَاقِ)، سياق الكلام، (وَلَيْسَ مَعَهُ قَرِينَةٌ تَقْتَضِيهِ)، أي: قرينة تفيد أن المعنى شيء غير ما يتبادر إلى الأفهام.

قوله: (فَإِنَّ هَذَا لَا يَقْصِدُهُ الْمُبِينُ الْهَادِي بِكَلَامِهِ)، الله - سبحانه وتعالى - ذكر أن القرآن هدى وبيان بقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظَاهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ [التوبة: ٣٣]، وبقوله تعالى: ﴿هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٨]، فإذا كان الكلام ظاهراً ومفهوماً فإنه لا يحتاج إلى أن يصرفه صارف ويتكلف متكلف فيحرفه عن ظاهره الذي دل عليه، (المُبِينُ الْهَادِي بِكَلَامِهِ)، الذي هو النبي ﷺ.

قوله: (إِذْ لَوْ قَصَدَهُ لَخَفَّ بِالْكَلَامِ قَرَائِنٌ تَدُلُّ عَلَى الْمَعْنَى الْمُخَالَفِ لظَاهِرِهِ)، أي: لجعل مع الكلام قرينة تبين أنه لم يرد ظاهره، وإنما أراد معنى مخالفاً لما يتبادر منه.

قوله: (حَتَّى لَا يُوقِعَ السَّامِعِينَ فِي اللَّبْسِ وَالخَطَأِ)، إذا لم يكن هناك قرينة كان الكلام ظاهراً، ومع ذلك فإن قصد المتكلم غير المعنى الذي يتبادر إلى الفهم، فإنه يوقع السامعين في اللبس والخطأ، فيفهمون من الكلام غير المراد، كما تقوله المعتزلة ونحوهم ممن يتأول الصفات وأدلتها على غير ما يتبادر منها.

قوله: (فَإِنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ كَلَامَهُ بَيَانًا وَهُدًى)، أي: يبين ما يحتاجون إليه ويهديهم الصراط المستقيم.

قوله: (فَإِذَا أَرَادَ بِهِ خِلَافَ ظَاهِرِهِ)، وخلاف متبادره ومع ذلك (وَلَمْ يُخَفِّفْ بِهِ قَرَائِنَ تَدُلُّ عَلَى الْمَعْنَى الَّتِي يَتَّبَعُ غَيْرُهُ إِلَى فَهْمٍ كَمَلٍ أَحَدٍ، لَمْ يَكُنْ بَيَانًا وَلَا هُدًى. فَالْتَّأْوِيلُ: إِحْبَارٌ بِمُرَادِ الْمُتَكَلِّمِ لَا إِشْنَاءَ)، ومن أمثلة الكلام الذي

ليس معه قرائن:

قوله تعالى: ﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ ﴾ [البقرة:

٢١٠]، فإنه صريح ليس معه قرينة.

وكذلك قوله: ﴿ وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴾ [الفجر: ٢٢].

وكذلك قوله: ﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ

بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ ﴾ [الأنعام: ١٥٨].

وقد تكلفوا وصرفوا المجيء والإتيان بقولهم: (أي: جاء أمره)، ونحو

ذلك، قد يستدل بعضهم بقوله تعالى: ﴿ فَأَنذَرْتُهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا ﴾

[الحشر: ٢]، لكن ها هنا قرينة أن المراد أتاها الله بعذابه، وأتاها بالمؤمنين الذين

تسلطوا عليهم، حتى أخرجهم من ديارهم، وأما قوله: ﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ

تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ ﴾، فليس هناك قرينة تجعله مصرّفاً عما يتبادر منه.

قال الشارح:

وَفِي هَذَا الْمَوْضِعِ يَغْلَطُ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ، فَإِنَّ الْمَقْصُودَ فَهْمُ مُرَادِ الْمُتَكَلِّمِ بِكَلَامِهِ، فَإِذَا قِيلَ: مَعْنَى اللَّفْظِ كَذًا وَكَذًا، كَانَ إِخْبَارًا بِالَّذِي عَنَاهُ الْمُتَكَلِّمُ، فَإِنَّ لَمْ يَكُنِ الْخَبْرُ مُطَابِقًا كَانَ كَذِبًا عَلَى الْمُتَكَلِّمِ.

قال الشيخ:

قوله: (وَفِي هَذَا الْمَوْضِعِ يَغْلَطُ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ)، الكثير الذين يغلطون هم الذين عقيدتهم منحرفة؛ كإنكارهم لإثبات الرؤية، أو إنكارهم لعلو الله تعالى، أو لمجيئه كما يشاء، وكذلك إنكارهم للصفات الفعلية؛ كصفة الاستواء وما أشبهها، وصفة العلو، فيغلطون في هذه المواضع.

قوله: (فَإِنَّ الْمَقْصُودَ فَهْمُ مُرَادِ الْمُتَكَلِّمِ بِكَلَامِهِ)، أي: المقصود فهم مراد الله تعالى بكلامه، (فَإِذَا قِيلَ: مَعْنَى اللَّفْظِ كَذًا وَكَذًا كَانَ إِخْبَارًا بِالَّذِي عَنَاهُ الْمُتَكَلِّمُ)، يعني: أنه بذلك حقيقة ظاهرة معلومة ليس فيها خفاء.

قوله: (فَإِنَّ لَمْ يَكُنِ الْخَبْرُ مُطَابِقًا كَانَ كَذِبًا عَلَى الْمُتَكَلِّمِ)، إذا قالوا: معنى ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ﴾، جاء أمره. أين الدليل على أنه يكون هناك مستتر أو مقدر؟ لاشك أنه أيضًا كذب، وإذا قالوا: إن معنى النزول نزول الملك، أو نزول العذاب، وإذا قالوا: إن قوله: ﴿ءَأْمَنُكُمْ مِّنْ فِي السَّمَاءِ﴾ [الملك: ١٦]، المراد بقوله: ﴿مِّنْ فِي السَّمَاءِ﴾ ملائكته، فإن ذلك كله كذب على المتكلم.

قال الشارح:

وَيُعْرَفُ مُرَادُ الْمُتَكَلِّمِ بِطُرُقٍ مُتَعَدِّدَةٍ:

مِنْهَا: أَنْ يُصْرِّحَ بِإِرَادَةِ ذَلِكَ الْمَعْنَى.

وَمِنْهَا: أَنْ يَسْتَعْمِلَ اللَّفْظَ الَّذِي لَهُ مَعْنَى ظَاهِرٌ بِالْوَضْعِ، وَلَا يُبَيِّنُ بِقَرِينَةٍ تَضْحَبُ الْكَلَامَ أَنَّهُ لَمْ يُرِدْ ذَلِكَ الْمَعْنَى، فَكَيْفَ إِذَا حُفَّ بِكَلَامِهِ مَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ إِنَّمَا أَرَادَ حَقِيقَتَهُ وَمَا وُضِعَ لَهُ، كَقَوْلِهِ: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾ [النساء: ١٦٣]، وقوله ﷺ: «إِنَّكُمْ تَرَوْنَ رَبِّكُمْ عِيَانًا كَمَا تَرَوْنَ الشَّمْسَ فِي الظَّهِيرَةِ لَيْسَ دُونَهَا سَحَابٌ»^(١). فَهَذَا يَمَّا يَقْطَعُ السَّامِعُ فِيهِ بِمُرَادِ الْمُتَكَلِّمِ، فَإِذَا أَخْبَرَ عَنْ مُرَادِهِ بِمَا دَلَّ عَلَيْهِ حَقِيقَةُ لَفْظِهِ الَّذِي وُضِعَ لَهُ مَعَ الْقَرَائِنِ الْمُؤَكِّدَةِ، كَانَ صَادِقًا فِي إِخْبَارِهِ، وَأَمَّا إِذَا تَأَوَّلَ الْكَلَامَ بِمَا لَا يَدُلُّ عَلَيْهِ وَلَا اقْتَرَنَ بِهِ مَا يَدُلُّ عَلَيْهِ، فَأَخْبَارُهُ بِأَنَّهُ هَذَا مُرَادُهُ كَذِبٌ عَلَيْهِ، وَهُوَ تَأْوِيلٌ بِالرَّأْيِ، وَتَوَهُّمٌ بِالهُوَى.

قال الشيخ:

قوله: (مُرَادُ الْمُتَكَلِّمِ)، يعني: ما يريد بالكلام الذي تكلم به، ومنه كلام

الله تعالى، وكلام رسوله، كيف يُعرف مراده؟ يُعرف:

أولاً: (أَنْ يُصْرِّحَ بِإِرَادَةِ ذَلِكَ الْمَعْنَى)، مثل قوله: ﴿فَأَنذَرْتَهُمْ اللَّهَ﴾ [الحشر: ٢]،

(١) أخرجه مسلم (٢٩٦٨) من حديث أبي هريرة رضى الله عنه.

معلوم أن الله تعالى ما أتاهم بذاته، وإنما أتاهم بالمؤمنين الذين حاصروهم.
 ثانيًا: (أَنْ يَسْتَعْمِلَ اللَّفْظَ الَّذِي لَهُ مَعْنَى ظَاهِرٌ بِالْوَضْعِ، وَلَا يُسَيِّرُ بِقَرِينَةٍ
 تَصْحَبُ الْكَلَامَ أَنَّهُ لَمْ يُرِدْ ذَلِكَ الْمَعْنَى)، أي: إذا استعمل اللفظ الذي هو ظاهر
 كلفظ النزول، فإن هذا لفظ ظاهر لا يحتاج إلى قرينة، فإذا لم يكن هناك قرينة
 تصحب الكلام يفهم منها أنه لم يرد ذلك المعنى عُرف أنه على ظاهره، (فَكَيْفَ
 إِذَا حُفَّ بِكَلَامِهِ مَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ إِنَّمَا أَرَادَ حَقِيقَتَهُ وَمَا وُضِعَ لَهُ)، أي: ما وضع له
 اللفظ حقًا، فمثل هذا لا يشك شك أنه ما أراد ظاهر اللفظ بل يعلم يقينًا أنه
 ظاهر اللفظ، حيث لم يكن هناك قرينة تصرفه عن ظاهره، بل إن هناك قرائن
 تدل على أنه أراد حقيقته، وأراد ما وُضِعَ له، وأراد ما يتعارفون عليه، واستدل
 بقول الله تعالى: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾ [النساء: ١٦٣]، في إثبات
 أن الله كلم موسى عليه السلام.

وقد حاول بعض المعتزلة تحريف هذه الكلمة، وطلب من أبي عمرو بن
 العلاء أحد القراء السبعة أن يقرأ: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾، بنصب لفظ
 الجلالة (الله) ليكون موسى - عليه السلام - هو المتكلم لا الله، فقال له
 أبو عمرو - رحمه الله -: هَبْ أَيْ قَرَأْتِ هَذِهِ الْآيَةَ كَذَا، فَكَيْفَ تَصْنَعُ بِقَوْلِ اللَّهِ
 تَعَالَى: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ﴾ [الأعراف: ١٤٣]، هل تستطيع
 أن تحرفها؟ فانقطع ذلك المعتزلي.

وتسلط أيضًا بعض المعتزلة وقالوا: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى﴾، جرحه بأظاهر

الحكمة، سبحان الله! التجريح يعتبر عذاباً، وموسى - عليه السلام - يُسمى
 كلِّيم الله، وقد قال الله تعالى: ﴿إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَتِي وَبِكَلِمِي﴾
 [الأعراف: ١٤٤]، فأين القرينة التي تدل على أن (كلمه) يعني (جرحه)؟ بل إنه
 كلمه ودل على ذلك آيات النداء، ﴿وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى﴾ [الشعراء: ١٠]،
 ولا يكون النداء إلا بكلام مسموع، وكذلك قوله: ﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا
 فَاعْبُدْنِي﴾ [طه: ١٤]، لا يجوز أن يقول ذلك غير الله.

ومن الكلام الصريح قوله ﷺ في حديث أبي سعيد وأبي هريرة - رضي الله
 عنهما - لما قال له أناس: هل نرى ربنا يوم القيامة؟ فقال: «هل تُضَارُّونَ في
 الشَّمْسِ ليس دُونَهَا سَحَابٌ؟ قالوا: لا يا رَسُولَ اللَّهِ، قال: «هل تُضَارُّونَ في
 الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ ليس دُونَهُ سَحَابٌ؟ قالوا: لا يا رَسُولَ اللَّهِ، قال: «فَإِنَّكُمْ
 تَرَوْنَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ»^(١).

وفي حديث جرير ؓ قال: كنا جُلُوسًا عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ إِذْ نَظَرَ إِلَى الْقَمَرِ لَيْلَةَ
 الْبَدْرِ، قال: «إِنَّكُمْ سَتَرُونَ رَبِّكُمْ كَمَا تَرُونَ هَذَا الْقَمَرَ لَا تُضَامُونَ فِي رُؤْيِيهِ»^(٢)،
 فإن هذا صريح في إثبات الرؤية؛ لأن «ترون» يعني: تنظرون. وفي رواية:
 «إِنَّكُمْ سَتَرُونَ رَبِّكُمْ عِيَانًا»^(٣)، أكده بقوله: (عياناً)، وأكده بقوله في رواية

(١) تقدم تخريجه (٢/ ١٥٠).

(٢) تقدم تخريجه (٢/ ١٥٠).

(٣) تقدم تخريجه (٢/ ١٥٠).

أخرى: «هل تُضَارُونَ فِي رُؤْيَةِ الشَّمْسِ فِي الظَّهِيرَةِ»^(١)، وأكد ذلك بقوله: «ليس دُونَهَا سَحَابٌ»، وكذلك «القَمَرُ لَيْلَةَ البَدْرِ»، يقطع السامع فيه بمراد المتكلم. قوله: (فَإِذَا أَخْبَرَ عَنْ مُرَادِهِ بِمَا دَلَّ عَلَيْهِ حَقِيقَةُ لَفْظِهِ الَّذِي وَضَعَ لَهُ مَسَّحَ القَرَائِنِ المُرَكَّدَةِ، كَانَ صَادِقًا فِي إِخْبَارِهِ)، الله تعالى أخبر عن مراده بما دل عاينه حقيقة اللفظ الذي هو إثبات هذه الرؤية في آيات كثيرة ذُكرت في أدلة إثبات الرؤية.

قوله: (وَأَمَّا إِذَا تَأَوَّلَ الكَلَامَ)، أي: متأول (بِمَا لَا يَدُلُّ عَلَيْهِ وَلَا اقْتَرَنَ بِهِ مِمَّا يَدُلُّ عَلَيْهِ، فَإِخْبَارُهُ بِأَنَّ هَذَا مُرَادُهُ كَذِبٌ عَلَيْهِ)، أي: الذين يتأولونه بما لا يدل عليه وليس هناك قرينة نقول: كذبتهم على الله، وتأولتم بالرأي، وتوهمتم بالهوى، فارجعوا وراجعوا الحق.

(١) تقدم تحريجه (٢/ ١٩٠).

قال الشارح:

وَحَقِيقَةُ الْأَمْرِ: أَنَّ قَوْلَ الْقَائِلِ: نَحْمِلُهُ عَلَى كَذَا، أَوْ: نَتَأَوَّلُهُ بِكَذَا، إِنَّهَا هُوَ مِنْ بَابِ دَفْعِ دَلَالَةِ اللَّفْظِ عَلَى مَا وُضِعَ لَهُ، فَإِنَّ مُنَازَعَةَ مَا اِحْتَجَّ عَلَيْهِ بِهِ وَلَمْ يُمْكِنْهُ دَفْعُ وُرُودِهِ، دَفَعَ مَعْنَاهُ، وَقَالَ: أَحْمَلُهُ عَلَى خِلَافِ ظَاهِرِهِ.

قال الشيخ:

قوله: (وَحَقِيقَةُ الْأَمْرِ)، أي: الذي نقوله إذا قال قائل: (نَحْمِلُهُ عَلَى كَذَا)، نحمل الاستواء على الاستيلاء، أو نتأوله بالاستيلاء، فنقول: هذا (مِنْ بَابِ دَفْعِ دَلَالَةِ اللَّفْظِ عَلَى مَا وُضِعَ لَهُ)، تدفعون دلالة على ما وُضِعَ له وهو العلو، الذي ينازعونكم ويحتجون به، فالذين ينازعون في هذا اللفظ إذا لم يمكنهم (دَفْعُ وُرُودِهِ، دَفَعُوا مَعْنَاهُ)، لا يقدر على أن يدفعوا آيات الاستواء فتسلطوا على معانيها، وقالوا: نحملها على خلاف ظاهرها، ويقولون: إن ظاهرها غير مراد. وبذلك تسلطوا على آيات الصفات.

قال الشارح:

فإن قيل: بل للحمل معنى آخر لم تذكره، وهو: أن اللفظ لما استحال أن يراد به حقيقته وظاهره، ولا يمكن تعطيله، استدللنا بوروده وعدم إرادة ظاهره على أن مجازة هو المراد، فحملناه عليه دلالة لا ابتداء.

قيل: فهذا المعنى هو الإخبار عن المتكلم أنه أراد، وهو إما صدق وإما كذب، كما تقدم، ومن الممتنع أن يريد خلاف حقيقته وظاهره ولا يسير للسامعين المعنى الذي أراد، بل يقرن بكلامه ما يؤكده إرادة الحقيقة، ونحن لا نمنع أن المتكلم قد يريد بكلامه خلاف ظاهره، إذا قصد التعمية على السامع حيث يسوغ ذلك، ولكن المنكر أن يريد بكلامه خلاف حقيقته وظاهره إذا قصد البيان والإيضاح وإفهام مراده! كيف والمتكلم يؤكده كلامه بما ينفي المجاز، ويكرره غير مرة، ويضرب له الأمثال.

قال الشيخ:

قوله: (فإن قيل: بل للحمل معنى آخر لم تذكره)، هذا مما يدل به المتأولون لآيات الصفات فيقولون: إن للحمل معنى آخر لم تذكره وهو أن اللفظ إذا استحال أن يراد به حقيقته وظاهره، كأن يراد به حقيقة الرؤية؛ لأنهم في نظرهم أن هذا مستحيل، أو يراد حقيقة الاستواء الذي هو العلو، هذا مستحيل عندهم، ثم يقولون: لا يمكن تعطيله، لا يمكن أن نعطل هذه الآيات، ولا أن نجعلها ليس لها معنى، فحينئذ استدللنا بوروده في هذه

الآيات، وبعدم إرادة ظاهره أنه ليس حقيقة النزول، وليس حقيقة الاستواء وليس حقيقة الضحك ونحو ذلك، استدللنا على أن مجازه هو المراد فحملناه عليه دلالة لا ابتداء، أي: حملناه على مجاز، وقد توسعوا في ذكر المجاز.

فأجاب الشارح.. رحمه الله - بقوله: (فَهَذَا الْمَعْنَى هُوَ الْإِخْبَارُ عَنِ الْمُتَكَلِّمِ أَنَّهُ أَرَادَهُ)، يعني: كأنكم تقولون: إنه أراد المجاز. فنقول: (إِمَّا صِدْقٌ وَإِمَّا كَذِبٌ)، وقد سبق ذلك.

قال: (وَمَنْ الْمُمْتَنِعُ أَنْ يُرِيدَ خِلَافَ حَقِيقَتِهِ وَظَاهِرِهِ)، أي: مجازه، ويقول: تكلفوا واصرفوا كلامي عن ظاهره، واحملوه على مجازات بعيدة، من الممتنع أن يريد خلاف ظاهره ومع ذلك (لَا يُبَيِّنُ لِلْسَامِعِينَ الْمَعْنَى الِذِي أَرَادَهُ، بَلْ يَقْرَأُ بِكَلَامِهِ مَا يُؤَكِّدُ إِرَادَةَ الْحَقِيقَةِ)، وإرادة ظاهره، لا يكون هناك قرينة تصرفه، بل هناك قرينة وقرائن تؤكد إرادة الحقيقة، مثل: آيات التكليم ﴿وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ﴾ [الأعراف: ١٤٣]، فإن الكلام معروف أنه الكلام المسموع، ومن الأدلة أيضًا آيات النداء فهي مقترنة بما يدل على أن المراد حقيقة لا أنه مجاز.

قوله: (وَنَحْنُ لَا نَمْنَعُ أَنْ الْمُتَكَلِّمَ قَدْ يُرِيدُ بِكَلَامِهِ خِلَافَ ظَاهِرِهِ، إِذَا قَصَدَ التَّعْمِيمَ عَلَى السَّامِعِ حَيْثُ يَسُوغُ ذَلِكَ)، قد يريد المتكلم التعمية على السامع، أو تنبيهه إذا ساغ ذلك، ومثاله: قول النبي ﷺ لذلك الرجل: «إِنِّي حَامِلُكَ عَلَى وَالِدِ النَّاقَةِ»^(١)، يفهم منه أنه الفصيل الصغير، وكذلك قوله ﷺ لا امرأة:

(١) أخرجه أبو داود (٤٩٩٨)، والترمذي (١٩٩١)، وأحمد (٢٦٧/٣) من حديث أنس ؓ.

«زَوْجِكَ الَّذِي فِي عَيْنِهِ بَيَاضٌ»^(١)، ظنت أن في عينه بياضاً غير البياض الأصل، وقوله ﷺ: «إِنَّ الْجَنَّةَ لَا تَدْخُلُهَا عَجُوزٌ»^(٢)، هذا يُقصد به التعمية حيث يسوغ ذلك.

قال: (وَلَكِنَّ الْمُنْكَرَ أَنْ يُرِيدَ بِكَلَامِهِ خِلَافَ حَقِيقَتِهِ وَظَاهِرِهِ)، أي: وخلاف ظاهره، وهو مع ذلك يقصد (الْبَيَانَ وَالْإِبْضَاحَ)، ويقصد إفهام مراده، فمثل هذا لا يصير أن يريد حقيقة خلاف ظاهره، وخلاف المراد منه وهو مع ذلك يريد البيان، ويصفه بقوله: ﴿ هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ ﴾ [آل عمران: ١٣٨]، ويقول: ﴿ لَتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾ [النحل: ٤٤].

قال: (كَيْفَ وَالْمُتَكَلِّمُ يُؤَكِّدُ كَلَامَهُ بِمَا يَنْفِي الْمَجَازَ)، بقوله سبحانه: ﴿ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا ﴾ [النساء: ١٦٣]، هذا تأكيد، وبقوله - عز وجل -: ﴿ وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰ ﴾ [الشعراء: ١٠]، هذا تأكيد، وكرر ذلك في غير موضع، وضرب له الأمثال، فكل هذا يريد الحقيقة ولا يريد المجاز.

(١) أخرجه الزبير بن بكار في كتاب الفكاهة والمزاح، وأخرجه ابن أبي الدنيا من حديث عبيدة بن سهم الفهري مع اختلاف، كما ذكر العراقي في المغني عن حمل الأسفار (٧٩٦/٢).

(٢) أخرجه الترمذي في الشمائل (٢٤٠) عن الحسن مرسلًا، والطبراني في الأوسط (٣٧٥/٥) من حديث عائشة رضي الله عنها.

قال الشارح:

قوله: (فَإِنَّهُ مَا سَلَّمَ فِي دِينِهِ إِلَّا مَنْ سَلَّمَ لِلَّهِ - عَزَّ وَجَلَّ - وَلِرَسُولِهِ ﷺ، وَرَدَّ عِلْمَ مَا اشْتَبَهَ عَلَيْهِ إِلَى عَالِمِهِ). أَي: سَلَّمَ لِنُصُوصِ الْكِتَابِ وَالسُّنَنِ، وَلَمْ يَعْترِضْ عَلَيْهَا بِالشُّكُوكِ وَالشُّبُهَةِ وَالتَّأْوِيلَاتِ الْفَاسِدَةِ، أَوْ يَقُولُ: الْعَقْلُ يَشْهَدُ بِضِدِّ مَا دَلَّ عَلَيْهِ النَّقْلُ! وَالْعَقْلُ أَصْلُ النَّقْلِ!! فَإِذَا عَارَضَهُ قَدَمْنَا الْعَقْلُ!! وَهَذَا لَا يَكُونُ قَطُّ. لَكِنْ إِذَا جَاءَ مَا يُوهِمُ مِثْلَ ذَلِكَ: فَإِنْ كَانَ النَّقْلُ صَحِيحًا فَذَلِكَ الَّذِي يُدْعَى أَنَّهُ مَعْقُولٌ إِنَّهَا هُوَ مَجْهُولٌ، وَلَوْ حَقَّقَ النَّظَرَ لظَهَرَ ذَلِكَ. وَإِنْ كَانَ النَّقْلُ غَيْرَ صَحِيحٍ فَلَا يَصْلُحُ لِلْمُعَارَضَةِ، فَلَا يَتَصَوَّرُ أَنْ يَتَعَارَضَ عَقْلٌ صَرِيحٌ وَنَقْلٌ صَحِيحٌ أَبَدًا، وَيَعَارَضُ كَلَامٌ مَنْ يَقُولُ ذَلِكَ بِنَظِيرِهِ، فَيُقَالُ: إِذَا تَعَارَضَ الْعَقْلُ وَالنَّقْلُ وَجَبَ تَقْدِيمُ النَّقْلِ؛ لِأَنَّ الْجَمْعَ بَيْنَ الْمَدْلُولَيْنِ جَمْعٌ بَيْنَ النَّقِيضَيْنِ، وَرَفَعُهُمَا رَفَعُ النَّقِيضَيْنِ، وَتَقْدِيمُ الْعَقْلِ مُتَنَعٌ؛ لِأَنَّ الْعَقْلَ قَدْ دَلَّ عَلَى صِحَّةِ السَّمْعِ وَوُجُوبِ قَبُولِ مَا أَخْبَرَ بِهِ الرَّسُولُ ﷺ، فَلَوْ أَبْطَلْنَا النَّقْلَ لَكُنَّا قَدْ أَبْطَلْنَا دَلَالََةَ الْعَقْلِ، وَلَوْ أَبْطَلْنَا دَلَالََةَ الْعَقْلِ لَمْ يَصْلُحْ أَنْ يَتَوَّعَّ مَعَارِضًا لِلنَّقْلِ؛ لِأَنَّ مَا لَيْسَ بِدَلِيلٍ لَا يَصْلُحُ لِمُعَارَضَةِ شَيْءٍ مِنَ الْأَشْيَاءِ، فَكَانَ تَقْدِيمُ الْعَقْلِ مُوجِبًا عَدَمَ تَقْدِيمِهِ، فَلَا يَجُوزُ تَقْدِيمُهُ، وَهَذَا بَيِّنٌ وَاضِحٌ، فَإِنَّ الْعَقْلَ هُوَ الَّذِي دَلَّ عَلَى صِدْقِ السَّمْعِ وَصِحَّتِهِ، وَأَنَّ خَبْرَهُ مُطَابِقٌ لِمُخْبِرِهِ، فَإِنْ جَارَ أَنْ تَكُونَ الدَّلَالَةُ بَاطِلَةً لِبُطْلَانِ النَّقْلِ لَزِمَ أَنْ لَا يَكُونَ الْعَقْلُ دَلِيلًا صَحِيحًا، وَإِذَا لَمْ يَكُنْ دَلِيلًا صَحِيحًا لَمْ يَجْزُ أَنْ يُتَّبَعَ بِحَالٍ، فَضَلًّا عَنِ أَنْ يُقَدَّمَ، فَصَارَ تَقْدِيمُ الْعَقْلِ عَلَى النَّقْلِ قَدْحًا فِي الْعَقْلِ.

قال الشيخ:

قول الماتن - رحمه الله :- (فَأِنَّهُ مَا سَلَّمَ فِي دِينِهِ إِلَّا مَنْ سَلَّمَ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَلِرَسُولِهِ ﷺ)، يعني: سَلَّمَ في الآيات لأمر الله، وسَلَّمَ للنبي ﷺ، فالأحاديث التي جاءت على هذا تُقبل ويُسلم أمرها إلى الله تعالى وإلى رسوله ﷺ.

قوله: (وَرَدَّ عِلْمَ مَا اشْتَبَهَ عَلَيْهِ إِلَى عَالِمِهِ)، أي: وأخر متشابهات نردها إلى الله تعالى، وذلك يُراد به الكيفية والكنه والماهية التي هي عليها، فإن ذلك مما لا تصل إليه علومنا، وهذا معنى قول مالك - رحمه الله :- «الاستواء معلوم والكيف مجهول»^(١).

يقول الشارح: (أَيُّ: سَلَّمَ لِنُصُوصِ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ)، وقبلها على ما هي عليه، وعلى ما تدل عليه.

قوله: (وَلَمْ يَعْتَرِضْ عَلَيْهَا بِالشُّكُوكِ وَالشُّبْهِ وَالتَّأْوِيلَاتِ الْفَاسِدَةِ)، أي: لم يسلط عليها التأويلات التي تحرفها وتصرفها عن ظاهرها، ويورد عليها الشبهات، ويورد عليها التشكيك، فإن هذا ما سَلَّمَ ولا سَلَّمَ، وكذلك الذين يقولون: العقل يشهد بصد ما دل عليه النقل، والعقل أصل النقل فإذا عارضه قدمنا العقل. هكذا محتجون، يقولون: ما عرفنا صدق الرسل إلا بعقولنا، فإذا جاؤوا بشيء تحيله العقول فإننا ننفي ذلك ونقول: هذا لا تأتي به الرسل؛ لأنه

(١) تقدم تخريجه (١/٤٠٣).

ينفيه العقل، وينكره كل عاقل، فلا يمكن أن نقره، ولو كان متواتراً، ولو كان من القرآن، ونسلط عليه التأويلات أو التحريفات ونحمله على المجازات، ولو كثرت الآيات، ولو تنوعت الدلالات، فنقدم العقل؛ لأنه الأصل. هكذا يقولون.

فيقول الشارح: (هَذَا لَا يَكُونُ قَطُّ)، إذ لا يمكن حقاً أن يتعارض العقل والنقل.

قوله: (لَكِنْ إِذَا جَاءَ مَا يُوهِمُ مِثْلَ ذَلِكَ)، أي: إذا قدر أنه جاء لفظ يوهم أن العقل يخالف ما دل عليه النقل، فإننا نقول: إذا كان النقل صحيحاً فذلك العقل فاسد.

قوله: (فَذَلِكَ الَّذِي يُدَّعَى أَنَّهُ مَعْقُولٌ)، نقول: إنه مجهول، عقلك ليس بسليم، بل عقلك ومعقولك جهالة وضلالة.

قوله: (وَلَوْ حَقَّقَ النَّظَرَ لظَهَرَ ذَلِكَ)، أي: لو حققت النظر لظهر لك ذلك أن عقلك غير سليم.

قوله: (وَإِنْ كَانَ النَّقْلُ غَيْرَ صَحِيحٍ)، كالأحاديث الضعيفة (فَلَا يَضْلُحُ لِلْمُعَارَضَةِ)، ولا يعارض بها العقل السليم، فلا يمكن أن يتعارض عقل ضريح ونقل صحيح أبداً، ولا يمكن أن يعارض كلام الله تعالى.

قال: (وَيُعَارِضُ كَلَامُ مَنْ يَقُولُ ذَلِكَ بِنَظِيرِهِ، فَيُقَالُ: إِذَا تَعَارَضَ الْعَقْلُ وَالنَّقْلُ وَجَبَ تَقْدِيمُ النَّقْلِ)، صحيح، نقول: نعكس عليكم الكلام، نقول: يجب تقديم النقل، (لِأَنَّ الْجَمْعَ بَيْنَ الْمَدْلُوكَيْنِ يَجْمَعُ بَيْنَ النَّقِيضَيْنِ، وَرَفَعَهُمَا رَفْعُ

التَقْيِضَيْنِ)، أي: رفع النقل والعقل، (وَتَقْدِيمُ الْعَقْلِ مُتَمَتِّعٌ؛ لِأَنَّ الْعَقْلَ قَدْ دَلَّ عَلَى صِحَّةِ السَّمْعِ)، وعلى ثبوت النقل، لاسيما الآيات الصريحة الواضحة الدلالة، والأحاديث الصحيحة التي لا اشتباه في دلالتها، فلا يمكن أن يُقدم عليها هذه العقول المضطربة، فإننا نشاهد أن أحد هؤلاء المتكلمين يبقى مدة وهو يقول: إن العقل ينكر هذا. ثم يتراجع بعد مدة ويقول: بل العقل يقره. شخص واحد أقر عقلاً بشيء ثم أنكره، أنكر شيئاً بالعقل ثم أقره، كذلك شخصان عاقلان عقلهما وذاكاً وهما قوي ومع ذلك يختلفان، هذا يقول: استدل بالعقل. وهذا يقول: استدل بالعقل.

يقول: (فَلَوْ أَبْطَلْنَا النَّقْلَ لَكُنَّا قَدْ أَبْطَلْنَا دَلَالََةَ الْعَقْلِ)؛ لأن النقل هو الصحيح، أما إذا (أَبْطَلْنَا دَلَالََةَ الْعَقْلِ لَمْ يَصْلُحْ أَنْ يَكُونَ مُعَارِضًا لِلنَّقْلِ)، نقول: نرد هذا الفهم الذي تفهمه هذه العقول المنفردة، لا يصلح أن يكون ذلك العقل المضطرب معارضاً للنقل؛ (لِأَنَّ مَا لَيْسَ بِدَلِيلٍ لَا يَصْلُحُ مُعَارِضَةً شَيْءٍ مِنَ الْأَشْيَاءِ)، إذا كان العقل ليس بدليل فلا يُعارض شيئاً من الأشياء، وبذلك يكون (تَقْدِيمُ الْعَقْلِ مُوجِبًا عَدَمَ تَقْدِيمِهِ، فَلَا يُجُوزُ تَقْدِيمُهُ)، تقديمه كيف يكون موجباً عدم تقديمه؟ هذا يقول: نقدم، وهذا يقول: لا نقدمه.

قال: (وَإِنَّمَا بَيِّنٌ وَوَاضِحٌ، فَإِنَّ الْعَقْلَ هُوَ الَّذِي دَلَّ عَلَى صِدْقِ السَّمْعِ وَصِحَّتِهِ، وَأَنَّ خَبْرَهُ مُطَابِقٌ لِمُخْبِرِهِ)، أي: العقل هو الذي دل على صدق السمع، أي: الأدلة المسموعة، ودل على أن خبره مطابق لمخبره.

قال: (فَإِنَّ جَوَازَ أَنْ تَكُونَ الدَّلَالَةُ بَاطِلَةً لِبُطْلَانِ النَّقْلِ لَزِمَ أَنْ لَا يَكُونَ

العقل دليلاً صحيحاً؛ لأنه اضطرب.

قوله: (وَإِذَا لَمْ يَكُنْ دَلِيلًا صَحِيحًا لَمْ يَجُزْ أَنْ يُتَّبَعَ بِحَالٍ)، أي: أن يُتبع

العقل.

قوله: (فَضْلًا عَنْ أَنْ يُقَدَّمَ، فَصَارَ تَقْدِيمُ الْعَقْلِ عَلَى النَّقْلِ قَدْحًا فِي الْعَقْلِ)،

وقد توسع في ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - في كتابه «درء تعارض

العقل والنقل»^(١)، وهذا الكتاب من أفضل الكتب، وقد مدحه ابن القيم

بقوله^(٢):

وَاقْرَأْ كِتَابَ الْعَقْلِ وَالنَّقْلِ الَّذِي مَا فِي الْوُجُودِ لَهُ نَظِيرٌ ثَانٍ

(١) (١/٧٨ وما بعدها).

(٢) انظر: النونية بشرح ابن عيسى (٢/٢٩٠).

قال الشارح:

فَالْوَجِبُ كَمَا أَلِ التَّسْلِيمِ لِلرَّسُولِ ﷺ، وَالْإِنْقِيَادُ لِأَمْرِهِ، وَتَلَقِّي خَبْرِهِ بِالْقَبُولِ
وَالْتَّصْدِيقِ، دُونَ أَنْ يُعَارِضَهُ بِخَيَالٍ بَاطِلٍ يُسَمِّيهِ مَعْقُولًا، أَوْ نُحْمَلُهُ شِبْهَةً أَوْ
شَكًّا، أَوْ يُقَدِّمَ عَلَيْهِ آرَاءَ الرَّجَالِ وَزُبَالَةَ أَذْهَانِهِمْ، فَيُوَحِّدُهُ بِالتَّحْكِيمِ وَالتَّسْلِيمِ
وَالْإِنْقِيَادِ وَالْإِذْعَانِ، كَمَا وَحَّدَ الْمُرْسَلِ بِالعِبَادَةِ وَالْخُضُوعِ وَالدُّلِّ وَالْإِنَابَةِ وَالتَّوَكُّلِ.

قال الشيخ:

هكذا يقول - رحمه الله - أن الواجب أن نسلم للنبي ﷺ وأن نقفد لأمره،
وأن نتلقى جميع أخباره بالقبول وأن نصدقها؛ لأنه هو الصادق والمصدق،
يحرّم أن نعارضه بخيال باطل، وهو الذي يسمونه (معقولا) فنعارض كلام
النبي ﷺ، ويحرّم أن نحمل كلامه ﷺ شبهة، أو شكًا، أو نورد عليه تشكيكًا أو
نحو ذلك، ويحرّم أن نقدم عليه آراء الرجال، وزبالة أذهانهم، فإن الدين ليس
بالرأي، وليس بمجرد الأذهان، ويجب أن نوحّد الله تعالى بالتحكيم والتسليم
والإذعان والانقياد، ونجعل له واحدًا ونسلم لأمره؛ كما قال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ
لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِي مَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا
فَضَيْتَ وَتَسْلِمُوا أَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥]، كما وحّدنا الرب - سبحانه وتعالى -
بالعبادة والخضوع والذلّ والإناية والتوكّل، فنوحّد النبي ﷺ: بأن نرجع إلى
حكمه، ونسلم له ونذعن ونقاد، ونوحّد الرب تعالى بالعبادة لا نعبد غيره،
ولا نخضع إلا له، ولا نتذلّ إلا بين يديه، ونتوب إليه ونتوكّل عليه.

قال الشارح:

فَهُمَا تَوْحِيدَانِ، لَا نَجَاةَ لِلْعَبْدِ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ إِلَّا بِهِمَا: تَوْحِيدُ الْمُرْسَلِ، وَتَوْحِيدُ مُتَابَعَةِ الرَّسُولِ، فَلَا يُحَاكِمُ إِلَى غَيْرِهِ، وَلَا يَرْضَى بِحُكْمِ غَيْرِهِ، وَلَا يَقِفُ تَنْفِيذَ أَمْرِهِ وَتَصْدِيقَ خَيْرِهِ عَلَى عَرْضِهِ عَلَى قَوْلِ شَيْخِهِ وَإِمَامِهِ وَدَوِي مَذْهَبِهِ وَطَائِفَتِهِ وَمَنْ يُعْظَمُهُ، فَإِنْ أَدْنَوْا لَهُ نَفْسَهُ وَقَبِلَ خَيْرَهُ، وَإِلَّا فَإِنْ طَلَبَ السَّلَامَةَ فَوَضَعَهُ إِلَيْهِمْ وَأَعْرَضَ عَنْ أَمْرِهِ وَخَيْرِهِ، وَإِلَّا حَرَفَهُ عَنْ مَوَاضِعِهِ، وَسَمَّى تَحْرِيفَهُ تَأْوِيلًا وَهَمَلًا، فَقَالَ: نُؤْوِلُهُ وَنَهْمِلُهُ. فَلَأَنْ يَلْقَى الْعَبْدُ رَبَّهُ بِكُلِّ ذَنْبٍ. مَا خَلَا إِلَّا شَرَّكَ بِاللَّهِ. خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَلْقَاهُ بِهَذِهِ الْحَالِ.

قال الشيخ:

قوله: (فَهُمَا تَوْحِيدَانِ)، يريد بالتوحيد: اتباع النبي ﷺ والتسليم لأمره، والانقياد لحكمه، هذا توحيد.

والثاني: توحيد الرب تعالى بالعبادة والخضوع.

فلا نجاة من عذاب الله إلا بهذين التوحيدين: (تَوْحِيدُ الْمُرْسَلِ)، وهو الله، (وَتَوْحِيدُ مُتَابَعَةِ الرَّسُولِ ﷺ).

قوله: (فَلَا يُحَاكِمُ إِلَى غَيْرِهِ، وَلَا يَرْضَى بِحُكْمِ غَيْرِهِ)؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِي مَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ [النساء: ٦٥].

قوله: (وَلَا يَقِفُ تَنْفِيذَ أَمْرِهِ وَتَصْدِيقَ خَيْرِهِ عَلَى عَرْضِهِ عَلَى قَوْلِ

شَيْخِهِ...)، هكذا يفعل كثير من هؤلاء، فإذا جاءه الأمر من الله فلا بد أنهم يتوقفون، فيقولون: هذا الأمر نعرضه على مشايخنا، وعلى أئمتنا، وعلى علماء مذاهبننا، وعلى طوائفنا، وعلى الذين يعظمونهم، فإذا أذنوا لنا نفذناه وقبلنا خبره، وإذا لم يأذنوا لنا فإما أن نفوضه ونقول: نفوض أمره مع اعتقادنا أن هذا ليس له حقيقة. ويقولون: هذا هو السلامة، ويعتقدون أن طريقة السلف التفويض وعدم المعرفة للمعاني، هذه حالة من حالاتهم.

الحالة الثانية: أن يعرضوا عن هذا الأمر، وهذا الخبر مع اعتقادهم أنه لا يجوز العمل به، فيسكتون.

الحالة الثالثة: أن يسلطوا عليه التحريفات التي تصرفه عن ظاهره، ويسمون هذا التحريف تأويلاً وحملًا، فيقولون: نؤوله أو نحمله على كذا وكذا.

يقول الشارح - رحمه الله -: (فَلَأَنَّ يَلْقَى الْعَبْدُ رَبَّهُ بِكُلِّ ذَنْبٍ - مَا خَلَا الْإِشْرَاكَ بِاللَّهِ - خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَلْقَاهُ بِهَذِهِ الْحَالِ)، التي هي موقفهم من هذه الأدلة: إما التفويض، وإما السكوت، وإما التحريف، اتباعًا لأقوال مشايخهم.

قال الشارح:

بَلْ إِذَا بَلَغَهُ الْحَدِيثُ الصَّحِيحُ يَعُدُّ نَفْسَهُ كَأَنَّهُ سَمِعَهُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ،
 فَهَلْ يَسُوعُ أَنْ يُؤَخَّرَ قَبُولُهُ وَالْعَمَلُ بِهِ حَتَّى يَعْرِضَهُ عَلَى رَأْيِ فُلَانٍ وَكَلَامِهِ
 وَمَذْهَبِهِ؟! بَلْ كَانَ الْفَرَضُ الْمُبَادَرَةَ إِلَى امْتِثَالِهِ، مِنْ غَيْرِ التَّفَاتِ إِلَى سِوَاهُ،
 وَلَا يُسْتَشْكَلُ قَوْلُهُ لِمُخَالَفَتِهِ رَأْيَ فُلَانٍ، بَلْ تُسْتَشْكَلُ الْأَرَاءُ لِقَوْلِهِ، وَلَا يُعَارِضُ
 نَصُّهُ بِقِيَاسٍ، بَلْ تُهْدَرُ الْأَقْسِمَةُ، وَتُلْفَى لِنُصُوصِهِ، وَلَا يُحَرِّفُ كَلَامَهُ عَنِ
 حَقِيقَتِهِ، لِخَيَالٍ يُسَمِّيهِ أَصْحَابُهُ مَعْقُولًا، نَعَمَ هُوَ مَجْهُولٌ، وَعَنِ الصَّوَابِ
 مَعْرُوفٌ! وَلَا يُوقَفُ قَبُولُ قَوْلِهِ عَلَى مُوَافَقَةِ فُلَانٍ دُونَ فُلَانٍ، كَأَنَّا مَنْ كَانَ.

قال الشيخ:

هذا الواجب أن من سمع الحديث يعد نفسه كأنه سمع النبي ﷺ يتكلم
 به، فيقول سمعاً وطاعة، ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾
 [البقرة: ٢٨٥]، لا يجوز له (أَنْ يُؤَخَّرَ قَبُولُهُ وَالْعَمَلُ بِهِ حَتَّى يَعْرِضَهُ عَلَى رَأْيِ
 فُلَانٍ)، أو على كلام فلان، أو على مذهب فلان، فهذا فعل هؤلاء المتمذهبة
 والمتأولة.

قوله: (بَلْ كَانَ الْفَرَضُ الْمُبَادَرَةَ إِلَى امْتِثَالِهِ)، أي: الواجب والفرض
 المبادرة إلى امتثال هذا النص (مِنْ غَيْرِ التَّفَاتِ إِلَى سِوَاهُ)، ولا إلى كلام أحد من
 العلماء الذين يخالفونه، ولا يُسْتَشْكَلُ قَوْلُهُ وَكَلَامُهُ لِأَجْلِ مُخَالَفَتِهِ لِرَأْيِ فُلَانٍ،

بل تُستشكل هذه الآراء لقوله، فإن آراء الناس تُرد وتُعد مشكلة، إذا خالفت تلك الآراء والتخمينات وما أشبهها.

قوله: (وَلَا يُعَارِضُ نَصَّهُ بِقِيَاسٍ)، أي: لا يعارض نص النبي ﷺ بالأقيسة.

قال: (بَلْ تُهْدَرُ الْأَقْيِسَةُ وَتُلْفَى لِنُصُوصِهِ)، أي: لنصوص الله تعالى. قوله: (وَلَا يُحَرِّفُ كَلَامَهُ عَن حَقِيقَتِهِ)؛ كما يفعل اليهود يجرِّفون الكلم عن مواضعه، لا يجوز أن يُحرف (الخيال يُسميه أصحابه معقولاً)، بل هو مجهول، هذا الخيال الذي يسمونه (معقولاً) وهو في الحقيقة مجهول كيف يُحرف لأجله كلام الله؟! فهو في الحقيقة مجهول وعن الصواب معزول بعيد.

قوله: (وَلَا يُوقِفُ قَبُولَ قَوْلِهِ عَلَى مُوَافَقَةِ فُلَانٍ دُونَ فُلَانٍ كَأَنَّ مَنْ كَانَ)، بل قول الله وقول رسوله مقدم على قول كل أحد، وذلك من كلام الإمام مالك - رحمه الله - أنه قال: «كل أحد يؤخذ منه ويُرد إلا صاحب هذا القبر» يعني: النبي ﷺ.

قال الشارح:

قَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ: حَدَّثَنَا أَنَسُ بْنُ عِيَاضٍ، حَدَّثَنَا أَبُو حَازِمٍ، عَنْ عَمْرِو بْنِ شُعَيْبٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ جَدِّهِ، قَالَ: «لَقَدْ جَلَسْتُ أَنَا وَأَخِي مَجْلِسًا مَا أَحَبُّ أَنْ لِي بِهِ مُحَرَّرَ النَّعَمِ، أَقْبَلْتُ أَنَا وَأَخِي، وَإِذَا مَشِيخَةٌ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ جُلُوسٌ عِنْدَ بَابٍ مِنْ أَبْوَابِهِ، فَكَرِهْنَا أَنْ نُفَرِّقَ بَيْنَهُمْ، فَجَلَسْنَا حَجْرَةً، إِذْ ذَكَرُوا آيَةً مِنَ الْقُرْآنِ، فَتَمَارَوْا فِيهَا، حَتَّى ارْتَفَعَتْ أَصْوَاتُهُمْ، فَخَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مُغَضِبًا، قَدِ احْمَرَّ وَجْهُهُ، يَرْمِيهِمْ بِالْتُّرَابِ، وَيَقُولُ: «مَهْلًا يَا قَوْمَ! بِهَذَا أَهْلَكْتَ الْأُمَّمَ مِنْ قَبْلِكُمْ، بِاخْتِلَافِهِمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ، وَضَرْبِهِمُ الْكُتُبَ بَعْضُهَا بِبَعْضٍ، إِنَّ الْقُرْآنَ لَمْ يَنْزِلْ يُكَذِّبُ بَعْضُهُ بَعْضًا، بَلْ يُصَدِّقُ بَعْضُهُ بَعْضًا، فَمَا عَرَفْتُمْ مِنْهُ فَأَعْمَلُوا بِهِ، وَمَا جَهِلْتُمْ مِنْهُ فَرُدُّوهُ إِلَى عَالِمِهِ».

قال الشيخ:

هذا الحديث أخرجه الإمام أحمد^(١)، وعبدالرزاق^(٢)، وابن ماجه^(٣)، وغيرهم، وقد أخرجه مسلم في (صحيحه)^(٤) عن عبد الله بن عمرو مختصراً،

(١) (٢/١٨١).

(٢) في مصنفه (١١/٢١٦).

(٣) برقم (٨٥).

(٤) برقم (٢٦٦٦).

وهو مشهور عن عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما، وقد ذكره ابن كثير^(١) عند تفسير قول الله تعالى: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢].

أخبر ﷺ بأن القرآن ما نزل يكذب بعضه بعضاً، بل يصدق بعضه بعضاً ما عرفنا منه نعمل به، وما جهلنا منه نتوقف فيه ونرده إلى عالمه إلى الله تعالى، وإلى النبي ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِنْ نَزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ [النساء: ٥٩].

أخبر عبدالله بن عمرو - رضي الله عنهما - أنه لما رأى الصحابة جلسوا متحلقين كره أن يفرق بينهم، فابتعد عنهم قليلاً، ثم إنهم خاضوا في مسائل من القدر، وجاؤوا بالأدلة يتنازعون فيها، هذا ينزع بآية وهذا ينزع بآية، وارتفعت أصواتهم، ولما سمعهم النبي ﷺ خرج مغضباً، وقد احمر وجهه، وجعل يرميهم بالتراب، ويقول: «مَهْلًا يَا قَوْمِ»، أي: لا تتجرؤوا على ذلك، فإن بهذا الاختلاف «أَهْلَكْتِ الْأُمَّمُ مِنْ قَبْلِكُمْ»، حيث اختلفوا على أنبيائهم واختلفوا بكتبهم، و ضربوا كتب الله تعالى بعضها ببعض، القرآن نزل يصدق بعضه بعضاً، لا يكذب بعضه بعضاً، هكذا أرشدهم، فإن أشكلت علينا بعض الآيات فإننا نقول: الله أعلم بمراده بها، يعني: بمراده بما تدل عليه من حيث الكيف، والكنه، والمعنى الغيبي، وما أشبه ذلك.

(١) تفسير ابن كثير (١/ ٥٣٠).

قال الشارح:

وَلَا شَكَّ أَنَّ اللَّهَ قَدْ حَرَّمَ الْقَوْلَ عَلَيْهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ، قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَّنَ وَالْإِثْمَ وَالْإِنْتِهَىٰ بغيرِ الْحَيِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يَنْزِلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا نَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٣]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ [الإسراء: ٣٦]، فَعَلِيَ الْعَبْدُ أَنْ يَجْعَلَ مَا بَعَثَ اللَّهُ بِهِ رُسُلَهُ، وَأَنْزَلَ بِهِ كُتُبَهُ هُوَ الْحَقُّ الَّذِي يَجِبُ اتِّبَاعُهُ، فَيُصَدِّقُ بِأَنَّهُ حَقٌّ وَصِدْقٌ، وَمَا سِوَاهُ مِنْ كَلَامٍ سَائِرِ النَّاسِ يُعْرَضُ عَلَيْهِ، فَإِنْ وَافَقَهُ فَهُوَ حَقٌّ، وَإِنْ خَالَفَهُ فَهُوَ بَاطِلٌ، وَإِنْ لَمْ يَعْلَمْ هَلْ خَالَفَهُ أَوْ وَافَقَهُ لَكُنْ ذَلِكَ الْكَلَامُ مُجْمَلًا لَا يَعْرِفُ مُرَادَ صَاحِبِهِ، أَوْ قَدْ عُرِفَ مُرَادُهُ لَكِنْ لَمْ يَعْرِفْ هَلْ جَاءَ الرَّسُولُ ﷺ بِتَصْديْقِهِ أَوْ بِتَكْذِيبِهِ، فَإِنَّهُ يُمَسِّكُ عَنْهُ، وَلَا يَتَكَلَّمُ إِلَّا بِعِلْمٍ، وَالْعِلْمُ: مَا قَامَ عَلَيْهِ الدَّلِيلُ، وَالنَّافِعُ مِنْهُ مَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ، وَقَدْ يَكُونُ عِلْمٌ عَنْ غَيْرِ الرَّسُولِ، لَكِنْ فِي الْأُمُورِ الدُّنْيَوِيَّةِ، مِثْلُ: الطَّبِّ وَالْحِسَابِ وَالْفِلاحَةِ، وَأَمَّا الْأُمُورُ الإِلَهِيَّةُ وَالْمَعَارِفُ الدُّنْيَوِيَّةُ، فَهَذِهِ الْعِلْمُ فِيهَا مَا أُخِذَ عَنِ الرَّسُولِ ﷺ لَا غَيْرَ.

قال الشيخ:

يُخْبِرُ بَأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى حَرَّمَ أَنْ نَقُولَ عَلَى اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ، كَمَا فِي هَذِهِ الْآيَةِ مِنْ سُورَةِ (الأعراف)، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى ذَكَرَ فِيهَا الْمَحْرَمَاتِ، وَبَدَأَ بِالْأَخْفِ ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَّنَ﴾، هَذِهِ أَخْفَى مِنَ الَّذِي بَعْدَهَا؛ لِأَنَّهَا تَحْتَ

مشيئة الله؛ ولأن الله تعالى قد يسترها ويغفرها، ﴿وَالْإِثْمُ﴾، هو: القول أو العمل الذي يترتب عليه ذنب كبير وهو أكبر من الفواحش، ﴿وَالْبَغْيُ بِغَيْرِ الْعَقْرِ﴾، وهو: التعدي والظلم؛ التعدي على الله تعالى وعلى شرعه، والتعدي على الناس بغير حق وهو أكبر من الإثم، ﴿وَأَنْ تَشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يَنْزِلْ بِهِ سُلْطَانًا﴾، هو الشرك: الذي يجبط الأعمال، وهو الذي لا يغفره الله، وهو أكبر من البغي، ﴿وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا نَعْلَمُونَ﴾، هو: القول على الله بغير علم، أي التخرص في شرع الله، والتخرص في أحكام الله، وهو أعم وأعظم من الشرك؛ وذلك لأنه يدخل نفسه في الشرع، كأنه يزاحم الله تعالى، ويُشرع ما لم يشرعه الله، ويُغير شرع، الله ويقول على الله بغير علم، وهكذا آية (الإسراء): ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾، أي: لا تتبع شيئاً ليس لك به علم، بل قف على ما تعلم.

قال: (فَعَلَى الْعَبْدِ أَنْ يَجْعَلَ مَا بَعَثَ اللَّهُ بِهِ رَسُولَهُ، وَأَنْزَلَ بِهِ كُتُبَهُ هُوَ الْحَقُّ الَّذِي يَجِبُ اتِّبَاعُهُ)؛ لأنه من الله تعالى، جاءت به الرسل الصادقون، وأنزل الله تعالى به كتبه المحققة، فيجب اتباعه، (فَيَصِدِّقُ بِأَنَّهُ حَقٌّ وَصِدْقٌ)، وأنه من الله تعالى، وأن ما سواه كلام من سائر الناس، وهذا الذي من كلام سائر الناس إذا جاءنا نعرضه على كلام الله وكلام رسوله، وعلى الكتاب والسنة، وكذا اصطلاحاتهم: كالجوهر والعرض والأعراض والأبعاض والأعضاء وما أشبه ذلك، وكذلك الجهة والحيز والجسم وما أشبهها، نعرضها على كلام الله

فما وافق كلام الله وكلام رسوله فهو حق، وأما إذا خالفه فهو باطل، نرد الباطل ونأخذ الحق.

قوله: (وَإِنْ لَمْ يَعْلَمْ هَلْ خَالَفَهُ أَوْ وَافَقَهُ لَكُنْ ذَلِكَ الْكَلَامَ مُجْمَلًا لَا يَعْرِفُ مُرَادَ صَاحِبِهِ)، أي: أما إذا لم نعلم ولم يتبين لنا هل يوافق أو يخالف؛ لكون ذلك الكلام مجملًا ولم نعلم مراد صاحبه؛ لكونه غير واضح.

قوله: (أَوْ قَدْ عُرِفَ مُرَادُهُ لَكِنْ لَمْ يُعْرِفْ هَلْ جَاءَ الرَّسُولَ ﷺ بِتَصْدِيقِهِ أَوْ بِتَكْذِيبِهِ فَإِنَّهُ يُمَسِّكُ عَنْهُ)، أي: أو نعرف مراده لكن لم نعرف هل جاء الرسول ﷺ بتصديقه أو تكذيبه، فإننا نتوقف ونمسك عنه في هاتين الحالتين:

الأولى: إذا كان الكلام مجملًا فإننا نتوقف.

الثانية: وإذا كان الكلام واضحًا، ولكن ما وجدنا ولم نعرف دليلاً يصدقه

أو يكذبه فإننا نمسك عن قبوله ولا نتكلم إلا بعلم؛ لهذه الآية ﴿وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا نَعْلَمُونَ﴾.

ثم قال: (وَالْعِلْمُ: مَا قَامَ عَلَيْهِ الدَّلِيلُ)، هذا هو العلم الصحيح.

قوله: (وَالنَّافِعُ مِنْهُ مَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ)، أي: العلم النافع ما جاء به الرسول ﷺ؛ لأنه هو الذي بين شرع الله.

قوله: (وَقَدْ يَكُونُ عِلْمٌ عَنْ غَيْرِ الرَّسُولِ، لَكِنْ فِي الْأُمُورِ الدُّنْيَوِيَّةِ، مِثْلُ: الطَّبِّ وَالْحِسَابِ وَالْفِلَاحَةِ)، الأمور الدنيوية يجوز أن يتكلم فيها بعد التجربة بحسب المعرفة، وبحسب ما يقوله الناس، يتكلمون في الطب والحساب

والفلاحة والحراثة والتجارة، وسائر الحرف اليدوية وما أشبهها.

قوله: (وَأَمَّا الْأُمُورُ الْإِلَهِيَّةُ وَالْمَعَارِفُ الدِّينِيَّةُ، فَهَذِهِ الْعِلْمُ فِيهَا مَا أُخِذَ عَنِ الرَّسُولِ ﷺ لَا غَيْرَ)، أي: وأما الأمور الإلهية التي مرجعها إلى الله وإلى الشرع، وكذلك المعارف الدينية، فهذه العلم فيها موقوف على ما أخذ عن النبي ﷺ لا غير، نتوقف فيها على الدليل، فنسأل كل مَنْ تكلم هل هناك دليل يدل على ما تقوله من كلامك في الإلهيات أو كلامك في الأسماء والصفات، أو كلامك في الآيات والأحاديث، أو كلامك في الأحكام الشرعية، أو كلامك في العقائد، هل هناك دليل فنقبله؟ إذا لم يكن هناك دليل فإننا نرده، أما إذا كان كلامك في الأمور الدنيوية فإننا نرجع فيها إلى أهل الخبرة وأهل المعرفة، الذين يتعلمون العلوم الدنيوية: كالحساب، والهندسة، والصناعات والطب والأدوية.. وما أشبهها، فإن الناس يتعلمونها وإن كانت في الأصل قد دلت عليها الأدلة الشرعية.

قد تكلم العلماء على المسائل الطبية، كما فعل ذلك ابن القيم في «زاد المعاد»، فإنه تكلم عن الطب النبوي، وتبعه على ذلك زميله الذي هو الذهبي، فتكلم أيضاً عن الأمور الطبية في رسالة له اسمها «الطب النبوي»، وتبعها على ذلك زميلها أيضاً الذي هو ابن مفلح فتكلم أيضاً عن الطب وأطال فيه في كتابه «الآداب الشرعية»، وتكلم الناس في علم الحساب وتوسعوا فيه، كما فعل ذلك صاحب ألفية الفرائض في كتابه «العذب الفاضل»، فإنه توسع في علم الحساب، مما دل على أن الأولين تكلموا في الحساب.

قال الطحاوي:

وَلَا تَثْبُتُ قَدَمُ الْإِسْلَامِ إِلَّا عَلَى ظَهْرِ التَّسْلِيمِ وَالْإِسْتِسْلَامِ.

قال الشارح:

هَذَا مِنْ بَابِ الْأَسْتِعَارَةِ، إِذِ الْقَدَمُ الْحِسِّيَّةُ لَا تَثْبُتُ إِلَّا عَلَى ظَهْرِ شَيْءٍ، أَيُّ: لَا يَثْبُتُ إِسْلَامٌ مَنْ لَمْ يُسَلِّمْ لِنُصُوصِ الْوَحْيَيْنِ، وَيَنْقَادُ إِلَيْهَا، وَلَا يَعْتَرِضُ عَلَيْهَا وَلَا يُعَارِضُهَا بِرَأْيِهِ وَمَعْقُولِهِ وَقِيَاسِهِ.

رَوَى الْبُخَارِيُّ^(١) عَنِ الْإِمَامِ مُحَمَّدِ بْنِ شَهَابِ الزُّهْرِيِّ - رَحِمَهُ اللَّهُ - أَنَّهُ قَالَ: «مِنَ اللَّهِ الرَّسَالَةُ، وَمِنَ الرَّسُولِ الْبِلَاقُ، وَعَلَيْنَا التَّسْلِيمُ». وَهَذَا كَلَامٌ جَامِعٌ نَافِعٌ.

قال الشيخ:

قوله: (قَدَمُ الْإِسْلَامِ)، إشارة إلى حقيقة الإسلام، وأن الإسلام الحقيقي لا يثبت إلا إذا سلم الإنسان لأمر الله تعالى واستسلم لعبادة الله؛ ولهذا فسر الشيخ محمد بن عبد الوهاب - رحمه الله - الإسلام بقوله: «الاستسلام لله بالتوحيد، والانقياد له بالطاعة، والبراءة من الشرك وأهله»، فلا بد من التسليم

(١) في كتاب التوحيد، باب قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ

فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ﴾، قبل الحديث رقم (٧٥٣٠).

لأمر الله تعالى، فلا يثبت إسلام كل أحد حتى يسلم لنصوص الوحيين، وحتى ينقاد إليها، ولا يعترض عليها، ولا يورد عليها إشكالات إذا كانت واضحة، ولا يعارضها بالآراء والمعقول والأقيسة، وبذلك يُقال: إنه ثابت قدمه في هذا الدين الذي هو الإسلام.

ذكر كلام ابن شهاب الزهري رحمه الله - وهو من التابعين، أنه قال:
(مَنْ لَّهِ الرَّسَالَةُ، وَمِنْ الرَّسُولِ الْبَلَاغُ، وَعَلَيْنَا التَّسْلِيمُ).

يقول ابن حجر - رحمه الله -: «هذا وقع في قصة أخرجها الحميدي في (النوادر) ومن طريقه الخطيب قال الحميدي: حدثنا سفيان قال: قال رجل للزهري: يا أبا بكر قول النبي ﷺ: «لَيْسَ مِنَّا مَنْ شَقَّ الْجُيُوبَ» ما معناه؟ فقال الزهري: من الله العلم، وعلى رسوله البلاغ، وعلينا التسليم»^(١)، قيل: هذا الرجل هو أبو عمرو الأوزاعي، وقد روي نحو هذا عن ربيعة بن أبي عبد الرحمن أنه فسر الاستواء، فقال: «الاستواء غير مجهول، والكيف غير معقول، ومن الله الرسالة، وعلى الرسول البلاغ، وعلينا التسليم»، أي: الاستسلام لأمر الله تعالى.

(١) انظر: فتح البازي (١٣/٥٠٤).

قال الشارح:

وَمَا أَحْسَنَ الْمَثَلَ الْمَضْرُوبَ لِلنَّقْلِ مَعَ الْعَقْلِ، وَهُوَ: أَنَّ الْعَقْلَ مَعَ النَّقْلِ
كَالْعَامِّيِّ الْمُقْلِدِ مَعَ الْعَالِمِ الْمُجْتَهِدِ، بَلْ هُوَ دُونَ ذَلِكَ بِكَثِيرٍ، فَإِنَّ الْعَامِّيَّ يُمَكِّنُهُ أَنْ
يَصِيرَ عَالِمًا، وَلَا يُمَكِّنُ لِلْعَالِمِ أَنْ يَصِيرَ نَبِيًّا رَسُولًا، فَإِذَا عَرَفَ الْعَامِّيُّ الْمُقْلِدُ
عَالِمًا، فَدَلَّ عَلَيْهِ عَامِيًّا آخَرَ، ثُمَّ اخْتَلَفَ الْمُفْتِيَّ وَالِدَّالَّ، فَإِنَّ الْمُسْتَفْتِيَّ يَجِبُ عَلَيْهِ
قَبُولُ قَوْلِ الْمُفْتِيِّ، دُونَ الدَّالِّ، فَلَوْ قَالَ الدَّالُّ: الصَّوَابُ مَعِيَ دُونَ الْمُفْتِيِّ؛ لِأَنِّي أَنَا
الْأَصْلُ فِي عِلْمِكَ بِأَنَّهُ مُفْتٍ، فَإِذَا قَدَّمْتَ قَوْلَهُ عَلَى قَوْلِي قَدَحْتَ فِي الْأَصْلِ الَّذِي
بِهِ عَرَفْتَ أَنَّهُ مُفْتٍ، فَلَزِمَ الْقَدْحُ فِي فَرْعِهِ! فَيَقُولُ لَهُ الْمُسْتَفْتِي: أَنْتَ لِمَا شَهِدْتَ لَهُ
بِأَنَّهُ مُفْتٍ، وَدَلَلْتَ عَلَيْهِ، شَهِدْتَ لَهُ بِوُجُوبِ تَقْلِيدِهِ دُونَكَ، فَمُؤَافَقَتِي لَكَ فِي
هَذَا الْعِلْمِ الْمَعِينِ، لَا تَسْتَلِزِمُ مُؤَافَقَتَكَ فِي كُلِّ مَسْأَلَةٍ، وَخَطْوُكَ فِيهَا خَالَفْتَ فِيهِ
الْمُفْتِيَّ الَّذِي هُوَ أَعْلَمُ مِنْكَ، لَا يَسْتَلِزِمُ خَطْوَاكَ فِي عِلْمِكَ بِأَنَّهُ مُفْتٍ، هَذَا مَعَ
عِلْمِهِ أَنَّ ذَلِكَ الْمُفْتِيَّ قَدْ يُحْطَى.

قال الشيخ:

هذا مثل حسن ضربه العلماء للعقل مع النقل، العقل: هو ما يفهم
بالعقول، والنقل: هو الأدلة التي في الوحيين، فمثل العقل كالعامي المقلد،
والنقل كالعالم المجتهد، بل هو دون ذلك بكثير؛ لأن العامي المقلد قد يمكنه أن
يكون عالمًا، ولا يمكن للعالم أن يصير نبيًا ورسولًا، فإذا عرف العامي المقلد
عالمًا، فدل عليه عاميًّا آخر وقال: اذهب إلى فلان فإنه عالم، وإنه أعلم مني،

فاسأله واقبل كلامه. ذهب المستفتي إلى ذلك العالم، واستفتاه، ثم بعد ذلك رجع إلى الدال، فقال: إن فلاناً المفتي قال كذا وكذا. فقال الدال عليه: أنا أخالفه. المستفتي ماذا يجب عليه؟ يلزمه قبول قول المفتي ولا يلزمه قبول قول ذلك الذي دله، لو قال الدال: الصواب معي دون المفتي؛ لأنني أنا الأصل في علمك بأنه عالم، أنا الذي دللتك عليه، فإذا قدمت قوله على قولي، قدحت في الأصل الذي به عرفت أنه مفتي، فيلزم القدح في فرعه الذي هو أنه مفتي، هكذا، ويقول له المستفتي: أنت أرسلتني إليه وشهدت له بأنه مفتي، ودللتني عليه، وشهدت له بوجوب تقليده دونك، وشهدت بأنه أهل أن يُقبل قوله، ولم تفتني أنت أولاً، فلا بد أن أوافقك، ولو وافقتك أنت في هذا العلم المعين الذي هو دلالتك فلا يلزم أن أوافقك في كل مسألة، أي: في خطئك فيما خالفت فيه المفتي، وقد شهدت بأنه أعلم منك، وذلك لا يستلزم خطأك بعلمك بأنه مفتي، هذا مع علمه أن ذلك المفتي قد يخطئ، ولكن شهادتك أيها الدال على أنه أعلم منك، تستلزم أن لا نرد قوله، ولا نقبل قولك؛ لأنك قد أحلت عليه، وقد بينت أنه أعلم منك، وأنه يجب قبول قوله.

يقول الشارح:

وَالْعَقْلُ يَعْلَمُ أَنَّ الرَّسُولَ مَعْصُومٌ فِي خَيْرِهِ عَنِ اللَّهِ تَعَالَى، لَا يَجُوزُ عَلَيْهِ
الْخَطَأُ، فَيَحِبُّ عَلَيْهِ التَّسْلِيمَ لَهُ وَالْإِنْقِيَادَ لِأَمْرِهِ، وَقَدْ عَلِمْنَا بِالْأَضْطِرَّارِ مِنْ دِينِ
الْإِسْلَامِ أَنَّ الرَّجُلَ لَوْ قَالَ لِلرَّسُولِ: هَذَا الْقُرْآنُ الَّذِي تُقِيهِ عَلَيْنَا، وَالْحِكْمَةُ
الَّتِي جِئْتَنَا بِهَا، قَدْ تَضَمَّنَ كُلَّ مِنْهَمَا أَشْيَاءَ كَثِيرَةً تُنَاقِضُ مَا عَلِمْنَاهُ بِعُقُولِنَا،
وَنَحْنُ إِنَّمَا عَلِمْنَا صِدْقَكَ بِعُقُولِنَا، فَلَوْ قَبَلْنَا جَمِيعَ مَا تَقُولُهُ مَعَ أَنَّ عُقُولَنَا تُنَاقِضُ
ذَلِكَ لَكَانَ ذَلِكَ قَدْ حَافِيَ مَا عَلِمْنَا بِهِ صِدْقَكَ، فَتَحْنُ نَعْتَقِدُ مُوجِبَ الْأَقْوَالِ
الْمُنَاقِضَةِ لِمَا ظَهَرَ مِنْ كَلَامِكَ، وَكَلَامِكَ نُعْرِضُ عَنْهُ، لَا نَتَلَقَى مِنْهُ هَدِيًّا وَلَا عِلْمًا،
لَمْ يَكُنْ مِثْلُ هَذَا الرَّجُلِ مُؤْمِنًا بِمَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ ﷺ، وَلَمْ يَرْضَ مِنْهُ الرَّسُولُ
بِهَذَا، بَلْ يَعْلَمُ أَنَّ هَذَا لَوْ سَاغَ لِأَمْكَنَ كُلُّ أَحَدٍ أَنْ لَا يُؤْمِنَ بِشَيْءٍ مِمَّا جَاءَ بِهِ
الرَّسُولُ، إِذِ الْعُقُولُ مُتَفَاوِتَةٌ، وَالشُّبُهَاتُ كَثِيرَةٌ، وَالشَّيَاطِينُ لَا تَزَالُ تُلْقِي
الْوَسْوَسَ فِي النُّفُوسِ، فَيُمْكِنُ كُلُّ أَحَدٍ أَنْ يَقُولَ مِثْلَ هَذَا فِي كُلِّ مَا أَخْبَرَ بِهِ
الرَّسُولُ ﷺ وَمَا أَمَرَ بِهِ!! وَقَدْ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ﴾ [النور: ٥٤]،
وَقَالَ: ﴿فَهَلْ عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ [النحل: ٣٥]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا
أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا لِيُبَلِّغَ قَوْمَهُ لِيُحْكَمَ مِنْهُ وَيُهْدَى
مَنْ يُشَاءُ﴾ [إبراهيم: ٤]، ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ
مُبِينٌ﴾ [المائدة: ١٥]، ﴿حَمِّ (١) وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ [الدخان: ١، ٢]،
﴿وَلَا يَأْتِي الْكِتَابَ الْمُبِينِ﴾ [يوسف: ٢]، ﴿مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ

تَضْرِبُكَ بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِلَ كُلَّ شَيْءٍ وَهَدَىٰ وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾ [يوسف: ١١١]، ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: ٨٩]، وَنَظَائِرُ ذَلِكَ كَثِيرَةٌ فِي الْقُرْآنِ.

قال الشيخ:

العقل يعلم أن الرسول ﷺ معصوم في خبره عن الله تعالى، فإن الذين آمنوا به من الصحابة عرفوا صدقه، وعرفوا أنه لا يخبر إلا عن ربه سبحانه وتعالى، وعرفوا أنه لا يجوز عليه الخطأ، وعرفوا أن الواجب عليهم التسليم له، فسلموا له بعقولهم، فالعقل يجب عليه أن يسلم للنبي ﷺ، وأن ينقاد لأمره.

قوله: (وَقَدْ عَلَّمْنَا بِالْإِضْطِرَارِ مِنْ دِينِ الْإِسْلَامِ أَنَّ الرَّجُلَ لَوْ قَالَ لِلرَّسُولِ ﷺ: هَذَا الْقُرْآنُ الَّذِي تُلْقِيهِ عَلَيْنَا... لَا نَتَلَقَىٰ مِنْهُ هَدًى وَلَا عِلْمًا)، خلاصة هذا القول: أن إنساناً لو اعترض على دين الإسلام، وقال: يا رسول الله إن هذا القرآن الذي تلقيه علينا، وهذه الحكمة والأحاديث التي جئتنا بها، قد تتضمن أشياء كثيرة تناقض عقولنا، ولا تستسيغها عقولنا، فكيف نقبلها مع أننا ما علمنا أنك صادق إلا بعقولنا، فإذا قبلنا جميع ما تقوله وعقولنا تناقض ذلك، كان هذا قدحاً فيما علمنا به صدقك، فلا نعتقد أو نتقبل تلك الأقوال المناقضة لما ظهر لعقولنا، بل نعرض عنها، ونعرض كلامك كله على عقولنا، ولا نتلقى منه هدى ولا علماً إذا كان يخالف عقولنا، نعرض كلامك

الذي جئت به من كلام الله، وكلامك الذي من الأحاديث على عقولنا، وننظر هل يوافق عقولنا أو لا يوافقها، فما لم يوافقها نظرحة، سواء من كلامك أو من كلام الله تعالى الذي جئت به؟ فالذي يقول هذا لا يكون مؤمناً حقاً بما جاء به الرسول ﷺ، بل يعترض عليه، كأنه يقول: لا نقبل إلا ما توافقه عقولنا وما نرضى به وما يوافق ما نفهم، فلا يؤمن حقاً بالنبى ﷺ، ولا يكون راضياً من الرسول ﷺ بكل ما جاء به، ولا يرضى بالنبى ﷺ.

قوله: (بَلْ يَعْلَمُ أَنَّ هَذَا لَوْ سَأَغَ لَأَمْكَنَ كُلُّ أَحَدٍ أَنْ لَا يُؤْمِنَ بِشَيْءٍ مِمَّا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ)، بل يعلم أن هذا الاعتراض لو ساءغ، ولو جاز أن تُعرض الأدلة على العقول؛ لأمكن كل أحد أن لا يؤمن بشيء مما جاء به الرسول ﷺ فتكون أقوال النبى ﷺ، وكلام الله تعالى يرد بعضه هذا، ويرد بعضه هذا، ويرد بعضه هذا؛ لأن هذا قد يقول: هذا لا يوافق عقلي فلا أقبله. والثاني يقول: هذا لا يوافق عقلي. وتأتي شبهات كثيرة، والشياطين تلقي بالوساوس في النفوس، فيمكن لكل أحد أن يقول: لا أقبل إلا ما يوافق عقلي، فيقول مثل هذا في كل ما أخبر به النبى ﷺ، وما أمر به.

وكل هذا يخالف الأدلة:

الدليل الأول: قوله تعالى: ﴿وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ﴾ [النور: ٥٤]، وقد بلغ

ما أنزل إليه، وإذا بلغ فإن علينا أن نتقبله.

الدليل الثاني: قوله تعالى: ﴿فَهَلْ عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ [النحل: ٣٥]،

ونشهد بأنهم قد بلغوا ما أنزل إليهم وما أرسلوا به.

الدليل الثالث: قوله تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ﴾ [إبراهيم: ٤]، فكل رسول أرسله الله بلسان قومه الذين أرسل إليهم، وقد بلغوا ما أنزل إليهم، فمنهم من هدى الله، ومنهم من حقت عليه الضلالة، والله تعالى هو الذي أضل هؤلاء لحكمة، وهدى هؤلاء برحمة.

الدليل الرابع: قوله تعالى: ﴿ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ ﴾ [المائدة: ١٥]، النور: هو القرآن، وكذلك وصفه بأنه كتاب مبين، وكذلك أيضا مما يُسمى نورا الرسول ﷺ، وقد سمي الله القرآن نورا بقوله تعالى: ﴿ فَتَأْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنْزَلْنَا ﴾ [التغابن: ٨]، ووصف الكتاب بأنه مبين، فلا بد أن يتبع هذا النور، ولا بد أن تتبع هذا الكتاب، ولا نرد منه شيئا ولو لم توافقته عقولنا.

الدليل الخامس: قوله تعالى: ﴿ حَمَّ ① وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴾ [الدخان: ١، ٢]، وصفه بأنه مبين، أي: لا بد أنه بين الذي يحتاجون إليه، ولم يكن فيه لبس، ولم يكن فيه خفاء، بل هو واضح بين والحمد لله.

الدليل السادس: قول الله تعالى: ﴿ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴾ [يسف: ٢]، وصف الله الكتاب الذي هو هذا القرآن بأنه مبين، أي: مبين واضح يفهمه كل من تأمله.

الدليل السابع: قول الله تعالى: ﴿مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصَدِّقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [يوسف: ١١١]، أي: هذا القرآن ليس حديثًا يُفترى، ومنه هذه القصص كقصة يوسف - عليه السلام - ولكن هذا القرآن تصديق لما بين يديه من الكتب، ومن الرسل، وتفصيل لكل شيء يحتاجون إليه، وذكر أنه هدى يهدي الله به من يشاء، وذكر أنه رحمة للمؤمنين.

الدليل الثامن: قوله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تَبْيِينًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: ٨٩]، هكذا وصف هذا الكتاب إنه تبيان لكل شيء، فإذا لم يقبل منه إلا ما يوافق عقولنا لم نشهد بأنه تبيان لكل شيء، ولا أنه هدى يهدي به ويُستدل به على الأحكام، ولا أنه رحمة من الله لعباده، ولا أنه بشرى للمسلمين، فهذه الآيات وما أشبهها فيها بيان الرد على الذين يقولون: لا نقبل إلا ما توافقه عقولنا.

قال الشارح:

فَأَمْرُ الْإِيمَانِ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ: إِمَّا أَنْ يَكُونَ الرَّسُولُ تَكَلَّمَ فِيهِ بِمَا يَدُلُّ عَلَى الْحَقِّ أَمْ لَا؟ الثَّانِي بَاطِلٌ، وَإِنْ كَانَ قَدْ تَكَلَّمَ عَلَى الْحَقِّ بِالْفَاطِئِ مُجْمَلَةً مُحْتَمَلَةً، فَمَا بَلَغَ الْبَلَاغَ الْمُبِينِ، وَقَدْ شَهِدَ لَهُ خَيْرُ الْقُرُونِ بِالْبَلَاغِ، وَأَشْهَدَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ فِي الْمَوْقِفِ الْأَعْظَمِ، فَمَنْ يَدَّعِي أَنَّهُ فِي أَصُولِ الدِّينِ لَمْ يُبَلِّغِ الْبَلَاغَ الْمُبِينِ، فَقَدْ افْتَرَى عَلَيْهِ ﷺ.

قال الشيخ:

حقاً إنه الإيذان بالله واليوم الآخر قد بلغه النبي ﷺ، وتكلم فيه بما يدل على الحق، وفصله تفصيلاً ظاهراً، ومن أنكر ذلك فقوله باطل، وإذا علمنا بأنه تكلم بالحق، ثم قيل: إنه تكلم على الحق بألفاظ مجملة محتملة كذا وكذا، فليس ذلك بالبيان الذي أمره الله بقوله: ﴿لَتُبَيِّنَنَّ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل: ٤٤]؛ لأنه بينه بألفاظ مجملة، تحتمل كذا وكذا، فلا يُقال: إنه بلغ البلاغ المبين، والواقع الصحيح أنه بلغ الرسالة ونصح الأمة ولما خطبهم في حجة الوداع في عرفة، وكذلك في منى، وفصل لهم الكلام الذي أخبرهم به، وبين لهم المحرمات والمباحات عند ذلك قال: «وَأَنْتُمْ تُسْأَلُونَ عَنِّي، فَمَا أَنْتُمْ قَائِلُونَ؟»، قالوا: نَشْهَدُ أَنَّكَ قَدْ بَلَّغْتَ وَأَدَيْتَ وَنَصَحْتَ - وهؤلاء هم خير القرون الصحابة ﷺ - فقال يَأْصِبَعِي السَّبَابِيَةَ يَرْفَعُهَا إِلَى السَّمَاءِ وَيَنْكُتُهَا إِلَى النَّاسِ:

«اللهم اشْهَدْ، اللهم اشْهَدْ»^(١)، فأشهد الله عليهم في هذا الموقف العظيم الذي

حضره جمع عظيم.

فالذين يدَّعون أنه في أصول الدين لم يُبلغ البلاغ، وأنه لم يُعلم الناس

ما يحتاجون إليه، وإنما أخبرهم بصدق ذلك، أو أخبرهم بأخبار مجملة محتملة.

نقول: قد كذبتهم وافترتكم على النبي ﷺ.

.....

قال الطحاوي:

فَمَنْ رَامَ عِلْمَ مَا حُظِرَ عَنْهُ عِلْمُهُ، وَلَمْ يَقْنَعِ بِالتَّسْلِيمِ فَهَمُّهُ، حَجَبَهُ مَرَامُهُ
عَنْ خَالصِ التَّوْحِيدِ، وَصَافِي المَعْرِفَةِ، وَصَحِيحِ الإِيَانِ.

قال الشارح:

هَذَا تَقْرِيرٌ لِلكَلَامِ الأَوَّلِ، وَزِيَادَةٌ تَحْذِيرٌ أَنْ يُتَكَلَّمَ فِي أَصُولِ الدِّينِ - بَلْ وَفِي
غَيْرِهَا - بِغَيْرِ عِلْمٍ. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ
وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء: ٣٦]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ
مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَرِيدٍ ﴿٣﴾ كَتَبَ حِكْمًا أَنَّهُ مَنْ تَوَلَّاهُ
فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ [الحج: ٣، ٤]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ
مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ ﴿٨﴾ فَإِنَّ عَطْفِيهِ لِيُضِلَّ عَنْ
سَبِيلِ اللَّهِ لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَنَذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْعَذِيقِ﴾ [الحج: ٨، ٩]، وَقَالَ
تَعَالَى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ
الظَّالِمِينَ﴾ [القصص: ٥٠]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنْ يَدْعُونَ إِلَّا لَظَنًّا وَمَا تَهْوَى
الْأَنفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمْ الْهُدَى﴾ [النجم: ٢٣]، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الآيَاتِ
الدَّالَّةِ عَلَى هَذَا المَعْنَى.

قال الشيخ:

الذين يحاولون علم ما حُجِبَ عنهم، أو ما حُظِرَ عنهم علمه، ويتكلفون ولا يقتنعون بالتسليم، ولا ترضى بذلك أفهامهم، فإنهم عن ربهم محجوبون. قوله: (حَبَبَهُ مَرَامُهُ)، يعني: مقصدهم، (عَنْ خَالِصِ التَّوْحِيدِ)؛ لأنهم تكلفوا، فحُجِبُوا عن صافي المعرفة، حُجِبُوا عن صحيح الإيمان؛ لأنهم لم يقتنعوا بأمر الله، ولم يقتصروا على ما أخبرهم الله به، وأخذوا يتكلفون، وأخذوا يصرفون الكلام ويحرفونه عن مواضعه.

قوله: (هَذَا تَقْرِيرٌ لِلْكَلامِ الْأَوَّلِ)، الذي هو وجوب الرضا والتسليم لأمر الله تعالى.

قوله: (وَزِيَادَةٌ تَحْذِيرٌ أَنْ يُتَكَلَّمَ فِي أَصُولِ الدِّينِ)، أي: في العقيدة (بَلْ وَفِي غَيْرِهَا بِغَيْرِ عِلْمٍ)، بل بالظن والهوى والرأي. ثم ذكر أدلة:

الدليل الأول: قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء: ٣٦]، الخطاب للنبي ﷺ، ولكنه عام لكل من تعدى وتكلم بغير علم، أي: لا تتبع الشيء الذي ليس لك به علم، ولا تتخرص فإنك مسؤول، سمعتك وبصرك وفؤادك مسؤولون كلهم عن تخرصك وقولك في الله بغير علم.

الدليل الثاني: قوله - عز وجل -: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ

وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ ﴿٣﴾ كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَنْ تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ ﴿٤﴾ [الحج: ٣، ٤]، هذا قسم من الناس يجادلون في الله بغير علم، يجادلون في أسماء الله، ويجادلون في وحدانية الله، ويجادلون في صفاته، ويجادلون في أمره ونهيه، وليس عندهم علم بذلك، بل يتبعون شياطين الإنس والجن، والشيطان: المرید، هو العاصي، كُتِبَ عَلَى الشَّيْطَانِ أَنَّهُ مَنْ تَوَلَّاهُ - أي: من تَوَلَّاهُ مِنْكُمْ أَيُّهَا الْإِنْسُ - فَإِنَّ الشَّيْطَانَ يَضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ، يَضِلُّهُ عَنِ الْحَقِّ، وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابِ النَّارِ، يُوَقِّعُهُ فِي عَذَابِ النَّارِ، فَكَيْفَ تَجَادِلُونَ فِي اللَّهِ بغير علم، وتتبعون الشيطان؟!!!

الدليل الثالث: قوله - جل وعلا -: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنبِئٍ ﴿٨﴾ ثَانِي عَطْفِهِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَنَذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿٩﴾ [الحج: ٨، ٩]، يجادلون في الله بغير علم، يجادلون في أسمائه وصفاته، يجادلون في وحيه، يجادلون في كلامه، يجادلون في أحكامه، يجادلون في وعده ووعدته، وليس عندهم علم، بل بالظن، وليس عندهم هدى، وليسوا على كتاب مبين كتاب بين، ثم قال: ﴿ثَانِي عَطْفِهِ﴾، يعني: هذا الذي يجادل قد ثنى عطفه، ﴿لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾، أي: ليضل الناس عن سبيل الله، فوعده بكونه ﴿لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ﴾، أي: عذاب وذل وإهانة، ﴿وَنَذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾، أي: هذا جزاؤه في الآخرة.

الدليل الرابع: قوله - جل شأنه -: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [القصص: ٥٠]، أي: لا أضل من هذا الذي اتبع هواه بغير هدى من الله، بل يتبع ما تتمناه نفسه، يتبع ما تمناه نفسه بغير هدى، إنما يتبع الظن ليس عنده دلالة، وليس عنده دليل من الله، هؤلاء الظالمون، ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾.

الدليل الخامس: قوله - عز وجل -: ﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَى﴾ [النجم: ٢٣]، أي: هؤلاء الذين يعبدون الأصنام والذين يعصون الله ويعصون رسوله يتبعون الظن أي التخرص، ويتبعون هوى أنفسهم، ويتبعون آراءهم.

ثم قال: (إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ الدَّالَّةِ عَلَى هَذَا الْمَعْنَى).

قال الشارح:

وَعَنْ أَبِي أَمَامَةَ الْبَاهِلِيِّ رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَا ضَلَّ قَوْمٌ بَعْدَ هُدًى كَانُوا عَلَيْهِ إِلَّا أُوْتُوا الْجَدَلَ تُسَمَّى نَيْلًا: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا﴾ [الزخرف: ٥٨]. رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ، وَقَالَ: حَدِيثٌ حَسَنٌ ^(١).

وَعَنْ عَائِشَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ أَبْغَضَ الرِّجَالِ إِلَى اللَّهِ الْأَلَدُ الْخَصِيمُ». خَرَجَاهُ فِي الصَّحِيحَيْنِ ^(٢).

وَلَا شَكَّ أَنَّ مَنْ لَمْ يُسَلِّمْ لِلرَّسُولِ نَقْصَ تَوْحِيدِهِ، فَإِنَّهُ يَقُولُ بِرَأْيِهِ وَهَوَاهُ، أَوْ يَقْلُدُ ذَا رَأْيٍ وَهَوَىٰ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ، فَيَنْقُصُ مِنْ تَوْحِيدِهِ بِقَدْرِ خُرُوجِهِ عَمَّا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ، فَإِنَّهُ قَدْ اتَّخَذَهُ فِي ذَلِكَ إِلَهًا غَيْرَ اللَّهِ. قَالَ تَعَالَى: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ﴾ [الجاثية: ٢٣]، أَيْ: عَبَدَ مَا تَهَوَّاهُ نَفْسُهُ، وَإِنَّمَا دَخَلَ الْفَسَادُ فِي الْعَالَمِ مِنْ ثَلَاثِ فِرَاقٍ، كَمَا قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الْمُبَارَكِ - رَحِمَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ -:

رَأَيْتُ السُّذُوبَ تُمِيتُ الْقُلُوبَ	وَقَدْ يُوْرثُ السُّذُلُ إِذْمَانُهَا
وَتَسْرِكُ السُّذُوبُ حَيَاةَ الْقُلُوبِ	وَخَيْرٌ لِنَفْسِكَ عِضَانُهَا
وَهَلْ أَفْسَدَ السُّذِينِ إِلَّا الْمُلُوكُ	وَأَحْبَابُ سُوءٍ وَرُهْيَانُهَا ^(٣)

(١) أخرجه الترمذي (٣٢٥٣)، وابن ماجه (٤٨)، وأحمد (٢٥٢/٥).

(٢) البخاري (٢٤٥٧)، ومسلم (٢٦٦٨).

(٣) أخرجه أبو نعيم في الحلية (٢٧٩/٨)، والبيهقي في شعب الإيمان (٤٦٤/٥)، وابن عساکر

في تاريخ دمشق (٤٦٧/٣٢).

قال الشيخ:

حديث أبي أمامة رضي الله عنه يدل على أن الجدل سببه الضلال، إذا كانوا على هدى، وكانوا على بيان، وكانوا على نور وبرهان، ثم ضلوا بعد ذلك الهدى، فلا بد أن يأتوا بالجدل الذي هو: الخصومات والمنازعات وكثرة الردود وكثرة الافتراض، بحيث إن هذا ينقض قول هذا، وهذا يناقض هذا؛ كما قال بعض الشعراء^(١):

حَجَجٌ تَهَاوَتْ كَالزُّجَاجِ تَحَاوَاهَا حَقًّا وَكُلُّ كَاسِرٍ مَكْسُورٌ

أي: أنها مثل الزجاج إذا ضرب بعضه ببعض انكسر الضارب والمضروب، فهكذا حججهم وهكذا جدالهم.

وأشد ابن القيم في كتابه «الصواعق المرسلة»^(٢) مثل هذا فقال:

وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا بَعْمِيَانِ خَلَوْا فِي ظُلْمَةٍ لَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا
فَتَصَادُمُوا بِأَكْفِهِمْ وَعَصِييِهِمْ ضَرْبًا يُدِيرُ رَحَا الْقِتَالِ طَوِيلًا
حَتَّى إِذَا مَلُّوا الْقِتَالَ رَأَيْتَهُمْ مَشْجُوجًا أَوْ مَفْجُوجًا أَوْ مَقْتُولًا
وَتَسَامَعَ الْعَمِيَانُ حَتَّى أَقْبَلُوا لِلصُّلْحِ فَازْدَادَ الصَّبِيحُ حَسِيْلًا

فهكذا حجج هؤلاء.

(١) انظر: الانتصار لأصحاب الحديث (ص ٧٢)، ودرء التعارض (٧/ ٣١٤).

(٢) (٣/ ٩٨١).

يقول ﷺ في حديث عائشة - رضي الله عنها -: «إِنَّ أَبْغَضَ الرَّجَالِ إِلَى اللَّهِ الْأَلْدُ الْخَصِيمُ»، مأخوذ من قول الله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَتَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَرِيدٍ﴾ [الحج: ٣]، وقول الله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهَدُ اللَّهُ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ - وَهُوَ أَلْدُ الْخَصَامِ﴾ [البقرة: ٢٠٤]، يعني: أنه خصم وأنه شديد الخصومة، والألد: هو الشديد في الخصام، فهو بغيض إلى الله تعالى.

يقول - رحمه الله -: (وَلَا شَكَّ أَنَّ مَنْ لَمْ يُسَلِّمْ لِلرَّسُولِ ﷺ)، يعني: في كل ما جاء به، ويتقبل كل ما بلغه فإنه (نَقَصَ تَوْحِيدَهُ)، قد نقص توحيده، (فَإِنَّهُ يَقُولُ بِرَأْيِهِ وَهَوَاهُ)، أي: إن ما يقوله كله رأي ليس عليه دليل، وإنما يتبع ما تهواه نفسه، أو يقلد غيره من أهل الأهواء والآراء بغير هدى من الله، يتبع أقوالهم وهم ليسوا على نور ولا برهان، فينقص بذلك توحيده، ينقص منه بقدر خروجه عما جاء به الرسول ﷺ؛ لأنه لم يسلم للرسول ﷺ، فيكون قد اتخذ في ذلك إلهًا غير الله حيث لم يرخص بحكم الله، ولم يرخص بشرعه الذي جاء به الرسول، وجعل دينه تبعًا لما تهواه نفسه، فيدخل في قول الله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهُهُ هَوَاهُ﴾ [الجن: ٢٣]، أي: اتخذ ما يهواه إلهًا، أي: لا يهوى شيئًا إلا ركبته، حتى قال بعض العلماء: ما تحت أديم السماء إله يُعبد شر من هوى متبع، الذي كل ما تهواه نفسه، وكل ما تميل إليه يتخذه إلهًا، أي: يعظمه ويتبع ما يجيء به، فالذي يعبد ما تهواه نفسه يكون ضالًا.

قوله: (وَأَتَمَّا دَخَلَ فَسَادُ فِي الْعَالَمِ مِنْ ثَلَاثِ فِرْقٍ)، كما أنشد ذلك عبد الله

ابن المبارك رحمه الله، فقال:

رَأَيْتُ الذُّنُوبَ تُمِيتُ الْقُلُوبَ وَقَدْ يُورِثُ الذُّلَّ إِذْمَامُهَا

فالإصرار على الذنوب سبب لموت القلوب، فإن كل من أذنب ذنباً نُكِتَ في قلبه نكتة سوداء إلى أن تغطي قلبه، وكذلك يُريه الذل إذا أدمن على الذنوب، يكون ذليلاً عند الله تعالى وعند عباده، أبى الله إلا أن يذل من عصاه؛ كما قال ذلك بعض السلف - رحمه الله - في أهل الذنوب: «إنهم وإن طقطقت بهم البغال، وهملجت بهم البراذين، فإن ذل المعصية لا يفارق قلوبهم، أبى الله إلا أن يذل من عصاه».

ثم يقول:

وَتَسْرُكُ الذُّنُوبِ حَيَاةُ الْقُلُوبِ وَخَيْرٌ لِنَفْسِكَ عِصْيَانُهَا

أي: الذي يترك الذنوب ويعمل الصالحات يكون سبباً في حياة قلبه واستنارته، (وَخَيْرٌ لِنَفْسِكَ عِصْيَانُهَا)، النفس الأمارة بالسوء خير لك أن تعصيها، وأن تخالف ما تأمرك به من المعاصي ونحوها.

ثم قال:

وَهَلْ أَفْسَدَ الدِّينَ إِلَّا الْمُلُوكُ وَأَحْبَارُ سُوءٍ وَرُهْبَانُهَا

هؤلاء الثلاثة: الملوك الذين يتسلطون على البشر، والأحبار: الذين هم علماء سوء، والرهبان: الذين هم عباد سيئون.

قال الشارح:

فَالْمُلُوكُ الْجَائِرَةُ يَعْتَرِضُونَ عَلَى الشَّرِيعَةِ بِالسِّيَاسَاتِ الْجَائِرَةِ، وَيَعَارِضُونَهَا بِهَا، وَيَقْدُمُونَهَا عَلَى حُكْمِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ.

وَأَحْبَابُ السُّوءِ: وَهُمْ الْعُلَمَاءُ الْخَارِجُونَ عَنِ الشَّرِيعَةِ بِأَرَائِهِمْ وَأَقْيَسَتِهِمْ
الْفَاسِدَةِ، الْمُتَضَمِّنَةُ تَحْلِيلَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ، وَتَحْرِيمَ مَا أَبَاحَهُ، وَاعْتِبَارَ مَا
أَلْغَاهُ، وَإِلْغَاءَ مَا اعْتَبَرَهُ، وَإِطْلَاقَ مَا قَيَّدَهُ، وَتَقْيِيدَ مَا أَطْلَقَهُ، وَنَحْوُ ذَلِكَ.

وَالرُّهْبَانُ: وَهُمْ جُهَّالُ الْمُتَصَوِّفَةِ، الْمُعْتَرِضُونَ عَلَى حَقَائِقِ الْإِيمَانِ وَالشَّرْعِ،
بِالْأَذْوَابِ وَالْمَوَاجِيدِ وَالْخَيَالَاتِ وَالْكُشُوفَاتِ الْبَاطِلَةِ الشَّيْطَانِيَّةِ، الْمُتَضَمِّنَةِ شَرْعَ
دِينٍ لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ، وَإِبْطَالَ دِينِهِ الَّذِي شَرَعَهُ عَلَى لِسَانِ نَبِيِّهِ ﷺ، وَالتَّعَوُّضَ عَنْ
حَقَائِقِ الْإِيمَانِ بِخُدَعِ الشَّيْطَانِ وَحُظُوظِ النَّفْسِ.

قال الشيخ:

هكذا الملوك الجائرون يعترضون على الشريعة بالسياسات، فيقولون:
لا بد أن نحكم الناس بهذه السياسات ونترك ما يعارضها، مما لم يوافق أقيستنا،
فيحكمون بالقوانين الوضعية، ويغيرون شرع الله تعالى، فأباحوا الزنى إذا كان
برضا الطرفين، واعترضوا على شرع الله، وأباحوا الخمر، وقالوا: إنها أشربة
طيبة، وأباحوا المعاملات الربوية الصريحة وقدموها على حكم الله ورسوله،
وقدموا حكمهم الذي تلقوه عن طواغيتهم على أحكام الله تعالى الشرعية، ولم
يحكموا شرع الله، فهو لاء أفسدوا الدين بقدر ما وصلوا إليه.

أما الأخبار: الذين هم العلماء الخارجون عن الشريعة، فإنهم أفسدوه بأرائهم وأقيستهم الفاسدة، التي تتضمن تحليل ما حرم الله ورسوله، وتحريم ما أباحه، فحرموا الحلال، وحلوا الحرام بأهوائهم، واعتبروا ما ألغاه الله تعالى ورسوله، وألغوا كثيراً مما اعتبره، وأطلقوا ما قيد الله ورسوله، وقيدوا ما أطلقه الله ورسوله، فكونوا بذلك أرباباً يدخلون في قول الله تعالى: ﴿ أَخَذُوا أَحْبَابَهُمْ وَرَهْبَتَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ [التوبة: ٣١]، لما سمع هذه الآية عدي بن حاتم رضي الله عنه قال: (إنهم لم يعبدوهم)، فقال له رضي الله عنه: «أليس يُحْرَمُونَ مَا أَحَلَّ اللَّهُ فَتُحْرَمُونَهُ، وَيُحْلُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَتَسْتَحِلُّونَهُ؟»، يعني: أنهم يحرمون الحلال ويحلون الحرام، قال: «فَتِلْكَ عِبَادَتُهُمْ»^(١).

ثم قال: (الرُّهْبَانُ: وَهُمْ جُهَّالُ الْمُتَصَوِّفَةِ، الْمُعْتَرِضُونَ عَلَى حَقَائِقِ الْإِيمَانِ وَالشَّرْعِ، بِالْأَدْوَابِ وَالْمَوَاجِيدِ وَالْخَيَالَاتِ وَالْكُشُوفَاتِ الْبَاطِلَةِ الشَّيْطَانِيَّةِ، الْمُتَضَمِّنَةِ شَرْعِ دِينٍ لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ، وَإِبْطَالِ دِينِهِ الَّذِي شَرَعَهُ عَلَى لِسَانِ نَبِيِّهِ ﷺ، وَالتَّعَوُّضِ عَنْ حَقَائِقِ الْإِيمَانِ بِخُدْعِ الشَّيْطَانِ وَحُظُوظِ النَّفْسِ)، يقول بعض الشعراء كما أنشد ذلك ابن القيم في كتابه الذي سماه «إغاثة اللهفان»^(٢):

بِئْسَ قُلْتُ قَالَ اللَّهُ قَالَ رَسُولُهُ هَمَزُوكَ هَمَزَ الْمُنْكَرِ الْمُتَغَالِي

(١) أخرجه الترمذي (٣٠٩٥)، وابن جرير الطبري (١١٤/١٠)، والبخاري في التاريخ الكبير

(١٠٦/٧)، والبيهقي (١١٦/١٠).

(٢) (٢٣٢/١).

أَوْ قُلْتَ قَدْ قَالَ الصَّحَابَةُ وَالْأُولَى
 أَوْ قُلْتَ قَالَ الْأَلُّ أَلُّ الْمُصْطَفَى
 أَوْ قُلْتَ قَالَ الشَّافِعِيُّ وَأَخْمَدُ
 أَوْ قُلْتَ قَالَ صَحَابُهُمْ مِنْ بَعْدِهِمْ
 وَيَقُولُ قَلْبِي قَالَ لِي عَنْ سِرِّهِ
 عَنْ حَضْرَتِي عَنْ فِكْرَتِي عَنْ خَلْوَتِي
 عَنْ صَفْوِ وَقْتِي عَنْ حَقِيقَةِ مَشْهَدِي
 دَعْوَى إِذَا حَقَّقْتَهَا أَلْفَيْتَهَا
 تَرَكَوْا الْحَقَائِقَ وَالشَّرَائِعَ وَاقْتَدَوْا
 تَبْهُوهُمْ فِي الْقَوْلِ وَالْأَعْمَالِ
 صَلَّى عَلَيْهِ اللَّهُ أَفْضَلُ آلِ
 وَأَبُو حَنِيفَةَ وَالْإِمَامُ الْعَالِي
 فَالْكُلَّ عِنْدَهُمْ كَشِبَهُ خَيَالِ
 عَنْ سِرِّ سَرِّي عَنْ صَفَا أَحْوَالِي
 عَنْ شَاهِدِي عَنْ وَارِدِي عَنْ حَالِي
 عَنْ سِرِّ ذَاتِي عَنْ صِفَاتِ فِعَالِي
 أَلْقَابَ زُورٍ لَفَّقْتُ بِمُحَالِ
 بِظَوَاهِرِ الْجُهَالِ وَالضُّلَالِ

هكذا حال هؤلاء المتصوفين، فإن أحدهم يقول: قال لي قلبي عن ربي،
 حدثني قلبي عن ربي، ويقول: لا أوافق شيئاً يخالف ما في قلبي، وما تتحدث
 بي نفسي، يُخيل إليهم أنهم على صواب في تلك البدع التي تخيلوها، والتي
 يحسبونها حقائق وهي في الحقيقة خيالات لا أصل لها.

قال الشارح:

فَقَالَ الْأَوْلُونَ: إِذَا تَعَارَضَتِ السِّيَاسَةُ وَالشَّرْعُ قَدَّمْنَا السِّيَاسَةَ! وَقَالَ
الْآخَرُونَ: إِذَا تَعَارَضَ الْعَقْلُ وَالنَّقْلُ قَدَّمْنَا الْعَقْلَ! وَقَالَ أَصْحَابُ الذُّوقِ: إِذَا
تَعَارَضَ الذُّوقُ وَالْكَشْفُ، وَظَاهِرُ الشَّرْعِ قَدَّمْنَا الذُّوقَ وَالْكَشْفَ.

قال الشيخ:

قوله: (فَقَالَ الْأَوْلُونَ: إِذَا تَعَارَضَتِ السِّيَاسَةُ وَالشَّرْعُ قَدَّمْنَا السِّيَاسَةَ)،
الأولون: هم الملوك ومن حول الملوك الذين يقدمون السياسية على الشرع،
وفي نظرهم أن السياسة تسوس الناس، وأنها تحركهم، وأن السياسة تكون سبباً
لاستقامتهم؛ فلأجل ذلك يقدمون السياسة على الشرع، ولا شك أن الشرع هو
الأصل وهو المقدم، وهو الذي فيه سياسة الناس، وفيه إقامتهم على الحق، وفيه
تهذيبهم، وفيه حثهم على الطاعات وعلى الامتثال، وقد ألف شيخ الإسلام ابن
تيمية - رحمه الله - الرسالة المشهورة «السياسة الشرعية في إصلاح الراعي
والرعية»، ويبيّن في هذه الرسالة أن الشريعة فيها سياسة الناس بما يهذبهم، وبما
يستقيمون به، وبما يعملون به العمل الذي فيه ضبطهم، وعدم خروجهم عن
الشريعة، وعن ما يصلح الناس، فهكذا تكون السياسة الشرعية، وقد بين
فيها - رحمه الله - حال الأمراء الذين يسوسون الناس، ويبيّن أنهم إذا كانوا ظلمة
جائرين فإن الناس يمقتونهم ويغضونهم، كما حصل في ولاية الحجاج بن
يوسف، فإن الناس أبغضوه لقوته ولشراسته، ولأخذه بالتهمة، ولظلمه ولقتله

الكثير، ولحبسه الكثير من الناس، زعمًا أن هذا هو السياسة التي يسوس بها الناس، والتي يتهدبون بها، ولما جاء بعده عمر بن عبدالعزيز - رحمه الله - وعدل في الناس سمعوا له وأطاعوا، ولم يخرجوا عليه، ولم يظلم في ولايته أحدًا أحدًا، مما يدل على أن السياسة هي بالشرعية التي هي: أوامر الله تعالى، وإقامة حدوده، فالملوك والأمراء ونحوهم يسوسون الناس بإقامة الحدود، فيرجعون الزاني أو يجلدونه إذا ثبت ذلك عليه، أو قامت التهمة نحوه، ويقطعون يد السارق؛ حتى يأمن الناس على أموالهم، ويجلدون القاذف، ويقيمون الحدود على قطاع الطريق بما ذكر الله من قوله: ﴿لَا أَنْ يَقْتُلُوا أَوْ يُكَلِّبُوا أَوْ نَقَطَعُ أَيْدِيَهُمْ وَأَرْجُلَهُمْ مِّنْ خَلْفٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ﴾ [المائدة: ٣٣]، وكذلك يقتلون أهل الردة، ويقتلون السحرة ونحوهم، ويجلدون شارب الخمر أو يقتلونه، إذا تكرر ذلك منه أربع مرات، فإذا كانوا كذلك فإن الناس يطيعون ويستسلمون، ويكون ذلك سببًا في استقامتهم، وعدم عصيانهم، وعدم خروجهم، وبذلك تكون السياسة هي الشرعية.

أما أن تُقدم السياسة التي فيها قتل وسجن وظلم، يجسسون أو يقتلون بالتهمة، أو يسلبون الأموال، وينكسرون بالثهم، ويجسسون من ليس أهلاً أن يجبس ونحو ذلك، فإن ذلك لا يكون سببًا في العدل، ولا في الطمأنينة ولا في إراحة الناس، ولا في موافقتهم وسمعهم وطاعتهم.

قوله: (وَقَالَ الْآخَرُونَ)، الآخرون: هم أهل الكلام الذين يقولون: (إذا

تَعَارَضَ الْعَقْلُ وَالنَّقْلُ قَدَّمْنَا الْعَقْلَ، وشبهتهم يقولون: إنما عرفنا صدق الرسل بالعقل، فإذا جاؤوا بشيء يخالف العقل لم نقبله؛ لأننا نعرف أنهم جاؤوا بما يوافق العقل، فنقدم العقل وما دل عليه.

قد يُقال: إن هذا صحيح في الأمور العادية والمعلومة، ولكن لا يُقال: إن الرسل جاؤوا بما يخالف العقل، بل جميع الشريعة توافق العقل وتصدقه، وكذلك أيضًا الأخبار الأخروية، فالخبر عن عذاب القبر، والبعث والنشور، والأخبار عن ربنا - سبحانه وتعالى - وعما يليق به من الصفات، كل ذلك نصدق به ولو خالف عقولاً ليست مستقيمة، بل نقول: إن الأصل هو النقل، الأصل هو الشرع، فنقدم الشرع على هذه العقول المضطربة، ونبين أن تلك العقول التي يردون بها النقل، ويردون بها الشرع عقول مضطربة؛ ولأجل ذلك يقع بينهم كثير من الاختلاف، فيكون هناك اثنان كلاهما ذكي وكلاهما عاقل، ومع ذلك يختلفان، هذا يقول: أقر بكذا؛ لأن العقل وافقه، وهذا يقول: أنفيه وأنكره؛ لأن العقل لم يوافق.

كذلك قد ينكر بعضهم شيئاً وقتاً طويلاً، ويقول: إن العقل قد خالفه، ثم بعد مدة يعترف به ويقول: إن العقل يوافق، شخص واحد يوافق عقله مرة، ثم يخالف مرة أخرى.

على هذا فإن الأصل هو النقل والشرع، يُقدم على تلك العقول، ونسلم ما جاء به النقل والشرع، ولو أنكر ذلك من أنكره.

قوله: (وَقَالَ أَصْحَابُ الدُّوقِ)، وهم المتصوفة، وكذلك غلاة الصوفية،

وغلاة القبوريين، وغلاة المتكلمين في هذه المواجيد وما أشبهها، فإنهم يقولون: (إِذَا تَعَارَضَ الذَّوْقُ وَالْكَشْفُ، وَظَاهِرُ الشَّرْعِ قَدَّمَنا الذَّوْقَ وَالْكَشْفَ)، والجواب: أن هذا خطأ، وأن الواجب تقديم الشرع على الأذواق، وعلى المواجيد، وعلى الكشوفات، وما أشبهها؛ لأن هذه الأذواق حادثة ولا أصل لها، ولأنها مختلفة ومضطربة، وهكذا أيضًا ما يدعونه من الكشوفات، وأنه يُكشَفُ لهم عن أمور غيبية، وأنهم يطلعون على الأمور الغائبة ونحو ذلك، وأن عندهم أذواقًا بقلوبهم ومواجيد.

كل هذه ليس لها أصل، وليس لها شرع، والواجب أن ننكرها، وأن نردها ونقدم عليها ظاهر الشرع، وبذلك نكون مستسلمين لأمر الله تعالى، ومطيعين له.

قال الشارح:

وَمِنْ كَلَامِ أَبِي حَامِدٍ الْغَزَالِيِّ - رَحِمَهُ اللَّهُ - فِي كِتَابِهِ الَّذِي سَمَّاهُ «إِحْيَاءَ عُلُومِ الدِّينِ»، وَهُوَ مِنْ أَجْلِ كُتُبِهِ، أَوْ أَجْلَهَا: «فَإِنْ قُلْتَ: فَعِلْمُ الْجَدَلِ وَالْكَلامِ مَدْمُومٌ كَعِلْمِ النُّجُومِ، أَوْ هُوَ مُبَاحٌ أَوْ مَنْدُوبٌ إِلَيْهِ؟ فَاعْلَمْ أَنَّ لِلنَّاسِ فِي هَذَا عُلُومًا وَإِسْرَافًا فِي أَطْرَافٍ:

فَمِنْ قَائِلٍ: إِنَّهُ بِدْعَةٌ وَحَرَامٌ، وَإِنَّ الْعَبْدَ أَنْ يَلْقَى اللَّهَ بِكُلِّ ذَنْبٍ سِوَى الشَّرِكِ خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَلْقَاهُ بِالْكَلامِ.

وَمِنْ قَائِلٍ: إِنَّهُ فَرَضٌ، إِمَّا عَلَى الْكِفَايَةِ، وَإِمَّا عَلَى الْأَعْيَانِ، وَإِنَّهُ أَفْضَلُ الْأَعْمَالِ وَأَعْلَى الْقُرْبَاتِ، فَإِنَّهُ تَحْقِيقٌ لِعِلْمِ التَّوْحِيدِ، وَنِضَالٌ عَنِ دِينِ اللَّهِ. قَالَ: وَإِلَى التَّحْرِيمِ ذَهَبَ الشَّافِعِيُّ وَمَالِكٌ وَأَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ وَسُفْيَانُ وَجَمِيعُ أئِمَّةِ الْحَدِيثِ مِنَ السَّلَفِ. وَسَاقَ الْأَلْفَاظَ عَنْ هَؤُلَاءِ.

قَالَ: وَقَدْ اتَّفَقَ أَهْلُ الْحَدِيثِ مِنَ السَّلَفِ عَلَى هَذَا. لَا يَنْحَصِرُ مَا نُقِلَ عَنْهُمْ مِنَ التَّشْدِيدَاتِ فِيهِ، وَقَالُوا: مَا سَكَتَ عَنْهُ الصَّحَابَةُ - مَعَ أَنَّهُمْ أَعْرَفُ بِالْحَقَائِقِ، وَأَفْصَحُ بِتَرْتِيبِ الْأَلْفَاظِ مِنْ غَيْرِهِمْ - إِلَّا لَمَّا يَتَوَلَّدُ مِنْهُ مِنَ الشَّرِّ؛ وَلِذَلِكَ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «هَلَكَ الْمُتَنَطِّعُونَ»^(١)، أَي: الْمُتَعَمِّقُونَ فِي الْبَحْثِ وَالِاسْتِقْصَاءِ.

وَاحْتَجُّوا أَيْضًا بِأَنَّ ذَلِكَ لَوْ كَانَ مِنَ الدِّينِ لَكَانَ أَهَمُّ مَا يَأْمُرُ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَيُعَلِّمُ طَرِيقَهُ، وَيُنَبِّئُ عَلَى أَرْبَابِهِ. ثُمَّ ذَكَرَ بَيِّنَةً اسْتِدْلَالَهُمْ، ثُمَّ ذَكَرَ اسْتِدْلَالَ

(١) أخرجه مسلم (٢٦٧٠) من حديث عبد الله بن مسعود ؓ.

الْفَرِيقِ الْآخِرِ. إِلَى أَنْ قَالَ: فَإِنْ قُلْتَ: فَمَا الْمُخْتَارُ عِنْدَكَ؟ فَأَجَابَ بِالتَّفْصِيلِ، فَقَالَ: فِيهِ مَنْفَعَةٌ، وَفِيهِ مَضَرَّةٌ: فَهُوَ بِاعْتِبَارِ مَنْفَعَتِهِ فَهُوَ فِي وَقْتِ الْإِنْتِفَاعِ حَلَالٌ أَوْ مَنْدُوبٌ أَوْ وَاجِبٌ، كَمَا يَفْتَضِيهِ الْحَالُ. وَهُوَ بِاعْتِبَارِ مَضَرَّتِهِ فِي وَقْتِ الْإِسْتِضْرَارِ وَمَحَلِّهِ حَرَامٌ.

قال الشيخ:

يريد بذلك علم الكلام، لاشك أن السلف - رحمهم الله - لم يتكلموا في علم الكلام، ولا في علم الجدل، بل كانوا ينهون عنه، ويتعدون عن مجالسة أهل الجدل، وعن علم الكلام، وعن الإصغاء إلى شبهتهم، وإلى كلامهم، وقد نقل ابن بطة - رحمه الله - في «الإبانة» كثيراً من كلام السلف في تحذيرهم عن الإصغاء إلى أهل الكلام، والسماع لكلامهم أو مجادلتهم، حتى ولو كانوا يجادلون بآيات وأحاديث، ويقولون: نخشى أن يؤولوها وأن يظهرها معنى يخالف المتبادر منها، وأن يعلق ذلك بأسماعنا وقلوبنا، ويصعب علينا إخراج ذلك الذي علق بقلوبنا، فكانوا يتعدون عن المتكلمين وأهل الجدل، إلا المجادلة بالتي هي أحسن لمن يقصد الحق؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾ [العنكبوت: ٤٦]، وقوله تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَدِلْ لَهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥]، وأما كثرة الخصومات والتشكيك ونحو ذلك، فإنه

منهي عنه، وفيه نزل قول الله تعالى: ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ ﴾ [الحج: ٣]، يجادلون في الله بغير علم، ويتبعون أقوال شياطين الإنس والجن، وقال - جل وعلا -: ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهَدُ اللَّهُ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ ۖ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ ۗ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ ﴾ [البقرة: ٢٠٤، ٢٠٥]، فحذر من مثل هؤلاء، ونهى الله تعالى عن مجالستهم، فقال - عز وجل -: ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي ۖءِ آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ ۗ ﴾ [الأنعام: ٦٨]، وقال تعالى: ﴿ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكُتُبِ أَنَّ إِذَا سَمِعْتُمُ آيَاتَ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ ۗ إِنَّكُمْ إِذَا مَثَلْتُمْ ﴾ [النساء: ١٤٠].

فالخاص: أن علم الجدل وعلم الكلام بدعة ومحدثه ليس له أصل، ولا يجوز أن يُصار إليه، ولكن قد يجوز تعلمه لأجل مخاصمة أهله، وقطع شبهاتهم، فإن شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - تعلم علم المنطق؛ ليرد على أهله ردًا واضحًا، ويبين شبهاتهم، كما فعل في كتابه «الرد على المنطقيين»، من ذم المنطق ونحو ذلك، وما يوجد أيضًا في كلامه من ذكر حكايات أقول المتكلمين يريد بذلك مناقشتها، كما في كتابه «نقض المنطق»، وكذلك في كتابه «درء تعارض العقل والنقل»، فقد توسع فيه، وكذلك أيضًا في كتابه الكبير الذي رد فيه على علماء الكلام الذي سماه «نقض التأسيس في الرد على أساس

التقديس»، و«التأسيس» رسالة للفخر الرازي، أكد فيها ما هم عليه من العقيدة السيئة، فنقضها شيخ الإسلام بأدلة قاطعة، حتى لا تروج على الناس. كذلك أيضًا السلف - رحمهم الله - لم يتكلموا بهذا، فلم يتكلموا في الأعراض، ولا في الأبعاض، ولا في الجوهر، ولا في توليد مثل هذه الكلمات، بل الأصل أنهم أعرضوا عنها، وقد أنكر ذلك السلف كما في كلام لعمر بن عبدالعزيز - رحمه الله - أورده ابن قدامة في رسالته «لمعة الاعتقاد»^(١) لما ذكر مثل هذا الخبر، أنكره وحذر منه، ثم قال: «وقال عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه: كلامًا معناه: قف حيث وقف القوم، فإنهم عن علم وقفوا، وببصر نافذ كفوا، ولهم على كشفها كانوا أقوى، وبالفضل لو كان فيها أحرى، فلئن قلت: حدث بعدهم» - يعني: هذا العلم حادث بعدهم - يقول: «فما أحدثه إلا من خالف هديهم ورغب عن سنتهم» وهم هؤلاء المجادلون، فهم الذين ولدوه وأحدثوه، «ولقد وصفوا منه ما يشفي، وتكلموا منه بما يكفي، فما فوقهم محسر، وما دونهم مقصر، لقد قصر عنهم قوم فجفوا، وتجاوزهم آخرون فغلوا، وإنهم فيما بين ذلك لعلى هدى مستقيم». انتهى كلامه رحمه الله.

ومعنى كلامه: أنه لو كان فيه خير لكان السلف أقوى وأحرى أن يحصلوا على ذلك الخير ويحصلوه، فإنهم أحرص على الخير، ولكن تركوه؛ لعلمهم أنه لا خير في هذا الجدل وفي هذا الكلام ونحو ذلك.

وذكر شيخ الإسلام - رحمه الله - أيضًا في «الحموية» كلامًا لبعض العلماء، وفي آخرها ذكر ذم الشافعي - رحمه الله - وغيره لعلم الكلام، قال الشافعي - رحمه الله -: «حُكْمِي فِي أَهْلِ الْكَلَامِ أَنْ يُضْرَبُوا بِالْجَرِيدِ وَالنَّعَالِ، وَيُطَافَ بِهِمْ فِي الْقَبَائِلِ وَالْعَشَائِرِ، وَيُقَالَ: هَذَا جَزَاءُ مَنْ تَرَكَ الْكِتَابَ وَالسُّنَّةَ وَأَقْبَلَ عَلَى الْكَلَامِ»^(١).

وهذا كله ظاهر للتحذير منه، ويُرجع إلى كتاب «الإبانة» لابن بطة، وغيره من الكتب التي نقلت هذه الآثار بالأسانيد، وكذلك كتاب «البدع والنهي عنها» لابن وضاح، وغيرها من الكتب.

فيقول: «مَعَ أَنَّهُمْ أَعْرَفُ بِالْحَقَائِقِ، وَأَفْصَحُ بِتَرْتِيبِ الْأَلْفَاظِ مِنْ غَيْرِهِمْ»، أي: أنه لو كان فيه خير لبيئوه، ولكنهم سكتوا عنه (لِمَا يَتَوَلَّدُ مِنْهُ مِنَ الشَّرِّ)، واستدل بقول النبي ﷺ: «هَلَكَ الْمُتَنَطِّعُونَ»^(٢)، قال: (أي: الْمُتَعَمِّقُونَ فِي الْبَحْثِ وَالْإِسْتِقْصَاءِ)، وما ذُكِرَ أَنَّهُ ﷺ أَخْبَرَ عَنِ شَرِّ النَّاسِ، وَوَصَفَهُمْ بِأَنَّهُمْ: الْمُتَشَدِّقُونَ الْمُتَنَطِّعُونَ الْمُتَفِيهِقُونَ الْمُتَكَبِّرُونَ، فيجب أن يُحذَر منهم.

ثم ذكر أنهم (اِحْتَجَّجُوا أَيْضًا بِأَنَّ ذَلِكَ لَوْ كَانَ مِنَ الدِّينِ لَكَانَ أَهَمَّ مَا يَأْتُرُّ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وَيَعْلَمُ طَرِيقَهُ، وَيُنْزِي عَلَى أَرْبَابِهِ)، فلما لم يفعل دَلَّ ذلك على أنه لا خير فيه، وأنه ضرر وشر محض يجب أن يُترك، ولا تُقرأ كتبهم

(١) تقدم تخريجه (١٢٩/١).

(٢) تقدم تخريجه (٢٤٠/٢).

التي تحتوي على ذلك، سواء في كتب التفسير التي ملؤها بمثل هذه الشبهات، كـ«التفسير الكبير» للرازي، فإنه عندما تكلم على آية الاستواء: ﴿ثُمَّ أَسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾ [الأعراف: ٥٤]، وَلَدَّ شَبَهَاتٍ عَقْلِيَّةٍ لَا أَهْمِيَّةَ لَهَا، وكذلك في كثير من الآيات التي تطرق لها، وكذلك أيضًا في كتاب «الإرشاد»، وغيره من الكتب التي تحتوي على هذه الكلمات، وعلى هذه الاصطلاحات، وكذلك أيضًا شروحه لكتب عقائدهم، كشروحهم لكتب أبي الحسن الأشعري، فإنه تكلم في كتبه القديمة على ما هو مخالف للحق، فإن أبا الحسن الأشعري - رحمه الله - كان في أول أمره معتزليًا، تتلمذ على المعتزلة: كأبي الهذيل، وأبي هاشم الجبائي، ونحوهما، ثم ترك طريقته وتلمذ على ابن كلاب، وأكثر كتبه على طريق ابن كلاب، ثم رجع عن ذلك كله وأخذ طريقة الإمام أحمد - رحمه الله - كما في رسالته «الإبانة».

وعلى كل حال: فكتبهم التي فيها توليد هذا الكلام، الأولى وننصح

طالب العلم أن لا يقرأ فيها؛ لذلك يقول ابن القيم - رحمه الله - في النونية^(١):

فَانظُرْ تَرَىٰ لَكِنِّ نَرَىٰ لَكَ تَرَكُّهَا حَذَرًا عَلَيْكَ مَصَائِدِ الشَّيْطَانِ

أي: انظر في كتبهم ترى فيها العجائب، ولكن الأفضل لك أن تتركها، وتبتعد عنها، ولا تقرأ فيها، حذرًا أن تزل بك قدم بعد ثبوتها، وأن يتعلق شيء من معانيها بقلبك، فيصعب عليك بعد ذلك التخلص منه.

(١) انظر: النونية بشرح ابن عيسى (٧٢/٢).

فهذا هو ما كان عليه السلف الصالح - رحمهم الله - وأهل الحديث من السلف والأئمة، كالشافعي ومالك وأحمد وسفيان الثوري ونحوهم، كلهم حذروا من علم الكلام.

وأما الفريق الآخر الذين يقولون: إنه مباح، فلعلهم أرادوا فيمن عنده معرفة بالعقيدة السليمة، بحيث إنه لا ينخدع إذا قرأ في تلك الكتب، وقرأ ذلك الكلام بحيث يكون على عقيدة سليمة، هكذا قالوا: إنه مباح لمن لا يتأثر إذا قرأ فيه.

وكذلك الذين قالوا: إنه مستحب أو مندوب أو نحو ذلك، وأما الذين قالوا: (إِنَّهُ فَرَضٌ، إِمَّا عَلَى الْكِفَايَةِ، وَإِمَّا عَلَى الْأَعْيَانِ)، فهؤلاء هم غلاة المتكلمين، وقد تكلم أبو حامد الغزالي - رحمه الله - في أول كتابه «المستصفى» في أصول الفقه، وذكر مقدمة في كتابه مدح بها علم الكلام، وجعله من العلوم الشرعية - أي: من العلوم الدينية - وسأواه بالحديث والتفسير ونحو ذلك، ولعله قصد بذلك من كان عنده معرفة بالعقيدة السليمة، بحيث إنه لا يتأثر، وكتابه هذا الذي هو «إحياء علوم الدين»، فيه مواعظ، وفيه حكم؛ لأن أبا حامد قد أوتي ذكاء وفطنة، فكان إذا تكلم عن الموضوع أوسع وبين ما يتكلم به، ولكن كتابه دليل على أنه لم يتوغل في علم الحديث، فالآثار التي فيه والأحاديث ليست صحيحة، بل الأكثر منها أو كلها إلا ما قلَّ موضوعه أو ضعيفة شديدة الضعف، وهذا دليل على أنه ليس من أهل الحديث، وقد كان عنده علم بالفلسفة، وندم على تركه لعلم الحديث، ومات وصحيح البخاري

على صدره، كما ذكر ذلك في هذا الشرح.

وقد حذر كثير من العلماء من كتابه «إحياء علوم الدين»، ولعل السبب ما فيه من الموضوعات التي فيها شيء من الفلسفة، وكذلك أيضًا الأحاديث المكذوبة والموضوعة، وإلا فإنه كتاب مفيد، كما ذكر الشارح أنه (مِنْ أَجْلِ كُتُبِهِ، أَوْ أَجْلِهَا)، يعني: فيما يتعلق بالمواعظ والكلام على الحقائق، والكلام على الآداب والأخلاق ونحو ذلك.

ثم قال - رحمه الله -: (فِيهِ مَنَفَعَةٌ، وَفِيهِ مَضَرَّةٌ)، أي: علم الكلام فيه منفعة ومضرة، فإذا كان فيه مضرة، فهو لا يجوز التعمق فيه، ولا الكلام فيه؛ لأجل خطره الذي يتأثر به القارئ في العقيدة، وأما إذا وجدت فيه منفعة خاصة لمن هم من أهل الإيمان ومن أهل المعرفة فإنه (حَلَالٌ أَوْ مَنْدُوبٌ أَوْ وَاجِبٌ، كَمَا يَقْتَضِيهِ الْحَالُ)، هكذا فَصَّلَ، ولكل مقام مقال، والأولى الاختصار على الأدلة وكتب الأحاديث وكتب التفاسير الصحيحة السليمة.

قال الشارح - رحمه الله - نقلاً عن الغزالي:

قال: فَأَمَّا مَضَرَّتُهُ، فَأِثَارَةُ الشُّبُهَاتِ، وَتَحْرِيفُ الْعَقَائِدِ وَإِزَالَتُهَا عَنِ الْجَزْمِ وَالتَّصْمِيمِ، وَذَلِكَ مِمَّا يَحْضُلُ بِالْإِبْتِدَاءِ، وَرُجُوعُهَا بِالدَّلِيلِ مَشْكُوكٌ فِيهِ، وَيَخْتَلَفُ فِيهِ الْأَشْخَاصُ، فَهَذَا ضَرَرُهُ فِي اعْتِقَادِ الْحَقِّ، وَلَهُ ضَرَرٌ فِي تَأْكِيدِ اعْتِقَادِ الْبِدْعَةِ، وَتَنْبِيئِهَا فِي صُدُورِهِمْ، بِحَيْثُ تَبَعَتْ دَوَاعِيهِمْ وَيَسْتَدُّ حِرْصُهُمْ عَلَى الْإِضْرَارِ عَلَيْهِ، وَلَكِنَّ هَذَا الضَّرَرَ بِوَاسِطَةِ التَّعَصُّبِ الَّذِي يَثُورُ مِنَ الْجَدَلِ.

قال الشيخ:

هكذا اعترف بهذا هذا العالم الذي هو الغزالي مع أنه ممن خاض في علم الكلام، فأثبت أنه يثير الشبهات، وذلك واقع كثير، شبهات يولدها المتكلمون في إثبات الاستواء، وكذلك في إثبات صفة العلو، وفي إثبات بقية الصفات الفعلية، وكذلك تحريك العقائد وزلزلتها، وكذلك حصول الشك في العقيدة، وإزالة العقيدة بعد الجزم، أو بعد التصميم، أو بعد العقيدة الراسخة وسبب ذلك أنه يحصل هذا - إي: إثارة هذا التحريك - في الابتداء من حين يبتدئ في علم الكلام تحصل منه هذه الزلزلة وما أشبهها، وأما رجوعها وثبوت العقيدة بالدليل فإن ذلك مشكوك فيه، ويختلف باختلاف الأشخاص فالكثير من المتكلمين يبقى ذلك الشك في قلبه ويصعب أن يتحول؛ فلذلك رجوعه ولو أقيمت عليه الأدلة مشكوك فيه، ومنهم من يهديه الله تعالى ويتراجع فإن الغزالي - رحمه الله - ندم على فعله وخوضه في علم الكلام، وتمنى أنه لم يخض

فيه، ومات وصحيح البخاري على صدره، كما ذكر ذلك هذا الشارح رحمه الله. يقول: (فَهَذَا ضَرَرُهُ فِي اعْتِقَادِ الْحَقِّ)، ورسوخ العقيدة، (وَلَهُ ضَرَرٌ فِي تَأْكِيدِ اعْتِقَادِ الْبِدْعَةِ وَتَثْبِيْتِهَا فِي صُدُورِهِمْ)، بمعنى: أنه إذا خاض في هذه الافتراضات رسخت عقائد المبتدعة في قلبه، وثبتت في صدره، وانبعثت دواعيها واشتد حرصه على الإصرار عليها، أيا كانت تلك البدع، وأشدّها بدع المعطلة الذين يخوضون في صفات الله، وفي أسمائه الحسنى، وفيما يجب أن يوصف به فإن هؤلاء بدعتهم أشد البدع؛ لأنها توجب الشك، حتى قال بعضهم.. كما ذكر الشارح :- أكثر الناس شكًا عند الموت أهل الكلام. وذكر أيضًا أنهم ندموا في آخر حياتهم، فالبدعة تتأكد في قلوب المتكلمين، وثبتت في صدورهم وترسخ فيها.

ثم قال: (تَنْبَعُ دَوَاعِيهِمْ)، أي: تنبعث الدواعي إليها، (وَيَشْتَدُّ حِرْصُهُمْ عَلَى الْإِصْرَارِ عَلَيْهِ)، أي: يشتد حرصهم على التمسك بها والإصرار بها. ويقول سبب هذا الضرر: (التَّعَصُّبُ الْبِذِّيُّ يَشُورُ مِنَ الْجَدَلِ)، فإنهم إذا انتحلوا هذه البدعة، ثم جادلهم أحد وقد تلقوا هذه البدعة عن مشايخهم فلن ينصاعوا إلى الحق، بل يتمسكون بها ويتلقون تلك البدع، وترسخ في قلوبهم، حتى ولو كانت من البدع الضعيفة، كما يحصل عند المعطلة وعند الأشاعرة، فقد حصل أن شيخ الإسلام ابن تيمية ناظرهم، ومع ذلك تمسكوا بما هم عليه إلا القليل.

يقول الشارح . رحمه الله . نقلاً عن الغزالي :

قال : وَأَمَّا مَنْفَعَتُهُ، فَقَدْ يُظَنُّ أَنَّ فَائِدَتَهُ كَشَفُ الْحَقَائِقِ وَمَعْرِفَتِهَا عَلَى مَا هِيَ عَلَيْهِ وَهَيْهَاتَ فَلَيْسَ فِي الْكَلَامِ وَفَاءً بِهَذَا الْمَطْلَبِ الشَّرِيفِ، وَلَعَلَّ التَّخْصِيطَ وَالتَّضْلِيلَ فِيهِ أَكْثَرَ مِنَ الْكَشْفِ وَالتَّعْرِيفِ.

قال : وَهَذَا إِذَا سَمِعْتَهُ مِنْ مُحَدِّثٍ أَوْ حَشَوِيٍّ رَبِّمَا خَطَرَ بِبَالِكَ أَنَّ النَّاسَ أَعْدَاءُ مَا جَهِلُوا، فَاسْمَعْ هَذَا مِنْ خَبَرِ الْكَلَامِ، ثُمَّ قَلَاهُ بَعْدَ حَقِيقَةِ الْحَبْرَةِ وَبَعْدَ التَّغْلُغْلِ فِيهِ إِلَى مُتَهَيِّ دَرَجَةِ الْمُتَكَلِّمِينَ، وَجَاوَزَ ذَلِكَ إِلَى التَّعَمُّقِ فِي عُلُومٍ أُخْرَى تَنَاسَبَ نَوْعِ الْكَلَامِ، وَتَحَقَّقَ أَنَّ الطَّرِيقَ إِلَى حَقَائِقِ الْمَعْرِفَةِ مِنْ هَذَا الْوَجْهِ مَسْدُودٌ. وَلَعَمْرِي لَا يَنْفَكُ الْكَلَامُ عَنِ كَشْفِ وَتَعْرِيفِ وَإِبْصَاحِ لِبَعْضِ الْأُمُورِ، وَلَكِنْ عَلَى النَّدْوَرِ.

انْتَهَى مَا نَقَلْتُهُ عَنِ الْغَزَالِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ.

قال الشيخ :

قوله : (قال)، يعني : الغزالي . هكذا يقول الغزالي أنه قد يُظن أن فيه منفعة، وتلك المنفعة (فائِدَتُهُ كَشَفُ الْحَقَائِقِ وَمَعْرِفَتِهَا عَلَى مَا هِيَ عَلَيْهِ)، أي : أنه يسبب كشف الحقائق الغيبية، وكشف الأمور المحجوزة والمحجوبة عن الإنسان، وكشف حقائق الجواهر والأعراض والأبعاض وما أشبه ذلك، فإنه يظن هذه فائدة له، ولكن يقول : (هَيْهَاتَ فَلَيْسَ فِي الْكَلَامِ وَفَاءً بِهَذَا الْمَطْلَبِ الشَّرِيفِ)، أي : بكشف الحقائق ومعرفتها، فإنه ليس فيه وفاء بهذا المطلب بل

إنه - كما تقدم - يسبب الشك والحيرة.

ثم قال: (وَلَعَلَّ التَّخْيِيطَ وَالتَّضْلِيلَ فِيهِ أَكْثَرُ مِنَ الكَشْفِ وَالتَّعْرِيفِ)، وهذا صحيح، أن الذين يكونون فيه دائماً ويتخططون فيه أنهم يضلون وينحرفون فتخططهم وضلالهم أكثر من الكشف والتعريف، وأكثر من معرفة الحقائق. فقد يقول قائل: إن هذا الكلام (إِذَا سَمِعْتَهُ مِنْ مُحَدِّثٍ)، أي: الذي انشغل بعلم الحديث، (أَوْ حَشَوِيٍّ)، أي: الذي تلقى الصفات على ما هي عليه واعتقدها على كفيتها، كالذين يفهمون منها التكيف والتشبيه، وإن كان لفظ (الحشوي) يطلقه المعطلة خطأً على من أثبت الصفات.

(رُبَّمَا خَطَرَ بِأَلَاكَ)، أي: إذا سمعته يقول ذلك، تقول: (أَنَّ النَّاسَ أَعْدَاءُ مَا جَهِلُوا)، أي: إن هذا المحدث جاهل بهذا الكلام، وأنه ليس من أهله. ثم يقول الغزالي: (فَاسْمَعْ هَذَا مِنْ خَبَرِ الكَلَامِ)، يعني: نفسه، أنه قد خبر الكلام، وأنه قد توغل فيه، وأنه قد تتبع المقالات التي فيه، وعرف حقيقته ونهايته، (ثُمَّ قَلَاهُ)، أي: تركه (بَعْدَ حَقِيقَةِ الخِبْرَةِ وَبَعْدَ التَّغْلُغِ فِيهِ إِلَى مُنْتَهَى دَرَجَةِ التَّكْلِيمِ)، أي: أنه خبره، ثم أبغضه وتركه، وأنه تركه بعد حقيقة الخبرة، وطول الكلام، وطول التغلغل، إلى أن انتهى إلى درجة المتكلمين الذين تجاوزوا ذلك (إِلَى التَّعَمُّقِ فِي عُلُومٍ أُخَرَ تَنَاسَبَ نَوْعِ)، أي: علم (الكلام)، يقول: (وَتَحَقَّقَ أَنَّ الطَّرِيقَ إِلَى حَقَائِقِ المَعْرِفَةِ مِنْ هَذَا الوَجْهِ مَسْدُودٌ) يعني: أن العلم بالكلام جهل، وليس هو طريقاً إلى المعرفة واليقين.

قال الشارح:

وَكَلَامٌ مِثْلُهُ فِي ذَلِكَ حُجَّةٌ بِالغَةِ، وَالسَّلْفُ لَمْ يَكْرَهُهُ لِمَجْرَدِ كَوْنِهِ اصْطِلَاحًا
جَدِيدًا عَلَى مَعَانٍ صَحِيحَةٍ، كَالاصْطِلَاحِ عَلَى أَلْفَاظٍ لِعُلُومٍ صَحِيحَةٍ،
وَلَا كَرِهَهُهُ أَيْضًا لِلدَّلَالَةِ عَلَى الْحَقِّ وَالْمَحَاجَةِ لِأَهْلِ الْبَاطِلِ، بَلْ كَرِهَهُهُ لِأَسْتِثْمَالِهِ
عَلَى أُمُورٍ كَاذِبَةٍ مُخَالَفَةٍ لِلْحَقِّ. وَمِنْ ذَلِكَ: مُخَالَفَتُهَا لِلكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَمَا فِيهِ مِنْ
عُلُومٍ صَحِيحَةٍ، فَقَدَّ وَعَرَّوْا الطَّرِيقَ إِلَى تَحْصِيلِهَا، وَأَطَالُوا الْكَلَامَ فِي إِبْتِغَائِهَا مَعَ
قِلَّةِ نَفْعِهَا، فَهِيَ لِحْمٍ جَمَلٍ غَسَّتْ عَلَى رَأْسِ جَبَلٍ وَعَرِي، لَا سَهْلٌ فَيُرْتَقَى،
وَلَا سَمِينٌ فَيُنْتَقَى، وَأَحْسَنُ مَا عِنْدَهُمْ فَهُوَ فِي الْقُرْآنِ أَصْحَحُ تَقْرِيرًا، وَأَحْسَنُ
تَفْسِيرًا، فَلَيْسَ عِنْدَهُمْ إِلَّا التَّكَلُّفُ وَالتَّطْوِيلُ وَالتَّعْقِيدُ. كَمَا قِيلَ:

لَوْلَا التَّنَافُسُ فِي الدُّنْيَا لَمَا وُضِعَتْ كُتُبُ التَّنَاطُرِ لَا الْمُنْفِي وَلَا الْعَمْدُ
يُجَادِلُونَ بِزَعْمٍ مِنْهُمْ عَقْدًا وَبِالذِّي وَضَعُوهُ زَادَتِ الْعُقْدُ
فَهُمْ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ يَدْفَعُونَ بِالذِّي وَضَعُوهُ الشُّبُهَةَ وَالشُّكُوكَ، وَالْفَاضِلُ
الذِّكِّيُّ الَّذِي يَعْلَمُ أَنَّ الشُّبُهَةَ وَالشُّكُوكَ زَادَتِ بِذَلِكَ.

قال الشيخ:

كلام الشارح هذا يرد على أهل الكلام، مع أنهم اعترفوا على أنفسهم
بأنهم ما ازدادوا إلا شكًا، فيقول بعضهم لما حضره الموت: «قرأت خمسين ألفًا
في خمسين ألفًا، ثم خليت أهل الإسلام بإسلامهم فيها وعلومهم الظاهرة،

وركبت البحر الخضم، وغصت في الذي نهى عنه أهل الإسلام، وكل ذلك في طلب الحق، وكنت أهرب في سالف الدهر من التقليد، والآن فقد رجعت إلى كلمة الحق، عليكم بدين العجائز، فإن لم يدركني الحق بلطف بره، فأموت على دين العجائز، ويختم عاقبة أمري عند الرحيل على كلمة الإخلاص لا إله إلا الله، فالويل لابن الجويني» انتهى. وكذلك قول الفخر الرازي لما ذكر كلام أهل الكلام في قوله:

نَهَايَةُ إِقْدَامِ الْعُقُولِ عِقَالُ وَأَكْثَرُ سَمْعِي الْعَالَمِينَ ضَلَالُ
وَأَزْوَاحُنَا فِي وَحْشَةٍ مِنْ جُسُومِنَا وَغَايَةُ دُنْيَانَا أَدَى وَوَبَالُ
وَلَمْ نَسْتَفِدْ مِنْ بَحْنِنَا طَوْلَ عُمُرِنَا سِوَى أَنْ جَمَعْنَا فِيهِ قِيلَ وَقَالُوا

ثم قال: «لَقَدْ تَأَمَّلْتُ الطُّرُقَ الْكَلَامِيَّةَ، وَالْمَنَاهِجَ الْفَلَسَفِيَّةَ، فَمَا رَأَيْتُهَا تَشْفِي عَالِيًا، وَلَا تَرْوِي غَلِيًّا، وَرَأَيْتُ أَقْرَبَ الطُّرُقِ طَرِيقَةَ الْقُرْآنِ، أَقْرَأَ فِي الْإِثْبَاتِ: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه: ٥]، ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ﴾ [فاطر: ١٠]، وَأَقْرَأَ فِي النَّفْسِي: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١]، ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾ [طه: ١١٠]، وَمَنْ جَرَّبَ مِثْلَ تَجْرِبَتِي عَرَفَ مِثْلَ مَعْرِفَتِي» انتهى.

قوله: (وَكَلَامٌ مِثْلُهُ فِي ذَلِكَ حُجَّةٌ بِالْقَدِّ) أي: وكذلك كلام غير الرازي والغزالي، يقول: إنه حجة في هذا الباب؛ وذلك لأنهم قالوه عن تجربة ونهوا عن علم الكلام، فالسلف - رحمهم الله - كرهوا علم الكلام وأكثروا من النهي عنه، وقد قال الشافعي - رحمه الله -: «حكمتي في أهل الكلام حكم عمر في

صبيغ أن يضربوا بالجرید، ويحملوا على الإبل، ويطاف بهم في العشائر والقبائل، وينادى عليهم: هذا جزاء من ترك الكتاب والسنة وأقبل على علم الكلام» انتهى^(١).

قوله: (وَالسَّلْفُ لَمْ يَكْرَهُوهُ لِمَجْرَدِ كَوْنِهِ اضْطِلَاحًا جَدِيدًا عَلَى مَعَانِ صَحِيحَةٍ) ولو كان فيه معان صحيحة فإنهم - في الحقيقة - صعبوا الوصول إليها من طريق الكلام، ومن طريق المنطق؛ ولهذا يقول المشايخ: إن هذا العلم ينقض بعضه بعضًا. علم الكلام وعلم المنطق وما أشبهها يطل بعضه بعضًا، فلو أن إنسانًا ذكر حجة وبالغ فيها بعلم الكلام أو بعلم المنطق ففي إمكان الآخر أن يبطلها، وأن يردها بنفس العلم الذي هو علم الكلام فيكون كلامهم يرد بعضه بعضًا، ولا شك أن الاصطلاح على ألفاظ لعلوم جديدة جائز، أو كون علم الكلام علمًا جديدًا دليلاً على معان صحيحة جائز، ولكن يمكن الوصول إليها بغير علم الكلام.

قوله: (وَلَا كَرَهُوهُ أَيْضًا لِلدَّلَالَةِ عَلَى الْحَقِّ وَالْمُحَاجَّةِ لِأَهْلِ الْبَاطِلِ)، يعني: بعلم الكلام، ولكن كرهوا علم الكلام؛ لأنه يشتمل على علوم كاذبة، وعلى أمور كاذبة وعلى مخالفات للحق، وتليس للباطل.

قوله: (مُخَالَفَتُهَا لِلْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَمَا فِيهِ مِنْ عُلُومٍ صَحِيحَةٍ)، أي: ولا شك أيضًا أن الاشتغال بعلم الكلام يوقع في مخالفة الكتاب والسنة، ومخالفة العلوم

(١) تقدم تخريجه (١/١٢٩).

الصحيحة التي هي الكتاب والسنة.

قوله: (فَقَدَّ وَعَرَّوَا الطَّرِيقَ إِلَى تَحْصِيلِهَا) أي: إن أهل الكلام قد وعروا الطريق إلى تحصيل العلوم الصحيحة حيث جعلوا هذا الاصطلاح الذي هو علم الكلام، فوعروا الطريق أو شددوا فيه، وأطالوا الكلام في إثبات تلك العلوم مع قلة نفعها، فهكذا قلَّت فائدة تلك العلوم، وتغني عنها العلوم الشرعية، وهي: الآيات والأحاديث.

ثم شبه هذه العلوم الجديدة من علوم المتكلمين بقوله: (فَهِيَ لَحْمٌ جَمَلٍ غَثٌّ عَلَى رَأْسِ جَبَلٍ وَعَرٌّ، لَا سَهْلٌ فَيُرْتَقَى، وَلَا سَمِينٌ فَيَسْتَقَى)، هذا لفظ جملة في حديث أم زرع الذي في الصحيحين^(١) عن عائشة - رضي الله عنها - قالت: «جَلَسَ إِحْدَى عَشْرَةَ امْرَأَةً، فَتَعَاهَدْنَ وَتَعَاقَدْنَ أَنْ لَا يَكْتُمَنَّ مِنْ أَخْبَارِ أَزْوَاجِهِنَّ شَيْئًا، قَالَتِ الْأُولَى: رَوَّجِي لَحْمَ جَمَلٍ غَثٌّ، عَلَى رَأْسِ جَبَلٍ، لَا سَهْلٌ فَيُرْتَقَى، وَلَا سَمِينٌ فَيَسْتَقَى»، هذا لفظه في الصحيحين، فالمؤلف الشارح اختار هذه الجملة تشبيهاً بتلك العلوم التي يطيل فيها المتكلمون ويتوسعون، شبهها بلحم جمل، ومعلوم أن الرغبة في لحم الجمل قليلة، وأنه أيضاً غثٌّ، أي: هزيل ليس فيه دسم، إنما هو لحم هزيل لا رغبة فيه، ومع ذلك فإنه على رأس جبل، أي: جعل على رأس جبل، وذلك الجبل أيضاً وعر صعب الوصول إليه، فليس الجبل سهلاً فَيُرْتَقَى ويصعد إليه حتى يؤخذ ذلك اللحم، وليس اللحم سميئاً

(١) أخرجه البخاري (٥١٨٩)، ومسلم (٢٤٤٨).

فَيُنْتَقَل، أَي: فَيُنْقَل وَيُؤْخَذ، أَوْ يُنْتَقَى عَلَى مَا فِي بَعْضِ الرِّوَايَاتِ، وَيُنْتَقَى يَعْنِي: يُؤْخَذ مِنْهُ النِّقْيَ الَّذِي هُوَ السَّمْنُ، هَكَذَا شَبِهَ عِلْمَ الْكَلَامِ.
 يَقُولُ: (وَأَحْسَنُ مَا عِنْدَهُمْ فَهُوَ فِي الْقُرْآنِ أَصْحَحُ تَقْرِيرًا، وَأَحْسَنُ تَفْسِيرًا، فَلَيْسَ عِنْدَهُمْ إِلَّا التَّكْلُفُ وَالتَّطْوِيلُ وَالتَّعْقِيدُ)، أَي: أَحْسَنُ مَا عِنْدَهُمْ مَوْجُودٌ فِي الْقُرْآنِ وَمَقْرَرٌ أَصْحَحُ تَقْرِيرٍ وَأَحْسَنُ تَفْسِيرٍ، هَذَا أَحْسَنُ شَيْءٍ عِنْدَهُمْ يُسْتَعْنَى عَنْهُ بِالْقُرْآنِ، وَلَا يَأْتِي صَاحِبَ شَبْهَةٍ إِلَّا وَفِي الْقُرْآنِ مَا يَبْطُلُهَا؛ لِقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ [الفرقان: ٣٣]، أَمَا أَهْلُ الْكَلَامِ فَلَيْسَ عِنْدَهُمْ إِلَّا التَّكْلُفُ وَالتَّطْوِيلُ وَالتَّعْقِيدُ، وَهُوَ التَّكْلُفُ فِي نَحْتِ الْكَلَامِ وَتَصْوِيرِهِ، وَالإِطَالَةُ بِهَا لَا فَائِدَةَ تَحْتَهُ، وَتَعْقِيدُ الْكَلَامِ وَالتَّكْلُفُ فِيهِ هَذَا هُوَ الَّذِي عِنْدَهُمْ.

ثم استشهد - رحمه الله - بهذا الشعر:

لَوْلَا التَّنَافُسُ فِي الدُّنْيَا لَمَا وُضِعَتْ كُتُبُ التَّنَاطُرِ لَا الْمُغْنِي وَلَا الْعَمَدُ
 يُجَلِّلُونَ بِزَعْمٍ مِنْهُمْ عَقْدًا وَيَالِذِي وَضَعُوهُ زَادَتْ الْعُقَدُ

(التَّنَافُسُ) هُوَ الْمُنَافَسَةُ بَيْنَ أَهْلِ الدُّنْيَا، فَلَوْلَا ذَلِكَ لَمَا وَضِعَتْ كُتُبُ

التَّنَاطُرِ، أَي الْكُتُبِ الَّتِي فِي الْمُنَاطَرَاتِ، حَمَلِمُ عَلَى تَأْلِيفِهَا التَّنَافُسُ فِي الْعُلُومِ، وَكُلُّ يَجَاوِلُ أَنْ يَغْلِبَ، فَوَضَعُوا هَذِهِ الْكُتُبَ الَّتِي فِي الْمُنَاطَرَاتِ، وَمِنْهُ كِتَابُ اسْمِهِ «الْمُغْنِي» لِلْقَاضِي عَبْدِ الْجَبَّارِ الْمُحْتَزِلِيِّ، وَمِنْهُ كِتَابُ الْعَمَدِ، لكَثِيرٍ مِنَ الْمُتَكَلِّمِينَ.

ثم يقول:

يُحْلِلُونَ بِزَعْمِ مَنْهُمْ عُقْدًا وَبِالذِّي وَضَعُوهُ زَادَتِ الْعُقْدُ

أي: في زعمهم أنهم يحللون بعلم الكلام عقداً وشبهات في نظرهم،

ولكن ما زادت تلك الشبهات إلا تعقيداً وتشديدًا.

ثم يقول: (فَهُمْ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ يَدْفَعُونَ بِالذِّي وَضَعُوهُ الشُّبُهَةَ وَالشُّكُوكَ)،

أي: عندما يتكلمون على آية ونحوها - كآية الاستواء - يوردون شبهًا كثيرة،

وتلك الشبه ينقص بعضها بعضًا، وهم يدعون أنهم يزيلون تلك الشبه.

قوله: (وَالْفَاضِلُ الذِّكْرِيُّ الَّذِي يَعْلَمُ أَنَّ الشُّبُهَةَ وَالشُّكُوكَ زَادَتِ بِذَلِكَ)،

أي: والعاقل الذكي يعلم أن الشبه - وهي الشكوك - زادت بكلامهم هذا، فلم

يزيدوا الأمر إلا شدة.

قال الشارح:

وَمِنَ الْمَحَالِ أَنْ لَا يَخْضَلَ الشِّفَاءُ وَالْهُدَى وَالْعِلْمُ وَالْيَقِينُ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ
وَكَلَامِ رَسُولِهِ، وَيَخْضَلَ مِنْ كَلَامِ هَؤُلَاءِ الْمُتَحَرِّينَ، بَلِ الْوَاجِبُ أَنْ يَجْعَلَ مَا
قَالَهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ هُوَ الْأَصْلُ، وَيَتَدَبَّرَ مَعْنَاهُ وَيَعْقِلَهُ، وَيَعْرِفَ بُرْهَانَهُ وَدَلِيلَهُ، إِمَّا
الْعَقْلِيَّ وَإِمَّا الْخَبَرِيَّ السَّمْعِيَّ، وَيَعْرِفَ دَلَالَتَهُ عَلَى هَذَا وَهَذَا، وَيَجْعَلَ أَقْوَالَ
النَّاسِ الَّتِي تُؤَافِقُهُ وَتُخَالَفُهُ مُتَشَابِهَةً مُجْمَلَةً، فَيُقَالُ لِأَصْحَابِهَا: هَذِهِ الْأَلْفَاظُ
مُحْتَمِلٌ كَذَا وَكَذَا، فَإِنْ أَرَادُوا بِهَا مَا يُؤَافِقُ خَبَرَ الرَّسُولِ قِيلَ، وَإِنْ أَرَادُوا بِهَا مَا
يُخَالَفُهُ رُدَّ.

وَهَذَا مِثْلُ لَفْظِ الْمُرَكَّبِ وَالْجِسْمِ وَالْمُتَحَرِّزِ وَالْجَوْهَرِ وَالْجِهَةِ وَالْحَيْزِ
وَالْعَرَضِ، وَنَحْوِ ذَلِكَ، فَإِنَّ هَذِهِ الْأَلْفَاظَ لَمْ تَأْتِ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ بِالْمَعْنَى الَّتِي
يُرِيدُهُ أَهْلُ الْأَصْطِلَاحِ، بَلْ وَلَا فِي اللُّغَةِ، بَلْ هُمْ يَخْتَصُّونَ بِالتَّعْبِيرِ بِهَا عَنْ مَعَانٍ لَمْ
يُعَبَّرْ عَنْهُمْ عَنْهَا بِهَا، فَتُفَسَّرُ تِلْكَ الْمَعَانِي بِعِبَارَاتٍ أُخْرَى، وَيُنظَرُ مَا دَلَّ عَلَيْهِ
الْقُرْآنُ مِنَ الْأَدِلَّةِ الْعَقْلِيَّةِ وَالسَّمْعِيَّةِ، وَإِذَا وَقَعَ الْإِسْتِنْسَارُ وَالتَّفْصِيلُ تَبَيَّنَ الْحَقُّ
مِنَ الْبَاطِلِ.

مثال ذلك في «التركيب»، فقد صار له معان:

أحدها. التركيب من متباينين فأكثر، ويسمى: تركيب منج، كتركيب
الحيوان من الطبائع الأربعة والأعضاء ونحو ذلك، وهذا المعنى منفي عن الله
سبحانه وتعالى، ولا يلزم من وصف الله تعالى بالعلو ونحوه من صفات
الكمال، أن يكون مركباً بهذا المعنى المذكور.

وَالثَّانِي: تَرْكِيْبُ الْجَوَارِي، كَمِضْرَاعِي الْبَابِ وَنَحْوِ ذَلِكَ، وَلَا يَلْزَمُ أَيْضًا مِنْ ثُبُوتِ صِفَاتِهِ تَعَالَى إِبْتِثَاتُ هَذَا التَّرْكِيبِ.

الثَّالِثُ: التَّرْكِيبُ مِنَ الْأَجْزَاءِ الْمُتَمَاثِلَةِ، وَتُسَمَّى: الْجَوَاهِرَ الْمُفْرَدَةَ.

الرَّابِعُ: التَّرْكِيبُ مِنَ الْهَيُولَى وَالصُّورَةِ، كَالخَاتَمِ مَثَلًا، هَيْوَلَاهُ: الْفِضَّةُ، وَصُورَتُهُ مَعْرُوفَةٌ.

وَأَهْلُ الْكَلَامِ قَالُوا: إِنَّ الْجِسْمَ يَكُونُ مُرَكَّبًا مِنَ الْجَوَاهِرِ الْمُفْرَدَةِ، وَهُمْ كَلَامٌ فِي ذَلِكَ يَطُولُ، وَلَا فَايْدَةَ فِيهِ، وَهُوَ أَنَّهُ: هَلْ يُمَكِّنُ التَّرْكِيبُ مِنْ جُزْءَيْنِ، أَوْ مِنْ أَرْبَعَةٍ، أَوْ مِنْ سِتَّةٍ، أَوْ مِنْ ثَمَانِيَةٍ، أَوْ سِتَّةَ عَشَرَ؟ وَلَيْسَ هَذَا التَّرْكِيبُ لَازِمًا لِثُبُوتِ صِفَاتِهِ تَعَالَى وَعُلُوِّهِ عَلَى خَلْقِهِ.

وَالْحَقُّ أَنَّ الْجِسْمَ غَيْرُ مُرَكَّبٍ مِنْ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ، وَإِنَّمَا قَوْلُهُمْ جُرَدُ دَعْوَى، وَهَذَا مَبْسُوطٌ فِي مَوْضِعِهِ.

الخَامِسُ: التَّرْكِيبُ مِنَ الذَّاتِ وَالصِّفَاتِ، هُمْ سَمَّوْهُ تَرْكِيبًا لِيَتَّفِقُوا بِهِ صِفَاتِ الرَّبِّ تَعَالَى، وَهَذَا اضْطِلَاحٌ مِنْهُمْ لَا يُعْرَفُ فِي اللُّغَةِ، وَلَا فِي اسْتِعْمَالِ الشَّارِعِ، فَلَسْنَا نُوَافِقُهُمْ عَلَى هَذِهِ التَّسْمِيَةِ وَلَا كِرَامَةَ. وَلَكِنْ سَمَّوْا إِبْتِثَاتِ الصِّفَاتِ تَرْكِيبًا، فَتَقُولُ لَهُمْ: الْعِبْرَةُ لِلْمَعْنَى لَا لِلْأَلْفَاظِ، سَمَّوْهُ مَا يُسَمُّونَ، فَلَا يَتَرْتَّبُ عَلَى التَّسْمِيَةِ بِدُونِ الْمَعْنَى حُكْمٌ، فَلَوْ اضْطِلِحَ عَلَى تَسْمِيَةِ اللَّيْنِ خَمْرًا، لَمْ يَحْرَمَ بِهَذِهِ التَّسْمِيَةِ.

السَّادِسُ: التَّرْكِيبُ مِنَ الْمَاهِيَةِ وَوُجُودِهَا، وَهَذَا يَفْرِضُهُ الذَّهْنُ أَنَّهُمَا غَيْرَانِ، وَأَمَّا فِي الْخَارِجِ، هَلْ يُمَكِّنُ ذَاتُ جُرَدَةٍ عَنْ وُجُودِهَا، وَوُجُودُهَا جُرَدٌ عَنْهَا؟ هَذَا

مُحَالٌ، فَتَرَى أَهْلَ الْكَلَامِ يَقُولُونَ: هَلْ ذَاتُ الرَّبِّ وُجُودُهُ أَمْ غَيْرُ وُجُودِهِ؟ وَهُمْ فِي ذَلِكَ خَبَطٌ كَثِيرٌ، وَأَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةٌ رَأْيُ الْوَقْفِ وَالشَّكِّ فِي ذَلِكَ، وَكَمْ زَالَ بِالْأَسْتِفْسَارِ وَالتَّفْصِيلِ كَثِيرٌ مِنَ الْأَصَالِيلِ وَالْأَبَاطِيلِ.

قال الشيخ:

قد علمنا أن الشرع الشريف كامل في جميع ما يحتاج إليه البشر، وأن الرسول ﷺ قد بين للأمة ما تحتاج إليه، وبالأخص ما يقولونه بألستهم وما يعتقدونه بقلوبهم في صفات ربهم، ولا يليق أنه يقال: إنه علمهم الفروع وترك الأصول؛ بل الأصول أولى بالتعليم، علمهم الأصول التي هي العقائد: علمهم ما يقولونه في ربهم بألستهم وما يعتقدونه بقلوبهم، قبل أن يعلمهم الأوامر والنواهي ونحو ذلك، وذلك لأن العقيدة سبب الأعمال، والذي لا يكون معه عقيدة لا ينبعث جسمه بالعمل، وإذا رسخت العقيدة - التي هي معرفة الرب سبحانه ومعرفة عظمته وكبريائه وجلاله في القلب - أورثت أعمالاً، أورثت الخوف من الله، ورجاءه، ومحبته، والخضوع والخشوع له، والإخبات والإنابة والتوبة والرجوع إليه، وأورثت تعظيمه وتألمه ودعائه وعبادته.

فإذا انتفت هذه المعرفة من القلب انتفت العبادة، ونحن نشاهد أن الصحابة - رضي الله عنهم وتابعيهم بإحسان - أكثر الناس أعمالاً، وأتمهم خشوعاً، وأتمهم تذلاً، فما الذي حملهم على ذلك؟! أليس هو قوة المعرفة؟!

أليس هو قوَّة العقيدة؟! أليس العقيدة رسخت في قلوبهم وهي معرفة ربهم؟!
 إذا فنحن نحثُ المسلم على أن يقوِّي عقيدته، ونقول له: تعلم ما ترسخ
 به عقيدتك في قلبك، قوَّة العقيدة التي هي معرفة الله ومعرفة عظمته ومعرفة
 جلاله وكبريائه، واحرص على ترسيخ هذه العقيدة في قلوب أولادك، وفي
 قلوب إخوتك، وفي قلوب المسلمين عامة، فإنها متى رسخت في القلوب آتت
 أكلها، وأثمرت العبادات الكثيرة التي هي فعل الصالحات وترك المحرمات.
 إذا لو كان علم الكلام هذا وتفصيله من الشريعة ما أهملته الرُّسل،
 ولعلمته لأممهم، ونحن لم يُنقل لنا عن نبينا شيء من ذلك، ما نُقل عنه أنه
 خاض بأصحابه في هذا العلم الذي هو الجدل والخصومات والمنازعات
 ونحوها، نعلم أنه ما تكلم بها، بل كلامه في معرفة الله، وفي عظمته، وفي
 صفاته، وكلامه في أحكامه وأوامره ونواهيه وما إلى ذلك، هذا هو الذي بلغه
 لأُمَّته، وبلغته أُمَّته بعضهم لبعض.

يقول بعض السلف: أنا أحلف - لو حُلفت - أن أبا بكر وعمر وعثمان
 وغيرهم من الصحابة - رضي الله عنهم - ماتوا ولم يتكلموا في لفظ التركيب
 ولا الحيز ولا الجهة ولا الجوهر ولا العرض بالمعنى الذي أراده المتكلم، وإذا لم
 يتكلم بها هؤلاء، فلا خير فيها.

ثبت أن بعض المتكلمين - وهو ابن أبي دؤاد، الذي زين للخلفاء أن
 يمتحنوا الناس في علم الكلام، ومنه القول بخلق القرآن - جاءه أحد العلماء
 فقال له: أخبرنا عن هذا الذي تدعو الناس إليه؛ هل علمه نبي الله ﷺ

وأبو بكر وعمر وعثمان وعليّ أو ما علموه؟ فإذا قلت: ما علموه. قلنا: كيف تعلم شيئاً ولا يعلمونه؟! أنت أعلم من الرسول؟! أنت أعلم من الخلفاء الراشدين؟! حاشا وكلاً أن تكون أعلم منهم، وإذا قلت: بل يعلمونه؛ فهلاً وسعك ما وسعهم؟! هل دعوا إليه وهل نشره وهل علّموه الناس وهل ألزموهم باعتقاده؟! إذا لم يفعلوا، فاتبعهم: لا تنشره ولا تظهره، إذا كان عقيدة لك فاکتمها في نفسك ولا تُلزم غيرك بأن يعتقدها، لماذا لا يسعك ما وسعهم؟! لا وسّع الله على من لم يسعه ما وسّع رسول الله ﷺ وخلفاءه الراشدين وصحابته والتابعين وأئمة الدين.

مرّ بنا من أمثلة ما تكلم به المتكلمون: كلامهم في التركيب، وفي العرض، وفي الجوهر، وفي الحيز، وفي الجهة وفي الأبعاد، وفي الأعضاء ونحو ذلك؛ فيقولون: إن الله منزّه عن التركيب، ومنزّه عن الجسم، وعن الجوهر، وعن العرض وعن البعض، وعن الجهة، وعن الحيز، وما أشبه ذلك، يقولون: ننزّه الله تعالى عن ذلك، ثم يشرحون هذه الكلمات ويتوسعون فيها.

ومر بنا ما نقله عنهم الشارح في معنى التركيب، ولا شك أن هذه الكلمة بدعيّة لم يتكلم بها السلف، وقد جعل المتكلمون لهذه الكلمة ستة معانٍ، آخرها قولهم: التركيب هو التركيب من الصفات والذات. أرادوا أن الله تعالى ليس له صفات، إذا قالوا: إن الله ليس بمركب، فقالوا: التركيب يعمُّ التركيب بالصفات والذات.

وقد بين العلماء - رحمهم الله - أن إثبات الصفات لله إثبات وجود، لا إثبات

تحدید، كما أن إثبات الذات وجود، لا إثبات تحدید ولا إثبات تکیف، وذلك لحجب البشر وقصورهم علی أن یصلوا بمعارفهم إلى تحدید الصّفات وکیفیتها، وقد ذكروا أن علم الصّفات ملحق بعلم الذات، یحدو حدوه ویسیر علی مثاله، فإذا كنّا نثبت لله تعالی ذاتاً ولا نکیّفها، فهكذا نثبت له صفات ولا نکیّفها.

و كثيرٌ من السّلف یقولون فی الصّفات: أمرؤها كما جاءت بلا کیف. وفي الأثر المشهور عن مالك - رحمه الله - قوله: «الاستواء معلوم، والکیف مجهول». وفي أثر عن شیخه ربیعة قال: «الاستواء غیر مجهول، والکیف غیر معقول». یعنی: لا تصله العقول، له کیفیة ولكنها محجوبة عنّا، فنؤمن به ونتوقّف عن تلك الکیفیة، فإذا سأل سائل: ما کیفیة الاستواء؟ قلنا: الکیف مجهول. فإثبات الصّفات إثبات وجود، لا إثبات تکیف ولا إثبات تمثیل.

فهؤلاء الّذین یقولون: إن الله تعالی غیر مرکّب، ثمّ یریدون بالترکیب التّریب من الصّفات والذات، یریدون بذلك نفي الصّفات، فیقال لهم: أنتم تثبتون الذات؛ فهل لها کیفیة؟ فإذا قالوا: لا یعلم کیفیة الذات إلا الله. قلنا: كذا الصّفات لا یعلم کیفیةها إلا الله تعالی.

إذا الحاصل هنا کلامهم فی التّریب وأنّه أقسام، وهي الأقسام الستة الّتی أوردھا الشارح، هذا لا یحتاج إلى البحث فیها، بل هو من علم الكلام، وإنّما أوردّه الشارح لیبیّن تهافتهم، ولیبیّن أنّهم خاضوا فی شيء لا فائدة فیها، ولا حاصل له.

وهذه التركيبات للأقسام الستة القصد منها هو القسم السادس، وإلا فالأقسام الأولى من جملة ما ولدوه، وقالوا: التركيب من الأعضاء والتركيب من الصورة، وهيئوا له ذلك، قالوا ذلك بالتتبع أو بعلم الكلام الذي ولدوه، فنقول: لا يجوز الخوض في مثل هذا، بل يقال: الله تعالى منزّه عن النقائص، وموصوف بصفات الكمال.

قال الشارح:

وَسَبَبُ الضَّلَالِ الإِعْرَاضُ عَنِ تَدْبِيرِ كَلَامِ اللَّهِ وَكَلَامِ رَسُولِهِ، وَالِاشْتِغَالُ بِكَلَامِ الْيُونَانِ وَالْآرَاءِ الْمُخْتَلِفَةِ، وَإِنَّمَا سُمِّيَ هَؤُلَاءِ: أَهْلَ الْكَلَامِ؛ لِأَنَّهُمْ لَمْ يُفِيدُوا عِلْمًا لَمْ يَكُنْ مَعْرُوفًا، وَإِنَّمَا أَتَوْا بِزِيَادَةِ كَلَامٍ قَدْ لَا يُفِيدُ، وَهُوَ مَا يَضُرُّ بُونَهُ مِنَ الْقِيَاسِ لِإِيضَاحِ مَا عَلِمَ بِالْحِسِّ، وَإِنْ كَانَ هَذَا الْقِيَاسُ وَأَمْثَالُهُ يُتَمَسَّحُ بِهِ فِي مَوَاضِعٍ آخَرَ، وَمَعَ مَنْ يُنْكَرُ الْحِسَّ.

وَكُلُّ مَنْ قَالَ بِرَأْيِهِ وَذَوْقِهِ وَسِيَاسَتِهِ . مَعَ وُجُودِ النَّصِّ، أَوْ عَارِضِ النَّصِّ بِالْمَعْقُولِ . فَقَدْ ضَاهَى إِبْلِيسَ، حَيْثُ لَمْ يُسَلِّمْ لِأَمْرِ رَبِّهِ، بَلْ قَالَ: ﴿ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ﴾ [الأعراف: ١٢]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴾ [النساء: ٨٠]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ [آل عمران: ٣١]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ [النساء: ٦٥]، أَفَسَمَ سُبْحَانَهُ بِنَفْسِهِ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوا نَبِيَّهُ وَيَرْضَوْا بِحُكْمِهِ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا.

قال الشيخ:

يبين الشارح - رحمه الله - أن سبب ضلال هؤلاء هو إعراضهم عن تدبير

كلام الله تعالى، وما جاء عن رسوله ﷺ، واشتغالهم بعلوم الفلسفة والمنطق التي أتوا بها من كتب اليونان القديمة، فيطرحون النصوص الصحيحة الصريحة إذا خالفت المعقول عندهم، معتمدين في ذلك على أقيسة وآراء مختلفة، لم يفيدوا بها علماً لم يكن معروفاً، وإنما أتوا بزيادة كلام قد لا يفيد، فكان ذلك سبباً لتسميتهم: أهل الكلام.

يقول: (وَكُلُّ مَنْ قَالَ بِرَأْيِهِ وَذَوْقِهِ وَسِيَاسَتِهِ - مَعَ وُجُودِ النَّصِّ، أَوْ عَارَضَ النَّصِّ بِالْمَعْقُولِ - فَقَدْ ضَاهَى إِبْلِيسَ)، فهؤلاء الذين يعارضون النصوص بالمعقول، قد خالفوا ما أمرهم الله به، وشابهوا في ذلك إبليس حينما تكبر ولم يستسلم لأمر ربه، واحتج بقياس فاسد استدل به على أنه خيرٌ من آدم عليه السلام، فقال: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ [الأعراف: ١٢]، لكن لم ينفعه هذا القياس؛ لأنه خالف به أمر الله - جل وعلا - فأصبح من الكافرين المطرودين من رحمة الله.

وكذلك كل من جعل رأيه وذوقه وسياسته دليلاً وقائده، وقدمه على كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، قد خرج عن مسمى الإيمان؛ حيث أقسم الله تعالى بنفسه على ذلك، فقال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِي مَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥]، فعلم بذلك أن طريق النجاة هو الإعراض عن طرق أهل الكلام، والإقبال على كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ.

قال الطحاوي:

فَيَتَذَبَّدُ بَيْنَ الْكُفْرِ وَالْإِيمَانِ، وَالتَّصْدِيقِ وَالتَّكْذِيبِ، وَالْإِقْرَارِ وَالْإِنْكَارِ،
مُوسَّسًا تَائِبًا، شَاكًّا، لَا مُؤْمِنًا مُصَدِّقًا، وَلَا جَاهِدًا مُكْذِبًا.

قال الشارح:

يَتَذَبَّدُ: يَضْطَرِبُ وَيَتَرَدَّدُ. وَهَذِهِ الْحَالَةُ الَّتِي وَصَفَهَا الشَّيْخُ. رَحِمَهُ اللَّهُ -
حَالَ كُلِّ مَنْ عَدَلَ عَنِ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ إِلَى عِلْمِ الْكَلَامِ الْمَذْمُومِ، أَوْ أَرَادَ أَنْ يَجْمَعَ
بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، وَعِنْدَ التَّعَارُضِ يَتَأَوَّلُ النَّصَّ وَيُرَدُّهُ إِلَى الرَّأْيِ وَالْأَرَائِ
الْمُخْتَلِفَةِ، فَيُؤَوَّلُ أَمْرَهُ إِلَى الْحَيْرَةِ وَالضَّلَالِ وَالشَّكِّ، كَمَا قَالَ ابْنُ رُشْدٍ الْحَفِيدُ،
وَهُوَ مِنْ أَعْلَمِ النَّاسِ بِمَذَاهِبِ الْفَلَسِيفَةِ وَمَقَالَتِهِمْ، فِي كِتَابِهِ «تَهَافُتِ
التَّهَافُتِ»: «وَمَنْ الَّذِي قَالَ فِي الْإِهْيَاتِ شَيْئًا يُعْتَدُّ بِهِ؟». وَكَذَلِكَ الْأَمْدِيُّ،
أَفْضَلُ أَهْلِ زَمَانِهِ، وَاقِفٌ فِي الْمَسَائِلِ الْكِبَارِ حَائِزٌ. وَكَذَلِكَ الْغَزَالِيُّ. رَحِمَهُ اللَّهُ -
انْتَهَى آخِرُ أَمْرِهِ إِلَى الْوُقُوفِ وَالْحَيْرَةِ فِي الْمَسَائِلِ الْكَلَامِيَّةِ، ثُمَّ أَعْرَضَ عَنِ تِلْكَ
الطُّرُقِ وَأَقْبَلَ عَلَى أَحَادِيثِ الرَّسُولِ ﷺ، فَهَاتَ وَالْبُخَارِيُّ عَلَى صَدْرِهِ. وَكَذَلِكَ
أَبُو عَيْدٍ اللَّهِ مُحَمَّدُ بْنُ عُمَرَ الرَّازِيُّ، قَالَ فِي كِتَابِهِ الَّذِي صَنَفَهُ فِي «أَقْسَامِ اللَّذَاتِ»:

نَهَايَةُ إِقْدَامِ الْعُقُولِ عِقَالٌ	وَعَايَةُ سَعْيِ الْعَالِمِينَ ضَلَالٌ
وَأَرْوَاحُنَا فِي وَحْشَةٍ مِنْ	وَحَاصِلِ دُنْيَانَا أَذَى وَوَيْالٌ
وَلَمْ نَسْتَفِدْ مِنْ بَحْنِنَا طُولَ عُمْرِنَا	سِوَى أَنْ جَمَعْنَا فِيهِ قَيْلَ وَقَالُوا
فَكَمْ قَدْ رَأَيْنَا مِنْ رِجَالٍ وَدَوْلَةٍ	فَبَادُوا بِجَمِيعَا مُسْرِعِينَ وَزَالُوا

وَكَمْ مِنْ جِبَالٍ قَدْ عَلَتْ شُرُفَاتِهَا رِجَالٌ فَرَأَوْا وَالْجِبَالَ جِبَالًا
لَقَدْ تَأَمَّلْتُ الطُّرُقَ الْكَلَامِيَّةَ، وَالْمَنَاهَجَ الْفَلَسَفِيَّةَ، فَمَا رَأَيْتُهَا تَشْفِي عَليلاً،
وَلَا تُرَوِي عَليلاً، وَرَأَيْتُ أَقْرَبَ الطُّرُقِ طَرِيقَةَ الْقُرْآنِ، أَقْرَأُ فِي الْإِثْبَاتِ:
﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه: ٥]، ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ﴾ [فاطر: ١٠]،
وَأَقْرَأُ فِي النَّفْيِ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشُّورَى: ١١]، ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ
عِلْمًا﴾ [طه: ١١٠]، ثُمَّ قَالَ: «وَمَنْ جَرَّبَ مِثْلَ تَجْرِبَتِي عَرَفَ مِثْلَ مَعْرِفَتِي».

قال الشيخ:

أورد الشارح هذا الكلام ليبيِّن أنَّ هؤلاء نهايتهم الحيرة والتذبذب؛ وذلك
لأنَّهم ليسوا على عقيدة راسخة، بل إنَّ كلامهم هذا الذي يولِّدونه هو سبب
الشك؛ لأنَّه لا يأتي ببرهان بل بعضه يردُّ بعضاً، ويكذب بعضه بعضاً، فيأتي
أحدهم بمسائل جدليَّة ويجمعها في مؤلفاته، ثمَّ يأتي آخر أجدل منه فينقضها
واحدة واحدة، فلا يبقى معه شيء، يقول: كما أنَّك تولِّد كذا فأنا أولِّد مثله.
وقد تعلَّمها كثير من العلماء ليردُّوا عليها، ومن جملة مَنْ عرفها وأتقنها
شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله، فإنَّه درس علومهم، وإن لم يصرف فيها
وقتاً، ولكن ما أعطيه من الذكاء ومن الفطنة ومن قوَّة الذاكرة، جعله يفهمها
بمجرد ما يقرؤها، فناقش كتبهم، وردَّ عليهم ردًّا متقناً، فكتابه «منهاج السنَّة»
الذي هو في الرد على الرافضة، جعل ثلثه في مناقشة المتكلِّمين فيما يتعلَّق

بالصِّفات ونحو ذلك، وهكذا كتابه «درء تعارض العقل والنقل»، مطبوع أيضًا في عشرة مجلِّدات، هو أيضًا مناقشة لهم في تلك الشُّبهات، وبيان ما وقعوا فيه من التَّنقضات، وهكذا أيضًا كتابه الَّذي يسمَّى بـ «نقض التأسيس»، فد «التأسيس» كتاب للرزازي وهو من المتكلمين، صاحب هذه الأبيات التي أوردها الشارح له، والكتاب مطبوع، واسمه: «تأسيس التَّقديس»، ردَّ عليه شيخ الإسلام وإن لم يردَّ عليه كله، فناقشه كأنه درس كلامهم وتوغَّل فيه، وكلُّ ذلك ليعرف المسلمون أنَّهم لا يثبتون على فعلة، بل نهايتهم الحيرة، ونهايتهم التَّدبذب، كما ذكر الشارح عن أمثال هؤلاء منهم.

ومنهم ابن رشد - ويسمى ابن رشد الحفِيد - له كتاب في الانتصار للفلاسفة؛ وذلك لأنَّ الغزالي صنَّف كتابًا سمَّاه: «تهافت الفلاسفة»، وكما صنَّفه ردَّ عليه ابن رشد وانتصر لهم وسمَّى رده: «تهافت التَّهافت».

وسبق أن نقل الشارح كلام الغزالي أو بعض كلامه من كتاب «إحياء علوم الدِّين»، فالحاصل أنَّ الغزالي بيَّن أنَّهم ليسوا على عقيدة راسخة، بل إنَّهم متهافتون مضطربون متذبذبون، ولا عبرة لمن انتصر لهم من أفرادهم، فإنَّ ابن رشد فيلسوف، لم يكن على عقيدة راسخة، بل ينقل عنهم أنَّهم متذبذبون، وأنَّهم مها وصلوا إليه لا يثبتون أيضًا على طريقة.

الثاني: أبو الحسن الأمدي، صاحب كتاب «الإحكام في أصول الأحكام»، من علماء المتكلمين، ولكن من الذين تكلموا في هذا العلم، وتكلموا أيضًا في العلوم الأخرى؛ كأصول الفقه، ومع ذلك فقد اعترف عنهم

وعن من خاض منهم في علم الكلام بأن هذه نهايتهم: الحيرة والشك والاضطراب.

الثالث: الغزالي صاحب «الإحياء»، يقولون: إن «إحياء علوم الدين» من خير كتبه وأحسنها، وإن كان فيه شيء من البدع، والغزالي لم يكن من المحدثين، فحشد فيه أحاديث موضوعة لا أصل لها، وإن كان جاء فيه بأفكار وبفوائد مهمة، وقد كان في أول أمره مشتغلاً بعلم الكلام، وبالجدل والفكر، وما أشبه ذلك، وهذا هجراًه^(١)، ولأجل ذلك قدّم في أول كتابه «المستصفى» مقدّمة في المنطق، وفي آخر حياته ندم على أنه أضاع حياته في شيء لا فائدة فيه؛ فأقبل على الحديث وجعل يقرؤه، ووفاه الأجل وكتاب «صحيح البخاري» على صدره؛ كأنه يقول: ندمت على إعراضي عن كتب الحديث، فأنا الآن أشتغل بها في آخر حياتي. ولعلّه حُتم له خاتمة حسنة.

الرابع: أبو عبدالله الرّازي، ويسمى: فخر الدين الرازي، صاحب «التفسير الكبير» الذي هو أكبر التّفسيرات الموجودة لهذا العالم الكبير، وصنّف كتاباً له سمّاه «أقسام اللّذات»، وكأنّه ينقض أكثر عمله، فحياته ذهبت في شيء لا فائدة فيه من علم الجدل، رؤي أنّه مرّة كان يمشي مع طريق وخلفه تلاميذ له كثير يزيدون على مئة أو مئتين مروا على عجوز فاستغربته، وقالت: من

(١) يُقال: هذا هجراًه، وهجيراًه، وهجيراًؤه بالمد والقصر، وهجيرة كسيكت، وأهجورته بالضم، وهجرياه وإجرياه، أي: دأبه ودَيْدُنُه وشأنه وعادته. انظر: لسان العرب (هجر).

هذا؟ قالوا: هذا أبو عبدالله الرّازي العالم الجليل، يحفظ ألف دليل على وجود الله تعالى. قالت العجوز: أفي الله شكُّ؟! عجوز على فطرتها تقول: هذا الذي حرص على جمع هذه الأدلة في قلبه شكُّ، وفي قلبه توقُّف، لا يحرص على تتبُّع هذه الأدلة إلا من هو في حيرة أو في شكُّ.

فهو يقول في هذه الآيات:

نِهَآيَةُ إِقْدَامِ الْعُقُولِ عِقَالٌ وَأَكْثَرُ سَعْيِ الْعَالَمِينَ ضَلَالٌ

نهاية: يعني نهاية هذا الأمر، إقدامهم يعني: تقدُّمهم، وسعيهم يعني:

عملهم أكثره ضلالٌ. ثم يقول في أثنائها:

وَلَمْ نَسْتَفِدْ مِنْ بَحْثِنَا طُولَ عُمْرِنَا سِوَى أَنْ جَمَعْنَا فِيهِ: قِيلَ وَقَالُوا

هذا الذي استفدنا، ما استفدنا من جمعنا ومن تأليفاتنا إلا قال فلان، وقيل

كذا..

يقول بعد هذه الآيات: (لَقَدْ تَأَمَّلْتُ الطُّرُقَ الْكَلَامِيَّةَ، وَالْمَنَاهِجَ

الْفَلْسَفِيَّةَ)، يعني: طرق الكلام ومناهج الفلاسفة، (فَمَا رَأَيْتُهَا تَشْفِي غَلِيلاً، وَلَا

تُرْوِي غَلِيلاً)، والعليل: المريض، والغليل: الظمان، (وَرَأَيْتُ أَقْرَبَ الطُّرُقِ

طَرِيقَةَ الْقُرْآنِ، أَقْرَأُ فِي الْإِنْبَاتِ: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه: ٥]، ﴿إِلَيْهِ

يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ﴾ [فاطر: ١٠]، (وَاقْرَأْ فِي النَّفْسِ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾

[الشورى: ١١]، ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ ظَنًّا﴾ [طه: ١١٠]، (وَمَنْ جَرَّبَ مِثْلَ نَجْرِيَّتِي

عَرَفَ مِثْلَ مَعْرِفَتِي).

فهذا كلامه، في هذا الكتاب «أقسام اللذات»، أليس ذلك دليلاً على أنّه اعترف على نفسه وعلى بني جنسه من المتكلمين أنّ سعيهم ضلالٌ، وأنّهم في حيرة، وأنّ عملهم تائه؟!!

فإذا نقول: هذه نهايتهم، أمّا أصل العقيدة الرّاسخة التي هي معرفة الله بصفاته وتفويض كفيّتها، فهؤلاء - والحمد لله - لم يقعوا في شيء من هذا التزلزل.

قال الشارح:

وَكَذَلِكَ قَالَ الشَّيْخُ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الْكَرِيمِ الشَّهْرَسْتَانِيُّ^(١)، إِنَّهُ لَمْ
يَجِدْ عِنْدَ الْفَلَّاسِفَةِ وَالْمُتَكَلِّمِينَ إِلَّا الْحَيْرَةَ وَالنَّدَمَ، حَيْثُ قَالَ:

لَعَمْرِي لَقَدْ طُفْتُ الْمَعَاهِدَ كُلَّهَا وَسَيَّرْتُ طَرْفِي بَيْنَ تِلْكَ الْمَعَالِمِ
فَلَمْ أَرَ إِلَّا وَاضِعًا كَفَّ حَائِرٍ عَلَى ذَقْنٍ أَوْ قَارِعًا سَنَّ نَادِمِ
وَكَذَلِكَ قَالَ أَبُو الْمَعَالِي الْجَوِينِيُّ - رَحِمَهُ اللَّهُ -: يَا أَصْحَابَنَا لَا تَشْتَغِلُوا
بِالْكَلَامِ، فَلَوْ عَرَفْتُمْ أَنَّ الْكَلَامَ يَبْلُغُ بِي إِلَى مَا بَلَغَ مَا اشْتَغَلْتُ بِهِ. وَقَالَ عِنْدَ
مَوْتِهِ: لَقَدْ خُضْتُ الْبَحْرَ الْخِضَمَّ، وَخَلَيْتُ أَهْلَ الْإِسْلَامِ وَعَلُوْمَهُمْ، وَدَخَلْتُ فِي
الَّذِي نَهَوْنِي عَنْهُ، وَالْآنَ فَإِن لَمْ يَتَذَكَّرْ كُنِي رَبِّي بِرَحْمَتِهِ، فَالْوَيْلُ لِابْنِ الْجَوِينِيِّ، وَهِيَ
أَنَا ذَا أَمُوتُ عَلَى عَقِيدَةِ أُمِّي، أَوْ قَالَ: عَلَى عَقِيدَةِ عَجَائِزِ نَيْسَابُورَ.

وَكَذَلِكَ قَالَ شَمْسُ الدِّينِ الْخُسْرُوشَاهِي - وَكَانَ مِنْ أَجَلِّ تَلَامِيذِهِ فَخْرُ
الدِّينِ الرَّازِيِّ - لِبَعْضِ الْفُضَلَاءِ، وَقَدْ دَخَلَ عَلَيْهِ يَوْمًا، فَقَالَ: مَا تَعْتَقِدُ؟ قَالَ: مَا
يَعْتَقِدُهُ الْمُسْلِمُونَ، فَقَالَ: وَأَنْتَ مُنْشِرُ الصَّدْرِ لِذَلِكَ مُسْتَيْقِنٌ بِهِ؟ أَوْ كَمَا قَالَ،
فَقَالَ: نَعَمْ، فَقَالَ: أَشْكُرُ اللَّهَ عَلَى هَذِهِ النُّعْمَةِ، لِكِنِّي وَاللَّهِ مَا أَدْرِي مَا أَعْتَقِدُ،
وَاللَّهِ مَا أَدْرِي مَا أَعْتَقِدُ، وَاللَّهِ مَا أَدْرِي مَا أَعْتَقِدُ، وَبَكَى حَتَّى أَخْضَلَ لِحْيَتَهُ.

وَلِابْنِ أَبِي الْحَدِيدِ الْفَاضِلِ الْمَشْهُورِ بِالْعِرَاقِيِّ:

فِيكَ يَا أَغْلُوطَةَ الْفِكْرِ حَارَ أَمْرِي، وَانْقَضَى عُمْرِي

(١) انظر: الملل والنحل للشهرستاني (١/ ١٧٣).

سَافَرْتُ فِيكَ الْعُقُولَ فَمَا رِيحَتْ إِلَّا أَدَى السَّفَرِ
 فَلَحَى اللهُ الْأَلَى زَعَمُوا أَنَّكَ الْمَعْرُوفُ بِالنَّظَرِ
 كَذَبُوا إِنَّ الَّذِي ذَكَرُوا خَارِجٌ عَنِ قُوَّةِ الْبَشَرِ
 وَقَالَ الْخَوَاجِيُّ عِنْدَ مَوْتِهِ: مَا عَرَفْتُ مِمَّا حَصَلَتْهُ شَيْئًا سِوَى أَنَّ الْمُكْمِنَ
 يَفْتَقِرُ إِلَى الْمَرْجَحِ، ثُمَّ قَالَ: الْإِفْتِقَارُ وَصْفٌ سَلْبِيٌّ، أَمْوَتْ وَمَا عَرَفْتُ شَيْئًا.

وَقَالَ آخَرُ: أَضْطَجِعُ عَلَى فِرَاشِي وَأَضْعُ الْمَلْحَفَةَ عَلَى وَجْهِي، وَأَقَابِلُ بَيْنَ
 حُجَجِ هُوَلَاءِ وَهُوَلَاءِ حَتَّى يَطْلُعَ الْفَجْرُ، وَلَمْ يَتَرَجَّحْ عِنْدِي مِنْهَا شَيْءٌ.
 وَمَنْ يَصِلُ إِلَى مِثْلِ هَذِهِ الْحَالِ إِنْ لَمْ يَتَدَارَكْهُ اللَّهُ بِرَحْمَتِهِ وَإِلَّا تَزْنَدَقْ، كَمَا
 قَالَ أَبُو يُوسُفَ . رَحِمَهُ اللَّهُ .: مَنْ طَلَبَ الدِّينَ بِالْكَلامِ تَزْنَدَقَ، وَمَنْ طَلَبَ الْمَالَ
 بِالْكِيمِيَاءِ أَفْلَسَ، وَمَنْ طَلَبَ غَرِيبَ الْحَدِيثِ كَذَبَ.

وَقَالَ الشَّافِعِيُّ . رَحِمَهُ اللَّهُ .: حُكْمِي فِي أَهْلِ الْكَلَامِ أَنْ يُضْرَبُوا بِالْجَرِيدِ
 وَالتَّعَالِ، وَيُطَافَ بِهِمْ فِي الْقَبَائِلِ وَالْعَشَائِرِ، وَيُقَالُ: هَذَا جِرَاءٌ مَنْ تَرَكَ الْكِتَابَ
 وَالسُّنَّةَ وَأَقْبَلَ عَلَى الْكَلَامِ.

وَقَالَ: لَقَدْ اظْلَعْتُ مِنْ أَهْلِ الْكَلَامِ عَلَى شَيْءٍ مَا ظَنَنْتُ مُسْلِمًا يَقُولُهُ، وَلَآنُ
 يُبْتَلَى الْعَبْدُ بِكُلِّ مَا نَهَى اللَّهُ عَنْهُ . مَا خَلَا الشَّرْكَ بِاللَّهِ . خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يُبْتَلَى
 بِالْكَلامِ . انْتَهَى.

وَمَجْدٌ أَحَدٌ هُوَلَاءِ عِنْدَ الْمَوْتِ يَرْجِعُ إِلَى مَذْهَبِ الْعَبَّائِزِ، فَيَقْرَأُ بِمَا أَقْرَأَ بِهِ
 وَيُعْرِضُ عَنْ نَلِكِ الدَّقَائِقِ الْمُخَالَفَةِ لِذَلِكَ، الَّتِي كَانَ يَقْطَعُ بِهَا، ثُمَّ تَبَيَّنَ لَهُ
 فَسَادُهَا، أَوْ لَمْ يَتَبَيَّنْ لَهُ صِحَّتُهَا، فَيَكُونُونَ فِي مَهَابَاتِهِمْ . إِذَا سَلِمُوا مِنَ الْعَذَابِ .

بِمَنْزِلَةِ أَتْبَاعِ أَهْلِ الْعِلْمِ مِنَ الصَّبِيَّانِ وَالنِّسَاءِ وَالْأَعْرَابِ .
 وَالِدَوَاءُ النَّافِعُ لِمِثْلِ هَذَا الْمَرَضِ ، مَا كَانَ طَيِّبُ الْقُلُوبِ صَلَوَاتُ اللَّهِ
 وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ يَقُولُهُ - إِذَا قَامَ مِنَ اللَّيْلِ يَفْتَتِحُ صَلَاتَهُ : «اللَّهُمَّ رَبَّ جِبْرِيلَ
 وَمِيكَائِيلَ وَإِسْرَافِيلَ ، فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ، أَنْتَ
 تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ، اهْدِنِي لِمَا اخْتَلَفَ فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِكَ ،
 إِنَّكَ تَهْدِي مَنْ تَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ » . خَرَجَهُ مُسْلِمٌ ^(١) .

تَوَسَّلَ ﷺ إِلَى رَبِّهِ بِرُبُوبِيَّةِ جِبْرِيلَ وَمِيكَائِيلَ وَإِسْرَافِيلَ أَنْ يَهْدِيَهُ لِمَا اخْتَلَفَ
 فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ ، إِذْ حَيَاةِ الْقَلْبِ بِالْهُدَايَةِ . وَقَدْ وَكَّلَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ هَؤُلَاءِ
 الثَّلَاثَةَ بِالْحَيَاةِ : فَجِبْرِيلُ مُوَكَّلٌ بِالْوَحْيِ الَّذِي هُوَ سَبَبُ حَيَاةِ الْقُلُوبِ ، وَمِيكَائِيلُ
 بِالْقَطْرِ الَّذِي هُوَ سَبَبُ حَيَاةِ الْأَبْدَانِ وَسَائِرِ الْحَيَوَانِ ، وَإِسْرَافِيلُ بِالنَّفْخِ فِي
 الصُّورِ الَّذِي هُوَ سَبَبُ حَيَاةِ الْعَالَمِ وَعَوْدِ الْأَرْوَاحِ إِلَى أَجْسَادِهَا . فَالتَّوَسُّلُ إِلَى
 اللَّهِ سُبْحَانَهُ بِرُبُوبِيَّةِ هَذِهِ الْأَرْوَاحِ الْعَظِيمَةِ الْمُوَكَّلَةِ بِالْحَيَاةِ ، لَهُ تَأْثِيرٌ عَظِيمٌ فِي
 حُصُولِ الْمَطْلُوبِ . وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ .

قال الشيخ:

ذكر الشارح أولاً بقية كلام هؤلاء الذين عرف عنهم الخيرة، منهم:
 الشهرستاني صاحب كتاب «الملل والنحل» .

(١) برقم (٧٧٠) من حديث عائشة رضي الله عنها.

ومنهم: الجويني صاحب كتاب «الإرشاد»، ويسمى والد إمام الحرمين، وله أيضًا مؤلفات، وكلامه في «الإرشاد» دليل على أنه متوغل في علم الكلام. ومنهم: هذا العالم المشهور الذي يسمى الخسر وشاهي، الذي يحلف أنه لا يدري ما يعتقد، ويغبط العامة في عقيدتهم.

هذه الكلمات المنقولة عنهم - وكذلك عن غيرهم - لا شك أنها دليل واضح على أن هذا النوع من علم الكلام نهايته الحيرة، وأتهم لا يشبتون على طريقة، بل حُجج هؤلاء تردُّ حُجج هؤلاء. اعترف أحدهم بأنه بيت الليلة من أولها إلى آخرها وهو يقابل حُجج هؤلاء بحجج هؤلاء، ويصبح ما ترجح عنده منها واحدة، أي فائدة بالعلم بها، وأي فائدة من معرفتها؟!

إذا أسلم الطرق البعد عن هذه الطريقة - التي هي علم الكلام - وهجر أهلها والبعد عنهم، بل عقوبتهم بما قال الشافعي رحمه الله، والعلاج مثل ما ورد في هذا الحديث، وهو قوله ﷺ بعدما توَّسَّل برب هذه الأرواح الثلاثة: «اللَّهُمَّ رَبَّ جِبْرِيلَ وَمِيكَائِيلَ وَإِسْرَافِيلَ، فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ، أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ، اهْدِنِي لِمَا اخْتَلَفَ فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِكَ، إِنَّكَ تَهْدِي مَنْ تَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ». كأنك ترغب إلى الله وتقول: هؤلاء اختلفوا، وأنا لا أدري مع من الحق، فإذا هديتني ووفقتني ودللتني على الصواب، فإني أنا المهتدي، أنت الذي تهدي من تشاء وتضلُّ من تشاء. إذا رغبت العبد وتوَّسَّل بربوبية هؤلاء الملائكة؛ فإنَّ الله تعالى يقبل دعاءه ويحييه لما طلب، ويصرفه عن المحظورات، وعن أضرارها وشرورها.

قال الطحاوي:

وَلَا يَصِحُّ الْإِيمَانُ بِالرُّؤْيَا لِأَهْلِ دَارِ السَّلَامِ لِمَنْ اعْتَبَرَهَا مِنْهُمْ بِوَهْمٍ، أَوْ
تَأْوَلَهَا بِفَهْمٍ؛ إِذْ كَانَ تَأْوِيلُ الرُّؤْيَا، وَتَأْوِيلُ كُلِّ مَعْنَى يُضَافُ إِلَى الرُّؤْيَا، تَرْكُ
التَّأْوِيلِ، وَتَرْوَمُ التَّسْلِيمِ، وَعَلَيْهِ دِينَ الْمُسْلِمِينَ، وَمَنْ لَمْ يَتَوَقَّ النَّفْيَ وَالتَّشْبِيهَ، زَلَّ
وَلَمْ يُصِبِ التَّنْزِيهَ.

قال الشارح:

يُشِيرُ الشَّيْخُ - رَحِمَهُ اللَّهُ - إِلَى الرَّدِّ عَلَى الْمُعْتَزَلَةِ وَمَنْ يَقُولُ بِقَوْلِهِمْ فِي نَفْيِ
الرُّؤْيَا، وَعَلَى مَنْ يُشَبِّهُ اللَّهَ بِشَيْءٍ مِنْ مَخْلُوقَاتِهِ، فَإِنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «إِنَّكُمْ تَرَوْنَ
رَبَّكُمْ كَمَا تَرَوْنَ الْقَمَرَ لَيْلَةَ الْبَدْرِ»^(١)، الْحَدِيثُ. أَدْخَلَ (كَافَ) التَّشْبِيهَ عَلَى (مَا)
الْمُصَدَّرِ أَوْ الْمَوْصُولِ بِ (تَرَوْنَ) الَّتِي تَنْحَلُّ إِلَى الْمَصْدَرِ الَّذِي هُوَ (الرُّؤْيَا)،
فَيَكُونُ التَّشْبِيهُ فِي الرُّؤْيَا لَا فِي الْمَرْيِ. وَهَذَا بَيِّنٌ وَاضِحٌ فِي أَنَّ الْمُرَادَ إِثْبَاتُ الرُّؤْيَا
وَتَحْقِيقُهَا، وَدَفْعُ الْأَحْتِمَالِ عَنْهَا. وَمَاذَا بَعْدَ هَذَا الْبَيَانِ وَهَذَا الْإِيضَاحِ؟! فَإِذَا
سُلِّطَ التَّأْوِيلُ عَلَى مِثْلِ هَذَا النَّصِّ، كَيْفَ يُسْتَدَلُّ بِنَصِّ مِنَ النَّصُوصِ؟! وَهَلْ
يَحْتَمِلُ هَذَا النَّصُّ أَنْ يَكُونَ مَعْنَاهُ: إِنَّكُمْ تَعْلَمُونَ رَبَّكُمْ كَمَا تَعْلَمُونَ الْقَمَرَ لَيْلَةَ
الْبَدْرِ؟! وَيَسْتَشْهَدُ لِهَذَا التَّأْوِيلِ الْفَاسِدِ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ

بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ﴿ [الفيل: ١]، وَنَحْوُ ذَلِكَ مِمَّا اسْتُعْمِلَ فِيهِ (رَأَى) الَّتِي مِنْ أَفْعَالِ الْقُلُوبِ!! وَلَا شَكَّ أَنَّ (رَأَى) تَارَةً تَكُونُ بَصْرِيَّةً، وَتَارَةً تَكُونُ قَلْبِيَّةً، وَتَارَةً تَكُونُ مِنْ رُؤْيَا الْحُلْمِ، وَغَيْرُ ذَلِكَ، وَلَكِنْ مَا يَخْلُو الْكَلَامُ مِنْ قَرِينَةٍ مُخَلَّصٍ أَحَدَ مَعَانِيهِ مِنَ الْبَاقِي. وَإِلَّا لَوْ أَخْلَى الْمُتَكَلِّمُ كَلَامَهُ مِنَ الْقَرِينَةِ الْمُخَلَّصَةِ لِأَحَدِ الْمَعَانِي لَكَانَ مُجْمَلًا مُلْغِزًا، لَا مُبِينًا مُوَضَّحًا. وَأَيُّ بَيَانٍ وَقَرِينَةٍ فَوْقَ قَوْلِهِ: «تَرَوْنَ رَبَّكُمْ كَمَا تَرَوْنَ الشَّمْسَ فِي الظَّهِيرَةِ لَيْسَ دُونَهَا سَحَابٌ»^(١)؟ فَهَلْ مِثْلُ هَذَا مِمَّا يَتَعَلَّقُ بِرُؤْيَا الْبَصَرِ، أَوْ بِرُؤْيَا الْقَلْبِ؟ وَهَلْ يَخْفَى مِثْلُ هَذَا إِلَّا عَلَى مَنْ أَعْمَى اللَّهُ قَلْبُهُ؟

فَإِنْ قَالُوا: أَلْجَأْنَا إِلَى هَذَا التَّأْوِيلِ، حُكْمُ الْعَقْلِ بِأَنَّ رُؤْيَا تَعَالَى مُحَالٌ لَا يَتَصَوَّرُ إِنْكَانَهَا!

فَالْجَوَابُ: أَنَّ هَذِهِ دَعْوَى مِنْكُمْ، خَالَفَكُمْ فِيهَا أَكْثَرُ الْعُقَلَاءِ، وَلَيْسَ فِي الْعَقْلِ مَا يُحِيلُهَا، بَلْ لَوْ عُرِضَ عَلَى الْعَقْلِ مَوْجُودٌ قَائِمٌ بِنَفْسِهِ لَا يُمَكِّنُ رُؤْيَا تَعَالَى لَحَكَمَ بِأَنَّ هَذَا مُحَالٌ.

وَقَوْلُهُ: (لَمِنْ اعْتَبَرَهَا مِنْهُمْ بِوَهْمٍ)، أَيُّ: تَوَهَّمُ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يُرَى عَلَى صِفَةِ كَذَا، فَيَتَوَهَّمُ تَشْبِيهَا، ثُمَّ بَعْدَ هَذَا التَّوَهُّمِ - إِنْ أَثَبَتَ مَا تَوَهَّمَهُ مِنَ الْوَصْفِ - فَهُوَ مُشَبَّهٌ، وَإِنْ نَفَى الرُّؤْيَا مِنْ أَصْلِهَا - لِأَجْلِ ذَلِكَ التَّوَهُّمِ - فَهُوَ جَاوِدٌ مُعْطَلٌ. بَلْ الْوَاجِبُ دَفْعُ ذَلِكَ الْوَهْمِ وَحَدُّهُ، وَلَا يَعْمُ بِنَفْسِهِ الْحَقُّ وَالْبَاطِلُ، فَيَنْفِيهِمَا رَدًّا عَلَى

(١) تقدم تخريجه (٢/١٩٠).

مَنْ أَثَبَّتَ الْبَاطِلَ، بَلِ الْوَاجِبُ رَدُّ الْبَاطِلِ وَإِثْبَاتُ الْحَقِّ.

قال الشيخ:

أولاً: الواجب علينا أن نقبل الصِّفة التي جاءتنا على ظاهرها، لاسيَّما إذا كانت صريحة بعيدة عن التَّوهُّمات، وأن نحملها على المحتمل الذي يمكن أن تتحمَّله، وأن ننزه كلام الله وكلام رسوله ﷺ عن الاحتمالات البعيدة التي فيها شيءٌ من التكلُّف، وفيها صرف للفظ عن المتبادر منه، وعن ما يفهمه المخاطب لأوَّل وهلة؛ وذلك لأنَّ كلام الله تعالى أفصح الكلام وأوضحه وأجله معنىً وأقرب إلى أن يفهم، ولا يحتاج إلى إيضاح زائد، وليس ككلام الملغزين أهل الألغاز وأهل الإشارات الخفية. وهكذا أيضًا كلام نبيِّه ﷺ، فإنَّه أفصح الخلق وأنصحهم، وإذا كان فصيحًا؛ فلا بدَّ أنَّه سيتكلَّم بما يعرفه المخاطبون ويفهمونه، بحيث لا يشكُّون في مقصده، وكذلك إذا كان أنصح الخلق وأحبَّهم لمعرفة الأُمَّة، وأحبَّهم لنجاتها، وأحبَّهم لإبعادها عن الأشياء الوهميَّة، إذا كان كذلك، فلا بدَّ أنَّه يوضِّح لهم، ولا يترك لهم الكلام ملتبسًا، ولا يتكلَّم بكلام موهم، حاشاه أن يتكلَّم بكلام يفهم منه غير ما يُراد.

والصَّحابة - رضي الله عنهم - تقبلوا كلامه ﷺ، وحملوه على ما هو عليه دون أن يسألوه ويناقشوه، ودون أن يفسِّروا كلامه بما لا يحتمله، حتَّى جاء بعض الخلف المتأخِّرين الذين ذكروا في قوله تعالى: ﴿ فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ

وَرَثُوا الْكُتُبَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَذَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا ﴿ [الأعراف: ١٦٩]،
يعني: أنهم قاموا مقامهم في وراثة الكتاب، ولكنهم لم يعملوا به، فهو لاء
الخلف الذين جاؤوا بعد السلف هم الذين عملوا هذه الأعمال، وهي
التأويلات البعيدة، التي تكلفوا فيها، وصرفوها عن ما هو مقصود بها.

فقد تقدم قول الله تعالى: ﴿ وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاصِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ [القيامة:
٢٢-٢٣]، الوجوه معروف أنها محل العيون، والعينان مركبة في الوجه، فإذا كان
الوجه مقابلاً؛ فإن العين تنظر، فالله تعالى قال: ﴿ وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاصِرَةٌ ﴾، وقال
تعالى: ﴿ وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ ﴾ [القيامة: ٢٤]، وفي سورة أخرى: ﴿ وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ
خَاشِعَةٌ ﴾ [الغاشية: ٢]، و﴿ وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ﴾ [الغاشية: ٨]، فجعل الوجوه
علامة على الشقاء أو السعادة، كما في آية أخرى: ﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ
وُجُوهٌ ﴾ [آل عمران: ١٠٦]، فالوجه هو الذي تكون فيه علامة الإشراق
والسعادة أو علامة الاسوداد والشقاوة.

فإذا قال الله: ﴿ وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاصِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾، أي كلام يكون أفصح
من هذا الذي يفهم منه أن الوجوه تنظر إلى ربها؟

جاء قوم من هؤلاء الخلف وسلطوا التأويل عليه، وقالوا: إن المراد بالنظر
هنا الانتظار، أو المراد نظر الثواب لا نظر الرب تعالى، فيقولون: ﴿ إِلَىٰ رَبِّهَا ﴾
يعني: إلى ثواب ربها. فما الدليل على أنها على هذا القدر؟ هل في الكلام

المحذوف؟! الله تعالى أعلى من أن يوهم كلامه ويجعله خفياً ليس بجلي، فكيف يقال: ناظرةً إلى ثواب الله، أو إلى آلائه ونعمه؟!!

وإذا عرفنا ذلك؛ فإن كلام النبي ﷺ أيضاً فصيح، بعثه الله باللغة الفصحى، وهو أفصح من نطق بالضاد، أفصح العرب، كلامه أيضاً في غاية الوضوح والفصاحة والبيان، فقوله ﷺ - مثلاً - في حديث جرير ؓ: «إِنَّكُمْ سَتَرُونَ رَبَّكُمْ عِيَانًا، كَمَا تَرُونَ هَذَا الْقَمَرَ، لَا تُضَامُونَ فِي رُؤْيِيهِ»^(١)، ويقول في حديث أبي هريرة ؓ: «هَلْ تُضَارُونَ فِي رُؤْيَةِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ؟»، قالوا: لَا يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: «هَلْ تُضَارُونَ فِي الشَّمْسِ لَيْسَ دُونَهَا سَحَابٌ؟»، قالوا: لَا، قَالَ: «فَإِنَّكُمْ تَرُونَهُ كَذَلِكَ»^(٢)، أليس هذا واضحاً في أن المراد النظر والمعينة بالعين؟!!

جاء هؤلاء الخلف وسلطوا عليه التأويل، وقالوا: المراد العلم، «إِنَّكُمْ سَتَرُونَ رَبَّكُمْ»، يعني: ستعلمون ربكم. ونحن نقول: هم يعلمونه في الدنيا؛ فكيف قال ستعلمون؟! كأنهم ما علموا؟!!

حرف السين يفيد الاستقبال لشيء مستقبل، لو كان قائل هذا مراده العلم، لقالوا: نحن نعلم ربنا، ونعلم أنه ربنا، ولكنه قال: «إِنَّكُمْ سَتَرُونَ رَبَّكُمْ»، يعني: يوم القيامة، يعني: في الآخرة وفي الجنة، ثم لماذا قال: كَمَا تَرُونَ

(١) تقدم تخريجه (٢/ ١٥٠).

(٢) تقدم تخريجه (٢/ ١٩٠).

هَذَا الْقَمَرُ؟ هل هم كانوا يرون القمر في تلك السَّاعَةِ؟ وإذا كانوا يرونه هل يشكُّون في أن هذا هو القمر؟ هذا من التَّأويل البعيد، كيف يقاس على قوله: ﴿الَّذِينَ تَرَكَوْا فِعْلَ رَبِّكَ يَا صَحَابِ الْفِيلِ﴾ [الفيل: ١]، يعني: ألم تعلم، أو: ﴿الَّذِينَ تَرَكَوْا فِعْلَ رَبِّكَ يَا صَحَابِ الْفِيلِ﴾ [الفيل: ١]، يعني: ألم تعلم، وكذلك الآيات التي فيها: ﴿الَّذِينَ تَرَكَوْا فِعْلَ رَبِّكَ يَا صَحَابِ الْفِيلِ﴾ [البقرة: ٢٤٣]، ﴿الَّذِينَ تَرَكَوْا فِعْلَ رَبِّكَ يَا صَحَابِ الْفِيلِ﴾ [البقرة: ٢٤٦]، ﴿الَّذِينَ تَرَكَوْا فِعْلَ رَبِّكَ يَا صَحَابِ الْفِيلِ﴾ [غافر: ٦٩]، ﴿الَّذِينَ تَرَكَوْا فِعْلَ رَبِّكَ يَا صَحَابِ الْفِيلِ﴾ [المجادلة: ٨]، ﴿الَّذِينَ تَرَكَوْا فِعْلَ رَبِّكَ يَا صَحَابِ الْفِيلِ﴾ [الحشر: ١١]، فالمراد هنا الرؤية العلميَّة، يعني: ألم تر بقلبك، لا مناسبة بين هذه وبين قوله ﷺ: «سَرَوْنَ رَبَّكُمْ»، فهنا دخلت السَّيْنُ، يعني: أنه في المستقبل، وأكد بقوله ﷺ: «كَمَا تَرَوْنَ هَذَا الْقَمَرَ، لَا تُضَامُونَ فِي رُؤْيَيْهِ»، أي: لا تشكُّون في رؤيته، فبينهما فرق، فُعرِفَ بذلك أن هذه تأويلات بعيدة لا يحتاج إليها عاقل ولا يصدِّقها.

وأما قولهم: حملنا على ذلك أن الرؤية لله فيها تشبيه، فإذا قلنا: إنه يُرى، فقد شبهناه بخلقه - تعالى الله عن قولهم -.

قلنا: ما الذي أشعركم؟ لا يلزم من ذلك لو رأوه كلُّهم هل يلزم أن يكون مشابهاً لخلقه؟ حاشا وكلاً، فالله سبحانه ليس كمثله شيء، ولا يلزم إذا رأوه أن يكون مماثلاً لشيء من مخلوقاته؛ بل هو كما يشاء، قد أكَّد النبي ﷺ هذه الرؤية، وأخبر بأنها من أعلى نعيم أهل الجنَّة، وأنها غاية مقصدهم ومرارهم،

حتى يقول بعضهم:

فَلَوْ أَنِّي اسْتَطَعْتُ غَضَضْتُ طَرْفِي فَلَمْ أَنْظُرْ بِهِ حَتَّى أَرَ الْكَافِرَ^(١)

فعلى كل حال لا يلتفت إلى تلك التأويلات، والمؤمن يتقبل هذه النصوص، ثم يعرف الفائدة، وهي رسوخ عقيدته في قلبه، وأنه مؤمن بالله وبما جاء عن الله، ويقينه وتصديقه بأن المؤمنين يرون ربهم في دار كرامته، وبأن المؤمنين يتنعمون ويلتذون بهذه الرؤية، وأنهم من جملة نعيمهم، وقبوله للأدلة التي دلت على ذلك وعدم تسليطه للتأويلات، وإعراضه عن تأويلات المتكلمين وعدم الإصغاء إلى أقوالهم، وإعراضه عن الأدلة العقلية التي ولدوها، والتي زعموا أنها براهين، وهي في الحقيقة شبهات وضلالات.

(١) راجع (٢/١٣٤).

قال الشارح:

وإِلَى هَذَا الْمَعْنَى أَشَارَ الشَّيْخُ - رَحِمَهُ اللَّهُ - بِقَوْلِهِ: (وَمَنْ لَمْ يَتَوَقَّ النَّفْسِيَّ وَالتَّشْبِيهَ، زَلَّ وَلَمْ يُصِبِ التَّنْزِيهَ)، فَإِنَّ هَؤُلَاءِ الْمُعْتَزِلَةَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ يُنْزَهُونَ اللَّهَ بِهَذَا النَّفْسِيَّ! وَهَلْ يَكُونُ التَّنْزِيهَ بِنَفْسِي صِفَةَ الْكَمَالِ؟ فَإِنَّ نَفْسِي الرَّؤْيِيَةَ لَيْسَ بِصِفَةِ كَمَالٍ؛ إِذِ الْمَعْدُومُ لَا يُرَى، وَإِنَّمَا الْكَمَالُ فِي إِثْبَاتِ الرَّؤْيِيَةِ وَنَفْسِي إِدْرَاكِ الرَّائِي لَهْ إِدْرَاكِ إِحَاطَةٍ، كَمَا فِي الْعِلْمِ، فَإِنَّ نَفْسِي الْعِلْمِ بِهِ لَيْسَ بِكَمَالٍ، وَإِنَّمَا الْكَمَالُ فِي إِثْبَاتِ الْعِلْمِ وَنَفْسِي الْإِحَاطَةِ بِهِ عِلْمًا، فَهِيَ سُبْحَانَهُ لَا يُحَاطُ بِهِ رُؤْيِيَةً، كَمَا لَا يُحَاطُ بِهِ عِلْمًا. وَقَوْلُهُ: (أَوْ تَأَوَّلَهَا بِفَهْمِ)، أَي: ادَّعَى أَنَّهُ فَهَمَ لَهَا تَأْوِيلًا يُخَالِفُ ظَاهِرَهَا، وَمَا يَفْهَمُهُ كُلُّ عَرَبِيٍّ مِنْ مَعْنَاهَا، فَإِنَّهُ قَدْ صَارَ اضْطِرَاحَ الْمُتَأَخِّرِينَ فِي مَعْنَى التَّأْوِيلِ: أَنَّهُ صَرَفَ اللَّفْظَ عَنْ ظَاهِرِهِ، وَبِهَذَا تَسَلَّطَ الْمُحَرِّفُونَ عَلَى النُّصُوصِ، وَقَالُوا: نَحْنُ نَتَأَوَّلُ مَا يُخَالِفُ قَوْلَنَا، فَسَمَّوْا التَّحْرِيفَ تَأْوِيلًا، تَرْبِيئًا لَهُ وَرُخْرَفَةً لِيُقْبَلَ، وَقَدْ ذَمَّ اللَّهُ الَّذِينَ رُخْرَفُوا الْبَاطِلَ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ

نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيْطَانِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ رُخْرَفَ الْقَوْلِ غُرُوبًا ﴿[الأنعام: ١١٢]، وَالْعِبْرَةُ لِلْمَعَانِي لَا لِلْأَلْفَاظِ، فَكَمْ مِنْ بَاطِلٍ قَدْ أُقِيمَ عَلَيْهِ دَلِيلٌ مُرْخَرَفٌ غُورِضٌ بِهِ دَلِيلُ الْحَقِّ.

وَكَلامُهُ هُنَا نَظِيرُ قَوْلِهِ فِيمَا تَقَدَّمَ: (لَا نَدْخُلُ فِي ذَلِكَ مُتَأَوِّلِينَ بِأَرَائِنَا، وَلَا مُتَوَهِّمِينَ بِأَهْوَائِنَا)، ثُمَّ أَكَّدَ هَذَا الْمَعْنَى بِقَوْلِهِ: (إِذْ كَانَ تَأْوِيلُ الرَّؤْيِيَةِ، وَتَأْوِيلُ كُلِّ مَعْنَى يُضَافُ إِلَى الرَّبُوبِيَّةِ: تَرْكُ التَّأْوِيلِ، وَلُزُومُ التَّسْلِيمِ، وَعَلَيْهِ دِينَ

المُسْلِمِينَ). وَمُرَادُهُ: تَرَكَ التَّأْوِيلَ الَّذِي يُسَمُّونَهُ تَأْوِيلًا، وَهُوَ تَحْرِيفٌ، وَلَكِنَّ الشَّيْخَ - رَحِمَهُ اللَّهُ - تَأَدَّبَ وَجَادَلَ بِالتِّي هِيَ أَحْسَنُ، كَمَا أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى بِقَوْلِهِ: ﴿وَجَادِلْهُمْ بِالتِّي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥]، وَلَيْسَ مُرَادُهُ تَرَكَ كُلَّ مَا يُسَمَّى تَأْوِيلًا، وَلَا تَرَكَ شَيْءٍ مِنَ الظَّوَاهِرِ لِبَعْضِ النَّاسِ لِذَلِيلِ رَاجِحٍ مِنَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، وَإِنَّمَا مُرَادُهُ: تَرَكَ التَّأْوِيلَاتِ الْفَاسِدَةَ الْمُبْتَدِعَةَ، الْمُخَالَفَةَ لِمَذْهَبِ السَّلَفِ، الَّتِي يَدُلُّ الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ عَلَى فَسَادِهَا، وَتَرَكَ الْقَوْلَ عَلَى اللَّهِ بِإِلَاعِمٍ. فَمِنَ التَّأْوِيلَاتِ الْفَاسِدَةِ: تَأْوِيلُ أُدْلَةِ الرُّؤْيِيَّةِ، وَأُدْلَةِ الْعُلُوِّ، وَأَنَّهُ لَمْ يَكَلِّمْ مُوسَى تَكَلِيمًا، وَلَمْ يَتَّخِذْ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا!

قال الشيخ:

نعرف أن هؤلاء المعتزلة ونحوهم هم الذين توسَّعوا في هذا المجال، وحلوا غيرهم على أن يتوسَّعوا فيه، ولم يكن السلف - رحمهم الله - يتوسَّعون في هذا الكلام، بل يقبلونه على ما هو عليه، ولا يتقبَّون عن شيء من الإيرادات التي يوردها عليهم أهل التعطيل، فكان كلام السلف - رحمهم الله - قليلًا، ولكنَّ معناه كثير، وكانوا يقبلون النصوص، ويعرفون معناها ويفهمونها، ويعلمون ما قصد منها، فيقرؤون - مثلًا - الآيات التي وردت في الصفات، ويعلمون أنَّها صفات ثابتة، ولكن يعلمون أنَّها تخالف صفات المخلوق؛ لأنَّ الله ليس كمثله شيء، ويعلمون أن من تلك الصفات صفة العلم وصفة

الرؤية، وأتمها حقيقة، ولكنها ليست كصفات المخلوقين.

ويعلمون أن الله تعالى ما نفى عن نفسه إلا النقائص، كل شيء فيه نقص فإنه قد نفاه، فيقول تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١]، أي: لا يماثله شيء؛ لأن المخلوق يأتي عليه الفناء، والله تعالى ليس كذلك، ويقول تعالى: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ [مريم: ٦٥]، أي: لا أحد يستحق أن يسمى «الله» أو «إله» أو نحو ذلك؛ وذلك لنقص المخلوقات التي تسمى بذلك، وقال تعالى: ﴿لَا تَأْخُذْهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، نفى ذلك عن نفسه لأنه نقص، فالنوم أخو الموت، وقد نفى الموت أيضًا عن نفسه، فقال: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ﴾ [الفرقان: ٥٨]، فنفى الموت عن نفسه لأنه نقص، ونفى عن نفسه - أيضًا - عزوب شيء أو نسيانه، فقال: ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ﴾ [يونس: ٦١]، لا يعزب يعني: لا يغيب عنه، ولا ينسى شيئًا؛ لأن النسيان نقص فنفاه عن نفسه، ونفى عن نفسه اللغوب فقال: ﴿وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ﴾ [ق: ٣٨]، واللغوب هو: التعب والسامة والنصب، وذلك أيضًا نقص.

فكل النقائص نزه الله عنها نفسه؛ وذلك لما يرد عليها من التغير، لم ينف عن نفسه الرؤية أنه لا يرى، ولو كان نقصًا لنفاه، والرؤية صفة كمال وعدمها صفة نقص؛ وذلك لأن المعدوم لا يرى، والمعدوم ليس بشيء، والذي ليس بشيء هو كاسمه ليس بشيء، فأثبت الله تعالى أنه يرى، ولكن نفى عن نفسه إحاطة الأبصار به في قوله: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾ [الأنعام: ١٠٣]، يعني:

لا تحيط به، إذا رأته، فإنها لا تحيط به، ترى ما يبدو وما يتجلى منه ولا تحيط به، وهو يدرك الأبصار.

وقد تقدّم أن الرؤية غير الإدراك، فالله ما نفى إلا الإدراك، والإدراك هو الإحاطة، وقد تقدّم أن عكرمة قال لرجل يحتج على نفي الرؤية بقوله تعالى: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾، فقال له: ألسنت ترى السماء؟ قال: بلى، قال: فكيف ترى؟^(١)، فذلك الإدراك، نحن نرى السماء، ولكن لا ندركها، ولا ندري ما ماهيتها، ونرى الشمس والقمر، ولكن لا ندرك ماهيتها، ولا من أي شيء، ونرى هذا السحاب وهذه النجوم، ولكن لا ندركها، أبصارنا تضعف عن أن تحيط بها وعن أن تعلم ماهيتها.

إذا فالرؤية شيء غير الإدراك، والإدراك زائد على الرؤية، فمن تعظيم الله أنه يرى ولا يدرك، كذلك من تعظيم الله تعالى أنه يعلم ولا يحاط بعلمه، قال تعالى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وقال تعالى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾ [طه: ١١٠]، أي: لا يعلمون إلا ما أعلمهم؛ وذلك لنقص المخلوقين وعظمة الخالق سبحانه وتعالى، فهم مهما علموا فإنهم لا يعلمون تفاصيل ذات الله تعالى، ولا ما هو عليه إلا ما أطلعهم عليه. فهذا هو بيان الفرق بين ما يقوله هؤلاء وبين ما يقوله أهل السنة.

(١) تقدم تحريجه (١/٣٥٦).

أما كونهم سلطوا على ذلك التأويل، فقالوا - مثلاً -: آية الرؤية تدل على إثبات صفة تشبيهه، أو نحو ذلك، فنحن نسلط عليها التأويل.

فنقول: لا حاجة بنا إلى تأويلكم، ولا حاجة بها إلى هذا التأويل، بل انفوا عنها التشبيه وتسلمون.

واصطلحوا على أن التأويل صرف اللفظ عن ظاهره، قالوا - مثلاً -: ظاهر قوله تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [القصص: ٨٨]، أن الله وجهها، ولكن نصرفه فنقول: الوجه الذات، فنقول: كل شيء هالك إلا ذاته! فهذا أيضاً تأويل، ويقولون: ظاهر قوله تعالى: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ [المائدة: ٦٤]، أن الله يدين، وفي إثباتها تشبيهه، ونحن نفر من التشبيهه، فلاجل ذلك نسلط عليها التأويل، فنقول: المراد باليدين النعمة، أو القدرة! وهذا بعيد، فقوله تعالى: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾، يعني: مبسوطتان بالعطاء، وقد أكد ذلك النبي ﷺ فقال: «يَدُ اللَّهِ مَلَأَى لَا تَغِيضُهَا نَفَقَةٌ سَحَاءُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَقَالَ: أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْفَقَ مُنْذُ خَلَقَ السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ، فَإِنَّهُ لَمْ يَغْضُ مَا فِي يَدِهِ، وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ، وَبِيَدِهِ الْمِيزَانَ يُخْفِضُ وَيَرْفَعُ» (١).

وقد أثبت الله - سبحانه وتعالى - لنفسه اليمين بقوله: ﴿وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾ [الزمر: ٦٧]، فكيف

(١) أخرجه البخاري (٤٦٨٤)، ومسلم (٩٩٣) من حديث أبي هريرة ؓ.

تقولون: اليد القدرة؟! هذا من التأويل البعيد.

وهكذا قولهم: إنَّ كلام الله المعنى لا اللَّفْظ، فهذا أيضًا من التأويل،
وهكذا قولهم: إنَّ رحمة الله إرادة الإحسان، أو غضبه: إرادة الانتقام، كلُّ ذلك
يسمونه تأويلًا.

فأهل السُّنة لا يدخلون في باب التأويل، والواجب عليهم أن يقتصروا
على نفي التشبيه، وهذا هو معنى قول الماتن: (وَمَنْ لَمْ يَتَوَقَّ النَّفْيَ وَالتَّشْبِيهَ، رَلَّ
وَلَمْ يُصِبِ التَّنْزِيهَ)، كان كثير من السلف إذا رأوا الإنسان يبالغ في النفي اتهموه
بالتجهم؛ لأنَّ الذين يبالغون في النفي لا يتوقُّون النفي ولا يتوقُّون التنزيه أو
التشبيه، وهم أقرب إلى أن يكونوا مشبهة من غيرهم، وقد بين شيخ الإسلام
ابن تيمية - رحمه الله - في بعض كتبه أنَّ هؤلاء مشبهة، ولو ادعوا أنَّهم يهربون
من التشبيه. وكيف يكونون مشبهة؟

أولاً: أنَّه ارتسم في قلوبهم أنَّ تلك الصِّفات دالة على التشبيه، وما فهموا
من النصوص إلا التشبيه.

ثانياً: أنَّهم لمَّا نفوا الصِّفات نفياً كلياً، وقعوا في التشبيه بالجمادات، أو
التشبيه بالمعدومات، أو التشبيه بالمستحيلات، فأصبحوا بذلك مشبهين، فقبل
لهم: أنتم مشبهة.

فعلى كلِّ حال تأويلاتهم التي يتأولون بها النصوص يردُّها كلُّ ذي عقل

سليم.

قال الشارح:

ثُمَّ قَدْ صَارَ لَفْظُ التَّأْوِيلِ مُسْتَعْمَلًا فِي غَيْرِ مَعْنَاهُ الْأَصْلِيِّ.
فالتَّأْوِيلُ فِي كِتَابِ اللَّهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ: هُوَ الْحَقِيقَةُ الَّتِي يُتَوَلَّى إِلَيْهَا الْكَلَامُ،
فَتَأْوِيلُ الْخَيْرِ: هُوَ عَيْنُ الْمُخْبِرِ بِهِ، وَتَأْوِيلُ الْأَمْرِ نَفْسُ الْفِعْلِ الْمَأْمُورِ بِهِ. كَمَا قَالَتْ
عَائِشَةُ . رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا :- كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَسَلَّمَ يَقُولُ فِي رُكُوعِهِ:
«سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا وَبِحَمْدِكَ، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي»، يَتَأَوَّلُ الْقُرْآنَ (١). وَقَالَ تَعَالَى:
﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلَهُ يَقُولُ الَّذِينَ الَّذِينَ ذُكِرَتْ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلٌ
رَبَّنَا بِالْحَقِّ ﴾ [الأعراف: ٥٣]، وَمِنْهُ تَأْوِيلُ الرُّؤْيَا، وَتَأْوِيلُ الْعَمَلِ، كَقَوْلِهِ: ﴿ هَذَا
تَأْوِيلُ رُءْيَايَ مِنْ قَبْلُ ﴾ [يوسف: ١٠٠]، وَقَوْلِهِ: ﴿ وَيُعَلِّمُكَ مِنَ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ ﴾
[يوسف: ٦]، وَقَوْلِهِ: ﴿ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾ [النساء: ٥٩]، وَقَوْلِهِ:
﴿ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا ﴾ [الكهف: ٧٨]، إِلَى قَوْلِهِ: ﴿ ذَلِكَ
تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا ﴾ [الكهف: ٨٢]، فَمَنْ يُنْكِرُ وَقُوعَ مِثْلِ هَذَا التَّأْوِيلِ،
وَالْعِلْمَ بِمَا تَعَلَّقَ بِالْأَمْرِ وَالنَّهْيِ مِنْهُ؟!
وَأَمَّا مَا كَانَ خَبْرًا، كَالْإِخْبَارِ عَنِ اللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، فَهَذَا قَدْ لَا يُعْلَمُ
تَأْوِيلُهُ، الَّذِي هُوَ حَقِيقَتُهُ؛ إِذْ كَانَتْ لَا تُعْلَمُ بِمُجَرَّدِ الْإِخْبَارِ، فَإِنَّ الْمُخْبِرَ إِنْ لَمْ
يَكُنْ قَدْ تَصَوَّرَ الْمُخْبِرَ بِهِ، أَوْ مَا يَعْرِفُهُ قَبْلَ ذَلِكَ، لَمْ يَعْرِفْ حَقِيقَتَهُ، الَّتِي هِيَ

(١) أخرجه البخاري (٠٨١٧)، ومسلم (٤٨٤).

تَأْوِيلُهُ، بِمَجْرَدِ الْإِخْبَارِ. وَهَذَا هُوَ التَّأْوِيلُ الَّذِي لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا اللَّهُ، لَكِنْ لَا يَلْزَمُ مِنْ نَفْيِ الْعِلْمِ بِالتَّأْوِيلِ نَفْيُ الْعِلْمِ بِالْمَعْنَى الَّذِي قَصَدَ الْمُخَاطَبُ إِفْهَامَ الْمُخَاطَبِ إِلَيْهَا، فَمَا فِي الْقُرْآنِ آيَةٌ إِلَّا وَقَدْ أَمَرَ اللَّهُ بِتَدْبِيرِهَا، وَمَا أَنْزَلَ آيَةً إِلَّا وَهُوَ مُحِيبٌ أَنْ يُعْلَمَ مَا عَنَى بِهَا، وَإِنْ كَانَ مِنْ تَأْوِيلِهِ مَا لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا اللَّهُ. فَهَذَا مَعْنَى التَّأْوِيلِ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَكَلَامِ السَّلَفِ، وَسَوَاءٌ كَانَ هَذَا التَّأْوِيلُ مُوَافِقًا لِلظَّاهِرِ أَوْ مُخَالَفًا لَهُ.

وَالتَّأْوِيلُ فِي كَلَامِ كَثِيرٍ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ، كَابْنِ جَرِيرٍ وَنَحْوِهِ، يُرِيدُونَ بِهِ تَفْسِيرَ الْكَلَامِ وَبَيَانَ مَعْنَاهُ، سَوَاءً وَافَقَ ظَاهِرُهُ أَوْ خَالَفَ، وَهَذَا اضْطِرَاحٌ مَعْرُوفٌ، وَهَذَا التَّأْوِيلُ كَالْتَفْسِيرِ، يُحْمَدُ حَقُّهُ، وَيُرَدُّ بَاطِلُهُ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾، الْآيَةُ [آل عمران: ٧]، فِيهَا قِرَاءَتَانِ: قِرَاءَةٌ مَنْ يَقِفُ عَلَى قَوْلِهِ: ﴿إِلَّا اللَّهُ﴾، وَقِرَاءَةٌ مَنْ لَا يَقِفُ عِنْدَهَا، وَكِلْتَا الْقِرَاءَتَيْنِ حَقٌّ، وَيُرَادُ بِالْأُولَى: الْمُتَشَابِهُ فِي نَفْسِهِ الَّذِي اسْتَأْثَرَ اللَّهُ بِعِلْمِ تَأْوِيلِهِ، وَيُرَادُ بِالثَّانِيَةِ: الْمُتَشَابِهُ الْإِضَافِيُّ الَّذِي يَعْرِفُ الرَّاسِخُونَ تَفْسِيرَهُ، وَهُوَ تَأْوِيلُهُ.

وَلَا يُرِيدُ مَنْ وَقَفَ عَلَى قَوْلِهِ: ﴿إِلَّا اللَّهُ﴾ أَنْ يَكُونَ التَّأْوِيلُ بِمَعْنَى التَّفْسِيرِ لِلْمَعْنَى، فَإِنَّ لَازِمَ هَذَا أَنْ يَكُونَ اللَّهُ أَنْزَلَ عَلَى رَسُولِهِ كَلَامًا لَا يَعْلَمُ مَعْنَاهُ جَمِيعُ الْأُمَّةِ وَلَا الرَّسُولُ، وَيَكُونُ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ لَا حَظَّ لَهُمْ فِي مَعْرِفَةِ مَعْنَاهَا سِوَى قَوْلِهِمْ: ﴿ءَأَمَّنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا﴾ [الأعراف: ٧]، وَهَذَا الْقَدْرُ يَقُولُهُ غَيْرُ

الرَّاسِخِ فِي الْعِلْمِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَجِبُ امْتِيَارُهُمْ عَنْ عَوَامِّ الْمُؤْمِنِينَ فِي ذَلِكَ. وَقَدْ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا -: «أَنَا مِنَ الرَّاسِخِينَ فِي الْعِلْمِ الَّذِينَ يَعْلَمُونَ تَأْوِيلَهُ»^(١). وَلَقَدْ صَدَّقَ ﷺ، فَإِنَّ النَّبِيَّ ﷺ دَعَا لَهُ وَقَالَ: «اللَّهُمَّ فَفِّهْهُ فِي الدِّينِ، وَعَلِّمَهُ التَّأْوِيلَ». رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَغَيْرُهُ^(٢). وَدَعَاؤُهُ ﷺ لَا يُرَدُّ. قَالَ مُجَاهِدٌ: «عَرَضْتُ الْمُصْحَفَ عَلَى ابْنِ عَبَّاسٍ، مِنْ أَوْلَاهِ إِلَى آخِرِهِ، أَقْفَهُ عِنْدَ كُلِّ آيَةٍ وَأَسْأَلُهُ عَنْهَا»^(٣). وَقَدْ تَوَاتَرَتِ النُّقُولُ عَنْهُ أَنَّهُ تَكَلَّمَ فِي جَمِيعِ مَعَانِي الْقُرْآنِ، وَلَمْ يَقُلْ عَنْ آيَةٍ: إِنَّمَا مِنَ الْمُتَشَابِهِ الَّذِي لَا يَعْلَمُ أَحَدٌ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ.

قال الشيخ:

مناسبة هذا الكلام أن المبتدعة والمعتزلة ونحوهم يستعملون كلمة التَّأْوِيلَ بمعنى صرف اللفظ عن ظاهره كما ذكرنا قريباً؛ كقولهم في ﴿ثُمَّ أَسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾ [الأعراف: ٥٤]: استولى عليه، فهذا صرف له عن ظاهره، وقوله: ﴿ءَأَمِنْتُمْ مَن فِي السَّمَاءِ﴾ [الملك: ١٦]، أي: في السماء علمه، أو في السماء ملائكته، وهذا صرف للفظ عن ظاهره، وقوله: ﴿تَنزِيلُ الْمَلَائِكَةِ وَالرُّوحِ﴾

(١) أخرجه الطبري (٣/١٨٣).

(٢) أخرجه البخاري (٧٥، ١٤٣)، ومسلم (٢٤٧٧) بنحوه، وأخرجه أحمد (١/٢٦٦) كما أورده الشارح.

(٣) أخرجه الطبري (٢/٣٩٥)، والطبراني في الكبير (١١٠٩٧).

إِلَيْهِ ﴿ [المعارج: ٤]، أي: تصعد إلى ملائكته أو إلى علمه أو نحو ذلك. وهذا تأويل باطل ما أنزل الله عليه دلالةً، ولا أوضحه، ولا أمر به.

فهذا هو التَّأويل المذموم، الَّذِي يذُمَّ السَّلَف، ويقولون: لا تتأولوا، أو: لا تستمعوا إلى هذا التَّأويل الذي يراد به صرف اللَّفْظ عن ظاهره.

وكلمة التَّأويل تأتي بمعنى التفسير، فقد كان ابن جرير - رحمه الله - يقول في تفسيره: «القول في تأويل قوله تعالى»، ومراده: في تفسير الآية، ويقول: «اختلف أهل التَّأويل في تأويل ذلك»، ويقول: «وبمثل الَّذِي قلنا في ذلك قال أهل التَّأويل»، فالمراد أهل التفسير.

أما في لغة القرآن، فقد وردت كلمة التَّأويل، وكذلك في لغة الصحابة والمراد بها حقيقة الشيء وماهية وما يؤول إليه، وذلك مثل قوله تعالى: ﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ. يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلَهُ. ﴾ [الأعراف: ٥٣]، فالمراد حقيقته، أي: هل ينتظرون إلا أن يأتي الأمر الَّذِي يقع ما أُخبروا به، تأويله: أي وقوع ما فيه، فمثلاً تأويل قوله تعالى: ﴿ وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ ﴾ [الأعراف: ٤٤]، تأويله: وقوع المناداة، وكون هؤلاء في الجنة وهؤلاء في النار، وهؤلاء ينادون هؤلاء، إذا وقع ذلك فهذا هو التَّأويل، فيقال مثلاً: هذا هو تلويل الآية التي أُخبرنا بها، يعني: حقيقة ما وقع.

وكذلك مرجع الشيء يُسَمَّى تأويلاً، ومنه قوله تعالى: ﴿ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ

تَأْوِيلًا ﴾ [الإسراء: ٣٥]، يعني: أحسن حقيقةً وأحسن مظهرًا ومرجعًا.

ومنه أيضًا: تأويل الرؤيا، حكى الله عن يوسف - عليه السلام - قوله:

﴿إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾ [يوسف: ٤]، ثم بعد أن جاء إخوته وأبواه ودخلوا عليه، ﴿وَقَالَ أَدْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ﴾ ١١ ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلْنَا رُبِّي حَقًّا﴾ [يوسف: ٩٩، ١٠٠]، يعني: هذه حقيقتها وقع ما تؤول به، وفي الآية الأخرى: ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانٍ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْرًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبَأْنَا بِتَأْوِيلِهِ﴾ [يوسف: ٣٦]، أي: بحقيقته وما يؤول إليه وما وقع. وفي أول السورة يقول الله تعالى: ﴿وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾ [يوسف: ٦]، يعني: حقائقها، وكيف تؤول إليه يعني: ما ترجع إليه.

فالتأويل الذي في قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَبَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ﴾ [آل عمران: ٧]، المراد: ابتغاء معرفة وقوعه وكيفيته وتصوره، وذلك غيبٌ، ولا يعلمه إلا الله، فإذا وقع علموه ولا يقع إلا في يوم القيامة، فمثلاً: آيات الوزن في قوله تعالى: ﴿وَالْوِزْنَ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ﴾ [الأعراف: ٨]، وقوله: ﴿فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ﴾ ٦ ﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ﴾ ٧ ﴿وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ﴾ ٨ ﴿فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ﴾ [القارعة: ٦-٩]، قد يقولون: نريد تأويل هذا الميزان، وما مقداره، وسعة الكفة،

وكيف تميل، وكيف تخفُّ بهذا وثقل بهذا؟ فنقول: تأويله لا يعلمه إلا الله، أي: لا نعلم حقيقة ذلك الوزن، ولا نعلم كيف تكون الأعمال أعراضاً حتى توزن، إنما يظهر إذا بدت، فإذا ظهرت الموازين ووزنت فيها الأعمال، فعند ذلك نقول: هذا تأويل قوله تعالى: ﴿وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ﴾، وهذا تأويل قوله تعالى: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ [الأنبياء: ٤٧]، وهذا تأويله يعني: هذا هو حقيقته.

إذا تطايرت الصُّحف إلى الأيمان والشِّمائل، فنقول: هذا تأويل قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَوْفَىٰ كَتَبَهُ بِيَمِينِهِ﴾ [الحاقة: ١٩]، ﴿وَأَمَّا مَنْ أَوْفَىٰ كَتَبَهُ بِشِمَالِهِ﴾ [الحاقة: ٢٥]، هذا تأويلها، يعني: وقع، وقبل ذلك لا ندري: ما هو الكتاب، ولا كيف يكون الكتاب الذي يحصي الأعمال كلها، كما في قوله تعالى: ﴿مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا﴾ [الكهف: ٤٩]، وكما في قوله: ﴿أَقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء: ١٤]، كيف يكون ذلك الكتاب يقبض باليد؟ هذا ما لا يعلمه إلا الله، فإذا وقع وأُخذت الكتب بالأيمان والشِّمائل عند ذلك نقول: هذا تأويل تلك الآيات التي أخبر الله فيها بأن ذلك سيقع، وأن صورته وكيفيته كذا.

قال الشارح:

وَقَوْلُ الْأَصْحَابِ - رَحِمَهُمُ اللَّهُ - فِي الْأُصُولِ: إِنَّ الْمُتَشَابِهَ الْحُرُوفَ الْمُقَطَّعَةَ فِي أَوَائِلِ السُّورِ، وَيُرْوَى هَذَا عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ. مَعَ أَنَّ هَذِهِ الْحُرُوفَ قَدْ تَكَلَّمَ فِي مَعْنَاهَا أَكْثَرُ النَّاسِ، فَإِنْ كَانَ مَعْنَاهَا مَعْرُوفًا، فَقَدْ عُرِفَ مَعْنَى الْمُتَشَابِهِ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ مَعْرُوفًا، وَهِيَ الْمُتَشَابِهُ، كَانَ مَا سِوَاهَا مَعْلُومَ الْمَعْنَى، وَهَذَا الْمَطْلُوبُ.

وَأَيْضًا فَإِنَّ اللَّهَ قَالَ: ﴿وَمِنْهُ آيَاتٌ مُخْتَفِتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخْرُ مُتَشَابِهَاتٌ﴾

[آل عمران: ٧]، وَهَذِهِ الْحُرُوفُ لَيْسَتْ آيَاتٍ عِنْدَ جُمْهُورِ الْعَادِّينَ.

وَالتَّأْوِيلُ فِي كَلَامِ الْمُتَأَخِّرِينَ مِنَ الْفُقَهَاءِ وَالتَّكَلِّمِينَ: هُوَ صَرْفُ اللَّفْظِ عَنِ الْاِحْتِمَالِ الرَّاجِحِ إِلَى الْاِحْتِمَالِ الْمَرْجُوحِ لِذِلَالَةٍ تُوجِبُ ذَلِكَ. وَهَذَا هُوَ التَّأْوِيلُ الَّذِي يَتَنَازَعُ النَّاسُ فِيهِ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأُمُورِ الْخَبَرِيَّةِ وَالطَّلْبِيَّةِ. فَالتَّأْوِيلُ الصَّحِيحُ مِنْهُ: الَّذِي يُوَافِقُ مَا دَلَّتْ عَلَيْهِ نُصُوصُ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، وَمَا خَالَفَ ذَلِكَ فَهُوَ التَّأْوِيلُ الْفَاسِدُ، وَهَذَا مَبْسُوطٌ فِي مَوْضِعِهِ. وَذَكَرَ فِي «التَّبَصُّرَةِ» أَنَّ نَصِيرَ بْنَ يَحْيَى الْبَلْخِيِّ رَوَى عَنْ عُمَرَ بْنِ إِسْمَاعِيلَ بْنِ حَمَادِ بْنِ أَبِي يَحْيَى بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ الْحَسَنِ - رَحِمَهُمُ اللَّهُ -: أَنَّهُ سُئِلَ عَنِ الْآيَاتِ وَالْأَخْبَارِ الَّتِي فِيهَا مِنْ صِفَاتِ اللَّهِ تَعَالَى مَا يُؤَدِّي ظَاهِرُهُ إِلَى التَّشْبِيهِ؟ فَقَالَ: نَمِرُّهَا كَمَا جَاءَتْ، وَنُؤْمِنُ بِهَا، وَلَا نَقُولُ: كَيْفَ وَكَيْفَ.

وَيَجِبُ أَنْ يُعْلَمَ أَنَّ الْمَعْنَى الْفَاسِدَ الْكُفْرِيَّ لَيْسَ هُوَ ظَاهِرَ السَّخِّ وَلَا مُقْتَضَاهُ، وَأَنَّ مَنْ فِيهِمْ ذَلِكَ مِنْهُ فَهُوَ لِقُصُورِ فَهْمِهِ وَنَقْصِ عِلْمِهِ، وَإِذَا كَانَ

قَدْ قِيلَ فِي قَوْلِ بَعْضِ النَّاسِ^(١):

وَكَمْ مِنْ عَائِبٍ قَوْلًا صَحِيحًا وَأَفْتَهُ مِنَ الْفَهْمِ السَّقِيمِ
وَقِيلَ^(٢):

عَلَى نَحْتِ الْقَوَائِي مِنْ أَمَاكِينِهَا وَمَا عَلَيَّ إِذَا لَمْ تَفْهَمِ الْبَقْرُ
فَكَيْفَ يُقَالُ فِي قَوْلِ اللَّهِ - الَّذِي هُوَ أَصْدَقُ الْكَلَامِ، وَأَحْسَنُ الْحَدِيثِ،
وَهُوَ الْكِتَابُ الَّذِي ﴿أَنْحَكْتَهُ إِلَهُكُمْ فَصَلَّتْ مِنْ لَدُنِّ حَكِيمٍ خَيْرٍ﴾ [هود: ١] :- إِنَّ
حَقِيقَةَ قَوْلِهِمْ إِنَّ ظَاهِرَ الْقُرْآنِ وَالْحَدِيثِ هُوَ الْكُفْرُ وَالضَّلَالُ، وَإِنَّهُ لَيْسَ فِيهِ بَيَانٌ
لِمَا يَصْلُحُ مِنَ الْأَعْتِقَادِ، وَلَا فِيهِ بَيَانُ التَّوْحِيدِ وَالتَّزْيِيهِ؟! هَذَا حَقِيقَةُ قَوْلِ
الْمُتَأَوِّلِينَ.

وَالْحَقُّ أَنَّ مَا دَلَّ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ فَهُوَ حَقٌّ، وَمَا كَانَ بَاطِلًا لَمْ يَدُلَّ عَلَيْهِ.
وَالْمُنَازِعُونَ يَدْعُونَ دَلَالَتهَ عَلَى الْبَاطِلِ الَّذِي يَتَعَبَّنُ صَرْفُهُ!

فَيُقَالُ لَهُمْ: هَذَا الْبَابُ الَّذِي فَتَحْتُمُوهُ، وَإِنْ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ أَنَّكُمْ تَنْتَصِرُونَ
بِهِ عَلَى إِخْوَانِكُمُ الْمُؤْمِنِينَ فِي مَوَاضِعَ قَلِيلَةٍ حَقِيقَةٍ، فَقَدْ فَتَحْتُمْ عَلَيْكُمْ بَابًا لِأَنْوَاعِ
الْمُشْرِكِينَ وَالْمُبْتَدِعِينَ، لَا تَقْدِرُونَ عَلَى سَدِّهِ، فَإِنَّكُمْ إِذَا سَوَّغْتُمْ صَرْفَ الْقُرْآنِ
عَنِ دَلَالَتِهِ الْمَفْهُومَةِ بِغَيْرِ دَلِيلٍ شَرْعِيِّ، فَمَا الضَّيَابِطُ فِيمَا يَسُوعُ تَأْوِيلُهُ وَمَا
لَا يَسُوعُ؟ فَإِنْ قُلْتُمْ: مَا دَلَّ الْقَاطِعُ الْعَقْلِيُّ عَلَى اسْتِحَالَتِهِ تَأْوِيلُنَا، وَإِلَّا أَقْرَبْنَا!

(١) البيت للمنتبي، انظر: ديوانه بشرح عبد الرحمن البرقوقي (٤/ ٢٤٦).

(٢) البيت للبحري، انظر: معجم الأدباء (٥/ ٥٧٣).

قِيلَ لَكُمْ: وَيَأَيَّ عَقْلِ نَزِنُ الْقَاطِعَ الْعَقْلِيَّ؟ فَإِنَّ الْقَرْمِطِيَّ الْبَاطِنِيَّ يَزْعُمُ قِيَامَ الْقَوَاطِعِ عَلَى بُطْلَانِ ظَوَاهِرِ الشَّرْعِ! وَيَزْعُمُ الْفَيْلَسُوفُ قِيَامَ الْقَوَاطِعِ عَلَى بُطْلَانِ حَشْرِ الْأَجْسَادِ! وَيَزْعُمُ الْمُعْتَزِلِيُّ قِيَامَ الْقَوَاطِعِ عَلَى امْتِنَاعِ رُؤْيَةِ اللَّهِ تَعَالَى، وَعَلَى امْتِنَاعِ قِيَامِ عِلْمٍ أَوْ كَلَامٍ أَوْ رَحْمَةٍ بِهِ تَعَالَى!! وَبَابُ التَّأْوِيلَاتِ الَّتِي يَدَّعِي أَصْحَابُهَا وَجُوبَهَا بِالْمَعْقُولَاتِ أَعْظَمُ مِنْ أَنْ تَنْحَصِرَ فِي هَذَا الْمَقَامِ.

وَيَلْزَمُ حِينَئِذٍ مَحْدُورَانِ عَظِيمَانِ:

أَحَدُهُمَا: أَنْ لَا نُقَرِّبَ شَيْءٍ مِنْ مَعَانِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ حَتَّى نَبْحَثَ قَبْلَ ذَلِكَ يُحُوثًا طَوِيلَةً عَرِيضَةً فِي إِمْكَانِ ذَلِكَ بِالْعَقْلِ! وَكُلُّ طَائِفَةٍ مِنَ الْمُحْتَلِفِينَ فِي الْكِتَابِ يَدَّعُونَ أَنَّ الْعَقْلَ يَدُلُّ عَلَى مَا ذَهَبُوا إِلَيْهِ، فَيُؤَوِّلُ الْأَمْرَ إِلَى الْحَيْرَةِ.

الْمَحْدُورُ الثَّانِي: أَنَّ الْقُلُوبَ تَتَخَلَّى عَنِ الْجَزْمِ بِشَيْءٍ تَعْتَقِدُهُ مِمَّا أَخْبَرَ بِهِ الرَّسُولُ؛ إِذْ لَا يُوثِقُ بِأَنَّ الظَّاهِرَ هُوَ الْمُرَادُ، وَالتَّأْوِيلَاتُ مُضْطَرِبَةٌ، فَيَلْزَمُ عَزْلُ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ عَنِ الدَّلَالَةِ وَالْإِرْشَادِ إِلَى مَا أَنْبَأَ اللَّهُ بِهِ الْعِبَادَ، وَخَاصَّةَ النَّبِيِّ هِيَ الْإِنْبَاءُ، وَالْقُرْآنُ هُوَ النَّبَأُ الْعَظِيمُ؛ وَلِهَذَا نَحْدُ أَهْلَ التَّأْوِيلِ إِنَّمَا يَذْكُرُونَ نُصُوصَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ لِلْإِعْضَادِ لَا لِلِاعْتِمَادِ، إِنْ وَافَقَتْ مَا ادَّعَوْا أَنَّ الْعَقْلَ دَلَّ عَلَيْهِ قَبْلُوهُ، وَإِنْ خَالَفَتْهُ أَوْلُوهُ! وَهَذَا فَتْحُ بَابِ الزَّنْدَقَةِ، نَسَأَلُ اللَّهَ الْعَاقِبَةَ.

قال الشيخ:

تقدم أن الله ذكر في القرآن آيات محكمات هن أم الكتاب، وأخر متشابهات، والمعلوم أن المفسرين قد تكلموا على آيات القرآن كلها، ولم يسكتوا

عن آية أو آيات، ويقولوا: هذه من المتشابه، إلا أن بعضهم لا يتكلمون على الحروف المقطعة التي في أوائل السور، وكثير منهم تكلموا عليها، وقالوا: يُراد بها كذا وكذا، وإن اختلفت الأراء فيها.

وما دام أن القرآن قد فُسر كله، فهذه الآيات المتشابهات يظهر أنها الكيفية للأمور الغيبية، يعني الأشياء التي يخبر فيها عن أمور غيبية، ولكننا لا نعلم كيفيتها، فإذا أخبر الله أن في الجنة أنهار تجري، فإننا لا ندري ما كيفية هذه الأنهار، نعلم أن فيها أنهارًا من ماء غير آسٍ، وأنهارًا من لبن لم يتغير طعمه .. إلى آخره، هذا من علم الغيب الذي نقول: الله أعلم بكيفيته، وهكذا أيضًا الأشجار التي في الجنة، وكذلك الأشجار التي في النار، ذكر الله أن في النار شجرة الزقوم؛ فلا ندري ما كيفة تلك الشجرة، وكيف لا تحترق في النار؟ فنقول في ذلك كله: الله أعلم بباهيته وكيفيته، فهو من المتشابه، وهو من الكيفيات الغيبية التي يتوقف عنها ويقال: الله أعلم بكيفيتها.

ويقال ذلك - أيضًا - في كفيات صفات الله: أنا نفوذها، ولا ندري ما كيفيتها، إلا أنا نتحقق معانيها، ونتحقق أن الله متكلم بكلام يُسمع، ونتحقق أن الله يعلم الخفي والجلي، ويسمع القريب والبعيد، وهكذا، ولكن كيفة تلك الصفات نفوذها ونقول: الله أعلم بالكيفية. وهذا أقرب الأقوال، في الآيات المتشابهات أنها كفيات الأمور الغيبية.

أما التأويل الذي ذكره، وهو صرف اللفظ عن الاحتمال الراجع إلى الاحتمال المرجوح بدليل يقترب به أو لقرينة تؤيد المرجوح وترجح، فهذا

ذكرنا أنه اصطلاح للمتأخرين، وهو اصطلاح جديد لم يكن عند السلف، ولا يعرفون هذا، وهو في الحقيقة تحريف وتكلف، وصرف للفظ عن ظاهره، وفي الحقيقة أننا إذا جمعنا الأدلة عرفنا أنه يصعب صرفها لاسيما وقد اجتمعت الدلالة من كل من مفرداتها.

بعد ذلك قد يقولون: إن ظاهر هذه النصوص يوهم التشبيه، ويوهم أن الله مثل خلقه، وأنا إذا أثبتنا الرؤية وأثبتنا الكلام وما أشبه ذلك، أثبتنا أنه مثل الخلق، والله ليس كمثل شيء، ولم يكن له كفواً أحد.

فيقولون: إن هذه الأدلة يفهم منها التشبيه. هكذا قالوا، ونحن نقول: لا يفهم ذلك، حاشا وكلاً أن تكون نصوص صفات الله دالة على شيء باطل، أو تكون نصوص الحديث دالة على ما هو كفر، بل كلام الله أفصح الكلام، وكلام نبيه ﷺ أو وضحه، وهو ﷺ أنصح الخلق لأُمَّته، وإذا اجتمعت هذه الأمور: فصاحته ونصحة والبيان الذي أُعطيته، واجتمع إلى ذلك أن كلام الله واضح الدلالة، فلا يجوز أن يقال: إن ظاهره غير مراد، أو إن ظاهره يقتضي كفراً، أو نحو ذلك.

كثيراً ما يقول المتكلمون: ظاهر النصوص غير مراد. نقول: ما مرادكم بظواهرها؟ هل تريدون مثلاً أن ظاهرها ما يليق بالخلق، أنا إذا قلنا - مثلاً -: ﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا﴾ [القمر: ١٤]، أن الله له عينان كعيني الخلق، أو له يديان كأيدي الخلق، فهذا ليس بمراد، ولكن أخطأتم في قولكم: إنه ظاهره،

فلا يمكن أن يفهم من نصوص الصفات ما هو ضلال، بل معروف أن صفات الله تعالى تليق به، وإذا كنتم تقولون: إنَّ لله ذاتًا لا تشبه غيره، فكذلك له صفات لا تشبه غيره، فإنَّ القول في الصفات كالقول في الذات يحتدي حذوه ومثاله.

وإذا كان الكلام واضحًا وفصيحًا، فلا عبرة بمن خفي عليه وبمن لم يظهر له، وهذا الشاعر البحري يقول:

عَلَيَّ نَحْتُ الْقَوَائِي مِنْ أَمَا كَيْبِهَا وَمَا عَلَيَّ إِذَا لَمْ تَنْهَسِمْ الْبَعْرُ

يقول هذا الشاعر: أنا عليٌّ أن آتي بالكلام الفصيح، وأختار الكلام البليغ، ولكن إذا لم يفهموا، فلست بملموم.

فيقال: كذلك كلام الله واضح، وإذا لم تفهموا كان النقص في أذهانكم أنتم، ليس النقص في كلام الله، فكلام الله واضح وكلام رسوله ﷺ واضح وقصيح، ولكن ما أتيتم إلا من سوء أفهامكم ومن سوء تفكيركم، وإلا فلو أعطيتم الكلام حقَّه لقلتم بأنه لا يدلُّ على محذور.

وعلى كلِّ حال، معلوم أنَّهم ما خاضوا في ذلك إلا لَسًا ارتسم في أذهانهم وأفكارهم أنَّ صفات الله كصفات المخلوق، وأنَّ النصوص دالة على ما هو تشبيهه، فعند ذلك أكثروا من البحث والتنقيب حتى وقعوا فيما وقعوا فيه مما هو تحريف.

قال الشارح:

قوله: (وَمَنْ لَمْ يَتَوَقَّ النَّفْيَ وَالتَّشْبِيهَ، زَلَّ وَلَمْ يُصِيبِ التَّنْزِيهَ)، النَّفْيُ وَالتَّشْبِيهُ مَرَضَانِ مِنْ أَمْرَاضِ الْقُلُوبِ، فَإِنَّ أَمْرَاضَ الْقُلُوبِ نَوْحَانِ: مَرَضُ شُبُهَةِ، وَمَرَضُ شَهْوَةِ، وَكِلَاهُمَا مَذْكُورٌ فِي الثُّرَّانِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿فَلَا تَخْفَضْنَ بِالْأَقْوَالِ فَيَطْمِئِعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ﴾ [الأحزاب: ٣٢]، فَهَذَا مَرَضُ الشَّهْوَةِ، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا﴾ [البقرة: ١٠]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ﴾ [التوبة: ١٢٥]. فَهَذَا مَرَضُ الشُّبُهَةِ، وَهُوَ أَرْدَأُ مِنْ مَرَضِ الشَّهْوَةِ؛ إِذْ مَرَضُ الشَّهْوَةِ يُرْجَى لَهُ الشِّفَاءُ بِقَضَاءِ الشَّهْوَةِ، وَمَرَضُ الشُّبُهَةِ لَا شِفَاءَ لَهُ إِنْ لَمْ يَتَدَارَكْهُ اللَّهُ بِرَحْمَتِهِ. وَالشُّبُهَةُ الَّتِي فِي مَسْأَلَةِ الصِّفَاتِ نَفْيُهَا وَتَشْبِيهُهَا، وَشُبُهَةُ النَّفْيِ أَرْدَأُ مِنْ شُبُهَةِ التَّشْبِيهِ، فَإِنَّ شُبُهَةَ النَّفْيِ رَدٌّ وَتَكْذِيبٌ لِمَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ ﷺ، وَشُبُهَةُ التَّشْبِيهِ غُلُوبٌ وَجَاوِزَةٌ لِلْحَدِّ فِيمَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ ﷺ، وَتَشْبِيهُ اللَّهِ بِخَلْقِهِ كُفْرٌ، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾، وَنَفْيُ الصِّفَاتِ كُفْرٌ، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ: ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

وَهَذَا أَحَدُ نَوْعِي التَّشْبِيهِ، فَإِنَّ التَّشْبِيهَ نَوْحَانِ: تَشْبِيهُ الْخَالِقِ بِالْمَخْلُوقِ، وَهَذَا الَّذِي يَتَعَبُّ أَهْلُ الْكَلَامِ فِي رَدِّهِ وَإِبْطَالِهِ، وَأَهْلُهُ فِي النَّاسِ أَقَلُّ مِنَ النَّوعِ الثَّانِي، الَّذِي هُمْ أَهْلُ تَشْبِيهِ الْمَخْلُوقِ بِالْخَالِقِ، كَمُجَادِ الْمَشَائِخِ، وَعُزَيْرِ، وَالشَّمْسِ وَالْقَمَرِ، وَالْأَصْنَامِ، وَالْمَلَائِكَةِ، وَالنَّارِ، وَالْمَاءِ، وَالْمِجَلِّ، وَالْقُبُورِ، وَالْجِنِّ، وَغَيْرِ

ذَلِكَ. وَهَؤُلَاءِ هُمُ الَّذِينَ أُرْسِلَتْ لَهُمُ الرُّسُلُ يَدْعُوهُمْ إِلَى عِبَادَةِ اللَّهِ وَخَدُّهُ
لَا شَرِيكَ لَهُ.

قال الشيخ:

قول الماتن: (وَمَنْ لَمْ يَتَوَقَّ النَّفْيَ وَالتَّشْبِيهَ، زَلَّ وَلَمْ يُصِيبِ التَّنْزِيهَ)، يريد
بالنفي: إنكار الصفات، أو المبالغة في نفيها، ويريد بالتشبيه إثبات أن صفات
الله كصفاتنا، فيكون بذلك مشبهًا، ومذهب الأئمة وأهل السنة وسط بين
المذهبيين؛ فإنهم يقولون: إن من شبه الله بخلقه فقد كفر، ومن نفى ما وصف
الله به نفسه فقد كفر، وليس في إثبات صفات الله تشبيه. ويقول بعضهم: المشبه
يعبد صنمًا، والمعطل يعبد عدمًا، والموحد - يعني المثلث - يعبد إلهًا واحدًا فردًا
صمدًا. وأخذ ذلك ابن القيم في «نونيته» بقوله^(١):

لَسْنَا نُشْبِهَ رَبَّنَا بِصِفَاتِنَا إِنَّ الْمُشَبَّهَ عَابِدُ الْأَوْثَانِ
كَأَنَّ وَلَا نُخَالِفُهُ مِنْ أَوْصَافِهِ إِنَّ الْمُعْطَّلَ عَابِدُ الْبُهْتَانِ

فالأذين شبهوا يقال فيهم: قد غلوا في الإثبات، فقالوا: الله يد كأيدينا، والله
وجه كوجهنا، وما أشبه ذلك؛ فوقعوا في تشبيه الخالق بخلقه. تعالى الله
وهذا فيه أنهم عبدوا الأوثان والأصنام.

أمَّا الذين نفوا الصفات، فهم في الحقيقة لم يثبتوا خالقًا، ومن قال: الله

(١) انظر: النونية بشرح ابن عيسى (٢/٢١٢).

تعالى لا يعلم ولا يتكلم، ولا يسمع، ولا يرى، وليس له يد، وليس له وجه،
آل الأمر إلى أن صاروا يعبدون عدماً، ولا يثبتون خالقاً.

ثم قد عرفنا أنهم لما جاءتهم هذه النصوص، صارت مخالفة لهما في
أفكارهم، فسلبوا عليها التأويلات، وفتحوا باب التأويل للفلاسفة الذين
أنكروا حقيقة المعاد، وفتحوا باب التأويل للذين أنكروا الأحكام والأوامر
والنواهي؛ كغلاة الصوفية والباطنية ونحوهم، فأصبحوا في الحقيقة هم الذين
جلبوا الشر، وفتحوا بابه على الإسلام والمسلمين.

فالذي يريد السلامة هو الذي يتوقى هذه الأمراض: مرض التشبيه،
ومرض التعطيل، ومرض النفي، ومرض الإثبات الزائد، الذي هو غلو في
الإثبات، جعلهم الشارح كالمريض. والمعروف أن المرض هو الذي يُنهك
الجسم، حتى يلزم صاحبه الفراش، ولكن هذا مرض الأبدان؛ لأن المرض
نوعان: مرض قلب، ومرض بدن، فمرض البدن له أدوية عند الأطباء، وفي
الحديث: «ما أنزل الله داءً إلا أنزل له شفاءً»^(١)، ولكن المرض الشديد هو
مرض القلب.

ومرض القلب أيضاً نوعان: مرض الشبهة ومرض الشهوة، مرض
الشهوة هو الشهوة إلى الرنى أو إلى المحاصي ونحوها؛ فإن قوله تعالى:
﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ﴾ [الأحزاب: ٣٢]، نهى الله المرأة

(١) أخرجه البخاري (٥٦٧٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

أن ترقق كلامها، فإنه إذا سمعها الفاسق طمع في الاتصال بها، فهذا مرض شهوة الزنى ونحوه.

أما مرض الشبه فهو أشد؛ لأن مرض الشهوة قد يزول بالعفة أو بالنكاح الحلال، أما مرض الشبهة فإنه الذي يتمكّن في القلب. فهذان المرضان من أشدّ الأمراض.

ومن أمراض الشبهة مرض التشبيه ومرض التّعطيل، وذكر أن مرض التّعطيل أشدّ؛ وذلك لأنّ المشبه غالٍ في الإثبات، غلبه الإثبات إلى أن وقع في أنّ الله كخلقه - تعالى الله عن ذلك - ولكنّ الذي يقول ذلك فئة قليلة بالنسبة إلى المعطلة.

وبكلّ حال نحن نبرأ إلى الله، ونحذر من كلا المرضين، فمرض التّعطيل أشدّ؛ لأنّ أهله أكثر، ولأنّ الدعايات إليه أكثر، وقد تكرر كثيرًا في كلام العلماء النهي عن التّعطيل وعن التشبيه، فيقولون في آيات الصّفات وأحاديثها: أمرها كما جاءت بلا كيف، ويقولون: نقبلها من غير تحريف ولا تأويل، ومن غير تشبيه ولا تمثيل، ومن غير تكليف ولا تعطيل، فينفون عنها هذه الأشياء، وكذلك ينفون عنها الإلحاد الذي هو الميل بها عمًا فُصِدَ بها، فإنّ الله تعالى ذمهم، قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا﴾، يعني: بالأسماء الحسنى، ﴿وَذُرُوا الَّذِينَ يُلَهِّدُونَ فِي الْأَسْمَاءِ﴾ [الأعراف: ١٨٠]، أي: اتركوهم وابتعدوا عنهم، والإلحاد في أسمائه إنكار حقائقها، أو إنكار دلالاتها، وقال تعالى:

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا ﴾ [فصلت: ٤٠]، فعلينا أن نتجنب هذه الأشياء، ومن أهمها: الإلحاد في أسماء الله، والإلحاد في آياته، فإذا قرأنا القرآن وسمعنا الأحاديث؛ وقلنا: نمُرُّها كما جاءت، وننزه ربَّنَا عمَّا لا يليق به، سلمنا من هذه الأمراض كلها إن شاء الله.

قال الطحاوي:

فَإِنَّ رَبَّنَا - جَلَّ وَعَلَا - مَوْصُوفٌ بِصِفَاتِ الْوَحْدَانِيَّةِ، مَنَعُوتٌ بِنُعُوتِ
الْفَرْدَانِيَّةِ، لَيْسَ فِي مَعْنَاهُ أَحَدٌ مِنَ الْبَرِيَّةِ.

قال الشارح:

يُشِيرُ الشَّيْخُ - رَحِمَهُ اللَّهُ - إِلَى تَنْزِيهِ الرَّبِّ تَعَالَى بِالَّذِي هُوَ وَصَفَهُ كَمَا وَصَفَ
نَفْسَهُ نَفِيًّا وَإِثْبَاتًا. وَكَلَامُ الشَّيْخِ مَا أُخُوذُ مِنْ مَعْنَى سُورَةِ الْإِحْلَاصِ،
فَقَوْلُهُ: (مَوْصُوفٌ بِصِفَاتِ الْوَحْدَانِيَّةِ)، مَا أُخُوذُ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ هُوَ
اللَّهُ أَحَدٌ﴾، وَقَوْلُهُ: (مَنَعُوتٌ بِنُعُوتِ الْفَرْدَانِيَّةِ)، مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿اللَّهُ
الصَّمَدُ﴾ ④ لَمْ يَكِلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾، وَقَوْلُهُ: (لَيْسَ فِي مَعْنَاهُ أَحَدٌ مِنَ
الْبَرِيَّةِ)، مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾، وَهُوَ أَيْضًا
مُؤَكَّدٌ لِمَا تَقَدَّمَ مِنْ إِثْبَاتِ الصِّفَاتِ وَنَفْيِ التَّشْبِيهِ، وَالْوَصْفُ وَالنَّعْتُ
مُتَرَادِفَانِ، وَقِيلَ: مُتَقَارِبَانِ. فَالْوَصْفُ لِلذَّاتِ، وَالنَّعْتُ لِلْفِعْلِ، وَكَذَلِكَ
الْوَحْدَانِيَّةُ وَالْفَرْدَانِيَّةُ. وَقِيلَ فِي الْفَسْرِقِ بَيْنَهُمَا: إِنَّ الْوَحْدَانِيَّةَ لِلذَّاتِ،
وَالْفَرْدَانِيَّةَ لِلصِّفَاتِ، فَهُوَ تَعَالَى مُتَوَحِّدٌ فِي ذَاتِهِ، مُتَمَرِّدٌ بِصِفَاتِهِ. وَهَذَا
الْمَعْنَى حَقٌّ وَأَمَّا يَنْزَاعُ فِيهِ أَحَدٌ، وَلَكِنْ فِي اللَّفْظِ نَوْعٌ تَكَرَّرَ.

وَلِلشَّيْخِ - رَحِمَهُ اللَّهُ - تَفْطِيرٌ هَذَا التَّكَرُّرِ فِي مَوَاضِعَ مِنَ التَّعْقِيبَاتِ، وَدُسُورٌ
بِالْخُطْبِ وَالْأَدْعِيَةِ أَشْبَهُ مِنْهُ بِالْمَقَائِدِ، وَالتَّسْحِيحُ بِالنَّطْبِ أَلْيَسُ.

﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾ [الشورى: ١١]، أَكْمَلُ فِي التَّنْزِيهِ مِنْ قَوْلِهِ:
 (لَيْسَ فِي مَعْنَاهُ أَحَدٌ مِنَ الْبَرِيَّةِ).

قال الشيخ:

قصد الطحاوي - رحمه الله - بذلك الزيادة في التوضيح والإثبات، فإن
 قوله: (فَإِنَّ رَبَّنَا - جَلَّ وَعَلَا - مَوْصُوفٌ بِصِفَاتِ الْوَحْدَانِيَّةِ، مَنَعُوتٌ بِنُعُوتِ
 الْفَرْدَانِيَّةِ، لَيْسَ فِي مَعْنَاهُ أَحَدٌ مِنَ الْبَرِيَّةِ)، يؤكد بذلك ما تقدم من إثبات
 الصفات ونفي التشبيه.

والله - سبحانه وتعالى - هو الواحد الأحد، موصوف بأنه هو الواحد، قد

ذكر ذلك في قوله تعالى: ﴿ وَاللَّهُ كُفْرًا إِلَهٌُ وَجِدٌ ﴾ [البقرة: ١٦٣]، وفي قوله:
 ﴿ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌُ وَجِدٌ ﴾ [المائدة: ٧٣]، فالوحدانية لا شك أنها خاصة
 به، فهو الواحد في صفاته، والواحد في ذاته، ومعناه أنه لا يصلح أن يكون معه
 خالق غيره، ولا معبود سواه، كذلك هذا دل عليه قول الله تعالى: ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ
 أَحَدٌ ﴾، فإن الأحد يراد به المتوحد في جميع الخصائص، وكذلك قوله:
 (مَنَعُوتٌ بِنُعُوتِ الْفَرْدَانِيَّةِ)، دل عليه كونه لم يلد ولم يولد، فإن الله تعالى نزه
 نفسه عن الولد في عدة آيات، ردًا على من جعل له ولدًا؛ كالتنصاري الذين
 قالوا: المسيح ابن الله، واليهود في قولهم: عزير ابن الله، وكفار العرب في
 جعلهم الملائكة بنات الله، ردًا الله عليهم ذلك وأنكر عليهم في قوله تعالى:

﴿ أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ ﴾ [الصفات: ١٥٣]، وفي قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبْدُ الرَّحْمَنِ إِنثًا أَشْهَدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيَسْأَلُونَ ﴾ [الزخرف: ١٩].

فالواجب على المسلم أن ينزه ربه عن صفات المحدثات، وعن صفات الخلق التي تختص بهم، وأن يثبت لله سبحانه صفات الكمال التي يعرف منها أنه هو الواحد الأحد، المنزه عن النقص وعن العيب، وأن صفاته تختص بذاته، وأنه منزّه عمّا لا يليق به، فإذا عرف ذلك عرف أنه يتمم بذلك ترحيده إن شاء الله، وإن صلحت عقيدته فيكون صلاحها بهذين الأمرين: إثبات الصفات على ما يليق بالله، وتنزيهه - جل وعلا - عن مشابهة المخلوقين، سواء في الذات، أو في الصفات، أو في الأفعال، ففي ذلك يرد على الطوائف المنحرفة الذين غلوا في الإثبات والذين زادوا في النفي.

فمن لم يتوق النفي والتشبيه زل ولم يصل للتنزيه، وهو سبحانه موصوف بصفات الكمال منزّه عن صفات النقص، وليس بمعنى واحد من البرية، أي: لا يشبه أحداً من مخلوقاته، وهذه خلاصة العقيدة، من أقر بها عصمه الله تعالى من الأخطاء.

قال الطحاوي:

وَتَعَالَى عَنِ الْحُدُودِ وَالْغَايَاتِ، وَالْأَرْكَانِ وَالْأَعْضَاءِ وَالْأَدْوَاتِ، لَا تَحْوِيهِ
الْجِهَاتُ السَّتُّ كَسَائِرِ الْمُبْتَدَعَاتِ.

قال الشارح:

أذْكَرُ بَيْنَ يَدَيِ الْكَلَامِ عَلَى عِبَارَةِ الشَّيْخِ - رَحِمَهُ اللَّهُ - مُقَدِّمَةً، وَهِيَ: أَنْ
النَّاسَ فِي إِطْلَاقِ مِثْلِ هَذِهِ الْأَلْفَاطِ ثَلَاثَةٌ أَقْوَالٍ:

فَطَائِفَةٌ تَنْفِيهَا، وَطَائِفَةٌ تُثَبِّتُهَا، وَطَائِفَةٌ تُفَصِّلُ، وَهُمْ الْمُتَّبِعُونَ لِلسَّلَفِ،
فَلَا يُطْلِقُونَ نَفِيهَا وَلَا إِثْبَاتَهَا إِلَّا إِذَا بَيَّنَّ مَا أُثْبِتَ بِهَا فَهُوَ ثَابِتٌ، وَمَا نَفِيَ بِهَا فَهُوَ
مَنْفِيٌّ، لِأَنَّ الْمُتَّخِرِينَ قَدْ صَارَتْ هَذِهِ الْأَلْفَاطُ فِي اضْطِلَاحِهِمْ فِيهَا إِجْمَالٌ وَإِبْهَامٌ،
كَغَيْرِهَا مِنَ الْأَلْفَاطِ الْاضْطِلَاحِيَّةِ، فَلَيْسَ كُلُّهُمْ يَسْتَعْمِلُهَا فِي نَفْسِ مَعْنَاهَا
اللُّغَوِيَّةِ. وَهَذَا كَانَ النُّفُؤَةُ يَنْفُونَ بِهَا حَقًّا وَبَاطِلًا، وَيَذْكُرُونَ عَنْ مُشَبِّهَاتِهَا مَا
لَا يَقُولُونَ بِهِ، وَبَعْضُ الْمُشَبِّهِينَ لَهَا يُدْخِلُ فِيهَا مَعْنَى بَاطِلًا، مُخَالِفًا لِقَوْلِ السَّلَفِ،
وَلِمَا دَلَّ عَلَيْهِ الْكِتَابُ وَالْمِيزَانُ، وَلَمْ يَرِدْ نَصٌّ مِنَ الْكِتَابِ وَلَا مِنَ السُّنَّةِ بِتَنْفِيهَا
وَلَا إِثْبَاتِهَا، وَلَيْسَ لَنَا أَنْ نَصِفَ اللَّهُ تَعَالَى بِمَا لَمْ يَصِفْ بِهِ نَفْسَهُ وَلَا وَصَفَهُ بِهِ
رَسُولُهُ نَفِيًّا وَلَا إِثْبَاتًا، وَإِنَّمَا نَحْنُ مُتَّبِعُونَ لَا مُبْتَدِعُونَ.

فَالْوَاجِبُ أَنْ يُنظَرَ فِي هَذَا الْبَابِ - أَخْبَنِي بَابِ الصِّفَاتِ - فَمَا أَثْبَتَهُ اللَّهُ
وَرَسُولُهُ أَثْبَتَاهُ، وَمَا نَفَاهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ نَفَيْنَاهُ، وَالْأَلْفَاطُ الَّتِي وَرَدَ بِهَا النَّصُّ
يُعْتَصَمُ بِهَا فِي الْإِثْبَاتِ وَالنَّفْيِ، فَتُثَبِّتُ مَا أَثْبَتَهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنَ الْأَلْفَاطِ وَالْمَعَانِ.

وَأَمَّا الْأَلْفَاظُ الَّتِي لَمْ يَرِدْ نَفْيُهَا وَلَا إِثْبَاتُهَا فَلَا تُتَلَقُّ حَتَّى يُنظَرَ فِي مَقْصُودِ قَائِلِهَا، فَإِنْ كَانَ مَعْنَى صَحِيحًا قَبْلَ، لَكِنْ يَنْبَغِي التَّعْبِيرُ عَنْهُ بِالْأَلْفَاظِ النَّصُوصِ، دُونَ الْأَلْفَاظِ الْمُجْمَلَةِ، إِلَّا عِنْدَ الْحَاجَةِ، مَعَ قَرَائِنَ تُبَيِّنُ الْمُرَادَ وَالْحَاجَةَ، مِثْلُ أَنْ يَكُونَ الْخِطَابُ مَعَ مَنْ لَا يَتِمُّ الْمَقْصُودُ مَعَهُ إِنْ لَمْ يُخَاطَبَ بِهَا، وَنَحْوُ ذَلِكَ.

وَالشَّيْخُ - رَحِمَهُ اللَّهُ - أَرَادَ الرَّدَّ بِهَذَا الْكَلَامِ عَلَى الْمُسَبِّهَةِ، كَمَا وَدَّ الْجَوَارِي وَأَمْثَالِهِ، الْقَائِلِينَ: إِنَّ اللَّهَ جِسْمٌ، وَإِنَّهُ جُنَّةٌ وَأَعْضَاءٌ وَغَيْرُ ذَلِكَ، تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوقًا كَبِيرًا.

فَالْمَعْنَى الَّذِي أَرَادَهُ الشَّيْخُ - رَحِمَهُ اللَّهُ - مِنَ النَّفْيِ الَّذِي ذَكَرَهُ هُنَا حَقٌّ، لَكِنْ حَدَثَ بَعْدَهُ مَنْ أَدْخَلَ فِي عُمُومِ نَفْيِهِ حَقًّا وَبَاطِلًا، فَبَحْتِاجُ إِلَى بَيَانِ ذَلِكَ، وَهُوَ: أَنَّ السَّلَفَ مُتَّفِقُونَ عَلَى أَنَّ الْبَشَرَ لَا يَعْلَمُونَ لِلَّهِ حَدًّا، وَأَمَّهُمْ لَا يَجِدُونَ شَيْئًا مِنْ صِفَاتِهِ.

قال الشيخ:

الطَّرِيقَةُ فِي هَذَا مَا سَبَقَ فِي بَابِ الْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ الْمَرْجَحِ إِلَى النَّقْلِ لَا إِلَى الْعَقْلِ، وَالنَّقْلُ هُوَ الْكِتَابُ وَصَحِيحُ السُّنَّةِ النَّبَوِيَّةِ؛ لِأَنَّهَا نَقَلْنَا بِطَرِيقِ ثَابِتَةٍ، لَيْسَ فِيهَا تَشْكِيكٌ، وَلَيْسَ فِي ثَبُوتِهَا تَوْقُفٌ، فَتَقْتَصِرُ عَلَى النَّقْلِ؛ وَذَلِكَ لِأَنَّ الْعُقُولَ لَا تَسْتَطِيعُ أَنْ تَتَدَخَّلَ فِي هَذَا الْأَمْرِ، وَلَا أَنْ تَعْرِفَ حَقَائِقَهُ، وَلَا أَنْ تَفَكِّرَ تَفَكِيرًا تَتَدَخَّلُ فِيهِ.

فَإِذَا قَالَ الْمُتَكَلِّمُونَ: إِنَّ هَذَا الْوَصْفَ لَا يَقْرَهُ الْعَقْلُ أَوْ لَا يَثْبِتُهُ. فَالْجَوَابُ:

أن نقول: ما للعقول ولأمر الغيب؟! هذا من أمر الغيب، والعقول محجوزة عن هذا الأمر.

نقول بعد ذلك: إنَّ الطحاوي - الذي هو صاحب المتن - عاش في أواخر عهد السلف، وفي عهده وجد كثيرٌ من المبتدعة تمكنوا، فكان هناك المشبهة الذين بالغوا في الإثبات حتى شَبَّهوا الخالق بالمخلوقين، ومنهم داود الجواربي، وطائفة أخرى من المبتدعة، هم المعطلة، ومنهم أكابر المعتزلة؛ كأبي الهذيل العلاف، وأبي عليّ الجبائي، وكذلك الجاحظ، وسائر المعتزلة، بالغوا في النفي، فعطلوا الله تعالى عن صفات الكمال، واشتهرت أقوال هؤلاء وأقوال هؤلاء، إلا أن المعطلة أكثر من المشبهة؛ لأنَّ النفوس تنفر من إثبات التشبيه.

فلما كان كذلك، ألف الطحاوي هذه الرسالة، وقصد بذلك الردَّ على هؤلاء وهؤلاء، فأثبت فيها الصفات كما تليق بالله تعالى، وردَّ فيها على المشبهة الذين بالغوا في الإثبات، وتكلَّم بهذه الكلمات، وإن كان الأفضل تركها، يعني: الحدود، والغايات، والأركان، والأعضاء، والأدوات، والجهات الست الأولى تركها؛ لأنَّ المتكلمين الذين هم الثفاة، صاروا ينفون بها حقًا وباطلاً، فلما أدخلوا في نفيها حقًا كان الأولى أن ينقل الباطل بعبارة سليمة ليس فيها شيء من الشبهة.

كذلك ذكر أن للناس في استعمالها ثلاثة أقوال:

١ - قول لا يميز إثباتها.

٢ - وقول لا يميز نفيها.

٣- وقول بالتفصيل في المسألة.

ويمكن أن يكون هناك قول رابع، وهو التوقف فيها من غير نفي ولا إثبات.

فيقال: هذه من الأمور المبتدعة، فنحن لا نثبتها إطلاقاً ولا ننفىها، ولكن التفصيل أولى، وهو أن يقال: ماذا تريدون بالحدود؟ وماذا تريدون بالأعضاء والأدوات؟ وماذا تريدون بالجهات؟ في كلامكم هذا حق وباطل، الحق الذي أنتم تنفونه عبّروا عنه بعبارة سليمة، والباطل الذي أنتم تنفونه أيضاً عبّروا عنه بعبارة سليمة، حتى نوافقكم على نفي الباطل، ونخالفكم في نفي الحق، ونتحقق أن الصواب مع من أثبت، لا مع من نفى أو نحو ذلك.

نقول: إن الذين أطلقوا كلمة الحدّ على الله - عز وجل - لهم عذرٌ في ذلك، لكن الأولى عدم إطلاقها؛ لأنّ الحدّ له تفسيرات كما سيأتي، وكذلك الغايات والأركان والأعضاء والأدوات، فالأولى التوقف عن ذلك، ونقتصر على ما أثبتته الله، فنقول: إنّ الله تعالى بذاته فوق سمواته على عرشه على خلقه، وأنّه سبحانه قريب من عباده يطالع عليهم، ولا تخفى عليه منهم خافية، وأنّه موصوفٌ بصفات الكمال منزّه عن النقائص والعيوب.

فإذا أثبتنا ذلك، لا يحتج علينا أهل البدع بحجّة، ولن يجدوا علينا قولاً يصفوننا فيه بأننا ممثلة أو نحو ذلك.

قال الشارح:

قَالَ أَبُو دَاوُدَ الطَّيَالِسِيُّ: «كَانَ سُفْيَانُ، وَشُعْبَةُ، وَحَمَّادُ بْنُ زَيْدٍ، وَحَمَّادُ بْنُ سَلَمَةَ، وَشَرِيكٌ، وَأَبُو عَوَانَةَ، لَا يَحْدُثُونَ وَلَا يُشَبِّهُونَ وَلَا يُمَثَّلُونَ، يَرُوُونَ الْحَدِيثَ وَلَا يَقُولُونَ: كَيْفَ؟ وَإِذَا سُئِلُوا قَالُوا بِالْأَثَرِ»^(١). وَسَيَأْتِي فِي كَلَامِ الشَّيْخِ: (وَقَدْ أَعْجَزَ خَلْقُهُ عَنِ الْإِحَاطَةِ بِهِ). فَعَلِمَ أَنَّ مُرَادَهُ أَنَّ اللَّهَ يَتَعَالَى عَنِ أَنْ يُحِيطَ أَحَدٌ بِحَدِّهِ؛ لِأَنَّ الْمَعْنَى أَنَّهُ مُتَمَيِّزٌ عَنِ خَلْقِهِ مُتَفَصِّلٌ عَنْهُمْ مُبَايِنٌ لَهُمْ. سُئِلَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الْمُبَارَكِ: بِمَ نَعْرِفُ رَبَّنَا؟ قَالَ: «بِأَنَّهُ عَلَى الْعَرْشِ، بَائِنٌ مِنْ خَلْقِهِ، قِيلَ: بِحَدِّ؟ قَالَ: بِحَدِّ»^(٢). أَنْتَهَى.

وَمِنَ الْمَعْلُومِ أَنَّ الْحَدَّ يُقَالُ عَلَى مَا يَنْفَصِلُ بِهِ الشَّيْءُ وَيَتَمَيَّزُ بِهِ عَنِ غَيْرِهِ، وَاللَّهُ تَعَالَى غَيْرٌ حَالٌّ فِي خَلْقِهِ، وَلَا قَائِمٌ بِهِمْ، بَلْ هُوَ الْقَائِمُ الْقَائِمُ بِنَفْسِهِ، الْمُقِيمُ لِمَا سِوَاهُ. فَالْحَدُّ بِهَذَا الْمَعْنَى لَا يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ فِيهِ مُنَازَعَةٌ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ أَصْلًا، فَإِنَّهُ لَيْسَ وَرَاءَ نَفْيِهِ إِلَّا نَفْيٌ وَجُودُ الرَّبِّ وَنَفْيُ حَقِيقَتِهِ.

وَأَمَّا الْحَدُّ بِمَعْنَى الْعِلْمِ وَالْقَوْلِ، وَهُوَ أَنْ يُحَدِّدَ الْعِبَادُ، فَهَذَا مُتَنَفِّ بِبَلَا مُنَازَعَةٍ بَيْنَ أَهْلِ السُّنَّةِ. قَالَ أَبُو الْقَاسِمِ الْقُشَيْرِيُّ فِي رِسَالَتِهِ: سَمِعْتُ الشَّيْخَ أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ السُّلَمِيَّ، سَمِعْتُ أَبَا مَنْصُورَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ، سَمِعْتُ أَبَا الْحَسَنِ الْعَنْبَرِيَّ، سَمِعْتُ سَهْلَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ التُّسْتَرِيَّ يَقُولُ، وَقَدْ سُئِلَ عَنِ ذَاتِ اللَّهِ

(١) أخرجه البيهقي (٢/٣)، وذكره ابن حجر في الفتح (٤٠٧/١٣).

(٢) أخرجه الدارمي في نقض الإمام أبي سعيد (٢٢٤/١).

فَقَالَ: ذَاتُ اللَّهِ مَوْصُوفَةٌ بِالْعِلْمِ، غَيْرُ مُدْرَكَةٍ بِالْإِحَاطَةِ، وَلَا مَرْتَبَةٍ بِالْأَبْصَارِ فِي دَارِ الدُّنْيَا، وَهِيَ مَوْجُودَةٌ بِحَقَائِقِ الْإِيمَانِ، مِنْ غَيْرِ حَدٍّ وَلَا إِحَاطَةٍ وَلَا حُلُولٍ، وَتَرَاهُ الْعَيُونُ فِي الْعُقْبَى، ظَاهِرًا فِي مُلْكِهِ وَقُدْرَتِهِ، وَقَدْ حَبَّبَ الْخَلْقَ عَنْ مَعْرِفَةِ كُنْهِ ذَاتِهِ، وَدَلَّهُمْ عَلَيْهِ بِآيَاتِهِ، فَالْقُلُوبُ تَعْرِفُهُ، وَالْعُيُونُ لَا تُدْرِكُهُ، يَنْظُرُ إِلَيْهِ الْمُؤْمِنُ بِالْأَبْصَارِ، مِنْ غَيْرِ إِحَاطَةٍ وَلَا إِدْرَاكِ نِهَائِيَّةٍ.

قال الشيخ:

عرفنا أن الأولى ترك الخوض في ذكر الحدِّ، ولكنَّ السَّلف - رحمهم الله - قصدوا بالإثبات بيان أن الرَّبَّ تعالى متميِّز عن خلقه، فإنَّه فوق سمواته على عرشه على خلقه.

وهذا معنى قولهم: بائن من خلقه، وقولهم: إنَّه ليس في ذاته شيء من مخلوقاته، ولا في مخلوقاته شيء من ذاته، يردُّون بذلك على الحلولية الذين تقدَّم قولهم في أوَّل الكتاب، فيقصدون بذلك البيان الواضح بأنَّ الرَّبَّ سبحانه وتعالى بذاته فوق سمواته على عرشه وأنَّه بائن من خلقه.

ومعنى قولهم: بحدِّ، أي: بينه وبين الخلق حدٌّ، وهو معنى الينونة، ويتوقَّفون عند هذا.

قال الشارح:

وَأَمَّا لَفْظُ الْأَرْكَانِ وَالْأَعْضَاءِ وَالْأَدْوَاتِ، فَيَسْلَطُ بِهَا التُّفَاهُ عَلَى نَفْسِ بَعْضِ الصِّفَاتِ الثَّابِتَةِ بِالْأَدِلَّةِ الْقَطْعِيَّةِ، كَالْيَدِ وَالْوَجْهِ.

قَالَ أَبُو حَنِيفَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - فِي «الْفِقْهِ الْأَكْبَرِ»: «لَهُ يَدٌ وَوَجْهُهُ وَنَفْسٌ، كَمَا ذَكَرَ تَعَالَى فِي الْقُرْآنِ مِنْ ذِكْرِ الْيَدِ وَالْوَجْهِ وَالنَّفْسِ، فَهُوَ لَهُ صِفَةٌ بِإِلَّا كَيْفٍ، وَلَا يُقَالُ: إِنَّ يَدَهُ قُدْرَتُهُ وَنَعْمَتُهُ؛ لِأَنَّ فِيهِ إِبْطَالَ الصِّفَةِ»^(١). انْتَهَى.

وَهَذَا الَّذِي قَالَهُ الْإِمَامُ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - ثَابِتٌ بِالْأَدِلَّةِ الْقَاطِعَةِ، قَالَ تَعَالَى:

﴿ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتَ بِيَدَيَّ ﴾ [ص: ٧٥]، ﴿ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا مَبْنُوتَةٌ يَوْمَ

الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ ﴾ [الزمر: ٦٧]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ

إِلَّا وَجْهَهُ ﴾ [النصص: ٨٨]، ﴿ رَبَّانِي وَجْهَ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴾ [الرحمن: ٢٧]،

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ تَسَلَّمُوا مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَهْلًا مَا فِي نَفْسِكَ ﴾ [المائدة: ١١٦]، وَقَالَ تَعَالَى:

﴿ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ ﴾ [الأنعام: ٥٤]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ وَأَسْطَفَعْتُكَ

لِنَفْسِي ﴾ [طه: ٤١]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ وَيُعَذِّبُكَ اللَّهُ نَفْسَكَ ﴾ [آل عمران: ٢٨].

وَقَالَ ﷺ فِي حَدِيثِ الشَّمَاعَةِ «لَسَا يَأْتِي النَّاسُ آدَمَ فَيَقُولُونَ لَهُ: خَلَقَكَ اللَّهُ

بِيَدِهِ، وَأَسْجَدَ لَكَ مَلَائِكَتَهُ، وَعَلَّمَكَ أَسْمَاءَ كُلِّ شَيْءٍ»^(٢)، الْحَدِيثُ.

(١) انظر: الفقه الأكبر بشرح د. محمد حميس (ص ٢٧).

(٢) قطعة من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه، أخرجه البخاري (٤٤٧٦)، ومسلم (١٩٣).

وَلَا يَصِحُّ تَأْوِيلُ مَنْ قَالَ: إِنَّ الْمُرَادَ بِالْيَدِ الْقُدْرَةَ، فَإِنَّ قَوْلَهُ: ﴿لِمَا خَلَقْتُ
 يَدَيْكَ﴾، لَا يَصِحُّ أَنْ يَكُونَ مَعْنَاهُ بِقُدْرَتِي مَعَ تَثْنِيَةِ الْيَدِ، وَلَوْ صَحَّ ذَلِكَ لَقَالَ
 إِبْلِيسُ: وَأَنَا أَيْضًا خَلَقْتَنِي بِقُدْرَتِكَ، فَلَا فَضْلَ لَهُ عَلَيَّ بِذَلِكَ. فَإِبْلِيسُ مَعَ كُفْرِهِ
 . كَانَ أَعْرَفَ بِرَبِّهِ مِنَ الْجَهَنَّمِيَِّّةِ. وَلَا دَلِيلَ لَهُمْ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَوَلَمْ نَقْرَأْ أَنتَآ
 لَهُمْ وَمَا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنَعَزْنَا لَهُمَ لَهَا مَمْلُوكُونَ﴾ [يس: ٧١]؛ لِأَنَّهُ تَعَالَى جَمَعَ
 الْأَيْدِي لَمَّا أَضَافَهَا إِلَى ضَمِيرِ الْجَمْعِ، لِتَنَاسُبِ الْجَمْعَانِ، فَالْأَلْفَظَانِ لِلدَّلَالَةِ عَلَى
 الْمَلِكِ وَالْعِظْمَةِ، وَلَمْ يَقُلْ: (أَيْدِي) مُضَافًا إِلَى ضَمِيرِ الْمَفْرُودِ، وَلَا (يَدَيْنَا) بِتَثْنِيَةِ
 الْيَدِ مُضَافًا إِلَى ضَمِيرِ الْجَمْعِ، فَلَمْ يَكُنْ قَوْلُهُ: ﴿يَمَاعَ عَمِلَتْ أَيْدِينَا﴾ نَظِيرَ قَوْلِهِ:
 ﴿لِمَا خَلَقْتُ يَدَيْكَ﴾. وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ عَنْ رَبِّهِ - عَزَّ وَجَلَّ -: «حِجَابُهُ الشُّورُ، وَلَوْ
 كَشَفَهُ لَأَحْرَقَتْ سُبْحَاتُ وَجْهِهِ مَا انْتَهَى إِلَيْهِ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ»^(١).

وَلَكِنْ لَا يُشَالُ لِهَذِهِ الصِّفَاتِ: إِنَّمَا أَعْضَاءٌ، أَوْ جَوَارِحٌ، أَوْ أَدَوَاتٌ، أَوْ
 أَرْكَانٌ؛ لِأَنَّ الرَّثْمَنَ جُزْءُ الْمَاهِيَّةِ، وَاللَّهُ تَعَالَى هُوَ الْأَحَدُ الصَّمَدُ، لَا يَتَجَرَّأُ
 سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وَالْأَعْضَاءُ فِيهَا مَعْنَى التَّفْرِيقِ وَالتَّعَضُّبِ، تَعَالَى اللَّهُ عَنِ ذَلِكَ،
 وَمِنْ هَذَا الْمَعْنَى قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ جَسَّأُوا الثُّرَىَانَ عِزِينَ﴾ [الحجر: ٩١].
 وَالْجَوَارِحُ فِيهَا مَعْنَى الْاِكْتِسَابِ وَالِانْتِفَاعِ، وَكَذَلِكَ الْأَدَوَاتُ هِيَ الْأَلَاتُ الَّتِي
 يُسْتَفَعُّ بِهَا فِي جَلْبِ الْمَنَفَعَةِ وَدَفْعِ الْمَضَرَّةِ. وَكُلُّ هَذِهِ الْمَعَانِي مُتَوَفِّقَةٌ عَنِ اللَّهِ تَعَالَى،

(١) تقدم ترجمته (١/٣١٣).

وَهَذَا لَمْ يَرِدْ ذِكْرُهَا فِي صِفَاتِ اللَّهِ تَعَالَى. فَأَلْفَافُ الشَّرْعِيَّةِ صَحِيحَةُ الْمَعَانِي،
سَائِلَةٌ مِنَ الْإِحْتِمَالَاتِ الْفَاسِدَةِ، فَكَذَلِكَ يَجِبُ أَنْ لَا يُعَدَّلَ عَنِ الْأَلْفَافِ الشَّرْعِيَّةِ
نَفْيًا وَلَا إِبْتَاتًا؛ لِئَلَّا يُثْبِتَ مَعْنَى فَاسِدٌ، أَوْ يُنْفَى مَعْنَى صَحِيحٌ، وَكُلُّ هَذِهِ
الْأَلْفَافِ الْمُجْمَلَةِ عُرْضَةٌ لِلْمُحِقِّ وَالْمُبْطِلِ.

قال الشيخ:

يعني من قوله تعالى عن الحدود والغايات والأركان والأعضاء
والأدوات، أن هذا النفي تسلط به النفاة على الصفات، فقالوا: نحن نفي عن
الله تعالى الأعضاء والأركان والأدوات، هذا قول السلف ومنهم الإمام
الطحاوي صاحب المتن.

فتسلطوا بذلك على نفي الصفات الثابتة بالأدلة؛ فنفوا صفة الوجه لله،
ونفوا صفة النفس، ونفوا صفة اليد، وصفة العين أو الأعين التي أثبتتها لنفسه،
وغير ذلك من الصفات الواردة في القرآن والسنة؛ وقالوا: إنها أعضاء، وإنها
إركان، وإنها أدوات.

والشارح - رحمه الله - بين أن السلف أثبتوا الصفات لله؛ لأن الله أثبتها في
كتابه، فأثبت الله لنفسه صفة اليد في قوله تعالى: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾
[المائدة: ٦٤]، ﴿تَبَرُّكَ الَّذِي فِي يَدَيْهِ الْمُلْكُ﴾ [المالك: ١]، ﴿بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ
شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: ٢٦]، وكذلك قوله مخاطبًا لإبليس: ﴿مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ

لِمَا خَلَقْتُ يَدَيَّ ﴿ [ص: ٧٥]، فأضاف الله تعالى لنفسه صفة اليدين، فدلَّ على أنَّها صفة ثابتة، لكنها لا تشبه صفة المخلوقين، ويقال: الله أعلم بكيفيتها.

كما استدلوا على إثبات صفة اليد بأنَّ الله تعالى، ذكرها مفردة بقوله:

﴿بِيَدِيهِ الْمُلْكُ﴾، وذكرها مثناة مضافة إلى ضمير المفرد، كما في قوله: ﴿بَلْ يَدَاهُ

مَبْسُوطَتَانِ﴾، وفي قوله: ﴿لِمَا خَلَقْتُ يَدَيَّ﴾، وذكرها بصيغة الجمع، ولكن

مضافة إلى ضمير الجمع في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ نَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ

أَيْدِينَا﴾ [يس: ٧١]، فهنا ذكرها بضمير الجمع ﴿أَيْدِينَا﴾؛ لأنَّ ضمير الجمع

يؤتى به للتعظيم، فذكر الله تعالى نفسه بضمير الجمع للدلالة على التعظيم، كما

يقول الملك: نحن أمرنا بكذا، ونحن فعلنا كذا، وهو واحد، يريد بذلك

التعظيم، فالله تعالى يعظَّم نفسه بضمير الجمع، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّا

أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾ [الكوثر: ١]، ﴿إِنَّا فَتَنَّاكَ فَتَحَامِينَا﴾ [الفتح: ١]، ﴿إِنَّا

نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩]، ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي

الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [الزخرف: ٣٢]، فيذكر نفسه بضمير الجمع للدلالة على التعظيم،

فكذلك قوله: ﴿مِمَّا عَمِلْتَ أَيْدِينَا﴾، الضمير للجمع للدلالة على العظمة،

وأنَّه المستحق لأنَّ يُعظَّم.

كذلك أثبت الله تعالى لنفسه وأثبت النبي ﷺ لربِّه صفة اليد أو اليدين في

قوله ﷺ: «يُدُّ إِلَهُهُ مَا لَمْ يَلَمْ لَا تَغْرِضُهَا نَفَقَةٌ سَحَابُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ»، وقال: «أَرَأَيْتُمْ مَا

أَنْفَقَ مُنْذُ خَلَقَ السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ، فَإِنَّهُ لَمْ يَغْفُضْ مَا فِي يَدَيْهِ، وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ، وَبِيَدِهِ الْمِيزَانُ يُخْفِضُ وَيَرْفَعُ» (۱).

وفي قوله ﷺ: «إِنَّ الْمُقْسِطِينَ عِنْدَ اللَّهِ عَلَى مَنَابِرٍ مِنْ نُورٍ عَنْ يَمِينِ الرَّحْمَنِ عِزَّ وَجَلٍّ، وَكَلَّمْنَا يَدَيْهِ يَمِينًا» (۲).

وفي قوله ﷺ: «يَطْوِي اللَّهُ - عِزَّ وَجَلَّ - السَّمَوَاتِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، ثُمَّ يَأْخُذُهُنَّ بِيَدِهِ الْيُمْنَى، ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ، أَيُّنَ الْجَبَّارُونَ، أَيُّنَ الْمُتَكَبِّرُونَ، ثُمَّ يَطْوِي الْأَرْضِينَ بِشِمَالِهِ، ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ، أَيُّنَ الْجَبَّارُونَ، أَيُّنَ الْمُتَكَبِّرُونَ» (۳).

فهذه أدلة على إثبات هذه الصفة، فيثبتها أهل السنة كما يليق بالله سبحانه وتعالى، وقد أورد ابن كثير - رحمه الله - أدلة كثيرة في إثبات صفة اليد عند تفسير قوله: ﴿وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾ [الزمر: ۶۷].

أمَّا صفة الوجه، فذكرت في الآيات كثيرًا؛ كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ [الأنعام: ۵۲]، وقوله تعالى: ﴿إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى﴾ [الليل: ۲۰]، وقوله: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾

(۱) تقدم تحريجه (۲/۲۸۸).

(۲) أخرجه مسلم (۱۸۲۷) من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.

(۳) أخرجه البخاري (۶۵۱۹) بنحوه، ومسلم (۲۷۸۸) واللفظ له، من حديث ابن عمر

رضي الله عنهما.

[الفصل: ۸۸] ، ونحوها من الآيات، وكذلك في الحديث النبويّ قال ﷺ: «حِجَابُهُ النُّورُ، لَوْ كَشَفَهُ لَأُخْرِقَتْ سُبُحَاتُ وَجْهِهِ مَا انْتَهَى إِلَيْهِ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ»^(۱)، وفي قوله: «جَنَّتَانِ مِنْ فِضَّةٍ، أَيْتُهُمَا وَمَا فِيهِمَا، وَجَنَّتَانِ مِنْ ذَهَبٍ، أَيْتُهُمَا وَمَا فِيهِمَا، وَمَا بَيْنَ الْقَوْمِ وَبَيْنَ أَنْ يَرَوْا رَبَّهُمْ تَبَارَكَ وَتَعَالَى إِلَّا رِذَاءُ الْكِبْرِيَاءِ عَلَى وَجْهِهِ فِي جَنَّةِ عَدْنٍ»، أُخْرِجَاهُ فِي «الصَّحِيحَيْنِ»^(۲)، ونحو ذلك من الأدلّة.

فهذه أدلّة واضحة من الكتاب والسنة على إثبات هذه الصّفة.

وكذلك صفة النفس، ذكرها الله في قوله: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام: ۵۴]، وقوله عن عيسى - عليه السلام -: ﴿تَعَلَّمْ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعَلَّمْ مَا فِي نَفْسِكَ﴾ [المائدة: ۱۱۶]، وفي آيات كثيرة غير ذلك؛ فصّفة النفس ذكرها الله تعالى وأثبتها وهو أعلم بنفسه، وكذلك رسوله ﷺ أعلم بمرسله، فيقتصر على ما جاء في الكتاب والسنة.

ثمّ اعتذر الشارح عن الطحاوي في استعماله لهذه الكلمات، وذكر أنّه ما قصدها حقاً، وأنّ هذه الصّفات لا تسمّى أركاناً، ولا تسمّى أدوات، ولا تسمّى أعضاء، واستدلّ بأنّ الأعضاء واحداً عضواً، وهو الذي لا يمكن أن يتجزأ، والله منزّه عن ذلك.

(۱) تقدم تحريجه (۱/ ۳۱۳).

(۲) تقدم تحريجه (۲/ ۱۵۰).

وذكر قول الله تعالى: ﴿الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ﴾ [الحجر: ٩١]،
يعني: أقسامًا وأجزاء.

وبكلِّ حال فكان الأولى أن لا تذكر هذه الأشياء؛ لأنَّ فيها حقٌّ وباطلٌ،
فإنَّ النِّفَاةَ - الَّذِينَ هُمُ الْجَهْمِيَّةُ ونحوهم - نفوا بها جميع الصِّفَاتِ، وتسلَّطوا على
ما ورد في النصوص فنفوه، وقالوا: إنَّه أعضاء، وإنَّه أركان، وإنَّه أدوات، فلمَّا
تسلَّطوا بها احتاج أهل السنَّة إلى أن يبيِّنوا أنَّ الصِّفَاتِ لا تدخل في هذا النَّفْيِ،
وأنَّه لا يُقال: الصِّفَاتِ الَّتِي أثبتناها لا يصدق عليها أنَّها أركان، ولا أنَّها
أدوات، ولا أنَّها أعضاء، ونحو ذلك.

قال الشارح:

وَأَمَّا لَفْظُ الْجِهَةِ، فَقَدْ يُرَادُ بِهِ مَا هُوَ مَوْجُودٌ، وَقَدْ يُرَادُ بِهِ مَا هُوَ مَعْدُومٌ،
وَمِنَ الْمَعْلُومِ أَنَّهُ لَا مَوْجُودَ إِلَّا الْخَالِقُ وَالْمَخْلُوقُ، فَإِذَا أُريدَ بِالْجِهَةِ أَمْرٌ مَوْجُودٌ
غَيْرُ اللَّهِ تَعَالَى كَانَ مَخْلُوقًا، وَاللَّهُ تَعَالَى لَا يَحْضُرُهُ شَيْءٌ، وَلَا يُحِيطُ بِهِ شَيْءٌ مِنْ
الْمَخْلُوقَاتِ، تَعَالَى اللَّهُ عَنِ ذَلِكَ. وَإِنْ أُريدَ بِالْجِهَةِ أَمْرٌ عَدَمِيٌّ، وَهُوَ مَا فَوْقَ
الْعَالَمِ، فَلَيْسَ هُنَاكَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ. فَإِذَا قِيلَ: إِنَّهُ فِي جِهَةٍ، بِهَذَا الْإِعْتِبَارِ، فَهُوَ
صَحِيحٌ، وَمَعْنَاهُ: أَنَّهُ فَوْقَ الْعَالَمِ حَيْثُ انْتَهتِ الْمَخْلُوقَاتُ فَهُوَ فَوْقَ الْجَمِيعِ، عَالٍ
عَلَيْهِ.

وَنَفَاهُ لَفْظِ الْجِهَةِ الَّذِينَ يُرِيدُونَ بِذَلِكَ نَفْيَ الْعُلُوِّ، يَذْكُرُونَ مِنْ أَدْلَتِهِمْ: أَنَّ
الْجِهَاتِ كُلَّهَا مَخْلُوقَةٌ، وَأَنَّهُ كَانَ قَبْلَ الْجِهَاتِ، وَأَنَّ مَنْ قَالَ: إِنَّهُ فِي جِهَةٍ يَلْزَمُهُ
الْقَوْلُ بِقَدَمِ شَيْءٍ مِنَ الْعَالَمِ، أَوْ أَنَّهُ كَانَ مُسْتَغْنِيًا عَنِ الْجِهَةِ ثُمَّ صَارَ فِيهَا. وَهَذَا
الْأَلْفَاظُ وَنَحْوُهَا إِنَّمَا تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ لَيْسَ فِي شَيْءٍ مِنَ الْمَخْلُوقَاتِ، سِوَاةَ سُمِّيَ
جِهَةً أَوْ لَمْ يُسَمَّ، وَهَذَا حَقٌّ. وَلَكِنَّ الْجِهَةَ لَيْسَتْ أَمْرًا وَجُودِيًّا، بَلْ أَمْرٌ اِعْتِبَارِيٌّ،
وَلَا شَكَّ أَنَّ الْجِهَاتِ لَا نِهَايَةَ لَهَا، وَمَا لَا يُوجَدُ فِيهَا لَا نِهَايَةَ لَهُ فَلَيْسَ بِمَوْجُودٍ.

قال الشيخ:

قصد الطحاوي صحيح، وهو أن الربَّ سبحانه وتعالى لا يحيط به شيء من خلقه؛ لأن الجهات مخلوقة، فلا تحيط به جهة بمعنى تمويه أو تحصره، وقد

قال تعالى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾ [طه: ١١٠]، وقال: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، فإذا كانوا لا يحيطون به علمياً، فكذلك المخلوقات لا تحيط به، يعني: لا تحصره أو تحويه - تعالى الله - هذا هو قصده. والجهات الستُ معروفة، هي: الفوق، والتحت، واليمين، واليسار، والأمام، والخلف، معنى أنها لا تحيط به، أي: لا تحصره جهة فيها، بل هو أعظم من كل شيء.

ثم لا ينافي ذلك أن يوصف الله تعالى بأنه بائن فوق عباده، في جهة العلوِّ أنه فوق عباده، ولكن لا يلزم من ذلك حصر ولا إحاطة ولا غير ذلك، وقد دلت الأدلة الشرعية على وصف الربِّ سبحانه وتعالى بصفة العلوِّ، وسيتكلم الشارح على ذلك بتوسُّع في هذا الكتاب، ويذكر الأدلة الدالة على أن الله فوق مخلوقاته كما يشاء، قال الله تعالى: ﴿وَهُوَ أَقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ [الأنعام: ١٨]، وقال: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِّنْ فَوْقِهِمْ﴾ [النحل: ٥٠]، وكذلك غيرها من الأدلة.

قال الشارح:

وَقَوْلُ الشَّيْخِ . رَحِمَهُ اللَّهُ . : (لَا تَحْوِيهِ الْجِهَاتُ السَّتُّ كَسَائِرِ الْمُبْتَدَعَاتِ) ،
هُوَ حَقٌّ ، بِاعْتِبَارِ أَنَّهُ لَا مُحِيطُ بِهِ شَيْءٌ مِنْ مَخْلُوقَاتِهِ ، بَلْ هُوَ مُحِيطٌ بِكُلِّ شَيْءٍ
وَفَوْقَهُ . وَهَذَا الْمَعْنَى هُوَ الَّذِي أَرَادَهُ الشَّيْخُ . رَحِمَهُ اللَّهُ . لِمَا يَأْتِي فِي كَلَامِهِ أَنَّهُ تَعَالَى
(مُحِيطٌ بِكُلِّ شَيْءٍ وَفَوْقَهُ) . فَإِذَا جُمِعَ بَيْنَ كَلَامِهِ ، وَهُوَ قَوْلُهُ : (لَا تَحْوِيهِ الْجِهَاتُ
السَّتُّ كَسَائِرِ الْمُبْتَدَعَاتِ) ، وَقَوْلُهُ : (مُحِيطٌ بِكُلِّ شَيْءٍ وَفَوْقَهُ) ، عَلِمَ أَنَّ مُرَادَهُ أَنَّ
اللَّهَ تَعَالَى لَا يَحْوِيهِ شَيْءٌ ، وَلَا مُحِيطٌ بِهِ شَيْءٌ ، كَمَا يَكُونُ لِغَيْرِهِ مِنَ الْمَخْلُوقَاتِ ،
وَأَنَّهُ تَعَالَى هُوَ الْمُحِيطُ بِكُلِّ شَيْءٍ ، الْعَالِي عَنْ كُلِّ شَيْءٍ .

لَكِنْ بَقِيَ مِنْ كَلَامِهِ شَيْئَانِ :

أَحَدُهُمَا : أَنَّ إِطْلَاقَ مِثْلِ هَذَا اللَّفْظِ . مَعَ مَا فِيهِ مِنَ الْإِجْمَالِ وَالِاخْتِصَالِ . كَانَ
تَرْكُهُ أَوْلَى ، وَإِلَّا تَسَلَّطَ عَلَيْهِ ، وَالزَّمَّ بِالسَّائِضِ فِي إِثْبَاتِ الْإِحَاطَةِ وَالْفَوْقِيَّةِ وَنَفْيِ
جِهَةِ الْعُلُوِّ ، وَإِنْ أُجِيبَ عَنْهُ بِمَا تَقَدَّمَ ، مِنْ أَنَّهُ نَفْسِي أَنْ يَحْوِيَهُ شَيْءٌ مِنْ مَخْلُوقَاتِهِ ،
فَالِاخْتِصَامُ بِالْأَلْفَاقِ الشَّرْعِيَّةِ أَوْلَى .

الثَّانِي : أَنَّ قَوْلَهُ : (كَسَائِرِ الْمُبْتَدَعَاتِ) ، يُفْهَمُ مِنْهُ أَنَّهُ مَا مِنْ مُبْتَدَعٍ إِلَّا وَهُوَ
يَحْوِيُّ ، وَفِي هَذَا نَظَرٌ . فَإِنَّهُ إِنْ أَرَادَ أَنَّهُ يَحْوِيُّ بِأَمْرِ وَجُودِيٍّ ، فَمَشْمُوعٌ ، فَإِنَّ الْعَالَمَ
لَيْسَ فِي عَالَمِ آخَرَ ، وَإِلَّا لَزِمَ التَّسَائُلُ ، وَإِنْ أَرَادَ أَمْرًا عَدَمِيًّا ، فَلَيْسَ كُلُّ مُبْتَدَعٍ فِي
الْعَدَمِ ، بَلْ مِنْهَا مَا هُوَ دَاخِلٌ فِي غَيْرِهِ ، كَالسَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ فِي الْكُرْبِيِّ ، وَتَهْمُ
ذَلِكَ ، وَمِنْهَا مَا هُوَ مُتَهَيِّ الْمَخْلُوقَاتِ ، كَالْعَرْشِ . فَسَطَّحَ الْعَالَمَ لَيْسَ فِي غَيْرِهِ مِنْ
الْمَخْلُوقَاتِ ، قَطْعًا لِلتَّسَائُلِ ، كَمَا تَقَدَّمَ .

قال الشيخ:

في هذا لفظ الشارح على الماتن هاتين الملحوظتين:

الأولى: يقول: إِنَّ الْأَوَّلَىٰ عَدَمَ اسْتِعْمَالِ هَذِهِ الْأَلْفَاظِ؛ لِمَا فِيهَا مِنَ الْإِبْهَامِ، وَلِمَا فِيهَا مِنَ الْعُمُومِ الَّذِي تَسَلَّطَ بِهِ الْأَعْدَاءُ أَوْ الْمُبْتَدِعَةُ عَلَىٰ نَفْسِي مَا هُوَ حَقٌّ، فَإِنَّهُمْ تَسَلَّطُوا بِقَوْلِهِمْ: لَا تَحْوِيهِ الْجِهَاتُ السُّنَّةُ عَلَىٰ نَفْسِي جِهَةَ الْعُلُوِّ، وَبِنَفْسِي الْأَعْضَاءِ وَالْأَرْكَانِ وَالْأَدْوَاتِ عَلَىٰ نَفْسِي صِفَةَ الْكِبَالِ، وَجَعَلُوا هَذَا دَلِيلًا لَهُمْ، مَعَ أَنَّ هَذَا غَيْرُ مَرَادِ الطَّحَاوِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ، بَلْ مَرَادُهُ حَقٌّ؛ كَمَا بَيَّنَّهُ الشَّارِحُ وَاعْتَذَرَ عَنْهُ.

كذلك لفظ أَنَّ قَوْلَهُ: كَسَائِرُ الْمُبْتَدِعَاتِ يَفْهَمُ مِنْهُ أَنَّ الْمُبْتَدِعَاتِ مِنَ الْمَخْلُوقَاتِ تَحْوِيهَا جِهَةٌ مِنَ الْجِهَاتِ، وَهَذَا لَيْسَ بِصَحِيحٍ، يَعْنِي: لَيْسَ كُلُّ الْمَوْجُودَاتِ مَحْوِيَّةً حَوْتِهَا جِهَةٌ مِنَ الْجِهَاتِ. وَمِثْلُ بِالْعَالَمِ وَمَا أَشْبَهَهُ. وَبِكُلِّ حَالٍ، فَالِاقْتِصَارُ عَلَى السُّنَّةِ، وَالِاقْتِصَارُ عَلَى مَا وَرَدَ فِي الْأَدَلَّةِ الشَّرْعِيَّةِ الصَّرِيحَةِ وَالسَّنَةِ الصَّحِيحَةِ هُوَ الدَّلِيلُ الْوَاضِحُ، وَهُوَ الَّذِي لَيْسَ فِيهِ تَوْقُفٌ وَلَا شَكٌّ، وَفِيهِ الْكِفَايَةُ وَالْمَقْنَعُ، وَكَذَلِكَ الْاسْتِدْلَالُ بِعِبَارَاتِ السَّلَفِ، فَالسَّلَفُ - رَحِمَهُمُ اللَّهُ - يُعْبَرُونَ بِعِبَارَاتٍ وَاضِحَةٍ، فَفِيهَا الْكِفَايَةُ عَنِ التَّعْبِيرِ بِعِبَارَاتٍ مُوَهَّمَةٍ اسْتَعْمَلَهَا الْمُتَأَخَّرُونَ، وَأَدْخَلُوا فِيهَا حَقًّا وَبَاطِلًا.

قال الشارح:

وَيُمْكِنُ أَنْ يُجَابَ عَنْ هَذَا الْإِشْكَالِ: بِأَنَّ (سَائِرَ) بِمَعْنَى الْبَقِيَّةِ، لَا بِمَعْنَى الْجَمِيعِ، وَهَذَا أَصْلُ مَعْنَاهَا، وَمِنْهُ (السُّورُ)، وَهُوَ مَا يُبْقِيهِ الشَّارِبُ فِي الْإِنْسَاءِ. فَيَكُونُ مُرَادُهُ غَالِبَ الْمَخْلُوقَاتِ، لَا جَمِيعَهَا، إِذِ السَّائِرُ عَلَى الْغَالِبِ أَدْلُّ مِنْهُ عَلَى الْجَمِيعِ، فَيَكُونُ الْمَعْنَى: أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى غَيْرُ مَحْوِيٍّ، كَمَا يَكُونُ أَكْثَرُ الْمَخْلُوقَاتِ مَحْوِيًّا، بَلْ هُوَ غَيْرُ مَحْوِيٍّ بِشَيْءٍ، تَعَالَى اللَّهُ عَنْ ذَلِكَ. وَلَا يُظَنَّ بِالشَّيْخِ رَحِمَهُ اللَّهُ. أَنَّهُ يَمُنُّ يَقُولُ: إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَيْسَ دَاخِلَ الْعَالَمِ وَلَا خَارِجَهُ بِنَفْسِي النَّفِيضِينَ، كَمَا ظَنَّهُ بَعْضُ الشَّارِحِينَ، بَلْ مُرَادُهُ: أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى مُنَزَّهٌ عَنْ أَنْ يُحِيطَ بِهِ شَيْءٌ مِنْ مَخْلُوقَاتِهِ، وَأَنْ يَكُونَ مُفْتَقِرًا إِلَى شَيْءٍ مِنْهَا، الْعَرْشِ أَوْ غَيْرِهِ.

وَفِي ثُبُوتِ هَذَا الْكَلَامِ عَنِ الْإِمَامِ أَبِي حَنِيفَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - نَظَرٌ، فَإِنَّ أَضْمَادَهُ قَدْ سَنَعُوا عَلَيْهِ بِأَشْيَاءَ أَهْوَنَ مِنْهُ، فَلَوْ سَمِعُوا مِثْلَ هَذَا الْكَلَامِ لَسَاءَ عَنْهُمْ تَشْنِيعُهُمْ عَلَيْهِ بِهِ، وَقَدْ نَقَلَ أَبُو مُطِيعٍ الْبَلْخِيُّ عَنْهُ إِثْبَاتَ الْعُلُوِّ، كَمَا سَأَلَنِي ذِكْرُهُ إِنْ سَاءَ اللَّهُ تَعَالَى. وَظَاهِرُ هَذَا الْكَلَامِ يَقْتَضِي نَفْيَهُ، وَلَمْ يَرِدْ بِمِثْلِهِ كِتَابٌ وَلَا سُنَّةٌ، فَلِذَلِكَ قُلْتُ: إِنَّ فِي ثُبُوتِهِ عَنِ الْإِمَامِ نَظْرًا، وَإِنَّ الْأَوَّلَى التَّوَقُّفُ فِي إِطْلَاقِهِ، فَإِنَّ الْكَلَامَ بِمِثْلِهِ خَطَرٌ، بِخِلَافِ الْكَلَامِ بِمَا وَرَدَ عَنِ الشَّارِعِ، كَالِاسْتِوَاءِ وَالنُّزُولِ وَنَحْوِ ذَلِكَ. وَمَنْ ظَنَّ مِنَ الْجَهَالِ أَنَّهُ إِذَا نَزَلَ إِلَى سَمَاءِ الدُّنْيَا - كَمَا أَخْبَرَ الصَّادِقُ عليه السلام ^(١) - يَكُونُ الْعَرْشُ فَوْقَهُ، وَيَكُونُ مَحْصُورًا بَيْنَ طَبَقَتَيْنِ

(١) حديث النزول أخرجه البخاري (١١٤٥)، ومسلم (٧٥٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

مِنَ الْعَالَمِ. وَقَوْلُهُ مُخَالَفٌ لِإِجْمَاعِ السَّلَفِ، مُخَالَفٌ لِلْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ.
 وَقَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ أَبُو عُمَرَ إِسْمَاعِيلُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الصَّابُؤِيُّ: سَمِعْتُ
 الْأُسْتَاذَ أَبَا مَنْصُورِ بْنِ حَمَادٍ - بَعْدَ رِوَايَتِهِ حَدِيثَ النُّزُولِ - يَقُولُ: سَأَلَ أَبُو حَنِيفَةَ
 رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فَقَالَ: يَنْزِلُ بِلَا كَيْفٍ. انْتَهَى.

وَأَمَّا تَوَقَّفَ مَنْ تَوَقَّفَ فِي نَفْيِ ذَلِكَ، لِضَعْفِ عِلْمِهِ بِمَعَانِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ
 وَأَسْوَالِ السَّلَفِ، وَلِلذَلِكَ يُنْكَرُ بَعْضُهُمْ أَنْ يَكُونَ فَوْقَ الْعَرْشِ، بَلْ يَقُولُ:
 لَا مُبَايِنَ، وَلَا مُحَايِثَ، لَا دَاخِلَ الْعَالَمِ وَلَا خَارِجَهُ، فَيَصِفُونَهُ بِصِفَةِ الْعَدَمِ
 وَالْمُنْتَعِ، وَلَا يَصِفُونَهُ بِمَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ مِنَ الْعُلُوِّ وَالِاسْتِوَاءِ عَلَى الْعَرْشِ،
 وَيَقُولُ بَعْضُهُمْ بِحُلُولِهِ فِي كُلِّ مَوْجُودٍ، وَيَقُولُ: هُوَ وَجُودٌ كُلِّ مَوْجُودٍ وَنَحْوُ
 ذَلِكَ، تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يَقُولُ الظَّالِمُونَ وَالْجَاهِلُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا.

وَسَيَأْتِي لِإِبْتَاتِ صِفَةِ الْعُلُوِّ لِلَّهِ تَعَالَى زِيَادَةً بَيِّنًا، عِنْدَ الْكَلَامِ عَلَى قَوْلِ
 الشَّيْخِ - رَحِمَهُ اللَّهُ -: (مُحِيطٌ بِكُلِّ شَيْءٍ وَثَوَقَةٌ)، إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى.

قال الشيخ:

لَمَّا كَانَ بَعْضُ الْمُنْتَمِينَ إِلَى مَذْهَبِ أَبِي حَنِيفَةَ - رَحِمَهُ اللَّهُ - قَدْ دَخَلَهُمْ شَيْءٌ
 مِنَ التَّغْيِيرِ فِي الْعَقِيدَةِ، نَسَبُوا إِلَيْهِ أَنَّهُ مِمَّنْ يَقُولُ: إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَا دَاخِلَ الْعَالَمِ
 وَلَا خَارِجَهُ، وَهَذَا لَا شَكَّ أَنَّهُ لَمْ يَقُلْهُ أَبُو حَنِيفَةَ رَحِمَهُ اللَّهُ، بَلْ أَبُو حَنِيفَةَ
 - رَحِمَهُ اللَّهُ - قَدْ أَثْبَتَ الْإِسْتِوَاءَ، وَأَثْبَتَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى فَوْقَ عَرْشِهِ، وَأَنَّهُ يُدْعَى مِنْ
 أَعْلَى، وَأَنَّ الْعِبَادَ إِذَا دَعَوْهُ رَفَعُوا إِلَيْهِ أَيْدِيَهُمْ مُتَضَرِّعِينَ إِلَيْهِ، اسْتَدَلَّ بِذَلِكَ كَلِّهِ

على أن الله تعالى فوق عباده، ولم يقل هذه المقالة الشنيعة التي يستعملها النفاة. فعلى هذا لا يظن أن أحداً من أئمة الإسلام، لا أبا حنيفة - رحمه الله - ولا غيره من الأئمة المتبعين، المقتدى بهم، أنهم يدخلون في هذه الأمور مبتدعة، والتي فيها تعطيل الله تعالى، ونفي صفات كماله؛ وذلك لأن صفات الكمال ثابتة لله - سبحانه وتعالى - عقلاً ونقلاً، والصفات التي أثبتها كلها صفات كمال، والتي نفاها؛ لأنها تشتمل على نقص، ونفي النقص كمال، هذه هي طريقة أهل السنة: أنهم ينفون عن الله الصفات التي نفاها عن نفسه؛ لأن في نفيها إثباتاً لأضدادها، وذلك كله من صفات الكمال.

ولا شك أن المسلم إذا اعتقد في ربه أنه قريب مجيب، واعتقد أنه عليم حكيم، واعتقد أنه سميع بصير، استحضر ذلك في كل حالاته، وعظم قدر ربه في قلبه، وأكثر من دعائه، وتعلق قلبه برجائه، وخافه حق الخوف، واستعد للقائه، وعظمه غاية التعظيم، وهذا هو السر في تقرير أهل السنة لهذه الصفات، حتى يعرف المسلمون صفات ربهم فيعبدونه حق عبادته.

ومن صفات الله - سبحانه وتعالى - أنه القاهر فوق عباده، قال تعالى:

﴿ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ ﴾ [الأنعام: ١٨]، وقال: ﴿ يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ﴾

[النحل: ٥٠]، فيؤمنون بهذا القهر الذي مقتضاه الغلبة والإحاطة، والقهر هو قوّة الغلبة، يعني: أنه غالب متصرف في العباد، ليس لهم قدرة على

التصرف بأنفسهم من دون اختيار الله وقضائه وتدبيره.

ومن صفاته سبحانه أنّه العليُّ بجميع أنواع العلوِّ: علوُّ القدر، وعلوُّ القهر، وعلوُّ الذات، وكذلك فوقية القدر، وفوقية القهر، وفوقية الذات، ولا شكّ أنّ هذه الصّفات قد دلّت عليها أدلّة سمعيّة: الآيات القرآنيّة والأحاديث النبويّة، فإن مرجع المسلمين في استدلالهم على صفات ربّهم إلى هذه النصوص الثابتة المنقولة عن نبيّهم نقلًا ثابتًا متواترًا، وهذا الإثبات للفوقية بجميع أنواعها يستلزم أن يكون الرّبُّ .. سبحانه وتعالى .. بكلّ شيء عليًّا، فإنّه إذا كان قاهرًا لعباده، وقادرًا عليهم، وعالمًا بهم، ومطلّعًا عليهم، ويرى صغيرهم وكبيرهم، وخفيّهم وجلّهم؛ كان ذلك أدلّ على عظمته وعلى إحاطته، فالمخلوقون حقّرون بالنسبة لعظمة ربّهم، والإنسان جزء صغير من مخلوقات الله، والأرض التي نحن عليها والسّموات التي هي فوقنا ومحيطة بنا جزء صغير أيضًا من مخلوقات الله تعالى، قال تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَتَّى قَدَرَهُ، وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾ [الزمر: ٦٧]، فما مقدار الإنسان؟ وما قدره في هذا الكون العظيم الذي هذا مقداره؟ قال ابن عبّاس - رضي الله عنهما -: «مَا السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَالْأَرْضُ صُورَةُ السَّبْعِ فِي يَدِ اللَّهِ إِلَّا كَخَرْدَلَةٍ فِي يَدِ أَحَدِكُمْ»^(١)، حبة الخردل هي أصغر ما يتصوّر من الحبوب، حبة الخردل شجر معروف، وحبه صغير جدًّا، فيقول: إذا قبض أحدكم حبة خردل في كفه، فهل يحسّ أنّها تشغل مكانًا؟ كذلك المخلوقات: السّموات

(١) تقدم تحريجه (١/٤٩٤).

السَّبْع والأرضون السَّبْع يقبضها الله وكأنتها حَبَّة خردل في يد أحدكم. فهذا دليل على العظمة وأنَّ علوَّه سبحانه فوق عباده لا ينافي علمه، ولا ينافي اطلاعه، ولا ينافي إحاطته بعباده، ولا ينافي رؤيته لهم، وقربه منهم، وهيمته عليهم، ونظره إليهم، وعلمه بأحوالهم وبأقوالهم، وسماعه لأصواتهم، وما أشبه ذلك، أفلا يكون العبد مستحضرًا لذلك في كلِّ حالاته حتَّى يعبد ربَّه غاية العبادة، وحتَّى يخافه غاية الخوف؟!

إذا فمن أصل عقيدة المسلمين الاعتقاد بالفوقية لله، وأنَّ ذلك لا ينافي علمه وقربه واطلاعه على عباده، كذلك على المسلم أن يعرف العقائد الضَّالَّة فيجتنبها، وعليه أن يُقبِل على عقيدة السَّلف والأئمَّة وأهل السُّنَّة، ويعرض عن ما سواها من عقائد المتدعة؛ كأهل وحدة الوجود والحلوليين، ونحوهم من البدع الضَّالَّة، الَّذِينَ أنكروا علوَّ الله، وقالوا: إنَّه لا فوق ولا تحت، ولا مباين ولا محايث، أو أنَّ وجوده هو وجود الكون، أو أنَّه حالٌّ في المخلوقات بذاته. تعالى الله عمَّا يقولون. فكلُّ أولئك لم يثبت الإيمان في قلوبهم، ولم ترسخ معرفة الله وعقيدة الإسلام في أفئدتهم، فوسوس لهم الشَّيطان أنَّ ذات الله حالة فيكم أو في كلِّ مكان، أو أنَّ وجوده هو وجود الكون، أو ما أشبه ذلك، يريدون بذلك أن يسوَّغوا مذاهبهم، فعلى المسلم أن يعرف العقيدة السَّليمة، وأن يعتقد بها، وأن يتعبَّد لله تعالى بموجبها.

قال الطحاوي:

وَالْمِعْرَاجُ حَقٌّ، وَقَدْ أُسْرِيَ بِالنَّبِيِّ ﷺ وَخُرِجَ بِشَخْصِهِ فِي الْيَقِظَةِ إِلَى السَّمَاءِ،
ثُمَّ إِلَى حَيْثُ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الْعُلَا، وَأَكْرَمَهُ اللَّهُ بِمَا شَاءَ، وَأَوْحَى إِلَيْهِ مَا أَوْحَى،
مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى. فَصَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ فِي الْآخِرَةِ وَالْأُولَى.

قال الشارح:

(المِعْرَاجُ): مِفْعَالٌ، مِنَ الْعُرُوجِ، أَي: الْأَلَةِ الَّتِي يُعْرَجُ فِيهَا، أَي: يُصْعَدُ،
وَهُوَ بِمَنْزِلَةِ السَّلَمِ، لَكِنْ لَا يُعْلَمُ كَيْفَ هُوَ، وَحُكْمُهُ كَحُكْمِ هَيْرِهِ مِنَ الْمَغِيبَاتِ،
نُؤْمِنُ بِهِ وَلَا نَسْتَعْمِلُ بِكَيْفِيَّتِهِ.

وَقَوْلُهُ: (وَقَدْ أُسْرِيَ بِالنَّبِيِّ ﷺ وَخُرِجَ بِشَخْصِهِ فِي الْيَقِظَةِ)، اخْتَلَفَ النَّاسُ
فِي الْإِسْرَاءِ، فَقِيلَ: كَانَ الْإِسْرَاءُ بِرُوحِهِ وَلَمْ يُفْقَدْ جَسَدُهُ، نَقَلَهُ ابْنُ إِسْحَاقَ عَنْ
عَائِشَةَ وَمُعَاوِيَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - وَنَقَلَ عَنِ الْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ نَحْوَهُ^(١).

لَكِنْ يَنْبَغِي أَنْ يُعْرَفَ الْفَرْقُ بَيْنَ أَنْ يُقَالَ: كَانَ الْإِسْرَاءُ مَنْامًا، وَيَبِينُ أَنْ
يُقَالَ: كَانَ بِرُوحِهِ دُونَ جَسَدِهِ، وَبَيْنَهُمَا فَرْقٌ عَظِيمٌ، فَعَائِشَةُ وَمُعَاوِيَةُ - رَضِيَ اللَّهُ
عَنْهُمَا - لَمْ يَقْرَأَا: كَانَ مَنْامًا، وَإِنَّمَا قَالَا: أُسْرِيَ بِرُوحِهِ وَلَمْ يُفْقَدْ جَسَدُهُ، وَفَرْقٌ مَا
بَيْنَ الْأَمْرَيْنِ؛ إِذْ مَا يَرَاهُ النَّاسُ قَدْ يَكُونُ أَمْثَالًا مَضْرُوبَةً لِلْمَعَاوِمِ فِي الصُّورَةِ

(١) انظر: سيرة ابن إسحاق (٥/٢٧٥)، والسيرة النبوية لابن هشام (٢/٢٤٥، ٢٤٦)،

وتفسير الطبري (١٥/١٦).

المَحْسُوسَةِ، فَيَرَى كَأَنَّهُ قَدْ عُرِجَ بِهِ إِلَى السَّمَاءِ، وَذُهِبَ بِهِ إِلَى مَكَّةَ، وَرُوحُهُ لَمْ تَصْعَدْ وَلَمْ تَذْهَبْ، وَإِنَّمَا مَلَكَ الرُّؤْيَا ضَرَبَ لَهُ الْمِثَالَ. فَمَا أَرَادَا أَنَّ الْإِسْرَاءَ مَنَامًا، وَإِنَّمَا أَرَادَا أَنَّ الرُّوحَ ذَاتَهَا أُسْرِيَ بِهَا، فَفَارَقَتِ الْجَسَدَ ثُمَّ عَادَتْ إِلَيْهِ، وَيَجْعَلَانِ هَذَا مِنْ خَصَائِصِهِ، فَإِنَّ غَيْرَهُ لَا تَنَالُ ذَاتُ رُوحِهِ الصُّعُودَ الْكَامِلَ إِلَى السَّمَاءِ إِلَّا بَعْدَ الْمَوْتِ.

وَقِيلَ: كَانَ الْإِسْرَاءُ مَرَّتَيْنِ، مَرَّةً يَقْطَعُهُ، وَمَرَّةً مَنَامًا. وَأَصْحَابُ هَذَا الْقَوْلِ كَأَنَّهُمْ أَرَادُوا الْجَمْعَ بَيْنَ حَدِيثِ شَرِيكَ وَقَوْلِهِ: «ثُمَّ اسْتَيْقَظْتُ»، وَبَيْنَ سَائِرِ الرِّوَايَاتِ.

وَكَذَلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَالَ: بَلْ كَانَ مَرَّتَيْنِ، مَرَّةً قَبْلَ الْوُحْيِ، وَمَرَّةً بَعْدَهُ. وَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ: بَلْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، مَرَّةً قَبْلَ الْوُحْيِ، وَمَرَّتَيْنِ بَعْدَهُ. وَكُلَّمَا اشْتَبَهَ عَلَيْهِمْ لَفْظُ زَادُوا مَرَّةً، لِلتَّوْفِيقِ! وَهَذَا يَفْعَلُهُ ضِعْفَاءُ أَهْلِ الْحَدِيثِ، وَإِلَّا فَالَّذِي عَلَيْهِ أَثِمَّةُ النَّقْلِ: أَنَّ الْإِسْرَاءَ كَانَ مَرَّةً وَاحِدَةً بِمَكَّةَ، بَعْدَ الْبَعْثَةِ، قَبْلَ إِجْرَاءِ بَسَنَةِ، وَقِيلَ: بِسَنَةِ وَشَهْرَيْنِ، ذَكَرَهُ ابْنُ عَبْدِ الْبَرِّ.

قال الشيخ:

من عقائد أهل السنة الإيمان بأن النبي ﷺ عُرِجَ بِهِ إِلَى السَّمَاءِ، وَفَرَضَتْ عَلَيْهِ الصَّلَوَاتُ الْخَمْسُ فِي لَيْلَةِ الْمِعْرَاجِ، وَأَنَّ ذَلِكَ كَانَ بِمَكَّةَ قَبْلَ الْهَجْرَةِ بِثَلَاثِ سِنِينَ أَوْ نَحْوِهَا.

وكذلك من عقائدهم ثبوت الإسراء، وقد ذكر الله تعالى الإسراء، قال

تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَنَّا حَوْلَهُ﴾ [الإسراء: ١]، وأخبر ﷺ في الحديث بأنه أُسْرِيَ بِهِ^(١)، يعني: دُهِبَ بِهِ مِنْ مَكَّةَ إِلَى أَنْ وَصَلَ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى فِي بَيْتِ الْمَقْدَسِ، وَهَذَا الْمَسْجِدُ كَانَ قِبْلَةَ النَّبِيِّ ﷺ قَبْلَ الْهِجْرَةِ، وَبَعْدَ الْهِجْرَةِ أَيْضًا كَانَ يَسْتَقْبِلُهُ سِتَّةَ عَشَرَ أَوْ سَبْعَةَ عَشَرَ شَهْرًا؛ لِذَلِكَ يُقَالُ: أَوْلَى الْقِبْلَتَيْنِ، وَيُقَالُ: إِنَّهُ مَسْرَى النَّبِيِّ ﷺ، وَهُوَ أَحَدُ الْمَسَاجِدِ الثَّلَاثَةِ الَّتِي يَشُدُّ إِلَيْهَا الرَّحَالَ، قَالَ ﷺ: «لَا تُشَدُّ الرَّحَالُ إِلَّا إِلَى ثَلَاثَةِ مَسَاجِدَ: مَسْجِدِ الْحَرَامِ، وَمَسْجِدِ الْأَقْصَى، وَمَسْجِدِي»^(٢)، يعني: أَنَّهُ يُجُوزُ أَنْ يَسَافِرَ إِلَيْهِ لِأَجْلِ فَضْلِ الصَّلَاةِ فِيهِ، فَالصَّلَاةُ فِيهِ تَعْدِلُ خَمْسَ مِائَةِ صَلَاةٍ فِي غَيْرِهِ^(٣)، وَالصَّلَاةُ فِي الْمَسْجِدِ النَّبَوِيِّ «أَفْضَلُ

(١) - حديث الإسراء أخرجه البخاري (٣٤٩)، ومسلم (١٦٣) من حديث أنس بن مالك عن أبي ذر رضي الله عنهما. قال الحافظ ابن حجر في الفتح (١/٤٦٠): «وقد روى هذا الحديث عن النبي ﷺ جماعة من الصحابة، لكن طرقه في الصحيحين تدور على أنس مع اختلاف أصحابه عنه، فرواه الزهري عنه عن أبي ذر كما في هذا الباب، ورواه قتادة عنه عن مالك بن صعصعة، ورواه شريك بن أبي نمر وثابت البناني عنه عن النبي ﷺ بلا واسطة، وفي سياق كل منهم عنه ما ليس عند الآخر».

(٢) أخرجه البخاري (١١٩٧)، من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ، وأخرجه البخاري (١١٨٩)، ومسلم (١٣٩٧) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٣) كما في حديث أبي الدرداء ﷺ، قال: قال رسول الله ﷺ: «فَضَّلُ الصَّلَاةِ فِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ عَلَى غَيْرِهِ مِائَةَ أَلْفِ صَلَاةٍ، وَفِي مَسْجِدِي أَلْفَ صَلَاةٍ، وَفِي مَسْجِدِ بَيْتِ الْمَقْدَسِ بِخَمْسِمِائَةِ صَلَاةٍ»

من ألف صلاة فيما سواه إلا المسجد الحرام^(۱)، و«صلاة في المسجد الحرام أفضل من مائة ألف صلاة فيما سواه»^(۲)، كما ورد ذلك في الأحاديث، هذه المساجد الثلاثة هي التي يشدُّ إليها الرّحل؛ فمسجد إيليا ويسمى مسجد بيت المقدس أو البيت المقدس الذي بناه سليمان عليه السلام، وقيل: إنّه جدّده، وقيل: إنّه أوّل من بناه، والصّحيح أنّه بُني قديماً، ثبت في حديث أبي ذرٍّ رضي الله عنه قال: قلت يا رسول الله، أيُّ مسجدٍ وُضِعَ في الأرض أوّل؟ قال: «المسجد الحرام»، قال: قلت ثمّ أيٌّ؟ قال: «المسجد الأقصى»، قلت: كم كان بينهما؟ قال: «أربعون سنة»^(۳)، فدَلَّ على أنّه بني قديماً؛ لأنّ المسجد الحرام بناه إبراهيم عليه السلام، وقيل: إنّ إبراهيم جدّده؛ فعلى هذا يكون المسجد الأقصى قديماً.

أخرجه البزار كما في كشف الأستار (۲۱۲/۱) برقم (۴۲۲)، وابن عبد البر في التمهيد (۳۰/۶)، والبيهقي في شعب الإيثار (۳/۴۸۵). قال الهيثمي في مجمع الزوائد (۶/۴): «رواه الطبراني في الكبير، ورجاله ثقات، وفي بعضهم كلام، وهو حديث حسن». قال الألباني في السلسلة الصحيحة (۶/۹۵۴): «أصح ما جاء في فضل الصلاة في المسجد الأقصى حديث أبي ذرٍّ رضي الله عنه قال: تذاكرنا ونحن عند رسول الله صلى الله عليه وآله أيها أفضل مسجد رسول الله أو بيت المقدس؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: «صلاة في مسجدي أفضل من أربع صلوات فيه».

(۱) أخرجه البخاري (۱۱۹۰)، ومسلم (۱۳۹۴) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(۲) أخرجه ابن ماجه (۱۴۰۶)، وأحمد (۳/۳۴۳) من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما.

وقال ابن حجر في التلخيص الحبير (۴/۱۷۹): «إسناده صحيح».

(۳) أخرجه البخاري (۳۳۶۶)، ومسلم (۵۲۰).

فالحاصل: أنه - عليه الصلاة والسلام - أُسري به من المسجد الحرام بمكة إلى المسجد الأقصى، وأنه جُمع له الأنبياء هناك، وأنه صَلَّى بهم إمامًا، وقد أنكرت كفار قريش هذا لَمَّا أخبرهم بأنَّه أُسري به وكذبوه، وقال أبو جهل: «ألا تعجبون مما قال محمد، يزعم أنه أتى البارحة بيت المقدس ثم أصبح فينا، وأحدنا يضرب مطيته مصعدة شهرًا، ومقفلة شهرًا، فهذه مسيرة شهرين في ليلة واحدة»^(١)!!

فارتد ناس ممن كان آمنوا به وصدقوه، وسعى رجال من المشركين إلى أبي بكر رضي الله عنه، فقالوا: هل لك إلى صاحبك يزعم أنه أُسري به الليلة إلى بيت المقدس؟ قال: أو قال ذلك؟ قالوا: نعم، قال: لئن قال ذلك لقد صدق، قالوا: أو تصدقه أنه ذهب الليلة إلى بيت المقدس، وجاء قبل أن يصبح؟ فقال: نعم، إني لأصدقه ما هو أبعد من ذلك، أصدقه في خبر السماء في غدوة أو روحة^(٢). وفي بعض الأحاديث أنه أتاه جبريل - عليه السلام - «بِدَابَّةٍ أَبْيَضَ، يُتَمَالُ: لَهُ الْبُرَاقُ، فَوْقَ الْحِمَارِ وَدُونَ الْبَغْلِ، يَقَعُ خَطْوُهُ عِنْدَ أَقْصَى طَرْفِهِ»^(٣)، يعني:

(١) أخرجه البيهقي في دلائل النبوة (٢/ ٣٩٠)، وابن عساکر في تاريخ دمشق (٣/ ٥١٥) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

(٢) أخرجه الحاكم (٣/ ٧٦)، والحاكم في دلائل النبوة (٢/ ٣٦٠)، وابن عساکر في تاريخ دمشق (٣٠/ ٥٥) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٣) قطعة من حديث الإسراء الطويل، أخرجه البخاري (٣٢٠٧، ٣٨٨٧)، ومسلم (١٦٤) من حديث أنس بن مالك عن مالك بن صعصعة رضي الله عنها.

خطوته الواحدة مدَّ البصر، وسيره أسرع من طرفة العين، فقطع هذه المسافة في هذه اللَّحظات، ووصل إلى هناك ثمَّ رجع، هذا هو الإسراء.

والصَّحيح أنَّه أُسري ببدنه وبروحه ولم يكن منامًا، والكفار لم يكونوا ينكرون المنامات، فلو قال ﷺ: إِنَّ ذَلِكَ منام أو أحلام أو رؤيا لصدَّقوه؛ لأنَّ الإنسان يرى في منامه أنَّه يقطع مسافات، وأنَّه وصل إلى كذا وكذا، وهو نائم على فراشه لم يفارقه، فيعتفون بذلك، ولكنَّ كما أخبرهم بهذا كذبوه، فدلَّ على أنَّ الإسراء كان بجسده، وأنَّه ركب البراق حقيقة، وذهب ورجع، وأخبرهم بآيات وبدلالات واستوصفوا منه بيت المقدس، فعند ذلك وصفه لهم وصفًا دقيقًا، وذلك أنَّ الله تعالى جلَّاه له كما التبس عليه بعض الأشياء، وكشفه له وصوَّره أمامه، فصار يصفه وهم يسألونه، كما ثبت في الصحيح^(١) أن رسول الله ﷺ قال: «لَسَمَّا كَذَبَنِي قُرَيْشٌ قُمْتُ فِي الْحِجْرِ، فَجَلَّى اللَّهُ لِي بَيْتَ الْمَقْدِسِ، فَطَلَيْتُ أَخْبِرُهُمْ عَنْ آيَاتِهِ وَأَنَا أَنْظُرُ إِلَيْهِ».

فهذا هو الإسراء يقظة لا منامًا بجسده وبروحه. وهناك من يقول: إنَّ الإسراء بالروح فقط، وأنَّ روحه خرجت وفارقت جسده، وأنَّ الجسد بقي ليس فيه روح، وأنَّ الروح لحقتها وصلت إلى ذلك المكان، ويستدلون على هذا القول بقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرْتَاكَ

(١) أخرجه البخاري (٣٨٨٦)، ومسلم (١٧٠) من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما.

إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ ﴿ [الإسراء: ٦٠]، ولكنَّ الرُّؤْيَا ليست مطلق الحلم، بل كلُّ شيء يراه الإنسان يسمَّى في اللُّغة رؤْيَا، هذا هو الإسراء.

أمَّا المعراج: فهو الصُّعود إلى السماء، وقد دلَّ عليه من القرآن آيات كريمة

في أوَّل سورة النِّجم في قوله تعالى: ﴿ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى ﴿٥﴾ ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى ﴿٦﴾ وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى ﴿٧﴾ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى ﴿٨﴾ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى ﴿٩﴾ فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى ﴿١٠﴾ مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى ﴿ [النجم: ٥- ١١]، إلى آخر الآيات؛ فإن هذا دليل على أنَّه رُفِع جسده حتَّى كان قاب قوسين أو أدنى، والقوس معروف أنَّه الآلة التي يرمى بها، يعني أنَّه دنا من ربِّه فتدلى، يعني هبط.

هذه الآيات ونحوها دلالة على أنَّه رفع وأنه أسري به، وأنه رأيا لملك

في قوله: ﴿ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى ﴿١٣﴾ عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى ﴿١٤﴾ عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى ﴿ [النجم: ١٣- ١٥]، وقوله: ﴿ مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى ﴿١٧﴾ لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ

الْكُبْرَى ﴿ [النجم: ١٧، ١٨]، كلُّ ذلك كان في المعراج، فالآيات فيها إجمال ذلك، والأحاديث فيها التفصيل لذلك كلُّه، كما هو معروف في كتب الحديث كـ«الصَّحيحين» وفي غيرهما، وقد أورد ابن كثير في أول تفسير سورة الإسراء جملة كثيرة من أحاديث الإسراء والمعراج، وأفردتها كثير من العلماء بالتأليف وتوسَّعوا فيها.

فنقول: من العلماء من يقول: إنَّ الإسراء كان بالرُّوح؛ كما روي ذلك عن

عائشة - رضي الله عنها - وغيرها^(١)، أنَّ الجسد لم يُفقد، ومنهم - وهو الصَّحيح - من يقول: إنَّه كان يقظةً لا منامًا، وإنَّه بالجسد والرُّوح معًا، وإنَّ جسده عُرج به بحيث احترق سبع سموات سماءً ثم سماءً، ووجد الأنبياء في السَّماء، وسلَّم على من وجد منهم، وفرضت عليه الصَّلوات، وكلمه الله منه إليه وخاطبه وخفف عنه عشرًا عشرًا، إلى أن استقرَّت خمس صلوات، فقال الله تعالى:

﴿ مَا يبدُلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ [ق: ٢٩]، وفي الحديث: «أَمْضَيْتُ فَرِيضَتِي، وَخَفَّفْتُ عَنْ عِبَادِي، وَأَجْزِي الْحَسَنَةَ عَشْرًا»^(٢)، يعني: عندما خففت الصَّلَاة إلى خمسٍ من الفرائض، كلُّ ذلك كان ليلة الإسراء.

والَّذين قالوا: إنَّ الإسراء تكرر، هؤلاء كأثمهم يريدون الجمع بين الروايات، ولكنَّ الصَّحيح أنَّ الإسراء والمعراج لم يتكرَّر، وإنَّما هو مرةً واحدة، وفي ليلة واحدة، عُرج به من بيت المقدس إلى السَّماء ثمَّ نزل في ليلته، وما ذلك على الله بعزيز.

(١) راجع (٢/٣٣٢).

(٢) قطعة من حديث الإسراء الطويل، أخرجه البخاري (٣٨٨٧) من حديث أنس بن مالك

عن مالك بن صعصعة رضي الله عنها.

قال الشارح:

قَالَ شَمْسُ الدِّينِ ابْنُ القَيْمِ: يَا عَجَبًا هُوَ لِأَيِّ الدِّينِ زَعَمُوا أَنَّهُ كَانَ مِرَارًا!
كَيْفَ سَاعَ لَهُمْ أَنْ يَظُنُّوا أَنَّهُ فِي كُلِّ مَرَّةٍ تُفْرَضُ عَلَيْهِمُ الصَّلَوَاتُ حَمْسِينَ، ثُمَّ
يَتَرَدَّدُ بَيْنَ رَبِّهِ وَبَيْنَ مُوسَى حَتَّى تَصِيرَ خَمْسًا، فَيَقُولُ: «أَمْضَيْتُ فَرِيضَتِي
وَخَفَّفْتُ عَنْ عِبَادِي»، ثُمَّ يُعِيدُهَا فِي المَرَّةِ الثَّانِيَةِ إِلَى حَمْسِينَ، ثُمَّ يَحْطُّهَا إِلَى
خَمْسٍ!؟

وَقَدْ غَلَطَ الحُفَاطُ شَرِيكًا فِي أَلْفَاطٍ مِنْ حَدِيثِ الإِسْرَاءِ، وَمُسْلِمٌ أَوْرَدَ
المُسْنَدَ مِنْهُ، ثُمَّ قَالَ: «فَقَدَّمَ وَأَخَّرَ وَزَادَ وَنَقَصَ». وَلَمْ يُسْرِدِ الحَدِيثَ. وَأَجَادَ رَحِمَهُ
اللَّهُ. انْتَهَى كَلَامُ الشَّيْخِ شَمْسِ الدِّينِ رَحِمَهُ اللَّهُ.

وَكَانَ مِنْ حَدِيثِ الإِسْرَاءِ: أَنَّهُ ﷺ أُسْرِيَ بِجَسَدِهِ فِي اليَتْمَظَةِ، عَلَى
الصَّحِيحِ، مِنَ المَسْجِدِ الحَرَامِ إِلَى المَسْجِدِ الأَقْصَى، رَاكِبًا عَلَى البُرَاقِ، صُحْبَةَ
جِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَنَزَلَ هُنَاكَ، صَلَّى بِالأَنْبِيَاءِ إِمَامًا، وَرَبَطَ البُرَاقَ بِحَلْقَةِ بَابِ
المَسْجِدِ. وَقَدْ قِيلَ: إِنَّهُ نَزَلَ بَيْتَ لَحْمٍ وَصَلَّى فِيهِ، وَلَا يَصِحُّ عَنْهُ ذَلِكَ أَلْبَتَّةَ.

ثُمَّ عُرِجَ بِهِ مِنْ بَيْتِ المَقْدِسِ بِلَيْلَةِ اللَّيْلَةِ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا، فَاسْتَفْتَحَ لَهُ
جِبْرِيلُ، فَفُتِحَ لَهَا، فَرَأَى هُنَاكَ آدَمَ أَبَا البَشَرِ، فَسَلَّمَ عَلَيْهِ، فَرَحَّبَ بِهِ وَرَدَّ عَلَيْهِ
السَّلَامَ، وَأَقْرَأَ بِنُبُوَّتِهِ، ثُمَّ عُرِجَ بِهِ إِلَى السَّمَاءِ الثَّانِيَةِ، فَاسْتَفْتَحَ لَهُ، فَرَأَى فِيهَا
يَحْيَى بْنَ زَكَرِيَّا وَعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ، فَسَلَّمَ عَلَيْهِمَا، فَوَرَدَا عَلَيْهِ السَّلَامَ،
وَرَحَّبَا بِهِ، وَأَقْرَأَا بِنُبُوَّتِهِ، ثُمَّ عُرِجَ بِهِ إِلَى السَّمَاءِ الثَّالِثَةِ، فَرَأَى فِيهَا يُوسُفَ، فَسَلَّمَ
عَلَيْهِ، فَوَرَدَّ عَلَيْهِ السَّلَامَ، وَرَحَّبَ بِهِ، وَأَقْرَأَ بِنُبُوَّتِهِ، ثُمَّ عُرِجَ بِهِ إِلَى السَّمَاءِ الرَّابِعَةِ،

فَرَأَى فِيهَا إِدْرِيسَ، فَسَلَّمَ عَلَيْهِ، وَرَحَّبَ بِهِ، وَأَقْرَبَ بِنُبُوَّتِهِ، ثُمَّ عُرِجَ بِهِ إِلَى السَّمَاءِ الْخَامِسَةِ، فَرَأَى فِيهَا هَارُونَ بْنَ عِمْرَانَ، فَسَلَّمَ عَلَيْهِ، وَرَحَّبَ بِهِ، وَأَقْرَبَ بِنُبُوَّتِهِ، ثُمَّ عُرِجَ بِهِ إِلَى السَّمَاءِ السَّادِسَةِ، فَلَقِيَ فِيهَا مُوسَى، فَسَلَّمَ عَلَيْهِ، وَرَحَّبَ بِهِ، وَأَقْرَبَ بِنُبُوَّتِهِ، فَلَمَّا جَاوَزَهُ بَكَى مُوسَى، فَقِيلَ لَهُ: مَا يُبْكِيكَ؟ قَالَ: أَبْكِي لِأَنَّ غُلَامًا بُعِثَ بَعْدِي يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مِنْ أُمَّتِهِ أَكْثَرَ مِمَّا يَدْخُلُهَا مِنْ أُمَّتِي، ثُمَّ عُرِجَ بِهِ إِلَى السَّمَاءِ السَّابِعَةِ، فَلَقِيَ فِيهَا إِبْرَاهِيمَ، فَسَلَّمَ عَلَيْهِ، وَرَحَّبَ بِهِ، وَأَقْرَبَ بِنُبُوَّتِهِ.

ثُمَّ رُفِعَ إِلَى سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى، ثُمَّ رُفِعَ لَهُ الْبَيْتُ الْمَعْمُورُ، ثُمَّ عُرِجَ بِهِ إِلَى الْجَبَّارِ - جَلَّ جَلَالُهُ وَتَقَدَّسَتْ أَسَاؤُهُ - فَدَنَا مِنْهُ حَتَّى كَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى، فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى، وَفَرَضَ عَلَيْهِ خَمْسِينَ صَلَاةً، فَرَجَعَ حَتَّى مَرَّ عَلَى مُوسَى، فَقَالَ: بِمِ أَمْرَتِ؟ قَالَ: بِخَمْسِينَ صَلَاةً، فَقَالَ: إِنْ أُمَّتِكَ لَا تُطِيقُ ذَلِكَ، ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ التَّخْفِيفَ لِأُمَّتِكَ، فَانْتَمَتَ إِلَى جِبْرَائِيلَ كَأَنَّهُ يَسْتَشِيرُهُ فِي ذَلِكَ، فَأَنْشَارَ أَنْ نَعَمْ إِنْ شِئْتِ، فَعَمَلًا بِهِ جِبْرِيلُ حَتَّى أَتَى بِهِ إِلَى الْجَبَّارِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى وَهُوَ فِي مَكَانِهِ - هَذَا لِنُظْمِ الْبُخَارِيِّ فِي (صَحِيحِهِ)، وَفِي بَعْضِ الطَّرِيقِ: - فَوَضَعَ عَنْهُ عَشْرًا، ثُمَّ نَزَلَ حَتَّى مَرَّ بِمُوسَى، فَأَخْبَرَهُ، فَقَالَ: ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ التَّخْفِيفَ، فَلَمْ يَزَلْ يَرْتَدُّ بَيْنَ مُوسَى وَبَيْنَ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، حَتَّى جَعَلَهَا خَمْسًا، فَأَمَرَهُ مُوسَى بِالرُّجُوعِ وَسُؤَالِ التَّخْفِيفِ، فَقَالَ: قَدْ اسْتَحْيَيْتُ مِنْ رَبِّي، وَلَكِنْ أَرْضَى وَأَسَلِّمُ، فَلَمَّا نَفَذَ، نَادَى مُنَادٍ: قَدْ أَمْضَيْتُ

فَرِيضَتِي وَحَفَّتُ عَنْ عِبَادِي^(١).

قال الشيخ:

هكذا سرد الشارح مجمل حديث الإسراء والمعراج، وهذا على وجه الاختصار، ومن أراد التوسع فيجده في «صحيح مسلم»، باب الإسراء برسول الله ﷺ، وفي «صحيح البخاري» في آخره في كتاب التوحيد، وفي كتب أهل السنة، وذكرت أن ابن كثير في أول تفسير سورة الإسراء أورد أكثر الروايات وساقها بنصها كما هي، وملخصها ما سبق من أنه ﷺ أتاه الملك وهو في مكة في بيت أم هانئ وأتى به إلى المسجد، وفي بعض الروايات: أنه غسل قلبه بماء زمزم، وملأه حكمة وإيماناً، ثم ركب معه على البراق، الذي هو دابة الله أعلم بكيفيةها، يضع حافره عند منتهى طرفه، فوصل إلى بيت المقدس في لحظات، ثم صلى بالأنبياء هناك، وبعد ذلك عرج به إلى السماء، والعروج هو الرُّقْيُ والصُّعود، ولا نعلم كيفية ذلك.

لا شك أنه عرج بجسده وروحه، إمّا على نفس الدابة التي هي البراق، وإمّا أن جبريل حمله فخرق هذا الجو في لحظات حتى أتى إلى باب السماء الدنيا، فاستفتح لباها، فقيل: من هذا؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: وقد أرسل إليه؟ قال: نعم، ففتح له بعد أن قيل: مرحباً به وبمن

(١) حديث الإسراء تقدم تخريجه (٢/٣٣٤).

جاء معه، فوجد في السموات هؤلاء الأنبياء، سماء بعد سماء.
لقي آدم في السماء الدنيا، فسلم عليه، وفي بعض الروايات أنه رآه وعنده
أسودة عن يمينه وأسودة عن يساره، فإذا نظر عن يساره بكى، وإذا نظر عن
يمينه ضحك، فالذين عن يمينه هم نسم أهل الجنة، والذين عن يساره هم
نسم أهل النار، والأسودة: أرواح تُعرض عليه من أهل الجنة ومن أهل النار،
نسم بنيه، فقيل: إن هذا روحه، يعني: روح آدم تمثلت هناك، وكذلك أرواح
الأنبياء الآخرين مثلت هناك، ويمكن أن يكون جعلت في أجساد تناسبها
وتلائمها، الله أعلم بكيفية تلك الأجساد.

والحاصل: أنه - عليه الصلاة والسلام - كما أخبر الله، عُرج به حتى كان
قاب قوسين أو أدنى، وأوحى الله تعالى إليه، ورفعته إلى مستوى سمع فيه
صريف الأقلام، ومرَّ على البيت المعمور الذي في السماء السابعة، وأخبر أنه
«يَدْخُلُهُ كُلُّ يَوْمٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ لَا يَعُودُونَ إِلَيْهِ»، كلُّ يوم يدخل غيرهم،
فذلك البيت الذي ذكره الله في قوله: ﴿وَالْبَيْتَ الْمَعْمُورِ﴾ [الطور: ٤]، ثم
فُرضت عليه هذه الصلوات أوَّلًا خمسين صلاةً، وخففها الله حتى صارت
خمسًا، فقال الله تعالى: «قَدْ أَمْضَيْتُ فَرِيضَتِي وَخَفَّفْتُ عَنْ عِبَادِي»، ورجع في
ليلته إلى الأرض، وأصبح في مكة، وذلك سهل يسير في قدرة الله سبحانه
وتعالى.

فيؤمن أهل السنة بذلك، ولو استنكر ذلك من استنكره من المبتدعة

ونحوهم؛ وذلك لأنَّ من لا علم عنده، أو من لا يؤمن إلا بالمحسوسات ونحوها، قد يستبعد ويقول: إنَّ الإنسان على هذه الأرض لا يمكنه أن يعيش إذا فارقتها؛ لأنه يعيش بهذا الأكسجين. نقول: كيف لا يجوز أن يكون أهل السماء يعيشون كما يعيش أهل الأرض، وأن يكون عندهم مثل ما يكون عند أهل الأرض؟! والله على كل شيء قدير.

فبكلِّ حالٍ الذين يستبعدون ذلك ويقولون: إنَّه مستحيلٌ أن يفارق الإنسان هذه الأرض، أو يرتفع إلى غيرها، أو ما أشبه ذلك، كلُّ ذلك تحبُّطات وتخترصات، والذين استكروه للبعد، وقالوا: كيف يقطع هذه المسافات ونحوها، استنكارهم هذا راجع لقصر عقولهم وأفهامهم.

ذكرنا أن أبا بكر رضي الله عنه يصدِّقه، ويقول: كيف لا أصدِّقه وهو يأتيه خبر السماء؟! ينزل عليه الملك في لحظاتٍ ويصعد في لحظاتٍ كطرف العين؛ فلم لا نصدِّقه؟! ما دنا عرفنا أنَّه قد صدق في دعواه أنَّه مرسلٌ من ربِّه، فكذلك دعواه أنَّه بعث، وأنَّه جاء بهذه الشريعة، وهكذا أيضًا ما جاء به من الإسرائ والمعراج، وهذا يعد شرفاً وميزةً وفضيلةً له عليه الصلاة والسلام، أنَّه عُرج به في الحياة، وأنَّه صعد إلى السماء السابعة، وأنَّه كلمة ربِّه منه إليه، وأنَّه دنا إلى مستوى سمع فيه صريف الأقلام حتى سمعها، وأنَّ الله خاطبه منه إليه كما يشاء، هذا من فضائله ﷺ أنه جاوز سبع طباق، رفعه الله تعالى فوقها، فهذا أدخلوه في العقيدة؛ لأنَّه من حقوق النَّبي ﷺ وخصائصه وميزته.

ولا يكذب ذلك إلا من قصر علمه عن معرفة المغيَّبات، واقتصر على ما

يظنُّ أنه ظاهر، أو اقتصر على ما تدركه حواسُّه، دون أن يؤمن بقُدرة الله على كلِّ شيء، أما من آمن أن الله على كلِّ شيءٍ قديرٌ فإنه لا يستبعد مثل هذا الحادث العظيم.

قال الشارح:

وَقَدْ تَقَدَّمَ ذِكْرُ اخْتِلَافِ الصَّحَابَةِ فِي رُؤْيَيْهِ ﷺ رَبَّهُ - عَزَّ وَجَلَّ - بِعَيْنِ رَأْسِهِ،
وَأَنَّ الصَّحِيحَ أَنَّهُ رَأَاهُ بِقَلْبِهِ، وَلَمْ يَرَهُ بِعَيْنِ رَأْسِهِ، وَقَوْلُهُ: ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا
رَأَى﴾ [النجم: ١١]، ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى﴾ [النجم: ١٣]، صَحَّحَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ
أَنَّ هَذَا الْمُرِّيَّ جِبْرِيْلَ، رَأَاهُ مَرَّتَيْنِ عَلَى صُورَتِهِ الَّتِي خُلِقَ عَلَيْهَا^(١).

وَأَمَّا قَوْلُهُ تَعَالَى فِي سُورَةِ النَّجْمِ: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى﴾ [النجم: ٨]، فَهُوَ غَيْرُ
الدُّنُوِّ وَالتَّدَلَّى الْمَذْكُورَيْنِ فِي قِصَّةِ الْإِسْرَاءِ، فَإِنَّ الَّذِي فِي سُورَةِ النَّجْمِ هُوَ دُنُوُّ
جِبْرِيْلَ وَتَدَلِّيهِ، كَمَا قَالَتْ عَائِشَةُ وَابْنُ مَسْعُودٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - فَإِنَّهُ قَالَ:

﴿هَلَمَّ شَدِيدُ الْقُوَى ﴿٥﴾ ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى ﴿٦﴾ وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى ﴿٧﴾ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى﴾
[النجم: ٥ - ٨]، فَالضَّرَائِرُ كُلُّهَا رَاجِعَةٌ إِلَى هَذَا الْمَعْلَمِ الشَّدِيدِ الْقُوَى، وَأَمَّا الدُّنُوُّ
وَالتَّدَلَّى الَّذِي فِي حَدِيثِ الْإِسْرَاءِ، فَذَلِكَ صَرِيحٌ فِي أَنَّهُ دُنُوُّ الرَّبِّ تَعَالَى وَتَدَلِّيهِ.
وَأَمَّا الَّذِي فِي سُورَةِ النَّجْمِ: أَنَّهُ رَأَاهُ نَزْلَةً أُخْرَى عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُتَهَيِّ، فَهَذَا هُوَ
جِبْرِيْلَ، رَأَاهُ مَرَّتَيْنِ، مَرَّةً فِي الْأَرْضِ، وَمَرَّةً عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُتَهَيِّ.

وَمَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْإِسْرَاءَ بِجَسَدِهِ فِي الْيَقْظَةِ، قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي

أَسْرَى بِعَبْدِهِ إِيْلًا مِنْكَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا﴾ [الإسراء: ١]،
وَالْعَبْدُ عِبَارَةٌ عَنْ مَجْمُوعِ الْجَسَدِ وَالرُّوحِ، كَمَا أَنَّ الْإِنْسَانَ اسْمٌ لِمَجْمُوعِ الْجَسَدِ

(١) تقدم تخرجه (٢/١٧٥).

وَالرُّوحِ، هَذَا هُوَ الْمَعْرُوفُ عِنْدَ الْإِطْلَاقِ، وَهُوَ الصَّحِيحُ، فَيَكُونُ الْإِسْرَاءُ مِهْدًا
الْمَجْمُوعُ، وَلَا يَمْتَنِعُ ذَلِكَ عَقْلًا، وَلَوْ جَازَ اسْتِنْعَادُ صُعُودِ الْبَشَرِ لَجَازَ اسْتِنْعَادُ
نُزُولِ الْمَلَائِكَةِ، وَذَلِكَ يُؤَدِّي إِلَى انْكَارِ النُّبُوَّةِ وَهُوَ كُفْرٌ.

فَإِنْ قِيلَ: فَمَا الْحِكْمَةُ فِي الْإِسْرَاءِ إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ أَوْلًا؟ فَالْجَوَابُ - وَاللَّهِ
أَعْلَمُ -: أَنَّهُ كَانَ ذَلِكَ إِظْهَارًا لِصِدْقِ دَعْوَى الرَّسُولِ ﷺ الْمِعْرَاجِ، حِينَ سَأَلَتْهُ
قُرَيْشٌ عَنْ نَعْتِ بَيْتِ الْمَقْدِسِ، فَنَعَتَهُ هُمْ، وَأَخْبَرَهُمْ عَنْ عَيْرِهِمُ الَّتِي مَرَّ عَلَيْهَا
فِي طَرِيقِهِ، وَلَوْ كَانَ عُرُوجُهُ إِلَى السَّمَاءِ مِنْ مَكَّةَ لَمَا حَصَلَ ذَلِكَ؛ إِذْ لَا يُمَكِّنُ
اطْلَاعَهُمْ عَلَى مَا فِي السَّمَاءِ لَوْ أَخْبَرَهُمْ عَنْهُ، وَقَدْ اطَّلَعُوا عَلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ،
فَأَخْبَرَهُمْ بِنَعْتِهِ.

وَفِي حَدِيثِ الْمِعْرَاجِ دَلِيلٌ عَلَى ثُبُوتِ صِفَةِ الْعُلُوِّ لِلَّهِ تَعَالَى مِنْ وُجُوهِهِ، لِمَنْ
تَدَبَّرَهُ، وَبِاللَّهِ التَّوْفِيقُ.

قال الشيخ:

تفسير هذه الآيات من سورة النجم قول الله تعالى: ﴿عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى﴾،
المعلم: هو النبي ﷺ، والمعلم هو شديد القوى، وهو الملك، أي: جبريل عليه
السلام، وقوله: ﴿ذُو مِرَّةٍ﴾، أي: ذو قوة، ﴿فَأَسْتَوَى﴾، الاستواء هنا:
الارتفاع، ﴿ذُو مِرَّةٍ فَأَسْتَوَى﴾ ٦ وهو بالأفق الأعلى، أي: ارتفع بالأفق الأعلى،
والأفق واحد، والآفاق وهي الجهات المتقابلة، فعلمه واستوى وارتفع، وهو

بالأفق الأعلى، ﴿ثُمَّ دَنَا﴾، أي: قرب منه، وذلك بعدما عرج به إلى السماء، ﴿ثُمَّ دَنَا فَدَلَّكَ﴾، التدلِّي والدنوُّ هنا للملك الذي هو جبريل، أي: قرب منه، ﴿ثُمَّ دَنَا﴾، يعني: انحدر إليه ونزل إليه، ﴿ثُمَّ دَنَا فَدَلَّكَ﴾ ﴿٨﴾ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى، القوس: هو الجهاز الذي يُرمى به، ويتخذونه آلة للرمي به، وكانوا يرمون به قبل وجود الأسلحة الجديدة، فيقول: إنَّه دنا منه وقرب وهو يراه حتَّى كان منه قدر قوسين أو أقرب من القوسين، هذا معنى ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى﴾.

وأما قوله: ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ﴾ [النجم: ١٠]، فلا شك أنَّ الوحي من الله تعالى؛ لأنَّه الذي أوحى إلى عبده، وسواءً كان العبد هو الملك أو البشر؛ فالوحي من الله إلى الملك الذي هو جبريل، ومن الملك إلى البشر الذي هو محمد عليهما الصلوة والسلام، أوحى إليه الشيء الذي أوحى.

أما قوله: ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ﴾ [النجم: ١١]، الرُّؤية هنا قلبية، أي: ما كذب الفؤاد الرؤيا التي رآها، وهذا دليل على أنَّه ﷺ كُشف له، وأُعطي مكاشفات وأنوارًا وفتوحات فتحت على قلبه، فاستنار قلبه، فأصبح كأنَّه يرى ربَّه بأي عين، وإنَّما ذلك رؤية بالقلب، وهذا معنى قول السلف: إنَّه ﷺ رأى ربَّه بقلبه، يعني: بتلك الكشوفات والفتوحات والواردات التي ترد على قلبه، ممَّا يطمئن به ويقوى بذلك يقينه، فهذا دليل على أنَّه لم ير ربَّه رؤيةً بصريةً؛

لقوله ﷺ في الحديث السابق لَمَّا قِيلَ لَهُ: هَلْ رَأَيْتَ رَبَّكَ؟ فَقَالَ: «نُورٌ أَنَّى أَرَاهُ»، أي دونه أنوارٌ فكيف أراه، وَفِي رِوَايَةٍ: «رَأَيْتُ نُورًا»^(١).

فإِذَا الرُّؤْيَةُ هُنَا رُؤْيَةٌ قَلْبِيَّةٌ، ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ﴾، وَفِي قِرَاءَةٍ: ﴿وَمَا كَذَّبَ الْفُؤَادُ﴾^(٢)، أَي: لَمْ يَكْذِبْ بِهَا رَأَاهُ مِنَ الْكَشُوفَاتِ وَالْإِلْهَامَاتِ وَالْوَارِدَاتِ الَّتِي وَرَدَتْ عَلَيْهِ.

وَأَمَّا قَوْلُهُ: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى﴾ [النجم: ١٣]، فَالرُّؤْيَةُ هُنَا أَيْضًا لِلْمَلِكِ، أَي: وَلَقَدْ رَأَى جَبْرِيْلَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - نَزْلَةً أُخْرَى، أَي: مَرَّةً أُخْرَى، هَذِهِ مَرَّةً رَأَى فِيهَا جَبْرِيْلَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - وَهُوَ فِي السَّمَاءِ عَلَى الْهَيْئَةِ وَالصُّوْرَةِ الَّتِي خَلَقَ عَلَيْهَا وَقَدْ سَدَّ الْأَفْقَ وَلَهُ سِتُّ مِئَةِ جَنَاحٍ، وَالْمَرَّةَ الْأُولَى ذُكِرَتْ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأَفْقِ الْمَيْمِنِ﴾ [التكوير: ٢٣]، رَأَاهُ بِالْأَفْقِ الْأَعْلَى وَرَأَاهُ بِالْأَفْقِ الْمَيْمِنِ، كَمَا فِي حَدِيثِ ابْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه قَالَ: «رَأَى رَسُولَ اللَّهِ ﷺ جَبْرِيْلَ فِي صُورَتِهِ وَلَهُ سِتْمِائَةُ جَنَاحٍ، كُلُّ جَنَاحٍ مِنْهَا قَدْ سَدَّ الْأَفْقَ، يَسْقُطُ مِنْ جَنَاحِهِ مِنَ التَّهَاقُوتِ وَالْدَّرِّ وَالْيَاقُوتِ»^(٣).

إِذَا ثَبِتَ أَنَّ عَائِشَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - لَمَّا سُئِلَتْ عَنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ

(١) تقدم تحريجه (٢/ ١٨٠).

(٢) انظر: تفسير الطبري (٢٧/ ٤٩).

(٣) أخرجه أحمد (١/ ٣٩٥)، والطبري (٢٧/ ٤٩)، وأصله عند البخاري (٣٢٣٢)، ومسلم

رَأَاهُ بِالْأَفْقِ الْمُبِينِ ﴿١٠﴾، وقوله: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١١﴾﴾، فقالت: أنا أوَّل هذه الأُمَّة سَأَلَ عن ذلك رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، فقال: ﴿إِنَّمَا هُوَ جِبْرِيلُ لَمْ أَرَهُ عَلَىٰ صُورَتِهِ الَّتِي خُلِقَ عَلَيْهَا غَيْرَ هَاتَيْنِ الْمَرَّتَيْنِ، رَأَيْتُهُ مُنْهَيْطًا مِنَ السَّمَاءِ سَادًّا عِظَمَ خَلْقِهِ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ﴾^(١)، رآه هذه المرة بالأفق الأعلى عند سدرة المنتهى، وهي سدرة عظيمة في الجنة، قد أخبر ﷺ بأنَّ نَبَقَهَا - يعني: حملها - مِثْلُ قِلَالٍ هَجَرَ - والقلال: جمع قَلَّة، وهي: الأزيار التي تعمل للمياه ونحوها - وَأَنَّ وَرَقَهَا مِثْلُ آذَانِ الْفَيْلَةِ، هذه هي سدرة المنتهى، عندها جَنَّةُ الْمَأْوَى.

فهذه الآيات من هذه السُّورة فيها الدَّلِيل على أَنَّهُ ﷺ عُرِجَ بِهِ، ورأى جبريل وهو بالأفق الأعلى، ودنا فتدلَّى ودنا منه، وَأَنَّ الله تعالى أوحى إليه ما أوحى من فرض الصلوات الخمس.

فهذا مثالٌ للإيمان بالغيب أو للأشياء التي لا تدركها الحواسُّ، أو يستغربها الإنسان إذا سمع بها، ويقول: بشرُّ خُلِقَ من الأرض، فكيف مع ذلك رفع إلى السماء، وخرق السموات سماءً فوق سماء، ثم نزل وهو على هيئته، وبحياته التي هو عليها؟ والإنسان خلق من الأرض ولا يستطيع أن يفارقها؟ نقول: إن ذلك خلق الله وتقديره، وهو الذي يدبِّر الأشياء كما يشاء، فهو الذي خلق الإنسان، وأعطاه الحياة على هذه الأرض، وأنزل عليها آدم وذريته،

(١) تقدم تحريجه (٢/ ١٧٥).

وقال: ﴿ مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى ﴾ [طه: ۵۵]، وقال: ﴿ فِيهَا نَحْيُونَ وَفِيهَا نَمُوتُونَ وَمِنْهَا نُنْجِیُونَ ﴾ [الأعراف: ۲۵]، فالملعوم أن الإنسان خلق من هذه الأرض، ولكن لا مانع من أن یرفع إلى السماء إذا شاء الله تعالى، ثم یهبط منها، ویكون مأواه وعماته على الأرض، ومنها یبعث، كما حصل له - علیه الصلاة والسلام - وللرسل من قبله.

قال الطحاوي:

وَالْحَوْضُ . الَّذِي أَكْرَمَهُ اللَّهُ تَعَالَى بِهِ غِيَاثًا لِأُمَّتِهِ . حَقٌّ .

قال الشارح:

الْأَحَادِيثُ الْوَارِدَةُ فِي ذِكْرِ الْحَوْضِ تَبْلُغُ حَدَّ الشَّوَاتِرِ، رَوَاهَا مِنَ الصَّحَابَةِ بِضَعٍ وَثَلَاثُونَ صَحَابِيًّا، وَلَقَدْ اسْتَقْصَى طُرُقَهَا شَيْخُنَا الشَّيْخُ عِمَادُ الدِّينِ بْنِ كَثِيرٍ، تَعَمَّدَهُ اللَّهُ بِرَحْمَتِهِ، فِي آخِرِ تَارِيخِهِ الْكَبِيرِ، الْمُسَمَّى بِـ «الْبِدَايَةِ وَالنِّهَايَةِ»^(١) . فَمِنْهَا: مَا رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ^(٢) . رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى . عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم قَالَ: «إِنَّ قَدْرَ حَوْضِي كَمَا بَيْنَ أَيْلَةَ إِلَى صَنْعَاءَ مِنَ الْيَمَنِ، وَإِنَّ فِيهِ مِنَ الْأَبَارِقِ كَعَدَدِ نُجُومِ السَّمَاءِ» . وَعَنْهُ أَيْضًا عَنِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم قَالَ: «لَسِرْدَنٌ عَلَيَّ نَاسٌ مِنْ أَصْحَابِي، حَتَّى إِذَا عَرَفْتَهُمْ اخْتَلَجُوا»^(٣) دُونِي، فَأَقُولُ: أَصْحَابِي، فَيَقُولُ: لَا تَدْرِي مَا أَخَذْتُوا بَعْدَكَ» . رَوَاهُ مُسْلِمٌ^(٤) .

وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ^(٥) عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، قَالَ: «أَغْفَى رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم إِغْفَاءً، فَرَفَعَ رَأْسَهُ مُبْتَسِمًا، إِمَّا قَالَ لَهُمْ، وَإِمَّا قَالُوا لَهُ: لِمَ ضَجِجْتَ؟ فَقَالَ

(١) (١٩/٤٢٣ - ٤٧٢) بتحقيق د. عبدالله التركي.

(٢) برقم (٦٥٨١).

(٣) يُخْتَلَجُ: يُجْتَذَبُ وَيَقْتَطَعُ. انظر: لسان العرب (نخلج).

(٤) برقم (٢٣٠٤).

(٥) في المسند (٣/١٠٢).

رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّهُ أَنْزَلَتْ عَلَيَّ آيَاتًا سُرُورًا»، فَقَرَأَ: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾ [الكوثر: ۱]، حَتَّى خَتَمَهَا، ثُمَّ قَالَ لَهُمْ: «هَلْ تَدْرُونَ مَا الْكَوْثَرُ؟»، قَالُوا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: «هُوَ نَهْرٌ أَعْطَانِيهِ رَبِّي - عَزَّ وَجَلَّ - فِي الْجَنَّةِ، عَلَيْهِ حَيْرٌ كَثِيرٌ، تَرُدُّ عَلَيْهِ أُمَّتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ، آيَتُهُ عَدَدَ الْكَوَاكِبِ، يُخْتَلَجُ الْعَبْدُ مِنْهُمْ، فَأَقُولُ: يَا رَبِّ إِنَّهُ مِنْ أُمَّتِي، فَيُقَالُ لِي: إِنَّكَ لَا تَدْرِي مَا أَحَدَثُوا بِعَدْلِكَ».

وَرَوَاهُ مُسْلِمٌ^(۱)، وَلَفْظُهُ: «هُوَ نَهْرٌ وَعَدْنِيهِ رَبِّي، عَلَيْهِ خَيْرٌ كَثِيرٌ، هُوَ حَوْضٌ تَرُدُّ عَلَيْهِ أُمَّتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ»، وَالْبَاقِي مِثْلُهُ.

وَمَعْنَى ذَلِكَ أَنَّهُ يَشْخُبُ^(۲) فِيهِ مِيزَابَانٍ مِنْ ذَلِكَ الْكَوْثَرِ إِلَى الْحَوْضِ، وَالْحَوْضُ فِي الْعَرَصَاتِ قَبْلَ الصَّرَاطِ؛ لِأَنَّهُ يُخْتَلَجُ عَنْهُ، وَيَمْنَعُ مِنْهُ أَثْوَابٌ قَدْ ارْتَدُّوا عَلَى أَعْقَابِهِمْ، وَمِثْلُ هَذَا لَا يُجَاوِزُونَ الصَّرَاطَ.
وَرَوَى الْبُخَارِيُّ^(۳) وَمُسْلِمٌ^(۴) عَنْ جُنْدَبِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الْبَجَلِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «أَنَا فَرَطُكُمْ عَلَى الْحَوْضِ». وَالْفَرَطُ: السَّيْفُ يَسْبِقُ إِلَى الْمَاءِ.

(۱) برقم (۴۰۰).

(۲) يَشْخُبُ: يسيل، والشخب: السيلان. انظر: لسان العرب (شخب).

(۳) برقم (۶۵۸۹).

(۴) برقم (۲۲۸۹).

وَرَوَى الْبُخَارِيُّ^(١) عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدِ الْأَنْصَارِيِّ رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنِّي فَرَطُكُمْ عَلَى الْحَوْضِ، مَنْ مَرَّ عَلَيَّ شَرِبَ، وَمَنْ شَرِبَ لَمْ يَظْمَأْ أَبَدًا، لِيَرِدَنَّ عَلَيَّ أَقْوَامٌ أَعْرِفُهُمْ وَيَعْرِفُونِي، ثُمَّ يُحَالُ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ». قَالَ أَبُو حَازِمٍ: فَسَمِعَنِي النُّعْمَانُ بْنُ أَبِي عِيَّاشٍ - وَأَنَا أَحَدُهُمْ هَذَا - فَقَالَ: هَكَذَا سَمِعْتَ مِنْ سَهْلِ؟ فَقُلْتُ: نَعَمْ. فَقَالَ: أَشْهَدُ عَلَى أَبِي سَعِيدِ الْخُدْرِيِّ لَسَمِعْتَهُ وَهُوَ يَزِيدُ فِيهَا: «فَأَقُولُ: إِنَّهُمْ مِنْ أُمَّتِي، فَيُقَالُ: إِنَّكَ لَا تَدْرِي مَا أَحَدَثُوا بَعْدَكَ، فَأَقُولُ: سُحْقًا سُحْقًا لِمَنْ غَيَّرَ بَعْدِي». سُحْقًا: أَيُّ بَعْدًا.

قال الشيخ:

هذا من الإيِّان أيضًا بالغيب، وهو الإيِّان بيوم القيامة وما يكون فيه. قد أخبر الله تعالى بالبعث بعد الموت، وبحشر الأجساد، وبإعادة الأرواح إلى أجسامها، وبيجمع الناس كلهم ليوم لا ريب فيه، يقول تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [المطففين: ٦]، يعني: يَقُومُ أَوْلَاهُمْ وَآخِرُهُمْ. ويقول تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ ﴿١٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَى مِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ﴾ [الواقعة: ٤٩]، [٥٠]، فالإيِّان بالبعث بعد الموت ركن من أركان الإيِّان بالله تعالى، ويؤمن العبد بما يكون في ذلك اليوم مما أخبر الله به، وأخبر به رسوله ﷺ، وتفاصيل

(١) برقم (٧٠٥٠) باختلاف يسير، وأخرجه مسلم (٢٢٩٠).

ذلك المذكورة في أحاديث النبي ﷺ، ومجملها وارد في كلام الله سبحانه وتعالى. ومن ذلك ذكر الحوض، فقد ورد فيه أحاديث كثيرة بلغت حدّ التواتر، زادت على رواية أربعين صحابياً، رَووا ذكر الحوض عن النبي ﷺ، ورواها أئمةُ السّنة وعلماءُ الأُمَّة في مؤلّقاتهم بألفاظ متعدّدة، وطرق كثيرة، ورواياتٍ مجموعها يقطع به صحته، ولا يُلتفت إلى من أنكره.

وقد ورد أيضاً دليل ذلك في القرآن في سورة الكوثر، وقد فسّر النبي ﷺ الكوثر في هذا الحديث بأنّه نهر في الجنّة، أعطاه الله نبيّه ﷺ، ماؤه أشدّ بياضاً من اللبن، وهو أحلى من العسل، وكذلك أخبر بأنّه أُعطي هذا الحوض المورود في عرصات القيامة، وأنه يصب فيه ميزابان من نهر الكوثر، فهو جزءٌ أو فرعٌ أو امتدادٌ للكوثر الذي أُعطيّه في الجنّة.

والحوض معروف عند العرب، فهو الإناء الذي يُتخذ من الجلود، تُسقى به الإبلُ أو الغنم ونحوها، عادةً يحملونه على ظهور الإبل، فإذا وردوا أو أقبلوا على المياه أرسلوا وارداً يصلح لهم الورد، ويسمّون ذلك الورد الذي يتقدّمهم الفرط، فيقولون: أنت فرطنا يا فلان، يعني: أنك الذي تتقدّم أمامنا إلى ذلك المورد، وتصلح لنا الورد، فإذا وردوا بدوابهم، وإذا هو قد ملأ الحوض ماءً، وقد ركّب البكرة التي يستقى عليها، وقد انتزع من الماء بقدره، فيسدّون في سقي دوابهم إلى أن تنهل وتروى، فتشرب من ذلك الحوض.

أما الحوض الذي أعطاه الله نبيّنا ﷺ في الآخرة، فهو نهرٌ ليس مصنوعاً من جلود ولا من أوانٍ، الله أعلم بما صنّع منه، ولكنه ممتلئ، وقد روي أنّه

مسيرة شهرٍ في شهر^(١)، يعني: طوله مسيرة شهر، وعرضه مسيرة شهر؛ بالسّير المعروف في ذلك الزّمان، وقُدّر في بعض الروايات: «كَمَا بَيْنَ أَيْلَةَ وَصَنْعَاءِ»^(٢)، فصنعاء: عاصمة اليمن، وأيلة: مدينة في الشام، يعني: طوله من ذلك المكان إلى ذلك المكان، وفي بعض الروايات أنّه «لَا بَعْدَ مِنْ أَيْلَةَ مِنْ عَدَنٍ»^(٣)، وعدن - أيضًا - مدينة معروفة في اليمن، ولعلّ ذلك باختلاف جهاته، ويكلّ حال فإنّه على هذا حوضٌ واسعٌ طويلٌ ممتلئٌ ماءً.

وورد في هذه الروايات أنّه يشخب فيه ميزابان من الجنة، أو من الكوثر، وأنّ فيه آنية، والآنية: الكؤوس التي يُشرب بها، أنيته «كَعَدَدِ نُجُومِ السَّمَاءِ»^(٤)، يعني: في الكثرة لا يعلمها إلا الله سبحانه وتعالى، يرد عليه المؤمنون، ويذاد عنه المنافقون، أخبر بأنه يرد عليه أناس فيعرفهم، فإذا أقبلوا إليه وعرفهم احتجزوا، وحيل بينه وبينهم! فيقول: أصحابي!! يعني يَمَنَ أسلموا معي وعرفتهم، فيقال: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك، يعني: من المرتدّين، أو من المنافقين، أو من المتسمّين بالإسلام وليسوا بمسلمين، أما المؤمن حقاً الذي ثبت على الإيمان سواءً من الصحابة أو يَمَنَ بعد الصحابة، فإنّه يرد على ذلك

(١) أخرجه البخاري (٦٥٧٩)، ومسلم (٢٢٩٢) من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنها.

(٢) أخرجه البخاري (٦٥٨٠)، ومسلم (٢٣٠٣) من حديث أنس ؓ.

(٣) أخرجه مسلم (٢٤٨) من حديث حذيفة ؓ.

(٤) أخرجه البخاري (٦٥٨٠)، ومسلم (٢٣٠٣) من حديث أنس ؓ.

الحوض، ويشرب منه شربةً هنيئةً مريئةً لا يظماً بعدها حتى يدخل الجنة، وذلك لما جعل الله في ذلك الماء من الشفاء، ولما جعل فيه من اللذة، إذا كان ماؤه أشدَّ بياضاً من اللبن، وأحلى من العسل الذي هو غايةً في الحلاوة وفي اللذة، وأن الشربة منه لا يعادها شيء، فيؤمن العبد المؤمن بذلك.

ورد في بعض الروايات أن لكل نبي حوضاً، ولكن نبينا ﷺ أكثرهم وارداً^(١)، يعني: أوسعهم حوضاً وأكثرهم وارداً، وأمته المتبعون له أكثر من غيرهم من الأمم، وذلك لأن الذين صدقوه واتبعوه وحققوا اتباعه وصاروا من أتباعه عددهم لا يحصيه إلا الله سبحانه وتعالى.

والصحيح أن الحوض في عرصات القيامة قبل أن يعبروا الصراط، لكن ورد في بعض الروايات أنهم إذا نزلوا وهم ظمأ، فيردون عليه كورود الناهلة على حوضها^(٢)، ولعله يمتد أيضاً إلى طرف الصراط، فلا مانع أن يكون معظمه في عرصات القيامة، وقبل أن يركبوا الصراط، ثم بعدما ينزلون من الصراط يجدون له طرفاً، ثم بعد ذلك يشربون منه، ويندخلون الجنة كما أخبر الله تعالى.

فيؤمن المسلمون بذلك، وإن لم تدركه عقولهم، ويؤمنون بما أخبر به

(١) سيأتي ذلك في كلام الشارح.

(٢) كما في حديث لقيط بن عامر رضي الله عنه، الذي أخرجه أحمد (١٣/٤)، وفيه: «تَبَيَّنَ لِي مَوْجِدٌ عَلَى حَوْضِ الرَّسُولِ عَلَى أَظْمَأٍ وَاللَّهُ نَاهِلَةٌ عَلَيْهَا قَطٌّ مَا رَأَيْتُهَا».

نبيهم ﷺ، وأن هذا من كرامة هذا النبي عليه الصلاة والسلام، ومعلوم أنه يقف على الحوض، وينظر من يرد عليه، وكذلك يكون معه ملائكة يأذنون في ورود البعض الذين ليسوا من الأمة حقاً، فالذي لا يرد الحوض يبقى على ظمئه، وعلى جهده، وعلى ما يلاقيه من الشقاوة والتعب، والذين يردون يطمئنون للشرب، ويلتذون بذلك، ويعرفون بذلك أنهم من أهل السعادة وأهل الخير، وهؤلاء الذين يردون عليه هم أهل السنة والجماعة، أهل الاتباع لا أهل الابتداع، ولأجل ذلك يرد المبتدعة المرتدون الذين أحدثوا، فيقال: «إِنَّكَ لَا تَدْرِي مَا أَحَدْتُمْ بِعَدْلِكَ».

فالذي يرجو أن يكون من أتباع صاحب الحوض المورود، ويرجو أن يرد ذلك الحوض، وينهل منه؛ عليه بأتباع السنة، وعليه بالتصديق بما جاء عن نبي الأمة، وعليه بالعمل الصالح، وتحقيق التصديق الذي التزمه، فبذلك يكون من أهل السعادة إن شاء الله.

قال الشارح:

وَالَّذِي يَتَلَخَّصُ مِنَ الْأَحَادِيثِ الْوَارِدَةِ فِي صِفَةِ الْحَوْضِ: أَنَّهُ حَوْضٌ عَظِيمٌ، وَمُورِدٌ كَرِيمٌ، يُمَدُّ مِنْ شَرَابِ الْجَنَّةِ، مِنْ نَهْرِ الْكَوْثَرِ، الَّذِي هُوَ أَشَدُّ بَيَاضًا مِنَ اللَّبَنِ، وَأَبْرَدُ مِنَ الثَّلْجِ، وَأَحْلَى مِنَ الْعَسَلِ، وَأَطْيَبُ رِيحًا مِنَ الْمِسْكِ، وَهُوَ فِي غَايَةِ الْإِتْسَاعِ، عَرْضُهُ وَطُولُهُ سَوَاءٌ، كُلُّ زَاوِيَةٍ مِنْ زَوَايَاهُ مَسِيرَةُ شَهْرٍ. وَفِي بَعْضِ الْأَحَادِيثِ: «أَنَّهُ كَلَّمَا شَرِبَ مِنْهُ وَهُوَ فِي زِيَادَةِ وَاتِّسَاعِ، وَأَنَّهُ يَنْبُتُ فِي حَالٍ مِنَ الْمِسْكِ وَالرَّضْرَاضِ مِنَ اللَّؤْلُؤِ قُضْبَانَ الذَّهَبِ، وَيُتَمَرُّ أَلْوَانَ الْجَوَاهِرِ»^(١)، فَسُبْحَانَ الْخَالِقِ الَّذِي لَا يُعْجِزُهُ شَيْءٌ.

وَقَدْ وَرَدَ فِي أَحَادِيثَ: إِنَّ لِكُلِّ نَبِيٍّ حَوْضًا، وَإِنَّ حَوْضَ نَبِيِّنا ﷺ أَعْظَمُهَا وَأَخْلَاهَا وَأَكْثَرُهَا وَارِدًا^(٢). جَعَلْنَا اللَّهُ مِنْهُمْ بِفَضْلِهِ وَكَرَمِهِ.

قَالَ الْعَلَّامَةُ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ الْقُرْطُبِيُّ - رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى - فِي «التَّنْذِيرَةِ»^(٣):
وَاخْتَلَفَ فِي الْمِيزَانِ وَالْحَوْضِ: أَيُّهُمَا يَكُونُ قَبْلَ الْآخِرِ؟ فَقِيلَ: الْمِيزَانُ، وَقِيلَ:
الْحَوْضُ. قَالَ أَبُو الْحَسَنِ الْقَاسِمِيُّ: وَالصَّحِيحُ أَنَّ الْحَوْضَ قَبْلُ. قَالَ الْقُرْطُبِيُّ:
وَالْمَعْنَى يَقْتَضِيهِ، فَإِنَّ النَّاسَ يَخْرُجُونَ عَطَاشًا مِنْ قُبُورِهِمْ - كَمَا تَقَدَّمَ - فَيَقْدَمُ قَبْلُ

(١) أخرجه أحمد (١/١٩٨) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه. والحال: الطين، والبرضراض: الحصى.

(٢) كما في حديث سمرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ لِكُلِّ نَبِيٍّ حَوْضًا، وَإِنَّهُمْ يَتَبَاهَوْنَ أَنْبِيئَهُمْ

أَكْثَرُ وَارِدَةً، وَإِنِّي أَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَهُمْ وَارِدَةً»، أخرجه الترمذي (٢٤٤٣)، والطبراني في

الكبير (٦٨٨١)، والبخاري في التاريخ الكبير (١/٤٤).

(٣) (١/٣٠٢، ٣٠٤).

الميزانِ وَالصَّرَاطِ . قَالَ أَبُو حَامِدٍ الْغَزَالِيُّ . رَحِمَهُ اللَّهُ . فِي كِتَابِ «كَشْفِ عِلْمِ
الْآخِرَةِ» : حَكَى بَعْضُ السَّلَفِ مِنْ أَهْلِ التَّصَنُّيفِ ، أَنَّ الْحَوْضَ يُورَدُ بَعْدَ
الصَّرَاطِ ، وَهُوَ غَلَطٌ مِنْ قَائِلِهِ . قَالَ الْقُرْطُبِيُّ : هُوَ كَمَا قَالَ ، ثُمَّ قَالَ الْقُرْطُبِيُّ :
وَلَا يَخْطُرُ بِيَالِكَ أَنَّهُ فِي هَذِهِ الْأَرْضِ ، بَلْ فِي الْأَرْضِ الْمُبَدَّلَةِ ، أَرْضٍ بَيِّنَاءَ
كَالْفِضَّةِ ، لَمْ يُسْفَكْ فِيهَا دَمٌ ، وَلَمْ يُظْلَمْ عَلَى ظَهْرِهَا أَحَدٌ قَطُّ ، تَظْهَرُ لِنُزُولِ
الْجَبَّارِ . جَلَّ جَلَالُهُ . لِفَضْلِ الْقَضَاءِ . انْتَهَى .

فَقَاتَلَ اللَّهُ الْمُنْكَرِينَ لَوْجُودِ الْحَوْضِ ، وَأَخْلَقَ بِهِمْ أَنْ يُحَالَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ
وُرُودِهِ يَوْمَ الْعَطَشِ الْأَكْبَرِ .

قال الشيخ:

في هذه الفقرة ملخص صفة الحوض المورود من حيث طوله وعرضه،
وأنه مربع وله أربع زوايا، كل زاوية منه مسيرة شهر، ماؤه أشدُّ بياضاً من
اللبن الذي هو في غاية البياض، وأحلى من العسل الذي هو أشدُّ الأشياء
حلاوةً، وأطيب ريحاً من المسك، له رائحةٌ عبقةٌ طيبةٌ، وذكر أيضاً أنه ينبت في
جوانبه وفي رضراضه من التّبات الذي يكون مبهجاً للنفوس؛ من اللؤلؤ
والمرجان وأنواع الجواهر، من الله به عليهم، إن الله على كل شيء قدير. وأنه
يردّه المؤمنون ويذاد عنه الكافرون والمكذّبون والمنافقون، وأنه يكون قبيل
الميزان وقبل الصراط؛ وذلك لأنّ الناس يبعثون من قبورهم حفاةً عراةً غرلاً
بهماً، ويكونون في تلك الحال عطاشاً، شديدٌ عطشهم، فهم بحاجةٌ إلى ما

يدفعون به ذلك العطش، فيردون لينهلوا من الحوض، حتى إذا رويوا بعد ذلك اطمأنوا، عند ذلك يفصل بينهم، فتنصب الموازين، وينصب الصراط، وتوزن الأعمال، وتتطير الصحف، ويُعرف بذلك أهل السعادة من أهل الشقاوة، حتى يفصل الله تعالى فيما بينهم.

والذين أنكروا هذه الأمور الواردة خليق بهم وحريّ بهم أن يحال بينهم وبين وروده كما أنهم كذبوه، وكما أن الذين كذبوا برؤية الله تعالى خليق بهم أن يكونوا عن ربهم محجوبين، كالذين أنكروا الأمور التي أخبر الله بها، وأخبر بها رسوله ﷺ، لا شك أنهم مكذبون لم يصدقوا التصديق اللازم لهم، ولم يأتوا بما يجب عليهم، إنما صدقوا بما يناسب أهواءهم، والواجب على المسلم أن يصدق بكل ما جاء من الله تعالى، سواء أدركه عقله أو لا، فيكون بذلك حقاً من الذين يؤمنون بالغييب، ومن الذين يصدقون رسله، ومن الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه.

قال الطحاوي:

وَالشَّفَاعَةُ الَّتِي ادَّخَرَهَا لَهُمْ حَقٌّ، كَمَا رُوِيَ فِي الْأَخْبَارِ.

قال الشارح:

الشَّفَاعَةُ أَنْوَاعٌ مِنْهَا مَا هُوَ مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ بَيْنَ الْأُمَّةِ، وَمِنْهَا مَا خَالَفَ فِيهِ الْمُعْتَرِلَةُ وَنَحْوُهُمْ مِنْ أَهْلِ الْبِدْعِ.

النَّوْعُ الْأَوَّلُ: الشَّفَاعَةُ الْأُولَى، وَهِيَ الْعُظْمَى، الْخَاصَّةُ بِنَبِيِّنَا ﷺ مِنْ بَيْنِ سَائِرِ إِخْوَانِهِ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ، صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ.

فِي «الصَّحِيحَيْنِ» وَعَظِيمَاهُمَا عَنْ جَمَاعَةٍ مِنَ الصَّحَابَةِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَجْمَعِينَ - أَحَادِيثُ الشَّفَاعَةِ.

مِنْهَا: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: أُنِيَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِالْحَمِّ، فَدَفِعَ إِلَيْهِ مِنْهَا الذَّرَاعُ، وَكَانَتْ تُعْجِبُهُ، فَتَهَسَّ مِنْهَا نَهْسَةً، ثُمَّ قَالَ: «أَنَا سَيِّدُ النَّاسِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَهَلْ تَدْرُونَ مِمَّ ذَلِكَ؟ يَجْمَعُ اللَّهُ الْأُولِينَ وَالْآخِرِينَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ، يَسْمَعُهُمُ الدَّاعِي، وَيَنْفُذُهُمُ الْبَصْرُ، وَتَدْنُو الشَّمْسُ، فَيَبْلُغُ النَّاسُ مِنَ الْعَمِّ وَالْكَرْبِ مَا لَا يُطِيقُونَ وَلَا يَحْتَمِلُونَ، فَيَقُولُ بَعْضُ النَّاسِ لِبَعْضٍ: أَلَا تَرَوْنَ مَا أَنْتُمْ فِيهِ؟ أَلَا تَرَوْنَ مَا قَدْ بَلَغَكُمْ؟ أَلَا تَنْظُرُونَ مَنْ يَشْفَعُ لَكُمْ إِلَى رَبِّكُمْ؟ فَيَقُولُ بَعْضُ النَّاسِ لِبَعْضٍ: أَبُوكُمْ آدَمُ، فَيَأْتُونَ آدَمَ، فَيَقُولُونَ: يَا آدَمُ، أَنْتَ أَبُو الْبَشَرِ، خَلَقَكَ اللَّهُ بِيَدِهِ، وَنَفَخَ فِيكَ مِنْ رُوحِهِ، وَأَمَرَ الْمَلَائِكَةَ فَسَجَدُوا لَكَ، فَاشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ، أَلَا تَرَى مَا نَحْنُ فِيهِ؟ أَلَا تَرَى مَا قَدْ بَلَغَنَا؟ فَيَقُولُ آدَمُ: إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ

الْيَوْمَ غَضِبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، وَإِنَّهُ نَهَانِي عَنِ الشَّجَرَةِ
 فَعَصَيْتُ، نَفْسِي نَفْسِي نَفْسِي، اذْهَبُوا إِلَىٰ غَيْرِي، اذْهَبُوا إِلَىٰ نُوحٍ، فَيَأْتُونَ نُوحًا،
 فَيَقُولُونَ: يَا نُوحُ، أَنْتَ أَوَّلُ الرُّسُلِ إِلَىٰ أَهْلِ الْأَرْضِ، وَسَمَّاكَ اللَّهُ عَبْدًا شَكُورًا،
 فَاشْفَعْ لَنَا إِلَىٰ رَبِّكَ، أَلَا تَرَىٰ إِلَىٰ مَا نَحْنُ فِيهِ؟ أَلَا تَرَىٰ مَا قَدْ بَلَّغْنَا؟ فَيَقُولُ نُوحٌ:
 إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضِبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، وَإِنَّهُ
 كَانَتْ لِي دَعْوَةٌ دَعَوْتُ بِهَا عَلَىٰ قَوْمِي، نَفْسِي نَفْسِي نَفْسِي، اذْهَبُوا إِلَىٰ غَيْرِي،
 اذْهَبُوا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ، فَيَأْتُونَ إِبْرَاهِيمَ، فَيَقُولُونَ: يَا إِبْرَاهِيمُ، أَنْتَ نَبِيُّ اللَّهِ وَخَلِيلُهُ
 مِنْ أَهْلِ الْأَرْضِ، أَلَا تَرَىٰ إِلَىٰ مَا نَحْنُ فِيهِ؟ أَلَا تَرَىٰ مَا قَدْ بَلَّغْنَا؟ فَيَقُولُ: إِنَّ رَبِّي
 قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضِبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، وَذَكَرَ
 كَذْبَاتِهِ، نَفْسِي نَفْسِي نَفْسِي، اذْهَبُوا إِلَىٰ مُوسَىٰ، فَيَأْتُونَ مُوسَىٰ، فَيَقُولُونَ: يَا
 مُوسَىٰ، أَنْتَ رَسُولُ اللَّهِ، اضْطَفَاكَ اللَّهُ بِرِسَالَاتِهِ وَبِتَكْلِيمِهِ عَلَىٰ النَّاسِ، اشْفَعْ
 لَنَا إِلَىٰ رَبِّكَ، أَلَا تَرَىٰ مَا نَحْنُ فِيهِ؟ أَلَا تَرَىٰ مَا قَدْ بَلَّغْنَا؟ فَيَقُولُ لَهُمْ مُوسَىٰ: إِنَّ
 رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضِبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، وَإِنِّي
 قَتَلْتُ نَفْسًا لَمْ أُوْمَرْ بِقَتْلِهَا، نَفْسِي نَفْسِي نَفْسِي، اذْهَبُوا إِلَىٰ غَيْرِي، اذْهَبُوا إِلَىٰ
 عِيسَىٰ، فَيَأْتُونَ عِيسَىٰ، فَيَقُولُونَ: يَا عِيسَىٰ أَنْتَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَىٰ
 مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ، قَالَ: هَكَذَا هُوَ، وَكَلِمَتَ النَّاسِ فِي الْمَهْدِ، فَاشْفَعْ لَنَا إِلَىٰ رَبِّكَ،
 أَلَا تَرَىٰ إِلَىٰ مَا نَحْنُ فِيهِ؟ أَلَا تَرَىٰ مَا قَدْ بَلَّغْنَا؟ فَيَقُولُ لَهُمْ عِيسَىٰ: إِنَّ رَبِّي قَدْ
 غَضِبَ الْيَوْمَ غَضِبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، وَلَمْ يَأْذُرْ لَهُ
 ذَنْبًا، اذْهَبُوا إِلَىٰ غَيْرِي، اذْهَبُوا إِلَىٰ مُحَمَّدٍ ﷺ، فَيَأْتُونَ، فَيَقُولُونَ: يَا مُحَمَّدُ، أَنْتَ

رَسُولَ اللَّهِ، وَخَاتَمَ الْأَنْبِيَاءِ، غَفَرَ اللَّهُ لَكَ ذَنْبَكَ، مَا تَقَدَّمَ مِنْهُ وَمَا تَأَخَّرَ،
فَأَشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ، أَلَا تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ؟ أَلَا تَرَى مَا قَدْ بَلَّغْنَا؟ فَأَقُومُ، فَآتِي
تَحْتَ الْعَرْشِ، فَأَقْعُ سَاجِدًا لِلرَّبِّ عِزًّا وَجَلًّا، ثُمَّ يَفْتَحُ اللَّهُ عَلَيَّ وَيُلْهِمُنِي مِنْ
مَحَامِدِهِ وَحُسْنِ الشَّاءِ عَلَيْهِ شَيْئًا لَمْ يَفْتَحْهُ عَلَيَّ أَحَدٌ قَبْلِي، فَيُقَالُ: يَا مُحَمَّدُ، ارْفَعْ
رَأْسَكَ، سَلْ نُعْطَهُ، اشْفَعْ تُشْفَعُ، فَأَقُولُ: يَا رَبُّ أُمَّتِي أُمَّتِي، يَا رَبُّ أُمَّتِي أُمَّتِي،
يَا رَبُّ أُمَّتِي أُمَّتِي، فَيَقُولُ: أَدْخِلْ مِنْ أُمَّتِكَ مَنْ لَا حِسَابَ عَلَيْهِ مِنَ الْبَابِ
الْأَيْمَنِ مِنْ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ، وَهُمْ شُرَكَاءُ النَّاسِ فِيمَا سِوَاهُ مِنَ الْأَبْوَابِ، ثُمَّ قَالَ:
وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَمَّا بَيْنَ مِصْرَاعَيْنِ مِنْ مِصَارِيعِ الْجَنَّةِ كَمَا بَيْنَ مَكَّةَ وَهَجَرَ، أَوْ
كَمَا بَيْنَ مَكَّةَ وَبُصْرَى». أَخْرَجَاهُ فِي «الصَّحِيحَيْنِ»^(١) بِمَعْنَاهُ، وَاللَّفْظُ لِلْإِمَامِ
أَحْمَدَ^(٢).

قال الشيخ:

هذا أيضًا من كرامات النبي ﷺ، وهو الإيذان بالشفاعة التي هي شفاعته
لأهل الموقف في إراحتهم من ذلك الموقف، فيؤمن بذلك أهل السنة، وقد
أنكرت ذلك الخوارج والمعتزلة، وغلا بعض المشركين، وأثبتوا الشفاعة من
دون إذن الله سبحانه وتعالى، وقول أهل السنة هو الوسط، وهو أنه يشفع،

(١) أخرجه البخاري (٤٧١٢)، ومسلم (١٩٤).

(٢) في المسند (٤٣٥ / ٢).

وكذلك غيره، ولكن لا يشفع أحدٌ عند الله إلا بإذنه.

فالشفاعة عند الله تعالى في الآخرة بإذنه، ولهذا في هذا الحديث أنه يقول:
«اشْفَعُ تُشَفِّعُ»، فلا يُبدأ بالشفاعةِ أو لا حتى يأذن الله تعالى له بأن يشفع،
وكذلك غيره من الأنبياء والملائكة، لا يشفعون إلا بعد إذن الله سبحانه
وتعالى.

قال الشارح:

وَالْعَجَبُ كُلُّ الْعَجَبِ، مِنْ إِيرَادِ الْأُمَّةِ هَذَا الْحَدِيثَ مِنْ أَكْثَرِ طُرُقِهِ، لَا يَذْكُرُونَ أَمْرَ الشَّفَاعَةِ الْأُولَى، فِي أَنْ يَأْتِيَ الرَّبُّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لِفَضْلِ الْقَضَاءِ، كَمَا وَرَدَ هَذَا فِي حَدِيثِ الصُّورِ، فَإِنَّهُ الْمَقْصُودُ فِي هَذَا الْمَقَامِ، وَمُقْتَضَى سِيَاقِ أَوَّلِ الْحَدِيثِ، فَإِنَّ النَّاسَ إِنَّمَا يَسْتَشْفِعُونَ إِلَى آدَمَ فَمَنْ بَعْدَهُ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ فِي أَنْ يَفْصَلَ بَيْنَ النَّاسِ وَيَسْتَرْجِعُوا مِنْ مُقَامِهِمْ، كَمَا دَلَّتْ عَلَيْهِ سِيَاقَانَهُ مِنْ سَائِرِ طُرُقِهِ، فَإِذَا وَصَلُوا إِلَى الْجَزَاءِ إِنَّمَا يَذْكُرُونَ الشَّفَاعَةَ فِي عَصَاةِ الْأُمَّةِ وَإِخْرَاجَهُمْ مِنَ النَّارِ.

وَكَانَ مَقْصُودُ السَّلَفِ فِي الْإِقْتِصَارِ عَلَى هَذَا الْمِقْدَارِ مِنَ الْحَدِيثِ هُوَ الرَّدُّ عَلَى الْخَوَارِجِ وَمَنْ تَابَعَهُمْ مِنَ الْمُعْتَرِلَةِ، الَّذِينَ أَنْكَرُوا خُرُوجَ أَحَدٍ مِنَ النَّارِ بَعْدَ دُخُولِهَا، فَيَذْكُرُونَ هَذَا الْقَدْرَ مِنَ الْحَدِيثِ الَّذِي فِيهِ النَّصُّ الصَّرِيحُ فِي الرَّدِّ عَلَيْهِمْ، فِيمَا ذَهَبُوا إِلَيْهِ مِنَ الْبِدْعَةِ الْمُخَالَفَةِ لِلْأَحَادِيثِ.

وَقَدْ جَاءَ التَّصْرِيحُ بِذَلِكَ فِي حَدِيثِ الصُّورِ، وَلَوْ لَا خَوْفُ الْإِطَالَةِ لَسُقْتُهُ بِطُولِهِ، لَكِنْ مِنْ مَضْمُونِهِ: «أَنْهُمْ يَا تُونَ آدَمَ ثُمَّ نُوحًا، ثُمَّ إِبْرَاهِيمَ، ثُمَّ مُوسَى، ثُمَّ عِيسَى، ثُمَّ يَا تُونَ رَسُولَ اللَّهِ مُحَمَّدًا ﷺ، فَيَذْهَبُ فَيَسْجُدُ تَحْتَ الْعَرْشِ فِي مَكَانٍ يُقَالُ لَهُ: الْفَحْصُ، فَيَقُولُ اللَّهُ: مَا سَأَلْتُكَ؟ وَهُوَ أَعْلَمُ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: فَأَقُولُ: يَا رَبِّ، وَعَدْتَنِي الشَّفَاعَةَ، فَسَفَعْنِي فِي خَلْقِكَ، فَأَقْضِ بَيْنَهُمْ، فَيَقُولُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: سَفَعْتِكَ، أَنَا آتِيكُمْ فَأَقْضِي بَيْنَهُمْ، قَالَ: فَأَرْجِعُ فَأَقِفُ مَعَ النَّاسِ، ثُمَّ ذَكَرَ انْشِقَاقَ السَّمَوَاتِ، وَتَنْزِيلَ الْمَلَائِكَةِ فِي الْقِيَامِ، ثُمَّ يَجِيءُ الرَّبُّ

سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لِفَضْلِ الْقَضَاءِ، وَالْكَرُوبِيِّونَ وَالْمَلَائِكَةَ الْمُقَرَّبُونَ يُسَبِّحُونَ بِأَنْوَاعِ التَّسْبِيحِ، قَالَ: فَيَضَعُ اللَّهُ كُرْسِيَهُ حَيْثُ شَاءَ مِنْ أَرْضِهِ، ثُمَّ يَقُولُ: إِنِّي أَنْصَبْتُ لَكُمْ مِنْذُ خَلَقْتُكُمْ إِلَى يَوْمِكُمْ هَذَا أَسْمَعَ أَقْوَالَكُمْ، وَأَرَى أَعْمَالَكُمْ، فَأَنْصَبُوا إِلَيَّ، فَإِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ وَصُحُفُكُمْ تُقْرَأُ عَلَيْكُمْ، فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدِ اللَّهَ، وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلَا يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ، إِلَى أَنْ قَالَ: فَإِذَا أَفْضَى أَهْلَ الْجَنَّةِ إِلَى الْجَنَّةِ، قَالُوا: مَنْ يَشْفَعُ لَنَا إِلَى رَبِّنَا فَنَدْخُلَ الْجَنَّةَ؟ فَيَقُولُونَ: مَنْ أَحَقُّ بِذَلِكَ مِنْ أَيْبِكُمْ، إِنَّهُ خَلَقَهُ اللَّهُ بِيَدِهِ، وَنَفَخَ فِيهِ رُوحَهُ، وَكَلَّمَهُ قَبْلًا، فَيَأْتُونَ آدَمَ، فَيَطْلُبُونَ ذَلِكَ إِلَيْهِ، وَذَكَرَ نُوحًا، ثُمَّ إِبْرَاهِيمَ، ثُمَّ مُوسَى، ثُمَّ عِيسَى، ثُمَّ مُحَمَّدًا ﷺ.

إِلَى أَنْ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: فَاتَى الْجَنَّةَ، فَأَخَذَ بِحَلْقَةِ الْبَابِ، ثُمَّ أَسْتَفْتَحُ، فَيَمْتَحُ لِي، فَأُحْسِي وَيُرْحَبُ بِي، فَإِذَا دَخَلْتُ الْجَنَّةَ فَظَنَرْتُ إِلَى رَبِّي - عَزَّ وَجَلَّ - خَرَرْتُ لَهُ سَاجِدًا، فَيَأْذُنُ لِي مِنْ حَمْدِهِ وَتَمْجِيدِهِ بِشَيْءٍ مَا أَدْنَى بِهِ لِأَحَدٍ مِنْ خَلْقِهِ، ثُمَّ يَقُولُ اللَّهُ لِي: ارْفَعْ يَا مُحَمَّدُ، وَأَشْفَعُ تُشْفَعُ، وَسَلْ تُعْطَى، فَإِذَا رَفَعْتُ رَأْسِي، قَالَ اللَّهُ - وَهُوَ أَعْلَمُ -: مَا سَأَلْتُكَ؟ فَأَقُولُ: يَا رَبِّ، وَعَدْتَنِي الشَّفَاعَةَ، فَشَفَّعْنِي فِي أَهْلِ الْجَنَّةِ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ، فَيَقُولُ اللَّهُ - عَزَّ وَجَلَّ -: قَدْ شَفَّعْتُكَ، وَأَذْنْتُ لَهُمْ فِي دُخُولِ الْجَنَّةِ. الْحَسِيدِثَ. رَوَاهُ الْأَيْمَنَةُ. ابْنُ جَرِيرٍ فِي تَفْسِيرِهِ^(١)، وَالطَّبْرَانِيُّ^(٢).

(١) (٢/٣٣٠)، (٣٠/١٨٦).

(٢) في الأحاديث الطوال (ص ٢٦٦).

وَأَبُو يَعْلَى الْمُؤَصِّلِيُّ^(١)، وَالْبَيْهَقِيُّ^(٢)، وَغَيْرُهُمْ^(٣).

قال الشيخ:

ذكر العلماء أن أكثر أنواع الشفاعات التي اختص بها النبي ﷺ هي الشفاعة في يوم القيامة؛ لأجل إراحة الناس من طول الموقف، ولأجل فصل القضاء بينهم؛ وذلك لأنَّ الموقف - الذي هو يوم القيامة - قد ذكر من طوله ومن هوله، ومن ما يكون فيه من الغم والكرب، ومن العذاب والألم، ما الله تعالى به عليهم، أما طوله: فقد ذكر الله أنه كالف سنة مما تعدون، وفي آية أخرى أن مقداره خمسون ألف سنة، ولعلَّ ذلك لاختلاف تقديره عند الناس، أو في ظنَّ الكثير من النَّاس، لكنَّه لا يحسَّ بطوله أهل التوحيد، وأهل العقيدة، وأهل الأعمال الصالحة؛ وذلك لأنَّهم ينعمون بذلك الموقف.

(١) في مسنده (٢٧٨، ٢٧٩).

(٢) في شعب الإيمان (١/٢٨٥، ٢٨٦).

(٣) قال ابن كثير في تفسيره (٢/١٥٠): «هذا الحديث مشهور، وهو غريب جداً، ولبعضه شواهد في الأحاديث المتفرقة، وفي بعض ألفاظه نكارة، تفرد به إسماعيل بن رافع قاص أهل المدينة، وقد اختلف فيه، فمنهم من وثقه، ومنهم من ضعفه... وقد اختلف عليه في إسناد هذا الحديث على وجوه كثيرة، وقد أفردتها في جزء على حدة، وأما سياقه فغريب جداً، ويقال: إنه جمعه من أحاديث كثيرة وجعله سياقاً واحداً، فأنكر عليه بسبب ذلك».

كذلك من الهول الذي ينالهم بالموقف شدة الحرّ؛ كما ورد في حديث المقداد بن الأسود الذي رواه مسلم في «صحيحه»^(١)، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «تُدْنَى الشَّمْسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْخَلْقِ حَتَّى تَكُونَ مِنْهُمْ كَمِقْدَارِ مِيلٍ ... فَيَكُونُ النَّاسُ عَلَى قَدَرِ أَعْمَاهُمْ فِي الْعَرَقِ، فَمِنْهُمْ مَنْ يَكُونُ إِلَى كَعْبِيئِهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَكُونُ إِلَى رُكْبَتَيْهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَكُونُ إِلَى حَقْوَيْهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يُلْحِمُهُ الْعَرَقُ الْجَامَا».

كذلك أيضًا شدة الهول الذي يشاهدونه من طول الموقف ومما هم فيه من الكرب، يقول بعضهم لبعض: ألا تطلبون من يشفع لكم حتى يريحكم الله من هذا الموقف، وحتى تتخلصوا منه إما إلى جنة وإما إلى نار؟

فعند ذلك يطلبون من يشفع لهم، فذكر في الحديث أنهم يأتون أولاً إلى أبيهم آدم - عليه السلام - وهو أبو البشر، فيقولون: يا آدم، أنت أبو البشر، خلقتك الله بيده، وأسجدت من ملائكته، وأسكنك جنته، يعني: خصك بهذه الخصائص، ألا ترى إلى ما نحن فيه، ألا ترى إلى ما قد أصابنا، اشفع لنا إلى ربك، يعني ليرجنا من طول الموقف، فيعترض آدم - عليه السلام - ويقول: وهل أخرجكم من الجنة إلا ذنب أبيكم، فيعترف بأنه أخطأ، وأنه بسبب ذنبه أخرج من الجنة، وقد كان من أهلها، لما أسكن فيها، وأخطأ تلك الخطيئة التي هي أكله من تلك الشجرة، أخرج منها إلى دار الشقاء، وهي دار الدنيا.

وفي هذا تحذير من الأعمال السيئة التي تحرم من دخول الجنة، قال بعض السلف: آدم أخرج من الجنة بذنب واحد، وأنتم تعملون الذنوب وتكثرون منها، وترجون أن تدخلو معها الجنة.

ويقول بعضهم^(١):

يَا نَاطِرًا يَرُنُّو بِعَيْنِي رَاقِدٍ وَمُشَاهِدًا لِلْأَمْرِ غَيْرَ مُشَاهِدٍ
مَنِيَّتَ نَفْسِكَ ضَلَّةً وَالْجَنَّتَهَا طُرُقَ الرَّجَاءِ وَهَنَّ غَيْرُ قَوَاصِدٍ
تَصِلُ الذُّنُوبَ إِلَى الذُّنُوبِ وَتَرْتَجِي دَرَكَ الْجَنَانِ بِهَا وَفَسُورَ الْعَابِدِ
وَنَسِيتَ أَنَّ اللَّهَ أَخْرَجَ آدَمًا مِنْهَا إِلَى الدُّنْيَا بِذَنْبٍ وَاحِدٍ

والحاصل: أن أباهم آدم - عليه السلام - يعترف بخطيئته، ويعتذر عن الشفاعة، ويقول: كيف أشفع وأنا مذنب، ثم يحيلهم إلى نبي الله نوح عليه السلام.

فيأتون إليه ويقولون: يا نوح - أنت أول الرسل، بُعثت إلى أهل الأرض، وسماك الله عبداً شكوراً، اشفع لنا إلى ربك، ونوح - عليه السلام - له ميزة وفضيلة، ولكن لم يقبل أن يشفع لهم تواضعاً، وتعلل واعتذر بأنه قد دعا على قوميه بقوله: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْنَا عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾ [نوح: ٢٦]، فاعتذر بذلك حيث دعا بهذه الدعوة، وأنه ما كان دعا إلا على الكفار والذين

(١) هذه الأبيات من شعر محمود الوراق، رواها بسنده أبو بكر الدينوري في المجالسة وجواهر العلم (٤٠٤)، والخطيب البغدادي في الزهد والرفائق (ص ٧٦).

يستحقون الغرق، فاستجاب الله دعوته بإغراق أهل الأرض إلا أهل السفينة. بعد نوح يأتون إلى إبراهيم - عليهما السلام - فيعتذر، ثم يأتون إلى موسى - عليه السلام - فيعتذر أيضًا، ثم إلى عيسى - عليه السلام - فيعتذر، ثم يأتون إلى النبي محمد ﷺ، فعند ذلك يقول: «أنا لها»؛ فإذا التزم يشفع، سجد لربه، ثم إذا أذن له ربه تكلم بعدما يفتح الله عليه من المحامد ومن الثناء ما لا يحسنه الآن، يعني: أن الله يلهمه من تمجيد ربه، وتحميده، والثناء عليه، ما الله به عليم، فبعد ذلك يرغب إلى ربه أن يفصل بين العباد، وأن يريحهم من ذلك الموقف.

بعد ذلك يستجيب الله دعوته فيفصل بينهم، ويقول: «إِنِّي أَنصِتُ لَكُمْ مُنْذُ خَلَقْتُكُمْ إِلَى يَوْمِكُمْ هَذَا أَسْمَعُ أَقْوَالَكُمْ، وَأَرَى أَعْمَالَكُمْ، فَأَنصِتُوا إِلَيَّ، فَإِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ وَصُحُفُكُمْ تُقْرَأُ عَلَيْكُمْ»، فعند ذلك تنصب الموازين، وتنشر الدواوين، ويأتي دور الحساب، ويحاسب الله كل أحد، ويتفرق الكتاب، وتتطاير الصحف بالأيمان وبالشكائل، فأخذ كتابه بيمينه، وأخذ كتابه بشماله، فيسعد الله أقوامًا ويشقى آخرين، يسعد أهل الدين وأهل التقوى وأهل الصلاح، ويشقى أهل الفساد وأهل الكفر والعناد.

بعد ذلك يكون ما أخبر الله من كونه يميز هؤلاء من هؤلاء، فتفرق عليهم أنوار، فيمشون بأنوارهم، فينطفئ نور المناقق ونور الكافر، ثم يتأخر فيضرب بينهم بسور له باب، وذلك تمييز وفصل بين أهل التقوى وأهل الشقاوة والعياذ بالله، ثم بعهما يتميرون، ويركبون الصراط، ويسلكونه جسرًا

على متن جهنم، يمرّون عليه بقدر أعمالهم، كما ذكر في بعض الأحاديث أنّه: «أَدَقُّ مِنَ الشَّعْرَةِ، وَأَحَدٌ مِنَ السَّيْفِ»^(١)، وأتّم يسرون عليه بأعمالهم، فمنهم من يمرّ عليه كالبرق، ومنهم من يمرّ كالريح، ومنهم من يمرّ كأجاود الخيل والرّكاب، ومنهم من يعدو عدوّاً، ومنهم من يمشي مشياً، ومنهم من يزحف زحفاً، وعلى جنبي الصراط كلاليب مثل شوك السعدان^(٢)، لا يعلم قدرها إلاّ الله تعالى، تخطف من أمرت بخرطفه، فناج مسلم، ومخدوش، ومكدوس في النار تختطفه تلك الكلاليب، فإذا نجوا من الصراط وسلكوه، وكانوا قد وعدوا بأنهم يردون النار، قال تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ [مريم: ٧١]، قالوا: أين النار التي وعدنا الله أن نردّها؟ فيقال: إنكم مررتم عليها وهي خامدة، يعني: مرّوا على الصراط وكان منصوباً على متن جهنم، فإذا مرّ المؤمن لم يحسّ بلهبها، بل تقول: جزّ يا مؤمن فقد أطفأ نورك لهبي، عند ذلك يوقفون على قنطرة بين الجنّة والنار، ويقتصّ من بعضهم لبعض مظالم كانت بينهم، فإذا هدّبوا ونقّوا أذن لهم بدخول الجنّة، كما جاء في «صحيح البخاري»^(٣)، ولا يدخلونها إلاّ بعد أن يشفع لهم نبيّنا ﷺ، وهذه من خصائصه ومميزاته.

(١) أخرجه مسلم (١٨٣) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

(٢) قال النووي في شرحه على صحيح مسلم (٣/ ٢١): «السعدان: بفتح السين وإسكان العين

المهملة، وهو نبت له شوكة عظيمة مثل الحسك من كل الجوانب».

(٣) برقم (٢٤٤٠) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

قال الشارح:

النَّوْعُ الثَّانِي والثَّالِثُ مِنَ الشَّفَاعَةِ: شَفَاعَتُهُ ﷺ فِي أَقْوَامٍ قَدْ تَسَاوَتْ حَسَنَاتُهُمْ وَسَيِّئَاتُهُمْ، فَيَشْفَعُ فِيهِمْ لِيَدْخُلُوا الْجَنَّةَ، وَفِي أَقْوَامٍ آخِرِينَ قَدْ أُمِرَ بِهِمْ إِلَى النَّارِ أَنْ لَا يَدْخُلُونَهَا.

النَّوْعُ الرَّابِعُ: شَفَاعَتُهُ ﷺ فِي رَفْعِ دَرَجَاتٍ مَنْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ فِيهَا فَوْقَ مَا كَانَ يَفْتَضِيهِ ثَوَابُ أَعْمَالِهِمْ. وَقَدْ وَافَقَتِ الْمُعْتَزِلَةُ هَذِهِ الشَّفَاعَةَ خَاصَّةً، وَخَالَفُوا فِيهَا عَدَاهَا مِنَ الْمَقَامَاتِ، مَعَ تَوَاتُرِ الْأَحَادِيثِ فِيهَا.

النَّوْعُ الْخَامِسُ: الشَّفَاعَةُ فِي أَقْوَامٍ أَنْ يَدْخُلُوا الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ، وَيُحْسِنُ أَنْ يُسْتَشْهَدَ لِهَذَا النَّوْعِ بِحَدِيثِ عَكَاشَةَ بْنِ مُحْصِنٍ، حِينَ دَعَا لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنْ يُجْعَلَهُ مِنَ السَّبْعِينَ أَلْفًا الَّذِينَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ، وَالْحَدِيثُ مُخْرَجٌ فِي «الصَّحِيحَيْنِ»^(١).

النَّوْعُ السَّادِسُ: الشَّفَاعَةُ فِي تَخْفِيفِ الْعَذَابِ عَمَّنْ يَسْتَحِقُّهُ، كَشَفَاعَتِهِ فِي عَمِّهِ أَبِي طَالِبٍ أَنْ يُخَفَّفَ عَنْهُ عَذَابُهُ.

ثُمَّ قَالَ الْقُرْطُبِيُّ فِي «التَّذَكِيرَةِ»^(٢) بَعْدَ ذِكْرِ هَذَا النَّوْعِ: فَإِنْ قِيلَ: فَقَدْ قَالَ تَعَالَى: ﴿لَنَنْفَعَهُمْ شَفَاعَةُ الشُّوفِيِّينَ﴾ [المدثر: ٤٨]. قِيلَ لَهُ: لَا تَنْفَعُهُ فِي الْخُرُوجِ مِنَ النَّارِ، كَمَا تَنْفَعُ عَصَاةَ الْمُؤَحِّدِينَ، الَّذِينَ يَخْرُجُونَ مِنْهَا وَيَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ.

(١) أخرجه البخاري (٥٨١١)، ومسلم (٢١٦) من حديث أبي هريرة ؓ.

(٢) (٢٤٩/١).

النَّوْعُ السَّابِعُ: شَفَاعَتُهُ أَنْ يُؤَدِّنَ لِجَمِيعِ الْمُؤْمِنِينَ فِي دُخُولِ الْجَنَّةِ، كَمَا تَقَدَّمَ. وَفِي «صَحِيحِ مُسْلِمٍ»^(١) عَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وآله قَالَ: «أَنَا أَوَّلُ شَفِيعٍ فِي الْجَنَّةِ».

النَّوْعُ الثَّامِنُ: شَفَاعَتُهُ فِي أَهْلِ الْكِبَائِرِ مِنْ أُمَّتِهِ، مِمَّنْ دَخَلَ النَّارَ، فَيَخْرُجُونَ مِنْهَا، وَقَدْ تَوَاتَرَتْ بِهَذَا النَّوْعِ الْأَحَادِيثُ. وَقَدْ خَفِيَ عَلِمُ ذَلِكَ عَلَى الْخَوَارِجِ وَالْمُعْتَرِزَةِ، فَخَالَفُوا فِي ذَلِكَ، جَهْلًا مِنْهُمْ بِصِحَّةِ الْأَحَادِيثِ، وَعِنَادًا مِمَّنْ عَلِمَ ذَلِكَ وَاسْتَمَرَ عَلَى بَدْعَتِهِ.

وَهَذِهِ الشَّفَاعَةُ تُشَارِكُهُ فِيهَا الْمَلَائِكَةُ وَالنَّبِيُّونَ وَالْمُؤْمِنُونَ أَيْضًا.

وَهَذِهِ الشَّفَاعَةُ تَتَكَرَّرُ مِنْهُ صلى الله عليه وآله أَرْبَعَ مَرَّاتٍ.

وَمِنْ أَحَادِيثِ هَذَا النَّوْعِ: حَدِيثُ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ

صلى الله عليه وآله: «شَفَاعَتِي لِأَهْلِ الْكِبَائِرِ مِنْ أُمَّتِي». رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ^(٢) رَحِمَهُ اللَّهُ.

وَرَوَى الْبُخَارِيُّ - رَحِمَهُ اللَّهُ - فِي كِتَابِ التَّوْحِيدِ^(٣): حَدَّثَنَا سُلَيْمَانُ بْنُ

حَرْبٍ، حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ زَيْدٍ، حَدَّثَنَا مَعْبُدُ بْنُ هِلَالٍ الْعَنْزِيُّ، قَالَ: اجْتَمَعْنَا وَنَاسٌ

مِنْ أَهْلِ الْبَصْرَةِ، فَذَهَبْنَا إِلَى أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، وَذَهَبْنَا مَعَنَا بِثَابِتِ الْبُنَائِيِّ إِلَيْهِ،

يَسْأَلُهُ لَنَا عَنْ حَدِيثِ الشَّفَاعَةِ، فَيَاذَا هُوَ فِي قَصْرِهِ، فَوَافَيْنَاهُ يُصَلِّي الضُّحَى،

(١) برقم (١٩٦).

(٢) في المسند (٢١٣/٣).

(٣) برقم (٧٥١٠).

فَاسْتَأْذَنَّا، فَأَذِنَ لَنَا وَهُوَ قَاعِدٌ عَلَى فِرَاشِهِ، فَقُلْنَا لِثَابِتٍ: لَا تَسْأَلُهُ عَنْ شَيْءٍ أَوْلَ مِنْ حَدِيثِ الشَّفَاعَةِ، فَقَالَ: يَا أَبَا حَمْزَةَ، هُوَ لَاءِ إِخْوَانِكَ مِنْ أَهْلِ الْبَصْرَةِ، جَاؤُوكَ يَسْأَلُونَكَ عَنْ حَدِيثِ الشَّفَاعَةِ، فَقَالَ: حَدَّثَنَا مُحَمَّدٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: «إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ، مَاجَ النَّاسُ بَعْضُهُمْ فِي بَعْضٍ، فَيَأْتُونَ آدَمَ، فَيَقُولُونَ: اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ، فَيَقُولُ: لَسْتُ لَهَا، وَلَكِنْ عَلَيْكُمْ بِإِبْرَاهِيمَ، فَإِنَّهُ خَلِيلُ الرَّحْمَنِ، فَيَأْتُونَ إِبْرَاهِيمَ، فَيَقُولُ: لَسْتُ لَهَا، وَلَكِنْ عَلَيْكُمْ بِمُوسَى، فَإِنَّهُ كَلِيمُ اللَّهِ، فَيَأْتُونَ مُوسَى، فَيَقُولُ: لَسْتُ لَهَا، لَكِنْ عَلَيْكُمْ بِعِيسَى، فَإِنَّهُ رُوحُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ، فَيَأْتُونَ عِيسَى، فَيَقُولُ: لَسْتُ لَهَا، وَلَكِنْ عَلَيْكُمْ بِمُحَمَّدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فَيَأْتُونِي، فَأَقُولُ: أَنَا لَهَا، فَاسْتَأْذِنُ عَلَى رَبِّي، فَيُؤْذِنُ لِي، وَيُلْهِمُنِي بِحَامِدٍ أَحْمَدُهُ بِهَا، لَا تَحْضُرُنِي الْآنَ، فَأَحْمَدُهُ بِتِلْكَ الْمَحَامِدِ، وَأَخِرُّ لَهُ سَاجِدًا، فَيَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، ازْفَعْ رَأْسَكَ، وَقُلْ يُسْمَعُ لَكَ، وَاشْفَعْ تُشْفَعُ، وَسَلْ تُعْطَى، فَأَقُولُ: يَا رَبِّ أُمَّتِي أُمَّتِي، فَيَقَالَ: انْطَلِقْ فَأَخْرِجْ مِنْهَا مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ شَعِيرَةٍ مِنْ إِسْمَانِ، فَأَنْطَلِقُ فَأَفْعَلُ، ثُمَّ أَعُودُ فَأَحْمَدُهُ بِتِلْكَ الْمَحَامِدِ، ثُمَّ أَخِرُّ لَهُ سَاجِدًا، فَيَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، ازْفَعْ رَأْسَكَ، وَقُلْ يُسْمَعُ لَكَ، وَاشْفَعْ تُشْفَعُ، وَسَلْ تُعْطَى، فَأَقُولُ: يَا رَبِّ أُمَّتِي أُمَّتِي، فَيَقَالَ: انْطَلِقْ فَأَخْرِجْ مِنْهَا مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ أَوْ حَرْدَلَةٍ مِنْ إِسْمَانِ، فَأَنْطَلِقُ فَأَفْعَلُ، ثُمَّ أَعُودُ بِتِلْكَ الْمَحَامِدِ، ثُمَّ أَخِرُّ لَهُ سَاجِدًا، فَيَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، ازْفَعْ رَأْسَكَ، وَقُلْ يُسْمَعُ لَكَ، وَسَلْ تُعْطَى، وَاشْفَعْ تُشْفَعُ، فَأَقُولُ: يَا رَبِّ، أُمَّتِي أُمَّتِي، فَيَقُولُ: انْطَلِقْ فَأَخْرِجْ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ أَدْنَى أَدْنَى مِثْقَالِ حَبَّةٍ مِنْ حَرْدَلٍ مِنْ إِسْمَانِ، فَأَخْرِجُهُ مِنَ النَّارِ، فَأَنْطَلِقُ فَأَفْعَلُ».

قَالَ: فَلَمَّا خَرَجْنَا مِنْ عِنْدِ أَنَسٍ، قُلْتُ لِبَعْضِ أَصْحَابِنَا لَوْ مَرَرْنَا بِالْحَسَنِ، وَهُوَ مُتَوَارٍ فِي مَنْزِلِ أَبِي خَلِيفَةَ [وَهُوَ جَمِيعٌ] ^(١) فَحَدَّثْنَا بِمَا حَدَّثَنَا بِهِ أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ، فَاتَيْنَاهُ، فَسَلَّمْنَا عَلَيْهِ، فَأَذِنَ لَنَا، فَقُلْنَا لَهُ: يَا أَبَا سَعِيدٍ، جِئْنَاكَ مِنْ عِنْدِ أَخِيكَ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، فَلَمْ نَرِ مِثْلَ مَا حَدَّثْنَا فِي الشَّفَاعَةِ، فَقَالَ: هَيْه؟ فَحَدَّثْنَا بِالْحَدِيثِ، فَانْتَهَى إِلَى هَذَا الْمَوْضِعِ، فَقَالَ: هَيْه؟ فَقُلْنَا لَمْ يَزِدْ لَنَا عَلَى هَذَا، فَقَالَ: لَقَدْ حَدَّثَنِي وَهُوَ جَمِيعٌ مُنْذُ عِشْرِينَ سَنَةً، فَلَا أَدْرِي، أَنَسِي أَمْ كَرِهَ أَنْ تَتَكَلَّمُوا؟ فَقُلْنَا: يَا أَبَا سَعِيدٍ، فَحَدَّثْنَا، فَضَحِكَ وَقَالَ: خُلِقَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا مَا ذَكَرْتُهُ إِلَّا وَأَنَا أُرِيدُ أَنْ أُحَدِّثَكُمْ حَدِيثِي كَمَا حَدَّثْتُمْ، قَالَ: «ثُمَّ أَعُوذُ الرَّابِعَةَ، فَأُحْمَدُهُ بِتِلْكَ الْمَحَامِدِ، ثُمَّ أَخِرُّ لَهُ سَاجِدًا، فَيَقَالُ: يَا مُحَمَّدُ، ازْفَعِ رَأْسَكَ، وَقُلْ يُسْمَعُ، وَسَلْ تُعْطَى، وَاشْفَعْ تُشْفَعُ، فَأَقُولُ: يَا رَبِّ، ائْذَنْ لِي فِيمَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، فَيَقُولُ: وَعِزِّي وَجَلَالِي، وَكِبْرِيَانِي وَعَظْمَتِي، لِأُخْرِجَنَّ مِنْهَا مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ».

وَهَكَذَا رَوَاهُ مُسْلِمٌ ^(٢).

وَرَوَى الْحَافِظُ أَبُو يَعْلَى عَنْ عُثْمَانَ رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يَشْفَعُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثَلَاثَةٌ: الْأَنْبِيَاءُ، ثُمَّ الْعُلَمَاءُ، ثُمَّ الشُّهَدَاءُ» ^(٣).

(١) لم ترد في الأصول، وهي عند البخاري، قال الحافظ ابن حجر في الفتح (٤٧٦/١٣): «أي: مجتمع العقل، وهو إشارة إلى أنه كان حينئذ لم يدخل في الكبر الذي هو مظنة تفرق الذهن وحدوث اختلاط الحفظ».

(٢) برقم (١٩٣).

(٣) أخرجه ابن ماجه (٤٣١٣)، قال البوصيري في مصباح الزجاجة (٤/٢٦٠): «لهذا إسناد

وَفِي الصَّحِيحِ ^(١) مِنْ حَدِيثِ أَبِي سَعِيدٍ رضي الله عنه مَرْفُوعًا، قَالَ: «فَيَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: شَفَعَتِ الْمَلَائِكَةُ، وَشَفَعَ النَّبِيُّونَ، وَشَفَعَ الْمُؤْمِنُونَ وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا أَزْحَمُ الرَّاحِمِينَ، فَيَقْبِضُ قَبْضَةً مِنَ النَّارِ، فَيُخْرِجُ مِنْهَا قَوْمًا لَمْ يَعْمَلُوا خَيْرًا قَطُّ»، الْحَدِيثَ.

ثُمَّ إِنَّ النَّاسَ فِي الشَّفَاعَةِ عَلَى ثَلَاثَةِ أَقْوَالٍ:

فَالْمَشْرُكُونَ وَالنَّصَارَى وَالْمُبْتَدِعُونَ مِنَ الْغَلَاقَةِ فِي الْمَشَائِخِ وَغَيْرِهِمْ: يَجْعَلُونَ شَفَاعَةَ مَنْ يُعَظِّمُونَهُ عِنْدَ اللَّهِ كَالشَّفَاعَةِ الْمَعْرُوفَةِ فِي الدُّنْيَا.

وَالْمُعْتَزِلَةُ وَالْحَوَارِجُ أَنْكَرُوا شَفَاعَةَ نَبِيِّنَا صلى الله عليه وسلم وَغَيْرِهِ فِي أَهْلِ الْكِبَائِرِ.

وَأَمَّا أَهْلُ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ، فَيَقْرُونَ بِشَفَاعَةِ نَبِيِّنَا صلى الله عليه وسلم فِي أَهْلِ الْكِبَائِرِ، وَشَفَاعَةِ غَيْرِهِ، لَكِنْ لَا يَشْفَعُ أَحَدٌ حَتَّى يَأْذَنَ اللَّهُ لَهُ وَيَحْدُدَ لَهُ حَدًّا، كَمَا فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ ^(٢)، حَدِيثِ الشَّفَاعَةِ: «إِنَّهُمْ يَأْتُونَ آدَمَ، ثُمَّ نُوحًا، ثُمَّ إِبْرَاهِيمَ، ثُمَّ مُوسَى، ثُمَّ عِيسَى، فَيَقُولُ لَهُمْ عِيسَى: عَلَيْهِ السَّلَامُ: اذْهَبُوا إِلَى مُحَمَّدٍ، فَإِنَّهُ عَبْدٌ غَفَرَ اللَّهُ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ، فَيَأْتُونِي، فَأَذْهَبُ، فَإِذَا رَأَيْتُ رَبِّي

ضعيف لضعف حلاق بن أبي مسلم، رواه البزار في مسنده من طريق عنبسة بإسناده، ولفظه:

«أول من يشفع الأنبياء، ثم الشهداء، ثم المؤذن»، ورواه أبو يعلى الموصلي في مسنده الكبير:

ثنا إسحاق ثنا أحمد بن يونس، فذكره بإسناده ابن ماجه ومتمته سواء».

(١) أخرجه مسلم (١٨٣).

(٢) تقدم تخرجه قريباً.

خَرَزْتُ لَهُ سَاجِدًا، فَأَخْبَدُ رَبِّي بِمَحَامِدِ يَفْتَحُهَا عَلَيَّ، لَا أَحْسِنُهَا الْآنَ، فَيَقُولُ:
 أَيُّ مُحَمَّدٍ، أَرْفَعُ رَأْسَكَ، وَقُلُّ يَسْمَعُ، وَاشْفَعُ تُشْفَعُ، فَأَقُولُ: رَبِّي أُمَّتِي، فَيَحْدُلِي
 حَدًّا، فَأَدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ، ثُمَّ أَنْطَلِقُ فَأَسْجُدُ، فَيَحْدُلِي حَدًّا. ذَكَرَ هَذَا ثَلَاثَ
 مَرَّاتٍ.

قال الشيخ:

هذه من أنواع الشفاعات التي خصَّ بها النبي ﷺ، وهي سبع:
 النوع الأول - وهو أشهرها -: شفاعته لأهل الموقف أن يريحهم الله من
 طول الموقف، وأن ينزل الله ليفصل القضاء بينهم، حتى يدخل هؤلاء دارهم،
 وهؤلاء دارهم.

النوع الثاني: شفاعته في قومٍ تساوت حسناتهم وسيئاتهم في أن يدخلهم
 الله الجنة، وهم قومٌ لهم طاعاتٌ ومعاصٍ متساوية، كأنه لم يرجح ميزان هذا
 ولا هذا، ولكن كتب الله على نفسه: «أَنَّ رَحْمَتِي سَبَقَتْ غَضَبِي»^(١)، فيتلقاهم
 الله برحمته، ويقبل فيهم شفاعته نبيه، فيدخلهم الجنة، مع أن لهم سيئات تساوي
 حسناتهم.

بل إن الله - سبحانه وتعالى - إذا حاسب العبد، فإنه يقتصُّ من سيئاته
 لحسناته، فإذا بقي له حسنةٌ واحدةٌ ضاعفها وأدخله بها الجنة، كما في قوله

(١) أخرجه البخاري (٣١٩٤)، ومسلم (٢٧٥١) من حديث أبي هريرة ؓ.

تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظِلُّمُ مَثْقَالَ دَرَّةٍ وَإِن تَكَ حَسَنَةً يُّضَعِفْهَا﴾ [النساء: ٤٠]،
يعني: يجعلها أضعافاً مضاعفة حتى يستحق بها الثواب.

النوع الثالث: شفاعته ﷺ في قوم استحقوا النار، وكأنهم من أهل التوحيد، ولكن معهم سيئات وذنوب من الكبائر التي توعد عليها بالعذاب، فيدخلون الجنة بعدما أمر بهم؛ لأن فضل الله تعالى ورحمته تعم عباده الذين يشملهم اسم الإيمان، واسم التوحيد، واسم الاستجابة، فيشفع لهم لكونهم من أمته، فيدخلون الجنة.

النوع الرابع: الشفاعة لأهل الجنة في أن يدخلوها، عندما يقفون عند أبواب الجنة لا يدخلونها حتى يستفتح لهم النبي ﷺ، فأول من يستفتح باب الجنة محمد ﷺ، وأول من يدخل الجنة من الأمم أمته، فيقول خازن الجنة: «بِكَ أُمِرْتُ لَا أَفْتَحُ لِأَحَدٍ قَبْلَكَ»^(١)، فهو يستأذن ويشفع إلى ربه في أن يفتح أبواب الجنة، فيدخلها أهلها، ومع سعة أبواب الجنة فقد ذكر أن للجنة ثمانية أبواب، ولكن ما سعة الباب؟

ورد في الحديث: «أَنَّ مَا بَيْنَ مِصْرَاحَيْنِ مِنْ مَصَارِيحِ الْجَنَّةِ مَسِيرَةٌ أَرْبَعِينَ سَنَةً، وَلَيَاتَيْنِ عَلَيْهَا يَوْمٌ وَهُوَ كَطَيْظٍ مِنَ الرَّحَامِ»^(٢)، من كثرة من يدخل من تلك الأبواب الثمانية، الباب الواحد سعته مسيرة أربعين سنة، ليس أربعين يوماً،

(١) أخرجه مسلم (١٩٧) من حديث أنس بن مالك ؓ.

(٢) أخرجه مسلم (٢٩٦٧) من حديث عتبة بن غزوان ؓ.

ولا أربعين شهراً، ما مقدار ذلك؟ الله أعلم بمتنهاه. ومع ذلك يأتي عليه يومٌ - الله أعلم بمقدار ذلك اليوم - وهو كظيظ من الزحام من كثرة من يدخل من هذه الأمة ومن غيرها.

النوع الخامس: شفاعته ﷺ لقوم أن يدخلوا الجنة بغير حساب، ومنهم عكاشة بن محصن رضي الله عنه، لما قال النبي ﷺ: «يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ أُمَّتِي سَبْعُونَ أَلْفًا بِغَيْرِ حِسَابٍ»، قالوا: وَمَنْ هُمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قال: «هُمْ الَّذِينَ لَا يَكْتَوُونَ وَلَا يَسْتَرْفُونَ، وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ»، فَقَامَ عَكَاشَةُ فَقَالَ: ادْعُ اللَّهَ أَنْ يَجْعَلَني منهم، قال: «أَنْتَ مِنْهُمْ»^(١)، يعني: كأنه شفع له أن يكون من الذين يدخلون الجنة بغير حساب، ومنهم أيضاً غيره.

النوع السادس: الشفاعة لقوم من أهل الجنة، ولكن مراتبهم نازلة، فيشفع لهم أن ترفع مراتبهم، وأن يُعطوا أجراً، وأن يزداد لهم في الثواب، وفي مضاعفة الجزاء، وهذا النوع من الشفاعة اعترفت به المعتزلة، الذين أنكروا بقية الشفاعة؛ وذلك لأنهم إنما أنكروا الشفاعة لمن يُخْرَجُ مِنَ النَّارِ أَوْ مِنَ يَسْتَحِقُّ النَّارَ، أما أهل الجنة، فأقرّوا بأنه يكون فيها شفاعة في رفع المنازل ونحوها.

النوع السابع - وهو آخر الشفاعة الخاصّة به ﷺ -: الشفاعة في قوم استحقّوا النار ودخلوها في أن يخفف عنهم من عذابها، ومن ذلك شفاعته لعمّه أبي طالب أن يخفف الله عنه من العذاب، ذكر في الحديث أنه يستحق أن يكون في الدرك

(١) تقدم تخريجه (٢/٣٧٣).

الأسفل من النار؛ لأنه عرف التوحيد ولكنه لم يقبله، وعرف صدق النبي ﷺ ولكنه لم يتبعه، ولكن بسبب نصرته للنبي ﷺ وحمايته له، وبسبب أنه مكّنه من أن يدعو إلى الله، وقال له: صرّح بما تريد فأنا أنصرك، فنصره وآواه حتى بلغ الرسالة، ولم يتجرأ المشركون على النيل من النبي ﷺ في حياة أبي طالب، فخفف عنه العذاب بسبب نصرته للنبي ﷺ، فأصبح في ضحضاح من نار، ولكن ليس ذلك بهين، بل قد ذكر أن ذلك الضحضاح يغلي منه دماغه، ويرى أنه لا أحد أشد منه عذاباً، وهو أخفهم، وقد ورد في الحديث: «أَهْوَنُ أَهْلِ النَّارِ عَذَابًا أَبُو طَالِبٍ، وَهُوَ مُتَّعِلٌ بِنَعْلَيْنِ يَغْلِي مِنْهُمَا دِمَاغُهُ»^(١)، وفي رواية: «لَعَلَّهُ تَنَفَّعَهُ شَفَاعَتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيُجْعَلُ فِي ضَحْضَاحٍ مِنَ النَّارِ يَبْلُغُ كَهَيْبَتِهِ يَغْلِي مِنْهُ أُمَّ دِمَاغِهِ»^(٢). ومن شدة حرارة هذا النعل يحمي جسده كله، حتى إن دماغه يكون له غليان من شدة حره، ما يرى أن أحداً أشد عذاباً منه، وإنه لأخفهم.

نأخذ من هذه الأنواع ميزةً وفضيلةً لنبينا ﷺ، حيث خصّ بالله الذي يشفع هذه الأنواع من الشفاعات، يعني: الشفاعة العظمى التي هي لإراحة الناس من الموقف، والشفاعة الثانية التي هي في قومٍ تساوت حسناتهم وسيئاتهم أن يدخلوا الجنة، والشفاعة الثالثة التي في قومٍ استحقوا النار أو أمر بهم إلى النار؛ أن لا يدخلوها، والشفاعة الرابعة التي هي في أهل الجنة؛ أن يفتح لهم، وأن

(١) أخرجه مسلم (٢١٢) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه البخاري (٦٥٦٤) من حديث أبي سعيد الخدري ؓ.

يدخلوها، والشفاعة الخامسة التي هي في بعض أهل الجنة؛ أن تُرفع مراتبهم، وأن يزداد في ثوابهم، والشفاعة السادسة: التي في قومٍ أن يدخلوا الجنة بغير حساب، والشفاعة السابعة في بعض أهل النار أن يخفف عنهم.

هذه أنواع من الشفاعة خاصة بالنبي ﷺ، وبقيت نوعٌ من الشفاعة ليس خاصًا به ﷺ، بل يشفع غيره من الملائكة والأنبياء والشهداء.

قال الشارح:

وَأَمَّا الْإِسْتِشْفَاعُ بِالنَّبِيِّ ﷺ وَغَيْرِهِ فِي الدُّنْيَا إِلَى اللَّهِ تَعَالَى فِي الدُّعَاءِ، فَفِيهِ تَفْصِيلٌ: فَإِنَّ الدَّاعِيَ تَارَةً يَقُولُ: بِحَقِّ نَبِيِّكَ أَوْ بِحَقِّ فُلَانٍ، يُقْسِمُ عَلَى اللَّهِ بِأَحَدٍ مِنْ مَحَلُّو قَاتِهِ، فَهَذَا مَحْذُورٌ مِنْ وَجْهَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: أَنَّهُ أَقْسَمَ بِغَيْرِ اللَّهِ.

وَالثَّانِي: اعْتِقَادُهُ أَنَّ لِأَحَدٍ عَلَى اللَّهِ حَقًّا.

وَلَا يَجُوزُ الْحَلْفُ بِغَيْرِ اللَّهِ، وَلَيْسَ لِأَحَدٍ عَلَى اللَّهِ حَقٌّ إِلَّا مَا أَحَقَّهُ عَلَى نَفْسِهِ،

كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧]، وَكَذَلِكَ مَا ثَبَتَ فِي

«الصَّحِيحَيْنِ»^(١) مِنْ قَوْلِهِ ﷺ لِمُعَاذٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «يَا مُعَاذُ، أَتَدْرِي مَا حَقُّ اللَّهِ

عَلَى عِبَادِهِ؟»، قُلْتُ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: «حَقُّهُ عَلَيْهِمْ أَنْ يَعْبُدُوهُ وَلَا يُشْرِكُوا

بِهِ شَيْئًا، أَتَدْرِي مَا حَقُّ الْعِبَادِ عَلَى اللَّهِ إِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ؟»، قُلْتُ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ

أَعْلَمُ، قَالَ: «حَقُّهُمْ عَلَيْهِ أَنْ لَا يُعَذِّبَهُمْ». فَهَذَا حَقٌّ وَجِبَ بِكَلِمَاتِهِ التَّامَّةِ وَوَعْدِهِ

الصَّادِقِ، لَا أَنْ الْعَبْدَ نَفْسَهُ مُسْتَحِقٌّ عَلَى اللَّهِ شَيْئًا كَمَا يَكُونُ لِلْمَخْلُوقِ عَلَى

الْمَخْلُوقِ، فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمُنْعِمُ عَلَى الْعِبَادِ بِكُلِّ خَيْرٍ، وَحَقُّهُمْ الْوَاجِبُ بِوَعْدِهِ هُوَ أَنْ

لَا يُعَذِّبَهُمْ، وَتَرَكَ تَعَذِّبِيهِمْ مَعْنَى لَا يَصْلُحُ أَنْ يُقْسَمَ بِهِ، وَلَا أَنْ يُسْأَلَ بِسَبَبِهِ

وَيُتَوَسَّلَ بِهِ؛ لِأَنَّ السَّبَبَ هُوَ مَا نَصَبَهُ اللَّهُ سَبَبًا.

(١) أخرجه البخاري (٢٨٥٦)، ومسلم (٣٠).

وَكَذَلِكَ الْحَدِيثُ الَّذِي فِي «الْمُسْنَدِ»^(١) مِنْ حَدِيثِ أَبِي سَعِيدٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، فِي قَوْلِ الْمَاشِي إِلَى الصَّلَاةِ: «أَسْأَلُكَ بِحَقِّ مُمْشَايَ هَذَا، وَبِحَقِّ السَّائِلِينَ عَلَيْكَ»، فَهَذَا حَقُّ السَّائِلِينَ، هُوَ أَوْجَبُهُ عَلَى نَفْسِهِ، فَهُوَ الَّذِي أَحَقُّ لِلْسَّائِلِينَ أَنْ يُجِيبَهُمْ، وَلِلْعَابِدِينَ أَنْ يُشِيَهُمْ، وَنَدَّ أَحْسَنَ الْقَائِلُ^(٢):

مَا لِلْعِبَادِ عَلَيْهِ حَقٌّ وَاجِبٌ كَلَّا وَلَا سَفِيٌّ لَدَيْهِ ضَائِعٌ
 إِنْ عُدُّبُوا فَبَعْدَلِهِ، أَوْ نَعَّمُوا فِي فَضْلِهِ وَهُوَ الْكَرِيمُ الْوَاسِعُ
 فَإِنْ قِيلَ: فَأَيُّ فَرْقٍ بَيْنَ قَوْلِ الدَّاعِي: (بِحَقِّ السَّائِلِينَ عَلَيْكَ)، وَبَيْنَ قَوْلِهِ: (بِحَقِّ نَبِيِّكَ)، أَوْ نَحْوِ ذَلِكَ؟ فَالْجَوَابُ: أَنْ مَعْنَى قَوْلِهِ: (بِحَقِّ السَّائِلِينَ عَلَيْكَ) أَنَّكَ وَعَدْتِ السَّائِلِينَ بِالْإِجَابَةِ، وَأَنَا مِنْ جُمْلَةِ السَّائِلِينَ، فَأَجِبْ دُعَائِي، بِخِلَافِ قَوْلِهِ: (بِحَقِّ فَلَانٍ فَإِنَّ فَلَانًا وَإِنْ كَانَ لَهُ حَقٌّ عَلَى اللَّهِ بِوَعْدِهِ الصَّادِقِ، فَلَا مُنَاسَبَةَ بَيْنَ ذَلِكَ وَبَيْنَ إِجَابَةِ دُعَاءِ هَذَا السَّائِلِ. فَكَأَنَّهُ يَقُولُ: لِيَكُونَ فَلَانٌ مِنْ عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ أَجِبْ دُعَائِي! وَأَيُّ مُنَاسَبَةٍ فِي هَذَا وَأَيُّ مُلَازِمَةٍ؟ وَإِنَّمَا هَذَا مِنَ الْإِعْتِدَاءِ فِي الدُّعَاءِ، وَقَدْ قَالَ تَعَالَى: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُضوعًا وَإِنَّهُ لَجَبُّ الْمُقْتَدِرِينَ﴾ [الأعراف: ٥٥]، وَهَذَا وَنَحْوُهُ مِنَ الْأَدْعِيَةِ الْمُبْتَدَعَةِ، وَلَمْ يُنْقَلْ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، وَلَا عَنِ الصَّحَابَةِ، وَلَا عَنِ التَّابِعِينَ، وَلَا عَنْ أَحَدٍ مِنَ الْأَئِمَّةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، وَإِنَّمَا يُوجَدُ مِثْلُ هَذَا فِي الْحُرُوزِ وَالْهَيَاكِلِ الَّتِي يَكْتُبُ بِهَا الْجُهَالُ وَالطَّرِيقَةُ.

(١) (٣/٢١).

(٢) انظر: مدارج السالكين (٢/٣٣٩)، وبدائع الفوائد (٢/٣٩٠).

وَالدُّعَاءُ مِنْ أَفْضَلِ الْعِبَادَاتِ، وَالْعِبَادَاتُ مَبْنَاهَا عَلَى السُّنَّةِ وَالِاتِّبَاعِ، لَا عَلَى
الهُوَى وَالِابْتِدَاعِ.

قال الشيخ:

ها هنا ردُّ على الذين يسألون الله تعالى بحقِّ المخلوقين، ويقولون: إنَّ
المخلوق إذا كان مقرَّبًا عند الله، فله منزلة ورفعة، وله حقُّ على الله، كالأنبياء
والأولياء والصالحين . وهذا - كما قال الشارح - اعتداءً في الدعاء، والله تعالى
يقول: ﴿ ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾ [الأعراف: ٥٥]،
والمعتدون في الدعاء: هم الذين يدعون بإثم، أو يدعون بذنبٍ أو بشيءٍ لم يُشرع
لهم، وهذا لم ينقل عن النبي ﷺ، ولا عن صحابته أئمة سألوا بحقِّ مخلوق، أو
توسَّلوا بحقِّ مخلوق، لا بحقِّ فلان، ولا بجاه فلان، ولا غير ذلك؛ فالمحذور فيه
حَلْفٌ بحقِّ مخلوق، والحلف بغير الله شرك.

وقد ثبت أنَّ النبي ﷺ قال: «مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللَّهِ فَقَدْ كَفَرَ أَوْ أَشْرَكَ»^(١)، فإذا
قال: بحقِّ فلان، أو بالنبي، أو بالولي، أو بجاه فلان، أو بشرفي، أو بحياتي، أو
بحياتك يا فلان، أو ما أشبه ذلك على وجه التأكيد؛ كان قد حلف بمخلوق،
فيكون هذا تعظيماً لذلك المحلوف به، والنبي ﷺ قال: «مَنْ كَانَ حَالِفًا فَلْيَحْلِفْ

(١) أخرجه أبو داود (٣٢٥١)، والترمذي (١٥٣٥)، وأحمد (٢/٣٤، ٦٩)، وابن حبان

(١٠/١٩٩)، والحاكم (١/١٨)، والبيهقي (١٠/٢٩) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

بِاللَّهِ أَوْ لِيَصُمْتُ»^(١)، وقال: «لَا تَحْلِفُوا بِأَبَائِكُمْ، وَلَا بِأُمَّهَاتِكُمْ، وَلَا بِالْأَنْدَادِ، وَلَا تَحْلِفُوا إِلَّا بِاللَّهِ، وَلَا تَحْلِفُوا بِاللَّهِ إِلَّا وَأَنْتُمْ صَادِقُونَ»^(٢).

فأمرنا أن نتجنب الحلف بالأباء؛ كما كان المشركون يحلفون بأبائهم أو بأمهاتهم، أو بأصنامهم، في قولهم: واللات والعزى... ونحو ذلك، وفي الحديث قال ﷺ: «مَنْ حَلَفَ مِنْكُمْ فَقَالَ فِي حَلْفِهِ بِاللَّاتِ، فَلْيَقُلْ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ»^(٣)؛ كأنه أشرك فأمر بأن يجدد التوحيد ليُبطل الاعتقاد بأن اللات والعزى معظمة، أو أنها تستحق التعظيم، فكذاك إذا حلف بالوليّ فلان، أو بعليّ، أو بحسن، أو بحسين، أو بعيديروس، أو بابن علوان، أو بكذا وكذا... فإن هؤلاء مخلوقون لا يجوز الحلف بهم.

كذلك سؤال الله تعالى بحق المخلوقين، أو بجاه المخلوقين، هذا أيضًا شرك؛ وذلك لأنه ليس لأحد حقُّ على الله تعالى إلا ما أحقّه على نفسه.

يتكرر في كتب القبورين وعلى ألسن دعواتهم حديثٌ مكذوبٌ يتولون: إنَّ النبيَّ ﷺ قال: (إذا سألتُم الله فاسألوه بجاهي، فإنَّ جاهي عند الله عظيم)، هذا

(١) أخرجه البخاري (٢٦٧٩)، ومسلم (١٦٤٦) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه أبو داود (٣٢٤٨)، والنسائي (٣٧٦٩)، وابن حبان (١٩٩/١٠)، والبيهقي

(٢٩/١٠) من حديث أبي هريرة ؓ.

(٣) أخرجه مسلم (١٦٤٧) من حديث أبي هريرة ؓ، وعلقه البخاري جازمًا به (باب من

حَلَفَ بِمِلَّةِ سِوَى مِلَّةِ الْإِسْلَامِ) قبل حديث رقم (٦٦٥٢).

حديث مكذوب لا أصل له^(١)، ما قاله النبي ﷺ، وحاشاه أن يأمر بأن يسألوا الله بجاهه، وهو الذي يجب التواضع، والذي يعرف ربه، وأن ربه هو الذي يستحق التعظيم، فكيف يقول: اسألوا الله بجاهي فإن جاهي عند الله عظيم؟ فإذا الذين يقولون: أسألك بجاه نبيك، أو بحق نبيك، أو بحق الولي فلان، أو بجاه الولي فلان، هؤلاء قد أشركوا؛ لأنهم عظموا هذا المخلوق وحلفوا به، وجعلوا له حقاً على الله، ومعلوم أن الله تعالى هو الذي يتفضل على العباد، وليس أحدٌ يملك من الله شيئاً، وليس على الله حق لأي مخلوق، بل هو الذي له الحق عليهم.

أما حديث معاذ ﷺ الذي ذكره الشارح، فالحق فيه حق تفضل، حق تكرم. وقوله ﷺ: «حَقُّهُ عَلَيْهِمْ أَنْ يَعْبُدُوهُ وَلَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا»، هذا حق وجوب، فعلى العباد كلهم حق لله تعالى أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً، وأما حق العباد على الله أن لا يعذب من لا يشرك به شيئاً، فهذا ليس حق وجوب، بل هو حق تفضل وتكرم؛ وذلك لأنه هو الذي وفقهم وأنعم عليهم، ثم هو وعدهم، وهو لا يخلف الميعاد، فقد وعد - سبحانه وتعالى - مَنْ وَحَدَهُ أَنَّهُ يَشِيْبُهُ وَيَنْعَمُهُ، وَأَنَّهُ لَا يَعَذَّبُهُ إِذَا فَعَلَ التَّوْحِيدَ الصَّحِيحَ الصَّادِقَ.

(١) قال شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - في التوسل والوسيلة (ص ١٢٩): «هذا الحديث كذب، ليس في شيء من كتب المسلمين التي يعتمد عليها أهل الحديث، ولا ذكره أحد من أهل العلم بالحديث، مع أن جاهه عند الله تعالى أعظم من جاه جميع الأنبياء والمرسلين».

وإذا كان كذلك، فليس خاصًا بنبيٍّ ولا بوليٍّ ولا بغيره. يقال: إذا كان للنبيِّ ﷺ حقٌّ على الله، فأنت كذلك لك أن توحد الله ولا تشرك به شيئًا، ولا تلتفت بقلبك إلى أي مخلوق، ولا تتعلق على سيّد، ولا على وليٍّ، ولا على شفيع، ولا على غيرهم، تعلق برّبك حتى يرحمك، ويُنعمك، ولا يعذبك؛ فبذلك تكون من الذين استحقوا هذا على الله حقّ تكريم.

والبيت الذي ذكر يؤيد أن هذا حقّ تكريم وهو قولهم:

مَا لِلْعِبَادِ عَلَيْهِ حَقٌّ وَاجِبٌ كَلَّا وَلَا سَنَعِي لَدَيْهِ ضَائِعٌ
 إِنْ عُدُّبُوا فَبِعَدْلِهِ، أَوْ نُعِّمُوا فَبِفَضْلِهِ وَهُوَ الْكَرِيمُ الْوَاسِعُ

فيقول هذا الشاعر: إنَّ العباد ليس لهم على الله حقٌّ، يعني: حقًّا واجبًا، وأنَّ سعيهم وأعمالهم الصالحة لا تضيع، بل هي محفوظة يحصيها الله ثم يوفّيهم أجورهم، فمن وجد خيرًا فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومنَّ إلا نفسه، فهذا حقّ تكريم، وإنَّ عُدُّبُوا فبعده، ولا يعذبهم ظلمًا، إنّما يعذبهم عدلًا؛ لكونهم يستحقون العذاب، وإذا نُعِّمُوا فبفضله، يعني: هو الذي تفضّل عليهم وهداهم، فهديته لهم نعمة، لو أن الله تعالى عذب أهل سمواته وأهل أرضه لعذبهم وهم يستحقون العذاب، ولا يكون ظالمًا لهم، ولو أنّه أنعم عليهم لكانت نعمته عليهم أفضل من أعمالهم.

أما الحديث الذي يكثر ما يستدلّ به القبوريون، وهو الحديث الذي روي عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، أن النبيَّ ﷺ قال: «مَنْ قَالَ حِينَ يُخْرَجُ إِلَى الصَّلَاةِ:

اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ بِحَقِّ السَّائِلِينَ عَلَيْكَ، وَبِحَقِّ مَمْشَايَ، فَإِنِّي لَمْ أَخْرُجْ أَشْرًا
وَلَا بَطْرًا وَلَا رِيَاءً وَلَا سُمْعَةً، خَرَجْتُ اتِّقَاءَ سَخَطِكَ وَاتِّغَاءَ مَرْضَاتِكَ،
أَسْأَلُكَ أَنْ تَنْقِذَنِي مِنَ النَّارِ - وَأَنْ تَغْفِرَ لِي ذُنُوبِي، إِنَّهُ لَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ»^(١).

والجواب: أوَّلاً أن هذا الحديث فيه ضعف؛ لأن في إسناده عطية بن سعد
العوفي، وهو ضعيف. ثم على تقدير صحته لا دلالة فيه، فليس معنى حقّ
السائلين، يعني جاههم، وجاه الناس كلهم سواءً، ولو كان كذلك لقال: أسألك
بحقّ النبيين، أو بحقّ الأولياء، أو بحقّ فلانٍ من الأولياء؛ كعبد القادر، أو
البدوي أو نحوه... ولكن قال: بحقّ السائلين، وما هو حقّ السائلين؟ هو ما
وعد الله من سأله بالثواب، حقّ السائلين على الله أن يجيبهم، وحقّ العاملين أن
يشيهم، فهذا هو حقهم الذي يسألون الله به، فكأنك تقول: ياربّ أسألك بما جعلته
حقاً على نفسك لمن سألك أن تجيبه، فأنا من جملة السائلين، فأجب سؤالي وأثبني
على أعمالي، ذلك لَمَّا كان هذا حقّ السائلين كلهم، كنت أنت من السائلين، يقول: يا
ربّ! أنا من جملة السائلين، وقد جعلت للسائلين عليك حقاً بقولك: ﴿أَدْعُونِي﴾
﴿أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠]، وبقولك: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾
﴿أَجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: ١٨٦]، وأنا من السائلين، فأسألك بما جعلته
حقاً على نفسك، وبما وعدت السائلين أن تجيبهم.

(١) تقدم تخريجه (٢/ ٣٨٤).

أين من ذلك التوسُّل بالجاه؟ أين هو هنا التوسُّل بحقِّ المخلوق؟ ليس فيه توسُّل بحقِّ مخلوق. إذا فكيف يتعلَّق بهذا القبوريون الذين يدعون فلانًا وفلانة، ويقولون: إنَّ هؤلاء من جملة الذين أمرنا بأن نتوسَّل بحقِّهم، وأن نسأل الله بحقِّهم، فلا يُغْتَرُّ من يستدلُّ بهذا الحديث على أنَّه دليلٌ في جواز السؤال بحقِّ الأموات، أو بحقِّ الأولياء، أو غير ذلك. فليس فيه أيضًا أيُّ دليل.

وقد أورد العلماء هذا الحديث في الردِّ على من استدلَّ به من القبوريين، الذين جعلوه طعنًا على الشيخ محمد بن عبد الوهاب؛ الذي يمنع من السؤال بحقِّ المخلوق وجاهه أيًّا كان؛ فكلُّ من دعا مع الله أحدًا أشرك بالله ولو محمدًا. فيقولون: هذا دليلٌ على أنَّه يجوز السؤال بحقِّ المخلوق، أين فيه السؤال بحقِّ مخلوق؟ إنَّما فيه سؤال بما جعل الله، يعني: كأنه يقول: أنت وعدت السائلين أن تجيبهم، وأنا من جملة السائلين فأجب سؤالي، فلا دلالة فيه على شيء مما يتعلَّقون به.

قال الشارح:

وَإِنْ كَانَ مُرَادُهُ الْإِقْسَامَ عَلَى اللَّهِ بِحَقِّ فُلَانٍ، فَذَلِكَ مُحْدُورٌ أَيْضًا؛ لِأَنَّ الْإِقْسَامَ بِالْمَخْلُوقِ عَلَى الْمَخْلُوقِ لَا يُجُوزُ، فَكَيْفَ عَلَى الْخَالِقِ؟! وَقَدْ قَالَ ﷺ: «مَنْ حَافَ بِغَيْرِ اللَّهِ فَقَدْ أَشْرَكَ»^(١). وَهَذَا قَالَ أَبُو حَنِيفَةَ وَصَاحِبَاهُ. رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ: «يُكْرَهُ أَنْ يَقُولَ الدَّاعِي: أَسْأَلُكَ بِحَقِّ فُلَانٍ، أَوْ بِحَقِّ أَنْبِيَائِكَ وَرُسُلِكَ، وَبِحَقِّ الْبَيْتِ الْحَرَامِ، وَالْمَشْعَرِ الْحَرَامِ، وَنَحْوِ ذَلِكَ. حَتَّى كَرِهَ أَبُو حَنِيفَةَ وَمُحَمَّدٌ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - أَنْ يَقُولَ الرَّجُلُ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ بِمَعْقِدِ الْعِزِّ مِنْ عَرْشِكَ، وَلَمْ يُكْرَهُهُ أَبُو يُوسُفَ - رَحِمَهُ اللَّهُ - لَمَّا بَلَغَهُ الْأَثَرُ فِيهِ.

وَتَارَةً يَقُولُ: بِجَاهِ فُلَانٍ عِنْدَكَ، يَقُولُ: تَتَوَسَّلُ إِلَيْكَ بِأَنْبِيَائِكَ وَرُسُلِكَ وَأَوْلِيَائِكَ، وَمُرَادُهُ أَنْ فُلَانًا عِنْدَكَ ذُو وَجَاهَةٍ وَشَرَفٍ وَمَنْزِلَةٍ، فَأَجِبْ دُعَاءَنَا. وَهَذَا أَيْضًا مُحْدُورٌ، فَإِنَّهُ لَوْ كَانَ هَذَا هُوَ التَّوَسُّلُ الَّذِي كَانَ الصَّحَابَةُ يَفْعَلُونَهُ فِي حَيَاةِ النَّبِيِّ ﷺ لَفَعَلُوهُ بَعْدَ مَوْتِهِ، وَإِنَّمَا كَانُوا يَتَوَسَّلُونَ فِي حَيَاتِهِ بِدُعَائِهِ، يَطْلُبُونَ مِنْهُ أَنْ يَدْعُوَهُمْ، وَهُمْ يُؤْمِنُونَ عَلَى دُعَائِهِ، كَمَا فِي الْإِسْتِسْقَاءِ وَغَيْرِهِ. فَلَمَّا مَاتَ ﷺ قَالَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: لَمَّا خَرَجُوا يَسْتَسْقُونَ: «اللَّهُمَّ إِنَّا كُنَّا إِذَا أَجَدَبْنَا نَتَوَسَّلُ إِلَيْكَ بِنَبِيِّنَا فَتَسْقِينَا، وَإِنَّا نَتَوَسَّلُ إِلَيْكَ بِعَمِّ نَبِيِّنَا»^(٢). مَعْنَاهُ: بِدُعَائِهِ هُوَ رَبُّهُ وَشَفَاعَتِهِ وَسُؤَالِهِ، لَيْسَ الْمُرَادُ أَنَّا نُنْقِصُ حَيْكَانِكَ بِهِ، أَوْ نَسْأَلُكَ بِجَاهِهِ عِنْدَكَ؛ إِذْ لَوْ كَانَ ذَلِكَ مُرَادًا لَكَانَ

(١) تقدم تخريجه (٢/ ٣٨٥).

(٢) أخرجه البخاري (١٠١٠) من حديث أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

جَاهُ النَّبِيِّ ﷺ أَعْظَمَ وَأَعْظَمَ مِنْ جَاهِ الْعِبَّاسِ .

وَتَارَةً يَقُولُ: بِاتِّبَاعِي لِرَسُولِكَ، وَحُبِّي لَهُ، وَإِيمَانِي بِهِ، وَبِسَائِرِ أَنْبِيَائِكَ
وَرُسُلِكَ، وَتَصَدِيقِي لَهُمْ، وَنَحْوِ ذَلِكَ. فَهَذَا مِنْ أَحْسَنِ مَا يَكُونُ فِي الدُّعَاءِ
وَالتَّوَسُّلِ وَالِاسْتِشْفَاعِ.

فَلَنُظِّمُ التَّوَسُّلَ بِالشَّخْصِ وَالتَّوَجُّهَ بِهِ فِيهِ إِجْمَالًا، غَلِطَ بِسَبَبِهِ مَنْ لَمْ يَفْهَمْ مَعْنَاهُ:
فَإِنْ أُرِيدَ بِهِ التَّسَبُّبُ بِهِ لِكَوْنِهِ دَاعِيًا وَشَافِعًا، وَهَذَا فِي حَيَاتِهِ يَكُونُ، أَوْ لِكَوْنِ الدَّاعِي
حُبًّا لَهُ، مُطِيعًا لِأَمْرِهِ، مُقْتَدِيًا بِهِ، وَذَلِكَ أَهْلٌ لِلْمَحَبَّةِ وَالطَّاعَةِ وَالِاقْتِدَاءِ، فَيَكُونُ
التَّوَسُّلُ إِمَّا بِدُعَاءِ الوَسِيلَةِ وَشَفَاعَتِهِ، وَإِمَّا بِمَحَبَّةِ السَّائِلِ وَاتِّبَاعِهِ، أَوْ يُرَادُ بِهِ
الِاقْتِسَامُ بِهِ وَالتَّوَسُّلُ بِدَاعِيَتِهِ، فَهَذَا الثَّانِي هُوَ الَّذِي كَرِهُوهُ وَنَهَوْا عَنْهُ.

قال الشيخ:

ذَكَرَ الدَّلِيلَ عَلَى أَنَّهُ لَا يَجُوزُ الْإِقْسَامُ بِمَخْلُوقٍ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى، فِي «كِتَابِ
التَّوْحِيدِ» لِلشَّيْخِ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ الوَهَّابِ، بَابِ مَا جَاءَ فِي الْإِقْسَامِ عَلَى اللَّهِ،
وَالِاقْسَامِ عَلَى اللَّهِ مَعْنَاهُ: إِلزَامُ اللَّهِ تَعَالَى بِشَيْءٍ؛ كَأَن يَقُولُ: أَقْسَمْتُ عَلَيْكَ يَا رَبِّ
أَن تَفْعَلَ كَذَا، وَلَا شُكَّ أَنَّ هَذِهِ جَرَاءُ كَبِيرَةٍ عَلَى اللَّهِ، كَيْفَ تُتْلِزَمُ رَبُّكَ بِشَيْءٍ؟
وَكَيفَ تَقْسَمُ عَلَيْهِ بِأَن يَفْعَلَ شَيْئًا وَهُوَ الَّذِي يَتَصَرَّفُ فِي الْعِبَادَةِ، وَمَا وَرَدَ فِي ذَلِكَ
إِنَّمَا هُوَ عَلَى وَجْهِ المَثَلِ، الْحَدِيثُ الَّذِي يَقُولُ فِيهِ ﷺ: «رَبِّ أَشْعَثَ مَدْفُوعٍ

بِالْأَبْوَابِ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لِأَبْرَهُ»^(١)، هذا بيان أن هناك من هو متواضع لله تعالى، لو قُدِّرَ أَنَّهُ طَلَبَ مِنْ رَبِّهِ وَالْحَجَّ فِي طَلْبِهِ لِأَجَابِ دَعْوَتِهِ، وَلَكِنْ لَيْسَ فِيهِ أَنْتَ كَمُتَقَسِّمُونَ عَلَى اللَّهِ؛ فَتَقُولُ: أَقْسَمْتَ عَلَيْكَ أَنْ تَنْزِلَ الْمَطْرُ، أَقْسَمْتَ عَلَيْكَ أَنْ تَشْفِي الْمَرِيضَ، أَقْسَمْتَ عَلَيْكَ أَنْ تَنْبِتَ النَّبَاتَ، فَهَذَا لَا يَجُوزُ؛ لِمَا فِيهِ مِنْ إِلْزَامِ الرَّبِّ سُبْحَانَهُ بِمَا لَا يَمْلِكُهُ الْعَبْدُ، فَالْعَبْدُ لَا يَمْلِكُ إِلَّا الدَّعَاءَ، فَيَسْأَلُ رَبَّهُ مَا يَحِبُّهُ، يَقُولُ: يَا رَبِّ نَحْنُ الْفُقَرَاءُ وَأَنْتَ الْغَنِيُّ فَانزِلْ عَلَيْنَا غَيْثَكَ، يَا رَبِّ نَحْنُ الْمَذْنُبُونَ وَأَنْتَ الْعَفْوُ، فَاعْفُ عَنَّا، وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ، وَهَذَا الْمُرَادُ بِالنَّهْيِ عَنِ الْإِقْسَامِ عَلَى اللَّهِ.

وَمَنْ أَرَادَ التَّوَسُّعَ فِي الْأَدْلَةِ، فَلْيَقْرَأْ فِي شَرْحِ الْبَابِ الَّذِي ذَكَرْنَا فِي آخِرِ كِتَابِ التَّوْحِيدِ، وَكَذَلِكَ فِي «شَرْحِ فَتْحِ الْمَجِيدِ»، وَ«تَيْسِيرِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ»، بَابِ مَا جَاءَ فِي الْإِقْسَامِ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى.

أَمَّا سُؤَالُ اللَّهِ تَعَالَى بِحَقِّ مَخْلُوقٍ، فَإِنَّ هَذَا أَيْضًا لَا يَجُوزُ، وَأَنَّ الْمَخْلُوقَ لَيْسَ لَهُ أَيُّ حَقٍّ عَلَى اللَّهِ، وَلَكِنْ قَدْ يَكُونُ السَّائِلُ أَرَادَ بِذَلِكَ مَحَبَّةَ ذَلِكَ الْعَبْدِ، فَيَكُونُ سَأَلَ اللَّهِ تَعَالَى وَتَوَسَّلَ إِلَيْهِ بِعَمَلٍ صَالِحٍ، وَالتَّوَسُّلُ إِلَى اللَّهِ بِالْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ مِنَ الْأَسْبَابِ الْجَالِبَةِ لِإِجَابَةِ الدَّعَاءِ وَقَبُولِهِ. وَقَدْ ذُكِرَ لِذَلِكَ أَمْثَلَةٌ، فَمَثَلًا إِذَا قُلْتَ: يَا رَبِّ، أَسْأَلُكَ بِأَنَّ عَبْدَكَ الذَّلِيلَ، أَسْأَلُكَ بِأَنَّ مِصْدُقَ بُوْعْدِكَ وَوَعِيدِكَ، أَسْأَلُكَ بِمَا عَمَلْتَهُ لَكَ مِنَ الصَّالِحَاتِ، فَهَذِهِ تَوَسُّلَاتٌ مَبَاحَةٌ يَرْجَى بِذَلِكَ قَبُولَ الدَّعَاءِ بِهَا، وَكَذَلِكَ إِذَا تَوَسَّلْتَ بِمَحَبَّةِ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ، فَإِنَّ ذَلِكَ فِيهِ أَيْضًا وَسِيلَةٌ لِإِجَابَةِ الدَّعَاءِ،

(١) أخرجه مسلم (٢٦٢٢٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

كأن تقول: أسألك بأني أحبك، وأحبُّ نبيك، وأحبُّ عبادك الصالحين، أسألك بمحبتي لك، ومحبتي لهم أن تجيب دعوتي، أو أن تقبل عثرتي، أو ما أشبه ذلك، أو أن تقول: أسألك بإيماني بك، وتصديقي لنبيك، وأتباعي لشريعته، وإيماني بما جاء به، وتصديقي بكتابك وعملي به، ونحو ذلك، تتوسَّل إلى الله تعالى بأعمال خيرية، والله تعالى يحبُّ من هو أهلٌ للإجابة، إذا كان صادقاً فيما قاله بقلبه، أو فيما قاله بلسانه.

فمثلاً إذا دعوت وقلت: «اللَّهُمَّ أَنْتَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ خَلَقْتَنِي وَأَنَا عَبْدُكَ، وَأَنَا عَلَىٰ عَهْدِكَ وَوَعْدِكَ مَا اسْتَطَعْتُ، أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا صَنَعْتُ...»^(١)، يعني: توسَّلت بأنك ملتزم بعهد الله ووعدته ما استطعت، فذلك من الأسباب.

كذلك إذا قلت: أسألك أن ترزقني عملاً صالحاً أكون به محبوباً لك، وما أشبه ذلك، هذه أدعية نبوية وأدعية فيها توسُّل بأعمال صالحة ودعاء بالأعمال الصالحة أو بالتوفيق لها.

ولم يرد عن السلف - رحمهم الله - أنهم قالوا في دعائهم: أسألك بحق فلان، أو بحق عبد القادر، أو بحق السيد البدوي، أو بحق ابن عباس، أو ما أشبه ذلك. أما ما ورد من توسُّل عمر بالعباس - رضي الله عنهما - والذي كثيراً ما يستدلُّ به القبوريون، فيقولون: كيف تعيينون علينا أن نتوسَّل بالصالحين، وهذا عمر توسَّل بالعباس؟ نقول: تأملوا قصة عمر رضي الله عنه حتى تعرفوا ما فعله وما فعلتموه،

(١) أخرجه البخاري (٦٣٠٦) من حديث شداد بن أوس رضي الله عنه.

والفرق الكبير بين فعلكم وفعله .

فعمرو رضي الله عنه لما أصابه الجذب، كان العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه: أولاً: كبير السن، وثانياً: تقياً زاهداً، وثالثاً: قريب الصلة بالنبي صلى الله عليه وسلم، فلأجل هذه الأسباب قدّمه ليدعو، فقال عمر: «اللَّهُمَّ إِنَّا كُنَّا إِذَا أَجَدَبْنَا نَتَوَسَّلُ إِلَيْكَ بِنَبِيِّنَا فَتَسْقِينَا، وَإِنَّا نَتَوَسَّلُ إِلَيْكَ بِعَمِّ نَبِيِّنَا»، يعني: نتوسّل بدعائه، هو حيّ بين أيديهم، وقدّموه ليؤمّنوا على دعائه، وليسأل الله تعالى، فكأنهم يقولون: اللَّهُمَّ تَقَبَّلْ دَعَاءَهُ، فَإِنَّهُ مِنْ عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ.

وهذا يجوز في كل حال وفي كل وقت، فإذا خرجنا مثلاً نستسقي، ونطلب الغيث، جاز لنا أن نختار أتقانا ونقدّمه، ونأمره بأن يدعو، ونؤمّن على دعائه، فإنه أولى وأقرب إلى إجابة دعائنا، ونقول: يا ربنا، هذا عبدك الصالح قدّمناه، ونحن نؤمّن على دعائه، نسألك أن تحيّب دعوته لنا، نسألك أن ترحمنا بدعائه وبدعائنا، هذا ليس فيه محذور.

هؤلاء القبوريّون يتوسّلون بالأموات، فلو كان جائزاً لما عدل عمر رضي الله عنه إليه عن النبي صلى الله عليه وسلم، ولا عن أبي بكر رضي الله عنه، كيف يعدل عنها وهما أفضل من العباس رضي الله عنه، ولما عدل عنها إلى العباس رضي الله عنه دلّ أنّه استقرّ في علمه أنّه لا يجوز التوسّل بالأموات، ولا بالغائبين، حتى ولو كانوا أنبياء أو أولياء، أو شهداء أو صالحين. ومعلوم أن حمزة بن عبد المطلب أفضل من العباس، وأقدم منه إسلاماً، وقُتل شهيداً في سبيل الله، وهو مقبورٌ عندهم بالمدينة، فلماذا لم يذهبوا إلى قبره؟ ولماذا لم يتوسّلوا به ويقولون: نتوسّل إليك بحمزة بن عبد المطلب؟ ولماذا لم يأتوا إلى قبر

النبي ﷺ ويقولوا: يا محمد، استسقى لنا؟!!

فإذا لا دلالة في أنه يجوز الاستسقاء بالولي الميت، أو الولي الغائب، بخلاف الحي السوي الحاضر، الذي يدعو ويؤمنون على دعائه، ويسألون ربهم أن يجيب دعاءهم معه، فهذا لا محذور فيه، وهو الذي فعله عمر مع العباس رضي الله عنها.

وقد رأينا وقرأنا لكثير من القبورين الذين يؤيدون دعاء المخلوق أو التوسل بالمخلوق الميت، كالنبهاني مثلاً في كتابه الذي يُسمى «شواهد الحق»، وكذلك ابن علوي المالكي، وغيرهم الذين يوالون في دعاء الأموات، أو يزيّنونه؛ يقولون: إن عمر رضي الله عنه عدل عن النبي ﷺ مخافة أنهم إذا لم يجابوا بدعائه وتوسله يسوء ظنهم فيه، ويكذبونه، ويدعون أنه لا يستجاب دعاؤه، ويدعون أنه لا ينفع التوسل به، وما أشبه ذلك من التلفيقات، هكذا يتعلل النبهاني ومن شاكله، ونقول لهم: إذا كان كذلك في عهد عمر، فلماذا لا يكون هذا في عهدكم؟ لماذا لا تعدلون عنه؟ لماذا تعدلون عن الأحياء إلى الأموات؟ ألا تخافون أنكم إذا طلبتم النبي ولم يُستجب دُعاؤكم، أن الناس وكذلك العامة سيئثرون الظن بالنبي ﷺ، ويقولون: إنه لا يستجاب دُعاؤه؟ فإذا كان محذوراً في عصر عمر رضي الله عنه فهو محذور في عهدكم. وعلى كل حال، فلا يُغترّ بما يلقونه مما يستدلون به على أنه يجوز دعاء الأموات، أو التوسل بهم، أو الاستشفاع بهم، ويستدلون بهذه ولا دلالة فيها.

قال الشارح:

وَكَذَلِكَ السُّؤَالُ بِالشَّيْءِ، قَدْ يُرَادُ بِهِ التَّسَبُّبُ بِهِ، لِكَوْنِهِ سَبَبًا فِي حُصُولِ
المَطْلُوبِ، وَقَدْ يُرَادُ بِهِ الإِفْسَامُ بِهِ.

وَمِنَ الأوَّلِ: حَدِيثُ الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ أَوْوَأَ إِلَى الغَارِ، وَهُوَ حَدِيثٌ مَشْهُورٌ فِي
«الصَّحِيحَيْنِ»^(١) وَغَيْرِهِمَا، فَإِنَّ الصَّخْرَةَ انْطَبَقَتْ عَلَيْهِمْ، فَتَوَسَّلُوا إِلَى اللَّهِ بِذِكْرِ
أَعْمَالِهِمُ الصَّالِحَةِ الخَالِصَةِ، وَكُلٌّ وَاحِدٌ مِنْهُمْ يَقُولُ: فَإِنْ كُنْتُ فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتِغَاءً
وَجْهَكَ فَافْرُجْ عَنَّا مَا نَحْنُ فِيهِ، فَانْفَرَجَتِ الصَّخْرَةُ فَخَرَجُوا يَمْسُحُونَ. فَهَؤُلَاءِ:
دَعَا اللَّهُ بِصَالِحِ الأَعْمَالِ؛ لِأَنَّ الأَعْمَالَ الصَّالِحَةَ هِيَ أَعْظَمُ مَا يَتَوَسَّلُ بِهِ العِبْدُ إِلَى
اللَّهِ، وَيَتَوَجَّهُ بِهِ إِلَيْهِ، وَيَسْأَلُهُ بِهِ؛ لِأَنَّهُ وَعَدَ أَنْ يَسْتَجِيبَ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا
الصَّالِحَاتِ وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ.

فَالْحَاصِلُ: أَنَّ الشَّفَاعَةَ عِنْدَ اللَّهِ لَيْسَتْ كَالشَّفَاعَةِ عِنْدَ البَشَرِ، فَإِنَّ الشَّفِيعَ
عِنْدَ البَشَرِ كَمَا أَنَّهُ شَافِعٌ لِلطَّالِبِ شَفَعَهُ فِي الطَّلِبِ، بِمَعْنَى أَنَّهُ صَارَ شَفِيعًا فِيهِ بَعْدَ أَنْ
كَانَ وَتَرًا، فَهُوَ أَيْضًا قَدْ شَفَعَ المَشْفُوعَ إِلَيْهِ، وَبِشَفَاعَتِهِ صَارَ فَاعِلًا لِلْمَطْلُوبِ، فَقَدْ
شَفَعَ الطَّالِبَ وَالمَطْلُوبَ مِنْهُ، وَاللَّهُ تَعَالَى وَتَرٌ، لَا يَشْفَعُهُ أَحَدٌ، فَلَا يَشْفَعُ عِنْدَهُ أَحَدٌ
إِلَّا بِإِذْنِهِ، فَالْأَمْرُ كُلُّهُ إِلَيْهِ، فَلَا شَرِيكَ لَهُ بِوَجْهِهِ.

فَسَيِّدُ الشَّفَاعَةِ يَوْمَ القِيَامَةِ إِذَا سَجَدَ وَحَمِدَ اللَّهَ تَعَالَى، فَقَالَ لَهُ اللَّهُ:
«ارْفَعْ رَأْسَكَ، وَقُلْ يُسْمَعُ، وَاسْأَلْ تُعْطَى، وَاشْفَعْ تُشْفَعُ، فَيَحُدُّ لَهُ حَدًّا فَيُنْزِلُ خَلْفَهُمْ

(١) أخرجه البخاري (٢٢١٥)، ومسلم (٢٧٤٣) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

الْجَنَّةِ»^(١)، فَالْأَمْرُ كُلُّهُ لِلَّهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ﴾ [آل عمران: ١٥٤]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ [آل عمران: ١٢٨]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤]، فَإِذَا كَانَ لَا يَشْفَعُ عِنْدَهُ أَحَدٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ لِمَنْ يَشَاءُ، وَلَكِنْ يُكْرِمُ الشَّفِيعَ بِقَبُولِ شَفَاعَتِهِ، كَمَا قَالَ ﷺ: «اشْفَعُوا تُوجَرُوا، وَيَقْضِي اللَّهُ عَلَى لِسَانِ نَبِيِّهِ مَا يَشَاءُ»^(٢).

وَفِي «الصَّحِيحِ»^(٣) أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «يَا بَنِي عَبْدِ مَنَافٍ، لَا أَمْلِكُ لَكُمْ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا، يَا صَفِيَّةُ يَا عَمَّةَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا، يَا عَبَّاسُ عَمَّ رَسُولِ اللَّهِ، لَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا».

وَفِي «الصَّحِيحِ»^(٤) - أَيْضًا - عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: «لَا أُلْفِينَ أَحَدَكُمْ يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رَقَبَتِهِ بَعِيرٌ لَهُ رُغَاءٌ، أَوْ شَاةٌ لَهَا يُعَارٌ، أَوْ رِقَاعٌ تَخْفُقُ، فَيَقُولُ: أَغَشِنِي أَغَشِنِي، فَأَقُولُ: قَدْ أَبْلَغْتُكَ، لَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ».

فَإِذَا كَانَ سَيِّدُ الْخَلْقِ وَأَفْضَلُ الشَّفَعَاءِ يَقُولُ لِأَخْصَى النَّاسِ بِهِ: لَا أَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ، فَمَا الظَّنُّ بغيره؟ وَإِذَا دَعَاهُ الدَّاعِي، وَشَفَعَ عِنْدَهُ الشَّفِيعُ، فَسَمِعَ الدُّعَاءَ، وَقَبِلَ الشَّفَاعَةَ، لَمْ يَكُنْ هَذَا هُوَ الْمُؤَثِّرُ فِيهِ كَمَا يُؤَثِّرُ الْمُخْلُوقُ فِي الْمُخْلُوقِ،

(١) تقدم تخرجه (٢/٣٦٧).

(٢) أخرجه البخاري (١٤٣٢)، ومسلم (٢٦٢٧) من حديث أبي موسى الأشعري ﷺ.

(٣) أخرجه البخاري (٢٧٥٣)، ومسلم (٣٠٤) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٤) أخرجه البخاري (٣٠٧٣)، ومسلم (١٨٣١) من حديث أبي هريرة ﷺ.

فَإِنَّهُ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - هُوَ الَّذِي جَعَلَ هَذَا يَدْعُو وَيَشْفَعُ، وَهُوَ الْخَالِقُ لِأَفْعَالِ الْعِبَادِ، فَهُوَ الَّذِي وَفَّقَ الْعَبْدَ لِلتَّوْبَةِ ثُمَّ قَبِلَهَا، وَهُوَ الَّذِي وَفَّقَهُ لِلْعَمَلِ ثُمَّ أَنَابَهُ، وَهُوَ الَّذِي وَفَّقَهُ لِلدُّعَاءِ ثُمَّ أَجَابَهُ، وَهَذَا مُسْتَقِيمٌ عَلَى أَصُولِ أَهْلِ السُّنَّةِ الْمُؤْمِنِينَ بِالْقَدَرِ، وَأَنَّ اللَّهَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ.

قال الشيخ:

الكلام الأول يتعلق بقول الإنسان أسألك بكذا، فإذا كان الذي سألت به عملاً صالحاً فهو وسيلة، والله تعالى قد أمر بها، قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَأَبْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾ [المائدة: ٣٥]، أي: اجعلوا بينكم وبينه وسيلة، والوسيلة: ما يوصل إليه، وقد فسرت بأنها الأعمال الصالحة، يتوصل بها العبد إلى ثواب ربه وعظيم أجره.

فإذا أنت تقول - مثلاً -: أسألك ياربِّ بحقِّ أعمالي، أو بحقِّ إيماني، أو بحقِّ تصديقي، فتجعل ذلك وسيلة تُقربك إلى رضى الله، فهذا جائز، وإذا قلت - مثلاً -: أسألك بإيماني بنبيك، أو بمحبتتي لك، أو بمحبتتي لعبادك الصالحين، فأنت تتوسل بأعمالك الصالحة، فهذا أيضاً توسل بأعمالٍ صالحةٍ عملتها تكون سبباً في فوزك وسعادتك. أما إذا توسلت بمخلوقٍ بأن قلت: أسألك بحقِّ عبدك، أو بحقِّ رسولك، أو بشرفي، أو بحقِّ آبائي أو أجدادي أو أسلافي، فهذا توسل بمخلوق وهو غير جائز.

ومن التوسل بالأعمال الصالحة ما ورد من قصة الثلاثة الذين أذاهم المبيت إلى غار، فانحدرت صخرة، فسدت باب الغار عليهم، فعرفوا أنهم لا ينجيهم إلا التوسل بأعمالهم الصالحة، ودعاء الله، فتوسلوا، توسل أحدهم ببرّ والديه، لكونه باراً بوالديه، وقال بعد ذلك: «اللهم إن كنت تعلم أني فعلت ذلك ابتغاء وجهك»، يعني: مخلصاً لك، «فافرّج عنا فرجة نرى منها السماء»، فانفرجت الصخرة، غير أنهم لا يستطيعون الخروج.

وتوسل الثاني بعفاه؛ لكونه تمكن من فعل الحرام، ولكنه تركه خوفاً من الله، وذهب ما دفعه من المال، وقال بعد ذلك: «فإن كنت تعلم أني فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرّج عنا فرجة»، فانفرجت الصخرة قليلاً.

وتوسل الثالث بأمانته وبكونه مؤتمناً على مال غيره، فلم يأخذ من أجره ذلك الأجير شيئاً، بل نهاها له ودفعها إليه، وذلك دليل الأمانة، وقال: «اللهم إن كنت تعلم أني فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرّج عنا»، فانفرجت الصخرة وخرجوا يمشون، فهو لاء الثلاثة أجاب الله تعالى دعاءهم لما توسلوا بأعمالهم الصالحة، ولم يقولوا نسألك بحق أوليائك، أو: نسألك بحق عبدك فلان. مع أن بينهم عبادة صالحون، ورسول وأنبياء، كموسى وعيسى وأيوب وهارون عليهم السلام، فما سألوا الله إلا بحق أعمالهم، فيجوز أن تسأل الله بإيمانك وبتصديقك، وما أشبه ذلك، هذا هو التوسل المطلوب أو التوسل المشروع، وأما التوسل بحق مخلوق أو بجاه مخلوق - ولو كان نبياً أو ولياً - فهو ممنوع، وهو من وسائل الشرك.

والحاصل: أن الشفاعة ملك لله كما عرفنا، وإذا كانت ملكاً لله، فلا تطلب

من مخلوق، لا تُطلب من النبی ﷺ ولا غیره، فنبینا ﷺ هو سید الشفعاء، ومع ذلك لا یشفع أولاً حتى یستأذن علی ربه فیسجد، ویطیل سجوده، فیقال له: «ارفع رأسک، وَقُلْ تُسْمِعْ، وَوَسَلْ تُعْطَى، وَاشْفَعْ تُشْفَعُ»؛ فیدأ بحمد الله کما تقدم فی حدیث أنس رضی الله عنه ^(١)؛ یحمده بمحامد یفتحها الله علیه، فذلك لا شک أنه لأجل أن یمجد ربه، فیدأ بتمجید الله تعالی حتى یأذن له.

وقد أورد الشارح الأدلة التي تدل علی أن الملك ملک الله، وأنه - علیه الصلاة والسلام - مع ما خصه به لیس له ملک، ولیس له تصرف.

ومن ذلك: الاستدلال بقوله سبحانه وتعالی: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ [آل عمران: ١٢٨]، نزلت لما أنه ﷺ سُجَّ وجهه يوم أحد، وكسرت ربايته وهشمت البيضة على رأسه، یعنی: الترس، فقال: «كَيْفَ يُفْلِحُ قَوْمٌ شَجُّوا نَبِيَّهُمْ»، فنزلت: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ ^(٢)، یعنی: أن الأمر لیس لك، وإذا لم یكن له من الأمر شيء في الدنيا، فكذلك الأمر في الآخرة.

وكذلك قوله تعالی - في الآية الثانية - ردًا على المنافقين الذين قالوا للنبي ﷺ: ﴿هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ﴾، قال الله تعالی: ﴿قُلْ إِنْ أَمَرَ كَلَهُ اللَّهُ﴾ [آل عمران: ١٥٤]. الأمر كله لله؛ لیس لمحمد رضی الله عنه، ولا لحسن، ولا لعيس، وروس، ولا لغيرهم من المخلوقين، وإذا كان لله، فليطلب ممن هو له.

(١) تقدم تخريجه (١/٦٢٢).

(٢) أخرجه مسلم (١٧٩١) من حدیث أنس بن مالك رضی الله عنه.

كذلك الاستدلال بهذه الأحاديث في أن النبي ﷺ لا يُغني عن أقاربه شيئاً، يقول في هذا الحديث للعباس، وفاطمة، وصفية، رضي الله عنهم، ولبني هاشم وبني عبد مناف: «يا بني عبد منافٍ لا أُغني عنكم من الله شيئاً، يا عباسُ بن عبدالمطلب لا أُغني عنك من الله شيئاً، ويا صفيةُ عمّة رسول الله لا أُغني عنك من الله شيئاً، ويا فاطمةُ بنت محمدٍ سَليني ما شئت من مالي لا أُغني عنك من الله شيئاً»^(١)، إذا كان لا يغني عنهم من الله شيئاً، وإذا كان لا يملك شيئاً لعمته، ولا لعمته، ولا لأعمام أبيه، ولا لأبناء أعمامه، ولا لابنته، وأن الملك كله لله، فكيف يُطلب، وكيف يُدعى؟! وإذا بطل هذا في حق النبي ﷺ، فكيف بالعباس؟ وكيف بعلي؟ وكيف بابن عباس رضي الله عنهم؟ وكيف بفلان وفلان ممن هم دونه ودونهم في المراتب؟

إن الملك لله، وطلب الشفاعة، وطلب الوسيلة، وطلب العبادة، وطلب الملك كله من الله، فإذا طلب العبد من ربه، عند ذلك أجاب الله تعالى دعوته.

(١) تقدم تحريجه (٢/٣٩٨).

قال الطحاوي:

وَالْمِيثَاقُ الَّذِي أَخَذَهُ اللَّهُ تَعَالَى مِنْ آدَمَ وَذُرِّيَّتِهِ حَقٌّ.

قال الشارح:

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رِبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ

أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ﴿١٧٢﴾ [الأعراف: ١٧٢]، أَخْبَرَ سُبْحَانَهُ أَنَّهُ اسْتَخْرَجَ ذُرِّيَّةَ بَنِي آدَمَ مِنْ أَصْلَابِهِمْ شَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَنَّ اللَّهَ رَبُّهُمْ وَمَلِيكُهُمْ، وَأَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ. وَقَدْ وَرَدَتْ أَحَادِيثٌ فِي اخْتِذِ الذُّرِّيَّةِ مِنْ صُلْبِ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَتَمْيِيزِهِمْ إِلَىٰ أَصْحَابِ الْيَمِينِ وَإِلَىٰ أَصْحَابِ الشِّمَالِ، وَفِي بَعْضِهَا الْإِشْهَادُ عَلَيْهِمْ بِأَنَّ اللَّهَ رَبُّهُمْ:

فَمِنْهَا: مَا رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ^(١) عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - عَنِ النَّبِيِّ

ﷺ، قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ أَخَذَ الْمِيثَاقَ مِنْ ظَهْرِ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِنِعْمَانَ - يَعْنِي: عِرْقَةَ - فَأَخْرَجَ

مِنْ صُلْبِهِ كُلَّ ذُرِّيَّةٍ ذَرَأَهَا، فَتَرَهَا بَيْنَ يَدَيْهِ، ثُمَّ كَلَّمَهُمْ قُبْلًا، قَالَ: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ

قَالُوا بَلَىٰ﴾، إِلَىٰ قَوْلِهِ: ﴿الْمُبْطِلُونَ﴾. وَرَوَاهُ النَّسَائِيُّ^(٢) أَيْضًا، وَابْنُ جَرِيرٍ^(٣)

(١) في المسند (١/ ٢٧٢).

(٢) في الكبرى (١١١٢٧).

(٣) في تفسيره (١١/ ٩).

وَأَبْنُ أَبِي حَاتِمٍ^(١)، وَالْحَاكِمُ فِي الْمُسْتَدْرَكِ^(٢)، وَقَالَ: «صَحِيحُ الْإِسْنَادِ وَلَمْ يُجْرَجَاهُ». وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ^(٣) أَيْضًا عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رضي الله عنه: أَنَّهُ سُئِلَ عَنْ هَذِهِ الْآيَةِ، فَقَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم سُئِلَ عَنْهَا، فَقَالَ: «إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، ثُمَّ مَسَحَ ظَهْرَهُ بِيَمِينِهِ فَاسْتَخْرَجَ مِنْهُ ذُرِّيَّةً، قَالَ: خَلَقْتُ هَؤُلَاءِ لِلْجَنَّةِ وَبِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ يَعْمَلُونَ، ثُمَّ مَسَحَ ظَهْرَهُ، فَاسْتَخْرَجَ مِنْهُ ذُرِّيَّةً قَالَ: خَلَقْتُ هَؤُلَاءِ لِلنَّارِ وَبِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ يَعْمَلُونَ»، فَقَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَفِيمَ الْعَمَلُ؟ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: «إِنَّ اللَّهَ - عَزَّ وَجَلَّ - إِذَا خَلَقَ الْعَبْدَ لِلْجَنَّةِ اسْتَعْمَلَهُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ، حَتَّى يَمُوتَ عَلَى عَمَلٍ مِنْ أَعْمَالِ أَهْلِ الْجَنَّةِ، فَيَدْخُلَ بِهِ الْجَنَّةَ، وَإِذَا خَلَقَ الْعَبْدَ لِلنَّارِ اسْتَعْمَلَهُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ، حَتَّى يَمُوتَ عَلَى عَمَلٍ مِنْ أَعْمَالِ أَهْلِ النَّارِ فَيَدْخُلَ بِهِ النَّارَ». وَرَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ^(٤)، وَالتِّرْمِذِيُّ^(٥)، وَالنَّسَائِيُّ^(٦)، وَأَبْنُ أَبِي حَاتِمٍ^(٧)، وَأَبْنُ جَرِيرٍ^(٨)، وَأَبْنُ حِبَّانٍ فِي صَحِيحِهِ^(٩).

(١) في تفسيره (١٦١٣/٥).

(٢) (٣٥٢/٢).

(٣) في المسند (٤٤، ٤٥).

(٤) برقم (٤٠٧٣).

(٥) برقم (٣٠٧٥).

(٦) في الكبرى (١١١٢٦).

(٧) في تفسيره (١٦١٢/٥).

(٨) في تفسيره (١١٣/٩).

(٩) (٣٧/١٤).

وَرَوَى التِّرْمِذِيُّ^(١) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَمَّا خَلَقَ اللَّهُ آدَمَ مَسَحَ عَلَى ظَهْرِهِ، فَسَقَطَ مِنْ ظَهْرِهِ كُلُّ نَسَمَةٍ هُوَ خَالِقُهَا مِنْ ذُرِّيَّتِهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَجَعَلَ بَيْنَ عَيْنَيْ كُلِّ إِنْسَانٍ مِنْهُمْ وَبَيْضًا مِنْ نُورٍ، ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى آدَمَ، فَقَالَ: أَيُّ رَبِّ، مَنْ هَؤُلَاءِ؟ قَالَ: هَؤُلَاءِ ذُرِّيَّتُكَ، فَرَأَى رَجُلًا مِنْهُمْ، فَأَعْجَبَهُ وَبَيْضَ مَا بَيْنَ عَيْنَيْهِ، فَقَالَ: أَيُّ رَبِّ، مَنْ هَذَا؟ قَالَ: هَذَا رَجُلٌ مِنْ آخِرِ الْأُمَّمِ مِنْ ذُرِّيَّتِكَ يُقَالُ لَهُ: دَاوُدُ، قَالَ: رَبِّ، كَمْ عُمُرُهُ؟ قَالَ: سِتُّونَ سَنَةً، قَالَ: أَيُّ رَبِّ، زِدْهُ مِنْ عُمُرِي أَرْبَعِينَ سَنَةً، فَلَمَّا انْقَضَى عُمُرُ آدَمَ، جَاءَ مَلَكُ الْمَوْتِ، قَالَ: أَوْلَمْ يَبْقَ مِنْ عُمُرِي أَرْبَعُونَ سَنَةً؟ قَالَ: أَوْلَمْ تُعْطِهَا ابْنَكَ دَاوُدُ؟ قَالَ: فَجَحَدَ فَجَحَدَتْ ذُرِّيَّتُهُ، وَنَسِيَ آدَمَ، فَنَسِيَتْ ذُرِّيَّتَهُ، وَخَطِيءَ آدَمَ، فَخَطِئَتْ»، ثُمَّ قَالَ التِّرْمِذِيُّ: «هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ». وَرَوَاهُ الْحَاكِمُ^(٢) وَقَالَ: «صَحِيحٌ عَلَى شَرْطِ مُسْلِمٍ وَلَمْ يُخَرِّجَاهُ».

وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ^(٣) أَيْضًا عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: «يُقَالُ لِلرَّجُلِ مِنَ أَهْلِ النَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: أَرَأَيْتَ لَوْ كَانَ لَكَ مَا عَلَى الْأَرْضِ مِنْ شَيْءٍ، أَكُنْتَ مُفْتَدِيًا بِهِ؟ قَالَ: فَيَقُولُ: نَعَمْ، قَالَ: فَيَقُولُ: قَدْ أَرَدْتُ مِنْكَ أَهْوَنَ مِنْ ذَلِكَ، قَدْ أَخَذْتُ عَلَيْكَ فِي ظَهْرِ آدَمَ أَنْ لَا تُشْرِكَ بِي شَيْئًا فَأَبَيْتَ إِلَّا أَنْ تُشْرِكَ بِي شَيْئًا».

(١) برقم (٣٠٧٨).

(٢) في المستدرک (١/٦٤).

(٣) في المسند (٣/١٢٧).

وَأَخْرَجَاهُ فِي «الصَّحِيحَيْنِ»^(١) أَيْضًا.
 وَفِي ذَلِكَ أَحَادِيثُ أُخْرُ أَيْضًا كُلُّهَا دَالَّةٌ عَلَى أَنَّ اللَّهَ اسْتَخْرَجَ ذُرِّيَّةَ آدَمَ مِنْ
 صُلْبِهِ، وَمَيَّزَ بَيْنَ أَهْلِ النَّارِ وَأَهْلِ الْجَنَّةِ.

قال الشيخ:

يؤمن أهل السنة بالميثاق الذي ذكره الله تعالى في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ نَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَنُهَلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾﴾ [الأعراف: ١٧٢، ١٧٣]، فهاتان الآيتان فيهما أن الله أخذ من ظهور بني آدم ذريتهم.

وقد اختلف في المراد بالذرية المأخوذون، هل هم مأخوذون من ظهر كل إنسان، أو كلهم من آدم؟ ظاهر الآية أنهم من ظهور بني آدم: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ﴾، أي: أخرج من كل إنسان ذريته، ثم كلمهم وخاطبهم وقال: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾، ويكون هذا هو الفطرة التي فطر الله عليها الخلق، كما في قوله تعالى: ﴿فَطَرَتِ اللَّهُ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾ [الروم: ٣٠]، وكما في قول النبي ﷺ: «ما من مولودٍ إلا يُولدُ على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه».

(١) أخرجه البخاري (٣٦٣٤)، ومسلم (٢٨٠٥).

يُمَجِّسَانِهِ، كَمَا تُنْتَجُ الْبَيْهَمَةُ بِبَيْمَةٍ جَمْعَاءَ، هَلْ تُحْسِنُونَ فِيهَا مِنْ جَدْعَاءَ»^(١). فأخبر أنَّ الآدمي يولد على الفطرة، وإنَّما تتغيَّر فطرته بسبب ما يتلقَّاه من أبويه، أو من أقاربه، أو من بيئته ومن ينشأ بينهم، وإلَّا فلو تُرِكَ كُلُّ أَحَدٍ عَلَى فِطْرَتِهِ؛ لَعَرَفَ مَا خُلِقَ لَهُ، وَلَعَرَفَ أَنَّ لَهُ رَبًّا، وَلَعَرَفَ أَنَّهُ مُكَلَّفٌ، وَلَبِحَثٌ بَعْدَ ذَلِكَ عَنِ التَّكْلِيفِ الَّتِي أُمِرَ بِهَا.

ويؤيِّد هذا أنَّ الفطرة هي الخلق والابتداع، كما في قوله تعالى:

﴿فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَكِ رُسُلًا﴾ [فاطر: ١]. فاطرها: يعني: منشئها ومبدعها وموجدها، فالله تعالى هو الذي فطر الخلق، وابتدأ خلقهم، وأوجدهم على غير مثال سبق، فلمَّا فطرهم على هذا كانوا بذلك مستعدِّين لمعرفته ولمعرفة ما خُلِقُوا لَهُ، وَلَكِنْ صَرَفْتَهُمُ الصَّوَارِفَ وَصَدَّتْهُمْ الصَّدُودُ، وَاجْتَنَبْتَهُمُ الْأَهْوَاءَ وَالْأَدْيَانَ الْبَاطِلَةَ الَّتِي تَلَقَّوْهَا، هَذَا قَوْلٌ فِي هَذِهِ الْآيَةِ.

صحيح أن الله تعالى جعل للإنسان عقلاً وفكراً، وبدون هذا العقل والفكر يسقط عنه التكليف، فيما دام أنَّ معه فطرته ومعها عقليته، فإنَّه مكلف، حتى ولم تأت الشريعة، حتى ولو لم يسمع بها، ولكنه إذا نشأ عاقلاً عرف أنَّه ليس بمهمِّل، وأنَّ هذا الكون كلُّه لا بدَّ له من موجد، وأنَّ الذي أوجده لا بدَّ له من حقوق على عباده، فيبحثُ بعد ذلك، ولما كانت الفطرة والعقليات لا يمكن أن تفصلَ الحقوق، فالله سبحانه بعث الرسل، وأنزل الكتب، ليبينَ تلك الحقوق، فكأنَّه

(١) تقدم تخريجه (١/١٩٩).

يقول: أنتم بفطرَكم وبعقولكم تعرفون أنكم مخلوقون، وأن لكم خالقًا، وأنَّ لخالقكم عليكم حقوقًا، ولكن هذه الحقوق نحن نبيِّنها لكم ونفصلُها، فنقول: من حقوق الله كذا، ومن ما أمركم به كذا، ومن ما نهاكم عنه ذلك، فامثلوا، وإذا امتثلتم فإنَّ لكم الثواب على كذا، وإذا لم تمتثلوا بل خالفتم، فإنَّ عليكم العقاب. هذه وظيفة الرّسل؛ جاؤوا مبينين لما في فطرة الإنسان، ولما في عقلية من العلوم، ومفصلين لها.

وهذا قول من الأقوال في هذه الآية.

وقد دلَّت الأدلّة على أن الله سبحانه جعل للإنسان معرفة ليدرك ما أمامه وما خلفه، ولكن تلك الأدلة تتغيّر بتغيّر ما يفسدها وما ييازجها؛ إما من العلوم، وإما من الأعمال، وإما من الأشخاص.

فكثير من العلوم تصرف الفطرة حتى يُرى الحسن قبيحًا، والقبيح حسنًا، وكثير من المجتمعات والمخالطات تصرف الفطرة، يفسد عليه زملاؤه وأخلاقه وإخوته ومعاشروه، يفسد عليه عقله وفطرته، فتتقص معرفته، ويبقى لا يعرف إلا ما يألفه، لا يعرف أن الخير خير، ولا أن الشرُّ شرٌّ، فيستحسن القبيح، ويستقبح الحسن، وكثير من الشبهات التي يروّجها أهلها تُفسد الفطرة أيضًا، فينقلبُ فيها الحقُّ باطلاً، والباطل حقًا، ولو سلم النَّاس من هذه الأشياء لبقوا على فطرتهم، وعلى هذه فيقال: إنَّ دين الإسلام هو دين الفطرة، وهو الدين الذي تشهد العقول السليمة بحسنه وملائمته، ولأجل ذلك قال ابن كثير - رحمه الله -: «وجاءت شريعته أكمل شريعة، لم يبق معروف تعرف العقول أنه

معروف إلا أمر به، ولا منكر تعرف العقول أنه منكر إلا نهى عنه، لم يأمر بشيء فقيل ليته لم يأمر به، ولا نهى عن شيء فقيل ليته لم ينه عنه»^(١).

وذهب بعض المبتدعة إلى أن العقل له دخلٌ في التحسين والتقييح، وجعلوه مقدّمًا على الشرع، وهذا قولٌ خطأ، ولو قيل بالتحسين والتقييح العقلين، ولكن لا دخل للعقل فيما يخالف الشرع، فإذا جاء الشرع وجاءت النصوص قُدّمت النصوص على ما تستحسنه العقول، مهما كانت تلك العقول، فليس للعقل مدخل ما دام أن الشرع وجد ناصبًا على حكم من الأحكام، فيقدّم حكم الشرع على جميع العقول، ومع ذلك فإن العقول الصريحة لا يمكن أن تخالف النصوص والأدلة الواضحة الصحيحة، وابن تيمية - رحمه الله - له في ذلك كتاب مشهور سمّاه: «موافقة صحيح المنقول لصريح المعقول»، صحيح المنقول: يعني الأحاديث والأدلة الصحيحة، وصريح المعقول: يعني العقول السليمة، أي: أن العقول السليمة لا تخالف النقول الصحيحة.

أمّا القول الثاني: وهو ما ذكر في هذه الأحاديث، فهو قول من الأقوال في معنى الآية، وإن كانت الآية بينها وبينه نوع مخالفة، فهو ينصّ في هذه الأحاديث على أن الله تعالى لمّا خلق آدم مسح ظهره، واستخرج منه كل نسمة هو خالقها إلى يوم القيامة، فالله تعالى قادر على كل شيء ولا يعجزه شيء، ولما استخرجهم عرضهم على آدم، فعرفهم وأخبرهم بأنهم ذريته، وأتهم من سوف يُخلق من

(١) انظر: البداية والنهاية (٦/٧١، ٧٢).

صلبه، وأصلاب أبنائه إلى يوم القيامة، وفي بعض الروايات أن الله استخرج أهل الخير، وقال: «خَلَقْتُ هَؤُلَاءِ لِلْجَنَّةِ وَيَعْمَلُ أَهْلُ الْجَنَّةِ يَعْمَلُونَ»، واستخرج أهل الشر، وقال: «خَلَقْتُ هَؤُلَاءِ لِلنَّارِ وَيَعْمَلُ أَهْلُ النَّارِ يَعْمَلُونَ»، فمَيَّز - وهم في صُلب آدم - بَيَّن من هم سعداء ومن هم أشقياء، وعلم أهل الجنة من أهل النار، وعلم من يعمل لهذه ومن يعمل لصدِّها.

وأشكَل ذلك على بعض الصحابة، فقال: مادام أن الله قد كتب علينا ونحن في صلب أينا من هو من أهل الجنة، ومن هو من أهل النار، فلماذا نعمل؟ لا بد أن نكون إلى ما كتب لنا! فأخبره النبي ﷺ بأنكم مكلفون ومأمورون بالعمل، والله تعالى هو الذي يوفق كل إنسان لما خلقه له، ولما كتبه عليه قبل أن يخلقه.

وفي رواية^(١): قرأ قول الله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَانْفَكَى ۖ ﴿٥﴾ وَصَدَقَ بِالْحَسَنَى ﴿٦﴾

فَسَنِّيْرَهُ لِلْيَسْرَى ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِالْحَسَنَى ﴿٩﴾ فَسَنِّيْرَهُ لِلْعُسْرَى ﴿١٠﴾

[الليل: ٥-١٠]. أهل الخير ييسرون لعمل يكونون به سعداء، وأهل الشر يخذلهم ويصرفهم فيعملون بعمل أهل الشر وأهل الشقاوة والعياذ بالله، ولكن مع ذلك كلّه فإنهم مأمورون ومنهينون، مكلفون بأن يمثلوا هذا الفعل وبأن يتركوا هذا الفعل، ويكونون إذا فعلوا ذلك مطيعين، وإذا لم يفعلوه عصاة.

على كل حال لا يستبعد أن الله سبحانه عندما خلق آدم أخرج ذريته كالذرّ لا يحصي عددهم إلا الله، كل من على وجه الأرض اليوم، وكل من على وجه

(١) أخرجه البخاري (٤٩٤٧)، ومسلم (٢٦٤٧) من حديث علي عليه السلام.

الأرض فيما سبق، وكل من على وجه الأرض فيما بعد، قد علم الله تعالى عددهم وأعمارهم، وكتب آجالهم، وعرف أوقاتهم، كما في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [الحج: ٧٠]، وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مَنْ خَلَقَهُ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤]، وكما في قوله: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحديد: ٢٢].
وكما أخبر النبي ﷺ: «أَوَّلُ مَا خَلَقَ اللَّهُ تَعَالَى الْقَلَمَ، قَالَ لَهُ: اكْتُبْ، فَجَرَى فِي تِلْكَ السَّاعَةِ بِمَا هُوَ كَاتِبٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ»^(١).

ما هو كاتِبٌ: يعني: من كل موجود، ومن كل من سوف يوجد، خلقهم وخلق أعمالهم، وعرف آجالهم، وعرف أزماتهم، فهو على كل شيء قدير، لا يعجزه شيء، ولا يعزب عن علمه مثقال ذرة، فيؤمن الإنسان بالأمرين: يؤمن بأن الله خلق الخلق، واستخرج ذرية آدم من قبل أن يوجد لهم، ويؤمن بأن كل إنسان رزق فطرة وعقلاً، يعرف به الخير ويعرف به الشر، وأن تلك الفطرة هي التي غيرت الأهواء والشهوات والانتهايات، إما بقيت على حالتها وقطرتها، وإما انحرفت وتغيرت، ولا يحمله ذلك على أن يعتمد على القضاء والقدر ويستسلم ويدع العمل، بل عليه أن يعمل، وكل مسر لما خلق له.

(١) تقدم تحريجه (١/٤٨١).

قال الشارح:

وَمِنْ هُنَا قَالَ مَنْ قَالَ: إِنَّ الْأَرْوَاحَ مَخْلُوقَةَ قَبْلَ الْأَجْسَادِ. وَهَذِهِ الْأَثَارُ لَا تَدُلُّ عَلَى سَبْقِ الْأَرْوَاحِ الْأَجْسَادَ سَبْقًا مُسْتَقَرًّا ثَابِتًا، وَغَايَتُهَا أَنْ تَدُلَّ عَلَى أَنَّ بَارئَهَا وَقَاطِرَهَا سُبْحَانَهُ صَوَّرَ النَّسْمَةَ وَقَدَّرَ خَلْقَهَا وَأَجَلَهَا وَعَمَلَهَا، وَاسْتَخْرَجَ تِلْكَ الصُّورَ مِنْ مَادَّتِهَا، ثُمَّ أَعَادَهَا إِلَيْهَا، وَقَدَّرَ خُرُوجَ كُلِّ فَرْدٍ مِنْ أَفْرَادِهَا فِي وَقْتِهِ الْمَقْدَرِ لَهُ، وَلَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهَا خُلِقَتْ خَلْقًا مُسْتَقَرًّا وَاسْتَمَرَّتْ مَوْجُودَةً نَاطِقَةً كُلِّهَا فِي مَوْضِعٍ وَاحِدٍ ثُمَّ يُرْسَلُ مِنْهَا إِلَى الْأَبْدَانِ جُمْلَةً بَعْدَ جُمْلَةٍ، كَمَا قَالَهُ ابْنُ حَزْمٍ. فَهَذَا لَا تَدُلُّ الْأَثَارُ عَلَيْهِ، نَعَمْ، الرَّبُّ سُبْحَانَهُ يَخْلُقُ مِنْهَا جُمْلَةً بَعْدَ جُمْلَةٍ، كَمَا قَالَهُ عَلَى الْوَجْهِ الَّذِي سَبَقَ بِهِ التَّقْدِيرُ أَوَّلًا، فَيَجِيءُ الْخَلْقُ الْخَارِجِيُّ مُطَابِقًا لِلتَّقْدِيرِ السَّابِقِ، كَشَأْنِهِ سُبْحَانَهُ فِي جَمِيعِ مَخْلُوقَاتِهِ، فَإِنَّهُ قَدَّرَ لَهَا أَقْدَارًا وَأَجَالَ، وَصِفَاتٍ وَهَيْئَاتٍ، ثُمَّ أَبْرَزَهَا إِلَى الْوُجُودِ مُطَابِقَةً لِذَلِكَ التَّقْدِيرِ السَّابِقِ.

فَالْأَثَارُ الْمَرْوِيَّةُ فِي ذَلِكَ إِنَّمَا تَدُلُّ عَلَى الْقَدْرِ السَّابِقِ، وَبَعْضُهَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ سُبْحَانَهُ اسْتَخْرَجَ أَمْثَلَهُمْ وَصُورَهُمْ، وَمَيَّزَ أَهْلَ السَّعَادَةِ مِنْ أَهْلِ الشَّقَاوَةِ.

وَأَمَّا الْإِشْهَادُ عَلَيْهِمْ هُنَا، فَإِنَّمَا هُوَ فِي حَدِيثَيْنِ مَوْفُوقَيْنِ عَلَى ابْنِ عَبَّاسٍ وَابْنِ عُمَرَ. رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا. وَمَنْ ثُمَّ قَالَ قَائِلُونَ مِنَ السَّلَفِ وَالْخَلْفِ: إِنَّ الْمُرَادَ بِهَذَا الْإِشْهَادِ إِنَّمَا هُوَ فِطْرَتُهُمْ عَلَى التَّوْحِيدِ، كَمَا تَقَدَّمَ فِي حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه. وَمَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿شَهِدْنَا﴾، أَي: قَالُوا: بَلَى شَهِدْنَا أَنَّكَ رَبُّنَا. وَهَذَا قَوْلُ ابْنِ عَبَّاسٍ وَأَبِي بِنِ كَعْبٍ. وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ أَيْضًا: أَشْهَدَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ. وَيُقِيلُ: شَهِدْنَا

مَنْ قَوْلِ الْمَلَائِكَةِ، وَالْوَقْفُ عَلَى قَوْلِهِ بَلَى. وَهَذَا قَوْلُ مُجَاهِدٍ وَالضَّحَّاكِ.
وَقَالَ السُّدِّيُّ أَيْضًا: هُوَ خَبَرٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى عَنْ نَفْسِهِ وَمَلَائِكَتِهِ أَنَّهُمْ شَهِدُوا عَلَى
إِقْرَارِ بَنِي آدَمَ^(١). وَالْأَوَّلُ أَظْهَرُ، وَمَا عَدَاهُ اِحْتِمَالٌ لَا دَلِيلَ عَلَيْهِ، وَإِنَّمَا يَشْهَدُ ظَاهِرُ
الْآيَةِ لِلأَوَّلِ.

وَاعْلَمَ أَنَّ مِنَ الْمَفْسِّرِينَ مَنْ لَمْ يَذْكُرْ سِوَى الْقَوْلِ بِأَنَّ اللَّهَ اسْتَخْرَجَ ذُرِّيَّةَ آدَمَ
مِنْ ظَهْرِهِ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ ثُمَّ أَعَادَهُمْ، كَالثَّلَعِيِّ وَالْبَعَوِيِّ وَغَيْرِهِمَا. وَهِنْهُمْ
مَنْ لَمْ يَذْكُرْهُ، بَلْ ذَكَرَ أَنَّهُ نَصَبَ لَهُمُ الْإِدْلَةَ عَلَى رُؤُوسِهِمْ وَوَحْدَانِيَّتِهِ وَشَهِدَتْ بِهَا
عُقُوبُهُمْ وَبَصَائِرُهُمُ الَّتِي رَكَّبَهَا اللَّهُ فِيهِمْ، كَالزُّحَّشِرِيِّ وَغَيْرِهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ ذَكَرَ
الْقَوْلَيْنِ، كَالْوَاحِدِيِّ وَالرَّازِيِّ وَالْقُرْطُبِيِّ وَغَيْرِهِمْ، لَكِنْ نَسَبَ الرَّازِيُّ الْقَوْلَ الْأَوَّلَ
إِلَى أَهْلِ السُّنَّةِ، وَالثَّانِيَّ إِلَى الْمُعْتَرِلَةِ.

قال الشيخ:

في هذه الأحاديث أو بعضها ما يفهم منه أن الله خلق الأرواح قبل الأجساد،
وأن الذي خاطبها: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾، هي الأرواح.
من عقيدة أهل السنة أن الأرواح مخلوقة، وليست قديمة كما تقول الفلاسفة
ونحوهم، خلقها الله بعد أن لم تكن، وذلك لأن الإنسان مركب من جسد وروح.
الروح هي التي تحيا بها أجسادهم، وإذا خرجت الروح مات الجسد، فهل الروح

(١) انظر: تفسير الطبري (٩/ ١١٥، ١١٦)، وتفسير القرطبي (٧/ ٣١٨).

مخلوقة قبل الجسد، أو مخلوقة مع الجسد؟ الصحيح أنَّها مخلوقة عندما خلق الله الجسد، فكلما خُلِقَ جسد خُلِقَ له روح، وكلَّما مات ذلك الجسد بقيت روحه، إمَّا معذبة وإمَّا منعمَّة، إلى أن ترجع إليه في الآخرة، وربَّما يأتينا شيءٌ يتعلَّق بخلق الأرواح.

وعلى كل حال، فالآية الكريمة وهي قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ﴾ [الأعراف: ١٧٢]، هناك من يقول: إنَّ الله أخرجهم من آدم، وأخذ عليهم العهد، وأشهدهم على أنفسهم، وأنَّهم قالوا: ﴿بَلَىٰ﴾. ولعلنا نقول: إننا لا نتذكَّر هذا المقال، ولا ندري ولا نعرف متى أخرجنا؟ ولا هل قيل لنا هذا القول أو لا؟ فلذلك يقال: إنَّ هذه هي الفطرة، وإنَّ هذا الإِشهاد هو ما فُطِرَ عليه من المعرفة، وإنَّ قولهم: ﴿بَلَىٰ شَهِدْنَا﴾، يعني: شهدنا أنَّ ربَّنَا هو الذي خلقنا، فيكون ذلك خطابًا للأرواح قبل الأجساد. ومن العلماء من قال: إنَّ هذا وإن لم يتذكَّره كل إنسان، ولكنَّه حقٌّ وواقع، وإن لم يكن هناك ذاكرةٌ عند كل إنسان، ولعلَّ القول الأول أنَّ ذلك هو الفطرة التي فطر عليها هو الأقرب.

ومن المفسِّرين من اقتصر على مدلول الأحاديث، فجعل الآية مفسَّرةً بالأحاديث: أنَّ معناها أخرجهم من آدم، وأشهدهم على أنفسهم، وردَّهم في صلب آدم، وأخرج منه أولاده، وأخرج من أولاده أحفاده، يعني: أولادهم، وهكذا تسلسلت الولادة إلى ما شاء الله تعالى، إلى أن يحصل وجود من قدَّر الله

خلقه إلى يوم القيامة.

ومن العلماء المفسرين من اقتصر على ذكر الفطرة، وأنّ المراد بالإشهاد هنا هو ما قذف في قلوبهم من المعرفة، ومن الفطرة التي فطر الناس عليها. ومنهم من ذكر القولين. والكُلُّ مجتهدٌ، وكلُّ اختار ما يناسبه، فالذين تَخَصَّصُوا في القول وفي الحكايات ونحوها، واقتصروا على الميثاق الذي ورد في الأحاديث، والذين فسروا بالرأي أو فسروا بالاستتاج، ذكروا أيضًا الفطرة والرّواية التي فيها أنّ الله تعالى أشهدهم، وأتّم قالوا: شهدنا وتكلّموا هذا.

ويقول الشارح: إنّها موقوفة، ليست مرفوعةً، وربما كانت ممّا نقل من كتب بني إسرائيل التي لا تُصدّق ولا تُكذّب، إنّما تقبل إذا وافقت النقل الصحيح عن النبي ﷺ، أو عن ما جاء في كتاب الله تعالى، فعلى هذا نحن نعتقد معنى الآية إجمالاً، وإذا ثبت لنا الأحاديث اعتقدناها، ووكلنا كيفيتها إلى الله تعالى.

قال الشارح:

وَلَا رَبَّ أَنَّ الْآيَةَ لَا تَدُلُّ عَلَى الْقَوْلِ الْأَوَّلِ، أَعْنِي: أَنَّ الْأَخْذَ كَانَ مِنْ ظَهْرِ
 آدَمَ، وَإِنَّمَا فِيهَا أَنَّ الْأَخْذَ مِنْ ظُهُورِ بَنِي آدَمَ، وَإِنَّمَا ذَكَرَ الْأَخْذَ مِنْ ظَهْرِ آدَمَ
 وَالْإِشْهَادَ عَلَيْهِمْ هُنَاكَ فِي بَعْضِ الْأَحَادِيثِ، وَفِي بَعْضِهَا الْأَخْذُ وَالْقَضَاءُ بِأَنَّ
 بَعْضَهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ وَبَعْضَهُمْ إِلَى النَّارِ، كَمَا فِي حَدِيثِ عُمَرَ رضي الله عنه، وَفِي بَعْضِهَا الْأَخْذُ
 وَإِرَاءَةُ آدَمَ إِيَّاهُمْ مِنْ غَيْرِ قَضَاءٍ وَلَا إِشْهَادٍ، كَمَا فِي حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ. وَالَّذِي فِيهِ
 الْإِشْهَادُ. عَلَى الصِّفَةِ الَّتِي قَالَهَا أَهْلُ الْقَوْلِ الْأَوَّلِ. مَوْثُوقٌ عَلَى ابْنِ عَبَّاسٍ وَعُمَرَ،
 وَتَكَلَّمَ فِيهِ أَهْلُ الْحَدِيثِ، وَلَمْ يُخْرِجْهُ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ الصَّحِيحِ غَيْرَ الْحَاكِمِ فِي
 «الْمُسْتَدْرَكِ عَلَى الصَّحِيحِينَ»، وَالْحَاكِمُ مَعْرُوفٌ تَسَاهَلَهُ رَحْمَةُ اللَّهِ.

وَالَّذِي فِيهِ الْقَضَاءُ بِأَنَّ بَعْضَهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ وَبَعْضَهُمْ إِلَى النَّارِ دَلِيلٌ عَلَى مَسْأَلَةِ
 الْقَدَرِ، وَذَلِكَ شَوَاهِدُهُ كَثِيرَةٌ، وَلَا نِزَاعَ فِيهِ بَيْنَ أَهْلِ السُّنَّةِ، وَإِنَّمَا يُخَالَفُ فِيهِ الْقَدَرِيَّةُ
 الْمُبْطِلُونَ الْمُبْتَدِعُونَ.

وَأَمَّا الْأَوَّلُ: فَالنِّزَاعُ فِيهِ بَيْنَ أَهْلِ السُّنَّةِ مِنَ السَّلَفِ وَالْخَلْفِ، وَلَوْ لَا مَا التَّرَمُّتُهُ
 مِنَ الْإِخْتِصَارِ لَبَسَطْتُ الْأَحَادِيثَ الْوَارِدَةَ فِي ذَلِكَ، وَمَا قِيلَ مِنَ الْكَلَامِ عَلَيْهَا، وَمَا
 ذَكَرَ فِيهَا مِنَ الْمَعَانِي الْمَعْقُولَةِ، وَدَلَالَةِ الْفَاطِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ.

قَالَ الْقُرْطُبِيُّ: «وَهَذِهِ الْآيَةُ مُشْكِلَةٌ، وَقَدْ تَكَلَّمَ الْعُلَمَاءُ فِي تَأْوِيلِهَا، فَذَكَرُوا مَا
 ذَكَرُوهُ مِنْ ذَلِكَ، حَسَبَ مَا وَقَفْنَا عَلَيْهِ. فَقَالَ قَوْمٌ: مَعْنَى الْآيَةِ: أَنَّ اللَّهَ أَخْرَجَ مِنْ
 ظَهْرِ بَنِي آدَمَ بَعْضَهُمْ مِنْ بَعْضٍ، قَالُوا: وَمَعْنَى ﴿وَأَشْهَدُهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ﴾

أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ﴿ [الأعراف: ١٧٢]، دَلَّهُمْ عَلَى تَوْحِيدِهِ؛ لِأَنَّ كُلَّ بَالِغٍ يَعْلَمُ ضَرُورَةَ أَنَّ لَهُ رَبًّا وَاحِدًا، ﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ﴾، أَي: قَالَ، فَقَامَ ذَلِكَ مَقَامَ الْإِشْهَادِ عَلَيْهِمْ، كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ: ﴿ قَالَتَا أَئِنَّمَا طَائِفَتَانِ ﴾ [فصلت: ١١]، ذَهَبَ إِلَى هَذَا الْقِفَالِ وَأَطْنَبَ. وَقِيلَ: إِنَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَخْرَجَ الْأَرْوَاحَ قَبْلَ خَلْقِ الْأَجْسَادِ، وَإِنَّهُ جَعَلَ فِيهَا مِنَ الْمَعْرِفَةِ مَا عَلِمَتْ بِهِ مَا خَاطَبَهَا^(١). ثُمَّ ذَكَرَ الْقُرْطُبِيُّ بَعْدَ ذَلِكَ الْأَحَادِيثَ الْوَارِدَةَ فِي ذَلِكَ، إِلَى آخِرِ كَلَامِهِ.

قال الشيخ:

هذه أيضًا أقوال في معنى الآية، أحدها: أن معنى قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ ﴾: كَلَّمَا وُلِدَ مَوْلُودٌ أَخَذَ اللهُ عَلَيْهِ الْعَهْدَ، وَاسْتَشْهَدَهُ بِمَا فُطِرَ عَلَيْهِ لِيَعْرِفَ أَنَّ لَهُ رَبًّا، وَأَنَّهُ مَرْبُوبٌ، وَأَنَّ عَلَيْهِ تَكْلِيفًا، كَلَّمَا وُلِدَ مَوْلُودٌ أَخَذَ اللهُ عَلَيْهِ الْعَهْدَ، وَذَلِكَ لِأَنَّ الله قَالَ: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ ﴾، وَبَنُو آدَمَ: جَمْعٌ، يَعْنِي: مِنْ كُلِّ آدَمِيٍّ مِنَ الْبَشَرِ أَخَذَ اللهُ مِنْ ظَهْرِهِ، يَعْنِي: اسْتَخْرَجَ مِنْ ظَهْرِهِ مَنْ وَلَدَهُ، ثُمَّ اسْتَنْطَقَهُمْ وَاسْتَشْهَدَهُمْ، وَيَكُونُ ذَلِكَ مَا عَلِمُوهُ، أَوْ مَا أَقَامَ أَمَامَهُمْ مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْبَرَاهِينِ عَلَى أَنَّهُ رَبُّهُمْ، وَعَلَى أَنَّهُمْ مَرْبُوبُونَ لَهُ، وَالْمَرْبُوبُ لَهُ رَبٌّ، وَعَلَى أَنَّهُمْ مَخْلُوقُونَ، وَالْمَخْلُوقُ لَهُ خَالِقٌ.

(١) انظر: تفسير القرطبي (٧/٣١٤).

وأما القول بأنهم استنطقوا لما أخرجوا من آدم، وشهدوا على أنفسهم، وقالوا: ﴿يَلَىٰ﴾، لما قال الله لهم: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾، فهذا قول اعتمد فيه على حديثين، ولكن الحديثين فيهما مقال، فيقول: حديث ابن عباس الذي تقدم، وحديث عبد الله بن عمرو بن العاص - رضي الله عنهم - لم يُخرجها أهل الصحيح، والراجح أنها موقوفان وليسا مرفوعين .

قال الشارح:

وَأَقْوَى مَا يَشْهَدُ لَصِحَّةِ الْقَوْلِ الْأَوَّلِ: حَدِيثُ أَنَسِ الْمَخْرَجِ فِي «الصَّحِيحَيْنِ»^(١) الَّذِي فِيهِ: «قَدْ أَرَدْتُ مِنْكَ مَا هُوَ أَهْوَنُ مِنْ ذَلِكَ، قَدْ أَخَذْتُ عَلَيْكَ فِي ظَهْرِ آدَمَ أَنْ لَا تُشْرِكَ بِي شَيْئًا فَأَبَيْتَ إِلَّا أَنْ تُشْرِكَ بِي». وَلَكِنْ قَدْ رُوِيَ مِنْ طَرِيقٍ أُخْرَى: «قَدْ سَأَلْتُكَ أَقَلَّ مِنْ ذَلِكَ وَأَيْسَرَ فَلَمْ تَفْعَلْ، فَيَرُدُّ إِلَى النَّارِ». وَلَيْسَ فِيهِ «فِي ظَهْرِ آدَمَ». وَلَيْسَ فِي الرَّوَايَةِ الْأُولَى إِخْرَاجُهُمْ مِنْ ظَهْرِ آدَمَ عَلَى الصِّفَةِ الَّتِي ذَكَرَهَا أَصْحَابُ الْقَوْلِ الْأَوَّلِ.

بَلِ الْقَوْلُ الْأَوَّلُ مُتَضَمِّنٌ لِأَمْرَيْنِ عَجِيبَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: كَوْنُ النَّاسِ تَكَلَّمُوا حَيْثُ نَدَّ، وَأَقْرَبُوا بِالْإِيمَانِ، وَأَنَّهُ بِهِذَا تَقُومُ الْحُجَّةُ عَلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ.

وَالثَّانِي: أَنَّ الْآيَةَ دَلَّتْ عَلَى ذَلِكَ، وَالْآيَةُ لَا تَدُلُّ عَلَيْهِ لَوْ جُوه:

أَحَدُهَا: أَنَّهُ قَالَ: ﴿مِنْ بَيْنِ آدَمَ﴾، وَلَمْ يَقُلْ: مِنْ آدَمَ.

الثَّانِي: أَنَّهُ قَالَ: ﴿مِنْ ظُهُورِهِمْ﴾، وَلَمْ يَقُلْ: مِنْ ظَهْرِهِ، وَهَذَا بَدَلٌ بَعْضٍ، أَوْ

بَدَلٌ اشْتِهَالٍ، وَهُوَ أَحْسَنُ.

الثَّلَاثُ: أَنَّهُ قَالَ: ﴿ذُرِّيَّتِهِمْ﴾، وَلَمْ يَقُلْ: ذُرِّيَّتَهُ.

الرَّابِعُ: أَنَّهُ قَالَ: ﴿وَأَشْهَدُهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ﴾، وَلَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ الشَّاهِدُ ذَاكِرًا لِمَا

(١) أخرجه بهذا اللفظ: أحمد (٣/٢٠٨، ٢٣٩).

شَهَدَ بِهِ، وَهُوَ إِنَّمَا يَذْكُرُ شَهَادَتَهُ بَعْدَ خُرُوجِهِ إِلَى هَذِهِ الدَّارِ . كَمَا تَأْتِي الْإِشَارَةُ إِلَى ذَلِكَ . لَا يَذْكُرُ شَهَادَةَ قَبْلَهُ .

الخامس: أَنَّهُ سُبْحَانَهُ أَخْبَرَ أَنَّ حِكْمَةَ هَذَا الْإِشْهَادِ إِقَامَةُ لِلْحُجَّةِ عَلَيْهِمْ؛ لِئَلَّا يَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ: ﴿ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ﴾ ، وَالْحُجَّةُ إِنَّمَا قَامَتْ عَلَيْهِمْ بِالرُّسُلِ وَالْفِطْرَةِ الَّتِي فُطِرُوا عَلَيْهَا، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ ﴾ [النساء: ١٦٥].

السادس: تَذَكِيرُهُمْ بِذَلِكَ؛ لِئَلَّا يَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ: ﴿ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ﴾ ، وَمَعْلُومٌ أَنَّهُمْ غَافِلُونَ عَنِ الْإِخْرَاجِ لَهُمْ مِنْ صُلْبِ آدَمَ كُلِّهِمْ وَإِشْهَادِهِمْ جَمِيعًا ذَلِكَ الْوَقْتِ، فَهَذَا لَا يَذْكُرُهُ أَحَدٌ مِنْهُمْ .

السابع: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَوْ قُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ ﴾ ، فَذَكَرَ حِكْمَتَيْنِ فِي هَذَا الْإِشْهَادِ؛ لِئَلَّا يَدْعُوا الْغَفْلَةَ، أَوْ يَدْعُوا التَّقْلِيدَ، فَالْغَافِلُ لَا شُعُورَ لَهُ، وَالْمُقَلِّدُ مُتَّبِعٌ فِي تَقْلِيدِهِ لِغَيْرِهِ . وَلَا تَتَرْتَّبُ هَاتَانِ الْحِكْمَتَانِ إِلَّا عَلَى مَا قَامَتْ بِهِ الْحُجَّةُ مِنَ الرُّسُلِ وَالْفِطْرَةِ .

الثامن: قَوْلُهُ: ﴿ أَفَنُهَلِكُهُمْ إِنَّمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ ﴾ ، أَي: لَوْ عَذَّبَهُمْ بِجُحُودِهِمْ وَشَرِّ كَيْفِهِمْ لَقَالُوا ذَلِكَ، وَهُوَ سُبْحَانَهُ إِنَّمَا يَهْلِكُهُمْ بِمُخَالَفَةِ رُسُلِهِ وَتَكْذِيبِهِمْ، وَقَدْ أَخْبَرَ سُبْحَانَهُ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلِهَا غَافِلُونَ، وَإِنَّمَا يَهْلِكُهُمْ بَعْدَ الْإِعْدَارِ وَالْإِنْدَارِ بِإِرْسَالِ الرُّسُلِ .

التَّاسِعُ: أَنَّهُ سُبْحَانَهُ أَشْهَدُ كُلَّ وَاحِدٍ عَلَى نَفْسِهِ أَنَّهُ رَبُّهُ وَخَالِقُهُ، وَاحْتِجَّ عَلَيْهِ
 بِهَذَا الْإِشْهَادِ فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ مِنْ كِتَابِهِ، كَقَوْلِهِ: ﴿وَلَمَّا سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ
 وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [لقمان: ٢٥]. فَهَذِهِ هِيَ الْحُجَّةُ الَّتِي أَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ
 بِمُضْمُونِهَا، وَذَكَرْتُهُمْ بِهَا رُسُلُهُ، بِقَوْلِهِمْ: ﴿أَفَى اللَّهِ شَكٌّ فَأَطِرِ السَّمَوَاتِ
 وَالْأَرْضِ﴾ [إبراهيم: ١٠].

العَاشِرُ: أَنَّهُ جَعَلَ هَذَا آيَةً، وَهِيَ الدَّلَالَةُ الْوَاضِحَةُ الْبَيِّنَةُ الْمُسْتَلْزِمَةُ لِمدْلُوقِهَا،
 بِحَيْثُ لَا يَتَخَلَّفُ عَنْهَا الْمَدْلُوقُ، وَهَذَا شَأْنُ آيَاتِ الرَّبِّ تَعَالَى، فَإِنَّمَا أَدَلَّةٌ مُعِينَةٌ عَلَى
 مَطْلُوبٍ مُعَيَّنٍ مُسْتَلْزِمَةٌ لِلْعِلْمِ بِهِ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَكَذَلِكَ نَقْضِلُ الْآيَاتِ وَلَعَلَّهُمْ
 يَرْجِعُونَ﴾ [الأنعام: ١٧٤]، وَإِنَّمَا ذَلِكَ بِالْفِطْرَةِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ
 لِخَلْقِ اللَّهِ، فَمَا مِنْ مَوْلُودٍ إِلَّا يُؤَلَّدُ عَلَى الْفِطْرَةِ، لَا يُؤَلَّدُ مَوْلُودٌ عَلَى غَيْرِ هَذِهِ الْفِطْرَةِ،
 هَذَا أَمْرٌ مَفْرُوعٌ مِنْهُ، لَا يَتَبَدَّلُ وَلَا يَتَغَيَّرُ. وَقَدْ تَقَدَّمَتِ الْإِشَارَةُ إِلَى هَذَا. وَاللَّهُ أَعْلَمُ.
 وَقَدْ تَفَطَّنَ هَذَا ابْنُ عَطِيَّةَ وَغَيْرُهُ، وَلَكِنْ هَابُوا مُخَالَفَةَ ظَاهِرِ تِلْكَ الْأَحَادِيثِ
 الَّتِي فِيهَا التَّضَرُّيحُ بِأَنَّ اللَّهَ أَخْرَجَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ ثُمَّ أَعَادَهُمْ. وَكَذَلِكَ
 حَكَى الْقَوْلَيْنِ الشَّيْخُ أَبُو مَنْصُورٍ الْمَاتَرِيدِيُّ فِي شَرْحِ التَّأْوِيلَاتِ، وَرَجَّحَ الْقَوْلَ
 الثَّانِي، وَتَكَلَّمَ عَلَيْهِ وَمَالَ إِلَيْهِ.

قال الشيخ:

ويمكن أن يجمع بين القولين في أن الآية في ميثاق والأحاديث في ميثاق،

فالآية يظهر أن المراد بها الميثاق الذي يأخذه على كل مولود يولد بالفطرة، وذلك الميثاق هو المعرفة التي فُطر عليها، والآية والأحاديث في خلق الأرواح؛ أن الأرواح خلقت، ثم أعيدت في صلب آدم، وأنها تكلمت وشهدت وإن لم تكن الأجساد موجودة، وتذكر.

وبكل حال، فإن هذه الآية تؤيد أن الميثاق الذي فيها غير الميثاق الذي في الأحاديث من هذه الوجوه العشرة، فإن الله تعالى قال: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِيثَاقَهُمْ لَمِ يَقُولَ: مَنْ آدَمَ، وَنَفَىٰ بِهَا أَتْمَهُمْ أُخْرِجُوا مِنْ ظَهْرِ آدَمَ، فَدَلَّ عَلَى الْفَرْقِ بَيْنَ الْآيَةِ وَبَيْنَ مَا فِي الْأَحَادِيثِ.

والآية فيها قوله: ﴿مِنْ ظُهُورِهِمْ﴾، والأحاديث فيها أنهم كلهم ذرية آدم، والآية فيها أنه أشهدهم على أنفسهم، وهذا الإشهاد قد لا يتذكرونه؛ لأنه هو الفطرة، فلو كان هو الإشهاد عند خلق الأرواح لم يكن حجة عليهم، فدل على أن المراد أنهم فُطروا على الإسلام، وأنه لا مانع من أن الله سبحانه أخرج أرواحهم وأنفاسهم من صلب آدم، وعرضهم عليه، ورأى بين عيني كل إنسان وبيصاً، وأن منهم نبي الله داود، وآته وهبه من عمره أربعين إلى آخر ما تقدم.

لا مانع من أن نؤمن بأن الله استخرج الأرواح قبل أن يخلق الأجساد، وأنه أخذ الميثاق على الإنسان، وأن الميثاق الذي أخذه على الأجساد الذي في الآية هو المعرفة والفطرة التي فُطروا عليها، فبذلك لا يحصل اختلاف بين الآية والحديث. يعتقد المسلم أن الله فطر الناس على المعرفة وعلى الديانة، وأن تلك الفطرة

تتغير بتغير البيئات، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه، ويعتقدون ذلك بناءً على الأحاديث، أن الله استخرج ذرية آدم، وعلم أهل الجنة، وعلم أهل النار، وقال: هؤلاء للجنة ولا أبالي، وهؤلاء للنار ولا أبالي، وذلك يبين سابق قدر الله تعالى أو سابق علمه قبل وجودها، والله تعالى بكل شيء عليم.

قال الشارح:

وَلَا شَكَّ أَنَّ الْإِقْرَارَ بِالرُّبُوبِيَّةِ أَمْرٌ فِطْرِيٌّ، وَالشَّرْكَ حَادِثٌ طَارِئٌ، وَالْأَبْنَاءُ تَقَلَّدُوهُ عَنِ الْآبَاءِ، فَإِذَا احْتَجُّوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِأَنَّ الْآبَاءَ أَشْرَكُوا وَنَحْنُ جَرِينَا عَلَى عَادَتِهِمْ، كَمَا يَجْرِي النَّاسُ عَلَى عَادَةِ آبَائِهِمْ فِي الْمَطَاعِمِ وَالْمَلَابِسِ وَالْمَسَاكِينِ، يُقَالُ لَهُمْ: أَنْتُمْ كُنْتُمْ مُعْتَرِفِينَ بِالصَّانِعِ، مُقَرِّينَ بِأَنَّ اللَّهَ رَبُّكُمْ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَقَدْ شَهِدْتُمْ بِذَلِكَ عَلَى أَنْفُسِكُمْ، فَإِنَّ شَهَادَةَ الْمَرْءِ عَلَى نَفْسِهِ هِيَ إِقْرَارُهُ بِالشَّيْءِ لَيْسَ إِلَّا، قَالَ

اللَّهُ تَعَالَى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُوفُوا قَوْمِينَ بِأَلْفَسَطِ شَهَادَةٍ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ﴾

[النساء: ١٣٥]. وَلَيْسَ الْمُرَادُ أَنْ يَقُولَ: أَشْهَدُ عَلَى نَفْسِي بِكَذَا، بَلْ مَنْ أَقْرَبَ شَيْءٍ فَقَدْ شَهِدَ عَلَى نَفْسِهِ بِهِ، فَلِمَ عَدَلْتُمْ عَنْ هَذِهِ الْمَعْرِفَةِ وَالْإِقْرَارِ الَّذِي شَهِدْتُمْ بِهِ عَلَى أَنْفُسِكُمْ إِلَى الشَّرْكِ؟ بَلْ عَدَلْتُمْ عَنِ الْمَعْلُومِ الْمُتَيَقَّنِ إِلَى مَا لَا يُعْلَمُ لَهُ حَقِيقَةٌ، تَقْلِيدًا لِيَنْ لَا حُجَّةَ مَعَهُ، بِخِلَافِ اتِّبَاعِهِمْ فِي الْعَادَاتِ الدُّنْيَوِيَّةِ، فَإِنَّ تِلْكَ لَمْ يَكُنْ عِنْدَكُمْ مَا يُعْلَمُ بِهِ فَسَادُهَا، وَفِيهِ مَصْلَحَةٌ لَكُمْ، بِخِلَافِ الشَّرْكِ، فَإِنَّهُ كَانَ عِنْدَكُمْ مِنَ الْمَعْرِفَةِ وَالشَّهَادَةِ عَلَى أَنْفُسِكُمْ مَا يُبَيِّنُ فَسَادَهُ وَعُدُولَكُمْ فِيهِ عَنِ الصَّوَابِ.

فَإِنَّ الدِّينَ الَّذِي يَأْخُذُهُ الصَّبِيُّ عَنْ أَبِيهِ هُوَ: دِينُ التَّرْبِيَةِ وَالْعَادَةِ، وَهُوَ لِأَجْلِ مَصْلَحَةِ الدُّنْيَا، فَإِنَّ الطِّفْلَ لَا بُدَّ لَهُ مِنْ كَافِلٍ، وَأَحَقُّ النَّاسِ بِهِ أَبُوَاهُ، وَلِهَذَا جَاءَتْ الشَّرِيعَةُ بِأَنَّ الطِّفْلَ مَعَ أَبِيهِ عَلَى دِينِهِمَا فِي أَحْكَامِ الدُّنْيَا الظَّاهِرَةِ، وَهَذَا الدِّينُ لَا يُعَاقِبُهُ اللَّهُ عَلَيْهِ. عَلَى الصَّحِيحِ - حَتَّى يَبْلُغَ وَيَعْقِلَ وَتَقُومَ عَلَيْهِ الْحُجَّةُ، وَحِينَئِذٍ فَعَلَيْهِ أَنْ يَتَّبِعَ دِينَ الْعِلْمِ وَالْعَقْلِ، وَهُوَ الَّذِي يُعْلَمُ بِعَقْلِهِ هُوَ أَنَّهُ دِينٌ صَحِيحٌ، فَإِنَّ

كَانَ أَبَاؤُهُ مُهْتَدِينَ، كَيُوسُفَ الصِّدِّيقِ مَعَ آبَائِهِ، قَالَ: ﴿وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّيَ
 وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾ [يوسف: ٣٨]، وَقَالَ لِيَعْقُوبَ بَنُوهُ: ﴿تَعْبُدُ الْإِلَهَ وَاللَّهَ
 ءَابَاءُكَ ابْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ﴾ [البقرة: ١٣٣]، وَإِنْ كَانَ الْأَبَاءُ مُحَالِفِينَ
 الرُّسُلَ، كَانَ عَلَيْهِ أَنْ يَتَّبِعَ الرُّسُلَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَسَنًا وَإِنْ
 جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا﴾ الآية [العنكبوت: ٨].
 فَمَنْ اتَّبَعَ دِينَ آبَائِهِ بِغَيْرِ بَصِيرَةٍ وَعِلْمٍ، بَلْ يَعْدِلُ عَنِ الْحَقِّ الْمَعْلُومِ إِلَيْهِ، فَهَذَا
 اتَّبَعَ هَوَاهُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا آَلَيْنَا عَلَيْهِ
 ءَابَاءُنَا أَوْ لَوْ كُنَّا ءَابَاءَهُمْ لَاتَّبَعْتُمُوهُمْ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٧٠].

قال الشيخ:

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ
 عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا
 غَافِلِينَ﴾ (١٧٢) أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا
 فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٢، ١٧٣]، هذه هي مقالة المشركين، فيقولون: إنما
 أنزل الكتاب على إحدى الطائفتين، وهما اليهود والنصارى الذين أنزلت عليهم
 التوراة والإنجيل، ويقولون أيضاً: إنما أشرك آباؤنا واتبعناهم، فكأنهم يقولون: إن
 العذاب واقع عليهم لا علينا، والجواب على ذلك من وجهين:

أولاً: أن الله فطركم على التوحيد وعلى معرفته، وركب فيكم العقول بحيث تعرفون أن لكم خالقاً، وخالقكم له عليكم حقوق.

ثانياً: إذا عرفتم أن هذا الدين الذي عليه آباؤكم - وهو الشرك - باطل، فلا بد أن تبحثوا عن الدين الصحيح، وهو الذي خلقتم له، ولكنكم لم تفعلوا، بل أتبعتم آباءكم، وأطعتم كبراءكم، فكنتم بذلك مستحقين للعذاب، قال الله تعالى

عن أهل النار: ﴿ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّى إِذَا آدَرَكُوهَا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَيْتُمْ لَأَوْلِيهِمْ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ ضَلُّوا نَافِعَاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِنَ النَّارِ قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٌ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٨]،

﴿أُخْرَيْتُمْ لَأَوْلِيهِمْ﴾، أي: الأبناء للآباء، قال ﴿لِكُلِّ ضِعْفٌ﴾، أي: لا ينفعكم كونهم الذين أضلّوكم، بل كان الواجب عليكم ألا تقبلوا هذا الضلال. ويقول

تعالى: ﴿وَأَقْبَلْ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾ (٢٧) ﴿قَالُوا إِنَّا كُنْتُمْ نَأْتُونَنا عَنِ الْيَمِينِ﴾ [الصفات: ٢٧، ٢٨]، يعني: تضلّوننا أو تسعون في إضلالنا، إلى قوله: ﴿فَأَنتَهُمْ

يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ [الصفات: ٣٣]، مع أن الآباء هم السبب في ضلال الأبناء، ولأجل ذلك كان الواجب على الآباء أن يفكروا، وألا يضلّوا بعد أن أعطاهم الله فكراً وعقلاً، وعلى الأبناء أيضاً أن يستعملوا فطرتهم وعقلهم، وألا يقبلوا كل ضلالة أو كلّ بدعة، وقد حكى الله تعالى أنه في يوم القيامة يتبرأ بعضهم من بعض؛ المتبوع يتبرأ من التابع، والتابع يتبرأ من المتبوع: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا

مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأُوا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ ﴿٣١٦﴾ وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ
أَنَّ لَنَا كَرَّةٌ فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا ﴿البقرة: ١٦٦، ١٦٧﴾، الأتباع: هم
الذين تبرأ منهم المتبعون، ولكن لا ينفعهم ذلك بعد أن أضلّوهم.

وعلى كل حال فحجّة الله قائمة، ﴿قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ﴾ [الأنعام: ١٤٩]؛
وذلك لأنّه أرسل الرسل وأنزل الكتب، ولأنّه فطر الناس على العبادة، ولكن
أضلّتهم الأهواء وأضلّتهم الشياطين، وأضلّتهم المجتمعات ونحوها .

ومعلوم أنّ العادة كما قلنا: إنّ الابن ينشأ على دين أبيه، بل إنّه يحكم له
باتّباع أبيه في الدنيا، لكن في الدين يكون تبعاً لخير أبيه، إذا كان الأبوان أحدهما
مسلم والآخر كافر؛ حكمنا أنّه يتبع خير أبيه في الدين، ولكن يُحكم عليهم بما
حُكم على آبائهم.

وقد سُئِلَ النبي ﷺ عن الذَّرَارِيِّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ يَبِيتُونَ، فَيُصِيبُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ
وَذَرَارِيِّهِمْ، أَي: إذا قتلنا أطفالاً لم نتعمّد قتلهم، فما الحكم؟ فقال: «هُم مِّنْهُمْ»^(١)،
يعني: أنّنا نحكم بأنهم تبع لآبائهم؛ وذلك لأنهم غالباً ينشؤون على نسايتهم كما
حكى الله عن نوح - عليه السلام -: ﴿وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاكِرًا كَافِرًا﴾ [نوح: ٢٧]، أَي:
كلّمًا ولد لهم أولاد نشؤوا على ما نشأ عليه آبائهم من الفجور ومن الكفر. ومع
ذلك، فإنّ الله تعالى قد يخرج من أصلاب الكفار من يعبد الله ويعرفه إذا أراد به

(١) أخرجه البخاري (٣٠١٣)، ومسلم (١٧٤٥) من حديث الصعب بن جثامة ؓ.

خيرًا، وأدخله الدين أو أدخل الدين عليه.

وعلى كلِّ حال، نحن قلنا: إنَّ الإنسان عليه أن يحرص على أولاده فيرَبِّيهم ويعلِّمهم، وعلى الولد أن ينظر فيما فيه والده وفيما عليه أهله، فإذا كان حقًا وصوابًا قبله وعمل به، وإلا سأل عن الحق وعمل به، ولم يعمل بالباطل، وإن كان عليه أهله أو مجتمعه أو قبيلته وأسرته، أو نحو ذلك.

قال الشارح:

وَهَذِهِ حَالٌ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ مِنَ الَّذِينَ وُلِدُوا عَلَى الْإِسْلَامِ، يَتَّبِعُ أَحَدَهُمْ أَبَاهُ
فِيمَا كَانَ عَلَيْهِ مِنَ اعْتِقَادٍ وَمَذْهَبٍ، وَإِنْ كَانَ خَطَأً لَيْسَ هُوَ فِيهِ عَلَى بَصِيرَةٍ، بَلْ هُوَ
مِنْ مُسْلِمَةِ الدَّارِ، لَا مُسْلِمَةِ الْإِخْتِيَارِ، وَهَذَا إِذَا قِيلَ لَهُ فِي قَبْرِهِ: مَنْ رَبُّكَ؟ قَالَ: هَاهُ
هَاهُ، لَا أَذْرِي، سَمِعْتُ النَّاسَ يَقُولُونَ شَيْئًا فَقُلْتُهُ.

فَلْيَتَأَمَّلِ اللَّيْبُ هَذَا الْمَحَلَّ، وَلْيَنْصَحْ نَفْسَهُ، وَلْيَقُمْ مَعَهُ، وَلْيَنْظُرْ مَنْ أَيْ
الْفَرِيقَيْنِ هُوَ؟ وَاللَّهُ الْمَوْفِقُ، فَإِنَّ تَوْحِيدَ الرَّبُّوبِيَّةِ لَا يَحْتَاجُ إِلَى دَلِيلٍ، فَإِنَّهُ مَرَكُوزٌ فِي
النَّفْطِ. وَأَقْرَبُ مَا يَنْظُرُ فِيهِ الْمَرْءُ أَمْرَ نَفْسِهِ لَمَّا كَانَ نُطْفَةً، وَقَدْ خَرَجَ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ
وَالْتَرَائِبِ، وَالتَّرَائِبُ: عِظَامُ الصَّدْرِ، ثُمَّ صَارَتْ تِلْكَ النُّطْفَةُ فِي فَرَارٍ مَكِينٍ، فِي
ظِلْمَاتِ ثَلَاثٍ، وَانْقَطَعَ عَنْهَا تَدْبِيرُ الْأَبْوَيْنِ وَسَائِرِ الْخَلَائِقِ، وَلَوْ كَانَتْ مَوْضُوعَةً
عَلَى لَوْحٍ أَوْ طَبَقٍ، وَاجْتَمَعَ حُكَمَاءُ الْعَالَمِ عَلَى أَنْ يُصَوِّرُوا مِنْهَا شَيْئًا لَمْ يَقْدِرُوا.
وَمَحَالٌ تَوْهَمُ عَمَلِ الطَّبَّاعِ فِيهَا؛ لِأَنَّهَا مَوَاتٌ عَاجِزَةٌ، وَلَا تُوصَفُ بِحَيَاةٍ، وَلَكِنْ يَتَأْتَى
مِنَ الْمَوَاتِ فِعْلٌ وَتَدْبِيرٌ، فَإِذَا تَفَكَّرَ فِي ذَلِكَ، وَانْتَقَالَ هَذِهِ النُّطْفَةُ مِنْ حَالٍ إِلَى حَالٍ،
عَلِمَ بِذَلِكَ تَوْحِيدَ الرَّبُّوبِيَّةِ، فَانْتَقَلَ مِنْهُ إِلَى تَوْحِيدِ الْإِلَهِيَّةِ، فَإِنَّهُ إِذَا عَلِمَ بِالْعَقْلِ أَنَّ لَهُ
رَبًّا أَوْ جَدَّهُ، كَيْفَ يَلِيْقُ بِهِ أَنْ يَعْبُدَ غَيْرَهُ؟! وَكَلِمًا تَفَكَّرَ وَتَدَبَّرَ أزدَادَ يَقِينًا وَتَوْحِيدًا،
وَاللَّهُ الْمَوْفِقُ، لَا رَبَّ غَيْرُهُ، وَلَا إِلَهَ سِوَاهُ.

قال الشيخ:

ذكر الشارح أن الإنسان عادةً يتبع آباءه ومجتمعه، ولكن لا يكون ذلك حجةً

له، ولا يحتج بذلك، ولا يكون معذورًا بذلك، فهو لاء المشركون الذين قالوا:
﴿ إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَهِيَكَانَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ ﴾ [الأعراف: ١٧٣]،
يقال: لا نهلككم بفعلهم، بل كلُّ يُعَذَّبُ بذنبه، فأبأؤكم عليهم ذنوب،
وأنتم عليكم ذنوب، وأبناؤكم عليهم ذنوبهم التي اقترفوها وعملوها، ولو كان
المضلل هو الأول؛ وذلك لأن الله تعالى فطر العباد على معرفته، والواجب عليهم
أن يتأملوا ما فطروا عليه، وأن يتعللوا خلقه، وهذا الكون الذي بين أيديهم، وأن
يتفكروا في مخلوقات الله تعالى، فيصلون بذلك إلى نتيجة، وهي توحيد الربوبية،
وهو أن هذا الكون له ربٌّ خالقٌ مدبِّرٌ، وأنه لم يخلق عبثًا، كما في قوله تعالى:
﴿ أَيْحَسِبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى ﴾ [القيامة: ٣٦]، يعني: مهملاً، ﴿ أَلَمْ يَكُنْ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَى ﴾
﴿ ٣٧ ﴾ ثُمَّ كَانَ عِلْقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى ﴿ ٣٨ ﴾ فَعَمَلٌ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى ﴿ ٣٩ ﴾ أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَدِيرٍ عَلَى أَنْ
يُحْيِيَ الْمَوْتَى ﴿ [القيامة: ٣٧-٤٠]، أن يتدبَّر الإنسان مبدأ أمره ومبدأ تكوينه، وهو أنه
كان في صلب أبيه، ثم خرج واستقرَّ في رحم أمه، كما في قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ
مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ ﴿ ٢٠ ﴾ فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ﴿ ٢١ ﴾ إِلَى قَدَرٍ مَعْلُومٍ ﴿ [المسلات: ٢٠-٢٢]، جعله الله
تعالى في مستقرٍّ لا تصل إليه الأيدي، ولا تعمل فيه الطبائع، ولا تقدر عليه الحيل،
انقطعت عنه التدابير، فأخرجه الله بعد أن كونه بشرًا سويًّا، كما في قوله تعالى:
﴿ أَكْثَرَتْ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّيْنَاكَ رَجُلًا ﴾ [الكهف: ٣٧]، وقال
تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ﴾،
يعني: أطفالًا، ﴿ ثُمَّ لِيَبْلُغُوا أَشَدَّكُمْ ثُمَّ لِيََكُونُوا شِيُوخًا ﴾ [غافر: ٦٧].

فهذا التدبير وهذا التنقل ليس للطبيعة فيه مجال، بل الترتيب والترتبة هي خلق الله وتدييره وتكوينه، فإذا عرف الإنسان هذا الكون، وأنه لا بدّ له من خالق ومن مدبّر ومتصرّف، استقرّ بذلك توحيد الربوبية في عقله، وعرف أنّ له ربًّا، ثم بعد ذلك ينتقل من تفكير إلى تفكير، يقول: ما دام أنّ لهذا الكون ربًّا وخالقًا ومدبّرًا، فإنّ لهذا الرّب الخالق المدبّر حقوقًا علينا، وهي التّعبد له، وأن نعبده وحده، وأن نقرّ به إلهًا، وأن نصرف له حقوقه التي فرضها علينا، بعد ذلك يسأل عن هذه الحقوق، فإذا عرفها التزم بالتقرب، والتزم أن يعبد الله، وأن يحرص على الاستكثار من العبادات والقربات، فبذلك يكون من أهل السعادة، فكونه يقنع بما كان عليه آباؤه من الكفر والضلال والبدع والشرك والانحرافات، التي تمّ لها الأسماع، وتكرها الطباع، ويقول: هكذا وجدتُ آبائي عليه، فيقال له: هذا خطأ، لماذا لم تسأل عن الحقّ؟ أترضى أن تكون مقلدًا لا تدري ما الناس فيه؟

هؤلاء الذين يتبعون الناس فيما هم عليه من خطأ، هم الذين إذا سُئلوا في القبر: من ربّك؟ ما دينك؟ من نبيّك؟ يقول أحدهم: هاه هاه، لا أدري، سمعتُ الناس يقولون شيئًا فقلّته، فيعذبون في قبورهم على هذه المقالة، ولا ينفعهم أنّهم سمعوا الناس وأنهم قلّدوهم، بل الواجب على العاقل من حيث هو أن يستعمل عقله في معرفة خالقه ومدبّره، وألا يرضى بما للناس عليه دون أن يمحص تلك الأعمال التي يعملها الناس، ودون أن يعرف الحقّ أو يبحث عنه، فإنّه إذا بحث عن الحقّ عرفه، وإذا عرفه لزمه العمل به، وإذا لزمه العمل به وأداه كما ينبغي سعد وأصبح من أهل الخير.

قال الطحاوي:

وَقَدْ عَلِمَ اللَّهُ تَعَالَى - فِيمَا لَمْ يَزَلْ - عَدَدَ مَنْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ، وَعَدَدَ مَنْ يَدْخُلُ النَّارَ،
جُمْلَةً وَاحِدَةً، فَلَا يُرَادُ فِي ذَلِكَ الْعَدَدُ وَلَا يَنْقُصُ مِنْهُ، وَكَذَلِكَ أَفْعَالُهُمْ فِيهَا عَلِمَ مِنْهُمْ
أَنْ يَفْعَلُوهُ.

قال الشارح:

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدِ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الأنفال: ٧٥]،
﴿وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٠]، فَاللَّهُ تَعَالَى مَوْصُوفٌ بِأَنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ
عَلِيمٌ أَزْلًا وَأَبَدًا، لَمْ يَتَقَدَّمْ عِلْمُهُ بِالْأَشْيَاءِ جَهَالَةً: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ [مريم: ٦٤].
وَعَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ عليه السلام، قَالَ: كُنَّا فِي جَنَازَةِ فِي بَيْعِ الْعَرْقِدِ، فَأَتَانَا
رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم، فَقَعَدَ وَقَعَدْنَا حَوْلَهُ، وَمَعَهُ مِخْصَرَةٌ، فَكَسَّ رَأْسَهُ، فَجَعَلَ يَنْكُثُ
بِمِخْصَرَتِهِ، ثُمَّ قَالَ: «مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ مَا مِنْ نَفْسٍ مِنْفُوسَةٍ إِلَّا قَدْ كَتَبَ اللَّهُ
مَكَانَهَا مِنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ، وَإِلَّا قَدْ كُتِبَتْ شَقِيَّةٌ أَوْ سَعِيدَةٌ»، قَالَ: فَقَالَ رَجُلٌ: يَا
رَسُولَ اللَّهِ! أَفَلَا نَمُكُّ عَلَى كِتَابِنَا، وَنَدْعُ الْعَمَلَ؟ فَقَالَ: «مَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ
السَّعَادَةِ، فَسَيَصِيرُ إِلَى عَمَلِ أَهْلِ السَّعَادَةِ، وَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الشَّقَاوَةِ، فَسَيَصِيرُ إِلَى
عَمَلِ أَهْلِ الشَّقَاوَةِ»، ثُمَّ قَالَ: «اعْمَلُوا فَكُلُّ مُيَسَّرٍ لِمَا خُلِقَ لَهُ، أَمَّا أَهْلُ السَّعَادَةِ،
فَيُسَّرُونَ لِعَمَلِ أَهْلِ السَّعَادَةِ، وَأَمَّا أَهْلُ الشَّقَاوَةِ فَيُسَّرُونَ لِعَمَلِ أَهْلِ الشَّقَاوَةِ».

ثُمَّ قَرَأَ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنِيَرُهُ لِلْعُسْرَىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٩ فَسَنِيَرُهُ لِلْعُسْرَىٰ﴾ [الليل: ٥-١٠]. خَرَجَ جَاءُ فِي «الصَّحِيحَيْنِ»^(١).

قال الشيخ:

ذكر هنا صفةً من صفات الله تعالى، وهي العلم العام، وفي ذلك ردٌّ على طائفة من غلاة المعتزلة، الذين يقولون: إنَّ الله لا يعلم بالأشياء حتى تقع، ولا يعلم بها قبل أن يوجدتها، وهم يردُّون بذلك النصوص، ويتنقَّصون الربَّ سبحانه وتعالى، وهؤلاء هم غلاة القدرية قديماً؛ كمعبد الجهمي وغيره، يقولون: إنَّ الأمر أنْفٌ، يعني: أنَّه يستقبل ويستقدم، ولا يعلم الشيء الذي لم يقع. ومن عقيدة أهل السنة أنَّ الله تعالى علم ما الخلق عاملون، بعلمه القديم الذي لا يعزب عن علمه شيء، ﴿وَمَا يَعَزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ [يونس: ٦١]، ويعلم ما كان وما يكون، وما لم يكن لو كان كيف يكون، ويعلم الخفي والجلي، ويعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، يعلم السرِّ وأخفى من السرِّ؛ والسرُّ: هو ما يضمه الإنسان في نفسه، ولا يبيده لأحد، وأخفى منه ما لم يخطر بباله، فيعلم الله أنَّه سيخطر للإنسان كذا وكذا

(١) أخرجه البخاري (١٣٦٢)، ومسلم (٢٦٤٧).

بمّا لم يكن يظنّ أنّه يخطر.

والأدلة على إثبات صفة العلم وقدمه كثيرة مشهورة، وقد جمعها العلماء الذين كتبوا في الصفات، واستوفوا ما ورد فيها من الآيات والأحاديث، وإذا عرف المؤمن أنّ الله تعالى موصوف بالعلم، اعتقد دخول أعمال العباد في علم الله تعالى، وأنّه سبحانه علم من هو سعيد، ومن هو شقيّ، ومن هو فاجر، ومن هو تقيّ، ومن هو فقير، ومن هو غنيّ، ومن هو من أهل الخير، ومن هو من أهل الشرّ، كلّهم قد أحاط الله بهم علماً؛ لهذه الآيات: ﴿إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الأنفال: ٧٥]، ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٠].

يدخل في علم الله كلّ شيء؛ ما لم يكن وما سيكون، كذلك بعد أن علمه الله تعالى، فإنّه قد أثبتته في الذكر في اللوح المحفوظ، «أَوَّلُ مَا خَلَقَ اللَّهُ تَعَالَى الْقَلَمَ، قَالَ لَهُ: اكْتُبْ، فَجَرَى فِي تِلْكَ السَّاعَةِ بِمَا هُوَ كَاتِبٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ»^(١)، ممّا سيوجد وممّن سيولد، ومن أعمال العباد ونحو ذلك. يقول الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحج: ٧٠]، علم ذلك وتفاصيله، وهو يسيرٌ على الله جل وعلا، ويقول تعالى: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحديد: ٢٢]، من قبل أن نبرأ تلك المصيبة، بل من قبل أن نبرأ الخليقة

(١) تقدم تحريجه (١/٤٨١).

كلهم، كتب ذلك في اللوح المحفوظ، كما يشاء الله، وذلك يسيراً على الله، ليس فيه صعوبة؛ لأنه هو الذي يُدبر الخلائق، وهو الذي يعلم أقوالهم، ولا يخفى عليه شيء منهم .

فإذا ما دام أنه خلقهم وأنه هو الذي يتصرف فيهم، فهم لا يخرجون عما علمه فيهم، علم من سيصير منهم إلى الخير، ومن سيصير إلى الشر، ولكن كلفهم وأمرهم بذلك الغيب، وكذلك أعان هؤلاء، وخذل هؤلاء، هدى من شاء، وأضل من شاء، وله الحجة البالغة على عباده.

ولا يقول قائل: إن هذا يُتخذ حجة للكافر بأن يقول: إذا كان الله قد كتب عليّ الشقاء، فليس لي حيلة في أن أرد ما كتب الله، وإذا كان الله كتبني في أمّ كتابه شقيّاً طريداً، فإن ذلك لا يردُّ كتابة الله.

ونقول له: من أدراك بذلك، إنما أنت مأمورٌ بأن تفعل الأسباب، وقد يكون فعلك سبباً من الأسباب التي قدّر الله بها أنك من أهل السعادة أو من أهل الشقاوة.

وقد ذكر العلماء أن القدر على أربعة أنواع:

الأول: التقدير العام: وهو العلم بالكائنات قبل وجودها وكتابتها في اللوح المحفوظ.

الثاني: التقدير السنوي: وهو أن الله يكتب في ليلة القدر ما يكون في تلك السنة من الحوادث، هذه كتابة جزئية يقدر في ليلة القدر، ويكتب فيها ما يكون على وجه الأرض من تلك الليلة إلى مثلها من السنة القابلة، فهذا كتابة أو تقدير أو

علم خاص، وهو السنوي.

الثالث: التقدير العمري: وهو أن المولود إذا علق في رحم أمه أرسل الله تعالى إليه الملك، فقال: يارب، مخلّقة أو غير مخلّقة؟ يعني: هل يتم خلقه ويولد سوياً، أو تسقطه الرحم وتقذفه ميتاً، فإذا قال الله: مخلّقة، قال: يا رب، ذكر أم أنثى؟ فيكتب ذلك، سعيد أم شقي؟ فيكتب ذلك، ويسأل عن رزقه؛ فيخبره الله بأن رزقه يكون كذا وكذا، ويكتب أجله بأنه طويل الأجل أو قصير الأجل، يقدر الله ذلك كله له^(١)، وفي حديث ابن مسعود رضي الله عنه المشهور: «إِنَّ أَحَدَكُمْ يُجْمَعُ خَلْقُهُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ أَرْبَعِينَ يَوْماً، ثُمَّ يَكُونُ عِلْقَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يَكُونُ مُضْغَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يَبْعَثُ اللَّهُ مَلَكًا، فَيُؤَمِّرُ بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ، وَيُقَالُ لَهُ: اكْتُبْ عَمَلَهُ، وَرِزْقَهُ، وَأَجَلَهُ، وَشَقِيًّا أَوْ سَعِيدًا»^(٢)، فيكتب ذلك كله وهو في رحم أمه، فالمؤمن الذي يؤمن بذلك يؤمن بسعة علم الله تعالى، ولكن لا يتخذ ذلك حجة في ترك العمل، بل يعمل، فكلُّ ميسر لما خلق له، كما أخبر بذلك النبي صلى الله عليه وسلم، فإن كان سعيداً فإن الله يسهل له الأسباب التي بها يكون سعيداً، وعليه أن يبذل الأسباب، وإن كان شقياً، فإنّه محروم ولو بذلت الأسباب، فهذا واسع علم الله، يعني: أن الله تعالى عليم بكل شيء، وعلمه قد وسع الخلائق كلها.

وفائدة الإيمان بالعلم المراقبة وهو أنك إذا علمت أن الله عليم بما يجول في

(١) انظر نص الحديث عند البخاري (٣١٨ و ٣٣٣٣ و ٦٥٩٥)، ومسلم (٢٦٤٦).

(٢) تقدم ترجمته (١/٥٣٩)، وسيأتي في كلام الشارح (٢/٤٣٩).

نفسك، وبما تحدّث به قلبك، وبما تهمّ به من طاعة أو معصية، يطلع على ضميرك، ويعلم ما في قلبك، حملك ذلك على أن لا تعمل إلا خيراً، وعلى ألا تحدّث نفسك إلا بخير؛ فبذلك تكون من أهل الخير، أما الإنسان الذي يظنّ أن الله لا يعلمه، ولا يعلم أحواله، فإن هذا الظن ناتج عن الجهل، وهو الذي يوقعه في العصيان، ويجرّئه على المخالفات؛ كأنه يعتقد أنه لا يراه ربّه.

روى ابن مسعود رضي الله عنه قال: «اجتمع عند البيت قرشيّان وثقفيّ، أو ثقفيّان وقرشيّ، كثيرة شحم بطونهم، قليلة فقه قلوبهم، فقال أحدهم: أترون أنّ الله يسمع ما نقول؟ قال الآخر: يسمع إن جهرنا ولا يسمع إن أخفينا، وقال الآخر: إن كان يسمع إذا جهرنا فإنه يسمع إذا أخفينا، فأنزل الله - عزّ وجلّ -: ﴿ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ [فصلت: ٢٢].

فهؤلاء الذين ظنّوا أنّ الله لا يعلم أعمالهم، ماذا حصل لهم بسبب ظنهم هذا؟ حصل لهم أتهم أكثروا من السيئات، وتجرؤوا على المحرمات، ووقعوا في الذنوب، فكان ذلك سبب شقائهم، وإن كان ذلك مكتوباً عليهم في الأزل، لكن منهم سبب وافق ما قدره الله عليهم.

فعلى العبد إذا علم أنّ الله تعالى عليم بأحواله، وبوساوسه، وبخطرات قلبه، وبأعماله، فإن هذا الاعتقاد يحمله على أن يراقب ربه، وعلى ألا يخالفه طرفه عين.

قال الطحاوي:

وَكُلُّ مُيَسَّرٍ لِمَا خُلِقَ لَهُ، وَالْأَعْمَالُ بِالْخَوَاتِيمِ، وَالسَّعِيدُ مَنْ سَعِدَ بِقَضَاءِ اللَّهِ،
وَالشَّقِيُّ مَنْ شَقِيَ بِقَضَاءِ اللَّهِ.

قال الشارح:

تَقَدَّمَ حَدِيثٌ عَلَيَّ ﷺ، وَقَوْلُهُ ﷺ فِيهِ: «اعْمَلُوا فَكُلُّ مُيَسَّرٍ لِمَا خُلِقَ لَهُ» (١).
وَعَنْ زُهَيْرٍ، عَنْ أَبِي الزُّبَيْرِ، عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - قَالَ:
جَاءَ سُرَّاقَةُ بْنُ مَالِكِ بْنِ جُعْشَمٍ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، بَيَّنْ لَنَا دِينَنَا كَأَنَّا خُلِقْنَا
الآنَ، فِيمَ الْعَمَلِ الْيَوْمَ؟ أَفِيمَا جَفَّتْ بِهِ الْأَقْلَامُ، وَجَرَتْ بِهِ الْمَقَادِيرُ، أَمْ فِيمَا يُسْتَقْبَلُ؟
قَالَ: «لَا، بَلْ فِيمَا جَفَّتْ بِهِ الْأَقْلَامُ، وَجَرَتْ بِهِ الْمَقَادِيرُ»، قَالَ: فَفِيمَ الْعَمَلِ؟ قَالَ
زُهَيْرٌ: ثُمَّ تَكَلَّمَ أَبُو الزُّبَيْرِ بِشَيْءٍ لَمْ أَفْهَمُهُ، فَسَأَلْتُ: مَا قَالَ؟ فَقَالَ: «اعْمَلُوا فَكُلُّ
مُيَسَّرٍ». رواه مسلم (٢).

وَعَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدِ السَّاعِدِيِّ ﷺ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ الرَّجُلَ
لَيَعْمَلُ عَمَلَ أَهْلِ الْجَنَّةِ فِيمَا يَبْدُو لِلنَّاسِ وَهُوَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ
عَمَلَ أَهْلِ النَّارِ فِيمَا يَبْدُو لِلنَّاسِ وَهُوَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ»، خَرَّجَاهُ فِي «الصَّحِيحَيْنِ» (٣).

(١) تقدم تخريجه (٢/٤٣٣).

(٢) برقم (٢٦٤٨).

(٣) أخرجه البخاري (٢٨٩٨)، ومسلم (١١٢).

وَرَادَ الْبُحَارِيُّ^(١): «وَاتَّهَا الْأَعْمَالُ بِالْحَوَائِمِ».

وَفِي «الصَّحِيحِينَ»^(٢) أَيضًا عَنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه، قَالَ: حَدَّثَنَا رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم، وَهُوَ الصَّادِقُ الْمَصْدُوقُ: «إِنَّ أَحَدَكُمْ يُجْمَعُ خَلْقُهُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا ثُمَّ يَكُونُ عَلَقَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يَكُونُ مُضْغَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يُرْسَلُ إِلَيْهِ الْمَلَكُ فَيَنْفُخُ فِيهِ الرُّوحَ، وَيُؤَمَّرُ بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ: يَكْتُبُ رِزْقَهُ، وَأَجَلَهُ، وَعَمَلَهُ، وَشَقِيَّيَ أَمْ سَعِيدٍ، فَوَالَّذِي لَا إِلَهَ غَيْرُهُ، إِنْ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا ذِرَاعٌ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ، فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ فَيَدْخُلُهَا، وَإِنْ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا ذِرَاعٌ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ، فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَيَدْخُلُهَا».

قَالَ أَبُو عَمَرَ بْنِ عَبْدِ الْبَرِّ فِي «التَّمْهِيدِ»^(٣): قَدْ أَكْثَرَ النَّاسُ مِنْ تَخْرِيجِ الْأَثَارِ فِي هَذَا النَّبَابِ، وَأَكْثَرَ الْمُتَكَلِّمُونَ مِنَ الْكَلَامِ فِيهِ، وَأَهْلُ السُّنَنِ مُجْتَمِعُونَ عَلَى الْإِيمَانِ بِهَذِهِ الْأَثَارِ وَاعْتِقَادِهَا، وَتَرْكِ الْمَجَادَلَةِ فِيهَا، وَبِاللَّهِ الْعِصْمَةَ وَالتَّوْفِيقُ.

قال الشيخ:

إن الله تعالى علم السعيد والشقي، ولكن قد يعمل الإنسان بعمل أهل الخير،

(١) برقم (٦٦٠٧).

(٢) تقدم تخرجه (٥٣٩/١).

(٣) (١٢/٦).

ثم يرتدّ في آخر عمره ويكون من أهل الشرّ؛ لأن الله كتب عليه الشقاوة. وبالعكس قد يحيى الإنسان مع أهل الكفر، ويقضي عمره كله على الكفر والضلال، ثم يهديه الله قبل أن يموت، فيموت وقد اهتدى.

وقد ذُكر أن الأصيرم من الأنصار كان على دين قومه المشركين، ولم يسلم إلا قبيل معركة أحد فأسلم، ودخل المعركة، واستشهد مع من استشهد، فجعله النبي ﷺ من الشهداء، وقال: «إِنَّهُ لَمِنَ أَهْلِ الْجَنَّةِ»^(١)، رغم أنه لم يصلّ لله ركعة، ولكنه أسلم إسلامًا يقينًا، وجاهد في سبيل الله.

وضدّه رجل كان يُظهر أنه مسلم، ويجتهد في الأعمال، ولمّا حضر المعركة أيضًا قاتل قتالًا شديدًا، حتى قتل ستة أو سبعة، فلما ذكر للنبي ﷺ قال: «إِنَّهُ مِنْ أَهْلِ النَّارِ»، حُتم له بخاتمة سيئة، وهو أنّه لمّا أحسّ بالألم قتل نفسه، فقال النبي ﷺ: «إِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ عَمَلَ أَهْلِ الْجَنَّةِ فِيمَا يَبْدُو لِلنَّاسِ وَهُوَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ»^(٢).

فالأعمال بالخواتيم، والإنسان عليه أن يسأل الله حسن الختام؛ لأنه إذا حُتم له بخاتمة حسنة انتهت بها حياته، كان من أهل السعادة، وإذا استمرّ على العمل السيئ حرم الخير وحُتم له بعمل الشقاوة، والعياذ بالله.

فنعرف بذلك معنى هذا الحديث، أن الرجل يعمل بعمل أهل الجنة فيما يبدو للناس وهو من أهل النار، أو يعمل بعمل أهل الجنة حتى يقرب من الموت،

(١) أخرجه أحمد (٤٢٨/٥)، وابن هشام في السيرة (٣٩٠/٤٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) هو جزء من حديث سهل بن سعد المتقدم تحريجه في الصفحة السابقة.

فيعمل بعمل أهل النار، ويرتد ما بين عشية وضحاها، كما ذكر ذلك النبي ﷺ في حديث الفتن، حيث قال: «يُصْبِحُ فِيهَا الرَّجُلُ مُؤْمِنًا وَيُمْسِي كَافِرًا، وَيُمْسِي مُؤْمِنًا وَيُصْبِحُ كَافِرًا»^(١)، يعني: بين عشية وضحاها يكفر. فهذا يحث الإنسان على أن يتمسك بدينه، وأن يحرص على حسن الخاتمة، ويعرف أن الله تعالى يختم للإنسان بالعمل الذي قدره له، والذي كتبه من أهله، ولكن له في ذلك سبب، وهو أنه إذا أكثر من سؤال الله تعالى أجاب الله دعوته، وإن كان ذلك مكتوباً عليه قبل أن يخلقه.

نحن الآن نقرأ في العقيدة، والعقيدة: ما يعقد عليه القلب، وإذا انعقد القلب على أمرٍ، فإنه لا يتخلى عنه، ولا شك أن من آثار الاعتقاد قوة العمل، فإذا اعتقد العبد أمراً فإنه يلازمه ويتمسك به ويتشبث به بكل قواه، ويتفانى في العمل به، ويصبر على ما يناله، وإذا كانت العقيدة عن يقين صبر على ما يناله من أذى، أو من تعذيب، وبذل في تحقيق ما يعتقد كمال غالي ورخيص حتى نفسه، كما حصل للمؤمنين في كل زمان، الذين بذلوا نفوسهم رخيصةً في سبيل الله، وفي سبيل إعلاء كلمته، كل ذلك لأجل قوة العقيدة في قلوبهم.

ومن العقيدة التي نقرأ فيها: الشهادتان: شهادة أن لا إله إلا الله، ويدخل فيها الإيمان بأسماء الله تعالى وبصفاته، ويظهر على من اعتقدها أثرها، ويدخل فيها أيضاً الإيمان بوحداية الله تعالى وتفرد، ويدخل في ذلك أيضاً الإيمان بقوة الله،

(١) أخرجه مسلم (١١٨) من حديث أبي هريرة ؓ.

وبقهره، وبجبروته، وبخلقه، وبتقديره، وبقدرته على كل شيء، وأثار ذلك عبادة الله وحده، وترك عبادة من سواه.

ويدخل في الشهادة الثانية: الإيمان بصدق النبي ﷺ، وبأمانته، والإيمان بتبليغه للرسالة وبيانها، والإيمان بصحة ما جاء به، وما بلغه، وكونه كله من عند ربه، ويدخل في ذلك وجوب طاعته، ووجوب محبته واتباعه، والتأسي به، والسير على نهجه، وتحكيمه والرضا بحكمه، وعدم الميل عن سنته، ومتى تحقق ذلك؛ ظهر أنه من قوة العقيدة في قلب المؤمن.

يدخل في ذلك أيضًا الإيمان بفضائله ﷺ ومزاياه، وأنه سيّد الخلق يوم القيامة، وأنه الشفيع المشفع، وأنه صاحب المقام المحمود، والخوض المورد، والشفاعة في الآخرة، وكل ذلك يستدعي ممن قال ذلك واعتقد أن يتبعه بالعمل. ويدخل في ذلك الإيمان بكل ما جاء به من عند الله تعالى، وما جاءت به الرسل - عليهم الصلاة والسلام - من عند الله تعالى.

والرسل جميعًا - عليهم الصلاة والسلام - وخاتمهم وأفضلهم محمد ﷺ مكلفون من الله تعالى بتبليغ الرسالة، فأدوا الأمانة، وبلغوا الرسالة، ونصحوا أممهم، فكل ما بلغوه وكل ما جاؤوا به، وكل ما جاء في كتبهم، فالعبد يلتزم به ويصدق، سواء أكان مجملًا أم مفصّلًا، ثم جاءنا التفصيل في كتابنا الذي أنزله الله على قلب محمد ﷺ، فصّلت فيه أحوال الدنيا والآخرة، وما يكون بعد الموت، وما يكون في الدار الآخرة، فيؤمن العبد بذلك ويصدق بتفاصيله، والإجمال في الكتب السابقة نؤمن بها إيمانًا مجملًا، نصدق بأتمها كلام الله، وبأتمها من الله، وبأنه

حَقُّ، وبأن الله كَلَّفَ بها الأمم الذين نزلت عليهم، كَلَّفَهُم بالعمل بتفاصيلها، ولكن نحن ما كَلَّفْنَا بالعلم بتفاصيلها، وإِنَّمَا نُوْمنُ بها مجملَةً، ويدخل ذلك في الإيمان بكتب الله، وأدلة ذلك واضحة، والحمد لله .

فإذا آمن العبد بكل ذلك وبغيره من تفاصيل العقيدة، صدق عليه أنه من أهل العقيدة الراسخة، الذين يعملون عن عقيدة ويقين وإيمان، ولا يردُّهم عن العمل شُبُهَةٌ ولا شك، ولا يعترهم توقُّف ولا ريب .

فإذا اعتقد العبد العقيدة التي هي متلقاة عن الله تعالى التي بعث بها رسوله صلوات الله عليهم، ظهرت آثارها على أعماله، وإذا رأيت المبتدعة الذين يخالفون الأدلة، ذلك على ضعف عقيدتهم، وعلى تزعزعها، وكونها على شفا جُرْفٍ هارٍ، لم تكن راسخة في قلوبهم .

- وهكذا إذا رأيت الذين يتهاونون بالسيئات، ويرتكبون المحرمات، ويتركون الطاعات الواجبة، فإن ذلك دليل على ضعف معتقدتهم؛ لأنها لم ترسخ العقيدة في قلوبهم، ولم يطمئنوا بالإيمان، ولو اطمأنوا به لما أقدموا على هذه المخالفات، ولو استحضروا عظمة ربهم، وأنه يراهم ويعلم سرائرهم وضمائرهم، لما أقدموا على المعاصي، وهم يعرفون أنها معاصي .

فإذا يتفقد الإنسان نفسه، ويتفقد بني جنسه، ويعرف بذلك سليم العقيدة وضعفها، ويعرف بذلك من هو قويّ الإيمان متمكّن منه، قد رسخ الإيمان في سويداء قلبه، فيقول: هذا من أهل العقيدة عرفته بقوة إيمانه، وعرفته بأثار إيمانه، وبقوة تصديقه، وعرفته بالعمل، وبالبعد عن الحرام، وبالبعد عن المشتبهات .

وهذا ضعيف العقيدة عرفته بتساهله في الإيمان، وتساهله في المعاصي، وتساهله في ترك الطاعات، وما أشبه ذلك.

فهذه هي النتيجة والفائدة الصحيحة لعلم هذه العقيدة وتفصيلها، التي فُضِّلَتْ في «الطحاوية»، وكذلك في غيرها من عقائد أهل السنّة؛ تفصيلها تزيد العبد قوة وإيماناً، سواءً منها ما يتعلّق بالعهود وما يتعلّق بالمواثيق، أو ما يتعلّق بدخول الأعمال في مسمّى الإيمان، أو ما يتعلّق بالقضاء والقدر، أو ما يتعلّق بالعلوم الغيبية السابقة واللاحقة، أو ما يتعلّق بالإيمان بالبعث، أو بما بعد البعث، أو ما يتعلّق بالقبر وفتنته ونعيمه، أو ما يتعلّق بالإيمان بالجنة والنار، والثواب والعقاب، والوعد والوعيد، أو ما يتعلّق بالإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله، وما أشبه ذلك، كل ذلك يُعَدُّ تفصيل لأصل هذه العقيدة، ولكن الأصل - كما ذكرنا -: الإيمان بالله سبحانه وتعالى، وبما جاء عن الله على مراد الله.

مر بنا فيما سبق كلام حول المواثيق والعهود التي أخذها الله تعالى على عباده في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ﴾ [الأعراف: ١٧٢]، وعرفنا أنّ هذا - كما ورد في الأحاديث - العهد الذي أخذه الله على بني آدم وهم في صلب آدم، وأنّه العهد الذي فطر الله عليه العباد وجبلهم عليه، وهذا هو الأقرب والأنسب، وبينه قول الله تعالى: ﴿فَطَرَتِ اللَّهُ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾ [الروم: ٣٠]، وقوله في الحديث القدسي: «وَإِنِّي خَلَقْتُ عِبَادِي حُنْفَاءَ كُلُّهُمْ، وَإِنَّهُمْ أَتَتْهُمُ الشَّيَاطِينُ فَأَجْتَالَتْهُمْ عَنْ دِينِهِمْ، وَحَرَمْتُ عَلَيْهِمْ

ما أَحَلَّتْ لَهُمْ، وَأَمَرْتُهُمْ أَنْ يُشْرِكُوا بِي مَا لَمْ أَنْزِلْ بِهِ سُلْطَانًا^(١)، فكونهم حنفاء على الفطرة، والحنيفية التي هي معرفة الله ومعرفة ما خلقوا له، فهذا هو الأقرب، ولكن نؤمن أيضًا أن الله تعالى استخرج ذرية آدم من ظهره، وعرف منهم من هو من أهل الجنة، ومن هو من أهل النار، وقال: هؤلاء إلى الجنة ولا أبالي، وهؤلاء إلى النار ولا أبالي.

فنؤمن بذلك وإن كنا لا نتذكر ذلك العهد، ولكن خبر الله أنف، والأصل أنه معرفة الله تعالى وجبلة العبد التي لو ترك عليها لعرف أنه مخلوق وأن له خالقًا، وأن خالقه له عليه حقوق، فيؤمن العباد بذلك من جملة الإيمان بالغيب، ومن جملة العقيدة التي يعتقدونها.

قال الطحاوي:

وَأَصْلُ الْقَدْرِ سِرُّ اللَّهِ تَعَالَى فِي خَلْقِهِ، لَمْ يَطَّلِعْ عَلَى ذَلِكَ مَلَكَ مُقَرَّبٌ، وَلَا نَبِيٌّ مُرْسَلٌ، وَالتَّعَمُّقُ وَالنَّظَرُ فِي ذَلِكَ ذَرِيعَةُ الْخِذْلَانِ، وَسُلْمُ الْحِرْمَانِ، وَدَرَجَةُ الطُّغْيَانِ، فَالْحَدَرُ كُلُّ الْحَدَرِ مِنْ ذَلِكَ نَظْرًا وَفِكْرًا وَوَسْوَسَةً، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى طَوَى عِلْمَ الْقَدْرِ عَنْ أَنَامِهِ، وَنَهَاهُمْ عَنْ مَرَامِهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي كِتَابِهِ: ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٣]، فَمَنْ سَأَلَ: لِمَ فَعَلَ؟ فَقَدْ رَدَّ حُكْمَ الْكِتَابِ، وَمَنْ رَدَّ حُكْمَ الْكِتَابِ، كَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ».

قال الشارح:

أَصْلُ الْقَدْرِ سِرُّ اللَّهِ فِي خَلْقِهِ، وَهُوَ كَوْنُهُ أَوْ جَدَّ وَأَفْنَى، وَأَفَقَّرَ وَأَغْنَى، وَأَمَاتَ وَأَحْيَا، وَأَضَلَّ وَهَدَى. قَالَ عَلِيُّ عليه السلام: «الْقَدْرُ سِرُّ اللَّهِ، فَلَا تَكْشِفُهُ»^(١).
وَالنِّزَاعُ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَسْأَلَةِ الْقَدْرِ مَشْهُورٌ، وَالَّذِي عَلَيْهِ أَهْلُ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ: أَنَّ كُلَّ شَيْءٍ بِقَضَاءِ اللَّهِ وَقَدْرِهِ، وَأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى خَالِقُ أَفْعَالِ الْعِبَادِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْتَهُ بِقَدْرِ﴾ [القمر: ٤٩]. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقْدَرَهُ نَقْدِيرًا﴾ [الفرقان: ٢]، وَأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يُرِيدُ الْكُفْرَ مِنَ الْكَافِرِ وَيَسْأُوهُ، وَلَا يَرْضَاهُ وَلَا يُحِبُّهُ، فَيَسْأُوهُ كَوْنًا، وَلَا يَرْضَاهُ دِينًا.

(١) أخرجه ابن عساكر في تاريخ دمشق (٤٢/٥١٢، ٥١٣) وفيه: «لا نفسه».

وَخَالَفَ فِي ذَلِكَ الْقَدْرِيَّةَ وَالْمُعْتَزِلَةَ، وَزَعَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَاءَ الْإِيمَانَ مِنَ الْكَافِرِ،
وَلَكِنَّ الْكَافِرَ شَاءَ الْكُفْرَ، فَرُّوا إِلَى هَذَا، لِئَلَّا يَقُولُوا: شَاءَ الْكُفْرَ مِنَ الْكَافِرِ، وَعَذَّبَهُ
عَلَيْهِ! وَلَكِنْ صَارُوا كَالْمُسْتَجِيرِ مِنَ الرَّمْضَاءِ بِالنَّارِ! فَإِنَّهُمْ هَرَبُوا مِنْ شَيْءٍ، فَوَقَعُوا
فِيهَا هُوَ شَرٌّ مِنْهُ، فَإِنَّهُ يَلْزِمُهُمْ أَنَّ مَشِيئَةَ الْكَافِرِ غَلَبَتْ مَشِيئَةَ اللَّهِ تَعَالَى، فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ
شَاءَ الْإِيمَانَ مِنْهُ - عَلَى قَوْلِهِمْ - وَالْكَافِرَ شَاءَ الْكُفْرَ، فَوَقَعَتْ مَشِيئَةُ الْكَافِرِ دُونَ مَشِيئَةِ
اللَّهِ تَعَالَى! وَهَذَا مِنْ أَفْحِ الْإِعْتِقَادِ، وَهُوَ قَوْلٌ لَا دَلِيلَ عَلَيْهِ، بَلْ هُوَ مُخَالَفٌ لِلدَّلِيلِ.

رَوَى اللَّالِكَايِيُّ^(١)، مِنْ حَدِيثِ بَقِيَّةِ، عَنْ الْأَوْزَاعِيِّ، حَدَّثَنَا الْعَلَاءُ بْنُ
الْحَجَّاجِ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ الْمَكِّيِّ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: أَنَّ رَجُلًا قَدِمَ عَلَيْنَا يُكَذِّبُ
بِالْقَدْرِ، فَقَالَ: دُلُّونِي عَلَيْهِ، وَهُوَ يَوْمٌ أَعْمَى، فَقَالُوا لَهُ: مَا تَصْنَعُ بِهِ؟ فَقَالَ: وَالَّذِي
نَفْسِي بِيَدِهِ، لَئِنْ اسْتَمَكَنْتُ مِنْهُ، لَأَعْضَنَ أَنْفَهُ حَتَّى أَقْطَعَهُ، وَلَئِنْ وَقَعَتْ رَقَبَتُهُ بِيَدِي
لَأَدْقَنْتُهَا، فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «كَأَنِّي بِنِسَاءِ بَنِي فَهْمٍ يَطْفَنُ
بِالْخَزْرَجِ، تَصْطَكُ أَلْيَاهُنَّ مُشْرِكَاتٍ، وَهَذَا أَوَّلُ شُرْكَ فِي الْإِسْلَامِ، وَالَّذِي نَفْسِي
بِيَدِهِ لَا يَنْتَهِي بِهِمْ سُوءَ رَأْيِهِمْ حَتَّى يُخْرِجُوا اللَّهَ مِنْ أَنْ يُقَدَّرَ الْخَيْرُ، كَمَا أَخْرَجُوهُ
مِنْ أَنْ يُقَدَّرَ الشَّرُّ»^(٢).

قَوْلُهُ: وَهَذَا أَوَّلُ شُرْكَ فِي الْإِسْلَامِ، إِلَى آخِرِهِ، مِنْ كَلَامِ ابْنِ عَبَّاسٍ. وَهَذَا يُوَافِقُ
قَوْلَهُ: الْقَدْرُ نِظَامُ التَّوْحِيدِ، فَمَنْ وَحَدَّ اللَّهُ، وَكَذَّبَ بِالْقَدْرِ، نَقَضَ تَكْوِينَهُ تَوْحِيدَهُ.

(١) في شرح أصول اعتقاد أهل السنة (٤/٦٢٥).

(٢) وأخرجه أيضًا أحمد (١/٣٢٩)، وابن أبي عاصم في السنة (١/٣٩).

قال الشيخ:

يذكر الشارح أن القدر سرُّ الله تعالى في كونه وفي أمره، ووجه كونه سرًّا لا يعلمه البشر: أن الربَّ - سبحانه وتعالى - له الحكمة في كونه هدى هذا وأضلَّ هذا، ولا يُسأل عمَّا يفعل وهم يسألون، ولا يجوز للعباد أن يسألوا الربَّ عن الأسباب في أفعاله سبحانه، فلا يُقال: لماذا حبس الله الخير؟ ولماذا أنزل الله العذاب؟ ولماذا خلق الله الأمراض؟ ولماذا خلق الله الحشرات والأضرار؟ ولماذا خلق الله السباع؟ ولماذا سلَّط الله على المؤمنين الأمراض والعاهات والفقر؟ ولماذا سلَّط عليهم الكفار؟ لماذا أفقر هذا وأغنى هذا؟.

لكن - مع ذلك - نعرف أنه سبحانه حكيم، يضع الأشياء في مواضعها اللائقة بها، فلا يفعل شيء عبثاً ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا﴾ [المؤمنون: ١١٥]، وليس شيء من خلقه موجود إلا للحكمة، ولم يسَلِّط عقوبة ويخلق مرضاً إلا لمصلحة وحكمة، سواءً أعلمنا تلك الحكمة أم حُجبت عنا؛ لأن هذا مقتضى أنه الحكيم ذو الحكمة، التي هي غاية المصلحة، ولكن ليس لنا الاعتراض على تصرُّفه، فهو سبحانه يتصرَّف في خلقه كيف يشاء، فيهدي هذا فضلاً منه، ويضلَّ هذا عدلاً منه، ويغني ويفقر، ويميت ويحيي، ويسعد ويشقي، ويمنع ويعطي، لا رادَّ لقضائه، ولا معقَّب لحكمه، وليس لنا أن نعترض على الله تعالى، بل نؤمن بذلك كلِّه، ونقول: لا نعلم الحكمة في ذلك، ولا نعلم السرَّ في ذلك،

فالقدر سرُّ الله في خلقه.

هذا من ناحية خلقه للأشياء الضارّة والنافعة معاً، ولا شك أن خلق الخير والشرِّ، وخلق النفع والضرِّ المتضادَّ؛ أنّها دليل على كمال القدرة، فإننا إذا رأينا أنّه فرّق بين الأخوين هذا غني وهذا فقير، هذا سليم وهذا مريض، هذا سعيد وهذا شقي، هذا مهتدٍ وهذا ضالٌّ، مع كونها على حدٍّ سواء، فهذا يدلُّ على كمال التصرف، وأنّه تصرف في خلقه كما يشاء، وأنّه خلق الضدّين، وذلك دليل كمال القدرة، فالظلمة ضدُّها النور، والليل ضدُّه النهار، وكذلك المزدوجات؛ كما في قوله تعالى: ﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الذاريات: ٤٩]، يعني:

ذكرًا وأنثى، فهكذا أيضًا المتضادات: الصّحة والمرض ضدّان، والخير والشرِّ ضدّان، والغنى والفقر، والسعادة والشقاوة، الله تعالى هو الذي خلقها وقدرها، ولكن نعرف أن كل ما صدر عن الله تعالى فإنّه خير؛ ولذلك ورد في حديث الاستفتاح: «لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ وَالْخَيْرُ كُلُّهُ فِي يَدَيْكَ وَالشَّرُّ لَيْسَ إِلَيْكَ»^(١).

معلوم أنّ الله هو الذي يقدر الأمراض، وهو الذي يقدر الفقر والمصائب، وهو الذي يقدر العاهات على العباد والحوادث ونحوها، ولكن هل يُقال: إنّها شرٌّ بالنسبة إلى الله؟ والجواب: أنها ليست شرًّا، بل هي لحكمة، ومحض مصلحة. فهذا معنى قوله ﷺ: «وَالشَّرُّ لَيْسَ إِلَيْكَ».

وإذا تتبعت القرآن والأدلة تجد أن كل ما فيه ضرر وشرٌّ ينسب إلى الإنسان،

(١) أخرجه مسلم (٧٧١) من حديث علي بن أبي طالب ؓ.

وإن كان الله هو الذي أوجده وكونه وقدره، وقد حكى الله عن إبراهيم - عليه السلام - أنه قال: ﴿وَإِذَا مَرَضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِي﴾ [الشعراء: ٨٠]، لم يقل: وإذا أمرضني، بل قال: وإذا مرضت، مع أن الله هو الذي ينزل المرض ويقدره، ولكن لا يضاف إليه الشر المحض.

وحكى الله عن مؤمني الجن أنهم قالوا: ﴿وَأَنَا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ [الجن: ١٠]، فالشر قالوا فيه: ﴿أُرِيدُ﴾، وفي الخير قالوا: ﴿أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾؛ وذلك تنزيه لله تعالى عن أن يصدر منه شر محض، وإن كان هو الذي قدر الشر وخلقته وكونه، فإنه لا يكون في الوجود إلا ما يريد، فيعتقد العبد أن صدور من الله تعالى خير ولمحض مصلحة، وليس فيه أي ضرر بالنسبة إلى الله، ولو كان في ذلك كراهية للعباد وضرر عليهم، لكن ما خلقه وقدره إلا الحكمة ومصلحة، فهو خير، فلا يضاف الشر إلى الله تعالى. هذا هو قول أهل السنة.

أما المعتزلة فقد أنكروا أن يكون الله تعالى يخلق أفعال العباد، وجعلوا العبد هو الذي يخلق فعله، وجعلوا العباد هم الذين يهدون أنفسهم ويضلونها، وكذبوا بالنصوص الواردة في مثل إضافة الأفعال إلى الله تعالى، كقوله تعالى: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ﴾ [النحل: ٣٧]، وكقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُضِلِّ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ [الزمر: ٣٦، ٣٧]، وكذلك قول النبي ﷺ في خطبة الحاجة: «مَنْ يَهْدِهِ اللَّهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ

يُضِلُّ فَلَا هَادِيَ لَهٗ»^(١).

من هذا كله نعلم أن الله هو الذي هدى هذا وأقبل بقلبه إلى الخير، وأضلَّ هذا وصرفه إلى الشرِّ، وله المِنَّةُ والنعمة على المهتدين، وهو العادل في صرف هؤلاء المعتدين الظالمين، وما عذبهم وهو ظالم لهم، وثو عذب أهل سمواته وأهل أرضه لعذبهم وهو غير ظالم لهم، ولو رحمهم لكانت رحمته أفضل من أعمالهم.

فعلى هذا نقول: إنَّ الله تعالى هو الذي خلق أفعال العباد، فلو شاء لما ضلَّ هذا ولما اهتدى هذا، فهو الذي منَّ على هذا وهداه، وهو الذي أضلَّ هذا وصرفه، قال تعالى: ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا﴾ [الأنعام: ١٢٥]. وقد حكى الله عن المشركين أنهم يتعلَّقون بعموم المشيئة، ولا متعلِّق لهم في ذلك، فإذا قال المشركون مثلاً: ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاءُنَا وَلَا حَرَمًا مِنْ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ١٤٨]، ﴿أَنْطَعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ اللَّهُ أَطَعَمَهُ﴾ [يس: ٤٧]، نقول: حقاً، لو شاء الله ما أشركتم، ولكنه سبحانه خذلكم عدلاً منه، ولم يُقدِّر لكم الهداية، لكن أعطاكم قوةً وأعطاكم اختياراً، وأعطاكم ميلاً وتفضيلاً، فصرتم به مائلين إلى أفعال الشرِّ، وإلى الكفر، وإلى المعاصي، فميلكم هذا واختياركم، وإن كان مسبوفاً بقضاء الله وقدره، هو الذي تستحقُّون عليه العقوبة؛ فلذلك يقول أهل السنَّة: إنَّ الله تعالى تغلب قدرته

(١) تقدم تخریجه (١/٦٦).

قدرة العباد، ولكن أعطانا قوّة وقدرة واستطاعة نتمكّن بها من مزاولة الأعمال، وقدرة الله وإرادته ومشيئته غالبّة على قدرة العباد ومشيئتهم وإرادتهم، ولأجل ذلك يقول تعالى: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ [الإنسان: ٣٠].

والمعتزلة لم تتسع قلوبهم لهذا، فقالوا: إن قدرة العبد غلبت قدرة الله، ويقولون: إنّه يكون في الوجود ما لا يريد، وإنّه أراد من الناس كلّهم أن يؤمنوا، ولكن غلبت قدرة هؤلاء الكفار قدرة الله، فاختاروا الكفر؛ فغلبت قدرتهم، فكان في الكون من يخلق مع الله؛ لأنّهم خلقوا أفعالهم مستقلّين بها، دون أن يكون لله تصرف فيهم ولا قدرة عليهم، فكانوا بذلك كالمستجير من الرمضاء بالنار، كأنّهم يقولون: لو أنّه خلق فيهم ذلك وعذبهم، لكان ظلماً لهم، كيف يعذبهم وهو الذي خلق فيهم الكفر، وخلق فيهم المعاصي، وأقدرهم عليها.

نقول: أنتم فررتم من شيء ووقعتم في شرّ منه حيث جعلتم الله مغلوباً على أمره حين قلت: إنّه يعصى قسراً، وإنّ قدرتهم تغلب قدرته، تعالى الله عن ذلك!! ولأجل هذا الاعتقاد الذي هو قولهم: إنّ مع الله من يخلق، سمّوا «مجوس هذه الأمة» لأنّ المجوس يجعلون الأمر صادراً عن خالقين: النور والظلمة، فالنور هو الذي يخلق الخير، والظلمة هي التي تخلق الشرّ. والقدرية ينكرون قدرة الله، ويجعلون العباد يخلقون أفعالهم مستقلّين بها، ولا يجعلون لله قدرة على الهداية، ولا على الإضلال.

وبكلّ حال فإن عقيدة أهل السنّة: أنّ الله تعالى قدرة تغلب قدرة العباد،

ولكن يثيب العباد ويعاقبهم على ما أوجد فيهم من القدرة والاستطاعة، التي يتمكنون بها من مزاولة الأعمال، فثواب العباد وعقابهم على طاعتهم كما في قوله: ﴿جَزَاءُ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٧]، بما قدّمت أيديكم، وبما كسبت أيديكم، فما دام أنهم أسندت إليهم الأعمال، فمنهم من عمل بها، ومنهم من لم يعمل، فلا بدّ أن لهم استطاعةً وقدرةً يتمكنون بها من إيجاد الإيمان والكفر، وإيجاد الطاعات والمعاصي، ولكن كل ذلك مسبوق بقدرة الخالق تعالى وباختياره وبقهره، ولو شاء الله لما حصل ذلك منهم ﴿قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَيْتُكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٩]، فلله الحجة على خلقه، فهو الذي يقدر على أن يعطي هذا الهداية منّا منه وكرماً، ويخذل هذا.

والبحث في هذا بحثٌ واسع يتعلّق بالقضاء والقدر، وقد أطال فيه العلماء حتى يبتلوا شبهة طائفتين؛ طائفة غلت في الإثبات، وطائفة غلت في النفي، فالذين غلوا في الإثبات يسمّون المجرّة أو الجبريّة، وقد غلوا في الإثبات حتّى سلبوا العبد قدرته واختياره، وجعلوه كالشجرة تحرّكها الرياح، ليس له أي اختيار، وجعلوا تعذيبه على المعاصي ظلماً من الله له - تعالى الله عن قولهم - وتوسّط أهل السنّة والجماعة وجعلوا للعبد قدرة وإرادة، والله خالقه وخالق قدرته وإرادته، وجعلوا العباد فاعلين حقيقة تضاف إليهم أعمالهم، فالعبد هو المؤمن والكافر، والبرّ والفاجر، والمصلّي والصائم، تُسند إليه هذه الأعمال وإن كانت بقضاء الله وبقدره وبخلقه وبإرادته؛ حيث لا يخرج شيءٌ عن إرادة الله تعالى.

قال الشارح:

وَرَوَى عُمَرُ بْنُ الْهَيْثَمِ قَالَ: خَرَجْنَا فِي سَفِينَةٍ، وَصَحِبْنَا فِيهَا قَدْرِيَّ وَجُوسِيَّ، فَقَالَ الْقَدْرِيُّ لِلْمَجُوسِيِّ: أَسْلِمَ، قَالَ الْمَجُوسِيُّ: حَتَّى يُرِيدَ اللَّهُ، فَقَالَ الْقَدْرِيُّ: إِنَّ اللَّهَ يُرِيدُ، وَلَكِنَّ الشَّيْطَانَ لَا يُرِيدُ، قَالَ الْمَجُوسِيُّ: أَرَادَ اللَّهُ وَأَرَادَ الشَّيْطَانُ، فَكَانَ مَا أَرَادَ الشَّيْطَانُ! هَذَا شَيْطَانٌ قَوِيٌّ!! وَفِي رِوَايَةٍ أَنَّهُ قَالَ: فَأَنَا مَعَ أَقْوَاهِمَا!!^(١)

وَوَقَفَ أَعْرَابِيٌّ عَلَى حَلْقَةٍ فِيهَا عَمْرُو بْنُ عَبِيدٍ، فَقَالَ: يَا هَؤُلَاءِ إِنَّ نَاقِيِي سُرِقَتْ، فَادْعُوا اللَّهَ أَنْ يُرُدَّهَا عَلَيَّ، فَقَالَ عَمْرُو بْنُ عَبِيدٍ: اللَّهُمَّ إِنَّكَ لَمْ تُرِدْ أَنْ تُسْرِقَ نَاقِيِيهِ فَسُرِقَتْ فَارُدُّهَا عَلَيَّ، فَقَالَ الْأَعْرَابِيُّ: لَا حَاجَةَ لِي فِي دُعَائِكَ، قَالَ: وَلِمَ؟ قَالَ: أَخَافُ - كَمَا أَرَادَ أَنْ لَا تُسْرِقَ فَسُرِقَتْ - أَنْ يُرِيدَ رَدَّهَا فَلَا تُرُدُّ!!^(٢)

وَقَالَ رَجُلٌ لِأَبِي عِصَامِ الْقَسْطَلَانِيِّ: أَرَأَيْتَ إِنْ مَنَعَنِي الْهُدَى وَأُورَدَنِي الضَّلَالَ، ثُمَّ عَذَّبَنِي، أَيْكُونُ مُنْصِيفًا؟ فَقَالَ لَهُ أَبُو عِصَامٍ: إِنْ يَكُنِ الْهُدَى شَيْئًا هُوَ لَهُ، فَلَهُ أَنْ يُعْطِيَهُ مَنْ يَشَاءُ، وَيَمْنَعُهُ مَنْ يَشَاءُ.

وَأَمَّا الْأَدِلَّةُ مِنَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ: فَقَدْ قَالَ تَعَالَى: ﴿لَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ

هُدًىهَا وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾

(١) أخرجه ابن قتيبة في تأويل مختلف الحديث (ص ٨٢)، وابن المستفاض في القدر (ص ٢٤٤)، والآجري في الشريعة (٢/ ٩٦١)، وابن بطة في الإبانة (٢/ ٢٧٩).

(٢) أخرجه ابن بطة في الإبانة (٢/ ٢٨٠)، واللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة (٤/ ٧٤٠).

[السجدة: ١٣]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مِنَ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تَكْفُرُهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٩٩]، وقال تعالى: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [الإنسان: ٣٠]، وقال تعالى: ﴿مَنْ يَشَأِ اللَّهُ يُضِلَّهُ وَمَنْ يَشَأِ يُجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الأنعام: ٣٩]، وقال تعالى: ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصْعَقُ فِي السَّمَاءِ﴾ [الأنعام: ١٢٥].

قال الشيخ:

في هذه القصص التي حكاها الشارح ما يُبطل قول المعتزلة؛ ففي القصة الأولى مجوسي وقدري، ومعلوم أن المجوس يجعلون الكون صادرًا عن خالقين، خالق الخير وخالق الشرِّ، فهذا المجوسي باقٍ على مجوسيته، فدعاه هذا القدري للإسلام! فقال المجوسي: لا أسلم حتى يريد الله أن أسلم، فقال ذلك القدري: الله يريد الإسلام منك، ولكن الشيطان هو الذي يريد منك الكفر! فتعجب ذلك المجوسي، وقال: هذا شيطان قوي؛ قوَّة الشيطان غلبت قوَّة الله! الله أراد أن أؤمن، والشيطان أراد أن أكفر، فغلبت إرادة الشيطان إرادة الله. فخصم بذلك وهزم المعتزلي، ولو أنه قال: إن الله تعالى أراد كلَّ شيءٍ، أراد منك الإيمان وأحبه منك، ولكن جعلي لك قدرةً وميلاً واستطاعةً تزاوُل بها العمل، لكان ذلك أقرب إلى أن يتقبَّل. فهذه لا شكَّ أنها دالَّة على أن المعتزلة

متذبذبون في شبهاتهم، وفي حججهم.

وأما القصة الثانية: قصة الأعرابي الذي سُرق ناقته، فدعا له هذا المعتزلي وقال: اللهم إنك لم ترد أن تسرق ناقته فارددها!! ولكن الأعرابي فطن وقال للمعتزلي: الله ما أراد أن تُسرق وسُرق، فإذا لو أراد أن يردها لن يقدر، فلا حاجة لي في دعائك.

فالله تعالى هو الذي يريد كل شيء، ولا يكون في الوجود إلا ما يريد، ولكنه يقدر هذه الأشياء كما يشاء.

والأدلة التي أوردها الشارح واضحة الدلالة في أن مشيئة الله تعالى وقدرته عامة، وأنه لا يكون في الوجود إلا ما يريد، فإن قوله تعالى: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ [الإنسان: ٣٠]، أي مشيئتهم التي تزاولون بها الأعمال مرتبطة بمشيئة الله، ﴿مَنْ يَشَأِ اللَّهُ يُضِلَّهُ وَمَنْ يَشَأِ يُجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الأنعام: ٣٩]، فأضلاله لهؤلاء عدلٌ منه، ولكن معلوم أنه مكّنهم من الأعمال فزاولوا الأعمال السيئة من الكفر والذنوب، فعذبوا على تلك المزاولة التي صاروا بها كفاراً مقدّمين للكفر ومقدّمين للمعاصي، وهدى المؤمنين وأقبل بقلوبهم ومكّنهم وأعطاهم قدرة يزاولون بها الطاعات والإيمان، فصاروا بذلك مؤمنين مطيعين، فعذب هؤلاء على معاصيهم وكفرهم، وإن كان بقضاء وقدر، وأثاب هؤلاء على إيمانهم وطاعتهم، وإن كان بقضاء وقدر.

وبعد، فإن من أركان الإيمان بالله: الإيمان بقضائه وقدره، فهو ركن من

أركان الإيمان الستة، بينه النبي ﷺ بقوله: «الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره»^(١).

وذكره الله تعالى بقوله: ﴿إِنَّا كُلُّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: ٤٩]، وذكره الله

تعالى بقوله: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ قَدْرَهُ نَفْدِيرًا﴾ [الفرقان: ٢].

والإيمان بالقدر على درجتين، كل درجة تتضمن شيئين:

الدرجة الأولى: تتضمن أن الله تعالى علم الأشياء ثم كتبها، أولاً العلم، وثانياً

الكتابة، وقد دلَّ على ذلك قوله تعالى: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ

وَعَلَّمَ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظِلْمَتِ الْأَرْضِ

وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩]، هذا دليل على الكتابة. كذلك

قول النبي ﷺ: «أَوَّلُ مَا خَلَقَ اللَّهُ تَعَالَى الْقَلَمَ، قَالَ لَهُ: اكْتُبْ، فَجَرَى فِي نَلِكَ

السُّمُومَةُ بِمَا هُوَ كَاتِبٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ»^(٢)، أي: إنه تعالى علم ما سوف يحدث من أوَّل

الدنيا إلى آخرها، وأثبت ذلك، وليس في ذلك صعوبة على الله، قال تعالى:

﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا

إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحديد: ٢٢]، والله هو الذي أوجد للكائنات فلا يكون

(١) أخرجه مسلم برقم (٨) من حديث عمر بن الخطاب ؓ.

(٢) تقدم تخريجه (١/ ٤٨١)، وسيأتي الكلام على هذا الحديث في تعليق ساحة الشيخ على قول

الطحاوي: «وتؤمن باللوح والقلم، وبجميع ما فيه قدر رقم».

في الوجود إلا ما يريد، وحيث إنها تكون بإرادته سبحانه وتعالى، فإنها كذلك كائنة بعد خلقه وبعد إيجاده لها، فهو علمها قبل أن توجد، وأثبتها في اللوح المحفوظ كما أخبر بذلك .

وقد كان غلاة القدر قديماً ينكرون هذا النوع، ويقولون: إن الله لا يعلم بالأشياء حتى تقع، وبعضهم يقول: إنه يعلم الكليات ولا يعلم الجزئيات، بمعنى: أنه لا يعلم مفردات الأشياء، وإن كان يعلم عموماتها، وقد أوردنا فيما سبق أثر ابن مسعود رضي الله عنه حيث قال: «اجتمع عند النبي قُرَيشِيَانِ وَتَقْفِيَانِ، أَوْ تَقْفِيَانِ وَقُرَيشِي، كَثِيرَةٌ شَحْمٌ بَطُونُهُمْ، قَلِيلَةٌ فَفَهُ قُلُوبُهُمْ، فَقَالَ أَحَدُهُمْ: أَتَرُونَ أَنَّ اللَّهَ يَسْمَعُ مَا نَقُولُ؟ قَالَ الْآخَرُ: يَسْمَعُ إِنْ جَهَرْنَا وَلَا يَسْمَعُ إِنْ أَخْفَيْنَا، وَقَالَ الْآخَرُ: إِنْ كَانَ يَسْمَعُ إِذَا جَهَرْنَا فَإِنَّهُ يَسْمَعُ إِذَا أَخْفَيْنَا، فَأَنْزَلَ اللَّهُ - عَزَّ وَجَلَّ - : ﴿وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَذَلِكَ ظَنُّكُمْ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرَدْتُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [فصلت: ٢٢، ٢٣] ^(١)، فهكذا ظن هؤلاء الذين يظنون أن الله لا يعلم أعمالهم، أو أنه يخفى عليه شيء من أحوالهم، أو أنهم يكونون في مكانٍ أو موضعٍ لا يراهم ربهم، أو نحو ذلك.

فإذا آمن العبد بأن الله عالمٌ بسرّه، وعالمٌ بنجواه، وعالمٌ بأحواله، وعالمٌ بما هو عامل، وأنه قد كتب أعماله قبل أن يوجد، وقد كتب ما هو كائن، ويعلم ما

(١) تقدم تخرجه (٤/٤٣٧).

توسوس به نفسه، وما يجول ويتحدّث به في قلبه، ترتب على إيمانه بذلك أنّه يخاف الله حقّ الخوف، فإنّ من علم أنّ أعماله محصاةٌ عليه، وعلم أنّها مكتوبة لا تضيع دقيقتها وجليلها، كبيرها وصغيرها، وآته سوف يحاسب عليها، وآته سوف يوقف عليها، كما في قوله تعالى: ﴿ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَهِيَ مَكْنُومًا

حَسِيرًا ﴾ [الأنبياء: ٤٧]، فهذه درجة من درجات القدر، وهي الإيمان بأنّ الله عالم بالأعمال وبالمخلوقات، وعالم بعددها، وكتب ذلك وأثبتته قبل أن توجد المخلوقات بأسرها، وآته لا يحدث إلا ما علم الله أنّه سيحدث، في الوقت الذي قدر أنّه يحدث فيه، دون تقدّم أو دون تأخّر.

أما الدرّجة الثانية: والتي تتضمّن شيئين أيضًا، فهي الإيمان بإرادة الله تعالى ويخلقه، هذه الدرّجة تتضمّن أنّ الله أراد ما في الكون وخلقته، والإرادة عامّة لا يكون شيء في الوجود خارجًا عنها، وهي الإرادة الكونيّة القدرية، وهي بمعنى المشيئة، فلهذا يقول المسلمون: ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن. ويقولون: لا حول ولا قوة إلا بالله، فلا يكون في الوجود حركة إلا بإرادة الله ومشيئته، ولا يكون لإنسان حول إلا بإذن الله، ولا يكون له قوّة ولا قنطرة ولا استطاعة على أمر من الأمور إلا بالله تعالى، فما شاءه كان وإن لم يشأ العباد، وما شاءه العباد لا يكون إذا لم يشأ الله، وفي هذا المعنى قال الشافعي - رحمه الله - في

أبيات مشهورة^(١):

فَمَا شِئْتُ كَانَ وَإِنْ لَمْ أَشَأْ وَمَا شِئْتُ إِنْ لَمْ تَشَأْ لَمْ يَكُنْ
 فيؤمن العبد بأن ما شاء الله كان وإن لم يشأ الخلق، وما لم يشأ لن يكون وإن
 شاء الخلق، ومصدق ذلك في قول النبي ﷺ لابن عباس - رضي الله عنهما -:
 «وَأَعْلَمُ أَنَّ الْأُمَّةَ لَوْ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ
 اللَّهُ لَكَ، وَلَوْ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ
 عَلَيْكَ»^(٢). ومع ذلك، فإننا إذا آمننا بكتابة هذه المخلوقات، وبإيجاد الله لها،
 لا يكون ذلك عذراً لنا في ترك الأعمال، بل يزيدنا ذلك نشاطاً في العمل وجدداً
 واجتهاداً، وما ذلك إلا أننا خلقنا للعمل، وأعطينا من القوة التي بإرادة الله ما
 نستطيع به مزاوله الأعمال.

فهذا هو الجمع بين كون الله تعالى خالقاً ما في الوجود، وأنه يريد ما في
 الكون، وبين كونه أراد من العباد أفعالهم التي هي الطاعات والإيمان، أراد ذلك
 ديناً وشرعاً، وأمرهم بما هم قادرون على امتثاله، وأعطاهم من القوة ما يزاولون
 به تلك الأعمال، وما يصحح أن تنسب إليهم، ويثابون عليها ويعاقبون على أفعالهم،
 فبهذا يجمع إيمان أهل السنة بما ذكرنا، ويكون هذا من السر الذي لا يعلم كيفيته
 إلا الله، كما تقدم لنا أن القدر سرُّ الله تعالى في خلقه.

(١) تقدم ذكرها (١/٥٤٧).

(٢) تقدم تخريجه (١/٥٤٧).

قال الشارح:

وَمَنْشَأُ الضَّلَالِ: مِنَ التَّسْوِيَةِ بَيْنَ الْمَشِيئَةِ وَالْإِرَادَةِ، وَبَيْنَ الْمَحَبَّةِ وَالرِّضَا، فَسَمَوِيٌّ
بَيْنَهُمَا الْجَزِيئَةُ وَالْقَدَرِيَّةُ، ثُمَّ اخْتَلَفُوا، فَقَالَتِ الْجَزِيئَةُ: الْكُونُ كُلُّهُ بِقَضَائِهِ وَقَدَرِهِ،
فَيَكُونُ مَحْبُوبًا مَرْضِيًّا، وَقَالَتِ الْقَدَرِيَّةُ النُّفَاةُ: لَيْسَتْ الْمَعَاصِي مَحْبُوبَةً لِلَّهِ،
وَلَا مَرْضِيَّةً لَهُ، فَلَيْسَتْ مُقَدَّرَةً، وَلَا مَقْضِيَّةً، فَهِيَ خَارِجَةٌ عَنِ مَشِيئَتِهِ وَخَلْقِهِ.

وَقَدْ دَلَّ عَلَى الْفَرْقِ بَيْنَ الْمَشِيئَةِ وَالْمَحَبَّةِ الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ وَالْفِطْرَةُ الصَّحِيحَةُ،
أَمَّا نُصُوصُ الْمَشِيئَةِ وَالْإِرَادَةِ مِنَ الْكِتَابِ، فَقَدْ تَقَدَّمَ ذِكْرُ بَعْضِهَا، وَأَمَّا نُصُوصُ
الْمَحَبَّةِ وَالرِّضَا، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ﴾ [البقرة: ٢٠٥]، ﴿وَلَا يُحِبُّ
لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ﴾ [الزمر: ٧]، وَقَالَ تَعَالَى عَقِيبَ مَا نَهَى عَنْهُ مِنَ الشُّرْكِ وَالظُّلْمِ

وَالْفَوَاحِشِ وَالْكِبْرِ: ﴿كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا﴾ [الإسراء: ٣٨].

وَفِي «الصَّحِيحِ» عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ كَرِهَ لَكُمْ ثَلَاثًا: قِبَلَ وَقَالِهِ، وَكَثْرَةَ
السُّؤَالِ، وَإِضَاعَةَ الْمَالِ»^(١).

وَفِي «الْمُسْنَدِ»^(٢): «إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ أَنْ يُؤَخَذَ بِرُخْصِيهِ، كَمَا يَكْرَهُ أَنْ تُسَوَّى
مَعْصِيَتُهُ». وَكَانَ مِنْ دَعَائِهِ ﷺ: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِرِضَاكَ مِنْ سَخَطِكَ، وَأَعُوذُ
بِمُعَافَاتِكَ مِنْ عُقُوبَتِكَ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْكَ»^(٣).

(١) أخرجه البخاري (١٤٧٧)، ومسلم (٥٩٣) من حديث المغيرة بن شعبة ؓ.

(٢) (١٠٨/٢) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(٣) تقدم تخريجه (٤٤٠/١).

فَتَأْمَلُ ذِكْرَ اسْتِعَاذَتِهِ بِصَفَةِ الرِّضَا مِنْ صِفَةِ السَّخَطِ، وَيَفْعَلُ الْمَعَاذَةَ مِنْ فِعْلِ
 الْعُقُوبَةِ، فَالْأَوَّلُ لِلصَّفَةِ، وَالثَّانِي لِأَثَرِهَا الْمُرْتَبُّ عَلَيْهَا، ثُمَّ رَبَطَ ذَلِكَ كُلَّهُ بِذَاتِهِ
 سُبْحَانَهُ، وَأَنَّ ذَلِكَ كُلُّهُ رَاجِعٌ إِلَيْهِ وَخَدَهُ لَا إِلَى غَيْرِهِ، فَمَا أَعُوذُ مِنْهُ وَاقِعٌ بِمَشِيئَتِكَ
 وَإِرَادَتِكَ، وَمَا أَعُوذُ بِهِ مِنْ رِضَاكَ وَمُعَافَاتِكَ هُوَ بِمَشِيئَتِكَ وَإِرَادَتِكَ، إِنْ شِئْتَ أَنْ
 تَرْضَى عَنْ عَبْدِكَ وَتُعَافِيَهُ، وَإِنْ شِئْتَ أَنْ تَغْضَبَ عَلَيْهِ وَتُعَاقِبَهُ، فَإِعَاذَتِي مِثْلَ أَكْرَهُ،
 وَمَنْعُهُ أَنْ يَحِلَّ بِي، هِيَ بِمَشِيئَتِكَ أَيْضًا، فَالْمَحْبُوبُ وَالْمَكْرُوهُ كُلُّهُ بِقَضَائِكَ
 وَمَشِيئَتِكَ، فَعِيَاذِي بِكَ مِنْكَ، فَعِيَاذِي بِحَوْلِكَ وَقُوَّتِكَ وَرَحْمَتِكَ مِثْلًا يَكُونُ
 بِحَوْلِكَ وَقُوَّتِكَ وَعَدْلِكَ وَحِكْمَتِكَ، فَلَا أَسْتَعِيدُ بِغَيْرِكَ مِنْ غَيْرِكَ، وَلَا أَسْتَعِيدُ
 بِكَ مِنْ شَيْءٍ مِمَّا دَرَّ عَنْ غَيْرِ مَشِيئَتِكَ، بَلْ هُوَ مِنْكَ، فَلَا يَعْلَمُ مَا فِي هَذِهِ الْكَلِمَاتِ
 مِنَ التَّوْحِيدِ وَالْمَعَارِفِ وَالْعُبُودِيَّةِ إِلَّا الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ بِاللَّهِ وَمَعْرِفَتِهِ وَمَعْرِفَةَ
 حُبِّ دِينِهِ.

قال الشيخ:

يقول الشارح: إِنَّ الَّذِينَ ضَلُّوا فِي هَذَا الْبَابِ سَوَّاءٌ بَيْنَ الْمَشِيئَةِ وَالْإِرَادَةِ،
 وَالصَّحِيحُ أَنَّهُ بَيْنَهُمَا فَرْقًا، فَإِنَّ الْإِرَادَةَ تَقْسَمُ قَسْمَيْنِ: إِرَادَةَ شَرْعِيَّةً، وَإِرَادَةَ قَدْرِيَّةً.
 فَالْإِرَادَةُ الْقَدْرِيَّةُ هِيَ بِمَعْنَى الْمَشِيئَةِ، وَالْإِرَادَةُ الشَّرْعِيَّةُ هِيَ الَّتِي بِمَعْنَى الْمَحَبَّةِ، فَاللَّهُ
 تَعَالَى أَرَادَ الطَّاعَاتِ شَرْعًا وَأَحَبَّهَا، وَأَرَادَ الْمَعَاصِيَ كَوْنًا وَكَرْهًا، وَلَمْ يُحِبَّهَا، وَلَكِنَّهُ
 قَدَّرَهَا وَأَرَادَهَا وَشَاءَهَا، وَلَوْ لَمْ يَشَأْهَا لَمْ تَكُنْ، وَلَكِنَّهُ مَا رَضِيَهَا وَلَا أَحَبَّهَا، بَلْ
 كَرَّهَا وَتَوَعَّدَ عَلَيْهَا، وَلَوْ كَانَتْ بِمَشِيئَتِهِ وَبِقُدْرَتِهِ وَإِرَادَتِهِ الْكُونِيَّةِ، حَتَّى لَا يَكُونَ

فی الوجود ما لا یرید، وحتى لا یُعصی ربنا قسراً علیه، فنعرف بذلك أن هناك فرقاً بین المشیئة والإرادة الشرعیة.

فالإرادة الشرعیة: هی كونه تعالى یرید الطاعات یعنی شرعها وأرادها وأحبها، وقد ذكر الله هذه الإرادة فی مواضع، كقوله تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمْ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥]، فهذه إرادة شرعیة، كذلك قوله تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ (٦١) وَأَللهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا (٢٧) يُرِيدُ اللهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ﴾ [النساء: ٢٦-٢٨]، فهذه الإرادات كلها إرادة شرعیة.

نقول: إن الله تعالى أراد الطاعات شرعاً، وأراد من العباد كلهم الإيمان شرعاً، أراد منهم الطاعات، فأراد منهم الصيام والصدقات والزكوات والجهاد والحج والعمرة والذكر والقراءة وأنواع الطاعات، وأحب هذه الطاعات، وأراد منهم ترك المعاصي شرعاً، وكرهها، فهذه إرادة شرعیة، وهي تستلزم المحبة للمراد. فإذا شرع الله شيئاً وأراده شرعاً فإنه يحبه ولو لم يكن، فيحب الإيمان من الخلق كلهم ولو لم يحصل إلا من بعضهم، ويحب الصلوات من الناس كلهم ولو أن بعضهم ما حصلت منه الصلاة، ويحب الصوم، ويحب الصدقات، ويحب الجهاد، ويحب التوبة، ويحب الاستغفار، ويحب الأذكار، ويحب التلاوة، يحب ذلك منهم، وقد أراد شرعاً، ولكنه لم يحصل إلا من البعض، وهم المسلمون

المؤمنون. فهذه إرادة شرعية، وهي التي ذكرنا أن الله تعالى يحب ما يترتب عليها، ولكنها لا تستلزم حصول المراد، فقد يريد شرعاً أمراً ولكنه لا يحصل؛ لكونه ما أَرَادَهُ قَدَرًا، يعني: أراد من الكفار الإيمان شرعاً ولم يرده قدرًا، فلذلك لن يحصل، وأراد من العصاة أن يطيعوه، ولكنه لم يرده قدرًا ولم يشأه؛ فلذلك لم يحصل. هذا معنى الإرادة الشرعية.

أما الإرادة الكونية: فهي التي لا بد أن يقع مرادها، وقد ذكرت في آيات كثيرة؛ كقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾ [المائدة: ١]، وقوله: ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا﴾ [الأنعام: ١٢٥]، فهذه إرادة كونية، يعني: مكتوبة في الكون وفي الأزل، وهي القدرية، وهي التي يقع المراد بها، ولكن ليس محبوبًا كله، فليس ما يريد الله من هذه الكائنات يكون دائمًا محبوبًا، فلذلك نقول: إنه أراد المعاصي كونًا ولكنه لا يحبها، وأراد الكفر كونًا ولكنه لا يحبها، ولم يرده شرعًا، ومع ذلك لو لم يشأه ولو لم يرده لما حصل، فإنه لا يكون في الوجود إلا ما يريد، ولما لم يحبها ولم يأمر به شرعًا بل كرهه؛ كان مترتبًا عليه العقاب.

فهذا هو المراد بكونه سبحانه لا يكون في الوجود إلا ما يريد، ولكن غلا في هذه الإرادة قوم، ونفاها قوم، وتقابل الطرفان أو الطائفتان، فطائفة جبرية، جعلوا كل الموجودات مخلوقة لله، ولم يجعلوا للإنسان أي تصرف، بل جعلوه مجبورًا ليس له أي اختيار، وقالوا: إن عقوبته على المعاصي ظلم؛ لأنه مقسور

ومجبور عليها، فهذه الطائفة هم الجبرية.

والطائفة الثانية التي قابلتهم: هم نفاة قدرة الله، الذين يقولون: ننزه الله عن الظلم، فنقول: إنَّه لو خلق هذه المعاصي وعاقب عليها لكان ظلماً. فهذه الطائفة غلت في النفي فقالت: إنَّ أعمال العباد ومعاصيهم وطاعاتهم ليست من خلق الله، بل من خلقهم ومن إيجادهم، وأنَّ العباد هم الذين يوجدون أفعالهم. فهذه الطائفة غلت في النفي فجعلت الإنسان يخلق فعله، ونفت أن يكون لله أي قدرة على أفعال العبد، وزعموا بذلك أنَّهم أهل العدل والإنصاف.

وكلا الطائفتين ضالٌّ، فالطائفة الأولى جعلت للكفار وللعصاة عذراً؛ لأنهم يقولون: كيف يخلقنا ويخلق فينا المعاصي ثم يعاقبنا عليها؟ والطائفة الثانية جعلت مع الله من يخلق، وجعلت كل إنسان خالقاً مستقلاً بأفعاله، وكذبت بالأدلة التي تثبت أنَّ الأمر بيد الله تعالى، يضلُّ من يشاء، ويهدي من يشاء.

وتوسَّط أهل الحقِّ وقالوا: إنَّ الكائنات حاصلةٌ بقدرة الله، كلها طاعات ومعاصي، ولكن تنسب إلى العبد، فالله أعطى العبد قدرة يزاوِل بها الأعمال، ويصح نسبتها إليه، ولأجل ذلك يقولون: إن العباد فاعلون حقيقة، والله خالقهم وخالق أفعالهم، فالعبد هو المرء من الكافر والبرُّ والفاجر والمصلِّي والصائم، تنسب أفعاله إليه، وإن كانت بقضاء الله تعالى وقدره، ويارادته الكونية، وبمشيئته التي حصلت بإرادة الله، ولكنها تُنسب إلى العبد، ولو سلينا العبد هذه القدرة لبطلت الشريعة، وفي بطلان الشريعة بطلان الحكمة من إرسال الرسل وإنزال الكتب، ومن الأوامر والنواهي، ومن خلق الثواب والعقاب، والله تعالى منزَّه عن

ذلك، فلو لم يكن للعباد القدرة على مزاوله أعمالهم لما أمروا، ولأجل ذلك توجه إليهم الإرشادات، فيقول الله تعالى: ﴿وَقُلْ أَعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عِلْمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [التوبة: ١٠٥]، فأخبر بأن لهم أعمالاً، لو لم يكونوا قادرين لما أمروا بها، ولكن الله تعالى خالقهم وخالق قدرتهم، وقدرتهم مسبوقة بقدرة الله.

أما أدلة الرضا فقد أورد منها الشارح الآيات والأحاديث في إثبات أن الله تعالى يرضى ويسخط، وللرضا والسخط أسباب ذكرها في هذه الآيات، أو أشار إلى بعضها، فتراه تارة يثبت الرضا، وتارة ينفيه، يقول الله تعالى: ﴿إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ [الزمر: ٧]، فأخبر بأنه لا يرضى عن الكفر، ومعناه أنه يكرهه، وأخبر بأنه يرضى بالشكر ﴿وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ﴾، وأضاف هنا الكفر إليهم؛ لأنه صدر بأفعالهم، وإن كانت مقدرة، والشكر إليهم ﴿وَإِنْ تَشْكُرُوا﴾.

وهكذا الحديث: «إِنَّ اللَّهَ كَرِهَ لَكُمْ ثَلَاثًا: قَيْلٌ وَقَالَ، وَكَثْرَةُ السُّؤَالِ، وَإِضَاعَةُ الْمَالِ»^(١)، فأثبت الرضا، وأثبت السخط، وأثبت الكراهية؛ أثبت أن هذه المعاصي يكرهها الله، ومعلوم أنه نهى عنها العباد، وما نهاهم إلا ولهم قدرة على الانتهاء، وعلى أن ينزجروا ويتركوا الأعمال السيئة التي منها الكفر.

(١) تقدم تحريجه (٢/ ٤٦١).

فالحاصل: أن من عقيدة أهل السنة إثبات أن الله يرضى ويسخط، ويحب ويكره، وأن الأعمال التي يحبها قد أمر بها عباده، وأنه ما أمرهم إلا وهم قادرون، وأن الأعمال التي نهى عنها يسخطها ويكرهها، وقد نهاهم عنها، ولا ينهاتهم إلا عن شيء يقدر على فعله، فإن العاجز لا يُنهى عن شيء يعجز عن فعله، فلا يُقال - مثلاً - للإنسان: لا تحيي الموتى؛ لأنه عاجز عن إحيائهم، فلا يُنهى عنه. ولا يُقال له - مثلاً -: لا تخلق الأرض؛ لأنه عاجز عن أن يخلقها، بخلاف ما إذا قيل له: لا تقتل النفس التي حرم الله، فإنه في إمكانه أن يقتل، أو لا تنزن، أو لا تأكل الحرام، فلا يُنهى عن شيء لا يستطيعه، بخلاف ما يستطيعه، فيقال له مثلاً: احمل هذا الكرسي، أو انقل هذا المصحف من مكان إلى مكان، أو يقال له: قم واركع ركعتين، هذه باستطاعته فعله، فيؤمر بها يستطيع، ونهى عما هو ممكن أن يفعل، ولا يُؤمر بالمستحيل أن يفعله، ولا يُنهى عن الشيء الذي مستحيل فعله.

قال الشارح:

فَإِنْ قِيلَ: كَيْفَ يُرِيدُ اللَّهُ أَمْرًا وَلَا يَرْضَاهُ وَلَا يُجِبُّهُ؟ وَكَيْفَ يَشَاؤُهُ وَيَكُونُهُ؟
وَكَيفَ يَجْتَمِعُ إِرَادَتُهُ لَهُ وَبُغْضُهُ وَكَرَاهَتُهُ؟

قِيلَ: هَذَا السُّؤَالُ هُوَ الَّذِي افْتَرَقَ النَّاسُ لِأَجْلِهِ فِرْقًا، وَتَبَايَنَتْ طُرُقُهُمْ
وَأَقْوَالُهُمْ.

فَاعَلِمَ أَنَّ الْمُرَادَ نَوْعَانِ: مُرَادٌ لِنَفْسِهِ، وَمُرَادٌ لِغَيْرِهِ. فَاَلْمُرَادُ لِنَفْسِهِ مَطْلُوبٌ
مَحْبُوبٌ لِذَاتِهِ وَمَا فِيهِ مِنَ الْخَيْرِ، فَهُوَ مُرَادٌ إِرَادَةَ الْغَايَاتِ وَالْمَقَاصِدِ.

وَالْمُرَادُ لِغَيْرِهِ قَدْ لَا يَكُونُ مَقْصُودًا لِلْمُرِيدِ، وَلَا فِيهِ مَصْلَحَةٌ لَهُ بِالنَّظَرِ إِلَى ذَاتِهِ،
وَإِنْ كَانَ وَسِيلَةً إِلَى مَقْصُودِهِ وَمُرَادِهِ، فَهُوَ مَكْرُوهٌ لَهُ مِنْ حَيْثُ نَفْسُهُ وَذَاتُهُ، مُرَادٌ لَهُ
مِنْ حَيْثُ إِفْضَاؤُهُ وَإِصْصَالُهُ إِلَى مُرَادِهِ. فَيَجْتَمِعُ فِيهِ الْأَمْرَانِ: بُغْضُهُ وَإِرَادَتُهُ،
وَلَا يَتَنَافَيَانِ، لِاخْتِلَافِ مَتَعَلِّقَتَهُمَا. وَهَذَا كَالدَّوَاءِ الْكَرِيمِ، إِذَا عَلِمَ الْمُتَنَاوِلُ لَهُ أَنَّ فِيهِ
شِفَاءً، وَقَطَعَ الْعُضْوِ الْمَتَأَكِّلِ، إِذَا عَلِمَ أَنَّ فِي قَطْعِهِ بَقَاءَ جَسَدِهِ، وَكَمُطْعِ الْمَسَافَةِ
الشَّاقَةِ، إِذَا عَلِمَ أَنَّهَا تُوصِلُ إِلَى مُرَادِهِ وَحُبُّوبِهِ. بَلِ الْعَاقِلُ يَكْتَفِي فِي إِشَارِهِ هَذَا
الْمَكْرُوهِ وَإِرَادَتِهِ بِالظَّنِّ الْغَالِبِ، وَإِنْ خَفِيَ عَنْهُ عَاقِبَتُهُ، فَكَيْفَ يَمَنُّ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ
خَافِيَةٌ؟

فَهُوَ سُبْحَانَهُ يَكْرَهُ الشَّيْءَ، وَلَا يُنَافِي ذَلِكَ إِرَادَتُهُ لِأَجْلِ غَيْرِهِ، وَكَوْنُهُ سَبَبًا إِلَى
أَمْرٍ نَمُو أَحَبُّ إِلَيْهِ مِنْ قُوَّتِهِ.

مِنْ ذَلِكَ: أَنَّهُ خَلَقَ إِبْلِيسَ، الَّذِي هُوَ مَادَّةٌ لِفَسَادِ الْأَدْيَانِ وَالْأَعْمَالِ
وَالْإِغْتِمَادَاتِ وَالْإِرَادَاتِ، وَهُوَ سَبَبٌ لِشَقَاوَةِ كَثِيرٍ مِنَ الْعِبَادِ، وَعَمَلَهُمْ بِمَا يُغْضِبُ

الرَّبُّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وَهُوَ السَّاحِي فِي وُقُوعِ خَلْقِ مَا يُحِبُّهُ اللَّهُ وَيَرْضَاهُ، وَمَعَ هَذَا، فَهُوَ وَسِيلَةٌ إِلَى مَحَابِّ كَثِيرَةٍ لِلرَّبِّ تَعَالَى تَرْتَبُ عَلَى خَلْقِهِ، وَوُجُودُهَا أَحَبُّ إِلَيْهِ مِنْ عَدَمِهَا:

مِنْهَا: أَنَّهُ تَظَهَّرَ لِلْعِبَادِ قُدْرَةُ الرَّبِّ تَعَالَى عَلَى خَلْقِ الْمُتَضَادَّاتِ الْمُتَقَابِلَاتِ، فَخَلَقَ هَذِهِ الذَّاتِ الَّتِي هِيَ أَحَبُّ الذَّوَاتِ وَشَرُّهَا، وَهِيَ سَبَبُ كُلِّ شَرٍّ فِي مُقَابَلَةِ ذَاتِ جِبْرِيلَ، الَّتِي هِيَ مِنْ أَشْرَفِ الذَّوَاتِ وَأَطْهَرِهَا وَأَزْكَاهَا، وَهِيَ مَادَّةُ كُلِّ خَيْرٍ، فَتَبَارَكَ خَالِقُ هَذَا وَهَذَا. كَمَا ظَهَرَتْ قُدْرَتُهُ فِي خَلْقِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَالذَّاءِ وَالذَّوَاءِ، وَالْحَيَاةِ وَالْمَوْتِ، وَالْحَسَنِ وَالْقَبِيحِ، وَالخَيْرِ وَالشَّرِّ. وَذَلِكَ مِنْ أَدَلِّ الدَّلِيلِ عَلَى كَمَالِ قُدْرَتِهِ وَعِزَّتِهِ وَمُلْكِهِ وَسُلْطَانِهِ، فَإِنَّهُ خَلَقَ هَذِهِ الْمُتَضَادَّاتِ، وَقَابَلَ بَعْضَهَا بِبَعْضٍ، وَجَعَلَهَا مَحَالَ تَصَرُّفِهِ وَتَدْبِيرِهِ. فَخَلُقُوا الوجودَ عَنْ بَعْضِهَا بِالْكُلِّيَّةِ تَنْطِيسًا لِحُكْمَتِهِ، وَكَمَالِ تَصَرُّفِهِ، وَتَدْبِيرِ مَمْلُوكَتِهِ.

وَمِنْهَا: ظُهُورُ آثارِ أَسْمَائِهِ الْقَوْرِيَّةِ، مِثْلُ: الْقَهَّارِ، وَالْمُنْتَقِمِ، وَالْعَدْلِ، وَالضَّامِرِ، وَالشَّدِيدِ الْعِقَابِ، وَالسَّرِيعِ الْحِسَابِ، وَذِي الْبَطْشِ الشَّدِيدِ، وَالْخَافِضِ، وَالْمُذَلِّ، فَإِنَّ هَذِهِ الْأَسْمَاءِ وَالْأَفْعَالَ كَمَالٌ لَا بُدَّ مِنْ وُجُودِ مُتَعَلِّقِهَا، وَلَوْ كَانَ الْجِنُّ وَالْإِنْسُ عَلَى طَبِيعَةِ الْمَلَائِكَةِ لَمْ يَظْهَرِ أَثَرُ هَذِهِ الْأَسْمَاءِ.

قال الشيخ:

هذا الاعتراض كثيرًا ما يردده العصاة، ويقولون - إذا نصحناهم عن

المعصية -: إن الله ما هداننا، إن الله قدر علينا هذا، ولو أنه هداننا لما أخرجنا عن

الطاعة، فتتوقف حتى يهدينا الله، ويستمرُّون في المناصي، ويحتجُّون بمثل هذه الحجج، ويقول بعضهم: كيف يقدر علينا أن نكفر وأن نفسق أو نعصي ثم مع ذلك يعذبنا ويعاقبنا؟ لو كان يعذب على ذلك ما قدره ولا أوجده ولا أراد كوناً وقدرًا، فدائمًا يحتجون بهذه الأمور المقدرة، ويقولون: صحيح إن الله أرادها كونًا، وأنَّه قدرها وأنَّه لو شاء لما حصلت، ولكن هو سبحانه أرادها.

ونقول لهم: لا يلزم من إرادة الله لها أنَّه يحبها، ولا يلزم من كراهته لبعضها أنَّه لا يحب، فهو أراد الكفر كونًا، وهو يكرهه ويكره أهله شرعًا، وأراد الطاعات وهو يحبها، وإن لم تحصل من البعض.

مر بنا في كلام الشارح أن المرادات إما أن تكون مرادة لنفسها، وإما أن تكون مرادة لغيرها، فالطاعات مرادة لنفسها؛ مثل: الإيمان، والسنن، والصالحات، والحسنات، وسائر الطاعات مرادة لنفسها، أرادها الله من المؤمنين وحصلت؛ لأنَّه يحبها. وأما المعاصي، فإنَّه أرادها ولكن لغيرها، لم يردها لذاتها، وإنَّما أرادها لمصلحة قد تظهر وقد تخفى للبعض.

وذكر الشارح بعض الحكم في إيجاد هذه المخلوقات الشريفة، وكذلك في إيجاد المعاصي، وتقدير الكفر، وتقدير البدع، وفشوؤها وانتشارها وما أشبه ذلك، فمن ذلك أنَّه شاء هذه الأشياء كونًا، يعني: الكفر والمعاصي والبدع، وقدرها حتى يمتحن عباده المؤمنين ويبتليهم بمجاهدتها وببغضها وببغض أهلها، وبمعرفة ما يجب عليهم نحوهم، فلو كان الناس كلُّهم مؤمنين ما حصل بفسق من في الله، ولكن نحن نبغض من يبغضه الله، ولو كان الناس كلُّهم مؤمنين ما حصل

جهاد في سبيل الله، ولو كان الناس كلهم مؤمنين ما حصل ولاءٌ وبراءٌ.
ثم أيضًا من حكمة الله في إيجادها: إظهار قدرة الله، فالله تعالى قد أظهر قدرته
العامة ووجدت آثارها، فمن آثارها: عقوبات العصاة وما أنزل بهم من المثلات،
فلو كان الناس كلهم مؤمنين ما أغرق هؤلاء، ولا أهلك هؤلاء بصيحة،
ولا أرسل على هؤلاء الريح العقيم، ولا أهلك هؤلاء بعذاب يوم الظلة.
فمن حكمة الله في إيجاد ذلك أن تُعرف قدرة الله؛ حيث إنه ينتقم ممن عصاه
ويعاقبه، ويعجل له العذاب في الدنيا؛ ليكون ذلك دليلًا على العذاب في الآخرة،
ولو كان الناس كلهم مؤمنين لما كان في الآخرة إلا دارٌ واحدة وهي الجنة، تركته
تعالى قدر في الدنيا معاصي حتى يكون للدُّار الآخرة نصيبٌ، فإنه خلق الدارين
الجنة والنار، وهما ضدّان، كما خلق في الدنيا الخير والشرّ، والإيمان والكفر،
وكذلك سائر المتضادات، وكل واحد مضادٌ للآخر أو مقابل له، فمثلًا: الليل
يقابله النهار، والنور تقابله الظلمة، والخير يقابله الشرّ، والذكر يقابله الأنثى،
والبياض يقابله السواد مثلًا، كذلك الطاعة مع المعصية، والكفر مع الإيمان،
والعقوبة مع الثواب، والوعد مع الوعيد ضدّان متقابلان، فخلق الضدين دليل
على كمال القدرة، فيؤمن العبد إذا رأى تخلق المتضادات بكمال قدرة القادر، وأنَّ
هذه قدرة الله، حيث خلق هذه الأشياء، ثم مع ذلك نحن نؤمن بأنّه ما خلق شيئًا
إلا وله فيه حكمة، ولا يجوز أن نعترض على الله في خلقه لشيء من مخلوقاته.
ويُروى أن أحدهم رأى دابة الخنفساء، فقال: لبيت الله ما خلقها، أو لما إذا
خلق هذه الدابة؟ هذه الخنفساء لا فائدة فيها ولا منفعة!! فاعترض على الله في

خلقتها، فابتلي بقرحة خرجت فيه، ولم يوجد لها علاج إلا خنفساء أُحرقَت ودُرَّ عليه رمادها فبرأ، فعرف أن الله ما خلق شيئاً إلا وله حكمة في ذلك.

فلا يجوز أن تقول: ليت الله ما خلق السباع، وليت الله ما خلق هذه الحيات ولا هذه الهوام، التي ليس فيها إلا مضرّةٌ وضرر على العباد. بل تقول: إنّه خلق هذه لتعلم بذلك قدرته، وليعلم أنّه قادرٌ على خلق الأضداد، وليكون ذلك آيةً من آياته:

وَفِي كُلِّ شَيْءٍ لَّهُ آيَةٌ تَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّهُ وَاحِدٌ^(١)

فهذه المخلوقات كبيرها وصغيرها كلّها دالةٌ على كمال قدرته، إذا تأملها الإنسان عرف بذلك كمال قدرة القادر، مع أنّها لا تحصى، دواب البرّ من طيور ومن دواب تدبّ على الأرض، لا يحصيها إلا الله تعالى، في خلقها عجائب من عجائب الله، ودواب البحر مع كثرتها أيضاً وتفاوتها، وما أشبه ذلك، كلها فيها عجائب من قدرة الله تعالى، فخلقها ليس عبثاً، لم يخلق الله شيئاً إلا وله في ذلك حكمة، حتى البعوضة والنملة والذرة ونحو ذلك من الدواب الصغيرة، ولو كان على الناس ضرر من هذه السباع التي تأكل دوابهم، أو من هذه الحيات والهوام ونحوها، أو من هذا الذباب الذي يقع عليهم أو على طعامهم، أو من هذا البعوض الذي يلدغهم، فإنّ الله تعالى حكيم.

وأيضاً فإنّ له الحكمة حتى فيها يجريه من الأمراض ونحوها، هذه الأمراض

التي أنزلها الله يسّطها على من يشاء، ولا يجوز أيضًا أن يُعترض على الله ولا يقال: ليت الله ما خلق الحمى، ولا خلق المرض كذا وكذا، بل الله له الحُكمة في خلقه، وفي أمره.

وبكل حال، فإنَّ إيجاد هذه الأشياء لأجل الحكمة، ولأجل إظهار القدرة وكما لها.

ويُقال مثل ذلك أيضًا في الحكمة في خلق إبليس وأعوانه الذي هو مادة الشرِّ ونحوه، والحكمة في خلق الكفار وانتشارهم، وكذلك في تقويتهم وإمدادهم بالقوة والذخائر ونحو ذلك، والحكمة في تمكينهم من الأعمال التي عملوها وما أشبه ذلك، ومن تسليطهم أحيانًا على المؤمنين، لا شكَّ أنَّ الله تعالى له الحكمة في ذلك، فلا يعترض على الله، بل يؤمن العبد بأنَّه هو القادر على كل شيء، وأنَّ ذلك دليل على كمال قدرته وتمام تصرّفه.

قال الشارح:

وَمِنْهَا: ظُهُورُ آثَارِ أَسْمَائِهِ التَّضَمُّنَةِ لِحَلْمِهِ وَعَفْوِهِ وَمَغْفِرَتِهِ وَسِتْرِهِ وَتَجَاوُزِهِ عَنِ حَقِّهِ، وَعِتْفِهِ لِمَنْ شَاءَ مِنْ عِبِيدِهِ، فَلَوْ لَا خَلَقَ مَا يَكْرَهُهُ مِنَ الْأَسْبَابِ الْمَفْضِيَةِ إِلَى ظُهُورِ آثَارِ هَذِهِ الْأَسْمَاءِ، لَتَعَطَّلَتْ هَذِهِ الْحِكْمُ وَالْفَوَائِدُ، وَقَدْ أَشَارَ النَّبِيُّ ﷺ إِلَى هَذَا بِقَوْلِهِ: «لَوْ لَمْ تُذْنِبُوا، لَدَهَبَ اللَّهُ بِكُمْ، وَجَاءَ بِقَوْمٍ يُذْنِبُونَ وَيَسْتَغْفِرُونَ، فَيَذَرُكُمْ»^(١).

وَمِنْهَا: ظُهُورُ آثَارِ أَسْمَاءِ الْحِكْمَةِ وَالْخَيْرَةِ، فَإِنَّهُ الْحَكِيمُ الْخَيْرُ، الَّذِي يَضَعُ الْأَشْيَاءَ مَوَاضِعَهَا، وَيُنْزِلُهَا مَنَازِلَهَا اللَّائِقَةَ بِهَا، فَلَا يَضَعُ الشَّيْءَ فِي خَيْرٍ مَوْضِعِهِ، وَلَا يُنْزِلُهُ فِي خَيْرٍ مَنَزِلَتِهِ الَّتِي يَفْتَضِيهَا كَمَا لِعِلْمِهِ وَحِكْمَتِهِ وَخَيْرَتِهِ، فَهُوَ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَاتِهِ، وَأَعْلَمُ بِمَنْ يَصْلُحُ لِقَبُولِهَا، وَيَشْكُرُهَا عَلَى انْتِهَائِهَا إِلَيْهِ، وَأَعْلَمُ بِمَنْ لَا يَصْلُحُ لِذَلِكَ. فَلَوْ قَدَّرَ عَدَمُ الْأَسْبَابِ الْمَكْرُوهَةِ، لَتَعَطَّلَتْ حِكْمُ كَثِيرَةٌ، وَلَفَانَتْ مَصَالِحُ عَدِيدَةٌ، وَلَوْ عَطَّلْتَ تِلْكَ الْأَسْبَابَ لَسَا فِيهَا مِنَ الشَّرِّ، لَتَعَطَّلَ الْخَيْرُ الَّذِي هُوَ أَعْظَمُ مِنَ الشَّرِّ الَّذِي فِي تِلْكَ الْأَسْبَابِ، وَهَذَا كَالشَّمْسِ وَالْمَطَرِ وَالرِّيَّاحِ، الَّتِي فِيهَا مِنَ الْمَصَالِحِ مَا هُوَ أضعَافُ أضعَافٍ مَا يَحْتَمِلُ بِهَا مِنَ الشَّرِّ.

وَمِنْهَا: حُضُورُ الْعُبُودِيَّةِ الْمُتَوَحَّعَةِ الَّتِي لَوْ لَا خَلَقَ إِبْلِيسَ لَسَا حَصَلَتْ، فَإِنَّ عُبُودِيَّةَ الْجِبَادِ مِنْ أَحَبِّ أَنْوَاعِ الْعُبُودِيَّةِ إِلَيْهِ سُبْحَانَهُ، وَلَوْ كَانَ النَّاسُ كُلُّهُمْ

(١) أخرجه مسلم (٢٧٤٩) من حديث أبي هريرة ؓ.

مُؤْمِنِينَ، لَتَعَطَّلَتْ هَذِهِ الْعُبُودِيَّةُ وَتَوَابِعُهَا مِنَ الْمُوَالَاةِ لِلَّهِ . سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى . وَالْمُعَادَاةِ فِيهِ، وَعُبُودِيَّةُ الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَعُبُودِيَّةُ الصَّبْرِ، وَخَالِفَةِ الطُّمُوسِ، وَإِثَارِ حَبَابِ اللَّهِ تَعَالَى، وَعُبُودِيَّةُ التَّوْبَةِ وَالِاسْتِغْفَارِ، وَعُبُودِيَّةُ الْإِسْتِمَاذَةِ بِاللَّهِ أَنْ يُجِيرَهُ مِنْ عَدُوِّهِ، وَيَعْصِمَهُ مِنْ كَيْدِهِ وَأَذَاهُ، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ الْحِكْمِ الْعَبِي تَعْمِيرُ الْعُقُولِ عَنْ إِذْرَاكِهَا.

قال الشيخ:

أشار الشارح إلى الحكمة في أن الله تعالى أوجد المعاصي والطاعات، وأوجد في الدنيا عصاةً ومطيعين، وأوجد أسباباً يتمكن بها البعض من مزاولة المعاصي، أو تكون سبباً لانتشار بعضها، وأسباباً تكون سبباً في الطاعات ونحوها، ويطول البحث فيها؛ فمثلاً: العصاة أسباب معاصيهم كثيرة؛ فمنها: الشهوات التي تنزّين لهم، ومنها: الدنيا التي تبسط على كثير منهم، فيتمادون في المعصية، ومنها الهوى الذي يميل بكثير منهم، ومنها: دعاة الضلال الذين يدعون إلى الباطل ويوالون فيه، ومنها وساوس الشيطان التي هي سبب للضلال والكفران ونحو ذلك.

كذلك أيضاً أسباب الطاعة التي منها: إرسال الرسل ودعاتهم، ومنها: قراءة كتب الله وما يكون بها من الاهتداء ومنها دعوة المؤمنين إلى الله إخوانهم وترغيبهم بالخير وتعليمهم إياه، وذكر الطرق التي يتوصلون بها إلى الطاعات ونحو ذلك.

فوجد في الحياة الدنيا طاعات ومعاصي، ووجد فيها كفر وإيمان، ولو كان

الناس كلهم مؤمنين لما ظهرت آثار أسماء الله، فمن أسماء الله: العزيز، والجبار، والمتقم، وشديد العقاب. ولو لم يكن هناك من يعاقب لما عرفنا ماذا يكون معنى شديد العقاب، أو عزيزٌ ذو انتقام، أو المتقم، ولو كان الناس كلهم مطيعين، لما انتقم الله من هذا العاصي.

ومن حكمة الله في إيجاد المعاصي ظهور آثار أسمائه الحسنی التي تدل على كماله سبحانه، فمن أسماء الله: الرؤوف، والرحيم بالعباد، والمعطي، والمفضل، ولو كان الناس كلهم على الإيمان الكامل، ما حصل أنه رحم هؤلاء، وعفا عن هؤلاء، وغفر لهؤلاء، وتاب على هؤلاء، فإنه ليس هناك معاصي يتوب هذا منها، ولا يستغفر هذا منها، فيغفر له كما في الحديث: «مَنْ يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبَ لَهُ، مَنْ يَسْأَلُنِي فَأَعْطِيَهُ، مَنْ يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرُ لَهُ»^(١).

لو كان الناس كلهم مطيعين ما حصلت آثار ذلك. كذلك أيضًا من أسمائه: الحكيم، والحكيم هو الذي يضع الأشياء في مواضعها اللائقة بها، فلو كان كل الناس مطيعين ما حصلت آثار الحكمة. ومن حكمته أنه يعاقب هذا عقوبةً في موضعها، ومن حكمته أنه يثيب هذا، ومن حكمته أنه يعطي هذا، ويمنع هذا، ويرفع هذا ويخفض هذا، ويعزّ هذا، ويذلّ هذا، ونحو ذلك، فقدّر الله وجود المعاصي حتى تظهر آثار هذه الأسماء التي هي من أسماء الله تعالى الحسنی.

(١) أخرجه البخاري (١١٤٥)، ومسلم (٧٥٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

هذا الكلام ونحوه استنبطه العلماء من وجود هذه الطاعات والمعاصي،
وكون الناس كلهم ليسوا على إيمان ولا على كفر؛ بل فيهم مؤمن وكافر، ومطيع
وعاصي، فقالوا: إن آثار هذه إنما ظهرت بوجود من يتوب الله عليهم بعد أن كانوا
عصاة، فالله هو التواب ويقبل توبة عبده ويفرح بها كذلك، هؤلاء يستغفرون
فيغفر لهم، والله تعالى غفور رحيم، وهؤلاء يرحمهم ويتجاوز عنهم، والله غفور
رحيم، وغير ذلك من الحكم في أسماء الله تعالى.

قال الشارح:

فَإِنْ قِيلَ: فَهَلْ كَانَ يُمَكِّنُ وُجُودَ تِلْكَ الْحِكْمِ بُدُونِ هَذِهِ الْأَسْبَابِ؟
فَهَذَا سُؤَالَ فَاْسِدًا وَهُوَ فَرَضٌ وَوُجُودِ الْمَلْزُومِ بُدُونِ لَازِمِهِ، كَفَرَضِ وَوُجُودِ
الْإِبْنِ بُدُونِ الْأَبِ، وَالْحَرَكَةِ بُدُونِ الْمُتَحَرِّكِ، وَالتَّوْبَةِ بُدُونِ التَّائِبِ.

فَإِنْ قِيلَ: فَإِذَا كَانَتْ هَذِهِ الْأَسْبَابُ مُرَادَةً لِسَبَابِ تَفْضِي إِلَيْهِ مِنَ الْحِكْمِ، فَهَلْ
تَكُونُ مُرَضِيَّةً مَحْبُوبَةً مِنْ هَذَا الْوَجْهِ، أَمْ هِيَ مَسْخُوطَةٌ مِنْ جَمِيعِ الْوُجُوهِ؟
قِيلَ: هَذَا السُّؤَالُ يَرُدُّ عَلَى وَجْهَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: مِنْ جِهَةِ الرَّبِّ تَعَالَى، وَهَلْ يَكُونُ مُجِبًّا لَهَا مِنْ جِهَةِ إِفْضَائِهَا إِلَى
مَحْبُوبِهِ، وَإِنْ كَانَ يُبْغِضُهَا لِذَاتِهَا؟

وَالثَّانِي: مِنْ جِهَةِ الْعَبْدِ، وَهُوَ أَنَّهُ هَلْ يَسُوعُ لَهُ الرِّضَا بِهَا مِنْ تِلْكَ الْجِهَةِ أَيْضًا؟
فَهَذَا سُؤَالٌ لَهُ شَأْنٌ.

فَاعْلَمْ أَنَّ الشَّرَّ كُلَّهُ يَرْجِعُ إِلَى الْعَدَمِ، أَعْنِي عَدَمَ الْخَيْرِ، وَأَسْبَابِهِ الْمُفْضِيَّةُ إِلَيْهِ،
وَهُوَ مِنْ هَذِهِ الْجِهَةِ شَرٌّ. وَأَمَّا مِنْ جِهَةِ وُجُودِهِ الْمَخْضِي، فَلَا شَرَّ فِيهِ، مِثَالُهُ: أَنَّ
النَّفُوسَ الشَّرِّيرَةَ وَوُجُودَهَا خَيْرٌ مِنْ حَيْثُ هِيَ مَوْجُودَةٌ، وَإِنَّمَا حَصَلَ لَهَا الشَّرُّ بِقَطْعِ
مَادَّةِ الْخَيْرِ عَنْهَا، فَإِنَّمَا خُلِقَتْ فِي الْأَصْلِ مُسَحَّرَكَةً، فَإِنْ أُعِينَتْ بِالْعِلْمِ وَإِلْتِمَامِ الْخَيْرِ
تَحَرَّكَتْ بِهِ، وَإِنْ تَرَكَتْ، تَمَرَّكَتْ بِتَابِعِهَا إِلَى خِلَافِهِ، وَحَرَّكَتْهَا مِنْ حَيْثُ هِيَ
حَرَكَةٌ: خَيْرٌ، وَإِنَّمَا تَكُونُ شَرًّا بِالْإِضَافَةِ، لِأَنَّ حَيْثُ هِيَ حَرَكَةٌ، وَالشَّرُّ كُلُّهُ ظُلْمٌ،
وَهُوَ وَضِعُ الشَّيْءِ فِي غَيْرِ مَحَلِّهِ، فَلَوْ وَضِعَ فِي مَوْضِعِهِ لَمْ يَكُنْ شَرًّا، فَعَلِمْنَا أَنَّ جِهَةَ
الشَّرِّ فِيهِ نَسْبِيَّةٌ إِضَافِيَّةٌ.

وَهَذَا كَانَتْ الْعُقُوبَاتُ الْمَوْضُوعَةُ فِي مَحَالِّهَا خَيْرًا فِي نَفْسِهَا، وَإِنْ كَانَتْ شَرًّا
بِالنَّسْبَةِ إِلَى الْمَحَلِّ الَّذِي حَلَّتْ بِهِ؛ لِمَا أَحْدَثَتْ فِيهِ مِنَ الْأَلَمِ الَّذِي كَانَتْ الطَّبِيعَةُ قَابِلَةً
لِضِدِّهِ مِنَ اللَّذَّةِ، مُسْتَعِدَّةً لَهُ، فَصَارَ ذَلِكَ الْأَلَمُ شَرًّا بِالنَّسْبَةِ إِلَيْهَا، وَهُوَ خَيْرٌ بِالنَّسْبَةِ
إِلَى الْفَاعِلِ حَيْثُ وَضَعَهُ فِي مَوْضِعِهِ، فَإِنَّهُ سُبْحَانَهُ لَمْ يَخْلُقْ شَرًّا مَحْضًا مِنْ جَمِيعِ
الْوُجُوهِ وَالْإِعْتِبَارَاتِ، فَإِنْ حَكَمْتَهُ تَأْبَى ذَلِكَ. فَلَا يُمَكِّنُ فِي جَنَابِ الْحَقِّ تَعَالَى أَنْ
يُرِيدَ شَيْئًا يَكُونُ فَسَادًا مِنْ كُلِّ وَجْهِ، لَا مَضْلَحَةَ فِي خَلْقِهِ بَوَاجِهِ مَا، هَذَا مِنْ أَبْيَنِ
الْمَحَالِّ، فَإِنَّهُ سُبْحَانَهُ، الْخَيْرُ كُلُّهُ بِيَدَيْهِ، وَالشَّرُّ لَيْسَ إِلَيْهِ، بَلْ كُلُّ مَا إِلَيْهِ فَخَيْرٌ،
وَالشَّرُّ إِنَّمَا حَصَلَ لِعَدَمِ هَذِهِ الْإِضَافَةِ وَالنَّسْبَةِ إِلَيْهِ، فَلَوْ كَانَ إِلَيْهِ لَمْ يَكُنْ شَرًّا، فَتَأَمَّلْهُ.
فَانْقَطَعُ نَسْبَتُهُ إِلَيْهِ هُوَ الَّذِي صَيَّرَهُ شَرًّا.

فَإِنْ قِيلَ: لَمْ تَنْقَطِعْ نَسْبَتُهُ إِلَيْهِ خَلْقًا وَمَشِيئَةً؟ قِيلَ: هُوَ مِنْ هَذِهِ الْجِهَةِ لَيْسَ
بِشَرٍّ، فَإِنَّ وُجُودَهُ هُوَ الْمُنْسُوبُ إِلَيْهِ، وَهُوَ مِنْ هَذِهِ الْجِهَةِ لَيْسَ بِشَرٍّ، وَالشَّرُّ الَّذِي فِيهِ
مِنْ عَدَمِ إِمْدَادِهِ بِالْخَيْرِ وَأَسْبَابِهِ، وَالْعَدَمُ لَيْسَ بِشَيْءٍ حَتَّى يُنْسَبَ إِلَى مَنْ بِيَدِهِ السُّنْبُورُ.

قال الشيخ:

أورد الشارح الاعتراض الذي يعترض به بعض غلاة القدرية على خلق الله تعالى للشرور والأشرار وإيجاده لهم مع كونهم أشرارًا، فذكر من اعتراضاتهم قولهم: لماذا خلق الله إبليس مع أنه كله شر؟ ولماذا خلق الله الكفرة والمشركين الذين ليس فيهم خيرٌ محض بل هم شرٌّ محض، وجودهم ضرر على المسلمين؟ ولماذا خلق الله هذه المعاصي والأسباب التي يستعان بها عليها؟ لماذا وجدنا

المسكرات وما يتَّصل بها؟ ولماذا وجد المفسدون الذين يعيشون في الأرض فسادًا؟
ولماذا وجدت المعاصي؟

فيعترض هؤلاء يقولون: هذا شرٌّ؛ فكيف أوجده الله؟ وكيف أراده؟ وكيف خلقه؟ مع أنَّه لا يحصل به إلا شرٌّ وضرر على المؤمنين، فيتضررون بوجود هؤلاء الكفار؛ لأهم يصدُّونهم عن الهدى، ويحاولون ردِّهم إلى الكفر، وإخراجهم من ملَّة الإسلام، ويلقون عليهم الشبهات والشكوك، ويظهرون الفساد، والمعاصي ونحو ذلك.

فلماذا وجدوا؟ ولماذا خلقهم الله؟ ولماذا مكَّنهم؟ أليس في هذا إعانة على المعاصي؟ أليس في هذا تمكين للعصاة وتقوية لشأنهم؟

هذا خلاصة هذا الاعتراض على حكم الله سبحانه وتعالى، وقد تقدَّم أنَّه سبحانه خلق الجنة والنار، فمن حكمته أن جعل دارًا للشواب، ودارًا للعقاب، فلا بدَّ أن لهذه من يسكنها ولهذه من يسكنها، حكمته الله لا بدَّ أن تتمَّ بذلك، فلما كان كذلك لم يكن بدُّ أن يكون الخلق فريقين، فريق في الجنة وفريق في السعير، وتقدَّم أن من أسماء الله تعالى التي سمَّى بها نفسه، وامتدح بها؛ أسماء تدلُّ على مثل هذه الأفعال، كاسمه المنتقم، والجبار، والعزيز، وذو القوة المتين، وكذلك أسماءه المزدوجة؛ مثل الخافض والرافع مزدوجان، والمعزُّ والمذلُّ، والمعطي والمانع، فلا بدَّ أن تظهر مدلولات هذه الأسماء، ولا تظهر إلا إذا وجد من يذلُّهم الله ومن يمنعهم، ومن يخفضهم، لا بدَّ أن يوجد من يقهرهم باسمه القهار، ومن يقدر على عقوبتهم بموجب اسمه القادر، ومن يرحمهم ويغفر لهم بموجب اسمه الغفور

الرحيم، ولو كان الناس كلُّهم أتقياء بررة لم تظهر أيضًا آثار أسماؤه فمن يرحم إذا كانوا كلهم أتقياء، ومن يغفر له إذا كانوا كلهم مطيعين، وهكذا بقية أسماء الله سبحانه وتعالى.

وبعد الجواب عن هذا الاعتراض نقول: كل ما أوجده الله وأراده، فإنه خير بالنسبة إلى الله تعالى، وإن كان شرًّا بالنسبة إلى العبد الذي حصل عليه ذلك الشر؛ وذلك لأنَّ الله تعالى ما أوجده إلا للمصلحة، وهي الاختبار للعباد، وكذلك الابتلاء، ولكي يظهر من يصبر ومن يجزع، ويظهر من يطيع ومن يعصي، ويظهر من يمثل ومن يأبى، ويظهر من يكون صالحًا أو يكون فاسدًا، هذا من اختبار الله لعباده، فهو سلط عليهم هؤلاء الأعداء، وسلط عليهم إبليس الرجيم؛ حتى يكون منهم مقاومة وشدة تمسك، رغم ما يلقيه من الدعايات إلى الفساد وإلى المعاصي، فيثابون ويزاد في ثوابهم إذا تمسكوا، فلذلك سلط عليهم هذه الشهوات التي تدفعهم إلى الدنيا وإلى المحرمات، فأظهرها أمامهم، ويثبت الله أولياءه، ويخذل أعداءه، ويكون الذي يستمسك بالدين ويصبر عليه هو الذي يعظم ثوابه. وهذا أيضًا يصدق على المصائب التي تحصل للعباد، وقد يكون حصولها للأتقياء أكثر من حصولها للفسقة ونحوهم.

المصائب التي ذكرها الله في قوله: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ

وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالشَّمْرِاتِ﴾ [البقرة: ١٥٥]، هذه قد يكون الابتلاء بها

للمؤمنين أشد، أما الكفار فقد يُمتعون بالقوة، ويمتعون بالأموال ونحو ذلك، كما

حكى الله عنهم أنهم قالوا: ﴿ وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا ﴾ [سبأ: ٣٥]، فهذا الابتلاء الذي يبتي الله تعالى به المؤمنين؛ ليكون أعظم لأجرهم إذا صبروا واحتسبوا، فهكذا خلقه لهذه الشرور؛ ليكون أعظم للأجر، إذا عرف العبد أنه قد سلط عليه الأعداء فصبر، وعُدَّ مجاهدًا غاية الجهاد، فهو يجاهد الشيطان الرجيم الذي دائمًا يسوّل له ويوسوس له، وهو يجاهد النفس الأمّارة بالسوء التي تخيل له دائمًا وتدفعه، وهو يجاهد الهوى الذي يعمي ويصمّ، وهو يجاهد الشهوات التي تتجلى له، وتندفع نفسه إليها، وتزوين له، ولكنّه يمسك نفسه ويقمعها، وهو يجاهد قرناء السوء وجلساء السوء الذين يدفعونه إلى الشرور، ويدعونهم إليه، هذا يدعوهم إلى زنى، وهذا يدعوهم إلى ربا، وهذا يدعوهم إلى شرك، وهذا يدعوهم إلى غش، وهذا يدعوهم إلى تكاسل عن العبادة، وهذا يدعوهم إلى شرب مسكر، ولكنّه يمسك زمام نفسه، ويجاهد هؤلاء الدعاة، ويردّ عليهم دعائيتهم، فلو كان الناس كلّهم مفطورين على الإسلام، ما ظهرت آثار هذا الجهاد، زيادةً على الجهاد الحسبي الذي هو جهاد الكفار الذي أمر الله به، وأكّده، وكرر ذكره في عددٍ من الآيات، والإنسان متى قاوم هذه المقاومة، وصبر هذه المصابرة، فإنه يعدّ ناجحًا في الابتلاء والاختبار، ويعدّ مثابًا غاية الثواب، فيجزل الله له الأجر على ذلك، فهذا من حكمة الله.

إذاً فلا يُعترض على الله، ولا يُقال: لماذا سلط الأشرار؟ ولماذا قوّاهم؟ ولماذا

أعطاهم الدنيا وأعطاهم النعم، وأعطاهم العدد والعدة، والقوة، ونحو ذلك؟

لا یُعترض علی الله تعالی؛ لآنه أوجد ذلك لیظهر من یصبر ممّن یجزع، ویظهر من یقوی نفسه ممّن لا یقویها، فیثاب هذا علی مقاومته، ویعرف بذلك عدم صبر هؤلاء الذین لم یصبروا علی قمع نفوسهم الأمارة بالسوء، فالله تعالی له الحکمة فی ذلك، فهو خیر بالنسبة إلى خلق الله تعالی وإیجاده، وشرّ بالنسبة إلى فعل العبد، فالعبد إذا زنی قیل: هذا الزنی شرّ؛ لآنه صدر منه، ولكن الله تعالی هو الذی قدر ذلك وأحدثه، فهو خیرّ بالنسبة إلى إیجاد الله تعالی له، حیث إنّه أخبر العباد بذلك، ومکنّه وجعل أسبابه ظاهرةً، كذلك العبد إذا سکر، والمرأة إذا تبرّجت، وتجمّلت لغير زوجها، وفعلت ما لا یحلّ لها فعله، والرجل إذا تعاطى غشاً فی معاملةٍ أو غصباً أو سرقةً أو اختلاساً أو ما أشبه ذلك، كذلك إذا سوّلت له نفسه ترک الصلوات، أو تخلّف عن جماعات، أو ما أشبه ذلك من ترک الطاعات، قیل: الله تعالی هو الذی قدر أسباب ذلك، ولكنّه جعل ذلك اختباراً للعباد وابتلاءً لهم؛ لیظهر بذلك أهل طاعته من أهل معصيته، الذین أراد بهم الخیر فقویت نفوسهم وأعطاهم قوةً، والذین خذلهم وخلّى بینهم وبین نفوسهم، وقوی علیهم أعداءهم، فلم یتمکنوا من مقاومة أولئک الأعداء، فأصبحوا من الخاسرین.

قال الشارح:

فَإِنْ أَرَدْتَ مَزِيدَ إِضْحَاحٍ لِدَلِّكَ، فَاعْلَمْ أَنَّ أَسْبَابَ الْخَيْرِ ثَلَاثَةٌ: الْإِجَادُ، وَالْإِعْدَادُ، وَالْإِمْدَادُ، فَإِجَادُ هَذَا خَيْرٌ، وَهُوَ إِلَى اللَّهِ، وَكَذَلِكَ إِعْدَادُهُ وَإِمْدَادُهُ، فَإِذَا لَمْ يَجِدْ فِيهِ إِعْدَادًا وَلَا إِمْدَادًا، حَصَلَ فِيهِ الشَّرُّ بِسَبَبِ هَذَا الْعَدَمِ الَّذِي لَيْسَ إِلَى الْفَاعِلِ، وَإِنَّمَا إِلَيْهِ ضِدُّهُ.

فَإِنْ قِيلَ: هَلَّا أَمَدَّهُ إِذْ أَوْجَدَهُ؟ قِيلَ: مَا اقْتَضَتْ الْحِكْمَةُ إِجَادَهُ وَإِمْدَادَهُ، وَإِنَّمَا اقْتَضَتْ إِجَادَهُ وَتَرَكَ إِمْدَادَهُ، فَإِجَادُهُ خَيْرٌ، وَالشَّرُّ وَقَعَ مِنْ عَدَمِ إِمْدَادِهِ.

فَإِنْ قِيلَ: فَهَلَّا أَمَدَّ الْمَوْجُودَاتِ كُلَّهَا؟ فَهَذَا سُؤَالٌ فَاسِدٌ، يَظُنُّ مُورِدُهُ أَنَّ التَّسْوِيَةَ بَيْنَ الْمَوْجُودَاتِ أَبْلَغُ فِي الْحِكْمَةِ! وَهَذَا عَيْنُ الْجَهْلِ! بَلِ الْحِكْمَةُ كُلُّ الْحِكْمَةِ فِي هَذَا التَّفَاوُتِ الْعَظِيمِ الَّذِي بَيْنَ الْأَشْيَاءِ، وَلَيْسَ فِي خَلْقِ كُلِّ نَوْعٍ مِنْهَا تَفَاوُتٌ، فَكُلُّ نَوْعٍ مِنْهَا لَيْسَ فِي خَلْقِهِ تَفَاوُتٌ، وَالتَّفَاوُتُ إِنَّمَا وَقَعَ بِأُمُورٍ عَدَمِيَّةٍ لَمْ تَعْلُقْ بِهَا الْخَلْقُ، وَإِلَّا فَلَيْسَ فِي الْخَلْقِ مِنْ تَفَاوُتٍ، فَإِنْ اعْتَصَصَ عَلَيْكَ هَذَا وَلَمْ تَفْهَمْهُ حَقَّ الْفَهْمِ، فَرَأَجِعْ قَوْلَ الْقَائِلِ^(١):

إِذَا لَمْ تَسْتَطِعْ شَيْئًا فَدَعُهُ. وَجَاوِزُهُ إِلَى مَا تَسْتَطِيعُ

فَإِنْ قِيلَ: كَيْفَ يَرْضَى لِعَبْدِهِ شَيْئًا وَلَا يُعِينُهُ عَلَيْهِ؟ قِيلَ: لِأَنَّ إِعَانَتَهُ عَلَيْهِ قَدْ تَسْتَلْزِمُ قَوَاتٍ مَحْبُوبٍ لَهُ أَعْظَمَ مِنْ حُصُولِ تِلْكَ الطَّاعَةِ الَّتِي رَضِيَهَا لَهُ، وَقَدْ يَكُونُ

(١) البيت لعمر بن معد يكرب، الشاعر المشهور له صحبة ورواية. انظر: أسد الغابة

(٤/٢٩٢)، والبداية والنهاية (٧/١٦٠)، والإصابة في تمييز الصحابة (٤/٦٨٦).

وَوُقُوعُ تِلْكَ الطَّاعَةِ مِنْهُ يَتَضَمَّنُ مَفْسَدَةً هِيَ أَكْرَهُ إِلَيْهِ سُبْحَانَهُ مِنْ حُبَّتِهِ لِنَبْلِكَ
الطَّاعَةِ. وَقَدْ أَشَارَ تَعَالَى إِلَى ذَلِكَ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً
وَلَكِنَّ كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ﴾ [التوبة: ٤٦]، الْآيَتَيْنِ. فَأَخْبَرَ سُبْحَانَهُ أَنَّهُ
كَرِهَ انْبِعَاثَهُمْ إِلَى الْغَزْوِ مَعَ رَسُولِهِ، وَهُوَ طَّاعَةٌ، فَلَمَّا كَرِهَهُ مِنْهُمْ، ثَبَّطَهُمْ عَنْهُ، ثُمَّ
ذَكَرَ سُبْحَانَهُ بَعْضَ الْمَفَاسِدِ الَّتِي كَانَتْ تَتَرْتَّبُ عَلَى خُرُوجِهِمْ مَعَ رَسُولِهِ، فَقَالَ:
﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا﴾، أَي: فَسَادًا وَشَرًّا، ﴿وَلَا وَضَعُوا
خِطْلَكُمْ﴾، أَي: سَعَوْا بَيْنَكُمْ بِالْفَسَادِ وَالشَّرِّ، ﴿يَبْغُونَ كُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ
سَمْعُونُ لَهُمْ﴾ [التوبة: ٤٧]، أَي: قَابِلُونَ مِنْهُمْ مُسْتَجِيبُونَ لَهُمْ، فَيَتَوَلَّدُ مِنْ سَعْيِي
هَؤُلَاءِ مِنَ الشَّرِّ مَا هُوَ أَعْظَمُ مِنْ مَصْلَحَةِ خُرُوجِهِمْ، فَأَقْتَضَتْ الْحِكْمَةُ وَالرَّحْمَةُ أَنْ
أَقْعَدَهُمْ عَنْهُ.

فَأَجْعَلْ هَذَا الْمِثَالَ أَصْلًا، وَقَسْ عَلَيْهِ.

قال الشيخ:

تكثر إيرادات هؤلاء المجبرة، وهم طائفة يسمون مجبرة وجبرية، وهم الذين
يعذرون العبد على فعل المعاصي، ويزعمون أن له عذرا في ذلك؛ لأنه ليس له أي
اختيار، ولا أي قدرة على أي فعل، فيكثرون من إيرادات مثل هذه الشبهات،
فيقولون - مثلا -: كيف يريد الله هذه المعاصي وهو يكرهها؟

فيقال: الله تعالى أرادها كونًا وكرهها شرعًا.

ويقولون: مادام أن الله قد خلق العباد كلهم لعبادته، فكيف لا يسوي بينهم

فيهديم جميعاً ويرشدهم؟

والجواب: أنه - سبحانه وتعالى - خلقهم ومكنهم، ولكنه علم أن فيهم نفوساً شريرة تختار الشر فخذها، ونفوساً خيرة تختار الخير فوفقها، فله الحكمة في توفيق هذا وفي خذلان هذا، وإن كان الجميع كلهم عبيده وتحت تصرفه، وهم الذين كلّفوا جميعاً بعبادته وبالإنابة إليه.

وضرب المؤلف مثلاً بما حكى الله تعالى عن المنافقين في سورة التوبة في قوله

تعالى: ﴿وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ

فَتَبَطَّوهُمْ وَقِيلَ لِأَعْدَائِهِمْ لَوْ أَعَدُّوا مَعَنَا لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُواكُمْ إِلَّا خَبَالًا

وَلَا وَضَعُوا يَدَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٤٧﴾

[التوبة: ٤٦، ٤٧]، هؤلاء ممن كانوا أسلموا، ولكن لم يدخل الإيمان في قلوبهم،

ولا شك أن الله تعالى خذلهم وخلق بينهم وبين أهوائهم وشهواتهم، ولم يوفقهم لما

وفق إليه صفوته وخيرته من خلقه من المهاجرين والأنصار الذين أصطفاهم،

والذين مكن لهم في دينهم. فهؤلاء المنافقون كمنّا تخلفوا عن الخروج في غزوة

تبوك، وأتوا بأعذار لا فائدة فيها، وليست صادقة، بل حلفوا وهم كاذبون، كما في

قوله تعالى: ﴿يَخْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَى

عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿٩٦﴾ [التوبة: ٩٦]، فأخبر الله تعالى أنهم لم يريدوا الخروج

أصلاً، ولم يستعدوا له، ولو كانوا يريدون الخروج، ويرغبون في الغزوة، لأعدوا

العدّة، ولهيّؤوا أنفسهم، فهم قادرون على أن يخرجوا، وعندهم استطاعة وتمكّن، ولكنهم لم يفعلوا، فلما لم يفعلوا دلّ على أنهم ما أرادوه، ولا أعدوا له عدته، مع أن الله تعالى هو الذي خذّهم؛ لأنّه علم أنّ في خروجهم مفسدة كبيرة؛ لأنّه لا يكون منهم إلّا ضرر، فلذلك كره الله خروجهم وانبعاثهم وثبّطهم، أي: سكتهم وصرف أنفسهم عن الخروج لمصلحة عظيمة، فإنّهم لو خرجوا ما زادوا المسلمين إلّا خبالاً، أي: ضعفاً وتخديلاً وتثييطاً عن القتال وعن العدو، ﴿وَلَا تَوْصَعُوا خِلَابَكُمْ يَبْغُونَكُمْ الْفِتْنَةَ﴾، يعني: أوقعوا فيما بين المسلمين الفتن والتشكيكات ونحو ذلك، فكان هذا من حكمة الله أن خذّهم، ولم يبعث عزائمهم إلى القتال.

وبذلك يعرف أنّه تعالى حكيم يضع الأشياء في مواضعها اللائقة بها، فعلى المسلم أن يرضى ويسلم بما جاءه من شرع الله تعالى وأمره ودينه، وأن يعترف أنّه ما خلّق إلّا ما فيه مصلحة، سواء كانت مخلوقات جوهرية أو عرضية، وسواء كانت أشخاصاً أو عروضاً وأعمالاً، كل ذلك له الحكمة فيه، فهو الحكيم العليم. وعلى الإنسان أن يلتجئ في سؤاله لربه، وأن يكثر من الدعاء، والله تعالى قد قدر له ما هو مقدّر، وجعل سبب ذلك كثرة الإلحاح في الدعاء، فيكون سبباً من أسباب تيسير اليسرى، وتجنّب العسرى، وليس مغيراً لما في قدر الله تعالى.

قال الشارح :

وَأَمَّا الْوَجْهَ الثَّانِي، وَهُوَ الَّذِي مِنْ جِهَةِ الْعَبْدِ، فَهُوَ أَيْضًا مُمَكِّنٌ، بَلْ وَاقِعٌ؛ فَإِنَّ الْعَبْدَ يَسْحَطُ الْفُسُوقَ وَالْمَعَاصِيَ وَيَكْرَهُهَا مِنْ حَيْثُ هِيَ فِعْلُ الْعَبْدِ وَاقِعَةٌ بِكَسْبِهِ وَإِرَادَتِهِ وَاخْتِيَارِهِ، وَيَرْضَى بِعِلْمِ اللَّهِ وَكِتَابَتِهِ وَمَشِيئَتِهِ وَإِرَادَتِهِ وَأَمْرِهِ الْكُسُوبِي، فَيَرْضَى بِمَا مِنَ اللَّهِ، وَيَسْحَطُ مَا هُوَ مِنْهُ، فَهَذَا مَسْئَلُكَ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْعِرْفَانِ. وَطَائِفَةٌ أُخْرَى كَرِهَتْهَا مُطْلَقًا، وَقَوْلُهُمْ يَرْجِعُ إِلَى هَذَا الْقَوْلِ؛ لِأَنَّ إِطْلَاقَهُمْ لِلْكَرَاهَةِ لَا يُرِيدُونَ بِهِ سُؤْلَهُ لِعِلْمِ الرَّبِّ وَكِتَابَتِهِ وَمَشِيئَتِهِ.

وَسِرُّ الْمَسْأَلَةِ: أَنَّ الَّذِي إِلَى الرَّبِّ مِنْهَا غَيْرُ مَكْرُوهٍ، وَالَّذِي إِلَى الْعَبْدِ مَكْرُوهٌ.

فَإِنْ قِيلَ: لَيْسَ إِلَى الْعَبْدِ شَيْءٌ مِنْهَا.

قِيلَ: هَذَا هُوَ الْجَبْرُ الْبَاطِلُ، الَّذِي لَا يُمَكِّنُ صَاحِبَهُ التَّخَلُّصَ مِنْ هَذَا الْمَقَامِ الضَّمِيِّ، وَالْقَدَرِيُّ الْمُنْكَرُ أَقْرَبُ إِلَى التَّخَلُّصِ مِنْهُ مِنَ الْجَبْرِيِّ، وَأَهْلُ السُّنَّةِ، الْمُتَوَسِّطُونَ بَيْنَ الْقَدَرِيَّةِ وَالْجَبْرِيَّةِ أَسْعَدُ بِالتَّخَلُّصِ مِنَ الضَّمِيِّينَ.

فَإِنْ قِيلَ: كَيْفَ يَتَأَمَّى النَّدَمُ مَعَ شُهُودِ الْحِكْمَةِ فِي التَّقْدِيرِ، وَمَعَ شُهُودِ الْقِيُومِيَّةِ وَالْمَشِيئَةِ النَّافِذَةِ؟ قِيلَ: هَذَا هُوَ الَّذِي أَوْقَعَ مَنْ عَمِيَتْ بَصِيرَتُهُ فِي شُهُودِ الْأَمْرِ عَلَى خِلَافِ مَا هُوَ عَلَيْهِ، فَرَأَى نَلِكَ الْأَفْعَالِ طَاعَاتٍ؛ لِمُؤَافَقَتِهِ فِيهَا الْمَشِيئَةَ وَالْقَدَرَ، وَقَالَ: إِنَّ عَصَيْتُ أَمْرَهُ فَقَدْ أَطَعْتُ إِرَادَتَهُ! وَفِي ذَلِكَ قِيلَ:

أَصْبَحْتُ مُنْفَعِلًا لَهَا تَخْتَارُهُ مِنِّي فَفِعْلِي كُلُّهُ طَاعَاتٌ^(١)

(١) انظر: منهاج السنة النبوية (٣/٢٥)، ومدارج السالكين (١/٢٢٩).

وَهُؤُلَاءِ أَعْمَى الْخَلْقِ بَصَائِرَ، وَأَجْهَلُهُمْ بِاللَّهِ وَأَحْكَامِهِ الدِّينِيَّةِ وَالْكَوْنِيَّةِ، فَإِنَّ الطَّاعَةَ هِيَ مُوَافَقَةُ الْأَمْرِ الدِّينِيِّ الشَّرْعِيِّ، لَا مُوَافَقَةَ الْقَدْرِ وَالْمَشِيئَةِ، وَلَوْ كَانَ مُوَافَقَةَ الْقَدْرِ طَاعَةً، لَكَانَ إِبْلِيسُ مِنْ أَعْظَمِ الْمُطِيعِينَ لَهُ، وَلَكَانَ قَوْمُ نُوحٍ وَهُودٍ وَصَالِحٍ وَلُوطٍ وَشُعَيْبٍ وَقَوْمُ فِرْعَوْنَ، كُلُّهُمْ مُطِيعِينَ! وَهَذَا غَايَةُ الْجَهْلِ.

لَكِنْ إِذَا شَهِدَ الْعَبْدُ عَزَّ نَفْسِهِ، وَتَفَوَّذَ الْأَقْدَارَ فِيهِ، وَكَمَالَ فَقْرَهُ إِلَى رَبِّهِ، وَعَدَمَ اسْتِغْنَائِهِ عَنِ عِصْمَتِهِ وَحِفْظِهِ طَرَفَةَ عَيْنٍ: كَانَ بِاللَّهِ فِي هَذِهِ الْحَالِ لَا بِنَفْسِهِ، فَوْقُوقِ الذَّنْبِ مِنْهُ لَا يَتَأْتَى فِي هَذِهِ الْحَالِ الْبَتَّةَ، فَإِنَّ عَلَيْهِ حِصْنًا حَصِينًا مِنْ: «فِي يَسْمَعُ، وَيِي يُبْصِرُ، وَيِي يَبْطِشُ، وَيِي يَمْشِي»^(١)، فَلَا يَتَصَوَّرُ مِنْهُ الذَّنْبُ فِي هَذِهِ الْحَالِ، فَإِذَا حُجِبَ عَنْ هَذَا الْمَشْهَدِ، وَبَقِيَ بِنَفْسِهِ، اسْتَوَلَى عَلَيْهِ حُكْمُ النَّفْسِ، فَهَذَا لِكِ نَصَبَتْ عَلَيْهِ الشَّبَاكُ وَالْأَشْرَاكُ، وَأُرْسِلَتْ عَلَيْهِ الصَّيَادُونَ، فَإِذَا انْقَشَعَ عَنْهُ ضَبَابُ ذَلِكَ الْوُجُودِ الطَّبْعِيِّ، فَهَذَا لِكِ يَحْضُرُهُ النَّدَمُ وَالتَّوْبَةُ وَالْإِنَابَةُ، فَإِنَّهُ كَانَ فِي الْمَعْصِيَةِ مَحْجُوبًا بِنَفْسِهِ عَنْ رَبِّهِ، فَلَمَّا فَارَقَ ذَلِكَ الْوُجُودَ، صَارَ فِي وُجُودٍ آخَرَ، فَبَقِيَ بِرَبِّهِ لَا بِنَفْسِهِ.

(١) هذه الرواية للحديث أوردها الحكيم الترمذي في نواذر الأصول في أحاديث الرسول (١/ ٢٦٥)، والمشهور من الحديث ما أخرجه البخاري (٦٥٠٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: «وَقَالَ يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَائِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا...». وسيورده الشارح بتامه.

قال الشيخ:

كثيراً ما يحتجُّون بأن هذه المعاصي والواقعات مرادةً لله تعالى، فيقول أحدهم: أنا خالفت أمر الله، ولكن وافقتُ إرادة الله؛ لأن الله تعالى أراد منِّي هذا الفعل وهذه المعصية.

فالجواب: أن هذه الإرادة إرادة كونية، وقد أراد منك إرادةً شرعيةً أن تطيعه، فلا تحتجَّ بالإرادة الكونية وتترك الإرادة الشرعية، فقد أراد الله تعالى كل ما في الكون إرادةً كونيةً، ولكنه أراد الطاعات إرادةً شرعيةً، وهذه الطاعات التي أرادها قد تقع، وقد لا تقع؛ لأنه خلق كل الخلق للعبادة، فمنهم من عبده، ومنهم من لم يعبده، فمحبّة العبادة من الجميع إرادةً شرعيةً، فالذي يقول: ليس للعبد أي اختيار، نقول له: هذه مقالة الجبرية الذين يزعمون أن العبد مسلوبُ الاختيار أصلاً، وأنه بمنزلة الشجرة التي تحرّكها الرياح، ليس له أي اختيار، ففي ذلك إبطال شرع الله، وإبطال أحكامه وقضائه وقدره.

والواجب على المسلم أن يعترف بشرع الله، وأن يدين له بالطاعة، وأن يسلم لقضائه وقدره، ولا يردّ عليه شيئاً من أمره؛ فبذلك يصبح مستسليماً لأمره، فأما هؤلاء الذين يقولون: إن جميع حركاتنا، ولو كانت معاصي ولو كانت غير محبوبة لله، فهي طاعة؛ لأننا وافقتُ مراد الله القدري، لذلك يقول قائلهم:

أَصْبَحْتُ مُتَّفِعِلًا لِمَا تَخْتَارُهُ مِنِّي فَمَنْ لِي كُلُّ طَاعَاتٍ

فهذا عين المحادة لله؛ لأن الطاعات إنما تكون بالعبادات التي فرضها، فكونه يقول: أفعالي كلها طاعات، حتى ولو كانت فجوراً، ولو كانت زوراً، ولو كانت

كذباً، ولو كانت معاصي وكفراً وشرّاً، كيف تكون طاعاتٍ وقد حرّمها الله تعالى وسماها معاصي؟ فهذه معاصي بالنسبة إلى صدورها من العبد، وهي مرادة كوناً وقدراً؛ لأنها وقعت بخلق الله وتكوينه، فما شاءه كان، وما لم يشأه لم يكن، فإذا علم العبد أولاً أنّ الله تعالى أراد جميع ما في الكون كوناً وقدراً وما هو حادث، ولكنه أحبّ الطاعات، وكره المحرّمات، وأمر بالطاعات أمراً شرعياً، ونهى عن المحرّمات نهياً شرعياً، وعلم أيضاً: بأنّ مزاوله العبد لها واختياره تفضيل منه لهذا الذي اختاره؛ إن خيراً فخير، وإن شراً فشرّ، وأنّ الثواب والعقاب حقّ لله؛ فمتى علم العبد واستسلم لذلك فهو من أهل الخير.

ومن استحضر دائماً أنّه مكلف، واستحضر أنّ الله تعالى يوفّق العبد الذي يستحضر عظمة ربّه، وأنّ الإنسان لم يُخلق هملاً، بل خُلِقَ للعبادة، واستحضر أنّ ربّه كما كلفه وأمره ونهاه، كان بمرايٍ ومسمعٍ من ربّه، لا تخفى عليه منه خافية، واستحضر أيضاً أنّه في كلّ حالاته عنده الدافع الذي يدفعه إلى الخير، وهو قوّة الإيمان وقوّة هذا الاستحضر، فمن تمّت معه هذه الاستحضارات، فإنّه لا يقدم على معصية، وكيف يقدم عليها وهو يستحضر عظمة الله تعالى، كأنّه واقفٌ بين يدي ربّه، كيف يقدم عليها وهو يعلم أنّه يترتب عليها عقوبة وإنّ شديداً؟ كيف يقدم عليها وهو يعلم أنّ ربّه يكرهها؟

والعبد إذا أكثر من العبادات، سواءً أكانت قلبية أم قولية أم بدنية، ثم وثق بالثواب عليها، فإنّ ذلك يحجزه عن أن يأتي بضدها، فلا يجتمع أنّه في آن واحد يطيع الله ويطيع الشيطان، ولا يجتمع في آن واحد أنه يكون عبداً مطيعاً وعاصياً،

يعبد الله، ويعبد الأصنام، ولا يجتمع أنه في آن واحد مستحضرًا لعظمة الله تعالى، وغافلًا عنه مقبلًا على هواه، بل متى تمت له هذه الاستحضارات عبد ربّه، وأكثر من عبادته، وأقبل عليه إقبالًا كليًا. ومتى كان كذلك فإنّ ربه - سبحانه وتعالى - يسدّد خطاه، ويوفقه، ويحبّب إليه العبادة، ويحميه عن المعصية، كما في قوله في الحديث القدسي: «وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا...»، في بعض الروايات: «فَبِئْسَ يَسْمَعُ، وَبِئْسَ يُبْصِرُ، وَبِئْسَ يَبْطِشُ، وَبِئْسَ يَمْشِي»، بمعنى: أن الله تعالى يحفظه ويحوطه ويحرسه، فتكون حركاته في إرادة الله، وفي طاعة الله، وما ذاك إلا أن قلبه امتلأ بعظمة الله، وامتلاً بالإيمان به، وامتلاً بحب الخير، وامتلاً بالأعمال الخيريّة الصالحة، والميل إليها، ولما امتلأ القلب بها ظهرت آثار ذلك على السَّمع وعلى البصر وعلى اليد وعلى الرجل، فصار نظره كله لله، وسمعه كله لله، ومشيه وحركاته كلها بالله، ومن الله، وإلى الله، وفي الله.

فهذا هو الذي لا يمكن أن يقدم على معصية مع ما يقوم به من هذه الحال، فالعبد الذي يكون بهذه المثابة - إن شاء الله - لا يقدم على معصيته، وإنها يأتي من نقص في استحضاره بقلبه لهذه الأشياء، فإنّ العوائق التي تعوقه عن هذه الاستحضارات كثيرة، فالشهوات وزينة الحياة الدنيا ومتاعها، والشغل بها كثيرًا، والانهاك في المحرمات، كل ذلك يجلب إلى قلبه شيئًا من الغفلة، فيوجب له ذلك صدودًا عن الخير، وإقبالًا على الشرور والفساد، نعوذ بالله من الخذلان.

قال الشارح:

فَإِنْ قِيلَ: إِذَا كَانَ الْكُفْرُ بِقَضَاءِ اللَّهِ وَقَدْرِهِ، وَنَحْنُ مَأْمُورُونَ أَنْ نَرْضَى
بِقَضَاءِ اللَّهِ، فَكَيْفَ نُنْكِرُهُ وَنُكْرَهُهُ؟!

فَالْجَوَابُ: أَنْ يُقَالَ أَوَّلًا: نَحْنُ غَيْرُ مَأْمُورِينَ بِالرِّضَا بِكُلِّ مَا يَقْضِيهِ اللَّهُ
وَيُقَدِّرُهُ، وَلَمْ يَرِدْ بِذَلِكَ كِتَابٌ وَلَا سُنَّةٌ، بَلْ مِنَ الْمُقْضِيِّ مَا يُرْضَى بِهِ، وَمِنْهُ مَا يُسْخَطُ
وَيُمَقَّتْ، كَمَا لَا يُرْضَى بِهِ الْقَاضِي لِأَقْضِيَّتِهِ سُبْحَانَهُ، بَلْ مِنَ الْقَضَاءِ مَا يُسْخَطُ، كَمَا
أَنَّ مِنَ الْأَعْيَانِ الْمُقْضِيَّةِ مَا يُغْضَبُ عَلَيْهِ وَيُمَقَّتْ وَيُعَنُّ وَيُدْمُ.

وَيُقَالَ ثَانِيًا: هُنَا أَمْرَانِ: قَضَاءُ اللَّهِ، وَهُوَ فِعْلٌ قَائِمٌ بِدَاتِ اللَّهِ تَعَالَى،
وَمُقْضِيٌّ، وَهُوَ الْمَفْعُولُ الْمُنْفَصِلُ عَنْهُ، فَالْقَضَاءُ كُلُّهُ خَيْرٌ وَعَدْلٌ وَحِكْمَةٌ، فَيُرْضَى بِهِ
كُلُّهُ، وَالْمُقْضِيُّ قِسْمَانِ: مِنْهُ مَا يُرْضَى بِهِ، وَمِنْهُ مَا لَا يُرْضَى بِهِ.

وَيُقَالَ ثَالِثًا: الْقَضَاءُ لَهُ وَجْهَانِ:

أَحَدُهُمَا: تَعَلُّقُهُ بِالرَّبِّ تَعَالَى وَنَسْبَتُهُ إِلَيْهِ، فَمِنْ هَذَا الْوَجْهِ يُرْضَى بِهِ.

وَالْوَجْهُ الثَّانِي: تَعَلُّقُهُ بِالْعَبْدِ وَنَسْبَتُهُ إِلَيْهِ، فَمِنْ هَذَا الْوَجْهِ يَنْتَسِمُ إِلَى مَا يُرْضَى
بِهِ، وَإِلَى مَا لَا يُرْضَى بِهِ. مِثَالُ ذَلِكَ: قَتْلُ النَّفْسِ، لَهُ اخْتِبَارَانِ: فَمِنْ حَيْثُ قَدَّرَهُ اللَّهُ
وَقَضَاهُ وَكَتَبَهُ وَشَاءَهُ، وَجَعَلَهُ أَجَلًا لِلْمَقْتُولِ وَنِهَآيَةً لِعُمْرِهِ، نَرْضَى بِهِ، وَمِنْ حَيْثُ
صَدَرَ مِنَ الْقَاتِلِ وَبَآشَرَهُ وَكَسَبَهُ وَأَقْدَمَ عَلَيْهِ بِاخْتِبَارِهِ، وَعَصَى اللَّهَ بِفِعْلِهِ، نَسْخَطُهُ
وَلَا نَرْضَى بِهِ.

وَقَوْلُهُ: (وَالْتَعَمَّقُ وَالنَّظَرُ فِي ذَلِكَ ذَرْيَعَةُ الْخِذْلَانِ...)، إِلَى آخِرِهِ.

التَّعَمَّقُ: هُوَ الْمُبَالَغَةُ فِي الْكَلَامِ فِيهِ ذَرْيَعَةُ الْخِذْلَانِ، وَالْمَعْنَى: أَنَّ الْمُبَالَغَةَ فِي

طَلَبَ الْقَدْرَ وَالنَّوْصِ فِي الْكَلَامِ فِيهِ ذَرِيعَةُ الْخِذْلَانِ. الذَّرِيعَةُ: الْوَسِيلَةُ، وَالذَّرِيعَةُ
وَالذَّرَجَةُ وَالسَّلْمُ، مُتَقَارِبُ الْمَعْنَى، وَكَذَلِكَ الْخِذْلَانُ وَالْحِرْمَانُ وَالطُّغْيَانُ مُتَقَارِبُ
الْمَعْنَى أَيْضًا، لَكِنَّ الْخِذْلَانَ فِي مُقَابَلَةِ النَّصْرِ، وَالْحِرْمَانَ فِي مُقَابَلَةِ الظَّفْرِ، وَالطُّغْيَانَ
فِي مُقَابَلَةِ الْإِسْتِقَامَةِ.

قال الشيخ:

الكلام الأول يتعلق بالرضا بالقضاء، والرضا بالمقضي، فنقول: يلزمنا أن
نرضى بالقضاء، وأما المقضي الذي يقع بذلك القضاء، فلا يلزمنا الرضى به، بل قد
ننكره ونستبشعه، فمثّل بقتل النفس ظلمًا، نقول: هذا الذي قُتل قد بلغ أجله الذي
كُتب له، لم يُقطع عليه أجله، الله تعالى قضى وقدر وكتب أن هذا عمره لا يزيد
ولا ينقص، فالمتول مات بأجله المحدّد له؛ لأنّ الله تعالى يقول: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ
فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٤]، ويقول تعالى:
﴿قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٥٤]،
أي: لو تحصّستم في بيوتكم، والله قد كتب على بعضكم القتل، لخرجوا إلى المكان
الذي قدر الله عليهم أن يموتوا أو يقتلوا فيه ولا بدّ، وقد ذكر الله تعالى أن الموت
محكوم على الإنسان مهما تحصّن، كما في قوله تعالى: ﴿أَيِنَّمَا كُنْتُمْ أَدْرِكُهُمُ الْمَوْتُ
وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّسَيَّدَةٍ﴾ [النساء: ٨]، يعني: ولو تحصّستم في أحصن الأبراج
يصل إليكم الموت الذي قدره الله لكم، سواءً بسبب ظاهر، أو بسبب خفيّ، فمن

حيث حصل هذا الموت لهذه النفس، نؤمن بأن هذا قضاءً وقدرٌ، وأن هذا المقتول مهملٌ تحصّن لا بدّ أن يحصل له ما قدر الله تعالى عليه، ولكن مع ذلك ننكر هذا الذنب على القاتل، ونلومه عليه، ونسخطه، والله تعالى أنكره عليه، وتوعّده على هذا القتل بوعيد شديد، وتوعّده النبي ﷺ، وأخبر بأنه يستحق العقوبة.

الله تعالى كتب القصص في قوله: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا كِتَابٌ عَلَيْكُمْ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ﴾ [البقرة: ١٧٨]، وفي قوله: ﴿وَكُنِبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ﴾ [المائدة: ١٤٥]، فهذا دليل على أنّه من حيث إنّ قضاءً وقدرٌ، ومن حيث صدوره من ذلك القاتل، نسخطه وننكره ونلوم القاتل، وهكذا بقيّة الحوادث التي تحدث في الدنيا، منها ما نرضاه، ومنها ما نسخطه من حيث الظاهر، أمّا من حيث القضاء والقدر، فجميعه مرضيٌّ لله سبحانه وتعالى، مقضيٌّ له ومرضيّ للعباد.

فعلى كلّ حال يلزمنا الرضا بكلّ ما قضاه الله وقدره، ولا يلزمنا الرضا بكلّ مقضيٍّ ومخلوق ومقدر وجوده في العالم، بل نسخط المعاصي ولو كانت قضاءً وقدرًا، وننكر على من فعلها ونلومه على ذلك، وإذا احتجّ بالقدر لم نمنعه من أخذ الحقّ منه، كما ذكرنا أنّ عمر رضي الله عنه لَمَّا رُفِعَ إليه سارق، قال له: «ما حملك؟» أي: على السرقة، قال السارق: «قضاء الله»، أي: إنه مكتوب عليّ، وهذا قدر الله، فقطع يده، وقال: «هذه للسرقة»، وجلده وقال: «هذه لكذبك على الله»^(١)، فهو بذلك

يعرف أن هذا مأمور به.

ولمَّا خرج عمر رضي الله عنه إلى الشام، ذكِرَ له أن الطاعون قد وقع في الشام، فشاور الصحابة هل يقدم عليهم أو لا يقدم؟ فاختلفوا، فمنهم من قال: لا تذهب إلى الشام ومعك هؤلاء الذين هم صفوة الصحابة فتعرضهم للموت، ومنهم من قال: إن هذا شيء مكتوب فلا تفرّ بهم، ولا ترجع، ولكنه عزم على الرجوع. فقال له أبو عبيدة بن الجراح: فرارًا من قدرِ الله؟ فقال عمر: «لو غيرك قالها يا أبا عبيدة، نعم نفرُّ من قدرِ الله إلى قدرِ الله»^(١).

يعني يقول: إن الله تعالى قدر لنا أن نرجع، وما كتب لنا أن نذهب، فنحن إذا رجعنا فبقدر الله، نفرُّ من قدر الله إلى قدر الله. ثم ضرب مثلًا وقال: «أرأيت لو كان لك إبِلٌ هَبَطَتْ وادِيًا له عُدْوَتَانِ إِحْدَاهُمَا خَصْبَةٌ وَالْأُخْرَى جَدْبَةٌ، أَلَيْسَ إِنْ رَعَيْتَ الْخَصْبَةَ رَعَيْتَهَا بِقَدْرِ اللَّهِ، وَإِنْ رَعَيْتَ الْجَدْبَةَ رَعَيْتَهَا بِقَدْرِ اللَّهِ؟»، فالله تعالى هو الذي قدر لك أن تسلك هذا، ثم اختار لك أن تسلك هذا، فهكذا إذا رجعت من مكانٍ مخوفٍ، فليس ذلك هربًا من قضاءٍ، بل الله الذي قدر عليك هذا القضاء والقدر، قدر عليك أنك ترجع أو أنك لا ترجع، وإذا كان الله تعالى قد كتب على الإنسان أنه يموت بسبب، فلا بد أن يصل إليه الموت في أي مكان.

وقد روي أن بعض البصريين هرب من الطاعون، فركب حمارًا له، ومضى

بأهله نحو سفوان، فسمع حاديًا يحدو خلفه يقول:

(١) أخرجه البخاري (٥٧٢٩)، ومسلم (٢٦١٩).

لَنْ يُسْبِقَ اللَّهُ عَلَى حِمَارٍ وَلَا عَلَى ذِي مِيعَةٍ طَيَّارٍ
 أَوْ يَأْتِي الحَتْفُ عَلَى مِقْدَارٍ قَدْ يُضِيحُ اللَّهُ أَسْمَاءَ السَّارِي^(١)
 فتوقفوا واستمع قليلاً، ثم إنه نزل في ذلك المكان، وأصابه الطاعون ومات،
 ولم يغنه فراره ولا هربه.

الله تعالى قد ذكر أن قوماً هربوا من الموت، ثم إن الله تعالى أماتهم في قوله
 تعالى: ﴿الَّذِينَ تَرَوُا تَرَوْا لِي الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أَلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ
 اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ﴾ [البقرة: ٢٤٣]، ما أخرجهم إلا حذر الموت، ولكن هل
 سلموا، بل أماتهم الله ثم أحياهم، يعني: قدرة الله تعالى تأتي على كل شيء،
 فأماتهم الله ليربهم أن الخروج والهرب لا ينجيهم، ثم أحياهم بقدرته ليعلمهم
 ويربهم كامل قدرته.

وعلى كل حال فنحن نقول: إن الإنسان مأمور بأن يتحصن، وبأن يفعل
 الأسباب، وبأن يأخذ حذره، ولكن لا يرد عنه ما قد كتب الله عليه من الآجال
 والأمراض والعاهات ونحو ذلك، وإنما هذه أسباب ظاهرة، ولا يجوز مع ذلك
 تركها، فإن الله سبحانه قد أمر بأخذ الحذر في حالة صلاة الخوف لئلا أمر بها،
 ومعلوم أن المسلمين قد يقول قائلهم: سوف نصلي جماعة، والله تعالى سوف
 يرحمنا، ويحفظنا، ولكن الله تعالى أخبر بأن المشركين يتحيتون الفرص، ويختالون

(١) ذكر هذه القصة ابن جرير الطبري في تاريخه (٢/٤٨٩)، وابن عبد البر في التمهيد

في أن يجدوا غفلةً من المؤمنين فيقتلونهم، فقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغَفَّلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْمَةً وَاحِدَةً﴾ [النساء: ١٠٢]، هكذا أخبر الله عن الكافرين، وأمر المسلمين بأن يأخذوا الحذر في قوله تعالى في الآية: ﴿وَخُذُوا حِذْرَكُمْ﴾، يعني: في حالة صلاتهم للخوف يأخذوا أسلحتهم، ويكونوا حذرين.

فكل ذلك دليل على أن فعل السبب لا ينافي التوكل، وأنه لا يرد ما قدر الله، فإن فعل الأسباب مأمور به، وتركها إلقاءً إلى التهلكة، وإن التعرض أو فعل الأسباب التي يحصل بها الموت عمداً، يصير ذنباً كبيراً؛ ولهذا ورد الوعيد الشديد على من قتل نفسه بفعل ظاهر، ففي حديث أبي هريرة رضي الله عنه وغيره أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «من تردى من جبلٍ فقتل نفسه، فهو في نار جهنم يتردى فيه خالدًا مخلدًا فيها أبداً، ومن تحسى سماً فقتل نفسه فسمه في يده يتحساه في نار جهنم خالدًا مخلدًا فيها أبداً، ومن قتل نفسه بحديدة فحديدته في يده يجأ بها في بطنه في نار جهنم خالدًا مخلدًا فيها أبداً»^(١)، فمن التهم سماً فإنه يدخل جهنم ويجعل السم في يده يتحساه دائماً في نار جهنم، والعياذ بالله، ومن تردى من رأس جبل حتى يموت، فهو يتردى في نار جهنم. فهذا دليل على أنه إذا فعل شيئاً يعوقه، أصل إلى أنه يقتل بذلك نفسه، فإنه معرض لهذا الوعيد. ولو قال مثلاً: إن هذا مكتوبٌ عليّ،

(١) أخرجه البخاري (٥٧٧٨)، ومسلم (١٠٩).

وإنّ هذا مقدّر، نقول له: إنّ الله تعالى هو الذي قدر كلّ شيء، ولكنّه هناك عن شيء أنت تستطيعه، فهناك أن تلقي بيدك إلى التهلكة، وهناك عن هذه المعاصي، وهناك عن هذه المخالفات، وأمرك بأضدادها، وما أمرك إلاّ بأمر أنت مستطيعٌ له، ولو كان كل ذلك واقعًا بقضاء وقدر.

قال الطحاوي:

فَالْحَذَرُ كُلُّ الْحَذَرِ مِنْ ذَلِكَ، نَظَرًا وَفِكْرًا وَوَسْوَسَةً.

قال الشارح:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: جَاءَ نَاسٌ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم، فَسَأَلُوهُ: إِنَّا نَحْذِرُ فِي أَنْفُسِنَا مَا يَتَعَاطَمُ أَحَدُنَا أَنْ يَتَكَلَّمَ بِهِ، قَالَ: «وَقَدْ وَجَدْتُمُوهُ؟»، قَالُوا: نَعَمْ، قَالَ: «ذَلِكَ صَرِيحُ الْإِيمَانِ». رَوَاهُ مُسْلِمٌ ^(١).

الإِشَارَةُ بِقَوْلِهِ: «ذَلِكَ صَرِيحُ الْإِيمَانِ»، إِلَى تَعَاظِمِهِمْ أَنْ يَتَكَلَّمُوا بِهِ. وَلِمُسْلِمٍ ^(٢) أَيْضًا عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه، قَالَ: سُئِلَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم عَنِ الْوَسْوَسَةِ، فَقَالَ: «تِلْكَ مَحْضُ الْإِيمَانِ».

وَهُوَ بِمَعْنَى حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ، فَإِنَّ الْوَسْوَسَةَ النَّفْسِ وَمُدَافَعَةَ وَسْوَاسِهَا بِمَنْزِلَةِ الْمُحَادَثَةِ الْكَائِنَةِ بَيْنَ اثْنَيْنِ، فَمُدَافَعَةُ الْوَسْوَسَةِ الشَّيْطَانِيَّةِ، وَاسْتِعْظَامُهَا صَرِيحُ الْإِيمَانِ، وَمَحْضُ الْإِيمَانِ.

هَذِهِ طَرِيقَةُ الصَّحَابَةِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ - وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ، ثُمَّ خَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلَفٌ، سَوَّدُوا الْأَوْرَاقَ بِتِلْكَ الْوَسْوَاسِ، الَّتِي هِيَ سُكُوكٌ وَشُبُهَةٌ، بَلْ وَسَّوَّدُوا الْقُلُوبَ، وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ؛ لِيُذْهِبُوا بِهِ الْحَقَّ، وَلِلذَلِكَ أَطْنَبَ

(١) برقم (١٣٢).

(٢) برقم (١٣٣).

الشَّيْخُ - رَحِمَهُ اللَّهُ - فِي ذَمِّ الْخَوْضِ فِي الْكَلَامِ فِي الْقَدْرِ وَالْفَحْصِ عَنْهُ.
 وَعَنْ عَائِشَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - أَنَّهَا قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ أَبْغَضَ
 الرَّجَالِ إِلَى اللَّهِ الْأَلْدُ الْخَصِيمُ»^(١). وَقَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ^(٢): حَدَّثَنَا أَبُو مُعَاوِيَةَ، حَدَّثَنَا
 دَاوُدُ بْنُ أَبِي هِنْدٍ، عَنْ عَمْرٍو بْنِ شُعَيْبٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ جَدِّهِ، قَالَ: خَرَجَ
 رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ذَاتَ يَوْمٍ وَالنَّاسُ يَتَكَلَّمُونَ فِي الْقَدْرِ، قَالَ: فَكَأَنَّمَا نَفَقًا فِي وَجْهِهِ
 حَبُّ الرُّمَانِ مِنَ الْغَضَبِ، قَالَ: فَقَالَ: «مَا لَكُمْ تَضْرِبُونَ كِتَابَ اللَّهِ بَعْضُهُ
 بِبَعْضٍ؟! هَلْكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ»، قَالَ: فَمَا غَبَطْتُ نَفْسِي بِمَجْلِسٍ فِيهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لَمْ
 أَشْهَدْهُ، بِمَا غَبَطْتُ نَفْسِي بِذَلِكَ الْمَجْلِسِ أَنِّي لَمْ أَشْهَدْهُ. وَرَوَاهُ ابْنُ مَاجَةَ أَيضًا^(٣).

قال الشيخ:

عندنا شيئان: الأمر الأول: ما يجول في النفس، وما يحدث من الوسواس
 والأوهام، ولكن لا يخرجها الإنسان، بل يزيلها أو يحرص على إزالتها، فهذه مما
 يُعفى عنه. والأمر الثاني: ما ابتلي به المتكلمون من إظهار تلك الوسواس والتكلم
 بها، وكتابتها وإشاعتها، وهذا مذموم.
 فكان الصحابة وكذلك التابعون وتلاميذهم، إذا خطر في أنفسهم

(١) تقدم تحريجه (٢/٢٢٩).

(٢) في المسند (٢/٤٧٨).

(٣) برقم (١٥٥).

خطرات وشكوك لم يبدوها، بل استمروا على ما هم عليه من العقيدة، وآمنوا بالله وبما جاء عن الله سبحانه وتعالى، فلم تضرهم تلك الوسوس ولا تلك الهواجس.

وكثيراً ما يخطر على قلب الإنسان وسوسةٌ في أمورٍ من الغيب - مثلاً - في ماهية وكيفية العرش، وذات الربّ تعالى وصفاته، وكذلك أمور البعث وأمر البرزخ، قد يتوارد على نفسه شيء من التشكيكات في هذه، وكيف تصوّر، وكيف يتحقق ما ذكر من وصفها في هذه النصوص، فإنّ في ذلك شيئاً من الاستبعاد، ومن الاستغراب، فإذا تواردت هذه الشكوك على هذه النفوس، ولكن أحرقتها النفس المطمئنة، ولم تلتفت إليها، ولم يتكلّم بها الإنسان، فإنّ ذلك ممّا يعفى عنه، وقد سمّاه النبي ﷺ: «هَرِيحُ الْإِيمَانِ»، يعني: ما دمتم تتصرون على هذه الوسوس دون أن تتكلّموا بها، فإنّ ذلك معفو عنه، كما ثبت في الحديث قوله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ جَبَّازٌ لِي عَنْ أُمَّتِي مَا وَسَّوَسَتْ بِهِ صُدُورُهَا مَا لَمْ تَعْمَلْ أَوْ تَكَلِّمْ»^(١). فحديث النفس معفو عنه، يعني: الخواطر التي تخطر في القلب، والتي تكون طوارئ وخواطر ووسوس وأوهاماً وتشكيكات، ولكن يغلبها المؤمن بقوة إيمانه، كما قامت عنده الأدلة الصريحة والصادقة في صدق الرسل، وما جاؤوا به من الأمور الغيبية، وثق بها أتمّ ثقة، ولم تؤثر فيه تلك الشكوك والأوهام ونحوها، فلما وجد بذلك هذه الثقة اضمحلت تلك الوسوس، ولم تضره، فتليك أيها

(١) تعلیم تخریجه (٦ / ٩١).

المؤمن أن تؤمن بالحقّ الذي أنت عليه، وتثق به، دون أن تلتفت إلى شيء من تلك الأوهام، ولا تتماهى معها، هكذا أخبر عليه الصلاة والسلام.

عرفنا أن من عقيدة المسلمين الإيمان، وأركانه ستة: الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والإيمان بالقدر خيره وشره، وأن الإيمان تدخل فيه الأعمال، فالأعمال من مسمى الإيمان، ولأجل ذلك يقوى الإيمان ويضعف، ويزيد وينقص، بسبب زيادة الأعمال يزداد الإيمان، وبسبب نقص الأعمال وارتكاب الذنوب ينقص الإيمان، وذلك مما يحمل المسلم على أن يتعهد إيمانه بالزيادة، ويجذر من النقصان؛ لأنه إذا تغافل وصار ينقص إيمانه شيئاً فشيئاً، لم يأمن أن يضعف، وإذا ضعف لم يكن زاجراً له عن اقتراف السيئات، ولم يكن دافعاً له إلى التكاثر من الحسنات، كذلك قد يصير ضعف الإيمان سبباً لأن يقوى ضده وهو الكفر أو الذنب أو المعصية، فإنه كلما قوي الإيمان ضعفت دوافع الكفر والفسوق والمعاصي، وكلما ضعف الإيمان قويت أصداده. فيحرص المسلم على أن يتعهد الإيمان مجداً مجتهداً في الحرص على تقوية إيمانه، وعلى البعد عن الأسباب التي تضعفه، فقد بين العلماء مسمى هذه الأشياء؛ لأنها مسميات شرعية.

فالإيمان وإن كان أصله لغويّاً، ولكنه أصبح مسمىً شرعياً، استعمله الشرع في الانقياد لأوامر الله تعالى، واتباع ما جاء عنه، واستعمله في تكميل هذا الأتباع، بامتنال الطاعات وترك المحرمات، فأصبح مسمىً شرعياً.

كذلك الإسلام مسمىً شرعياً، ولو كان أصله في اللغة: الإذعان والاستسلام، ولكنه أصبح اسماً شرعياً يراد به: الدخول في هذا الدين، والانتساب

إليه، والالتزام بتعاليمه، فهو مسمّى شرعيّ بعد أن كان لغويّاً. كذلك الإحسان مسمّى شرعيّ، قد بينه النبي ﷺ، فوصف أهله وقسمهم، فأصبحت هذه الأسماء الإسلام والإيمان والإحسان، كذلك أضدادها أصبحت مسميات شرعيّة، فالكفر مسمّى شرعيّ، وإن كان أصله في اللغة الستر والتغطية، والشرك مسمّى شرعيّ، ولو كان له أصل في اللغة الذي هو الاشتراك في شيئين، أو التشريك بين اثنين، والنفاق مسمّى شرعيّ ولو كان له أصل في اللغة، ولكنّه أصبح مستعملاً في هذا الاستعمال الشرعي.

فهذه المسميات جاءت الشريعة باستعمالها في هذه الأشياء، منها ما هو مأمور به؛ كالإسلام والإيمان والإحسان، والدين والاستقامة، وما أشبهها، ومنها ما هو منهي عنه، ومحدّر منه؛ كالكفر والشرك والنفاق والسيئات والخطايا والذنوب، وما أشبهها، هذه مسميات شرعيّة، ودخولها في العقيدة من حيث إنّ على المسلم أن يعتقد ما جاءت به الشريعة، وأن يقبلها قبولاً كليّاً، فيقول: هذا الإسلام تضمّنته هذه الشريعة، فأنا أدين بالإسلام سواء فيما يتعلّق بالعقائد، أو ما يتعلّق بالأعمال، فيدين الله تعالى به، ويعتقد أنّه سفينة النجاة، وأنّه سبيل الوصول إلى السلامة، فيعتقد صحته وسلامة من سار عليه، ويعتقد خطأ من ضلّ وابتعد عنه، أو أخذ منه بعضاً دون بعض، فهذا وجه دخوله في العقيدة.

أما أركان الإسلام فهي مشهورة، ولم يدخلوها في العقيدة، ما عدا الركن الأساسي الذي هو الشهادتان، فإنهما أساس العقيدة، وأساس التوحيد، بخلاف الأركان العملية، فالصلاة والزكاة والصوم والحج والجهاد والأمر بالمعروف

والنهي عن المنكر وما أشبهها، هذه من الأعمال التي جعلوها من الفروع، ولكن هي في الحقيقة من العقيدة؛ لأنها أسس للعقيدة، ولأن إنكارها إنكار لشيء معلوم من الدين بالضرورة، فيخرج المنكر لها من الملة، ويدخل في الكفر والعياذ بالله؛ وذلك لأنها لما كانت أدلتها واضحة، والمسلمون تلقوها بالقبول، لم يكن هناك مجال لإنكارها ولو وجد من ينكرها، فإن أولئك الذين أنكروها قد خالفوا المعقول والمنقول، وكذلك الذين تأولوها كالفلاسفة، وبعض الصوفية ونحوهم، الذين قالوا: إن الصلاة ليست هي هذه الأفعال، إنما المراد بها اتصال القلب بالرب، وفسروا الحج بأنه: حجّ القلوب إلى علام الغيوب، وأسقطوا بذلك هذه الأركان الظاهرة، والتي تعلمها المسلمون من نبيهم ﷺ، ولكن نفرة المسلمين من هذه الأقوال واستبشاعهم لها أوجب أنها ما تذكر في العقائد، فاقصر أهل العقائد على أركان الإيمان التي هي الستة، وأصلها كما تقدم وتكرر أصلاً: الإيمان بالله، والإيمان باليوم الآخر. فإذا اجتمع هذان تبعتهما بقية الأركان، ولكنهم فصلوا في كثير منها، وأجملوا في بعض منها لقلّة الخلاف، وبذلك إذا حققها المسلم أصبح من أهل العقيدة السليمة، وأهل الاستقامة، الذين هم على سبيل النجاة.

قال الشارح:

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلْقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلْقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلْقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا﴾ [التوبة: ٦٩]، الخَلَاقُ: النَّصِيبُ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا لَهُمْ بِالْآخِرَةِ مِنْ خَلْقٍ﴾ [البقرة: ٢٠٠]، أَي: اسْتَمْتَعْتُمْ بِنَصِيبِكُمْ مِنَ الدُّنْيَا، كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِنَصِيبِهِمْ، وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا، أَي: كَالخَوْضِ الَّذِي خَاضُوهُ، أَوْ كَالْفُوجِ، أَوْ الصَّنْفِ، أَوْ الْجِيلِ الَّذِينَ خَاضُوا. وَجَمَعَ - سُبْحَانَهُ - بَيْنَ الاسْتِمْتَاعِ بِالخَلَاقِ وَبَيْنَ الخَوْضِ؛ لِأَنَّ فَسَادَ الدِّينِ: إِمَّا فِي الْعَمَلِ، وَإِمَّا فِي الْإِعْتِقَادِ، فَالْأَوَّلُ مِنْ جِهَةِ الشَّهَوَاتِ، وَالثَّانِي مِنْ جِهَةِ الشُّبُهَاتِ.

وَرَوَى البُخَارِيُّ^(١) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم قَالَ: «لَتَأْخُذَنَّ أُمَّتِي مَا أَخَذَ الْقُرُونُ قَبْلَهَا، شَبْرًا بِشِيرٍ وَذِرَاعًا بِذِرَاعٍ»، فَقِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ كَفَّارِسَ وَالرُّومِ؟ فَقَالَ: «فَمَنْ النَّاسُ إِلَّا أَوْلِيئِكَ؟».

وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: «لَيَأْتِيَنَّ عَلَى أُمَّتِي مَا أَتَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ حَذْوَ النَّعْلِ بِالنَّعْلِ، حَتَّى إِنْ كَانَ مِنْهُمْ مَنْ أَمَى أُمَّهُ عِلَابِيَّةً لَكَانَ فِي أُمَّتِي مَنْ يَصْنَعُ ذَلِكَ، وَإِنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ تَفَرَّقَتْ عَلَى ثَلَاثِينَ وَسَبْعِينَ مِلَّةً، وَتَفَرَّقَتْ أُمَّتِي عَلَى ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ مِلَّةً، كُلُّهُمْ فِي النَّارِ إِلَّا مِلَّةً وَاحِدَةً».

(١) برقم (٧٢١٩) ولفظه: «لَا تَقُومُ السَّنَاءَةُ حَتَّى نَأْخُذَ أُمَّتِي...» الحديث.

قَالُوا: وَمَنْ هِيَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «مَا أَنَا عَلَيْهِ وَأَصْحَابِي». رواه الترمذي^(١).
 وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم قَالَ: «تَفَرَّقَتِ الْيَهُودُ عَلَيَّ إِحْدَى
 وَسَبْعِينَ أَوْ اثْنَتَيْنِ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً، وَالنَّصَارَى مِثْلَ ذَلِكَ، وَتَفَتَّرِقُوا عَلَيَّ ثَلَاثَ
 وَسَبْعِينَ فِرْقَةً». رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ^(٢)، وَابْنُ مَاجَةَ^(٣)، وَالتِّرْمِذِيُّ^(٤)، وَقَالَ: «حَدِيثٌ
 حَسَنٌ صَحِيحٌ».

وَعَنْ مُعَاوِيَةَ بْنِ أَبِي سُفْيَانَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: «إِنَّ أَهْلَ الْكِتَابَيْنِ
 افْتَرَقُوا فِي دِينِهِمْ عَلَى ثِنْتَيْنِ وَسَبْعِينَ مِلَّةً، وَإِنَّ هَذِهِ الْأُمَّةَ سَتَفْتَرِقُوا عَلَيَّ ثَلَاثَ
 وَسَبْعِينَ مِلَّةً. يَعْنِي: الْأَهْوَاءَ. كُلُّهَا فِي النَّارِ إِلَّا وَاحِدَةً، وَهِيَ الْجَمَاعَةُ»^(٥).
 وَأَكْبَرُ الْمَسَائِلِ الَّتِي وَقَعَ فِيهَا الْخِلَافُ بَيْنَ الْأَئِمَّةِ مَسْأَلَةُ الْقَدْرِ، وَقَدْ اتَّسَعَ
 الْكَلَامُ فِيهَا غَايَةَ الْإِتْسَاعِ.

(١) برقم (٢٦٤١)، وفي إسناده عبد الرحمن بن زياد بن أنعم الأفريقي، قال الحافظ في التقریب
 (ص ٣٤٠): «ضعيف في حفظه». وانظر: الجرح والتعديل (٥/٢٣٤)، والکامل في ضعفاء
 الرجال (٤/٢٧٩).

(٢) برقم (٤٥٩٦).

(٣) برقم (٣٩٩١).

(٤) برقم (٢٦٤٠)، وأخرجه أحمد (٢/٣٣٢)، وصححه ابن حبان (١٤٠/١٤)، والحاكم
 (١/١٢٨).

(٥) أخرجه أحمد (٤/١٠٢)، وأبو داود (٤٥٩٧)، وأخرجه عن أنس رضي الله عنه وفيه زيادة أحمد
 (٣/١٦٠/١٤٥)، وابن ماجه (٣٩٩٢).

قال الشيخ:

كلامه هاهنا على تفرق الأمة، وأن هذه الأمة ستفعل كما فعل الأولون، فالله تعالى ذكر أن الأولين استمتعوا بخلاقهم، وأنكم استمتعوا أيها العرب بخلاقكم مثل استمتاعهم، وأنكم خضتم كخوضهم الذي خاضوه، والاستمتاع: الانتفاع، يعني: أنهم انتفعوا بأخلاقهم وبقوا عليها كاستمتاع الذين من قبلهم بأخلاقهم، وخوضهم في الذي خاضوه، وأخبر بأن الخلاق هو الحظ والنصيب؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلْقٍ﴾ [البقرة: ٢٠٠]، أي: ليس له من حظ ولا نصيب، فأخبر الله تعالى بأنكم أيها العرب استمتعتم بنصيبيكم من الدنيا كاستمتاع الذين من قبلكم بنصيبيهم، وأنكم خضتم (كالحفوض الذي خاضوه، أو كالقوج، أو الصنف، أو الجليل الذين خاضوا)، وهذا على وجه الإنكار، وعلى وجه التحذير. والمراد: ابتعدوا عن تقليدهم فيما خاضوا فيه، ولو كانوا يدعون أنهم على حق أو أنهم على صواب، فإن هذا استمتاع وخوض يؤدي إلى الباطل فابتعدوا عنه.

قوله: (وَجَمْعٌ - سُبْحَانَهُ - بَيْنَ الْإِسْتِمْتَاعِ بِالْخَلْقِ وَبَيْنَ الْخَوْضِ)، أي: يجبر بأن

الله جمع بين الاستمتاع والخوض في قوله ﴿فَاسْتَمْتَعُوا﴾، ﴿وَحَضُّتُمْ﴾.

قوله: (لِأَنَّ فَسَادَ الدِّينِ: إِمَّا فِي الْعَمَلِ، وَإِمَّا فِي الْإِعْتِقَادِ)، فالعمل هو

الخوض، والخلاق هو الاعتقاد.

يقول: (فَالْأَوَّلُ مِنْ جِهَةِ الشَّهَوَاتِ)، أي: الفساد في العمل بالشهوات التي

توقع في الآثام؛ لأن الإنسان إذا أعطى نفسه ما تشتهي جرت به إلى المحرمات، من الشهوات التي هي توقع في النار؛ لأن النبي ﷺ قال: «حُفَّتِ الْجَنَّةُ بِالْمَكَارِهِ، وَحُفَّتِ النَّارُ بِالشَّهَوَاتِ»^(١)، فالشهووات التي تشتهيها النفس - كالزنى والغناء والخمور وما أشبهها - توقع في الذنب الكبير.

قوله: (وَالثَّانِي مِنْ جِهَةِ الشُّبُهَاتِ)، أي: الفساد في الاعتقاد بالشبهات التي يلقفها أعداء الإسلام، ويريدون للأمة أن تقع في هذا الخوض، فيكون ذلك سبباً في شكهم في دينهم، فيجمعون شبهات يشبهون بها، وهي التي سببت حيرة كثير من هذه الأمة، حيث وقعوا في الحيرة وماتوا وهم في شك، نعوذ بالله.

ثم أورد مجموعة من الأحاديث، هذه الأحاديث دالة على أن الأمة تتبع من قبلها، في حديث البخاري عن أبي هريرة ؓ قوله ﷺ: «التَّأْخِذُ بِأَمْتِي مَا أَخَذَ الْقُرُونُ قَبْلَهَا، شَبْرًا بِشِيرٍ وَذِرَاعًا بِذِرَاعٍ»، فَقِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ كَفَّارِسَ وَالرُّومِ؟ فَقَالَ: «وَمَنْ النَّاسُ إِلَّا أَوْلِيَاكَ»^(٢)، المأخذ هي: الطرق والعادات والأعمال السيئة، يعني: أنهم يسرون على نهج الأمم قبلهم الذين هم فارس وهم من المجوس، والروم وهم من النصارى، ونحوهم أيضاً كاليهود، أفعالهم تتبعها هذه الأمة شبراً بشير وذراعاً بذراع، بحيث إنهم يفعلون كل ما فعلوه قبلهم ولو مسيرة شبر أو ذراع،

(١) أخرجه مسلم (٢٨٢٢) من حديث أنس ؓ، وأخرجه البخاري (٦٤٨٧) من حديث أبي

هريرة ؓ بلفظ: «حُجِّبَتِ النَّارُ بِالشَّهَوَاتِ، وَحُجِّبَتِ الْجَنَّةُ بِالْمَكَارِهِ».

(٢) تقدم تحريجه (٥٠٦/٢).

وهذا فيه تحذير للأمة وإخبار بأن هذا واقع، وقد وقع كما أخبر.

وفي حديث عبد الله بن عمرو - رضي الله عنهما - قوله ﷺ: «لَيَأْتِيَنَّ عَلَى أُمَّتِي مِمَّا أَتَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ حَذْوُ النَّعْلِ بِالنَّعْلِ»^(١)، بنو إسرائيل هم: اليهود والنصارى؛ لأن كلاً منهم يدعون أنهم من ذرية إسرائيل الذي هو يعقوب عليه السلام، أي: أن هذه الأمة تسير مع مسير تلك الأمم، حتى كأنهم يسرون على آثارهم، يضع أحدهم نعله على موضع نعل اليهودي أو النصراني، إذا رفع قدمًا وضع عليه قدمًا، بمعنى: أنهم يفعلون كأفعالهم، كما يفعل الذي يسير على أثر غيره، يضع قدمه على موضع قدمه.

ثم ضرب مثلاً من الأفعال الشنيعة، قال: «حَتَّىٰ إِنْ كَانَ مِنْهُمْ مَنْ أَتَى أُمَّهُ عَلَانِيَةً لَكَانَ فِي أُمَّتِي مَنْ يَصْنَعُ ذَلِكَ»، أي: إذا كان منهم من زنى بأمه علانية - والعياذ بالله - أمام الناس جهراً كان من هذه الأمة من يصنع ذلك، وهذا من الواقع الشنيع، ولا شك أنه قد وقع ذلك، حيث أخبر به النبي ﷺ، فإن كثيراً ممن ينتسب إلى الإسلام صاروا يحلون الحرام ومن ذلك الزنى، ويجعلونه حلالاً إذا حصل التراضي بين الزانيين، ويجر ذلك إلى أن الرجل قد يزني بأمه أو بابنته أو ببعض محارمه ولا يبالي والعياذ بالله.

قوله ﷺ: «وَإِنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ تَفَرَّقَتْ عَلَى ثَلَاثِينَ وَسَبْعِينَ مِلةً»، أخبر ﷺ أن بني إسرائيل تفرقوا على ثلاثين وسبعين ملة، قيل: إن هذا للحصر، وأن فرقهم وصلت

إلى ثنتين وسبعين، وقيل: إن هذا على وجه المبالغة في الكثرة.

قوله ﷺ: «وَتَفْتَرِقُ أُمَّتِي عَلَى ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ مِلَّةً»، قيل: إن المراد أمة الدعوة فيدخل فيها كل من كان من البشر فإنه من أمة الدعوة. وقيل: المراد أمة الإجابة الذين استجابوا للنبي ﷺ واتبعوه وقالوا: إننا مسلمون. اختلفوا فرقا كثيرة، وذكر الثلاث وسبعين؛ لأجل التكثر لا لأجل الحصر، فلو أحصيت فرقهم فقد تكون أكثر، ويمكن أن يُراد أن هذه الثلاث وسبعين هي رؤوس الفرق بخلاف الفروع، فإن الفروع كثيرة يمكن أنها تصل إلى مئات أو ألوف من الفرق، وبعض الفرق قد يكونون انقرضوا، وبعضهم قد يكونون قلة تابعين لغيرهم.

ثم يقول: «كُلُّهُمْ فِي النَّارِ إِلَّا مِلَّةً وَاحِدَةً»، هذه الفرق إذا قلنا: إنه يدخل فيهم فرق الأمة: كالتدرية والمعتزلة والوعيدية والجهمية والصوفية والرافضة والزيدية والإمامية والعلمانية ونحوهم من هذه الفرق القديمة والجديدة، ومثلهم أيضا النصيرية والدرزية ونحوهم، فإن من هؤلاء من هم قريبون من الإسلام - كالأشاعرة والماتريدية ونحوهم - فلا يُحكم بأنهم كلهم في النار، بل يكونون كأهل البدع الذين انحلوا بدعا، فيكون وعيدهم بأنهم من أهل النار، يعني: سيدخلونها وإن كانوا سوف يخرجون منها. وقيل: إن المراد أمة الدعوة، فيدخل فيهم النصارى والمجوس واليهود والقبوريون والمشركون والشيوعيون والبوذيون والهندوس ونحوهم ممن ينتسبون نحلاً وبصيرون أئمة وفرقا مستقلة.

وبكل حال فإن هذا وعيد شديد: «كُلُّهُمْ فِي النَّارِ إِلَّا مِلَّةً وَاحِدَةً»، قالوا: وَمَنْ

هِيَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: مَا أَنَا عَلَيْهِ وَأَصْحَابِي، أي: ما كان عليه النبي ﷺ

وأصحابه الذين صحبوه، ولا شك أنه لم يقع فيهم اختلاف ولا انحراف ﷺ، بل كانوا متمسكين، ولما خرجت الخوارج لم يكن فيهم أحد من الصحابة بل كلهم ممن بعد الصحابة، وكذلك لما ظهرت المعطلة والقدرية لم يكن فيهم أحد من الصحابة، فمن اقتدى بالصحابة وما كانوا عليه، كالأئمة وعلماء التابعين والمحدثين ونحوهم فإنهم من أهل النجاة؛ ولذلك سُئل الإمام أحمد - رحمه الله - عن الفرقة الناجية، فقال: «إن لم يكونوا أهل الحديث فلا أعرفهم»^(١). يعني: الأقرب أنهم المحدثون الذين اشتغلوا بعلم الحديث؛ لأنه العلم الموروث عن النبي ﷺ.

وفي حديث أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «تَفَرَّقَتِ الْيَهُودُ عَلَى إِحْدَى وَسَبْعِينَ أَوْ اثْنَتَيْنِ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً وَالنَّصَارَى مِثْلَ ذَلِكَ، وَتَفَتَّرَتْ أُمَّتِي عَلَى ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً»^(٢)، هذا أيضًا فيه هذا التفرق يمكن أن فرق الأمة: أمة الإجابة أو أمة الدعوة، وإذا قيل: إنهم أمة الإجابة فيكون من أحاديث الوعيد، ويكون أيضًا الذين يدخلون النار - والعياذ بالله - هم أهل البدع الكبيرة الذين يدخلونها بسبب بدعهم، وقد يطول مكثهم فيها وقد لا يطول، ومثلهم أيضًا أهل المعاصي ونحوهم.

وفي حديث معاوية ؓ أن النبي ﷺ قال: «إِنَّ أَهْلَ الْكِتَابَيْنِ افْتَرَقُوا فِي دِينِهِمْ

(١) تقدم تخريجه (٤٤/١).

(٢) تقدم تخريجه (٥٠٧/٢).

على ثنتين وسبعين ملة^(١)، المراد بأهل الكتابين: أهل التوراة والإنجيل، فأهل التوراة اليهود، وأهل الإنجيل النصارى، ذكر أن فرقهم وصلت إلى هذا العدد، إما على وجه الحصر، أو لأجل التكثير.

ثم قال: «وإن هذه الأمة ستفترق على ثلاث وسبعين ملة - يعني: الأهواء -» يراد بذلك الحصر، أو يراد بذلك التكثير، «كُلُّهَا فِي النَّارِ إِلَّا وَاحِدَةً، وهي الجماعة». والمراد بالجماعة: الذين اجتمعوا على الحق ولو كانوا قليلاً، فإنهم هم أهل السنة وأهل الجماعة، ومن خالفهم فإنه بعيد عن أن يكون من أهل السنة، وبعيد عن أن يكون من الجماعة، يقول بعض السلف: «الجماعة من كان على الحق ولو كانوا قليلاً، ولو خالفهم عدد كثير»؛ ولهذا في النونية لابن القيم لما ذكر قول أهل السنة في إثبات العلو قال^(٢):

هَذَا وَسَادِسُ عَشْرَهَا إِجْمَاعُ أَهْلِ الْعِلْمِ أَعْنِي حُجَّةَ الْأَزْمَانِ
مِنْ كُلِّ صَاحِبٍ مُنَّةٍ شَهِدَتْ لَهُ أَهْلُ الْحَدِيثِ وَعَسْكَرُ الْقُرْآنِ
لَا عِزَّةَ بِمُخَالِفِ لَهُمْ وَلَسُو كَانُوا عَدِيدَ الشَّاءِ وَالْبُغْرَانِ

يعني: أن الذين يكونون حجة هم أهل الحديث وعسكر القرآن، ولا عبرة بمن خالفهم ولو كثروا.

ثم قال: (وَأكْبَرُ الْمَسَائِلِ الَّتِي وَقَعَ فِيهَا الْخِلَافُ بَيْنَ الْأُمَّةِ مَسْأَلَةُ الْقَدْرِ، وَقَدْ

(١) تقدم تخرجه (٥٠٧/٢).

(٢) انظر: النونية بشرح ابن عيسى (٤٣٩/١).

اتَّسَعَ الْكَلَامُ فِيهَا غَايَةَ الْإِتْسَاعِ؛ ذلك لأنه أول ما حدث مسألة القدر الذي هو إنكار العلم، فإن الذين سألو ابن عمر - رضي الله عنهما - وهم : يحيى بن يعمر وحميد بن عبد الرحمن الحميري قالوا: «يا أبا عبد الرحمن إِنَّهُ قَدْ ظَهَرَ قِبَلَنَا نَاسٌ يَقْرَؤُونَ الْقُرْآنَ وَيَتَقَرَّرُونَ الْعِلْمَ - وَذَكَرَ مِنْ شَأْنِهِمْ - وَأَتَّهُمْ يَزْعُمُونَ أَنَّ لِقَدْرٍ وَأَنَّ الْأَمْرَ أَنْفٌ»^(١)، هؤلاء هم غلاة القدرية، وقد رد عليهم الشافعي - رحمه الله - بقوله: «ناظروا القدرية بالعلم فإن أقرؤا به خصموا، وإن جحدوه فقد كفروا»^(٢)، يعني: سلوهم وناقشوهم هل الله تعالى بكل شيء عليهم؟ فإن أقرؤا به قلنا: ما الفرق بين علم السابق وعلم اللاحق؟، وإذا جحدوه كفروا العموم الآيات، ثم حدث بعدهم القدرية الذين ينفون قدرة الله وهم المعتزلة والذين يقولون: إن الله لا يخلق أفعال العباد. وقد رد عليهم أيضًا العلماء وبينوا أن هذا تنقص لله تعالى.

(١) أخرجه مسلم (٨):

(٢) انظر: جامع العلوم والحكم (ص ٢٧)، ومجموع الفتاوى (٢٣/٣٤٩)، وطريق المجرتين

قَالَ الطَّحَاوِيُّ:

فَمَنْ سَأَلَ: لِمَ فَعَلَ؟ فَقَدْ رَدَّ حُكْمَ الْكِتَابِ، وَمَنْ رَدَّ حُكْمَ الْكِتَابِ كَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ.

قال الشارح:

اعْلَمْ: أَنَّ مَبْنَى الْعُبُودِيَّةِ وَالْإِيمَانِ بِاللَّهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ عَلَى التَّسْلِيمِ، وَعَدَمِ الْأَسْئَلَةِ عَنْ تَفَاصِيلِ الْحِكْمَةِ فِي الْأُؤَامِرِ وَالنَّوَاهِي وَالشَّرَائِعِ؛ وَهَذَا لَمْ يَخْتِكِ اللَّهُ سُبْحَانَهُ عَنْ أُمَّةٍ نَبِيٍّ صَدَقَتْ نَبِيِّهَا وَأَمِنَتْ بِمَا جَاءَ بِهِ أَنَّهُمَا سَأَلَتْهُ عَنْ تَفَاصِيلِ الْحِكْمَةِ فِيهَا أَمْرًا بِهٍ وَمَهَا عَنهُ وَبَلَّغَهَا عَنْ رَبِّهَا، وَلَوْ فَعَلْتَ ذَلِكَ لَمَا كَانَتْ مُؤْمَنَةً نَبِيِّهَا، بَلِ انْقَادَتْ وَسَلَّمَتْ وَأَدْعَتْ، وَمَا عَرَفْتَ مِنَ الْحِكْمَةِ عَرَفْتَهُ، وَمَا خَفِيَ عَدَمًا لَمْ تَتَوَقَّفْ فِي انْقِيَادِهَا وَتَسْلِيمِهَا عَلَى مَعْرِفَتِهِ، وَلَا جَعَلْتَ ذَلِكَ مِنْ شَأْنِهَا، وَكَانَ رَسُولُهَا أَحْظَمَ عِنْدَهَا مِنْ أَنْ تَسْأَلَهُ عَنْ ذَلِكَ، كَمَا فِي الْإِنْجِيلِ: «يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَقُولُوا: لِمَ أَمَرَ رَبُّنَا؟ وَلَكِنْ قُولُوا: بِمِ أَمَرَ رَبُّنَا؟» وَهَذَا كَانَ سَلْفُ هَذِهِ الْأُمَّةِ، الَّتِي هِيَ أَكْمَلُ الْأُمَمِ عَقُولًا وَمَعَارِفَ وَعُلُومًا. لَا تَسْأَلُ نَبِيِّهَا: لِمَ أَمَرَ اللَّهُ بِكَذَا؟ وَلِمَ نَهَى عَنْ كَذَا؟ وَلِمَ قَدَّرَ كَذَا؟ وَلِمَ فَعَلَ كَذَا؟ لِعَلِمِهِمْ أَنَّ ذَلِكَ مُضَادٌّ لِلْإِيمَانِ وَالْإِسْتِسْلَامِ، وَأَنَّ قَدَمَ الْإِسْلَامِ لَا تَثْبُتُ إِلَّا عَلَى دَرَجَةِ التَّسْلِيمِ.

فَأَوَّلُ مَرَاتِبِ تَعْظِيمِ الْأَمْرِ: التَّسْضِيقُ بِهِ، ثُمَّ الْعَزْمُ الْجَارِمُ عَلَى امْتِثَالِهِ، ثُمَّ الْمُسَارَعَةُ إِلَيْهِ وَالْمُبَادَرَةُ بِهِ، وَالْحَذَرُ عَنِ الْقَوَاطِعِ وَالْمَوَانِعِ، ثُمَّ بَدَلُ الْجُهْدِ وَالنُّضْحِ فِي الْإِثْبَانِ بِهِ عَلَى أَكْمَلِ الْوُجُوهِ، ثُمَّ فَعَلُهُ؛ لِيَكُونَ مَأْمُورًا بِهِ، بِحَيْثُ لَا يَتَوَقَّفُ الْإِثْبَانُ

بِهِ عَلَى حِكْمَتِهِ، فَإِنْ ظَهَرَتْ لَهُ فَعَلَهُ، وَإِلَّا عَطَلَهُ، فَإِنَّ هَذَا يُنَافِي الْإِنْقِيَادَ، وَيَقْدَحُ فِي الْإِمْتِنَالِ.

قال الشيخ:

الله - سبحانه وتعالى - حكيم في أمره ونهيه، ما أمر بشيء إلا وفيه مصلحة، ولا نهى عن شيء إلا وفيه مضرة ومفسدة، ولكن مع ذلك ليس لنا أن نكثر التساؤل عن حكمة أي فعل أو أي قول نؤمر به أو نفعله، بل نرضى ونسلم لأمر الله سبحانه وتعالى، ولا نتعنت ولا نخالف في هذه الأوامر والنواهي، بل نقول: ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ [البقرة: ٢٨٥]، ونقول: ﴿لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا﴾ [البقرة: ٣٢]، رضينا بما جاءنا عن الله، وقد روي عن الشافعي - رحمه الله - أنه قال: «آمَنْتُ بِاللَّهِ، وَبِمَا جَاءَ عَنِ اللَّهِ، عَلَى مُرَادِ اللَّهِ، وَآمَنْتُ بِرَسُولِ اللَّهِ، وَبِمَا جَاءَ عَنِ رَسُولِ اللَّهِ، عَلَى مُرَادِ رَسُولِ اللَّهِ»^(١).

قوله: (اعْلَمْ: أَنَّ مَبْنَى الْعُبُودِيَّةِ وَالْإِيمَانَ بِاللَّهِ وَكُتْبِهِ وَرُسُلِهِ عَلَى التَّسْلِيمِ، وَعَدَمِ الْأَسْئَلَةِ عَنِ تَفَاصِيلِ الْحِكْمَةِ فِي الْأُؤَامِرِ وَالنَّوَاهِي وَالشَّرَائِعِ)، بل يقولون: سلمنا لأمر ربنا، رضينا بما جاءنا منه، قبلناه وإن لم تظهر لنا الحكمة، هذا هو مبنى العبودية، وكذلك الإيمان على الرضا والتسليم، وعدم التعر في الأسئلة، لا يسأل عن تفاصيل الحكمة في الأوامر والنواهي والشرائع.

(١) تقدم تخرجه (٢/١٦٢).

يقول: (وَلِهَذَا لَمْ يَخُكِ اللَّهُ سُبْحَانَهُ عَنْ أُمَّةٍ نَبِيٍّ صَدَقَتْ بِنَبِيِّهَا وَأَمْنَتْ بِمَا جَاءَ بِهِنَّ أُمَّهَاتُهُ عَنْ تَفَاصِيلِ الْحِكْمَةِ فِيمَا أَمَرَهَا بِهِ وَمَنَاهَا عَنْهُ وَبَلَّغَهَا عَنْ رَبِّهَا)،
 الأمم السابقة، يعني الذين صدقوا نوحًا - عليه السلام - أو صدقوا إبراهيم - عليه السلام - أو صدقوا لوطًا أو شعيبًا أو هودًا - عليهم السلام - ما سألوها، ما قالوا: لماذا أمرتنا بالتوحيد، لماذا نهيتنا عن الشرك؟ لماذا أمرتنا بالنكاح ونهيتنا عن السفاح؟ لماذا حرمت علينا المسكرات وما أشبهها؟ لماذا أبحث لنا الطيبات وحرمت علينا الخبائث؟ لا يسألون عن تفاصيل الحكمة، ولو فعلت ذلك ما كانت مؤمنة بنبيها، بل الأصل أنهم ينقادون ويسلمون ويدعون لما جاءهم عن الله تعالى على لسان رسوله، فما عرفوه من الحكمة عرفوه، إذا عرفوا المصالح قالوا بها، ولا شك أن في الطهارة بالماء مصالح، وأن في الصلاة مصالح وعبودية وتذلل، وأن في الزكاة مصالح، وأن في الصوم مصالح، وأن في الحج مصالح، وأن في الجهاد مصالح.

وكذلك أيضًا في تحريم المحرمات كتحرим الربا، وتحريم الغش وتحريم الغرر والغصب وما أشبه ذلك، يعرفون أن فيها مصالح، ولكن لم يتوقف قبولهم على معرفة تلك المصالح، بل ينقادون ويسلمون، وما عرفوا من الحكمة عرفوه، وما خفي عنهم لم يتوقفوا في الانقياد والتسليم على معرفته، بل يقولون: إنه حق، وإنه من الله تعالى، ولو لم تظهر لنا الحكمة.

قوله: (وَلَا جَعَلْتُ ذَلِكَ مِنْ شَأْنِهَا)، يعني: معرفة الحكمة ونحوها، فلو سأل أحد: لماذا تُسرع التيمم بالتراب مع أنه تلوث وغبار ونحو ذلك؟ نقول: لا نسأل

عن شيء من ذلك، بل نعرف أن الله تعالى حكيم في أمره ونهيه، ومع ذلك فإن العلماء قد حرصوا على أن يذكروا ما يقدرون عليه من الحكم، وقد تكلم ابن القيم - رحمه الله - في كتابه (إعلام الموقعين) على مثل هذا، لماذا - مثلاً - أمر بالاعتسال من النبي ولم يؤمر بالاعتسال من البول؟ وذكر الحكمة، لماذا قُطعت يد السارق في ربع دينار وُجِّعت ديتها خمسمائة دينار؟ وذكر الحكمة، وأشبه ذلك وأطال في ذلك، ومع ذلك الذي لم تظهر الحكمة فيه يجب التسليم له.

يقول: (وَكَانَ رَسُولُهَا أَكْثَمَ عِنْدَهَا مِنْ أَنْ تَسْأَلَهُ عَنِ ذَلِكَ)، بل نسلم لذلك.

قوله: (كَمَا فِي الْإِنْجِيلِ: يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَقُولُوا: لِمَ أَمَرَ رَبُّنَا؟ وَلَكِنْ قُولُوا: بِمِ أَمْرِ رَبِّنَا)، أي: لماذا أمرنا بكذا؟ ما الحكمة وما المصلحة؟ لا تقولوا ذلك، بل قولوا: بأي شيء أمرنا ربنا؟ وهكذا نقول: لا نسأل عن ليم؛ عن حكمة في أمر من الأوامر، بل نقول: الأمور كلها بيد الله تعالى، وما أمرنا به امتلنا، وما نهانا عنه انتهينا.

قوله: (كَانَ سَلَفُ هَذِهِ الْأُمَّةِ، الَّتِي هِيَ أَكْمَلُ الْأُمَمِ عُقُولًا وَمَعَارِفًا وَعُلُومًا)، السلف - رحمهم الله - الصحابة لا يسألون النبي ﷺ لماذا أمر الله بكذا؟ ولماذا نهى عن كذا؟ ولماذا قدر كذا؟ ولماذا فعل كذا؟ لا يسألون عن هذا؛ لأن هذا تكلف، لما قرأ عمر رضي الله عنه قول الله تعالى: ﴿وَفِيكُمُ رَأْبًا﴾ [عبس: ٣١]، على المنبر، فقال: «هذه الفاكهة قد عرفناها فيما الأب؟ ثم رجع إلى نفسه فقال: إن هذا هو

التكلف يا عمر»^(١)، وسُئِلَ أبا بكر الصديق رضي الله عنه عن قوله تعالى: ﴿وَفَكَهْمٌ وَأُنَابٌ﴾، فقال: «أي سماء تظلني وأي أرض تقلني إذا أنا قلت في كتاب الله ما لا أعلم»^(٢)، منقطع.

قوله: (لِعَلْمِهِمْ أَنَّ ذَلِكَ مُضَادٌّ لِلْإِيمَانِ وَالِاسْتِسْلَامِ)؛ لأن المؤمنين يقولون: آمنا بالله واستسلمنا لأمره.

قوله: (وَأَنَّ قَدَمَ الْإِسْلَامِ لَا تَثْبُتُ إِلَّا عَلَى دَرَجَةِ التَّسْلِيمِ)، القدم هنا استعارة عن ثبوت الإسلام، لا يثبت الإسلام حقاً إلا على درجة التسليم، أن يقولوا: سلمنا لأمر الله تعالى.

ثم قال: (فَأَوَّلُ مَرَاتِبِ تَعْظِيمِ الْأَمْرِ: التَّصَدِيقُ بِهِ)، إذا جاءنا الأمر فأول مرتبة أن نصدق بذلك الأمر.

ثانياً: (الْعَزْمُ الْجَازِمُ عَلَى امْتِثَالِهِ)، أي: نعزم ونجزم من أنفسنا على امتثال ذلك الأمر.

(١) أخرجه أبو عبيد في فضائل القرآن (ص ٣٧٥)، وعبد الرزاق في تفسيره (٣/٣٤٩)، وسعيد بن منصور في سنته (١/١٨١)، وابن أبي شيبة (٦/١٣٦)، والطبري في تفسيره (٣٠/٥٩)، والحاكم (٢/٥١٤) وصححه. وأخرج البخاري (٧٢٩٣) نحوه ذلك عن أنس رضي الله عنه قال: «كنا عند عمر رضي الله عنه، فقال: نُهِينَا عَنِ التَّكْلُفِ». قال الحافظ ابن حجر في الفتح (١٣/٢٧٠): «وذكر الحميدي أنه جاء في رواية أخرى عن ثابت عن أنس أن عمر قرأ ﴿وَفَكَهْمٌ وَأُنَابٌ﴾، فقال: ما الأب، ثم قال: ما كلفنا، أو قال: ما أمرنا بهذا».

(٢) تقدم تخريجه (٢/١٥٦).

ثالثاً: (ثُمَّ الْمَسَارَعَةُ إِلَيْهِ وَالْمُبَادَرَةُ بِهِ)، وعدم التواني وعدم التأخر، ثم (وَالْحَذَرُ عَنِ الْقَوَاطِعِ وَالْمَوَانِعِ)، أي: إذا بادرنا وامثلنا نحذر عن الشواغل والقواطع التي تعوقنا عن امثال ذلك الأمر.

رابعاً: (ثُمَّ بَدَلُ الْجُهْدِ وَالنُّصْحِ فِي الْإِثْنَانِ بِهِ عَلَى أَكْمَلِ الْوُجُوهِ)، ذلك الذي أمرنا به نحرص على أن نبذل ما نستطيعه حتى نأتي به كاملاً كما أمرنا الله تعالى به، وأن ننصح لديننا حتى نأتي به كما أمرنا الله تعالى به.

خامساً: (ثُمَّ فَعَلُهُ؛ لِكَوْنِهِ مَأْمُورًا بِهِ، بِحَيْثُ لَا يَتَوَقَّفُ الْإِنْسَانُ بِهِ عَلَى حِكْمَتِهِ)، يقول: أفعله لأن الله أمرنا به، ولا أتوقف على معرفة الحكمة أو المصلحة بل أمثله؛ لأن الله تعالى أمر به، وأما السؤال فإنه السؤال عن الأوامر لا عن الحكم؛ ولهذا يقولون: (شفاء العي السؤال)، أي: السؤال عن الأحكام وعن الأوامر والنواهي.

قال الشارح:

قَالَ الْقُرْطُبِيُّ نَاقِلًا عَنِ ابْنِ عَبْدِ الْبَرِّ: «فَمَنْ سَأَلَ مُسْتَهْهَمًا رَاغِبًا فِي الْعِلْمِ وَنَفِي الْجَهْلِ عَنِ نَفْسِهِ، بَاحِثًا عَنِ مَعْنَى يَجِبُ الْوُقُوفُ فِي الدِّيَانَةِ عَلَيْهِ، فَلَا بَأْسَ بِهِ، فَشِفَاءُ الْعِيِّ السُّؤَالُ، وَمَنْ سَأَلَ مُتَعَتًّا غَيْرَ مُتَفَقِّهِ وَلَا مُتَعَلِّمٍ، فَهُوَ الَّذِي لَا يَحِلُّ قَلِيلُ سُؤَالِهِ وَلَا كَثِيرُهُ.

قَالَ ابْنُ الْعَرَبِيِّ: الَّذِي يَنْبَغِي لِلْعَالِمِ أَنْ يَسْتَعْلَلَ بِهِ هُوَ بَسْطُ الْأَدْلَةِ، وَإِبْضَاحُ سُبُلِ النَّظَرِ، وَتَحْصِيلُ مُقَدِّمَاتِ الْإِجْتِهَادِ، وَإِعْدَادُ الْأَلَةِ الْمُعِينَةِ عَلَى الْإِسْتِمْدَادِ، قَالَ: فَإِنْ عَرَضَتْ لَكَ مَسْأَلَةٌ: أُتَيْتَ مِنْ بَابِهَا، وَنُشِدْتَ مِنْ مَظَاهِرِهَا، وَاللَّهُ يَفْتَحُ وَجْهَ الصَّوَابِ فِيهَا» أَنْتَهَى^(١).

وَقَالَ عليه السلام: «مَنْ حُسِّنَ إِسْلَامَ الْمَرْءِ تَرَكُهُ مَا لَا يَنْحِيهِ». رواه الترمذي^(٢)

وغيره^(٣).

وَلَا شَكَّ فِي تَكْفِيرِ مَنْ رَدَّ حُكْمَ الْكِتَابِ، وَلَكِنْ مَنْ تَأَوَّلَ حُكْمَ الْكِتَابِ لِشُبُهَةِ عَرَضَتْ لَهُ، يُبَيِّنُ لَهُ الصَّوَابَ لِيَرْجِعَ إِلَيْهِ، وَهُوَ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ؛ لِكَمَالِ حِكْمَتِهِ وَرَحْمَتِهِ وَعَدْلِهِ، لَا بِمَجْرَدِ فَهْرِهِ وَقُدْرَتِهِ، كَمَا يَقُولُ جَهَنَّمُ

(١) تفسير القرطبي (٦/٣٣٣).

(٢) برقم (٢٣١٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) أخرجه ابن ماجه (٣٩٧٦)، وابن حبان (٤٦٦/١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وأخرجه

مالك في الموطأ (٢/٩٠٣)، وأحمد (١/٢٠١) من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

وَأَتْبَاعُهُ، وَسَيِّئِي لِذَلِكَ زِيَادَةٌ بَيَانٍ عِنْدَ قَوْلِ الشَّيْخِ: (وَلَا نُكْفِّرُ أَحَدًا مِنْ أَهْلِ الْقِبْلَةِ بِذَنْبٍ مَا لَمْ يَسْتَحِلَّهُ).

قال الشيخ:

قوله: (قَالَ الْقُرْطُبِيُّ) القرطبي إمام مشهور وله كتاب التفسير الكبير الذي سماه «الجامع لأحكام القرآن».

قوله: (نَاقِلًا عَنْ ابْنِ عَبْدِ الْبَرِّ)، ابن عبد البر عالم مغربي له مؤلفات كثيرة ومن أكبرها كتابه «التمهيد» في شرح الموطأ، وله «جامع بيان العلم وفضله»، وهذا البحث في كتابه «التمهيد»^(١).

قوله: (فَمَنْ سَأَلَ مُسْتَفْهِمًا رَاغِبًا فِي الْعِلْمِ وَتَنَمَّى الْجَهْلَ عَنِ نَفْسِهِ، بَاحِثًا عَنِ مَعْنَى يَجِبُ الْوُقُوفُ فِي الدِّيَانَةِ عَلَيْهِ، فَلَا بَأْسَ بِهِ)، يتكلم - رحمه الله - عن الذي يسأل، نقول: هل سؤالك رغبة في العلم حتى تنفي الجهل عن نفسك، وتبحث عن المعنى الذي يجب الوقوف عليه ومعرفة الحكم فيه؟ فهذا سؤال جاز، بل قد يكون واجباً على الإنسان أن يسأل عما أشكل عليه.

قال: (فَشَفَاءُ الْعِيِّ السُّؤَالُ، وَمَنْ سَأَلَ مُتَعَنِّتًا خَيْرٌ مُتَفَقِّهًا وَلَا مُتَعَلِّمًا، فَهُوَ الَّذِي لَا يَجِلُّ قَلِيلُ سُؤَالِهِ وَلَا كَثِيرُهُ)، وقد ورد أيضاً ذم المتعنتين في بعض الأحاديث،

مثل قوله ﷺ: «هَلَكَ الْمُتَنَطِّعُونَ»^(١)، ونحو ذلك.

قوله: (قَالَ ابْنُ الْعَرَبِيِّ)، ابن العربي المفسر المشهور الذي له كتاب أحكام القرآن، وله أيضًا كتب أخرى، يقول: (: الَّذِي يَنْبَغِي لِلْعَالِمِ أَنْ يَشْتَغَلَ بِهِ هُوَ بَسْطُ الْأَدِلَّةِ)، يعني: معرفة الأدلة، (وَإيضاحُ سُبُلِ النَّظَرِ)، يعني: توضيح السبيل الذي تنظر فيه وجه الدلالة، (وَتَحْصِيلُ مُقَدِّمَاتِ الْاجْتِهَادِ)، حتى تكون قادرًا على الاجتهاد ومعرفة الأدلة، ومعرفة الأحكام، فإن للاجتهاد مقدمات مذكورة في كتب أصول الفقه، (وَإِعْدَادُ الْأَلَّةِ الْمُعِينَةِ عَلَى الْإِسْتِمْدَادِ)، الآلة: إما الحصول على الكتب والمراجع، ومثلها في هذه الأزمنة الأشرطة ونحوها، وإما القدرة على الفهم، وذلك بالفهم والعقل والتعقل والتفهم ونحو ذلك.

ثم قال: (فَإِنْ عَرَضَتْ لَكَ مَسْأَلَةٌ: أُتِيَتْ مِنْ بَابِهَا، وَنُشِدَتْ مِنْ مَظَانِبِهَا)، أي: إذا أتتك مسألة ابحث عنها في مظانها، (وَاللَّهُ يَفْتَحُ وَجْهَ الصَّوَابِ فِيهَا)، إلى هنا انتهى كلام القرطبي.

ثم استدل أيضًا بقوله ﷺ: «مِنْ حُسْنِ إِسْلَامِ الْمَرْءِ تَرْكُهُ مَا لَا يَعْنِيهِ»، وهذا حديث شريف، وهو من أحاديث الأربعين النووية التي شرحها ابن رجب - رحمه الله - في «جامع العلوم والحكم»^(٢) الذي شرح فيه خمسين حديثًا من جوامع الكلم، وقد وسع الكلام فيه رحمه الله.

(١) تقدم تخريجه (٢/٢٤٠).

(٢) (ص ١١٣).

يقول: (وَلَا شَكَّ فِي تَكْفِيرِ مَنْ رَدَّ حُكْمَ الْكِتَابِ)، الذين يردون حكم الكتاب عنادًا هؤلاء كفرة، وأما الذي يتأول حكم الكتاب، فيتأول بعض الآيات، أو بعض الأحاديث لشبهة عرضت له، وهذا ما يحصل لكثير من المعتزلة ومن الأشاعرة ونحوهم، ومن المبتدعة كالمتصوفة والقبوريين ونحوهم، فإنهم إذا جاءتهم بعض الأدلة يؤولونها ويحملونها على محامل بعيدة، فنقول: إن هذا الاعتراض خطأ، وإن هذا التأويل خطأ، الذي تسمونه تأويلاً وهو في الحقيقة تحريف للكلم عن مواضعه، فاعرفوا الصواب، يتبين لك الصواب، الصواب في المسألة كذا وكذا، إذا كانت من مسائل العقائد نبين له القول فيها، وإذا كانت من مسائل الأحكام الخلافية نبين له أيضاً الخلاف فيها، والصواب فيها، ومع الأسف أن كثيراً من المجتهدين أو المقلدين يؤولون بعض الأدلة، فالحنفية إذا وردت عليهم بعض الأدلة تخالف ما روي في كتبهم حرصوا على أن يتكلفوا في ردها، وهذا خطأ، فالصواب واجب الرجوع إليه، والله - سبحانه وتعالى - حكيم في أمره لا يسأل عما يفعل لهال حكمته، قال تعالى: ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٣]، فللهال حكمته ورحمته وعدله نعترف بذلك؛ لأنه لا يأمر إلا بما فيه مصلحة، ولكن لا نتكلف ونسأل عن كذا وكذا.

قوله: (لَا بِمَجْرَدِ قَهْرِهِ وَقُدْرَتِهِ)، ليس معنى كونه لا يسأل لمجرد قهره وقدرته، بل لأنه حكيم عليم في كل ما يأمر به.

قوله: (كَمَا يَقُولُ جَهْمٌ وَأَتْبَاعُهُ)، الجهمية يقولون: لا يسأل عما يفعل لقهره

لا لحكمته. أما نحن فنقول: لا يُسأل عما يفعل؛ لأنه حكيم وعادل.

فهذا هو الواجب، والشارح سوف يتوسع في هذه المسألة عند قول الطحاوي: (وَلَا تُكْفَرُ أَحَدًا مِنْ أَهْلِ الْقِبْلَةِ بِذَنْبٍ مَا لَمْ يَسْتَحِلَّهُ)، وكأنه يعتذر ويقول: إن الواجب أن الإنسان يرضى ويسلم بما جاءه عن الله تعالى، وأما المسائل الخلافية إذا كانت في الفروع فإننا لا نكفر بها، فكم حصل من خلافات بين الفقهاء، بين الحنفية والشافعية خلافات كثيرة، وكذلك بين الشافعية والمالكية خلافات كثيرة، ومع ذلك لم يكونوا يكفر بعضهم بعضًا، حتى سُئل الشافعي: هل نصلي خلف من يقلد مالكا؟ فاستعظم ذلك وقال: «أولست أصلي خلف مالك؟»، يعني: أن مالكا هو إمامه وهو شيخه الذي استفاد منه، ومع ذلك هذه الخلافات مثل كون الشافعية يجهرون بالبسملة ويجهر بعضهم بالنية، ولم يفعل ذلك المالكية هذه من مسائلهم الاجتهادية، وكذلك بقية المسائل التي حصل فيها خلاف، أما إذا كانت عقائدية فإننا نحذر منها، مثل: مسألة زيادة الإيمان ونقصانه، أو مسألة كون الإيمان مجرد التصديق كما تقوله الحنفية أتباعا لرواية عن الإمام أبي حنيفة، وقد أجاب عن ذلك الشارح وجعل الخلاف لفظيًا، والصحيح أنه معنوي كما هو معروف.

وبكل حال فإننا نعرف أن الله - سبحانه وتعالى - حكيم فيما أمر به وفيما نهى عنه، وأنه لا يُسأل عما يفعل وهم يُسألون، وأن العلماء - رحمهم الله - قد تكلموا على الحُكْم والمصالح التي في الأوامر والنواهي، حتى يعرفوا ويعرفوا أن الله تعالى ما أمر بشيء إلا وفيه مصلحة، ولا نهى عن شيء إلا وفيه مضره، والله أعلم.

قال الطحاوي:

فَهَذَا جُمْلَةٌ مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ مَنْ هُوَ مُتَوَرِّقٌ قَلْبُهُ مِنْ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ تَعَالَى، وَهِيَ دَرَجَةٌ الرَّاسِخِينَ فِي الْعِلْمِ؛ لِأَنَّ الْعِلْمَ عِلْمَانِ:
عِلْمٌ فِي الْخَلْقِ مَوْجُودٌ، وَعِلْمٌ فِي الْخَلْقِ مَفْقُودٌ.
فَإِنكَارُ الْعِلْمِ الْمَوْجُودِ كُفْرٌ، وَادِّعَاءُ الْعِلْمِ الْمَفْقُودِ كُفْرٌ، وَلَا يَثْبُتُ الْإِسْمَانُ إِلَّا بِقَبُولِ الْعِلْمِ الْمَوْجُودِ، وَتَرْكِ طَلَبِ الْعِلْمِ الْمَفْقُودِ.

قال الشارح:

الإِشَارَةُ بِقَوْلِهِ: (فَهَذَا) إِلَى مَا تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ، مِمَّا يَجِبُ اعْتِقَادُهُ وَالْعَمَلُ بِهِ، مِمَّا جَاءَتْ بِهِ الشَّرِيعَةُ. وَقَوْلُهُ: (وَهِيَ دَرَجَةٌ الرَّاسِخِينَ فِي الْعِلْمِ)، أَي: عِلْمٌ مَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ جُمْلَةً وَتَفْصِيلاً، نَفِيًا وَإِثْبَاتًا.
وَيَعْنِي بِالْعِلْمِ الْمَفْقُودِ: عِلْمَ الْقَدْرِ الَّذِي طَوَّاهُ اللَّهُ عَنِ أَنْامِهِ، وَنَهَاهُمْ عَنِ مَرَامِهِ، وَيَعْنِي بِالْعِلْمِ الْمَوْجُودِ: عِلْمَ الشَّرِيعَةِ، أَصُولَهَا وَفُرُوعِهَا.
فَمَنْ أَنْكَرَ شَيْئًا مِمَّا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ كَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ، وَمَنْ ادَّعَى عِلْمَ الْغَيْبِ كَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ.

قال الشيخ:

قوله: (مِمَّا يَجِبُ اعْتِقَادُهُ وَالْعَمَلُ بِهِ)، أَي: من أول ما ابتدأ هذه العقيدة إلى هذا الموضوع؛ وكذلك ما بعد هذا الموضوع إلى آخر العقيدة بكل ما جاءت به الشريعة.

ثم يقول الماتن: (وَهِيَ دَرَجَةُ الرَّاسِخِينَ فِي الْعِلْمِ)، يعني: المتمكنين، الذين ذكرهم الله تعالى بقوله: ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِنْدِ رَبِّنَا﴾ [آل عمران: ٧]، أي: راسخون في علم ما جاء به الرسول ﷺ جملة وتفصيلاً، نفيًا وإثباتًا، متمكنين من هذا العلم؛ لأنهم حفظوه وشرحوه وفهموه وتلقوه بالقبول فيما يتعلق بالنفي؛ كالصفات السلبية مثل قوله: ﴿لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، ونحو ذلك، أو إثباتيه كقوله: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ [طه: ١١٠]، ويعني بقوله: ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾: العلم المفقود، وهو: (عِلْمَ الْقَدْرِ الَّذِي طَوَّاهُ اللَّهُ عَنْ أَنَامِهِ، وَنَهَاهُمْ عَنْ مَرَامِهِ).

قوله: (وَيَعْنِي بِالْعِلْمِ الْمَوْجُودِ: عِلْمَ الشَّرِيعَةِ)، قد ذكر الماتن أن العلم: إما علم في الخلق موجود، أو علم في الخلق مفقود، فأراد بالعلم الموجود علم الشريعة، في الأصول والفروع.

قال الشارح:

قَالَ تَعَالَى: ﴿عَلِمَ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا﴾ (٣٦) إِلَّا مَنْ أَرْتَضَى مِنْ رَسُولٍ ﴿[الجن: ٢٦، ٢٧]، الآية. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنزِلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مِمَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [لقمان: ٣٤]، وَلَا يَلْزَمُ مِنْ خَفَاءِ حِكْمَةِ اللَّهِ عَلَيْنَا عَدَمُهَا، وَلَا انْتِفَاؤُهَا جَهْلَنَا حِكْمَتِهِ، أَلَا تَرَى أَنَّ خَفَاءَ حِكْمَةِ اللَّهِ عَلَيْنَا فِي خَلْقِ الْحَيَاتِ وَالْعَقَارِبِ وَالْفَأْرِ وَالْحَشْرَاتِ، الَّتِي لَا يُعْلَمُ مِنْهَا إِلَّا الْمَضْرَّةُ، لَمْ يَنْفِ أَنْ يَكُونَ اللَّهُ تَعَالَى خَالِقًا لَهَا، وَلَا يَلْزَمُ أَنْ لَا يَكُونَ فِيهَا حِكْمَةٌ خَفِيَتْ عَلَيْنَا؛ لِأَنَّ عَدَمَ الْعِلْمِ لَا يَكُونُ جِلْمًا بِالْمَعْدُومِ.

قال الشيخ:

الآيات في إثبات العلم لله تعالى كثيرة، ومنها هذه الآية في سورة (الجن):
﴿عَلِمَ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا﴾، فقد أخبر تعالى أنه تفرد بعلم الغيب، ﴿إِلَّا مَنْ أَرْتَضَى مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا﴾، فقد يطلع بعض رسله على بعض الأمور المغيبات التي لا يعلمها إلا هو.
ذكر الله مفاتيح الغيب إجمالاً بقوله: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾ [الأنعام: ٥٩]، وفي آية (لقمان)، جاء فيها تفصيل مفاتيح الغيب التي لا يعلمها إلا الله، أنها خمس:

الأول: ﴿عَلِمَ السَّاعَةَ﴾، أي: متى تقوم الساعة، لا يعلم ذلك إلا الله؛ وذلك لأنها من الأمور المستقبلية.

الثاني: ﴿وَيُنزِّلُ الْغَيْثَ﴾، فلا يعلم متى ينزل إلا الله حيث إنه من الأمور الغيبية، متى ينشئ الله السحب، متى يرسل الله الرياح، متى يصرفه ويسوقه إلى الأرض التي قدر الله أنه ينزل فيها؟ متى ينزل؟ وفي أي بلد؟ لا يعلم ذلك إلا الله.

الثالث: ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ﴾، يعني: ما تشتمل عليه أرحام النساء، وكذلك أرحام البهائم: الإبل والبقر والغنم والفيلة وسائر الحيوانات لا يدري ما في أرحامها إلا الله، هل هو واحد أو أكثر؟ هل هو حي أو ميت؟

الرابع: ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا﴾، أية نفس لا تدري ماذا يحصل لها في اليوم الذي بعد هذا اليوم، هل يحصل لها خير أو شر؟ الله تعالى هو الذي يعلم ذلك.

الخامس: ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾، قريية أو بعيدة؟ قد يكون موتها في بلد بعيد، ثم يجعل الله لها حاجة إلى ذلك البلد، فيحصل بذلك الوفيات وما أشبهها.

قوله: (وَلَا يَلْزَمُ مِنْ خَفَاءِ حِكْمَةِ اللَّهِ عَلَيْنَا عَدْمُهَا)، أي: لا يلزم إذا خفيت علينا حكمة الله أن تكون معدومة، بل الله تعالى حكمة وإن كانت خافية علينا.

قوله: (وَلَا انْتِفَاؤُهَا جَهْلُنَا حِكْمَتِهِ)، أي: ولا يلزم إذا جهلنا انتفاء الحكمة أن تكون منتفية ليس هناك حكمة، بل الله تعالى حكمة في كل شيء، حتى في خلق

الدواب الضارة، نعلم أن الله تعالى هو الذي خلق الحيات والعقارب والفأر والحشرات والذباب والبعوض ونحو ذلك، وكذلك الذئب والسباع والأسود وما أشبهها، الله هو الذي خلقها، ونحن نقول: إن فيها مضرة، ولكن قد يكون فيها حكم لا يعلمها إلا الله، فالله تعالى حكيم عندما خلقها وخلق غيرها من الشرور والسموم وما أشبه ذلك، فكوننا لا نعلم منها إلا المضرة، لا ينفي أن يكون الله تعالى هو خالقها، ولا ينفي أن يكون فيها حكمة ومصصلحة عظيمة، ولا يلزم أن لا يكون فيها حكمة خفيت علينا، فله تعالى حكم كثيرة في كل المخلوقات، وفي الحشرات، ونحو ذلك، فعدم العلم بالشيء لا يكون علمًا بأنه معدوم.

قال الطحاوي:

وَنُؤْمِنُ بِاللَّوْحِ وَالْقَلَمِ، وَبِجَمِيعِ مَا فِيهِ قَدْ رُقِمَ.

قال الشارح:

قَالَ تَعَالَى: ﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ ﴿٢٢﴾﴾ [البروج: ٢١، ٢٢]،
وَرَوَى الْحَافِظُ أَبُو الْقَاسِمِ الطَّبْرَانِيُّ^(١) بِسَنَدِهِ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ
لَوْحًا مَّحْفُوظًا مِنْ دُرَّةٍ بَيْضَاءَ، صَفْحَاتُهَا مِنْ يَاقُوتَةٍ حُمْرَاءَ، قَلَمُهُ نُورٌ، وَكِتَابَتُهُ نُورٌ،
لِلَّهِ فِيهِ كُلُّ يَوْمٍ سِتُّونَ وَثَلَاثُ مِئَةِ لِحْظَةٍ، يَخْلُقُ وَيَسْرُقُ، وَيُمِيتُ وَيُحْيِي، وَيُعِزُّ
وَيُذِلُّ، وَيَفْعَلُ مَا يَشَاءُ».

اللَّوْحُ الْمَذْكُورُ: هُوَ الَّذِي كَتَبَ اللَّهُ مَقَادِيرَ الْخَلَائِقِ فِيهِ، وَالْقَلَمُ الْمَذْكُورُ: هُوَ
الَّذِي خَلَقَهُ اللَّهُ وَكَتَبَ بِهِ فِي اللَّوْحِ الْمَذْكُورِ الْمَقَادِيرَ، كَمَا فِي سُنَنِ أَبِي دَاوُدَ^(٢)، عَنْ
عِبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «أَوَّلُ مَا خَلَقَ اللَّهُ الْقَلَمَ،
فَقَالَ لَهُ: اكْتُبْ. قَالَ: يَا رَبِّ، وَمَا أَكْتُبُ؟ قَالَ: اكْتُبْ مَقَادِيرَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى تَقُومَ
السَّاعَةُ».

(١) في الكبير برقم (١٢٥١١)، ورواه موقوفًا على ابن عباس - رضي الله عنهما - بنحو هذا اللفظ

من طريق أخرى برقم (١٠٦٥٥).

(٢) برقم (٤٧٠٠)، وأخرجه الترمذي (٢١٥٥)، وأحمد (٣١٧/٥).

قال الشيخ:

ذكر الطحاوي هنا أن من عقيدة أهل السنة الإيمان بأن الله تعالى خلق اللوح والقلم، وأنه كتب فيه ورقم فيه مقادير المخلوقات.

أقول: نؤمن بأن الله تعالى هو خالق كل شيء، وأنه خلق اللوح الذي كتب فيه هذه المخلوقات، من أول ما يكون في الدنيا إلى آخرها، ويُسمى (أم الكتاب)، قال الله تعالى: ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ [الرعد: ٣٩]، فأم الكتاب هو: اللوح المحفوظ، وكل شيء مكتوب فيه، كل كلام بني آدم من أول الدنيا إلى آخرها قد كتبه الله في ذلك اللوح، ثم وكل الملائكة أن يكتبوا الموجودات، يكتب عمل كل إنسان، وتكتب أقواله، وإذا عُرِضت يوم القيامة محاسباً الله منها ما لا ثواب فيه ولا عقاب، وأثبت ما فيه حسنات أو سيئات، كما قال: ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ﴾، وأصول ذلك موجودة في اللوح المحفوظ الذي ذكره الله، وهو أم الكتاب.

وفي هذا الحديث عند الطبراني - رحمه الله -: «إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ لَوْحًا مَحْفُوظًا مِنْ دُرَّةٍ بَيْضَاءَ»، لا يعلم قدر هذا اللوح إلا الله، وذكر أنه من در، وكونه من الدر يدل على نفاسته، «صَفْحَاتُهَا مِنْ يَاقُوتَةٍ حُمْرَاءَ»، يعني: طرفاه وحافته، وذكر أن «قَلَمُهُ نُورٌ»، أي: القلم الذي كتب به، وفي رواية: «وَعَرَضَهُ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ»، مقدار ما بين السماء والأرض خمسمائة سنة هذا عرضه فكيف بطوله؟! قال: «لِلَّهِ فِيهِ كُلُّ يَوْمٍ سِتُونَ وَثَلَاثُ مِئَةِ لَحْظَةٍ»، أي: عيد أيام السنة، وبكل نظرة يخلق ما في

هذا اللوح: «يَخْلُقُ وَيَرْزُقُ، وَيُمِيتُ وَيُحْيِي، وَيُعِزُّ وَيُذِلُّ، وَيَفْعَلُ مَا يَشَاءُ»، وهذا دليل على عظمة هذا اللوح، وكذلك عظمة الرب تعالى الذي هو خالق كل شيء. قوله: (اللَّوْحُ الْمَذْكُورُ: هُوَ الَّذِي كَتَبَ اللَّهُ مَقَادِيرَ الْخَلَائِقِ فِيهِ)، أي: ما هو كائن إلى يوم القيامة، كل شيء مكتوب في ذلك اللوح: الكلام والأعمال والبشر، وعدد المخلوقات وعدد الحيوانات وكلها.

وفي حديث عبادة رضي الله عنه قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم يَقُولُ: «أَوَّلُ مَا خَلَقَ اللَّهُ الْقَلَمَ، فَقَالَ لَهُ: اكْتُبْ. قَالَ: يَا رَبِّ، وَمَا أَكْتُبُ؟ قَالَ: اكْتُبْ مَقَادِيرَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ»^(١)، وفي رواية: «قال: اكْتُبْ، فَجَرَى فِي تِلْكَ السَّاعَةِ بِمَا هُوَ كَائِنٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ»^(٢)، فنحن نؤمن بهذا اللوح ونؤمن بهذا القلم.

(١) تقدم قريبا.

(٢) تقدم تخريجه (١/٤٨١).

قال الشارح:

وَاخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ: هَلِ الْقَلَمُ أَوَّلُ الْمَخْلُوقَاتِ، أَوِ الْعَرْشُ؟ عَلَى قَوْلَيْنِ، ذَكَرَهُمَا الْحَافِظُ أَبُو الْعَلَاءِ الْهَمْدَانِيُّ، أَصَحُّهُمَا: أَنَّ الْعَرْشَ قَبْلَ الْقَلَمِ؛ لِمَا ثَبَتَ فِي «الصَّحِيحِ»^(١) مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو. رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا. قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «قَدَّرَ اللَّهُ مَقَادِيرَ الْخَلْقِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ، وَعَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ».

فَهَذَا صَرِيحٌ أَنَّ التَّقْدِيرَ وَقَعَ بَعْدَ خَلْقِ الْعَرْشِ، وَالتَّقْدِيرَ وَقَعَ عِنْدَ أَوَّلِ خَلْقِ الْقَلَمِ، بِحَدِيثِ عِبَادَةَ اللَّهِ ﷺ هَذَا، وَلَا يَخْلُو قَوْلُهُ: «أَوَّلُ مَا خَلَقَ اللَّهُ الْقَلَمَ» إِلَى آخِرِهِ، إِمَّا أَنْ يَكُونَ جُمْلَةً أَوْ جُمْلَتَيْنِ: فَإِنْ كَانَ جُمْلَةً. وَهُوَ الصَّحِيحُ. كَانَ مَعْنَاهُ: أَنَّهُ عِنْدَ أَوَّلِ خَلْقِهِ قَالَ لَهُ: «اكْتُبْ»؛ كَمَا فِي اللَّفْظِ: «إِنَّ أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللَّهُ الْقَلَمَ، قَالَ لَهُ: اكْتُبْ» بِنَصْبِ (أَوَّلِ) وَ(الْقَلَمِ).

وَإِنْ كَانَ جُمْلَتَيْنِ، وَهُوَ مَرْوِيُّ بِرَفْعِ (أَوَّلِ) وَ(الْقَلَمِ)، فَيَتَعَيَّنُ حَمْلُهُ عَلَى أَنَّهُ أَوَّلُ الْمَخْلُوقَاتِ مِنْ هَذَا الْعَالَمِ، فَيَتَفَقُّ الْحَدِيثَانِ؛ إِذْ حَدِيثُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو. رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا. صَرِيحٌ فِي أَنَّ الْعَرْشَ سَابِقُ عَلَى التَّقْدِيرِ، وَالتَّقْدِيرُ مُقَارِنٌ لِخَلْقِ الْقَلَمِ. وَفِي اللَّفْظِ الْآخِرِ: «لَمَّا خَلَقَ اللَّهُ الْقَلَمَ، قَالَ لَهُ: اكْتُبْ». فَهَذَا الْقَلَمُ أَوَّلُ الْأَقْلَامِ وَأَفْضَلُهَا وَأَجْلُهَا.

(١) أخرجه مسلم (٢٦٥٣) بلفظ: «كَتَبَ اللَّهُ مَقَادِيرَ الْخَلَائِقِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ، قَالَ: وَعَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ».

وَقَدْ قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنْ أَهْلِ التَّفْسِيرِ^(١): إِنَّهُ الْقَلَمُ الَّذِي أَقْسَمَ اللَّهُ بِهِ فِي قَوْلِهِ

تَعَالَى: ﴿ت وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ [القلم: ١].

وَالْقَلَمُ الثَّانِي: قَلَمُ الْوَحْيِ: وَهُوَ الَّذِي يُكْتَبُ بِهِ وَحْيُ اللَّهِ إِلَى أَنْبِيَائِهِ وَرُسُلِهِ، وَأَصْحَابُ هَذَا الْقَلَمِ هُمُ الْحُكَّامُ عَلَى الْعَالَمِ، وَالْأَقْلَامُ كُلُّهَا خَدَمٌ لِأَقْلَامِهِمْ. وَقَدْ رَفَعَ النَّبِيُّ ﷺ لَيْلَةَ أُسْرِي بِهِ إِلَى مُسْتَوَى يَسْمَعُ فِيهِ صَرِيْفَ الْأَقْلَامِ^(٢)، فَهَلِهُ الْأَقْلَامُ هِيَ الَّتِي تَكْتُبُ مَا يُوحِيهِ اللَّهُ. تَبَارَكَ وَتَعَالَى. مِنَ الْأُمُورِ الَّتِي يُدَبَّرُ بِهَا أَمْرُ الْعَالَمِ الْعُلُويِّ وَالسُّفْلِيِّ.

قال الشيخ:

هكذا ذكر العلماء هذا الاختلاف، هل القلم أول المخلوقات أو العرش أول المخلوقات؟ فيه قولان، ذكرهما أبو العلاء الهمداني، أصحابها أن العرش قبل القلم، وأشار إلى ذلك ابن القيم - رحمه الله - في النونية^(٣)، فيقول فيها:

وَالنَّاسُ مُخْتَلِفُونَ فِي الْقَلَمِ الَّذِي كُتِبَ الْقَضَاءُ بِهِ مِنَ السَّيِّئَاتِ
هَلْ كَانَ قَبْلَ الْعَرْشِ أَوْ هُوَ بَعْدَهُ قَوْلَانِ عِنْدَ أَبِي الْعَلَاءِ الهمداني

(١) انظر: تفسير الطبري (١٦/٢٩)، وتفسير ابن كثير (٤/٤٠٢)، والبيان في أقسام القرآن (ص ١٢٨).

(٢) أخرجه البخاري (٣٤٩)، ومسلم (١٦٣) من حديث ابن عباس وأبي حبة الأنصاري رضي الله عنهم.

(٣) انظر النونية مع شرح ابن عيسى (١/٣٧٧).

وَالْحَقُّ أَنَّ الْعَرْشَ قَبْلَ لِأَنَّهُ قَبْلَ الْكِتَابَةِ كَانَ ذَا أَرْكَانٍ

فرجح كما رجح الشارح هنا أن العرش قبل المخلوقات كلها، وأن العرش قبل القلم، واستدل بهذا الحديث عن عبد الله بن عمرو بن العاص - رضي الله عنها - قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «قَدَّرَ اللَّهُ مَقَادِيرَ الْخَلْقِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ، وَعَرْشَهُ عَلَى الْمَاءِ»، والتقدير هاهنا هو كتابة مقادير المخلوقات، وهذا التقدير قبل خلق السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، ولكن كان بعد خلق العرش، وكان عرشه على الماء، وقد دل على ذلك أيضًا قول الله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ﴾ [هود: ٧].

وسئل ابن عباس - رضي الله عنهما -: على أي شيء الماء؟ فقال: «على متن الريح»^(١)، فدل على أن هذا الماء مخلوق، وأن الريح مخلوقة، وأن العرش مخلوق، ويمكن أن يكون العرش قد أمسكته قدرة الله، وإن لم يكن معتمدًا على شيء قبل الماء وقبل الريح ونحو ذلك، فالله تعالى قدر مقادير الخلائق، وكتب ذلك في اللوح المحفوظ قبل خلق هذه الأجرام العلوية والسفلية التي هي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ، ليس بسنة ولا بعشر سنين ولا بألف سنة، بل بخمسين ألف سنة، فهذا الحديث صريح أن التقدير وقع بعد خلق العرش، يعني: أن العرش كان موجودًا عند تقدير مقادير الخلائق، والتقدير وقع أول

(١) أخرجه عبد الرزاق في المصنف (٩٠/٥)، والطبري (٥/١٢)، وابن أبي حاتم

(٦/٢٠٠٥)، وابن أبي عاصم في السنة (١/٢٥٨)، والحاكم (٢/٣٣٧) وصححه.

خلق القلم، عندما خلق الله القلم أمره فكتب؛ لهذا الحديث.
 أما قوله في حديث عبادة رضي الله عنه: أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «أَوَّلُ مَا خَلَقَ اللَّهُ الْقَلَمَ»،
 فهل هذا جملة أو جملتان؟ إذا كان جملة - وهذا هو الصحيح - فلا دلالة فيه على أن
 القلم سابق للعرش؛ لأن المعنى: (أَنَّهُ عِنْدَ أَوَّلِ خَلْقِهِ قَالَ لَهُ: «اكْتُبْ»)، أي: أول
 ما خلقه الله قال له: اكتب، فيكون النصب فيهما، والتقدير: أول ما خلق الله القلم
 قال له: اكتب، يعني: ساعة ما خلق القلم قال له: اكتب، ولا يدل على أنه سابق
 لخلق العرش، بل إنه أمره الله عند أول خلقه، هذا إذا كان جملة واحدة: «أَوَّلُ مَا
 خَلَقَ اللَّهُ الْقَلَمَ، قَالَ لَهُ: اكْتُبْ». هذا هو الصحيح، أي أنه عند أول خلقه أمر أن
 يكتب، وجاء في الرواية الأخرى: «إِنَّ أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللَّهُ الْقَلَمَ، قَالَ لَهُ: اكْتُبْ»،
 أي: إن أول أمره أمر بأن يكتب بنصب (أَوَّل) و(الْقَلَم).

أما إن كان جملتين، فالتقدير: أول ما خلق الله القلم، فقال له: اكتب، يكون
 برفع (أول) و(القلم)، فيكون (أول) مبتدأ و(القلم) خبر، أي: أول شيء خلقه
 الله هو القلم، وعلى هذا (فَيَسَعِينَ حَمَلُهُ عَلَى أَنَّهُ أَوَّلُ الْمَخْلُوقَاتِ مِنْ هَذَا الْعَالَمِ)، أي:
 من هذا العالم المشاهد الذي هو السَّمَوَاتِ وما فيهن وما بينهما، لأنه سابق
 للعرش. (فَيَسَعِينَ الْحَدِيثَانِ؛ إِذْ حَدِيثُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - صَرِيحٌ
 فِي أَنَّ الْعَرْشَ سَابِقٌ عَلَى التَّقْدِيرِ، الَّذِي هُوَ كِتَابَةُ الْمَخْلُوقَاتِ، وَكِتَابَةُ اللُّوحِ،
 وَالتَّقْدِيرُ مُقَارِنٌ لِخَلْقِ الْقَلَمِ)، ساعة ما خلق القلم أمر بأن يكتب مقادير الخلائق،
 ولكن العرش سابق على التقدير.

وقد جاء في رواية أخرى: «لَمَّا خَلَقَ اللَّهُ الْقَلَمَ، قَالَ لَهُ: اكْتُبْ»، فهو صريح

بأنه ليس هو أول المخلوقات، وإنما هو الذي أمر بأن يكتب عندما خلقه، لما خلقه قال له: اكتب.

قوله: (فَهَذَا الْقَلَمُ أَوَّلُ الْأَقْلَامِ وَأَفْضَلُهَا وَأَجَلُّهَا)، أي: الذي كتب الله به مقادير الخلائق.

قوله: (وَقَدْ قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنْ أَهْلِ التَّفْسِيرِ: إِنَّهُ الْقَلَمُ الَّذِي أَقْسَمَ اللَّهُ بِهِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ت وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾)، أقسم الله بالنون، وأقسم بالقلم، وأقسم بما يمسطرون.

قوله: (وَالْقَلَمُ الثَّانِي: قَلَمُ الْوَحْيِ: وَهُوَ الَّذِي يُكْتَبُ بِهِ وَحْيُ اللَّهِ إِلَى أَنْبِيَائِهِ وَرُسُلِهِ) يعني: الذي يكتب به الملائكة وحي الله إلى أنبيائه ورسله.

قوله: (وَأَصْحَابُ هَذَا الْقَلَمِ) الذي هو قلم الوحي،

قوله: (هُمُ الْحُكَّامُ عَلَى الْعَالَمِ)، أي: الملائكة الذين ذكرهم الله بقوله تعالى:

﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَانِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الانفطار: ١٠-١٢]، هؤلاء الذين يكتبون وحي الله، ويكتبون كلام عباد الله، (وَالْأَقْلَامُ كُلُّهَا خَدَمٌ لِأَقْلَامِهِمْ).

وفي حديث الإسراء يقول ﷺ: «ثُمَّ عُرِجَ بِي حَتَّى ظَهَرْتُ لِمُسْتَوَى أَسْمَعُ فِيهِ صَرِيْفَ الْأَقْلَامِ»^(١)، يعني: رُفِعَ إِلَى مَا فَوْقَ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ فَسَمِعْتُ صَرِيْفَ

الأقلام، یعنی صریف کتابتها، فهذه الأقلام هي التي تكتب ما يوحيه الله - تبارك وتعالى - من الأمور التي يدبرها، من أمر العالم العلوي والسفلي، وقيل: إنها التي تكتب أمور بني آدم في صحفهم في قوله تعالى: ﴿وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا﴾ (١٣) ﴿أَقْرَأَ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء: ١٣-١٤]، كل ذلك ممكن، ولكن يظهر مما ذكره الشارح أن المراد أقلام الملائكة الذين يكتبون تدبير الخلائق وما هو حادث وما يمكن أن يحدث.

قال الطحاوي:

فَلَوْ اجْتَمَعَ الْخَلْقُ كُلُّهُمْ عَلَى شَيْءٍ كَتَبَهُ اللَّهُ تَعَالَى أَنَّهُ كَائِنٌ، لِيَجْعَلُوهُ غَيْرَ
كَائِنٍ، لَمْ يَقْدَرُوا عَلَيْهِ، وَلَوْ اجْتَمَعُوا كُلُّهُمْ عَلَى شَيْءٍ كَتَبَهُ اللَّهُ تَعَالَى فِيهِ أَنَّهُ غَيْرَ
كَائِنٍ لِيَجْعَلُوهُ كَائِنًا، لَمْ يَقْدَرُوا عَلَيْهِ، جَفَّ الْقَلَمُ بِمَا هُوَ كَائِنٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ.

قال الشارح:

تَقَدَّمَ حَدِيثُ جَابِرٍ رضي الله عنه عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم، قَالَ: «جَاءَ سُرَاقَةُ بْنُ مَالِكِ بْنِ
جُعْشَمٍ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ بَيْنَ لَنَا دِينَنَا كَأَنَّا خُلِقْنَا الْآنَ فِيهِمَ الْعَمَلُ الْيَوْمَ؟ أَمِ
جَفَّتْ بِهِ الْأَقْلَامُ وَجَرَتْ بِهِ الْمَقَادِيرُ، أَمْ فِيهَا نَسْتَقْبِلُ؟ قَالَ: لَا، بَلْ فِيهَا جَفَّتْ بِهِ
الْأَقْلَامُ وَجَرَتْ بِهِ الْمَقَادِيرُ»^(١).

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - قَالَ: «كُنْتُ خَلْفَ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم يَوْمًا، فَقَالَ:
يَا غُلَامُ أَلَا أَعَلَّمُكَ كَلِمَاتٍ: أَحْفَظِ اللَّهَ يَحْفَظْكَ، أَحْفَظِ اللَّهَ تَحِمْدُهُ مُجَاهَكَ، إِذَا
سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللَّهَ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ، وَاعْلَمْ أَنَّ الْأُمَّةَ لَوْ اجْتَمَعَتْ عَلَى
أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ لَكَ، وَلَوْ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ
يُضْرُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضْرُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ، رُفِعَتِ الْأَقْلَامُ وَجَفَّتِ
الصُّحُفُ». رواه الترمذي^(٢)، وقال: «هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ».

(١) تقدم تخريجه (٢/٤٣٨).

(٢) برقم (٢٥١٦).

وَفِي رِوَايَةٍ غَيْرِ التِّرْمِذِيِّ^(١): «أَحْفَظُ اللَّهَ تَجِدُهُ أَمَامَكَ، تَعَرَّفَ إِلَى اللَّهِ فِي الرَّخَاءِ يَعْرِفُكَ فِي الشَّدَّةِ، وَاعْلَمْ أَنَّ مَا أَخْطَأَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَكَ، وَمَا أَصَابَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُحْطِئَكَ، وَاعْلَمْ أَنَّ النَّصْرَ مَعَ الصَّبْرِ، وَأَنَّ الْفَرْجَ مَعَ الْكَرْبِ، وَأَنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا».

قال الشيخ:

يتكلم الشارح - رحمه الله - هنا على المقادير السابقة، وفي ذلك رد على غلاة القدرية الذين ينكرون العلم السابق، فينكرون أن الله يعلم الأشياء قبل أن توجد، ويقولون: إن الأمر أنف. يعني: أنه مستأنف، وأن جميع هذه الموجودات لا يعلمها حتى توجد، وكان أول من قال ذلك معبد الجهني وغيلان الدمشقي، اشتهرا بهذا القول الذي هو إنكار علم الله السابق، فينكرون أن الله يعلم الأشياء قبل أن توجد مع أنه هو الذي أوجدها، والذي قدر أوقاتها وحددها، والذي كتب في اللوح المحفوظ كل ما هو كائن مما يحدث في الأمور المستقبلية، وقد ذكر العلماء أن التقدير أربعة أقسام:

(١) أخرجه عبد بن حميد (٢١٤/١)، والطبراني في الكبير (١١٢٤٣)، والحاكم (٥٤٢/٣)، والبيهقي في شعب الإيمان (٢٠٣/٧). قال ابن رجب في جامع العلوم والحكم (ص ١٨٤): «رواه عبد بن حميد في مسنده بإسناد ضعيف». وقال العجلوني في كشف الخفاء (١/٣٦٦): «رواه عبد بن حميد عن ابن عباس - رضي الله عنهما - رفعه ... وذكره مطولا بسند ضعيف، ورواه أحمد، والطبراني، وغيرهما بسند أصح رجالا وأقوى».

التقدير الأول: التقدير العام، وهو: الذي كُتِبَ في اللوح المحفوظ، كتابة ما هو كائن من جميع الحوادث والأقوال.

التقدير الثاني: التقدير السنوي، الذي يكون في ليلة القدر إلى مثلها، بمعنى: أن الملائكة يكتبون بأمر الله تعالى في تلك السنة ما هو كائن إلى مثلها؛ ولذلك سميت ليلة القدر، أي: ليلة التقدير على هذا القول، مع أن ذلك مكتوب قبلهم أو موجود في اللوح المحفوظ، ولكن يكتبونه حتى يوافق ما يحدث.

التقدير الثالث: التقدير العمري، وهو: الذي يأمر الله الملك أن يكتب على الإنسان وهو في الرحم ما هو عامله إذا قدر الله تعالى أنه سيحيا، يأمر الله تعالى الملك أن يكتب أربع كلمات، وهي: رزقه، وأجله، وعمله، وشقي أو سعيد^(١)، هذا تقدير خاص لكل فرد في حياته من أول ما يولد إلى أن يخرج من الدنيا.

والتقدير الرابع: اليومي، التي هي حوادث كل يوم، وهي المذكورة في قول

الله تعالى: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [الرحمن: ٢٩].

فالمقادير المستقبلية قد علمها الله تعالى، كما قال شيخ الإسلام - رحمه الله - في الواسطية^(٢): «وَالْإِيمَانُ بِالْقَدْرِ عَلَى دَرَجَتَيْنِ؛ كُلُّ دَرَجَةٍ تَتَضَمَّنُ شَيْئَيْنِ، فَالدَّرَجَةُ الْأُولَى: الْإِيمَانُ بِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى عَلِيمٌ بِالْحَلْقِ، وَهُمْ عَامِلُونَ بِعِلْمِهِ الْقَدِيمِ الَّذِي هُوَ مَوْصُوفٌ بِهِ أَرْلًا وَأَبَدًا». يعني: العلم القديم الذي هو صفته.

(١) تقدم تخريجه (٢/٤٣٩).

(٢) (ص ٣٥).

فی حدیث سراقه بن مالک بن جعشم رضی اللہ عنہ، قال: (یا رَسُولَ اللَّهِ بَيِّنْ لَنَا دِينَنَا كَأَنَّا خُلِقْنَا الْآنَ)، أي: بین لنا حتی نعرف كأننا خلقنا الآن (فِيْمَ الْعَمَلِ الْيَوْمَ؟)، أي: فی أي شیء عملنا الآن؟ (أَفِيْمَا جَفَّتْ بِهِ الْأَقْلَامُ وَجَرَّتْ بِهِ الْمَقَادِيرُ)، یعنی: أننا نعمل أشياء قد كُتبت علينا وقد قُدرت علينا؟ (أَمْ فِيْمَا نَسْتَقْبِلُ؟)، یعنی: أننا نستقبل أشياء ما كُتبت وإنما نحن الذين نخلقها؟ فقال ﷺ: «لَا، بَلْ فِيْمَا جَفَّتْ بِهِ الْأَقْلَامُ وَجَرَّتْ بِهِ الْمَقَادِيرُ» فأخبر ﷺ بأن أعمال البشر مقدره قبل أن يوجدوا، وأن الأقلام قد كتبت ذلك وجفت يعني يبست، وأن المقادير قد قُدرت.

وفي حدیث ابن عباس - رضي الله عنهما - وهو أحد الأربعين النوويه، يقول ﷺ: (كُنْتُ خَلْفَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَوْمَما)، أي: كأنه يمشي ورائه أو قريباً منه، فعلمه بهذه الكلمات فحفظها، ناداه بقوله: «يا غلام»، وذلك لأنه كان شاباً يافعاً، يعني: عمره قريب من ثلاثة عشر عاماً، ولكنه كان ذكياً قوي الذاكرة، فقال له ﷺ: «أَلَا أَعَلَّمْتُكَ كَلِمَاتٍ» يعني: أرشدك إلى هذه الكلمات:

الجملة الأولى: قال: «احْفَظِ اللَّهَ يَحْفَظُكَ»، تكلم العلماء على كيفية حفظ الله، فبينوا أن المراد حفظ أو امره ونواهيته، وحفظ حدوده، وحفظ كلامه، وما أشبه ذلك، وأن من حفظ الله حفظه الله، أي: من حفظ حدود الله وحفظ أوامره ونواهيته فإن الله تعالى يحفظه من المكاره، ولو كادته السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، والله تعالى قد قدر أنه ينجو لما قدروا عليه، هذا معنى «يَحْفَظُكَ»، أي: يحفظك الله تعالى من كيد الكائدين.

الجملة الثانية: قال: «احْفَظِ اللَّهَ تَحِذُهُ نَجَاهُكَ»، عرفنا أن حفظ الله حفظ

أوامره ونواهيه، وذكر أن من حفظ الله وجد هذا الحفظ، «مُجَاهَك» يعني: أمامك، كما في رواية، أي: تجد هذا، فأجر حفظك لله تجده أمامك في الآخرة، أي تجد ثوابه وتجد فعله وأن الله تعالى يثيبك عليه.

الجملة الثالثة: قال: «إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللَّهَ»، أي: لا تسأل غير الله، بل سل الله كل شيء، فاسأل ربك كل ما أنت محتاج إليه، والله تعالى قال: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: ١٨٦]، فمعنى ذلك: لا تسأل غير الله، بل أسأل ربك كل شيء أنت بحاجة إليه؛ ولذلك قال بعض الشعراء^(١):

لَا تَسْأَلَنَّ بَنِيَّ آدَمَ حَاجَةً وَسَلِّ الَّذِي أَبُوَابُهُ لَا تُحْجَبُ
اللَّهُ يَغْضَبُ إِنْ تَرَكْتَ سُؤَالَه وَبُنَيَّ آدَمَ حِينَ يُسْأَلُ يَغْضَبُ

أي: أن الإنسان إذا كررت سؤاله فإنه يغضب منك ويمل، أما الله تعالى فإنه يحب السائلين ويعطيهم ويجيبهم ويشبههم، وفي الحديث: «مَنْ لَمْ يَسْأَلِ اللَّهَ يَغْضَبْ عَلَيْهِ»^(٢).

(١) ذكر هذين البيتين أبو سليمان الخطابي في كتابه «العزلة» (ص ٦٧) وعزاها إلى الخزيمي.
(٢) أخرجه البخاري في الأدب المفرد (١/ ٢٢٩)، والترمذي (٣٣٧٣)، وأحمد (٤٤٢/ ٢)، والحاكم (١/ ٤٩١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وانظر: فتح الباري (١١/ ٩٥)، وتهذيب التهذيب (١٢/ ١٤٥)، وقال ابن كثير في تفسيره لسورة غافر آية (٦٠): «تفرد به أحمد، وهذا إسناد لا بأس به».

الجملة الرابعة: قال: «وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ»، الاستعانة: طلب العون، والله تعالى يعين عباده، كما في قول الله تعالى: ﴿وَرَبُّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾ [الأنبياء: ١١٢]، وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّا كُنَّا نَقْبُدُّكَ وَإِنَّا كُنَّا نَسْتَعِينُكَ﴾ [الفاتحة: ٥]، أي: لا تستعن إلا بالله، بل استعن بالله على أمورك وعلى عباداتك حتى يعينك عليها، وعلى معاملاتك، وعلى مكاسبك، وعلى أهلك، وعلى أولادك، وعلى جميع ما أنت بحاجة إليه، تسأل الله أن يعينك عليه، فإذا أعانك فإنه يسهل عليك كل عسير، وإذا لم يعنك صعبت عليك الأمور ولو كنت ذا علم وذا حذق وذا قوة.

الجملة الخامسة: هذه الجملة تتعلق بالقدر، أي: بعلم الله السابق وبالحوادث، قال: «وَأَعْلَمُ أَنَّ الْأُمَّةَ لَوِ اجْتَمَعَتْ عَلَىٰ أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَّمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ لَكَ»، الله تعالى كتب ما هو كائن، كتب رزقك قبل أن يخلق المخلوقات، ثم كتبه كتابة ثانية وأنت في الرحم، فالخلق كلهم لو اجتمعوا على أن ينفعوك بشيء - أي: بعتاء أو بنفع أو بهال أو بنحو ذلك - لم ينفعوك إلا بأشياء قد كتبها الله لك، وقدر أنها تأتي إليك على أيديهم، كذلك «وَلَوْ اجْتَمَعُوا عَلَىٰ أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَّمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ» أي: لا إذا قدر الله تعالى حمايتك وحفظك لم يصلوا إلى أي ضرر يريدون أن يضروك به، بل يردهم الله.

ويجب أن نعرف أن هذا لا يتنافى فعل الأسباب التي جعلها الله تعالى أسباباً، فالإنسان لا يجلس في بيته ويقول: يأتيني رزقي ويدخل عليّ من وراء الأبواب

ومن وراء الحيطان، بل يؤمر بأن يتسبب، وهذه الأسباب قد كتبها الله وجعلها أسباباً، فالأسباب التي أمرت بها أسباب للرزق الذي كتبه الله لك وأنت في الرحم أو قبل أن يخلق الدنيا، فكتب الأسباب، وكتب ثمرتها، وكتب مزاولتك لها، وأمرك بأن تراولها، كذلك أيضاً أنت مأمور بأن تتقي الشرور وأن تتقي أسباب الضرر؛ ولذلك قال الله تعالى: ﴿وَخُذُوا حِذْرَكُمْ﴾ [النساء: ١٠٢]، وقال تعالى: ﴿وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ﴾ [النساء: ١٠٢]، وقال تعالى: ﴿وَسَرَّيِلَ تَفِيكُم بِأَسْكُمْ﴾ [النحل: ٨١]، فهذه من أسباب الوقاية التي جعلها الله تعالى أسباباً، يعني: هذه الدروع التي يلبسها المقاتل لا ترد من قدر الله شيئاً، ولكن جعلها الله تعالى أسباباً، فالأمة لا يفعلون إلا شيئاً قد كتبه الله وقدره على عباده، لو اجتمعوا على إنسان ليضروه والله تعالى قد قدر أنهم لا يضرونه لم يصلوا إليه، ولا يضرونه إلا بشيء قد كتبه الله.

ثم قال: «رُفِعَتِ الْأَقْلَامُ» التي تكتب المقادير، «وَجَفَّتِ الصُّحُفُ» أي: يبست الحروف التي كتبت في هذه الصحف، وفرغ من الأمر، هذا حد رواية الترمذي، وقد رواه غير الترمذي كالإمام أحمد^(١) وغيره، وفيه زيادة: «أَحْفَظِ اللَّهُ نَجْدَهُ أَمَامَكَ»، هذا بمعنى: «أَحْفَظِ اللَّهُ نَجْدَهُ مُجَاهَاكَ»، أي: تجد ثواب هذا الحفظ أمامك عند الله تعالى.

(١) في المسند (١/٢٩٣، ٣٠٣، ٣٠٧) من عدة طرق.

ثم قال: «تَعَرَّفَ إِلَى اللَّهِ فِي الرَّخَاءِ يَعْرِفُكَ فِي الشَّدَّةِ» مادمت في سعة وفي رخاء فعليك أن تتعرف إلى الله، بمعنى أنك تعمل الأعمال الصالحة حتى تكون معروفاً بها عند الله، وكذلك معروفاً أيضاً عند الملائكة الذين يكتبون أعمالك، ومعروفاً أيضاً عند أهل السَّمَوَاتِ حيث تصعد أعمالك إلى السَّمَوَاتِ، فيقول: إذا كنت في الرخاء وفي السعة فأكثر من الأعمال الصالحة، حتى إذا دعوت الله تعالى في شدة فإنه يعرفك، يعني: يجيبك ويعطيك، كما حصل ليونس - عليه السلام - لما أُلقي في البحر والتقمه حوت كبير، فدعا ربه وهو في بطن الحوت، قال: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧]، وفي بعض الآثار أن الملائكة قالوا: يا رب هذا صوت ضعيف معروف في بلاد غريبة، قال: «أَمَا تَعْرِفُونَ ذَلِكَ؟» قالوا: يا رب، ومن هو؟ قال: «ذَلِكَ عَبْدِي يُونُسَ»، قالوا: عبدك يونس الذي لم يزل يُرفع له عمل متقبل ودعوة مستجابة! قالوا: يا رب، أولاً يُرحم بها كان يصنع في الرخاء، فتنجيه من البلاء؟ قال: «بَلَى»، فأمر الحوت فطرحه بالعراء^(١)، فهذا معنى «يَعْرِفُكَ فِي الشَّدَّةِ».

كذلك يقول: «وَاعْلَمْ أَنَّ مَا أَخْطَأَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَكَ، وَمَا أَصَابَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَكَ»، وهذا معنى ما ذكرنا، «وَاعْلَمْ أَنَّ الْأُمَّةَ لَوِ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ لَكَ، وَلَوِ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ لَكَ».

(١) أخرجه الطبري (٢٣/١٠٠)، وابن أبي حاتم (١٠/٣٢٢٨)، والطبراني في الدعاء

(ص ٣٥) من حديث أنس ؓ.

يَضْرُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ»، فالذي أخطأك لم يكتب أنه سوف يصيبك، والذي أصابك وحصل عليك مكتوب عليك ولا يخطئك، ومع ذلك أنت مأمور بالتحفظ، وأنت مأمور بفعل الأسباب التي تقيك الأشياء، فإذا ابتعدت عن الأخطار كان ذلك سبباً مكتوباً عليك، إذا تعرضت للأخطار وأصبت وتعاطيت الأسباب التي توقعك في شر فإن ذلك يعتبر خطأ ويعتبر تهوراً.

ثم يقول: «وَاعْلَمَنَّ أَنَّ النَّصْرَ مَعَ الصَّبْرِ»، الصبر: هو الصبر على المصائب وما أشبهها، والصبر على المحن ونحو ذلك، والصبر أيضاً عند القتال، قال تعالى: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا ۖ﴾ [الأنفال: ٤٥]، أي: اصبروا، وقال: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَصْبِرُوا وَصَابِرُوا ۖ﴾ [آل عمران: ٢٠٠]، فإذا صبروا نصرهم الله، وكذلك أيضاً كل من صبر ظفر، يعني: صبر على طاعة الله فإن الله تعالى يثيبه، صبر نفسه يعني حبسها عن المعاصي فإن الله تعالى يثيبه، صبر على المكاره وصبر على المصائب فإن الله تعالى ينصره ويثيبه.

يقول: «وَأَنَّ الْفَرْجَ مَعَ الْكُرْبِ» أي: إذا أصابك كرب فارتقب وانتظر أن يأتيك الفرج من الله، كما قال بعضهم^(١):

عَسَى فَرْجٌ يَأْتِي بِهِ اللَّهُ إِنَّهُ لَهْ كُلَّ يَوْمٍ فِي خَلِيقَتِهِ أَهْمَرُ

(١) ذكر هذه الآيات ابن حبان في روضة العقلاء (ص ١٥٩) ونسبها إلى المتصر بن بلال

عَسَى مَا تَرَى أَنْ لَا يَدُومَ وَأَنْ تَرَى لَهُ فَرَجًا مِمَّا أَلَحَّ بِهِ الْعُسْرُ
إِذَا اشْتَدَّ عُسْرٌ فَارْحُ يُسْرًا فَإِنَّهُ قَضَى اللَّهُ أَنَّ الْعُسْرَ يَتَّبِعُهُ الْيُسْرُ

فإذا حصل الكرب ودعا العبد ربه فإن الله يفرج الكرب ويزيل الشدائد

عن بعض الذين يرغبون إليه وإن كان قد يتلهم ببعض المصائب وما أشبهها.

يقول: «وَأَنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا»، العسر: يراد به الشدائد، فإذا نزلت الشدائد

بالإنسان أعقبها الله تعالى باليسر، قال الله تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا

يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥]، وجاء قوله ﷺ: «لَنْ يَغْلِبَ عُسْرٌ يُسْرَيْنِ»^(١)،

ولعله يشير إلى قول الله تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ (٥) **إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا** ﴿

[الشرح: ٥، ٦]، فإن العسر في الآيتين معرف فهو شيء واحد، وأما اليسر فإنه

مُنْكَرٌ، فيدل على أن هناك يسران، فهذا معنى قوله: «وَأَنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا»، فمتى

حصل العسر فإن الله تعالى يعقبه باليسر، وقد قضى الله أن العسر يتبعه اليسر.

(١) أخرجه عبد الرزاق في تفسيره (٣/٣٨٠)، والطبري (٣٠/٢٣٥، ٢٣٦)، والحاكم

(٢/٥٢٨)، والبيهقي في شعب الإيمان (٧/٢٠٦) من حديث الحسن البصري مرسلًا، وله

شاهد موقوف على عمر رضي الله عنه، أخرجه مالك في الموطأ (٩٦١)، وابن أبي شيبة (٤/٢٢٢)،

والحاكم (٢/٣٠١) وصححه، والبيهقي في شعب الإيمان (٧/٢٠٥).

قال الشارح:

وَقَدْ جَاءَتِ الْأَقْلَامُ فِي هَذِهِ الْأَحَادِيثِ وَغَيْرِهَا مَجْمُوعَةً، فَدَلَّ ذَلِكَ عَلَى أَنَّ
لِلْمَقَادِيرِ أَقْلَامًا غَيْرَ الْقَلَمِ الْأَوَّلِ، الَّذِي تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ مَعَ اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ. وَالَّذِي
دَلَّتْ عَلَيْهِ السُّنَّةُ أَنَّ الْأَقْلَامَ أَرْبَعَةٌ. وَهَذَا التَّقْسِيمُ غَيْرُ التَّقْسِيمِ الْمُتَقَدَّمِ ذِكْرُهُ: .
الْقَلَمُ الْأَوَّلُ: الْعَامُّ الشَّامِلُ لِجَمِيعِ الْمَخْلُوقَاتِ، وَهُوَ الَّذِي تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ مَعَ
اللَّوْحِ.

الْقَلَمُ الثَّانِي: خَبْرُ خَلْقِ آدَمَ، وَهُوَ قَلَمٌ عَامٌّ أَيْضًا، لَكِنَّ لِبَنِي آدَمَ، وَرَدَّ فِي هَذَا
آيَاتٌ تَدُلُّ عَلَى أَنَّ اللَّهَ قَدَّرَ أَعْمَالَ بَنِي آدَمَ وَأَرْزَاقَهُمْ وَأَجَالَهُمْ وَسَعَادَتَهُمْ، عَقِيبَ
خَلْقِ آبِيهِمْ.

الْقَلَمُ الثَّلَاثُ: حِينَ يُرْسَلُ الْمَلِكُ إِلَى الْجَنِينِ فِي بَطْنِ أُمِّهِ، فَيَنْفُخُ فِيهِ الرُّوحَ،
وَيُؤَمَّرُ بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ: رِزْقِهِ، وَأَجَلِهِ، وَعَمَلِهِ، وَشَقِيٍّ أَوْ سَعِيدٍ، كَمَا وَرَدَ ذَلِكَ فِي
الْأَحَادِيثِ الصَّحِيحَةِ^(١).

الْقَلَمُ الرَّابِعُ: الْمَوْضُوعُ عَلَى الْعَبْدِ عِنْدَ بُلُوغِهِ، الَّذِي بِأَيْدِي الْكِرَامِ الْكَاتِبِينَ،
الَّذِينَ يَكْتُبُونَ مَا يَفْعَلُهُ بَنُو آدَمَ، كَمَا وَرَدَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ.

قال الشيخ:

هكذا جاء تقسيم هذه الأقلام أنها أربعة، وقد تقدم أن هناك قلمان، وهذه

(١) تقدم تخرجه (٢/٢٤٩).

الأقلام الأربعة غير القلمين الأولين، الله تعالى ذكر: ﴿ت وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ [القلم: ١]، ولكن يُراد بذلك هذه الأقلام التي تكتب هذه الأعمال، فالأقلام جاءت في هذه الأحاديث في قوله: «وَأَعْلَمَ أَنَّ الْأُمَّةَ لَوِ اجْتَمَعَتْ عَلَىٰ أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَّمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ لَكَ» ونحو ذلك، دل على أن المقادير لها أقلام غير القلم الأول الذي تقدم ذكره مع اللوح المحفوظ.

والذي دلت عليه السنة بتتبع الأدلة أن الأقلام أربعة، وأن تقسيمها إلى أربعة غير التقسيم المتقدم إلى قسمين.

قوله: (الْقَلَمُ الْأَوَّلُ: الْعَامُّ الشَّامِلُ لِجَمِيعِ الْمَحْلُوقَاتِ)، وهو الذي تقدم ذكره مع اللوح المحفوظ، الذي هو أول ما خلق الله وأمره أن يكتب ما هو كائن.

قوله: (الْقَلَمُ الثَّانِي: خَبْرُ خَلْقِ آدَمَ، وَهُوَ قَلَمٌ عَامٌّ أَيْضًا، لَكِنَّ لِبَنِي آدَمَ، وَرَدَّ فِي هَذَا آيَاتٌ تَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّ اللَّهَ قَدَّرَ أَعْمَالَ بَنِي آدَمَ وَأَرْزَاقَهُمْ وَأَجَالَهُمْ وَسَعَادَتَهُمْ،

عُقَيْبَ خَلْقِ أَبِيهِمْ)، ولعل من ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا﴾ [الأعراف: ١٧٢]،

ونحو ذلك، وما ثبت أيضًا من قوله ﷺ: «أَخَذَ اللَّهُ الْمِيثَاقَ مِنْ ظَهْرِ آدَمَ

بِنِعْمَانَ - يَعْنِي: عَرَفَةَ - فَأَخْرَجَ مِنْ صُلْبِهِ كُلَّ ذُرِّيَّةٍ ذَرَأَاهَا، فَفَرَّهُمْ بَيْنَ يَدَيْهِ كَالذَّرِّ، ثُمَّ

كَلَّمَهُمْ قَبْلًا، قَالَ: أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ؟ قَالُوا: بَلَىٰ شَهِدْنَا...»^(١)، يعني: استنطقهم،

فشهدوا على أن الله هو ربهم، وهو الذي خلقهم.

فلما خلق الله تعالى آدم أخرج ذريته، وكتب على كل فرد من أول الدنيا إلى آخرها ما هو عامل، وفي بعض الروايات: «وَجَعَلَ بَيْنَ عَيْنِي كُلِّ إِنْسَانٍ مِنْهُمْ وَبَيْضًا مِنْ نُورٍ، ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى آدَمَ، فَقَالَ: أَيُّ رَبِّ مِنْ هَؤُلَاءِ؟ قَالَ: هَؤُلَاءِ ذُرِّيَّتُكَ، فَرَأَى رَجُلًا مِنْهُمْ فَأَعْجَبَهُ وَبَيْضُ مَا بَيْنَ عَيْنَيْهِ، فَقَالَ: أَيُّ رَبِّ مِنْ هَذَا؟ فَقَالَ: هَذَا رَجُلٌ مِنْ آخِرِ الْأُمَّمِ مِنْ ذُرِّيَّتِكَ يُقَالُ لَهُ: دَاوُدُ...»^(١) إلى آخر القصة.

القلم الثالث: خاص بكل إنسان (حِينَ يُرْسَلُ الْمَلِكُ إِلَى الْجَنِينِ فِي بَطْنِ أُمِّهِ، فَيَنْفُخُ فِيهِ الرُّوحَ)، وذلك بعد الأربعين الثالثة، (وَيُؤَمَّرُ بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ: رِزْقِهِ، وَأَجَلِهِ، وَعَمَلِهِ، وَشَقِيٍّ أَوْ سَعِيدٍ)، هكذا ورد في حديث ابن مسعود رضي الله عنه، وغيره من الأحاديث الكثيرة التي أوردها ابن رجب - رحمه الله - في «جامع العلوم والحكم»^(٢) في شرح هذا الحديث، وأنه يُكتب ذلك وهو في بطن أمه، وذلك لا ينافي أنه مكتوب قبل أن يُخلق، وقبل خلق المخلوقات، وإنما هذه كتابة جديدة حينما يُرسل الملك إلى الجنين ويكتب ما هو كائن وما هو عامل.

القلم الرابع: (الْمَوْضُوعُ عَلَى الْعَبْدِ عِنْدَ بُلُوغِهِ)، في حديث أنه ﷺ قال: «رُفِعَ الْقَلَمُ عَنْ ثَلَاثَةٍ: عَنِ النَّائِمِ حَتَّى يَسْتَيْقِظَ، وَعَنِ الصَّغِيرِ حَتَّى يَكْبُرَ، وَعَنِ الْمَجْنُونِ

(١) تقدم تخريجه (٢/٤٠٥).

(٢) (ص ٤٦ وما بعدها).

حَتَّى يَعْقِلَ أَوْ يُفِيقَ»^(۱). هذا يُسمى (قلم التكليف)، فإذا بلغ العبد وُضِعَ عليه هذا القلم الذي هو قلم التكليف، بمعنى أنه يصير من الذين تكتب الملائكة أعمالهم في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ﴿۱۰﴾ كِرَامًا كَاتِبِينَ﴾ [الانفطار: ۱۰، ۱۱]، أي: الملائكة الذين يكتبون ما يفعله بنو آدم، فإذا بلغ العبد وكُلِّفَ فعند ذلك يتولى الملائكة كتابة أعماله كما في قول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعَلَهُ مَا تُوَسَّوَسُ بِهِ نَفْسَهُ، وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ [ق: ۱۶]، وقوله: ﴿مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ۱۸]، أي: يكتبون كل ما يتلفظ به.

(۱) أخرجه أبو داود (۴۳۹۸)، والنسائي (۵۵۹۶)، وابن ماجه (۲۰۴۱)، وأحمد (۶/۱۰۱)، والحاكم (۵۹/۲) وصححه، من حديث عائشة رضي الله عنها.

قال الشارح:

وَإِذَا عَلِمَ الْعَبْدُ أَنَّ كَلَامًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، فَالْوَجِبُ إِفْرَادُهُ سُبْحَانَهُ بِالْحَشِيَّةِ
وَالنَّقْوَى، قَالَ تَعَالَى: ﴿فَلَا تَخْشَوُا النَّكَاسَ وَآخِشُونِ﴾ [المائدة: ٤٤]، ﴿وَإِنِّي
فَارْهُبُونِ﴾ [البقرة: ٤٠]، ﴿وَإِنِّي فَالْقُورِ﴾ [البقرة: ٤١]، ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ
وَيَخْشِ اللَّهَ وَيَخَفْهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ [النور: ٥٢]، ﴿هُوَ أَهْلُ النَّقْوَى وَأَهْلُ
الْمَغْفِرَةِ﴾ [المدثر: ٥٦]، وَنَظَائِرُ هَذَا الْمَعْنَى فِي الْقُرْآنِ كَثِيرَةٌ.

وَلَا بَدَّ لِكُلِّ عَبْدٍ أَنْ يَتَّقِيَ أَشْيَاءَ، فَإِنَّهُ لَا يَعِيشُ وَحْدَهُ، وَلَوْ كَانَ مَلِكًا مُطَاعًا،
فَلَا بَدَّ أَنْ يَتَّقِيَ أَشْيَاءَ يُرَاعِي بِهَا رَعِيَّتَهُ، فَحِينَئِذٍ فَلَا بَدَّ لِكُلِّ إِنْسَانٍ أَنْ يَتَّقِيَ، فَإِنْ لَمْ
يَتَّقِ اللَّهَ اتَّقَى الْمَخْلُوقَ، وَالْخَلْقُ لَا يَتَّفِقُ حُبُّهُمْ كُلُّهُمْ وَبُغْضُهُمْ، بَلِ الَّذِي يُرِيدُهُ
هَذَا يَبْغِضُهُ هَذَا، فَلَا يُمَكِّنُ إِرْضَاؤُهُمْ كُلَّهُمْ، كَمَا قَالَ الشَّافِعِيُّ رحمته الله: «رِضَا النَّاسِ
غَايَةٌ لَا تُدْرِكُ، فَعَلَيْكَ بِالْأَمْرِ الَّذِي يُضْلِحُكَ فَالزَّمْهُ، وَدَعْ مَا سِوَاهُ فَلَا تُعَانِهِ،
فَارْضَاءُ الْخَلْقِ لَا مَقْدُورٌ وَلَا مَأْمُورٌ، وَإِرْضَاءُ الْخَالِقِ مَقْدُورٌ وَمَأْمُورٌ»^(١).

قال الشيخ:

في هذا ما يجب على الإنسان المكلف، لاشك أنه عرض على كل، وعلم أن
كلًا من عند الله، عرف عظمة ربه سبحانه وجلاله وكبريائه، وعلم حقه عليه،

(١) أخرجه الخطابي في العزلة (٧٦)، وأبو نعيم في الحلية (٩/١٢٣).

فأنت تعلم حق الله تعالى عليك وأنت عبد من عبيده، وأنه كلفك بعبادته وحده، فالواجب أن تفرد سبحانه بالخشية والتقوى، والخشية: هي شدة الخوف؛ ولهذا قال: ﴿فَلَا تَخْشَوْا الْتَكَاثُرَ وَأَخْشَوْنَ﴾، أي: لا تخف من الناس، بل عليك أن تخاف من الله وحده، وجاء في بعض الآثار: «من خاف الله خاف منه كل شيء»، ومن خاف غير الله خاف من كل شيء»^(١)، فعليك أن يكون خوفك من الله وخشيتك منه، وإذا خشيت الله تعالى فإنه يحرسك ويحميك وإن كنت مأمورًا بالأسباب.

كذلك قوله تعالى: ﴿وَإِنِّي فَأَرْهَبُونَ﴾، الرهب هو: شدة الخوف، ومنه قوله تعالى: ﴿وَيَدْعُونَ تَكَارُفًا وَرَهْبًا﴾ [الأنبياء: ٩٠]، فلا ترهب إلا من الله وحده، ولا ترهب من غيره.

وقال تعالى: ﴿وَإِنِّي فَأَتَّقُونَ﴾، التقوى: العمل بطاعة الله، كما جاء في بعض الآثار: «التقوى أن تعمل بطاعة الله، على نور من الله، ترجو ثواب الله، وأن تترك معصية الله، على نور من الله، تخشى عقاب الله»^(٢)، فلا تتق غير الله، ﴿وَإِنِّي فَأَتَّقُونَ﴾، وتقديم الضمير يقتضي التخصيص، مثل: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ

(١) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (١/٥٤١) من كلام الفضيل بن عياض، وقال: «وقد

روى هذا اللفظ عن وائلة بن الأسقع مرفوعًا، غير أن إسناده مجهول».

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم (٢/٤٤٦) من كلام طلق بن حبيب، وذكره ابن رجب في جامع

العلوم والحكم (ص ١٥٩).

نَسْتَعِينُ ﴿ [الفاتحة: ٥]، أي: لا نعبد غيرك، إياك نرهب أي: لا نرهب غيرك، إياك نتقي أي: لا نتقي غيرك، وكذلك قوله تعالى: ﴿ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴾ [النور: ٥٢]، أي: من جمع بين هذا كله: طاعة الله ورسوله بامثال الأوامر وترك النواهي، وخشية الله التي هي شدة الخوف، وتقوى الله التي هي مراقبته والخوف من عذابه، أولئك هم الفائزون الذين هم أهل الفوز والسعادة في الآخرة.

وقال تعالى: ﴿ هُوَ أَهْلُ النَّقْوَى وَأَهْلُ الْغَفْوَةِ ﴾ [المدثر: ٥٦]، أي: الرب - سبحانه وتعالى - أهل أن يتقيه العباد، وأهل أن يغفر لهم إذا اتقوه. ثم يقول: (وَنَظَائِرُ هَذَا الْمَعْنَى فِي الْقُرْآنِ كَثِيرَةٌ)، يعني: الأوامر والإرشادات التي فيها أمر العباد بأن يخافوا من الله ولا يخافوا غيره، كقوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ. فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا مِنِّي إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران: ١٧٥]، ونحو ذلك كثير.

يقول: (وَلَا بَدَّ لِكُلِّ عَبْدٍ أَنْ يَتَّقِيَ أَشْيَاءَهُ)، يعني: كما أنه يتقي الله فيتقي المعاصي ويتقي الذنوب، يتوقى يعني: يجعل بينه وبينها وقاية، ولا بد أيضًا أنه يتوقى الشرور ويتوقى الآفات، فلا يتهور ولا يخاطر بنفسه، ولا يفعل الأسباب التي فيها ضرر عليه، بل يتوقاها.

قوله: (فَإِنَّهُ لَا يَعِيشُ وَحْدَهُ)، الإنسان مدني بالطبع، فلا يمكن أنه يتفرد وحده ويعيش، بل لا بد أن يكون مع الناس.

قوله: (وَلَوْ كَانَ مَلِكًا مُطَاعًا، فَلَا بُدَّ أَنْ يَتَّقِيَ أَشْيَاءَ يُرَاعِي بِهَا رَعِيَّتَهُ)، الملوك ولو بلغوا ما بلغوا لابد أن يتقي أحدهم أشياء يراعي بها رعيته الذين تحت سلطته.

قوله: (فَحِينَئِذٍ فَلَا بُدَّ لِكُلِّ إِنْسَانٍ أَنْ يَتَّقِيَ)، أي: لابد من صفة التقوى، (فَإِنْ لَمْ يَتَّقِ اللَّهَ اتَّقَى الْمَخْلُوقَ)، يعني: يتقي شرور الناس، اتق شر من أحسنت إليه، حتى قال بعضهم^(۱):

أَخَذَرُ عَادُوكَ مَرَّةً وَأَخَذَرُ صَدِيقَكَ أَلْفَ مَرَّةً
فَلَرُبَّمَا انْقَلَبَ الصَّدِيقُ فَكَانَ أَخْبَرَ بِالْمَضْرَّةِ

فالذي يتقي الله يقيه الله المخاوف، وكذلك أيضًا يتقي شرور الناس يتقي أضرارهم، يتوقى ذلك بقدر ما يستطيع.

قوله: (وَالْخَلْقُ لَا يَتَّقِي حُبَّهُمْ كُلَّهُمْ وَيُبْغِضُهُمْ)، ليس كلهم يتفقون على حب إنسان، بل لابد أن يكون فيهم من يبغضه، حتى الأنبياء جعل الله لهم أعداء يقاطعونهم ويؤذونهم، فكذلك الإنسان كل فرد له أولياء وله أعداء، هؤلاء يحبونه وهؤلاء يبغضونه.

قوله: (بَلِ الَّذِي يُرِيدُهُ هَذَا يَبْغِضُهُ هَذَا)، قد يكون إنسان يحبك، وآخر يبغضك ويحقد عليك، (فَلَا يُمَكِّنُ إِزْصَاؤُهُمْ كُلَّهُمْ)، يعني: أنهم كلهم يرضون عنك، (كَمَا قَالَ الشَّافِعِيُّ رحمته الله): «رِضَا النَّاسِ غَايَةٌ لَا تُدْرِكُ»، يعني: رضا

(۱) ذكر هذين البيتين الثعالبي في يتيمة الدهر (۳/۱۲۶)، ونسبهما لابن حجاج.

الناس كلهم، فلا يمكن أنه يرضوا عن الإنسان، بل لا بد أن يكون فيهم من لا يبلغ رضاه.

ثم يقول: (فَعَلَيْكَ بِالأَمْرِ الَّذِي يُصْلِحُكَ فَالزَّمُهُ)، أي: الشيء الذي يصلحك ويكون فيه صلاحك لازمه، (وَدَعَّ مَا سِوَاهُ فَلَا تُعَانِهِ، فَإِرضَاءُ الخَلْقِ لَا مَقْدُورٌ وَلَا مَأْمُورٌ، وَإِرضَاءُ الخَالِقِ مَقْدُورٌ وَمَأْمُورٌ)، فأنت مأمور بأن تلتمس رضا الله، وأن تتعد عن سخطه ولو سخط عليك الخلق، وفي الحديث المشهور قول النبي ﷺ: «مَنِ التَّمَسَ رِضَى اللّهِ بِسَخَطِ النَّاسِ رَضِيَ اللّهُ عَنْهُ وَأَرْضَى النَّاسَ عَنْهُ، وَمَنِ التَّمَسَ رِضَا النَّاسِ بِسَخَطِ اللّهِ سَخَطَ اللّهُ عَلَيْهِ وَأَسَخَطَ عَلَيْهِ النَّاسَ»^(١).

فالمسلم عليه أن يقصد رضا الله، وأن يعمل بما يرضي الله، ومتى كان كذلك فإن الله تعالى يرضي عنه الخلق ولو كانوا يبغضونه، يعرفون أنه ليس له هدف، وأنه ليس له غرض خاص في بغض هذا أو في بغض هذا، إنما يبغض من يبغضهم الله؛ لأجل خصال اتصفوا بها، فيحب أولياء الله لا لغرض دنيوي، ولا لأمر خاص، بل يعرف أن هؤلاء أولياء الله الذين يحبهم فيحب من يحبهم الله، وأن هؤلاء أعداء الله يبغضهم الله فيقول: أولياء الله وأحباب الله أنا أوليهم،

(١) أخرجه الترمذي (٢٤١٤)، وابن حبان (١/٥١٠) من حديث عائشة رضي الله عنها.

وأخرجه بنحو هذا اللفظ الطبراني في الكبير (١١٦٩٦) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

ولو أنهم بعيدون من النسب، بعيدون مني نسباً، ولو ما حصلت منهم لي منفعة دينية أو دنيوية، ولكن بما أنهم يحبون الله، ويحبون الخير، يقصدونه ويعملون به فأنا أحبهم. وإذا قُدر أنهم كرهوك وقدحوا فيك وأبغضوك وحاولوا إضرارك فلا يضر السحاب نبج الكلاب، عليك بأن تصبر وتصابر على أذى الناس، ولا بد أن يكون هناك أذى لكل إنسان، فإذا صبرت فالله تعالى وعذك بالصبر، وفي حديث ابن عباس - رضي الله عنهما - السابق يقول: «وَاعْلَمَ أَنَّ النَّصْرَ مَعَ الصَّبْرِ»، فتصبر على أذى الناس وعلى ما ينالك منهم؛ لتكون بذلك سعيداً إن شاء الله تعالى.

فإرضاء الخلق ليس بمقدور، لو التمت رضا الناس كلهم لم تقدر على ذلك؛ لأن ربنا سبحانه فاوت بين الخلق، وجعلهم متقاطعين، جعل فيهم حسدة ومفسدين، فالذين يحسدون يريدون لك الشر ويعملون على ما يقدرون عليه من إضرارك حسداً وبغضاً، كما يقول بعض الشعراء^(١):

حَسَدُوا الْفَتَى إِذْ لَمْ يَنَالُوا سَعِيَهُ فَالْقَوْمُ أَعْدَاءُ لَهُ وَخُصُومُ
كَضْرَائِرِ الْحَسَنَاءِ قُلْنَ لِرُؤُوسِهَا حَسَدًا وَبُغْضًا إِنَّهُ لَسَلِيمٌ

فما حمل الذين يحسدونك ويحقدون عليك ويتبعون الهفوات إلا الحسد الذي يكونه في قلوبهم، وعادة أنهم يكتمون الخير ويظهرون السوء أو الشرور،

(١) هذان البيتان ينسبان إلى أبي الأسود الدؤلي، انظر: جامع بيان العلم وفضله (٢/١٦٢)،

والفصول المفيدة في الواو المزينة (ص ٢١١).

حتى قال بعضهم^(١):

صُمُّ إِذَا سَمِعُوا خَيْرًا ذُكِرَتْ بِهِ وَإِذَا ذُكِرَتْ بِسُوءٍ عِنْدَهُمْ أَذُنُوا
 إِنْ يَسْمَعُوا سَيِّئًا طَارُوا بِهِ فَرِحًا عَنِّي وَمَا سَمِعُوا مِنْ صَالِحٍ دَفَنُوا
 فهكذا لا بد أن الإنسان يتحمل ويصبر وينصره الله تعالى ويظهره، ولا يضره
 من احتمال أو حاول أن يمكر به.

(١) هذان البيتان ينسبان إلى قعنب بن أم صاحب، انظر: لسان العرب (٤/٤٣٤).

قال الشارح:

وَأَيْضًا فَاَلْمَخْلُوقُ لَا يُغْنِي عَنْهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا، فَإِذَا اتَّقَى الْعَبْدُ رَبَّهُ، كَفَّاهُ مَوْؤَنَةَ النَّاسِ، كَمَا كَتَبَتْ عَائِشَةُ إِلَى مُعَاوِيَةَ، رُوِيَ مَرْفُوعًا، وَرُوِيَ مَوْقُوفًا عَلَيْهَا: «مَنْ أَرْضَى اللَّهَ بِسَخَطِ النَّاسِ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَأَرْضَى عَنْهُ النَّاسُ، وَمَنْ أَرْضَى النَّاسَ بِسَخَطِ اللَّهِ، عَادَ حَامِدُهُ مِنَ النَّاسِ لَهُ دَامًا»^(١)، فَمَنْ أَرْضَى اللَّهَ كَفَّاهُ مَوْؤَنَةَ النَّاسِ وَرَضِيَ عَنْهُ، ثُمَّ فِيمَا بَعْدُ يَرْضُونَ؛ إِذِ الْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى، وَيُحِبُّهُ اللَّهُ فَيُحِبُّهُ النَّاسُ، كَمَا فِي «الصَّحِيحِينَ»^(٢) عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «إِذَا أَحَبَّ اللَّهُ الْعَبْدَ نَادَى جِبْرِيلُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ فُلَانًا فَأَحْبِبْهُ فَيُحِبُّهُ جِبْرِيلُ، فَيُنَادِي جِبْرِيلُ فِي أَهْلِ السَّمَاءِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ فُلَانًا فَأَحْبِبُوهُ فَيُحِبُّهُ أَهْلُ السَّمَاءِ، ثُمَّ يُوضَعُ لَهُ الْقَبُولُ فِي الْأَرْضِ»، وَقَالَ فِي الْبَعْضِ مِثْلَ ذَلِكَ.

قال الشيخ:

قوله: (وَأَيْضًا فَاَلْمَخْلُوقُ لَا يُغْنِي عَنْهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا)، أي: أن الخلق كلهم لا يغنون من الله شيئًا.

ثم ذكر أثر عائشة رضي الله عنها، وقد روي مرفوعًا وموقوفًا عليها قالت: «مَنْ أَرْضَى اللَّهَ بِسَخَطِ النَّاسِ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَأَرْضَى عَنْهُ النَّاسُ، وَمَنْ أَرْضَى

(١) تقدم ترجمته قريبًا.

(٢) أخرجه البخاري (٣٢٠٩)، ومسلم (٢٦٣٧) من حديث أبي هريرة ؓ.

النَّاسِ بِسَخَطِ اللَّهِ، عَادَ حَامِدُهُ مِنَ النَّاسِ لَهُ ذَامًا»، هكذا إذا أَرْضَى اللهُ تعالى ولو سَخَطَ عَلَيْهِ الناس، فإن الناس يعذرونه ويقولون: إنه لم يكن محايياً، ولم يكن ملتتمساً لمصلحة دنيوية، ولكنه يريد رضا الله تعالى. فيرضى الله تعالى عنه، ويرضى عنه الناس.

وأما الذي يعمل بسخط الله، ويسخط الله بعمل المعاصي والمحرمات، فإن الله يسخط عليه الناس، ولو أنهم أصدقاؤه، ولو أنهم أقارب له، فيأثم يعودون يذمونه.

هذا معنى قوله: «عَادَ حَامِدُهُ مِنَ النَّاسِ لَهُ ذَامًا»، وفي رواية: «سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَسْخَطَ عَلَيْهِ النَّاسِ».

وهذا الأثر الذي رُوي عن عائشة - رضي الله عنها - مرفوعاً وموقوفاً دليل على أن الإنسان عليه أن يلتمس رضا ربه ولو سخط عليه الناس، فيصعد بالحق ويقول به، ولا يخاف في الله لومة لائم، وإذا علم الناس حُسن قصده، وأنه لا يبالي بأحد، وأنه يعرف أن هذا رضا الله تعالى فإنهم يعذرونه ويرضون عنه، ويرضيه الله عنه، وأما الذي يعصي الله تعالى ويسخطه لأجل أن يرضى عنه الناس، ويعطيهم ما يهونونه وما يناسبهم وهو يعلم أن في ذلك سخط الله تعالى، فإن الله يعاقبه بحيث يسخط عليه الناس، والذين يحمّدونه يعودون يذمونه.

قوله: (فَمَنْ أَرْضَى اللَّهُ كَفَاهُ مُؤْنَةَ النَّاسِ وَرَضِيَ عَنْهُ)، وكفى بذلك منزلة رفيعة، إذا أَرْضَى اللهُ تعالى، إذا علم أن في هذا الأمر رضا الله تعالى فيكفيه مؤنة الناس ولو حاولوا أن يضرّوه، ويرضى الله تعالى عنه، ثم فيما بعد يرضون عنه إذا

علموا حسن مقصده وأنه لا يريد إلا ما عند الله؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى﴾ [طه: ١٣٢]، يعني: النهاية لأهل التقوى، ولا شك أيضًا أن الناس يحبونه، إذا أحبه الله حَبَّبَ إليه الناس حيث؛ لأنه والحال هذه قد قدم رضا الله تعالى على رضا كل أحد، ولم يبالِ بالناس، ولم يلتفت إلى رضا أحد، وعلم أن هذا الأمر أمر الله وأنه مقدم على أمر كل أحد.

ثم استدلل الشارح بما في الصحيحين أن النبي ﷺ قال: «إِذَا أَحَبَّ اللَّهُ الْعَبْدَ نَادَى جِرِيْلَ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ فُلَانًا فَأَحْبِبْهُ، فَيَجِبُهُ جِرِيْلُ، فَيَنَادِي جِرِيْلُ فِي أَهْلِ السَّمَاءِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ فُلَانًا فَأَحْبِبْهُ فَيَجِبُهُ أَهْلُ السَّمَاءِ، ثُمَّ يُوضَعُ لَهُ الْقَبُولُ فِي الْأَرْضِ»، وقال في البغض مثل ذلك: «وَإِذَا أَبْغَضَ عَبْدًا دَعَا جِرِيْلَ، فيقول: إِنِّي أَبْغَضُ فُلَانًا فَأَبْغِضْهُ، قال: فَيَبْغِضُهُ جِرِيْلُ، ثُمَّ يُنَادِي فِي أَهْلِ السَّمَاءِ إِنَّ اللَّهَ يُبْغِضُ فُلَانًا فَأَبْغِضُوهُ، قال: فَيَبْغِضُونَهُ، ثُمَّ تُوضَعُ لَهُ الْبُغْضَاءُ فِي الْأَرْضِ»؛ وذلك لأن الله تعالى موصوف بأنه يحب أوليائه، ويحب المتقين، ويحب عباده الصالحين، وإذا أحبهم فإنه لأجل صلاحهم ولأجل تقاهم، ولأجل ديانتهم؛ ولأنهم يلتمسون رضا الله، ولو سخط عليهم جميع الناس، ويقولون: لا حاجة لنا برضا الناس إذا سخط الله علينا، نقول الحق ونجهر به، ونعلم أن هذا هو الذي يحبه الله منا، أما الذي يلتمس رضا الناس ويتنازل على ما يريدون ويحل لهم الحرام؛ لأجل أن يحبوه، ولأجل أن يوسع عليهم، ويقول: الناس لا يحبون إلا من تنازل لهم عن الأشياء وتسامح معهم، وما أشبه ذلك، لا شك أن هذا وما أشبهه يعتبر تركًا

للحق، وإفساداً له، ويعتبر تسبباً في بغض الله تعالى للعبد الذي فعل ذلك، ثم بغض الملائكة له، ثم بغض أهل الأرض له، بخلاف من قدم محبة الله فإن الله تعالى يحبه ويحب إليه الناس، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾ [مريم: ٩٦]، أي: مودة فيما بين الناس.

قال الشارح:

فَقَدْ بَيَّنَّ أَنَّهُ لَا بُدَّ لِكُلِّ مَخْلُوقٍ مِنْ أَنْ يَتَّقِيَ: إِمَّا الْمَخْلُوقَ، وَإِمَّا الْخَالِقَ، وَتَقْوَى الْمَخْلُوقِ ضَرُّرُهَا رَاجِحٌ عَلَى نَفْعِهَا مِنْ وُجُوهٍ كَثِيرَةٍ، وَتَقْوَى اللَّهِ هِيَ الَّتِي يَحْصُلُ بِهَا سَعَادَةُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، فَهُوَ سُبْحَانَهُ أَهْلٌ لِلتَّقْوَى، وَهُوَ أَيْضًا أَهْلٌ الْمَغْفِرَةِ، فَإِنَّهُ هُوَ الَّذِي يَغْفِرُ الذُّنُوبَ، لَا يَقْدِرُ مَخْلُوقٌ عَلَى أَنْ يَغْفِرَ الذُّنُوبَ وَيُجِيرَ مِنْ عَذَابِهَا غَيْرُهُ، وَهُوَ الَّذِي يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ. قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ: مَا احتاج تَقِيٌّ قَطُّ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ۖ ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢، ٣]، فَقَدْ ضَمِنَ اللَّهُ لِلْمُتَّقِينَ أَنْ يَجْعَلَ لَهُمْ مَخْرَجًا مِمَّا يَضِيقُ عَلَى النَّاسِ، وَأَنْ يَرْزُقَهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُونَ، فَإِذَا لَمْ يَحْصُلْ ذَلِكَ دَلَّ عَلَى أَنَّ فِي التَّقْوَى خَلَلًا، فَلَيْسَتْغْفِرَ اللَّهُ وَلِيُتَّبَ إِلَيْهِ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ۗ﴾ [الطلاق: ٣]، أَي: فَهُوَ كَافِيهِ، لَا يُحْجِجُهُ إِلَى غَيْرِهِ.

قال الشيخ:

قوله: (فَقَدْ بَيَّنَّ أَنَّهُ لَا بُدَّ لِكُلِّ مَخْلُوقٍ مِنْ أَنْ يَتَّقِيَ: إِمَّا الْمَخْلُوقَ، وَإِمَّا الْخَالِقَ)، وهذا معلوم، فمن اتقى الله تعالى وخافه وأطاعه والتمس رضاه واتقى عذابه، فإن الله تعالى يقيه من كل سوء، وأما الذي يتقى المخلوقين ويخاف منهم ويرضاهم ولو أسخط الله تعالى، فإنهم لا ينفعون، ولو نفعوه نفعًا عاجلاً دنيويًا، فإن ذلك يكون وبالاً عليه في الآخرة.

قوله: (وَتَقْوَى الْمَخْلُوقِ)، أي: كونه يخاف من المخلوقين ويتقيهم، (صَرَرُهَا رَاجِحٌ عَلَى نَفْعِهَا مِنْ وُجُوهِ كَثِيرَةٍ)؛ لأنه لما خافهم واتقاهم تساهل في حقوق الله تعالى، فيكون ذلك كأنه خوف من الناس، وكأنه عبادة للمخلوق والعياذ بالله.

قال: (وَتَقْوَى اللَّهِ هِيَ الَّتِي يَحْضُلُ بِهَا سَعَادَةُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ)، هكذا ذكروا أن من خاف الله تعالى خاف منه كل شيء، ومن لم يخف الله خاف من كل شيء، والذي يخاف الله هو الذي يلتمس رضا الله، ويتقي الله تعالى، وقد ذكر الله فائدة التقوى فقال: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا﴾ [الطلاق: ٢]، وقال: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَكْفِرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا﴾ [الطلاق: ٥]؛ لأن الله تعالى هو أهل التقوى وأهل المغفرة، أهل أن يتقيه العباد، ثم هو يغفر لهم، فإنه هو الذي يغفر الذنوب جميعًا كما في قول الله تعالى: ﴿قُلْ يِعْبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣]، ولكن قال بعد ذلك: ﴿وَإِنبِئُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْأَلُوا اللَّهَ﴾ [الزمر: ٥٤].

قوله: (لَا يَقْدِرُ مَخْلُوقٌ عَلَىٰ أَنْ يَغْفِرَ الذُّنُوبَ وَيُجِيرَ مِنْ عَذَابِهَا غَيْرُهُ)، بل القادر على ذلك هو الله وحده، وأما المخلوق فقد برته قدرة محدودة، والله - سبحانه وتعالى - هو الذي يجير ولا يجار عليه؛ ولهذا قال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ

السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾

سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلُوبٌ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ ﴿١٨٩﴾ [المؤمنون: ٨٦-٨٩]، فالله تعالى يجير من استجار به ويحميه، ولا أحد يجير عنه، ولا أحد يرد أمر الله تعالى إذا أراد أمراً فإنه لا معقب لقضائه ولا راد لحكمه.

قوله: (قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ: مَا احتَاجَ تَقِيٌّ قَطُّ)، أي: الذي يتقي الله تعالى

لا يحتاج أخذاً من هذه الآية: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢، ٣]، فعليه بتقوى الله وتحقيقها حتى يرزقه من حيث لا يحتسب.

قوله: (فَقَدْ ضَمِنَ اللَّهُ لِلْمُتَّقِينَ أَنْ يَجْعَلَ لَهُمْ مَخْرَجاً مِمَّا يَضِيقُ عَلَى النَّاسِ)،

أي: من كل هم فرجاً، ومن كل ضيق مخرجاً، ومن كل بلاء عافية، ومن كل عسر

يسراً، هكذا ثمار التقوى، ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً﴾، ولو تكالب عليه

الناس، ولو اشتدت عليه الكروب، يجعل الله له مخرجاً، ﴿وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ

لَا يَحْتَسِبُ﴾، أي: يسر له الرزق ويأتيه الرزق من وجه لا يقدر له، أي من حيث

لا يحتسب، أما إذا لم يتق الله فإنه لا يحصل له ذلك.

قوله: (فَإِذَا لَمْ يَحْضُرْ ذَلِكَ دَلَّ عَلَى أَنَّ فِي التَّقْوَى خَللاً)، أي: إذا رأيت قد وقع

في شدة، وفي أزمة، وفي فقر فاعرف أن تقواه قليلة، وأن في تقواه خلل، فأرشده إلى

أن يستغفر الله ويتوب إليه، وذكره بهذه الآية: ﴿وَمَنْ يَرْكَبْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾،

أي: فهو كافي، لا محوجه إلى غيره.

قال الشارح:

وَقَدْ ظَنَّ بَعْضُ النَّاسِ أَنَّ التَّوَكُّلَ يُنَافِي الإِكْتِسَابَ، وَتَعَاطِي الأَسْبَابِ، وَأَنَّ الأُمُورَ إِذَا كَانَتْ مُقَدَّرَةً فَلَا حَاجَةَ إِلَى الأَسْبَابِ! وَهَذَا فَاسِدٌ، فَإِنَّ الإِكْتِسَابَ مِنْهُ فَرَضٌ، وَمِنْهُ مُسْتَحَبٌّ، وَمِنْهُ مُبَاحٌ، وَمِنْهُ مَكْرُوهٌ، وَمِنْهُ حَرَامٌ، كَمَا قَدْ عُرِفَ فِي مَوْضِعِهِ. وَقَدْ كَانَ النَّبِيُّ ﷺ أَفْضَلَ المُتَوَكِّلِينَ، يَلْبَسُ لِأُمَّةِ الحَرْبِ (١)، وَيَمْشِي فِي الأَسْوَاقِ لِلإِكْتِسَابِ (٢)، حَتَّى قَالَ الكَافِرُونَ: ﴿وَالْوَالِئَاتُ هَذَا الرُّسُولُ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الأَسْوَاقِ﴾ [الفرقان: ٧]؛ وَهَذَا نَجْدٌ كَثِيرًا يَمُنُّ بِرَى الإِكْتِسَابِ يُنَافِي التَّوَكُّلَ يُرْزَقُونَ عَلَى يَدِ مَنْ يُعْطِيهِمْ، إِمَّا صَدَقَةً، وَإِمَّا هَدِيَّةً، وَقَدْ يَكُونُ ذَلِكَ مِنْ مَكَّاسٍ، أَوْ وَالِي شُرْطَةٍ، أَوْ نَحْوِ ذَلِكَ، وَهَذَا مَبْسُوطٌ فِي مَوْضِعِهِ، لَا يَسَعُهُ هَذَا المُخْتَصَرُ. وَقَدْ تَقَدَّمَتِ الإِشَارَةُ إِلَى بَعْضِ الأَقْوَالِ الَّتِي فِي تَفْسِيرِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَمْحُوا اللهُ مَا يَشَاءُ وَيُمْسِكُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الكِتَابِ﴾ [الرعد: ٣٩].

وَأَمَّا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿كُلُّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [الرحمن: ٢٩]، قَالَ البَغَوِيُّ (٣): قَالَ مُقَاتِلٌ: نَزَلَتْ فِي اليَهُودِ حِينَ قَالُوا: إِنَّ اللَّهَ لَا يَقْضِي يَوْمَ السَّبْتِ! قَالَ المُفَسِّرُونَ (٤):

(١) يأتي تخرجه قريباً في كلام الشيخ حفظه الله.

(٢) كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: «كنت مع رسول الله ﷺ في سوق من أسواق المدينة...» الحديث، أخرجه البخاري (٥٨٨٤).

(٣) في تفسيره (٢٧٠/٤).

(٤) انظر: تفسير الطبري (١٣٥/٢٧)، وتفسير ابن كثير (٢٧٤/٤).

مِنْ شَأْنِهِ أَنَّهُ يُجِيبُ وَيُجِيبُ، وَيَرْزُقُ، وَيُعِزُّ قَوْمًا وَيُذِلُّ آخَرِينَ، وَيَشْفِي مَرِيضًا، وَيَفُكُ عَانِيًا، وَيُفْرِجُ مَكْرُوبًا، وَيُجِيبُ دَاعِيًا، وَيُعْطِي سَائِلًا، وَيَغْفِرُ ذَنْبًا، إِلَى مَا لَا يُحْصَى مِنْ أَعْمَالِهِ وَإِحْدَاثِهِ فِي خَلْقِهِ مَا يَشَاءُ.

قال الشيخ:

صحيح أن التوكل هو الثقة بالله تعالى مسبب الأسباب، ولكنه سبحانه أمر بتعاطي الأسباب، كما في قوله تعالى: ﴿فَأَمْسُوا فِي مَنَاجِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ﴾ [الملك: ١٥]، هذا سبب، وفي قوله تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ﴾ [الجمعة: ١٠]، هذا من الأسباب، وفي قوله: ﴿وَأَخْرُونَ يَصْرِيُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ﴾ [الزمل: ٢٠]، هذا من الأسباب، لم يقل: اجلسوا في بيوتكم وبأيتكم الطعام والشراب ونحو ذلك؛ لأن هذا من الغرور، أمرنا الله تعالى بأن نتوكل عليه، ونثق بأنه هو الرزاق ذو القوة المتين، ولكن مع ذلك أمرنا بأن نفعل هذه الأسباب.

قوله: (فَإِنَّ الْاِكْتِسَابَ)، الذي هو طلب الرزق، قد يكون فرضًا، وقد يكون مستحبًا، وقد يكون مباحًا، وقد يكون مكروهًا، وقد يكون حرامًا، يعني: أنه تتعلق به الأحكام الخمسة، فالله تعالى أمر المقاتلين بأن يفعلوا الأسباب بقوله: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا حُدُودًا حُدْرَكُمُ﴾ [النساء: ٧١]، يعني: من الكفار تحصنوا، وفي قوله تعالى: ﴿وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ﴾ [النساء: ١٠٢]، وفي قوله: ﴿وَلْيَأْخُذُوا

حَدَّرَهُمْ وَأَسْلَحَتْهُمْ ﴿ [النساء: ١٠٢].

قوله: (وَقَدْ كَانَ النَّبِيُّ ﷺ أَفْضَلَ الْمُتَوَكِّلِينَ)، ومع ذلك كان يلبس لأمة الحرب التي يتقي بها والتي يقاتل بها، وذكر الله أنه كان يمشي في الأسواق للاكتساب، وذكر ذلك أيضًا عن الأنبياء بقوله: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ ﴾ [الفرقان: ٢٠]، حتى قال الكافرون: ﴿ مَا لِهَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ ﴾ [الفرقان: ٧]، فأخبر الله تعالى أن الأنبياء كذلك، وأن هذا سبب من الأسباب.

يقول: (وَلِهَذَا تَجِدُ كَثِيرًا مِمَّنْ بَرَى الْاِكْتِسَابَ يُنَافِي التَّوَكُّلَ يُرْزَقُونَ عَلَى يَدِ مَنْ يُعْطِيهِمْ، إِمَّا صَدَقَةً، وَإِمَّا هَدِيَّةً، وَقَدْ يَكُونُ ذَلِكَ مِنْ مَكَّاسٍ، أَوْ وَالِي شَرْطَةٍ، أَوْ نَحْوِ ذَلِكَ...)، يعني: أن كثيرًا ممن يقولون: نحن متوكلون لا نفعل سببًا، ولا نحرك ساكنًا، ولا نتسبب في طلب الرزق أبدًا لا شك أنهم يحتاجون إلى القوت، والقوت لا ينزل لهم من السماء، لا ينزل من السماء أرغفة، ولا ينزل الله عادة من السماء طعامًا وتمرًا، إنما ينزل المطر الذي جعل الله تعالى فيه هذه البركة، ولكن أمر بالسبب، ولكن ليعرف الإنسان أن هذه الأسباب التي جعلها الله تعالى هو الذي يسببها، ولهذا قال تعالى: ﴿ أَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ ﴾ (٦٣) وَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ وَأَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ ﴿ (٦٤) لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا ﴾ [الواقعة: ٦٣-٦٥]، فأضاف الحرث إليهم:

﴿ تَحْرُثُونَ ﴾، فدل على أنهم هم الذين يحرثون الأرض، وهم الذين يبذرون فيها البذر، وهم الذي يسقونها، والله تعالى هو الذي يسر لهم ذلك، وهو الذي جعل

لهم هذا الماء في هذه الأرض يخرجونه ثم يسقون به حروثهم، أو أنبع الماء لهم حتى إذا نبع ذلك الماء يسقون منه حروثهم وأشجارهم، ولو شاء جعل زرعيهم حطامًا. فهؤلاء الذين يتركون الاكتساب لاشك أنهم مفرطون ومهملون؛ ولهذا روي أن بعض الناس كانوا يُحْجُونَ ولا يَتَزَوَّدُونَ، وَيَقُولُونَ: نَحْنُ الْمُتَوَكِّلُونَ، فَإِذَا قَدِمُوا مَكَّةَ سَأَلُوا النَّاسَ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَتَسَوَّدُوا فَأَبْكَ حَيْرَ الزَّادِ الثَّقَوِيَّ﴾^(١) [البقرة: ١٩٧]، أمرهم بأن يحملوا معهم زادًا، فالذين يتركون الاكتساب يحتاجون إلى عطية، قد يعطيهم ويهدي إليهم بعض أهل المكاسب المحرمة، فيعطيهم من هو صاحب مكس، يعني: مكوسًا يأخذها ضرائب على الناس، أو والي شرطة، أي: الشرطة الذين يعملون بشيء من المعاصي ونحو ذلك.

يقول: (وَقَدْ تَقَدَّمَتِ الْإِشَارَةُ إِلَى بَعْضِ الْأَقْوَالِ الَّتِي فِي تَفْسِيرِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ^ط وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ [الرعد: ٣٩])، أي: في بيان أن الله تعالى مسبب الأسباب، وأنه أمرنا بأن نعمل وأن ذلك مكتوب في أم الكتاب، وأنا نتق بأن الملائكة يكتبون أعمالنا، ثم يمحو الله ما يشاء بالتوبة من السيئات ونحو ذلك، ويثبت التوبة وما أشبه ذلك وعنده أم الكتاب الذي هو اللوح المحفوظ.

(١) أخرجه البخاري (١٥٢٣) عن ابن عباس رضي الله عنهما.

قوله تعالى: ﴿كُلُّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [الرحمن: ٢٩]، أي: أن الله تعالى كل يوم يحدث ما يشاء من الأمور التي أحدثها والتي تتجدد في عبادته، فيرزق قومًا ويسهل لهم الرزق وآخرين يمنعهم، يحيي هؤلاء ويميت هؤلاء، ويعز قومًا ويذل قومًا بإذن الله تعالى، ويتصرف في خلقه كما يشاء، كل هذا داخل في التقدير اليومي، فأخبر سبحانه أنه كل يوم هو في شأن.

قال الطحاوي:

وَمَا أَخْطَأَ الْعَبْدَ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَهُ، وَمَا أَصَابَهُ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَهُ.

قال الشارح:

هَذَا بِنَاءٌ عَلَى مَا تَقَدَّمَ مِنْ أَنَّ الْمَقْدُورَ كَائِنٌ لَا مَحَالَةَ، وَلَقَدْ أَحْسَنَ الْقَائِلُ حَيْثُ يَقُولُ:

مَا قَضَى اللَّهُ كَائِنٌ لَا مَحَالَةَ وَالشَّقِيُّ الْجُهُولُ مَنْ لَامَ حَالَهُ

والقائل الآخر:

أَفْنَعُ بِمَا تُرْزَقُ يَا ذَا الْفَتَى فَلَيْسَ يَنْسَى رَبَّنَا نَمْلَهُ
إِنْ أَقْبَلَ الدَّهْرُ فَنُفْمَ قَائِمًا وَإِنْ تَوَلَّى مُدْبِرًا نَمَ لَهُ

قال الشيخ:

قول الطحاوي - رحمه الله -: (وَمَا أَخْطَأَ الْعَبْدَ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَهُ، وَمَا أَصَابَهُ لَمْ

يَكُنْ لِيُخْطِئَهُ)، مأخوذ من قول النبي ﷺ: «وَتَعَلَّمَ أَنَّ مَا أَصَابَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَكَ

وَأَنَّ مَا أَخْطَأَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَكَ»^(١)، ومع ذلك الإنسان مأمور بأن يتحفظ، ومأمور

بأن يتحصن بقدر ما يستطيع، كما في قول الله تعالى: ﴿خُذُوا حِذْرَكُمْ﴾

[النساء: ٧١]، وقوله تعالى: ﴿وَلِيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ﴾ [النساء: ١٠٢]؛ ولأن النبي ﷺ

(١) تقدم ترجمته (٢/٥٤١).

في القتال ظاهر بين درعين^(١)، وأخذ لأمته؛ كما في قصة خروجه ﷺ يوم أُحُدٍ لَمَّا شَاوَرَ أَصْحَابَهُ فِي الْمَقَامِ فِي الْمَدِينَةِ أَوْ الْخُرُوجِ لِمُلَاقَاةِ الْعَدُوِّ، فَرَأَوْا لَهُ الْخُرُوجَ، فَلَمَّا لَبَسَ لِأُمَّتِهِ وَعَزَمَ قَالُوا: أَقِمْ، فَلَمْ يَمِلْ إِلَيْهِمْ بَعْدَ الْعَزْمِ، وَقَالَ: «لَيْسَ لِنَبِيِّ إِذَا لَبَسَ لِأُمَّتِهِ أَنْ يَضَعَهَا حَتَّى يُقَاتِلَ»^(٢)، ولبس على رأسه المجن الذي هو الترس الذي يقيه من وقع السلاح؛ كما في حديث أنس ﷺ قال: «كَانَ أَبُو طَلْحَةَ يَتَرَسُّ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ بِرُتْسٍ وَاحِدٍ، وَكَانَ أَبُو طَلْحَةَ حَسَنَ الرَّمِيِّ، فَكَانَ إِذَا رَمَى تَشَرَّفَ النَّبِيُّ ﷺ فَيَنْظُرُ إِلَى مَوْضِعِ نَبْلِهِ»^(٣)، وَسُئِلَ سَهْلُ بْنُ سَعْدِ السَّاعِدِيِّ ﷺ عَنْ جُرْحِ النَّبِيِّ ﷺ يَوْمَ أُحُدٍ، فَقَالَ: «جُرْحٌ وَجْهُ النَّبِيِّ ﷺ، وَكُسِرَتْ رَبَاعِيَتُهُ، وَهُسِمَتِ الْبَيْضَةُ عَلَى رَأْسِهِ»^(٤)، وَجَاءَ فِي حَدِيثِ أَنَسٍ ﷺ: «أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ دَخَلَ عَامَ الْفَتْحِ وَعَلَى رَأْسِهِ الْمِغْفَرُ»^(٥).

(١) أخرجه أبو داود (٢٥٩٠)، والنسائي في الكبرى (٨٥٢٩)، وابن ماجه (٢٨٠٦)، وأحمد (٤٤٩/٣) من حديث السائب بن يزيد ﷺ.

(٢) أخرجه النسائي في الكبرى (٧٦٠٠)، وأحمد (٣٥١/٣) من حديث جابر ﷺ. وذكره البخاري معلقاً في كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة - باب قول الله تعالى: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ﴾ (١١٢/٩).

(٣) أخرجه البخاري (٢٩٠٢).

(٤) أخرجه البخاري (٢٩١١)، ومسلم (١٧٩٠).

(٥) أخرجه البخاري (١٨٤٦). والمِغْفَرُ: زَرَدٌ مِنَ الدَّرْعِ يُنْسَجُ عَلَى قَدْرِ الرَّأْسِ يُلْبَسُ تَحْتَ الْقَلَنْسُوءَةِ، وَيُقَالُ: هُوَ رَفْرَفُ الْبَيْضَةِ أَوْ حَلَقٌ يَتَّقَعُ بِهَا التُّسَلُّحُ. انظر: لسان العرب

فكل ذلك من فعل الأسباب، مع الثقة بأن الله إذا قدر المصيبة فلا يردّها شيء، وما أصاب العبد فإنه مكتوب، ولا يقول: ليتني وليتني، وقد جاء في الحديث قول النبي ﷺ: «أَحْرِضْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ، وَأَسْتَعِنْ بِاللَّهِ وَلَا تَعْجِزْ»^(١)، أي: أفعَل الأسباب النافعة ولا تتكاسل ولا تظهر العجز، ثم قال: «وَأَسْتَعِنْ بِاللَّهِ»، أي: أن الله تعالى هو الذي يعينك إذا شاء، «وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ» أي: إذا قدر أنه أصابك ذنب أو أصابتك مصيبة أو حدث حادث أو نحو ذلك، أو فاتك شيء من الفوائد أو نحو ذلك، فلا تتلوم ولا تقل: ليتني فعلت كذا وكذا، ولا تقل: لو أني تقدمت، أو لو أني تأخرت، أو لو أني اشتريت هذا لربحت، أو لو أني بعت في هذا المكان لربحت، ولكن اعلم أن هذا مقدر، وقل: «قَدَّرَ اللَّهُ»، أي: أن هذا قدر الله، «وَمَا شَاءَ فَعَلَ، فَإِنْ لَوْ تَفَتَّحَ عَمَلُ الشَّيْطَانِ».

قوله: (الْمَقْدُورُ كَائِنٌ لَا مَحَالَةَ)، أي: أن المقدر كائن ولو تحصن منه المتحصن لا بد أنه يحصل، فما قدره الله فإنه حاصل، وما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، فكل شيء كتبه الله وقدره فلا بد أن يحصل، ولو حصل ضد ذلك المقدر كائن.

وقول القائل:

مَا قَضَى اللَّهُ كَائِنٌ لَا مَحَالَةَ وَالشَّقِيُّ الْجَهْلُ مَنْ لَامَ حَالَهُ
أي: أن كل ما قدره الله بأنه كائن، فلا محالة من كينونته، ولا محالة من

(٢٧/٥)، والقاموس المحيط (٥٨٠)، وتاج العروس (٢٤٨/١٣).

(١) تقدم تخريجه (٥٢٨/١).

وقوعه، أما الشقي الجهول فإنه الذي يتلوم، يلوم حالته التي وقعت له، هذا يعتبر جهولاً.

وأنشد أيضاً الشارح قول الآخر:

افْتَحْ بِمَا تُرْزَقُ يَا ذَا الْفَتَى فَلَيْسَ يَنْسَى رَبُّنَا نَمْلَهُ
إِنْ أَقْبَلَ الدَّهْرُ فِقْمَ قَائِمًا وَإِنْ تَوَلَّى مُدْبِرًا نَمَّ لَهُ

القناعة: كون الإنسان يرضى بما أعطاه الله تعالى، مع كونه يسعى في طلب

الرزق، ويعلم ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ [الذاريات: ٥٨]، قال الله تعالى:

﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود: ٦]، وقال: ﴿وَكَايُنَ مِنْ دَابَّةٍ

لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ﴾ [العنكبوت: ٦٠]، ولما قال النبي ﷺ: «لَوْ

أَنْتُمْ كُنْتُمْ تَوَكَّلُونَ عَلَى اللَّهِ حَقَّ تَوَكُّلِهِ لَرَزَقَكُمْ كَمَا يَرْزُقُ الطَّيْرَ، تَغْدُو خِمَاصًا

وَتَرَوْحَ بَطَانًا»^(١)، عرفوا بأن الطير تتسبب، فالطير لا تجلس في أوكارها ولا في

أعشاشها، بل تذهب وتتلمس الرزق وتتطلب، وكذلك بقية الحيوانات تتطلب

الرزق، حتى السباع لا تجلس في جحرها، وحتى الدواب لا تجلس في جحورها،

فالضب - مثلاً - والأرنب والوبر واليربوع تنتشر في الأرض تطلب الرزق، ومع

ذلك فإن الله تعالى هو الذي يرزقها، فيقول: (فَلَيْسَ يَنْسَى رَبُّنَا نَمْلَهُ)، أي:

واحدة النمل.

(١) أخرجه الترمذي (٢٣٤٤)، والنسائي في الكبرى (١١٨٠٥)، وابن ماجه (٤١٦٤)، وأحمد

(٣٠/١)، وابن حبان (٥٠٩/٢) من حديث عمر بن الخطاب .

وقوله: (إِنْ أَقْبَلَ الدَّهْرُ فُكْمًا قَائِمًا)، الدهر: المراد به هنا الزمان أو الحظ إذا أقبل عليك، فإنك تقبل وتتلقى ما قدر الله وما أعطاك الله، حتى يكتب لك وتحصل على ما كتب الله، فإذا أقبلت عليك الدنيا وتيسرت لك أسبابها فإنك تتقبل ذلك وترضى به، وتفعل ما تقدر عليه، وإذا تولت عنك الدنيا فتم ولا تهتم، ولا تقل: ليتني وليتني، أو فاتني كذا وفاتني كذا، وهذا كله لا يدل على ترك الأسباب، إنما الله تعالى أمرنا بأن نفعل الأسباب، ونثق بأن الله تعالى هو مسبب الأسباب، وهو الذي جعلها مؤثرة ومفيدة، وإذا فعلنا أي سبب فإن الله تعالى هو الذي ينفع بهذه الأسباب.

قال الطحاوي:

وَعَلَى الْعَبْدِ أَنْ يَعْلَمَ أَنَّ اللَّهَ قَدْ سَبَقَ عِلْمُهُ فِي كُلِّ كَائِنٍ مِنْ خَلْقِهِ، فَقَدَّرَ ذَلِكَ تَقْدِيرًا مُحْكَمًا مُبْرَمًا، لَيْسَ فِيهِ نَاقِضٌ، وَلَا مُعَقَّبٌ، وَلَا مُزِيلٌ، وَلَا مُغَيِّرٌ، وَلَا مُحَوِّلٌ، وَلَا نَاقِضٌ، وَلَا زَائِدٌ مِنْ خَلْقِهِ فِي سَمَوَاتِهِ وَأَرْضِهِ.

قَالَ الشَّارِحُ:

هَذَا بِنَاءٌ عَلَى مَا تَقَدَّمَ، مِنْ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ سَبَقَ عِلْمُهُ بِالْكَائِنَاتِ، وَأَنَّهُ قَدَّرَ مَقَادِيرَهَا قَبْلَ خَلْقِهَا، كَمَا قَالَ ﷺ: «قَدَّرَ اللَّهُ مَقَادِيرَ الْخَلْقِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ، وَعَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ»^(١)، فَيَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ قَدْ عَلِمَ أَنَّ الْأَشْيَاءَ تَصِيرُ مَوْجُودَةً لِأَوْقَاتِهَا، عَلَى مَا اقْتَضَتْهُ حِكْمَتُهُ الْبَالِغَةُ، فَكَانَتْ كَمَا عَلِمَ، فَإِنَّ حُصُولَ الْمَخْلُوقَاتِ عَلَى مَا فِيهَا مِنْ غَرَائِبِ الْحِكْمِ لَا يُتَصَوَّرُ إِيجَادَهَا إِلَّا مِنْ عَالِمٍ قَدْ سَبَقَ عِلْمُهُ عَلَى إِيجَادِهَا، قَالَ تَعَالَى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤].

وَأَنْكَرَ غُلَاةَ الْمُعْتَزِلَةِ أَنَّ اللَّهَ كَانَ عَالِمًا فِي الْأَزَلِ، وَقَالُوا: إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَا يَعْلَمُ أَفْعَالَ الْعِبَادِ حَتَّى يَفْعَلُوهَا! تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوهَا كَبِيرًا. قَالَ الْإِمَامُ الشَّافِعِيُّ - رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى -: «نَاطِرُوا الْقَدْرِيَّةَ بِالْعِلْمِ، فَإِنْ أَقْرُوا بِهِ خُصْمُوا، وَإِنْ

أَنْكُرُوا كَفَرُوا»^(١)، فَاللَّهُ تَعَالَى يَعْلَمُ أَنَّ هَذَا مُسْتَطَبٌ يَفْعَلُ مَا اسْتَطَاعَهُ فَيُسَبِّحُهُ، وَهَذَا مُسْتَطَبٌ لَا يَفْعَلُ مَا اسْتَطَاعَهُ فَيُعَذِّبُهُ، فَإِنَّمَا يُعَذِّبُهُ؛ لِأَنَّهُ لَا يَفْعَلُ مَعَ الْقُدْرَةِ، وَقَدْ عَلِمَ اللَّهُ ذَلِكَ مِنْهُ، وَمَنْ لَا يَسْتَطِيعُ لَا يَأْمُرُهُ وَلَا يُعَذِّبُهُ عَلَى مَا لَمْ يَسْتَطِعْهُ.

وَإِذَا قِيلَ: فَيَلْزِمُ أَنْ يَكُونَ الْعَبْدُ قَادِرًا عَلَى تَغْيِيرِ عِلْمِ اللَّهِ؛ لِأَنَّ اللَّهَ عَلِمَ أَنَّهُ لَا يَفْعَلُ، فَإِذَا قَدَرَ عَلَى الْفِعْلِ، قَدَرَ عَلَى تَغْيِيرِ عِلْمِ اللَّهِ.

قِيلَ: هَذِهِ مَغْلَطَةٌ، وَذَلِكَ أَنَّ مُجَرَّدَ قُدْرَتِهِ عَلَى الْفِعْلِ لَا تَسْتَلْزِمُ تَغْيِيرَ الْعِلْمِ، وَإِنَّمَا يَنْظُنُّ مَنْ يَنْظُنُّ تَغْيِيرَ الْعِلْمِ إِذَا وَقَعَ الْفِعْلُ، وَلَوْ وَقَعَ الْفِعْلُ، لَكَانَ الْمَعْلُومُ وَقُوعَهُ لَا عَدَمَ وَقُوعَهُ، فَيَمْتَنِعُ أَنْ يَحْضَلَ وَقُوعُ الْفِعْلِ مَعَ عِلْمِ اللَّهِ بِعَدَمِ وَقُوعِهِ، بَلْ إِنْ وَقَعَ، كَانَ اللَّهُ قَدْ عَلِمَ أَنَّهُ يَقَعُ، وَإِنْ لَمْ يَقَعِ، كَانَ اللَّهُ قَدْ عَلِمَ أَنَّهُ لَا يَقَعُ، وَنَحْنُ لَا نَعْلَمُ عِلْمَ اللَّهِ إِلَّا بِمَا يَظْهَرُ، وَعِلْمُ اللَّهِ مُطَابِقٌ لِلْوَاقِعِ، فَيَمْتَنِعُ أَنْ يَقَعَ شَيْءٌ يَسْتَلْزِمُ تَغْيِيرَ الْعِلْمِ، بَلْ أَيُّ شَيْءٍ وَقَعَ كَانَ هُوَ الْمَعْلُومَ، وَالْعَبْدُ الَّذِي لَمْ يَفْعَلْ لَمْ يَأْتِ بِمَا يُغَيِّرُ الْعِلْمَ، بَلْ هُوَ قَادِرٌ عَلَى فِعْلٍ لَمْ يَقَعِ، وَلَوْ وَقَعَ، لَكَانَ اللَّهُ قَدْ عَلِمَ أَنَّهُ يَقَعُ، لَا أَنَّهُ لَا يَقَعُ.

وَإِذَا قِيلَ: فَمَعَ عَدَمِ وَقُوعِهِ يَعْلَمُ اللَّهُ أَنَّهُ لَا يَقَعُ، لَوْ قَدَرَ الْعَبْدُ عَلَى وَقُوعِهِ، قَدَرَ عَلَى تَغْيِيرِ الْعِلْمِ؟ قِيلَ: أَيْسَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ، بَلِ الْعَبْدُ يَقْدِرُ عَلَى وَقُوعِهِ وَهُوَ لَمْ يُوقِعْهُ، وَلَوْ أَوْقَعَهُ، لَمْ يَكُنِ الْمَعْلُومُ إِلَّا وَقُوعَهُ، فَمَقْدُورُ الْعَبْدِ إِذَا وَقَعَ، لَمْ يَكُنِ الْمَعْلُومُ إِلَّا وَقُوعَهُ، وَهُوَ لِأَنَّ فَرَضُوا وَقُوعَهُ مَعَ الْعِلْمِ بِعَدَمِ وَقُوعِهِ! وَهُوَ فَرَضُ

مُحَالٌّ، وَذَلِكَ بِمَنْزِلَةِ مَنْ يَقُولُ: افْرِضْ وَقُوعَهُ مَعَ عَدَمِ وَقُوعِهِ! وَهُوَ جَمْعٌ بَيْنَ النَّقِضَيْنِ.

فَإِنْ قِيلَ: فَإِذَا كَانَ وَقُوعُهُ مَعَ عِلْمِ الرَّبِّ بِعَدَمِ وَقُوعِهِ مُحَالًّا لَمْ يَكُنْ مَقْدُورًا؟
قِيلَ: لَفْظُ الْمُحَالِّ مُجْمَلٌ، وَهَذَا لَيْسَ مُحَالًّا لِعَدَمِ اسْتِطَاعَتِهِ لَهُ، وَلَا لِعَجْزِهِ عَنْهُ،
وَلَا لِامْتِنَاعِهِ فِي نَفْسِهِ، بَلْ هُوَ مُمَكِّنٌ مَقْدُورٌ مُسْتَطَاعٌ، وَلَكِنْ إِذَا وَقَعَ، كَانَ اللَّهُ
عَالِمًا بِأَنَّهُ سَيَقَعُ، وَإِذَا لَمْ يَقَعْ، كَانَ عَالِمًا بِأَنَّهُ لَا يَقَعُ، فَإِذَا فُرِضَ وَقُوعُهُ مَعَ انْتِفَاءِ
لَا زِمِ الْوُقُوعِ، صَارَ مُحَالًّا مِنْ جِهَةِ إِبْتِهَاتِ الْمَلْزُومِ بِدُونِ لَازِمِهِ. وَكُلُّ الْأَشْيَاءِ بِهَذَا
الِاعْتِبَارِ هِيَ مُحَالٌّ!

وَمِمَّا يَلْزِمُ هَؤُلَاءِ: أَنْ لَا يَبْقَى أَحَدٌ قَادِرًا عَلَى شَيْءٍ، لَا الرَّبُّ، وَلَا الْخَلْقُ، فَإِنَّ
الرَّبَّ إِذَا عَلِمَ مِنْ نَفْسِهِ أَنَّهُ سَيَفْعَلُ كَذَا لَا يَلْزِمُ مِنْ عِلْمِهِ ذَلِكَ انْتِفَاءُ قُدْرَتِهِ عَلَى
تَرْكِهِ، وَكَذَلِكَ إِذَا عَلِمَ مِنْ نَفْسِهِ أَنَّهُ لَا يَفْعَلُهُ لَا يَلْزِمُ مِنْهُ انْتِفَاءُ قُدْرَتِهِ عَلَى فِعْلِهِ،
فَكَذَلِكَ مَا قَدَّرَهُ مِنْ أَفْعَالِ عِبَادِهِ. وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ.

قال الشيخ:

الكلام الأول يتعلق بعلم الله تعالى بالأشياء قبل وقوعها، ويسمى هذا
التقدير العام، وهو أن الله تعالى علم ما الخلق عاملون بعلمه القديم الذي سبق
كل شيء، فعلم أعمالهم، وعلم عددهم، وعلم عدد المخلوقات، وأحصى ذلك
قبل أن يوجدوا، وخلق القلم وأمره أن يكتب؛ وجرى في تلك الساعة بما هو
كائن إلى يوم القيامة.

ودليل ذلك من القرآن ظاهر مثل قول الله تعالى: ﴿ مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا ﴾ [الحديد: ٢٢]، ومثل قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ [الحج: ٧٠]، ومثل قوله تعالى: ﴿ وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظِلْمَتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَأْسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴾ [الأنعام: ٥٩].
والآيات في هذا كثيرة تفيد سعة علم الله بالأشياء قبل وجودها.

وذكر الشارح أن غلاة المعتزلة المتقدمين أنكروا هذا النوع، وزعموا أن الله لا يعلم الأشياء حتى توجد، وقال بعضهم: إنه يعلم الكليات ولا يعلم الجزئيات، ويعلم عموم الأشياء ولا يعلم تفاصيلها. ومقتضى هذا أنه يعلم عدد الخلق، ولكن لا يعلم تفاصيل أعيانهم، فيعلم أن هذه القبيلة يبلغ عددها كذا وكذا، ولا يعلم أعمال هذا الإنسان حتى يعملها، وهذا يُعدّ تنقّصاً لعلم الله، والله بكلّ شيء عليم، والله هو علام الغيوب، وهؤلاء الذين أنكروا العلم السابق والعلم الأزلي، هم الذين عناهم الإمام الشافعي - رحمه الله - بقوله: «ناظرُوا الْقَدْرِيَّةَ بِالْعِلْمِ، فَإِنْ أَقْرَوْا بِهِ خُصْمُوا، وَإِنْ أَنْكَرُوا كَفَرُوا». يعني: نسألهم: هل تقرّون بأن الله بكلّ شيء عليم؟ وما قد كان وما سيكون وما لم يكن لو كان كيف يكون؟ هل تقرّون بسعة علم الله تعالى؟ فإن أقروا خصموا، فإن العلم بالتفاصيل داخل في ذلك. وإن جحدوا كفروا؛ وذلك لأنهم إذا جحدوا علم الله تعالى

لزمهم أن يصفوه بالعجز وبالجهل، وبأنه يكون في الوجود والملك ما لا يريد، فيلزم بذلك التنقص، وهذا إنكارٌ للأدلة؛ فيكونون بذلك كفارًا جاحدين لصفات الله تعالى.

وقد أقرّ الأشعرية بوصف الله تعالى بأنه عليم، ولكنهم أنكروا بعض الصفات الفعلية. أمّا المعتزلة: فأنكروا صفة العلم لله سبحانه وتعالى، ووصفوه بأنه لا يجهل، هكذا في معتقداتهم، بعد ذلك أخذوا يردّدون شبهات، فيقولون: إذا علم الله أن هذا الإنسان يعمل كذا، وأنه يعمل كذا، فلا بدّ أن يكون قادرًا على أن يردّه، وأصبح قد رضي بأفعاله التي هي المعاصي، وإذا لم يكن قادرًا أصبح موصوفًا بالعجز، وأشباه ذلك مما مر معنا من هذه التشكيكات التي يردّدونها على أهل السنة، الذين يصفون الله تعالى بالعلم القديم، وقد سبق جواب أهل السنة عليهم، فإن أهل السنة يقولون: إن كل ما وقع فإنه مُراد، ولكن منها ما هو مراد ومحجوب كالطاعات، ومنها ما هو مُراد ومقدّر كالمعاصي، فالمراد المقدر علمه الله وقدره وقضاه على العبد، ولكنه كرهه شرعًا، ولم يحبه، وتوعدّ فاعله عليه، والعبد إذا زاوله يوصف بأنه كافر، أو بأنه عاصٍ أو فاسق، أو خاطئ أو مذنب؛ لأنه ارتكب هذا وفعله بقدره واختيار مستطاع له، فهو الذي يُعاتب ويُعاقب عليه. هذا هو معتقد أهل السنة في هذا؛ ولا يلزم من ذلك أنه خلق الشرّ وأنه أراد به لا يلزم من إرادته كونًا أن يحبه، وأن يقدره، وأن يريده شرعًا.

والله تعالى أعطى العبد قدرة يستطيع بها مزاوله أعماله، فالعبد هو المؤمن والكافر، والبرّ والفاجر، والمصلّي والنائم، والمعبد قسرة على أفعالهم، ولهم

إرادة، ولكن الله تعالى هو الذي خلقهم وخلق قدرتهم وإرادتهم، ولو شاء لهداهم، ولكنه بحكمته البالغة أضلَّ قومًا بعدله، وهدى قومًا بفضله، فله النعمة على من هداه، وله الحكمة على من أضله، وأعطى كلاً منهم من الاستطاعة ما يزاول به أعماله، وهذا مما يذكر في الردّ على هؤلاء الذين يطيلون الجدل في مثل علم الله تعالى وإرادته، فنحن إذا قلنا: إن جميع ما في الوجود مرادٌ قدره، وكلُّ ما هو حادث فهو معلوم لله قبل أن توجد المخلوقات، ومرادٌ كونًا وقدرًا، بحيث إن الله قدره، وإنه لو شاء ما حصلت هذه الأشياء، فإنه سبحانه بقدرته لا يمكن أن توجد معصيةٌ قسراً عليه من دون رضاه، أو دون تقديره، ولكنه لحكمته جعل هؤلاء من أهل الذنوب وهؤلاء من أهل الحسنات حكمةً منه، ولا شك أن الذين اختاروا هذا، والذين اختاروا هذا لهم من هذا الاختيار ما يؤهل هؤلاء ليستحقوا الثواب، وهؤلاء ليستحقوا العقاب، وحكمة الله تعالى خفية لا يطلع عليها العباد. هذه الدرجة التي ذكرنا، أو هذه المنزلة التي هي العلم السابق هو الذي لا يتغير، يعني: يقال ما كتبه الله في اللوح المحفوظ لا يمكن تغييره، يقول الله تعالى: ﴿ قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا ﴾ [التوبة: ٥١]، هذا في المصائب، ويقول تعالى: ﴿ لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ ﴾ [الحديد: ٢٣].

ويقول علقمة - رحمه الله - في قوله تعالى: ﴿ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ ﴾

[التغابن: ١١]: هو الرجل تصيبه مصيبة، فيعلم أنها من عند الله فيرضى ويسلم،

يعني: يستسلم لما أصابه بقضاء الله تعالى ويقدره، فيكون بذلك قد اتقى الله حق تقاته، وقد علم أن ما حدث فهو بأمر الله تعالى ويتقديره، وفعل ما يقدر عليه، وما هو مأمورٌ به، واستسلم لأمر الله تعالى.

وتقدّم لنا وتكرّر أنّ إيماننا بالقضاء والقدر لا يستلزم أن نترك الأسباب والأفعال والأعمال التي نعملها، كما أنّنا لا نترك الأسباب الحسيّة في طلب المعاش، فكذلك في طلب الأجر الأخروي، والحسنات الأخروية، فالعبد مأمور أن يفعلها، مع إيمانه بآتمها مقدرة، وآتمها ستأتيه، ولكنّه مأمور بذلك، ويؤمن بأنّ المصائب التي حصلت عليه لا بدّ منها؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٥٤]، ولقوله: ﴿أَتِنَّمَا تَكُونُوا يَدْرِكَكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّسَيَّدَةٍ﴾ [النساء: ٧٨]، يعني: الذين قالوا: ﴿رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ [النساء: ٧٧]، فبين أنّ التحصّن لا يمنع قدر الله الذي قدره.

فعلى كل حال هذه الدرجة تقتضي الإيمان بسعة علم الله تعالى، وواسع علمه بتفاصيل المخلوقات لا ينافي فعل الأسباب وحدوث المسببات بعد أسبابها.

قال الطحاوي:

وَذَلِكَ مِنْ عَقْدِ الْإِيمَانِ، وَأَصُولِ الْمَعْرِفَةِ، وَالْإِعْتِرَافِ بِتَوْحِيدِ اللَّهِ تَعَالَى
وَرُبُوبِيَّتِهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي كِتَابِهِ: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدْ رُحَقَتْ بِقَدَرِهِ﴾ [الفرقان: ٢]، وَقَالَ
تَعَالَى: ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُونًا﴾ [الأحزاب: ٣٨].

قال الشارح:

الْإِشَارَةُ إِلَى مَا تَقَدَّمَ مِنَ الْإِيمَانِ بِالْقَدَرِ، وَسَبَقَ عِلْمُهُ بِالْكَائِنَاتِ قَبْلَ خَلْقِهَا،
قَالَ ﷺ فِي جَوَابِ السَّائِلِ عَنِ الْإِيمَانِ: «أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ
وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ»، وَقَالَ ﷺ فِي آخِرِ الْحَدِيثِ: «يَا عُمَرُ،
أَتَدْرِي مِنَ السَّائِلِ؟» قَالَ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: فَإِنَّهُ جَبْرِيلُ، أَتَاكُمْ يُعَلِّمُكُمْ
دِينَكُمْ»، رَوَاهُ مُسْلِمٌ^(١).

قال الشيخ:

قول الشارح: (الْإِشَارَةُ إِلَى مَا تَقَدَّمَ مِنَ الْإِيمَانِ بِالْقَدَرِ)، يعني: الإشارة
بقوله: (وَذَلِكَ مِنْ عَقْدِ الْإِيمَانِ)، ثم استدل على أنه من الإيمان بقطعة من حديث
جبريل - عليه السلام - وهو قوله ﷺ: «أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ
الْآخِرِ وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ»، ثم قال في آخر الحديث: «يَا عُمَرُ أَتَدْرِي مَنْ

السَّائِلُ؟» قال: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قال: «فَإِنَّهُ جَزِيلٌ أَتَاكُمْ يُعَلِّمُكُمْ دِينَكُمْ». وهذا صريح في أن الإيمان بالقدر ركن من أركان الإيمان لا يتم الإيمان إلا به، بأن يؤمن العبد أن الله تعالى على كل شيء قدير، وهو معنى ما روي عن الإمام أحمد - رحمه الله - أنه قال: «القدر قدرة الله»^(١)، أي: أنه الذي قدر ذلك، فإذا آمن العبد بأنه على كل شيء قدير آمن بأن الله قدّر كل شيء، وأنه قادر على كل شيء، فيدخل في ذلك أفعال العباد، بمعنى أنه سبحانه قادر على أن يهدي من يشاء، ويضل من يشاء، وأن أفعالهم داخلة في قدرة الله تعالى.

ودليل ذلك قوله تعالى: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ قَدْرَهُ نَقْدِيرًا﴾ [الفرقان: ٢]، خلق كل شيء حتى حركات العباد التي هي أفعالهم فهي خلقه - سبحانه - وتقديره؛ وكذلك قوله تعالى: ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدْرًا مَقْدُورًا﴾ [الأحزاب: ٣٨]، أي: ما أمر به فإنه مقدر لا بد أن يكون فيؤمن العباد بقضاء الله تعالى وبقدره، ويعلمون أن كل ما في الوجود فإنه كائن بقضاء الله تعالى وقدره.

(١) أخرجه ابن بطّة في الإبانة (٢/٢٦٢)، وذكره شيخ الإسلام ابن تيمية في منهاج السنة النبوية (٣/٢٥٤)، وابن القيم في شفاء العليل (ص ٢٨)، وطريق المهجرتين (ص ١٦٣).

قال الطحاوي:

وَالْإِعْتِرَافُ بِتَوْحِيدِ اللَّهِ وَرُبُوبِيَّتِهِ.

قال الشارح:

أَي: لَا يَتِمُّ التَّوْحِيدُ وَالْإِعْتِرَافُ بِالرُّبُوبِيَّةِ إِلَّا بِالْإِيمَانِ بِصِفَاتِهِ تَعَالَى، فَإِنَّ مَنْ زَعَمَ خَالِقًا غَيْرَ اللَّهِ، فَقَدْ أَشْرَكَ، فَكَيْفَ بِمَنْ يَزْعُمُ أَنَّ كُلَّ أَحَدٍ يَخْلُقُ فِعْلَهُ؟ وَهَذَا كَانَتْ الْقَدْرِيَّةُ مَجُوسَ هَذِهِ الْأُمَّةِ، وَأَحَادِيثُهُمْ فِي «السَّنَنِ».

رَوَى أَبُو دَاوُدَ^(١) عَنْ ابْنِ عُمَرَ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «الْقَدْرِيَّةُ مَجُوسُ هَذِهِ الْأُمَّةِ، إِنْ مَرَضُوا، فَلَا تَعُودُوهُمْ، وَإِنْ مَاتُوا، فَلَا تَشْهَدُوهُمْ».

وَرَوَى أَبُو دَاوُدَ^(٢) أَيْضًا عَنْ حُذَيْفَةَ بْنِ الْيَمَانِ ؓ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لِكُلِّ أُمَّةٍ مَجُوسٌ، وَمَجُوسُ هَذِهِ الْأُمَّةِ الَّذِينَ يَقُولُونَ: لَا قَدَرَ، مَنْ مَاتَ مِنْهُمْ، فَلَا تَشْهَدُوا جَنَازَتَهُ، وَمَنْ مَرِضَ مِنْهُمْ فَلَا تَعُودُوهُمْ، وَهُمْ شِيعَةُ الدَّجَالِ، وَحَقُّ عَلَى اللَّهِ أَنْ يُلْحِقَهُمُ بِالْدَّجَالِ».

وَرَوَى أَبُو دَاوُدَ^(٣) أَيْضًا عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ ؓ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «لَا تُجَالِسُوا أَهْلَ الْقَدْرِ وَلَا تُفَاتِحُوهُمْ».

(١) برقم (٤٦٩١).

(٢) برقم (٤٦٩٢)، وأخرجه أحمد (٥/٤٠٧).

(٣) برقم (٤٧١٠، ٤٧٢٠)، وأخرجه أحمد (١/٣٠).

وَرَوَى التِّرْمِذِيُّ^(١) عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «صِنْفَانِ مِنْ بَنِي آدَمَ لَيْسَ لَهُمَا فِي الْإِسْلَامِ نَصِيبٌ: الْمُرْجِئَةُ وَالْقَدَرِيَّةُ».

لَكِنَّ كُلَّ أَحَادِيثِ الْقَدَرِيَّةِ الْمَرْفُوعَةِ ضَعِيفَةٌ، وَإِنَّمَا يَصِحُّ الْمَوْقُوفُ مِنْهَا، فَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - أَنَّهُ قَالَ: «الْقَدَرُ نِظَامُ التَّوْحِيدِ، فَمَنْ وَحَدَّ اللَّهُ، وَكَذَّبَ بِالْقَدَرِ، نَقَضَ تَكْذِيبُهُ تَوْحِيدَهُ»^(٢)، وَهَذَا لِأَنَّ الْإِيمَانَ بِالْقَدَرِ يَتَضَمَّنُ الْإِيمَانَ بِعِلْمِ اللَّهِ الْقَدِيمِ، وَمَا أَظْهَرَ مِنْ عِلْمِهِ بِخَطَابِهِ وَكِتَابِهِ مَقَادِيرَ الْخَلَائِقِ، وَقَدْ ضَلَّ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ خَلَائِقُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَالصَّابِئِينَ وَالْفَلَاسِقَةَ وَغَيْرِهِمْ، مِمَّنْ يُنْكِرُ عِلْمَهُ بِالْجُرْئِيَّاتِ أَوْ بغيرِ ذَلِكَ، فَإِنَّ ذَلِكَ كُلَّهُ مِمَّا يَدْخُلُ فِي التَّكْذِيبِ بِالْقَدَرِ.

قال الشيخ:

ذكر الشارح فيما تقدم أن الإيمان بالقدر من تمام الإيمان بصفات الله تعالى، وأن من الواجب على الإنسان أن يؤمن بصفات الله، فيؤمن بأنه العليم والحكيم، وبأنه المدبر والمتصرف في الخلق، وذلك كله يتوقف على الإيمان بالقدر؛ لأن القدر يدخل فيه قدرة الله، ويدخل فيه علم الله، فإنكار قدرة الله تعالى إنكار لصفاته،

(١) برقم (٢١٤٩)، وأخرجه ابن ماجه (٦٢).

(٢) أخرجه الطبراني في الأوسط (٤/٤٥) مرفوعاً عن ابن عباس رضي الله عنهما. قال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٩٧/٧): «رواه الطبراني في الأوسط وفيه هانئ بن التوكل وهو ضعيف». وأخرجه ابن المستفاض في القدر (ص ٢٨٥)، والآجري في الشريعة (٢/٨٧٦)، واللالكائي في أصول اعتقاد أهل السنة (٤/٦٧٠) موقوفاً على ابن عباس رضي الله عنهما.

ووصف له بالعجز سبحانه وتعالى، وبأنه يكون معه من يتصرف في الكون دون رضاه، وذلك شرك. كذلك إنكار علم الله وصف له تعالى بالجهل، وذلك أيضًا تنقص، غاية التنقص لصفات الله تعالى.

فمن آمن بأن الله على كل شيء قدير، وأن الله بكل شيء عليم، وآمن بأنه عزيزٌ حكيم، وبأنه هو الذي نظم الخلق، وهو الذي يتصرف في الكون وحده، وهو الذي يعلم السعيد والشقي، والفاجر والتقي، وهو الذي قدر المقادير وأوجدها؛ فيلزم في الحال هذه أن يعلم أن هذه المصائب التي تحدث تحدث بعلم الله، وأنها متى وقعت فليس منها مفرٌ ولا محيد، ولأجل ذلك أمر النبي ﷺ بالإيمان بهذا الأمر بقوله: «وَتُؤْمِنُ بِالْقَدْرِ خَيْرُهُ وَشَرُّهُ»^(١). وقال لابن عباس - رضي الله عنهما - في حديثه المشهور: «وَأَعْلَمُ أَنَّ الْأُمَّةَ لَوْ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْقَعُوا بِشَيْءٍ لَمْ يَنْقَعُوا إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ لَكَ، وَلَوْ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ، رُفِعَتِ الْأَقْلَامُ وَجَفَّتِ الصُّحُفُ»^(٢)، يعني: ليست الصحف مما كتب فيها، ورفعت الأقلام: فلم يبق كتابة، بل الأمر قد فرغ منه، وقد عرف أهل الجنة من أهل النار.

فالإيمان بالقدر من تمام الإيمان بالله تعالى، والذين أنكروه صنفان: صنف أنكروا العلم، وصنف أنكروا القدرة؛ فالذين أنكروا العلم هم غلاة القدرية

(١) تقدم تحريجه (٥٨٥/٢).

(٢) تقدم تحريجه (٥٤٧/١).

الذين يقولون: إن الله لا يعلم الأشياء حتى توجد، أو أنه يعلم الكليات دون الجزئيات، ومنهم عمرو بن عبيد، وغيلان القدري، ومعبد الجهمي، ثم جاء بعدهم الذين أنكروا قدرة الله عمومًا، واشتهر ذلك عن المعتزلة، ومنهم أبو الهذيل العلاف المعتزلي، وأبو هاشم الجبائي، والقاضي عبد الجبار الهمداني، والجاحظ المشهور، وأشباههم... هؤلاء من المعتزلة أنكروا قدرة الله، ولأجل ذلك قال الإمام أحمد - رحمه الله -: «القدر قدرة الله»، يعني: أن الإيمان بقدرة الله إيمان بالقدر، وعلى قول هؤلاء المعتزلة يكون هناك من يخلق مع الله، ولا يكون الله هو الذي يخلق وحده.

عقيدة المعتزلة أن كل إنسان يخلق فعله، وأن الله لا يقدر على أفعال العباد، وأنه لا يستطيع أن يهدي هذا ولا يضلُّ هذا، وأن قدرة العبد تغلب قدرة الله، وإذا أراد العبد أن يعصي، وأراد الله ألا يعصي؛ غلبت قدرة العبد على قدرة الخالق تعالى. فهذا هو معتقدهم في أن العبد يخلق أفعاله دون أن يكون لله قدرة على رده، ويزعمون أن هذا هو العدل، ويقولون: إنه لو خلق الأفعال في العبد، ثم عذبه عليها عدُّ ظالمًا له، هذا سبب غلوهم في القدر، حتى جعلوا هناك من يخلق مع الله تعالى، ولم يجعلوا الخلق والأمر لله، خالفوا قول الله تعالى: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤]، فالخلق لله وحده، والأمر الذي هو الشرع لله وحده.

ولأجل ذلك وردت هذه الأحاديث في أن القدرة مجوس هذه الأمة، ومع أنها مروية بالإسناد، إلا أن فيها مقالًا؛ وإنما الصحيح الموقوف من كلام الصحابة،

وكلام الصحابة - رضي الله عنهم - معتبر، وكذلك تلاميذ الصحابة - رضي الله عنهم - كلامهم معتبر؛ وذلك لأنهم هم الذين شاهدوا نزول الوحي، وهم الذين نقلوا لنا الشرع عن النبي ﷺ، فإذا حذرونا عن هؤلاء القدرية وقالوا: إنهم يجعلون مع الله من يخلق، وأنهم مجوس هذه الأمة، لم يقولوا ذلك إلا عن توقيف، ولا بد أنهم عرفوا ذلك عن طريق الرسول ﷺ، وعن طريق شريعته. هذا هو السبب في كون أقوالهم أصبحت معتبرة.

ومعنى كون القدرية مجوس هذه الأمة: أن المجوس - كما تقدم في أول الكتاب، ويسمّون أيضًا: الثنوية - لأنهم شابهوا المجوس الذين يدعون أن الخلق صدر عن اثنين: النور خلق الخير، والظلمة خلقت الشر، وهؤلاء يقولون: إن الله هو الذي خلق الإنسان، ولكن الإنسان يخلق أعماله وأفعاله، فيجعلون مع الله من يخلق، ولا يجعلون الأفعال مخلوقة لله تعالى، ويخالفون قول الله تعالى: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [الصفات: ٩٦].

وتقدم أنهم يخشون بذلك أن يحتجّ محتجّ بالقدر على المعاصي، يقول العلماء: إنهم لما اعتقدوا هذا الاعتقاد السيئ، وهو أن العبد هو المستقلّ بفعله، وأن الله ليس بقادر على أن يخلق أفعال العباد، لا خيرًا ولا شرًا، خلى الشيطان بينهم وبين الأعمال، فأصبحوا يتعبّدون ويكثرون من التمسك بالعبادات، ويأتون بأنواع التفلّ والقربات، ويتعدون عن المحرّمات صغائرهما وكبائرهما؛ لأن من عقيدتهم أن الإصرار على الصغيرة يُصيرها كبيرة، وأن الكبائر مُخرجة من الملة، ومن

عقيدتهم التكفير بالكبائر، وأنَّ الكبيرة توجب الخلود في النَّار، ويسمى ذلك «إنفاذ الوعيد»، فمن توعدَّه الله بأيِّ عذاب، فإنَّه يُحكم بخلوده في النَّار، فأهل المعاصي عندهم مَخْلَدُونَ في النَّار، لا يخرجون منها، ويستدلون بمثل قول الله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُخْرَجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُمْ بِمُخْرَجِينَ مِنْهَا﴾ [المائدة: ٣٧]، وبقوله: ﴿كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يُخْرَجُوا مِنْهَا مِنْ غَيْرِ أُعِيدُوا فِيهَا﴾ [الحج: ٢٢]، وما علموا أنَّ هذه الآيات للكفار الذين حكم الله بأنَّهم مَخْلَدُونَ في النَّار، أمَّا العصاة الذين أذنبوا ذنوبًا فيخرجون منها بشفاعة الشافعين، أو برحمة أرحم الراحمين.

فهؤلاء مجوس هذه الأمة، هذا من قولهم، وأمَّا مخافتهم أن يحتجَّ محتجٌّ بالقدر على فعل المعاصي، فقد ذكرنا أنَّ من عقيدة أهل السنَّة أنَّ المعاصي إذا صدرت عن العبد نُسبت إليه مباشرةً، ونُسبت إلى الله تعالى تقديرًا، ولمَّا كانت تُنسب إلى العبد مباشرةً وإيجادًا، استحقَّ ذلك العبد أن يعاتب عليها، وأن يعاقب. وكذلك الطاعات تُنسب إلى العبد مباشرةً، وتُنسب إلى الله خلقًا وتقديرًا، وإذا كان كذلك فلا حُجَّةَ للمجبرة على فعل هذه الذنوب، نعرف بذلك أنَّ كلتا الطائفتين خاطئة؛ القدرية الذين ينفون قدرة الله على أفعال العباد، والمجبرة الذين يعذرون العبد في الأفعال، ويقولون: إنَّ تعذيبه على أفعاله ظلم؛ لأنَّه ليس له أي اختيار، نقول: إنَّ له اختيارًا، لكن اختياره مسبوق باختيار الله تعالى، وله قدرة، ولكن قدرته مغلوطة بقدره الله.

قال الشارح:

وَأَمَّا قُدْرَةُ اللَّهِ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ، فَهُوَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِهِ الْقَدْرِيَّةَ مُجْمَلَةً، حَيْثُ جَعَلُوهُ لَمْ يَخْلُقْ أَفْعَالَ الْعِبَادِ، فَأَخْرَجُوهَا عَنْ قُدْرَتِهِ وَخَلْقِهِ.

وَالْقَدْرُ الَّذِي لَا رَبَّ فِي دِلَالَةِ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَالْإِجْمَاعِ عَلَيْهِ، وَأَنَّ الَّذِي جَعَلُوهُ هُمُ الْقَدْرِيَّةُ الْمَخْضَةُ بِلَا نِزَاعٍ: هُوَ مَا قَدَّرَهُ اللَّهُ مِنْ مَقَادِيرِ الْعِبَادِ، وَعَامَّةً مَا يُوجَدُ مِنْ كَلَامِ الصَّحَابَةِ وَالْأَئِمَّةِ فِي ذَمِّ الْقَدْرِيَّةِ يَعْنِي بِهِ هَؤُلَاءِ، كَقَوْلِ ابْنِ عَمْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - لَمَّا قِيلَ لَهُ: يَزْعُمُونَ أَنَّ لَا قَدَرَ، وَأَنَّ الْأَمْرُ أَنْفٌ: «أَخْبِرْهُمْ أَنِّي مِنْهُمْ بَرِيءٌ، وَأَنْتُمْ مِنِّي بُرَاءَةٌ».

وَالْقَدْرُ الَّذِي هُوَ التَّقْدِيرُ الْمَطَابِقُ لِلْعِلْمِ: يَتَّصِنُ أَصُولًا عَظِيمَةً:

أَحَدُهَا: أَنَّهُ عَالِمٌ بِالْأُمُورِ الْمُقَدَّرَةِ قَبْلَ كَوْنِهَا، فَيُبَيِّنُ حِلْمُهُ الْقَدِيمُ، وَفِي ذَلِكَ الرَّدُّ عَلَى مَنْ يُنْكِرُ عِلْمَهُ الْقَدِيمَ.

الثَّانِي: أَنَّ التَّقْدِيرَ يَتَّصِنُ مَقَادِيرَ الْمَخْلُوقَاتِ، وَمَقَادِيرُهَا: هِيَ صِفَاتُهَا الْمُعَيَّنَةُ

الْمُخْتَصَّةُ بِهَا، فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ جَعَلَ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ

فَقَدَرَهُ تَقْدِيرًا﴾ [الفرقان: ٢]، فَالْخَلْقُ يَتَّصِنُ التَّقْدِيرَ: تَقْدِيرَ الشَّيْءِ فِي نَفْسِهِ، بِأَنَّ

يُجْعَلُ لَهُ قَدْرٌ، وَتَقْدِيرُهُ قَبْلَ وُجُودِهِ، فَإِذَا كَانَ قَدْ كَتَبَ لِكُلِّ مَخْلُوقٍ قَدْرَهُ الَّذِي

يُخْصُّهُ فِي كَمِّيَّتِهِ وَكَثْفِيَّتِهِ، كَانَ ذَلِكَ أَبْلَغَ فِي الْعِلْمِ بِالْأُمُورِ الْجُزْئِيَّةِ الْمُعَيَّنَةِ، خِلَافًا

لِمَنْ أَنْكَرَ ذَلِكَ، وَقَالَ: إِنَّهُ يَعْلَمُ الْكُلِّيَّاتِ دُونَ الْجُزْئِيَّاتِ! فَالْقَدْرُ يَتَّصِنُ الْعِلْمَ

الْقَدِيمَ، وَالْعِلْمَ بِالْجُزْئِيَّاتِ.

الثالث: أَنَّهُ يَتَضَمَّنُ أَنَّهُ أَخْبَرَ بِذَلِكَ وَأَظْهَرَ قَبْلَ وُجُودِ الْمَخْلُوقَاتِ إِخْبَارًا مُفْصَلًا، فَيَقْتَضِي أَنَّهُ يُمَكِّنُ أَنْ يُعْلَمَ الْعِبَادَ الْأُمُورَ قَبْلَ وُجُودِهَا عِلْمًا مُفْصَلًا، فَيَدُلُّ ذَلِكَ بِطَرِيقِ التَّنْبِيهِ عَلَى أَنَّ الْخَالِقَ أَوْلَى بِهَذَا الْعِلْمِ، فَإِنَّهُ إِذَا كَانَ يُعْلَمُ عِبَادَهُ بِذَلِكَ، فَكَيْفَ لَا يَعْلَمُهُ هُوَ؟!

الرابع: أَنَّهُ يَتَضَمَّنُ أَنَّهُ مُخْتَارٌ لِمَا يَفْعَلُهُ، مُخَدِّثٌ لَهُ بِمَشِيئَتِهِ وَإِرَادَتِهِ، لَيْسَ لِأَزْمَانِهِ لِدَاتِهِ.

الخامس: أَنَّهُ يَدُلُّ عَلَى حُدُوثِ هَذَا الْمَقْدُورِ، وَأَنَّهُ كَانَ بَعْدَ أَنْ لَمْ يَكُنْ، فَإِنَّهُ يُقَدِّرُهُ، ثُمَّ يَخْلُقُهُ.

قال الشيخ:

يستدل على إثبات القدر بقوله تعالى: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ قَدْرَهُ، فَقَدِيرًا﴾ [الفرقان: ٢]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: ٤٩]، والقدر معناه تحديد الشيء وتقدير مدته وزمانه، وأنَّ اللّهَ قَدَّرَ الْأَعْمَالَ: متى تحدث هذه الطاعة، ومتى تنتهي، وقَدَّرَ الْأَعْمَارَ؛ فَعَمَّرَ الْإِنْسَانَ لَا يَزِيدُ عَمَّا قَدَّرَهُ اللَّهُ وَكَتَبَهُ وَلَا يَنْقُصُ، وَقَدَّرَ الْوَفَايَاتِ وَقَدَّرَ أَسْبَابَهَا، وَجَعَلَهَا مَكْتُوبَةً بِأَنَّ هَذَا الْإِنْسَانَ لَا بَدَّ أَنْ يَمُوتَ بِسَبَبٍ مِنَ الْأَسْبَابِ، وَلَيْسَ لَهُ مَفْرُؤٌ مِمَّا كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ، وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ.

وفي الحديث عن أبي خزيمة عن أبيه - رضي الله عنهما - أنه سأل رسول الله ﷺ فقال: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَرَأَيْتَ رُفِي نَسْتَرَقِيهَا، وَدَوَاءً نَسْتَدَاوِي بِهِ، وَنُقَاةً

تَنْقِيهَا، هل تَرُدُّ من قَدَرِ اللَّهِ شَيْئًا؟ قَالَ: «هِيَ مِنْ قَدَرِ اللَّهِ»^(١)، أي: هي مكتوبةٌ
أنه يزول المرض بهذا السبب، ولأجل ذلك أمر النبي ﷺ بالتداوي بقوله: «تَدَاوُوا
عِبَادَ اللَّهِ، فَإِنَّ اللَّهَ - عَزَّ وَجَلَّ - لَمْ يَضَعْ دَاءً إِلَّا وَضَعَ لَهُ شِفَاءً، غَيْرَ دَاءٍ وَاحِدٍ
الْهَرَمُ»^(٢).

فتعاطي هذه الأسباب لا ينافي أن العبد مكتوب عليه ما هو فاعل، ولا يقول
إنسان: أنا سوف أترك هذا الفعل، ولا بد لي من حصول ما كتب لي؛ لأن ترك
الأسباب كلياً نقص في العقل، فلو رأيت إنساناً عزم على ترك الأكل والشرب
واللباس ونحو ذلك، وقال: إذا قدر الله أني أتغذى بغير ذلك، وإذا كلفني الله قد
قدر لي ذلك، فلا حاجة إلى أن أطعم أو أشرب، وإلى أن ألبس. نقول: هذا نقص
في العقل؛ لأن هذه الأشياء جعلها الله أسباباً حسيّةً، وأمر بتعاطيها وأباحها،
فلا يكون شُبْعٌ إلا بالأكل، ولا ريٌّ إلا بالشرب، ولا ولدٌ إلا بالنكاح. وكذلك
الأرزاق التي أمر بالاكْتِسَابِ لها؛ فإنه أمر بفعل هذه الأسباب حتى يصل من
خلاها الرزق، ولو كان هو الذي قدرها، وهو الذي يسرها كما في قوله تعالى:

﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [الواقعة: ٦٣، ٦٤]، فذكر
أنهم يزرعون ويفرسون الأشجار، ويسقونها، ويسذرون الحبوب وينبتونها،

(١) تقدم تخريجه (١/٥٢٦).

(٢) أخرجه بالفاظ متقاربة: أبو داود (٣٨٥٥)، والترمذي (٢٠٣٨)، والنسائي في الكبرى

(٧٥١١)، وابن ماجه (٣٤٣٦)، وأحمد (٢٧٨/٤) من حديث أسامة بن شريك رضي الله عنه.

فأضاف إليهم الفعل، ولكن أخبر بأنه هو الذي جعل هذه الأرض قابلة لذلك حتى تصير منبتةً ومثمرةً، وهو الذي أيضًا أوجد هذا الماء الذي به هذا الشراب، ولو شاء لغيره كما في قوله تعالى: ﴿لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أَجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ﴾ [الواقعة: ٧٠]؛ يعني: ملحًا أجاجًا لا يصلح للشرب ولا للسقي ولا لغير ذلك.

فأصبح بذلك الإيمان بهذا القدر يقتضي بأن نعلم أن تفاصيل الأشياء معلومة وموجودة لله تعالى، ولكن لا نترك الأسباب الحسية، بل يفعلها الإنسان، ويعلم أنها مقدرَةٌ من الله، وأنه هو الذي أمر بها ويسرها.

ولا يزال الحديث متصلًا عن ركن الإيمان بالقضاء والقدر، وقد توسع فيه صاحب المتن، وصاحب الشرح؛ لأنَّ الخلاف فيه مع طائفتين مشهورتين: طائفة تغلو في الإثبات، وطائفة تغلو في النفي، والذين يغلون في النفي طائفتان أيضًا: منهم من ينفي العلم، ومنهم من ينفي القدرة. وكلُّ الطوائف مبتدعةٌ ضلالٌ، وقد هدى الله أهل السنة، فتوسطوا في باب القدر بين الجبرية والقدريّة:

فالجبرية نفوا قدرة العبد، وجعلوه مجبورًا ليس له أي اختيار، وجعلوه يعاقب على ما لا يفعل، ويثاب على ما ليس له فيه اختيار، فجعلوا حركته كحركة الشجرة التي تحركها الرياح.

وأما القدريّة، فإنهم نفوا قدرة الله - عزَّ وجلَّ - على أفعال العباد، ووصفوا ربهم تعالى بالعجز عن الهداية وعن التصرف في الخلق كما يريد، فلاجل ذلك كانوا مشبّهين بالمجوس، ووردت فيهم آثار وأحاديث - وإن لم يصح رفعها كما مرّ

بنا - أئهم مجوس هذه الأمة، وأئهم لخصلتهم هذه ينبغي مقاطعتهم كما ورد في تلك الأحاديث: «إِنْ مَرِضُوا، فَلَا تَعُوذُوهُمْ، وَإِنْ مَاتُوا، فَلَا تَشْهَدُوهُمْ»، مع أنه معلوم أن عيادة المريض المسلم من حق المسلم على المسلم، فمن حق المسلم على المسلم أن يعود إذا مرض، ويتبع جنازته إذا مات. ولكن قاطع الصحابة - رضي الله عنهم - وتلامذتهم هؤلاء؛ وذلك لأئهم أتوا بأمرٍ شنيع، وهو تعجيز الله عزَّ وجلَّ، واتهامه بعدم القدرة، وتفضيل قدرة العباد على قدرته، ولو كانوا في زعمهم يريدون أن ينزَّهوا ربهم عن الظلم، يعني أن يخلق المعصية، ثم يعاقب عليها.

وقد ذكرنا أن أهل السنَّة وسط في هذا الباب، باب القدر بين الجبريَّة والقدريَّة؛ وذلك لأئهم آمنوا بقدرة الله على كل شيء، ثم مع ذلك اعتقدوا أن للعبد قدرةً مغلوبةً بقدرة الله، وأن الله تعالى أعطى العباد قدرةً يزاولون بها أعمالهم، فبتلك القدرة يفعلون الأعمال التي يثابون عليها، أو التي يعاقبون عليها، ولو كانت مغلوبة بقدرة الله، فيقال: للعبد قدرة، وله إرادة، فقدرة الله وإرادته غالبية على قدرة العبد وعلى إرادته، وتلك القدرة هي التي يستحقُّ عليها أن يثاب على الطاعات ويعاقب على المعاصي، ولولا تلك القدرة لبطلت حكمة الله ولبطل شرع الله؛ وذلك لأن الله تعالى قد شرع الشرع، وأرسل الرسل وأنزل الكتب، وضمَّنهما أوامر ونواهي، فلا بدَّ أن يكون هذا الأمر والنهي موجَّهًا إلى من يستطيع مزاولته، وإذا آمنَّا بذلك آمنَّا بأنَّ الله تعالى أقدر العباد على ما هم قادرون عليه، وأعطاهم القدرة التي تناسبهم، فيها يثابون وبها يعاقبون.

قال الطحاوي:

فَوَيْلٌ لِمَنْ ضَاعَ لَهُ فِي الْقَدْرِ قَلْبًا سَقِيمًا - وَفِي نُسْخَةٍ: فَوَيْلٌ لِمَنْ صَارَ قَلْبُهُ فِي
الْقَدْرِ قَلْبًا سَقِيمًا - لَقَدْ التَّمَسَ بِوَهْمِهِ فِي فَحْصِ الْغَيْبِ سِرًّا كَثِيمًا، وَعَادَ بِمَا قَالَ فِيهِ
أَفَّاكًا أَثِيمًا.

قال الشارح:

الْقَلْبُ لَهُ حَيَاةٌ وَمَوْتٌ، وَمَرَضٌ وَشِفَاءٌ، وَذَلِكَ أَعْظَمُ مِمَّا لِلْبَدَنِ، قَالَ تَعَالَى:

﴿أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي
الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام: ١٢٢]، أَي: كَانَ مَيِّتًا بِالْكَفْرِ، فَأَحْيَيْنَاهُ
بِالْإِيمَانِ، فَالْقَلْبُ الصَّحِيحُ الْحَيُّ إِذَا عُرِضَ عَلَيْهِ الْبَاطِلُ وَالْقَبَائِحُ، نَفَرَ مِنْهَا بِطَبْعِهِ،
وَأَبْغَضَهَا، وَلَمْ يَلْتَفِتْ إِلَيْهَا، بِخِلَافِ الْقَلْبِ الْمَيِّتِ، فَإِنَّهُ لَا يُفَرِّقُ بَيْنَ الْحَسَنِ
وَالْقَبِيحِ، كَمَا قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ رضي الله عنه: «هَلَاكَ مَنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ قَلْبٌ يَعْرِفُ بِهِ
الْمَعْرُوفَ وَالْمُنْكَرَ»^(١).

وَكَذَلِكَ الْقَلْبُ الْمَرِيضُ بِالشَّهْوَةِ، فَإِنَّهُ لِضَعْفِهِ يَمِيلُ إِلَى مَا يَعْرِضُ لَهُ مِنْ ذَلِكَ
بِحَسَبِ قُوَّةِ الْمَرَضِ وَضَعْفِهِ.

وَمَرَضُ الْقَلْبِ نَوْعَانِ - كَمَا تَقَدَّمَ -: مَرَضُ شَهْوَةٍ، وَمَرَضُ شُبُهَةٍ، وَأَرَادُوهُمَا

(١) أخرجه الطبري (٢٧/٢٢٩)، وابن أبي شيبة (٧/٥٠٤)، والطبراني في الكبير (٨٥٦٤).

قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٧/٢٧٥): «رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح».

مَرَضُ الشُّبْهَةِ، وَأَزْدَأُ الشُّبْهَ مَا كَانَ مِنْ أَمْرِ الْقَدْرِ. وَقَدْ يَمْرَضُ الْقَلْبُ، وَيَشْتَدُّ مَرَضُهُ، وَلَا يَعْرِفُ بِهِ صَاحِبُهُ، لِاشْتِغَالِهِ وَأَنْصِرَافِهِ عَنْ مَعْرِفَةِ صِحَّتِهِ وَأَسْبَابِهَا، بَلْ قَدْ يَمُوتُ وَصَاحِبُهُ لَا يَشْعُرُ بِمَوْتِهِ، وَعَلَامَةُ ذَلِكَ أَنَّهُ لَا تُؤْلِمُهُ جِرَاحَاتُ الْقَبَائِحِ، وَلَا يُوجِعُهُ جَهْلُهُ بِالْحَقِّ وَعَقَائِدُهُ الْبَاطِلَةُ، فَإِنَّ الْقَلْبَ إِذَا كَانَ فِيهِ حَيَاةٌ، تَأَلَّمَ بِوُرُودِ الْقَبِيحِ عَلَيْهِ، وَتَأَلَّمَ بِجَهْلِهِ بِالْحَقِّ بِحَسَبِ حَيَاتِهِ، وَ:

مَا لِجُرْحِ بَمِيَّتِ إِيْلَامٍ^(١)

وقد يشعُر بِمَرَضِهِ، وَلَكِنْ يَشْتَدُّ عَلَيْهِ مَحْمَلُ مَرَارَةِ الدَّوَاءِ وَالصَّبْرِ عَلَيْهَا، فَيُؤَثِّرُ بَقَاءَ آلِهِ عَلَى مَشَقَّةِ الدَّوَاءِ، فَإِنَّ دَوَاءَهُ فِي مُحَالَفَةِ الْهَوَى، وَذَلِكَ أَصْعَبُ شَيْءٍ عَلَى النَّفْسِ، وَلَيْسَ لَهُ أَنْفَعُ مِنْهُ.

وَتَارَةً يُوْطِنُ نَفْسَهُ عَلَى الصَّبْرِ، ثُمَّ يَنْفَسِحُ عَزْمُهُ، وَلَا يَسْتَمِرُّ مَعَهُ لِضَعْفِ عِلْمِهِ وَبَصِيرَتِهِ وَصَبْرِهِ، كَمَنْ دَخَلَ فِي طَرِيقٍ مَخُوفٍ مُفْضٍ إِلَى غَايَةِ الْأَمْنِ، وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّهُ إِنْ صَبَرَ عَلَيْهِ، انْقَضَى الْخَوْفُ وَأَعْقَبَهُ الْأَمْنُ، فَهُوَ مُحْتَاجٌ إِلَى قُوَّةِ صَبْرِ، وَقُوَّةِ يَقِينٍ بِنَا بَصِيرٍ إِلَيْهِ، وَمَتَى ضَعُفَ صَبْرُهُ وَيَقِينُهُ، رَجَعَ مِنَ الطَّرِيقِ، وَلَمْ يَتَحَمَّلْ مَشَقَّتَهَا، وَلَا سِيَّيَا إِنْ عَدِمَ الرَّفِيقَ، وَاسْتَوْحَشَ مِنَ الْوَحْدَةِ، وَجَعَلَ يَقُولُ: أَبْنِ دَهَبَ النَّاسِ، فَبِ أَسْوَةِ بِهِمْ! وَهَذِهِ حَالُ أَكْثَرِ الْخَلْقِ، وَهِيَ الَّتِي أَهْلَكْتَهُمْ. فَالْبَصِيرُ الصَّادِقُ لَا يَسْتَوْحَشُ مِنْ قَلْبَةِ الرَّفِيقِ، وَلَا مِنْ فَقْدِهِ، إِذَا اسْتَشْعَرَ قَلْبُهُ مُرَافَقَةَ

(١) شطر بيت للمتنبي، أوله: «مَنْ يَهْنُ يَسْهَلِ الْهَوَانُ عَلَيْهِ». انظر: ديوانه بشرح عبدالرحمن

الرَّعِيلِ الْأَوَّلِ: ﴿الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: ٦٩].

وَمَا أَحْسَنُ مَا قَالَ أَبُو مُحَمَّدٍ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنِ إِسْمَاعِيلَ الْمَعْرُوفُ بِأَبِي شَامَةَ، فِي كِتَابِ «الْحَوَادِثِ وَالْبِدْعِ»: «حَيْثُ جَاءَ الْأَمْرُ بِلُزُومِ الْجَمَاعَةِ، فَالْمُرَادُ لُزُومُ الْحَقِّ وَاتِّبَاعُهُ، وَإِنْ كَانَ الْمُتَمَسِّكُ بِهِ قَلِيلًا، وَالْمُخَالِفُ لَهُ كَثِيرًا؛ لِأَنَّ الْحَقَّ هُوَ الَّذِي كَانَتْ عَلَيْهِ الْجَمَاعَةُ الْأُولَى مِنْ عَهْدِ النَّبِيِّ ﷺ وَأَصْحَابِهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، وَلَا نَظَرَ إِلَى كَثْرَةِ أَهْلِ الْبَاطِلِ بَعْدَهُمْ». وَعَنِ الْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ - رَحِمَهُ اللَّهُ أَنَّهُ قَالَ: «السُّنَّةُ - وَالَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ - بَيْنَ الْغَالِيِ وَالْجَائِفِيِ، فَاصْبِرُوا عَلَيْهَا رَحِمَكُمُ اللَّهُ، فَإِنَّ أَهْلَ السُّنَّةِ كَانُوا أَقْلَ النَّاسِ فِيمَا مَضَى، وَهُمْ أَقْلُ النَّاسِ فِيمَا بَقِيَ، الَّذِينَ لَمْ يَذْهَبُوا مَعَ أَهْلِ الْإِتْرَافِ فِي إِتْرَافِهِمْ، وَلَا مَعَ أَهْلِ الْبِدْعِ فِي بَدْعِهِمْ، وَصَبَرُوا عَلَى سُتْتِهِمْ حَتَّى لَقُوا رَبَّهُمْ، فَكَذَلِكَ، فَكُونُوا».

قال الشيخ:

كلام الشارح يتعلّق بمرض القلب وصحته . ومناسبته أن هؤلاء ما أتوا إلا من زيغ القلوب، وما صُرفوا عن الحق إلا بسبب مرضها، وأسباب المرض كثيرة؛ ومنها: تلقي الشبهات، والله تعالى قد ذكر أن القلوب تمرض، فقال تعالى: ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا﴾ [البقرة: ١٠]، فمرض القلوب نوعان:

مرض شهوة، ومرض شبهة.

ذكر الله مرض الشهوة في قوله تعالى: ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ﴾ [الأحزاب: ٣٢]، هذا هو مرض الشهوة، وهو الذي يميل إلى الفواحش، ويطمع في الأجنبية إذا خضعت في القول، والله سبحانه ينهى نساء المؤمنين عن هذا.

وأما مرض الشبهة، فهو أشد؛ لأنه يصد القلب عن الحق، ومتى صدَّ القلب عنه ابتلي بالباطل، وقد ذكر الله للقلوب أنواعاً من الأمراض، فمنها:

أولاً: الطبع: قال تعالى حكاية عن اليهود: ﴿وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ٥٥]، فالطبع عليها معناه: أنَّا ختم عليها بحيث لا يصل إليها الخير، ولا تعرفه ولا تطمئن إليه، وهذا الطبع هو أشد الأمراض.

ثانياً: الختم: وهو بمعنى الطبع، قال تعالى: ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشْوَةٌ﴾ [البقرة: ٧]، وقال تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهُهُ هَوْنَهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عَٰمِرٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشْوَةً﴾ [الجاثية: ٢٣]، ومعلوم أن الختم هو تغطية الشيء، بحيث لا يصل إليه شيء كما في الظروف المختومة التي لا تصل إليها الأيدي؛ فالقلب الذي ختم عليه لا يصل إليه الخير ولا يتنبه للمواعظ ولا يتذكر، وسبب ذلك هو الشبهات.

ثالثاً: الزيف: قال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥]، والزيف:

هو الانحراف والميل، ولا شك أن سببه الشبهات والتشكيكات التي تجعل الحقَّ عنده باطلاً والباطل حقاً، فيميل عن الحق إلى الباطل، وذلك هو الزيغ . وقد ذكر الله أسبابه، ومنها: أنهم زاغوا بأنفسهم، فزادهم الله من ذلك: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾، وذكر أيضاً من أسبابه تتبُّع المتشابهات، فقال تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَبَهَ مِنْهُ﴾ [آل عمران: ٧]، إلى قوله عن الراسخين: ﴿رَبَّنَا لَا تُرِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾ [آل عمران: ٨]، فالزيغ معناه: الانحراف والميل عن الاستقامة، وسببه هذه المعاصي والمخالفات.

رابعاً: القسوة: التي هي قسوةٌ معنويّة، بحيث لا يصل القلب إليه الخير، ولا يلين، قال تعالى: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ [البقرة: ٧٤]، وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَأْتُونَ الْبِلَادَ آمِنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنْ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ [الحديد: ١٦]، فعاتبهم بأنهم قست قلوبهم، وأبعد القلوب من الله تعالى القلب القاسي، وهو الذي لا يلين لموعظة، ولا يتأثر بتذكير، ولا يقبل ذكرى، ولا يتأثر بتخويف، وتأتية الإرشادات وتأتية النصائح، وكل ذلك يصدُّ عنه صدوداً، ولا يزيده ذلك الأمر إلا نفوراً، وما ذاك إلا أنه ممتلئ من الانحراف وممتلئ من الشبهات ولم يبق فيه محلُّ للمواعظ، ولا محلُّ للاعتبار، ولا لقبول الحق؛ فكان بذلك قلباً قاسياً لا يلين، شُبِّه بالحجارة أو أشدَّ من الحجارة.

خامسًا: الرَّانُ: الذي ذكره الله تعالى بقوله: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: ١٤]، والرَّانُ أو الرِّينُ: هو الغطاء الذي يحجب القلب عن الاعتبار، يحجبه عن التذكر، فلا يصل إليه الخير، وسببه كثرة الذنوب، فكلما كثرت الذنوب صارت أغلفةً على القلب؛ غلافًا فوق غلاف، وغطاءً فوق غطاء، إلى أن يشقَّ اختراقها وتنقيتها وإزالتها.

سادسًا: الإقفال: وهو أشدُّ أمراض القلوب - كما ذكر بعض العلماء - وهو الذي ذكره الله تعالى في قوله: ﴿أَمْرٌ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ [محمد: ٢٤]، والقفل هو ما يغلُق به الباب ويوصد، ولا يمكن فتحه إلا بمفتاحه الذي صنع له، فالقلب إذا كان قد أقفل ولم يكن له ما يُفْتَحُ به، فإنه يبقى محجوبًا محجوزًا لا يصل إليه خيرٌ.

وهذه الأمراض التي ذكرناها أسباب، وقد ورد من أسباب أمراض القلوب: الشبهات، والشهوات، والتشكيكات، وما أشبهها، وكلها عظمت تلك الشكوك تراكمت على القلب، فحصل الزَّيغ والانحراف والميل عن الاستقامة، وكلها لأن القلب وقبل الحق، فإنه يلينُ ويتأثر، كما ذكر الله تعالى ذلك عن أوليائه المؤمنين بقوله تعالى: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَابًا يَتَقَشَّرُ مِنْهُ جُلُودٌ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الزمر: ٢٣]، تلين جلودهم، وتلين قلوبهم، والقلب اللين هو الذي إذا سمع موعظة تأثر، وعلامة تأثره أنه يُقبل على الله ويعرض عن الناس، وعلامة تأثره كذلك أنه يحدث فيه خشوع وخوف ويحدث فيه زيادة طاعات وانصراف عن الآثام

والمحرمات، وهذا هو علامة لين القلب، وكذلك أيضًا اطمئنانه إلى الخير، وقد ذكر الله ذلك في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ تَطْمِئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨]، فقلوب المؤمنين هي التي تطمئن بذكر الله، وهي التي تلين لكلام الله، وأما قلوب أولئك الفسقة ونحوهم، فإنها قاسية مقفلة لا يصل إليها الخير مهما تكلم الإنسان، ومهما وعظ، كما وُصفوا بأنهم: ﴿صُمُّوا بِكُمْ غَمٌّ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٨].

على كل حال أسباب ذلك في هؤلاء المبتدعة هي الشبهات، فعلى العبد أولاً: أن يكثر الاستعاذة بالله - عز وجل - من زيغ القلب بقوله: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾ [آل عمران: ٨]، ونحو ذلك من الأدعية، كذلك يتجنب تلك الشبهات التي تصل إلى القلب فتقسيه، ويتجنب المعاصي التي لها تأثيرٌ على القلوب، ولها سبب في الإعراض عن الحق وعدم تقبله.

وبعد أن عرفنا أن الأسباب في قسوة القلب هي هذه الشبهات نقول: إن هذه الشبهات كثيراً ما يثيرها أولئك المشبهون الذين زاغت قلوبهم، فهم يثرونها حتى يزيغوا غيرهم، فعلى الإنسان أن يحذر من شبهاتهم وتشكيكاتهم الموجودة في مؤلفات كثيرة، يشككون فيها في قدرة الله عز وجل، وفي آثار علمه، ويشككون فيها أيضًا في عذابه وفي ثوابه، وما أشبه ذلك، فإذا عرف العبد أن هذه من التشكيكات التي قست قلوبهم؛ تجنبها حتى يبقى قلبه ليثا خاشعاً خاضعاً متواضعاً.

ومعلوم أيضًا أن هذه المواعظ ونحوها لها آثارٌ على عباد الله، وأن العبد إذا قبلها استقام على الخير، واستمرّ عليه وقبله، وإذا أكثر من مجالس الذكر ومجالس العلماء ومجالس العباد، وقبل مناصحتهم وإرشاداتهم تأثر بذلك أيضًا، ولأن قلبه زيادةً على ما يحصل له من كثرة العبادات وكثرة المعلومات.

وهذا هو السبب في أن قسمًا من الناس لا يتأثرون بخير، ولا يقبلون إرشادًا ولا نصحًا ولا غير ذلك؛ لأنهم عاشوا على البعد عن الخير وعدم تقبله، وهناك آخرون إذا تكلم معهم إنسان بكلمة أو بكلمتين لانت قلوبهم وخشعوا، ودمعت أعينهم، وأقبلوا على الله، وتابوا إليه وأنابوا، وسبب ذلك محبتهم للخير وإقبالهم عليه، فعلى العبد أن يكون من الذين يحبهم الله، والذين يقبلونه ويقبلون كلامه.

قال الشارح:

وَعَلَامَةٌ مَرَضِ الْقَلْبِ عُدُولُهُ عَنِ الْأَعْدِيَةِ النَّافِعَةِ الْمُوَافِقَةِ لَهُ إِلَى الْأَعْدِيَةِ
الضَّارَّةِ، وَعُدُولُهُ عَنِ دَوَائِهِ النَّافِعِ إِلَى دَوَائِهِ الضَّارِّ.

فَهَا هُنَا أَرْبَعَةُ أَشْيَاءٍ: غِذَاءٌ نَافِعٌ، وَدَوَاءٌ شَافٍ، وَغِذَاءٌ ضَارٌّ، وَدَوَاءٌ مُهْلِكٌ.
فَالْقَلْبُ الصَّحِيحُ يُؤَيِّرُ النَّافِعَ الشَّافِيَ عَلَى الضَّارِّ الْمُؤْذِي، وَالْقَلْبُ الْمَرِيضُ بِضِدِّ
ذَلِكَ.

وَأَنْفَعُ الْأَعْدِيَةِ غِذَاءُ الْإِيمَانِ، وَأَنْفَعُ الْأَدْوِيَةِ دَوَاءُ الْقُرْآنِ، وَكُلُّ مَتَمِّهَا فِيهِ الْغِذَاءُ
وَالدَّوَاءُ، فَمَنْ طَلَبَ الشِّفَاءَ فِي غَيْرِ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، فَهُوَ مِنْ أَجْهَلِ الْجَاهِلِينَ،
وَأَضَلَّ الضَّالِّينَ، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ: ﴿قُلْ هُوَ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَشْكُرَهُ
وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقُرْءُهُمْ وَعَلَيْهِمْ عَمَى﴾ [فصلت: ٤٤]، وقال
تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ الْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا
خَسَارًا﴾ [الإسراء: ٨٢]، و«مِنْ» في قوله: ﴿مِنَ الْقُرْءَانِ﴾، لبيان الجنس،
لا للتبعض، وقال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي
الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٥٧].

فَالْقُرْءَانُ هُوَ الشِّفَاءُ التَّامُّ مِنْ جَمِيعِ الْأَدْوَاءِ الْقَلْبِيَّةِ وَالْبَدَنِيَّةِ، وَأَدْوَاءِ الدُّنْيَا
وَالْآخِرَةِ، وَمَا كُنَّ أَحَدٌ يُوهَّلُ لِلِاسْتِشْفَاءِ بِهِ. وَإِذَا أَحْسَنَ الْعَلِيلُ التَّدَاوِيَّ بِهِ،
وَوَضَعَهُ عَلَى دَائِهِ بِصِدْقٍ وَإِيمَانٍ، وَقَبُولٍ تَامٍّ، وَاعْتِقَادٍ جَازِمٍ، وَاسْتِيفَاءِ شُرُوطِهِ، لَمْ
يُقَاوِمِ الدَّاءَ أَبَدًا، وَكَيْفَ تُقَاوِمُ الْأَدْوَاءَ كَلَامَ رَبِّ الْأَرْضِ وَالسَّمَاءِ الَّذِي لَوْ نَزَلَ عَلَى

الجبال لصدعها، أو على الأرض لقطعها! فما من مريض من أمراض القلوب والأبدان إلا وفي القرآن سبيل الدلالة على دوائه وسببه والحمية منه لمن رزقه الله فهما في كتابه.

وقوله: (لقد التمس بوهمه في فحص الغيب سرا كتيبا)، أي: طلب وهمه في البحث عن الغيب سرا مكتوما؛ إذ القدر سر الله في خلقه، فهو يزوم الإطلاع على الغيب، وقد قال تعالى: ﴿عَلِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا﴾ [الجن: ٢٦]، إلى آخر السورة.

وقوله: (وعاد بها قال فيه)، أي: في القدر، (أفأكا): كذبا، (أئيبا): مأثوما.

قال الشيخ:

القلوب تمرض ولها شفاء، وهي بحاجة إلى علاج وغذاء. والبدن إذا مرض احتاج إلى الدواء، وإذا جاع احتاج إلى الغذاء. وغذاء البدن: الأكل والطعام، وعلاجه: الأدوية والعقاقير وما أشبهها. وهذا غذاء ودواء حسي، ولكن لا يفيد ذلك في مرض القلوب، فالقلوب لها غذاء هي بحاجة إليه أشد من حاجة الأبدان إلى غذائها، وهو غذاء معنوي، وهذا الغذاء هو كلام الله وكلام رسوله هذا الغذاء وما يستنبط من العلوم الشرعية، والعمل به، فما دام القلب مستقيما وما دام سليما؛ فإنه بحاجة إلى أن يستمر معه هذا الغذاء، وأن يستمر العبد على قراءة كلام الله وعلى تعلمه وعلى تعلم السنة النبوية، وعلى العمل بها، حتى يبقى قلبه سليما،

ويستمرّ على العمل وعلى الفطرة والاستقامة، أما إذا أحسّ بمرض من الأمراض التي ذكرنا فإنّ لديه العلاج، لديه الشفاء والعلاج النافع، وليس علاجه عند الأطباء وفي الصيدليات ونحوها، بل هو علاج معنويّ، وهو أن يتعاطى هذا الكتاب، وأن يعالج به قلبه، فإذا كان المرض من الشبهات فإنّه يزيلها بما يبطلها، فإذا ورد إلى القلب شبهة التشكيك في المعاد، وجد في القرآن علاجاً ودواءً لهذه الشبهة، وإذا مرض القلب بشبهة التشكيك مثلاً في الإيمان بالغيب؛ وجد في القرآن علاجاً ودواءً لهذا المرض، وإذا مرض القلب بشبهة الشكّ في المعاد، أو في المبدأ، أو في أول الخلق أو في آخره، أو شبهة الشكّ في الأسماء والصفات، أو في العبادات والمعاملات، أو في الأوامر والنواهي، أو ما أشبه ذلك؛ توقف في ذلك، ووجد العلاج النافع الكامل في كلام الله وفي كلام رسوله ﷺ، ولكن ذلك يحتاج إلى قلبٍ حيٍّ واعٍ فطن، ويحتاج إلى تأمل فيقرأ كتاب الله عز وجل، ويتبّع السنة النبويّة، وعند ذلك يحيا قلبه بعد أن كان ميتاً، ويصحّ بعد أن كان مريضاً، ويزول ما فيه من الوهم، وتزول الأمراض الكثيرة التي ذكرنا، فيزول الإقفال وتزول الأكيّة، ويزول الختم، ويزول الطبع وتزول القسوة ويزول الرّين وما أشبهها بإذن الله إذا استعمل كتاب الله فإنّ في ذلك علاجاً ودواءً لهذه الأمراض القلبية.

وقد توسّع العلماء - رحمهم الله - في ذكر أمراض القلوب وفي بيان علاجها، وذكر من ذلك جملةً كبيرةً ابن القيم - رحمه الله - في أول كتابه الذي سمّاه «إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان»، وغيره من العلماء الذين تكلموا على أمراض القلوب وعلاجها، وذكروا أنّ علاجها في كتاب الله تعالى، ويستنيّة نبيّه ﷺ، وأنّه

أيضاً هو غذاؤها، واستدلوا بالآيات التي فيها وصف القرآن بأنه شفاء، كقوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٥٧]، والذي في الصُّدُورِ: هو الشُّكُوك، ومن وقع في قلبه شكٌ أو وقع في قلبه توقُّفٌ أو شيءٌ من التردُّد أو ما أشبه ذلك، فليعالج قلبه بكتاب الله عزَّ وجلَّ، وبذلك يزول ذلك الشكُّ ويزول ذلك المرض، كذلك قول الله تعالى: ﴿وَنُنزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ [الإسراء: ٨٢]، فالمؤمنون هم الذين إذا قرأوا القرآن شُفوا سواء شفاءً حسيًّا وهو إزالة الأمراض، أو شفاءً معنويًّا وهو تصفية القلوب وإزالة ما فيها من الصدأ؛ فإن القلب يصدأ كما يصدأ الحديد، وجلاءه بكلام الله عزَّ وجلَّ، وسنة نبيه وبالعمل بالشريعة؛ فبذلك يصفو القلب ويستنير، ويصير نوره يخرق تلك الظلمات التي يأتي بها أولئك المشبهون.

فعلى العبد أن يقبل على هذا العلاج النافع حتى يؤثر فيه، ولا يؤثر فيه إلا إذا كان صادق الرغبة في إقباله على الله، وصادقاً في محبته لكلام الله وكلام رسوله، ومصداقاً بما وصف به هذا القرآن في قوله تعالى: ﴿وَنُنزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾، وفي الآية الأخرى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾، فوصف بأربع صفات، وكل واحدة منها لها أهميتها، كذلك قول الله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ الَّذِي ءَامَنُوا بِهِ هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ

لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقُرُّ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ ﴿٤٤﴾
[فصلت: ٤٤].

وَقَدْ جَرَّبَ كَثِيرٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ هَذِهِ الْآيَاتِ، وَرَأَوْا أَنَّهَا تَشْفِي شِفَاءً حَسِيًّا، مِنْ الْأَمْرَاضِ الْحَسِيَّةِ الَّتِي يُبْتَلَى بِهَا بَعْضُ النَّاسِ، فَقَالُوا: إِنَّ الْمُسْلِمَ إِذَا اسْتَعْمَلَ هَذِهِ الْآيَاتِ وَعَمَلَ بِهَا وَعَالَجَ بِهَا قَلْبَهُ شُفِي، وَكَذَلِكَ إِذَا عَالَجَ بِهَا بَدَنَهُ شُفِي، فَتَزُولُ الْأَمْرَاضُ الْعَارِضَةُ الَّتِي تَعْرُضُ لِلْإِنْسَانِ وَلَا يَسْتَطِيعُ عِلَاجُهَا الْأَطْبَاءُ؛ فَمَرَضُ الشَّيَاطِينِ الَّذِي هُوَ مَرَضُ السَّحَرَةِ وَنَحْوِهِمْ، وَالصَّرْفِ وَالْعَطْفِ، وَكَذَلِكَ مَرَضُ الْجِنِّ وَالْإِصَابَةِ بِالْجُنُونِ وَمَلَامَسَاتِ الْجَانِ وَمَلَابَسَاتِهِمْ، لَا يَسْتَطِيعُهَا الْأَطْبَاءُ وَلَا يَعَالِجُونَهَا، وَمَرَضُ الْإِصَابَةِ بِالنَّظَرَةِ وَبِالْعَيْنِ وَنَحْوِهَا، لَا يَسْتَطِيعُهَا أَيْضًا الْأَطْبَاءُ، وَلَكِنْ عِلَاجُهَا الصَّحِيحُ هُوَ الْقُرْآنُ الَّذِي فِيهِ هَذَا الشِّفَاءُ الَّذِي مَدَحَهُ اللَّهُ بِهَذِهِ الْآيَاتِ فِي قَوْلِهِ: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقُرُّ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾، فَغَيْرُ الْمُؤْمِنِينَ لَا يَعْتَرِفُونَ بِأَنَّهُ كَلَامُ اللَّهِ، كَمَا أَنَّ أَمْرَاضَهُمْ مُسْتَعْصِمَةٌ، وَهِيَ قَسْوَةُ الْقُلُوبِ، فَهَمَّ لَا يَتَأَثَّرُونَ بِهِ، وَهَذَا الْقُرْآنُ مَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا لِأَهْلِ ذِكْرِهِ وَلِأَهْلِ عِبَادَتِهِ شِفَاءً، أَمَّا غَيْرُ الْمُؤْمِنِينَ فَحَرَمَهُمُ مِنَ الْإِنْتِفَاعِ بِهِ.

فَإِذَا أَرَادَ الْإِنْسَانُ أَنْ يَنْتَفِعَ بِالْقُرْآنِ وَأَنْ تَزُولَ بِهِ أَمْرَاضُهُ، فَعَلَيْهِ أَنْ يَحَقِّقَ الْإِيمَانَ، وَأَنْ يَحَقِّقَ التَّصَدِيقَ بِهِ، وَأَنْ يَصَدِّقَ كَلَامَ اللَّهِ الَّذِي جَعَلَهُ شِفَاءً، وَأَنْ يَعْمَلَ بِهِ بِكُلِّ مَا يَسْتَطِيعُ مِنَ الْعَمَلِ، فَذَلِكَ إِذَا عَالَجَ بِهِ بِصَدْقِ نَفْعِهِ وَاسْتِفَادَ مِنْهُ،

هكذا ذكر كثير من المحققين من العلماء.

كذلك أيضا نقول: وجد أيضا بالتجربة أن هناك أمراضا مستعصية عليهم؛ كمرض السرطان ونحوه من الأمراض التي استعصت، ومع ذلك عولجت بكلام الله فشفاهها الله، ولكن حصل الشفاء لأناس دون غيرهم؛ لأنه اجتمع أمران: إيمان المريض، وتصديقه بأن القرآن شفاء وعمله به، وكذلك إيمان الراقي، وتصديقه بذلك واستعماله له، فاجتمع الأمران فحصل بذلك الشفاء، وعولج بها الفسقة والعصاة وأهل الشبهات والمبتدعة، ونحوهم، فلم يتأثروا، لا في الأمراض الحسية، ولا في الأمراض المعنوية، وذلك كله تحقيق لقوله تعالى:

﴿وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقُرُّهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَٰئِكَ يُنَادُونَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٤].